تقدم الطالب بإجراء التصويبات
التي طلبت منه

المملكة العربية السعودية
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة
(الدراسات العليا)

منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه

إعداد

أنس أحمد كرزون

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٢٥٣٢

بإشراف فضيلة الشيخ

الدكتور أحمد أبو السعادات

١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى في كتابه الكريم :

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾
فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾
قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾
وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾

سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة الدكتوراه

(منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله تعالى)

تتضمن الرسالة تمهيداً وستة أبواب وخاتمة على النحو التالي :

أما التمهيد فقد خصصته للتعريف بمصطلحات البحث الأساسية وهي : المنهج والتزكية والنفس والدعوة .

أما الباب الأول : فقد جعلته للحديث عن النفس الإنسانية وصفاتها وبيان المناهج المختلفة فيها بما في ذلك مواقف الفلسفة وعلم النفس الحديث ، ومواقف الأديان الوضعية والديانتين اليهودية والنصرانية .

الباب الثاني : ركزت فيه على الأسس العقدية لتزكية النفس وهي : التوحيد ، والاعتصام بالكتاب والسنة ، والإيمان بالقضاء والقدر ، والإيمان باليوم الآخر .

وفي الباب الثالث : فصلت الحديث عن الأساليب العملية في التزكية ، وتتضمن عشرة مجالات تشمل العلم النافع ، والعمل الصالح ، المحاسبة والتوبة ، والمجاهدة ، وصحبة الصالحين ، والزواج ، والتفكر في المخلوقات ، وتذكر الموت وأهوال القيامة ، والترغيب والترهيب بالإضافة إلى بعض الأساليب المساعدة كضرب الأمثال والقصة والشعر .

وأما الباب الرابع : فقد خصصته لبيان أمراض النفس ومعوقات تزكيتها وعلاج ذلك .

وتنقسم الأمراض إلى قسمين : أمراض بسبب الشبهات ، وأمراض بسبب الشهوات .

كما تنقسم المعوقات إلى قسمين : تأثير الشيطان ، وتأثير الأسرة والمجتمع .

والباب الخامس : ناقشت فيه بعض المفاهيم المنحرفة في تزكية النفس والتي انتشرت بين الصوفية وبخاصة فيما يتعلق بغلوهم في الشيخ المرشد وإرهاق النفس والزهد والعزلة والرهبانية .

وأخيراً الباب السادس : وهو ثمرات تزكية النفس بالمنهج الإسلامي ويشمل : سعادة الدنيا والآخرة فهي السعادة الحقيقية لمن تحقق بالتزكية ومقام الإحسان نسأل الله أن يجعلنا كذلك .

والحمد لله رب العالمين .

الطالب / أنس أحمد كرزون

المشرف على الرسالة /

الدكتورأحمد أحمد شبل أبو السعادات

عميد كلية الدعوة وأصول الدين

د . عبد الله بن عمر الدميجي

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام ، ووفقنا للإيمان ، وأكرمنا ببعثة خير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسله المولى سبحانه مبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد :

فإن الله سبحانه خلق الإنسان وكرمه ، واختصه بخصائص ووظائف ، وأغدق عليه النعم والآلاء ، وسخر له العديد من المخلوقات ، ووهبه العقل ليميز به طريق الخير من طريق الشر ، وزوده بإمكانات فكرية وقدرات بدنية ليكون خليفة في الأرض يعمرها بالعمل الصالح

وقد شاءت حكمة الله سبحانه أن يكون للنفس البشرية قابلية التوجه للخير أو الشر ، وأن تتميز بخصائص وصفات تتجلى فيها بدائع قدرة الله سبحانه في خلقه ، فالنفس تلين وتقسو ، وتفرح وتأسى ، وتصبر وتجزع ، وترتدع وتكابر ، وتحس وتتبلد ، وتأمن وترهب ، وفيها دقائق وأعماق ، ولها أحوال وتقلبات .

والإنسان إذا أمسك بزمام نفسه ووجهها إلى طريق الخير فقد نال السعادة والفلاح وإذا أتبع نفسه هواها فقد خاب وخسر .

قال تعالى : ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾ (١)

ولقد تشعبت مسالك الناس قديماً وحديثاً في تعاملهم مع النفس ومواقفهم منها ، وشُغل بعضهم بالبحث عن كُنهها وماهيتها حتى أعياهم البحث و لم يظفروا إلا باضطراب يزيد النفس غموضاً ، ويزيد الإنسان شقاء وضلالاً ، و لم تتمكن الديانات المحرفة والفلسفات المختلفة من تحقيق التوازن والانسجام في الكيان الإنساني بل زادته تشتتاً وتعاسة لانحرافها عن الفطرة وإغراقها في الخرافات والعقائد الباطلة .

---

(١) سورة الشمس / الآيات من ٧ - ١٠

ويأتي علم النفس المادي الحديث الذي يعادي الدين ليشوه صورة النفس الإنسانية أسوأ تشويه ، ويحيل الإنسان إلى حيوان تتحكم فيه الغزائز ، وتضعف لديه معاني القيم حتى يصبح كالآلة جسداً بلا روح ، وقالباً بلا قلب ، وكياناً متمزقاً تتقاذفه الأهواء .

وفي خضم هذه الأمواج المتلاطمة من التيارات الفكرية والعقدية يقف الإنسان حائراً يبحث عن طريق للخلاص ومنفذ للنجاة يأنس إليه ويعيش في كنفه موفورالكرامة مستريح البال مطمئن النفس ..... ويتساءل بلهفة : أين أجد الحياة الطيبة والسعادة الحقيقية ، ومن يدلني عليها ؟

ولو أنه أصغى لنداء فطرته لعرف بداية الطريق ، فا لله سبحانه الذي خلق الإنسان وكرّمه لم يدعه يتخبط في هذه الحياة بلا منهج ولا دليل ، وإنما بيّن له طريق الهداية ليسير عليه وحذّره من طريق الضلالة ليبتعد عنه ، وفي ذلك صلاح نفسه وسعادتها في الدنيا والآخرة ، وكلما ازداد تمسكاً بطاعة ا لله سبحانه واستجابة لأمره كان تحققه .بمعاني الإيمان أكبر حتى يترقى في الدرجات إلى مقام الإحسان الذي هو أعلى مقامات الدين والثمرة العظمة لمنهجه القويم في تزكية النفس ،

ومن هنا تبرز **أهمية الحديث عن منهج الإسلام** في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى ا لله سبحانه ، **والتي يمكن تلخيصها في النقاط التالية :**

١- ضرورة إرشاد الناس وحثهم على العودة الصادقة إلى رحاب هذا المنهج وبيان مزاياه وثمراته اليانعة ، وأنه العلاج الناجح لما هم فيه اليوم من تخبط ضلال .

٢- الحاجة الملحّة لإبراز المنهج الإسلامي في تزكية النفس بصورته المشرقة المستقاة من الكتاب والسنة وماكان عليه سلف الأمة ، بعيداً عن الإفراط والتفريط ، وما علق به في

أذهان كثير من الناس من مفاهيم منحرفة كان لها آثارها السلبية في الماضي والحاضر .

٣- انخداع كثير من الناس بنظريات علم النفس المادي الحديث الذي يغفل الجانب الروحي والوازع الديني من الكيان الإنساني ، ويلغي من حسابه توجه النفس البشرية بفطرتها إلى خالقها ، وقد أدى هذا الانخداع إلى إنكار وجود منهج متكامل في الإسلام للتعامل مع النفس البشرية وإنما هي بزعمهم مجرد مواعظ وإرشادات خلقية[1] بعيدة عن واقع الحياة .

٤- بوادر الصحوة الإسلامية التي نشهد آثارها اليوم في كل مكان لابد لها من رعاية وحماية ، وهذا واجب العلماء والدعاة وطلاب العلم والباحثين والمربين ، ولابد أن تتضافر الجهود لتحقيق هذا الهدف ، لكي تسير الصحوة المباركة على منهج علمي تربوي يستقي من النبع الصافي ويستنير بهداه .

ولعلي من خلال هذا البحث المتواضع أكون قد أسهمت بما وفقني الله إليه في هذا المجال ، فلقد بذلت قصارى جهدي في توضيح منهج التزكية بأسلوب علمي مبسط ، **متبعاً الخطة التالية :**

١- استخلاص النصوص الشرعية من الكتاب والسنة المتعلقة بكل موضوع من موضوعات البحث مع تتبع أبرز أقوال العلماء والسلف الصالح مما له صلة بالموضوع ، وقد استهوتني كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم ، والإمام ابن رجب الحنبلي رحمهم الله بما حوت من معاني تربوية عظيمة ، وما تمثله من صفاء في المنهج ودفاع عنه وذود عن حياضه ، ومع ذلك فإنني لم أغفل الرجوع إلى كتب العلماء الآخرين لأنتقي منها ما يتلاءم مع طبيعة البحث وضوابطه ، ويثري موضوعاته

---

(١) من القائلين بهذه الدعوى أحمد أمين في كتابه (الأخلاق) ـ ص/ ١٥٧ .

ومباحثه . وأما صلة التزكية بالدعوة فقد آثرت أن لايخصص لها فصل وإنما يُركّز عليها في مختلف موضوعات البحث وجوانبه .

٢ـ تحري الدقة في الاستشهاد بالأحاديث النبوية ، حيث إن موضوعات التزكية والرقائق والمواعظ قد كثر فيها تساهل العلماء في إيراد الأحاديث دون تمحيص لأنها من باب الفضائل ، وقد صنّف بعض العلماء مصنفات مستقلة في هذا المجال من أبرزها المصنفات التالية :

- كتاب الزهد والرقائق للإمام عبد الله بن المبارك (المتوفى سنة ١٨١ هـ)
- كتاب الزهد للإمام وكيع بن الجراح (المتوفى سنة ١٩٧هـ)
- كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل (المتوفى سنة ٢٤١هـ)
- كتب عديدة للإمام الحارث بن أسد المحاسبي (المتوفى سنة ٢٤٣هـ)

ومن أشهرها (الرعاية لحقوق الله - الزهد - التوبة - آداب النفوس - رسالة المسترشدين)

- كتب كثيرة للإمام أبي بكر ابن أبي الدنيا (المتوفى سنة ٢٨١ هـ)

ومنها محاسبة النفس - التوكل على الله ـ الورع ـ ذم الدنيا ـ حسن الظن بالله ـ الصمت - الرقة والبكاء ..

- كتاب العزلة للإمام أبي سليمان الخطابي البستي (المتوفى سنة ٣٨٨هـ)

بالإضافة إلى كتب عديدة للإمام ابن الجوزي في المواعظ منها : (ذم الهوى ، وبحر الدموع ، وبستان الواعظين ، وصفة الصفوة ، والثبات عند الممات)

وقد حفلت أغلب هذه المصنفات بكثير من الأحاديث النبوية والآثار عن الصحابة والتابعين و لم تلتزم الصحة في إيراد هذه الروايات ، وإنما جمعت بين الصحيح والحسن والضعيف والموضوع ، بل إن الأحاديث الموضوعة والقصص الواهية قد انتشرت في بعضها بكثرة ، ولايخفى ما في هذه الرويات والقصص من تكدير لصفاء صورة المنهج الإسلامي في التزكية .

ومن هنا كان لزاماً على الباحث أن يتحرى الرويات الصحيحة وأن يضرب الصفح عما سواها قدر الإمكان .

٣- وقد اقتضت طبيعة البحث أن أُكثر من النقول عن النصوص والشواهد لإثراء الموضوع وتدعيمه ، فكنت أحرص أحياناً على نقل النص دون اختصار وأجعله بين قوسين ، وأكتفي بعض الأحيان بتلخيص النص والإحالة إلى مصدره ، وأشير في أحيان أُخر إلى موضوع ما فلا أجد داعياً للتوسع فيه وإنما أحيل إلى مصادره لمن رغب في ذلك .

وأما تراجم الأعلام الذين ورد ذكرهم في ثنايا البحث ، فقد أكتفيت بأن أترجم لمن أظنه غير مشهور ، خشية إثقال الحواشي بكثرة التراجم وإملال القارئ بتقليب النظر بين متن الموضوع وحواشيه ، ثم عقدت في أخر البحث فهرساً تفصيلياً للمراجع حرصت فيه على ذكر اسماء الأعلام كاملة مع تواريخ الوفاة إن أمكن ليكون ذلك تعريفاً بهم وإتماماً للفائدة .

أما بالنسبة للصعوبات التي واجهتني : فإن أبرزها أن ينهج الباحث أسلوب الدراسة العلمية المنهجية في موضوع تناوله معظم السابقين بأسلوب وعظي مجرد ، مع بذل الجهد في جمع شتات كل ما يتصل بهذا الموضوع ونظمها في عقد واحد دون تطويل مُملّ ولا اختصار مخلّ ، مع أن كل جانب من جوانب هذا البحث يصلح أن يكون موضوعاً لرسالة علمية مستقلة .

ولاشك أن موضوع تزكية النفس يُعد وحدة متكاملة تتصل فيه البدايات بالنهايات وتترابط فيه الأسس بالآثار والثمرات ، ولكني آثرت أن أقسم الموضوع إلى أبواب وفصول تمشياً مع ما تقتضيه طبيعة البحث العلمي وتيسيراً لمن أراد الرجوع إليه ، ولكن ذلك أدى إلى صعوبات جعلتني أقف حائراً في بعض الأحيان لإيجاد الموضع الملائم لبعض الموضوعات والقدر المناسب منها في ذلك الموضع ،

فالحديث عن الإخلاص مثلاً يبدأ مع بديات التزكية ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأساس الأول من أسسها وهو توحيد الله عز وجل ، كما يرتبط بجميع الشعائر والعبادات والتكاليف الشرعية وأنواع القربات التي هي من أبرز الوسائل العملية للتزكية ، ويبرز الحديث عنه أيضاً في موضوع أمراض النفس لبيان خطر الرياء وضرورة البعد عنه والحذر منه ، ويأتي الإخلاص عند الحديث عن ثمرات التزكية ليصبح ملكة وخلقاً أصيلاً يتحلى به أهل الإيمان .

ويطيب لي في نهاية هذه المقدمة أن أعرض مخططاً إجمالياً لموضوعات هذا البحث والذي قسمته إلى تمهيد وستة أبواب وخاتمة على النحو التالي :

ـ **أما التمهيد** فقد خصصته للتعريف بمصطلحات البحث الأساسية وهي : المنهج والتزكية والنفس والدعوة .

ـ **ثم انتقلت إلى الباب الأول** لإلقاء نظرة عامة على النفس الإنسانية وصفاتها وبيان المناهج المختلفة فيها . وقسمته إلى ستة فصول :

الفصل الأول : خلق الإنسان ومهمته في الحياة .

الفصل الثاني : النفس والفطرة .

الفصل الثالث : النفس وصلتها بالروح والعقل والقلب .

الفصل الرابع : صفات النفس الإنسانية وأحوالها .

الفصل الخامس : موقف الفلسفة وعلم النفس الحديث من النفس الإنسانية .

الفصل السادس : موقف الأديان من النفس وتهذيبها .

وقسمت هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث :

ـ تحدثت في المبحث الأول عن مواقف الديانات الوضعية من النفس ، وهي : الديانة المصرية القديمة ـ والبرهمية ـ والبوذية ـ والهندوسية ـ والمزدكية .

ـ وانتقلت في المبحثين الثاني والثالث إلى الحديث عن مواقف اليهودية والنصرانية من النفس وتزكيتها . بعد ما حل بهما من تحريف وتشويه .

ـ وأما الباب الثاني فقد خصصته لبيان الأسس العقدية لتزكية النفس .

وقسمته إلى أربعة فصول :

الفصل الأول : التوحيد .

الفصل الثاني : الاعتصام بالكتاب والسنة .

الفصل الثالث : الإيمان بالقضاء والقدر .

الفصل الرابع : الإيمان باليوم الآخر .

ـ وتحدثت في الباب الثالث عن الأساليب العملية في تزكية النفس .

وقسمته إلى عشرة فصول .

الفصل الأول : العلم النافع : فضله والشروط المطلوبة ليحقق دوره في التزكية ، وآثاره وثمراته .

الفصل الثاني : العمل الصالح ـ ويتضمن ستة مباحث خصص كل منها لموضوع من الموضوعات التالية :

الصلاة ـ الزكاة والصدقات ـ الصيام ـ الحج ـ الجهاد بأنواعه ـ النوافل وبخاصة تلاوة القرآن الكريم والذكر والدعاء وقيام الليل .

وقد تحدثت في كل موضوع عن فضل هذا العمل الصالح ومنزلته ، والشروط المطلوبة ليحقق دوره في تزكية النفس ـ وآثاره وثمراته .

الفصل الثالث : المحاسبة والتوبة وأهميتهما في تزكية النفس وما يعين عليهما .

الفصل الرابع : مجاهدة النفس ، والأدلة على وجوبها ومنزلتها ، وطريقتها والعوامل الميسرة لها .

الفصل الخامس : صحبة الصالحين والتأمل في أخبارهم وآثار ذلك في مجال التزكية .

الفصل السادس : الزواج وأهميته والشروط المطلوبة فيه ليحقق دوره في التزكية ، وآثاره وثمراته .

الفصل السابع : التفكر في المخلوقات ، ومجالات هذا التفكر وآثاره .

الفصل الثامن : تذكر الموت وأهوال القيامة وآثار ذلك في مجال تزكية النفس وترقيق قسوة القلب .

الفصل التاسع : الترغيب والترهيب وأهميتهما وآثارهما .

الفصل العاشر : الأساليب المساعدة في تزكية النفس ، وقسمته إلى ثلاثة مباحث . تحدثت في المبحث الأول عن القصة ودورها في التزكية ، وفي المبحث الثاني عن ضرب الأمثال ، والثالث عن الشعر ، كما ركزت على أهمية هذه الأساليب في الدعوة إلى الله تعالى .

- أما الباب الرابع فقد خصصته لبيان أمراض النفس ومعوقات تزكيتها وعلاج ذلك وقسمته إلى فصلين :

- تحدثت في الفصل الأول عن أمراض النفس وعلاجها ، وذلك ضمن مباحث ثلاثة .

المبحث الأول : صحة القلب ومرضه ، والحد الفاصل بين القلب السليم والقلب المريض .

المبحث الثاني : أمراض بسبب الشبهات ، ومن أبرزها الشرك والنفاق والبدعة . ثم ختمته ببيان العلاج من امراض الشبهات .

المبحث الثالث : أمراض بسبب الشهوات - ويتضمن الفقرات التالية :

أولاً - شهوتا حب النفس وحب الجاه وما ينتج عنهما من أمراض .

ثانياً - شهوة حب المال ونتائج طغيانها .

ثالثاً - شهوة البطن وخطر التمادي فيها .

رابعاً- شهوة الفرج ونتائج طغيانها والتدابير الوقائية التي شرعها الإسلام في هذا المجال .

ـ ثم ختمت هذا المبحث بالحديث عن العلاج الذي شرعه الإسلام للحد من طغيان الشهوات والنجاة من أخطارها

* وأما الفصل الثاني فقد أفردته للحديث عن معوقات التزكية ـ وقسمته إلى مبحثين :

المبحث الأول : تأثير الشيطان ـ وأسباب تمكنه من بعض النفوس وما يلقيه من شبهات وحيل نفسية ، والعلاج من مداخله وشروره .

المبحث الثاني : تأثير الأسرة والمجتمع والعلاج من أخطارهما .

ـ وانتقلت بعدها إلى الباب الخامس : مفاهيم منحرفة في تزكية النفس والرد عليها

وقسمته إلى تمهيد وخمسة فصول :

أما التمهيد فقد تحدثت فيه عن نشأة التصوف وموقف علماء السلف منه وما انتشر فيه من غلو وابتداع في مجال تزكية النفس ، وقد ركزت على أبرز مجالات هذا الغلو في الفصول التالية :

الفصل الأول : التزكية والشيخ المرشد .

الفصل الثاني : التزكية وإرهاق النفس .

الفصل الثالث : التزكية والزهد .

الفصل الرابع : التزكية والعزلة .

الفصل الخامس : التزكية والرهبانية .

ثم انتقلت إلى الباب السادس لبيان ثمرات تزكية النفس بالمنهج الإسلامي

وقسمته إلى فصلين تحدثت في الفصل الأول عن سعادة الدنيا ، وفي الفصل الثاني عن سعادة الآخرة .

* أما الفصل الأول فقد قسمته إلى مبحثين : المبحث الأول : سعادة الفرد ويتضمن الفقرات العشرة التالية :

حلاوة الإيمان ـ بذل النفس والمال في سبيل ـ عزة النفس ـ غنى النفس ـ سكينة النفس ـ سمو النفس ـ حسن الخلق ـ الحياة الطيبة ـ الفراسة والحكمة ـ صحة الجسد .

المبحث الثاني : سعادة المجتمع ، ويتضمن المجالات التالية :

الأخوة والمحبة ـ التكافل والتراحم ـ الأمن والوقاية من الجرائم ـ العز والتمكين .

وأما الفصل الثاني : فقد تحدثت فيه عن سعادة الآخرة ـ ويتضمن المباحث التالية :

المبحث الأول : السعادة عند سكرات الموت .

المبحث الثاني : السعادة في القبر .

المبحث الثالث : السعادة عند الحشر والحساب والصراط .

المبحث الرابع : السعادة العظمى ببلوغ الجنة ورؤية وجه الله سبحانه .

ويطيب لي في ختام هذه المقدمة أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الفاضل الدكتور أحمد أبو السعادات المشرف على البحث على مابذله من وقته وجهده ، وما أولاني من رعاية واهتمام ، وما استفدته من فضيلته من إرشادات وتوجيهات قيمة فجزاه الله كل خير .

كما لايفوتني أن أتوجه بالشكر إلى جامعة أم القرى إدارة ومدرسين على إتاحتهم لي فرصة الدراسة فيها ، وما بذلوه من رعاية كريمة مكنتني بعون الله وتوفيقه من إنجاز هذا البحث العلمي المهم .

سائلاً المولى عز وجل أن يرزقني الإخلاص في القول والعمل ، وأن ينفع بهذا البحث عباده ، ويحقق فيه ما نصبوا إليه جميعاً من تصحيح المفاهيم والأفكار المنحرفة وإرشاد المسلمين إلى النبع الصافي والمنهل العذب المورود الذي لايزيغ عنه إلا هالك .

وأسأله سبحانه أن يغفر لي هفواتي وزللي ، ويسدد خطاي ، ويثيب كل من ساهم في تقديم العون والإرشاد خلال السنوات التي قضيتها في إعداد هذه الرسالة .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ، والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد

يجدر بي قبل أن أعرض لموضوعات هذا البحث (منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى الله) ، أن أقف قليلاً عند مصطلحاته وهي : المنهج والتزكية والنفس والدعوة ، لألقي عليها الضوء ، وأوضح المعنى اللغوي منها والمعنى الذي أقصده من هذه المصطلحات الأربعة التي هي أركان لموضوعنا ودعائم أساسية له .

تعريف المنهج :

المنهج والمنهاج: الطريق الواضح ، وأنهجَ الطريق : وضح واستبان وصار نهجاً واضحاً بيّناً،وفي التنزيل قوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾[1] .

ونهجتُ الطريق : أوضحته ، ونهجتُه أيضاً : سلكتُه ، وهو يستنهج سبيل فلان : يسلك مسلكه[1] .

ومن هذا المعنى اللغوي استحدثت كلمة (منهاج) بمعنى : الخطة المرسومة ، ومنها منهاج الدراسة ومنهاج التعليم ونحوهما ، والجمع مناهج[3] .

وبهذا يكون تعريف (المنهج) اصطلاحاً بأنه : (النظام والخطة المرسومة للشيء)[4] أو بمعنى آخر : هو العلم الباحث في الطرق المستخدمة في العلوم للوصول إلى الحقيقة[5] .

أما فيما يتعلق بموضوع البحث (منهج الإسلام في تزكية النفس) فالمراد بالمنهج هنا ما شرعه الإسلام من طرق ووسائل لتزكية النفس والأسس التي ترتكز عليها تلك الوسائل لكي

---

(١) سورة المائدة / آية ٤٨ .

(٢) (لسان العرب) لابن منظور ٢/٣٨٣ .

(٣) (المعجم الوسيط) ٢/٩٥٧ .

(٤) المدخل إلى علم الدعوة – للدكتور محمد أبو الفتح البيانوني – ص/ ٤٥ .

(٥) مناهج البحث العلمي – الدكتور عبد الرحمن بدوي – ص/ ٧ .

تنتج الثمرات المرجوّة وتحقق الأهداف المقصودة التي يسعى إليها المسلم وهي / سعادة الدنيا والآخرة ، كما تحقق السعادة للمجتمع الإسلامي بأسره .

كما يشمل المنهج/ طريق علاج المعوقات في طريق التزكية والانحرافات عن هذا الطريق ، وكل هذا سنعرض له بالتفصيل بإذن الله في حينه .

تعريف التزكية :

التزكية في اللغة مأخوذة من زكا يزكو زكاءً . أي : نما وطَهر ، فالتزكية هي النماء والطهارة والبركة(١) ، والزكاة : زكاة المال ، وسميت بذلك رجاء البركة أو تزكية النفس أي تطهيرها من الشح ، أولهما جميعاً(٢) .

والزكاة من الأسماء المشتركة بين المُخرج والفعل ، فتطلق على العين ، وهي المال الذي دفع للزكاة.وعلى / المعنى وهوالتزكية(٣) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **والذين هم للزكاة فاعلون** ﴾(٤) فالزكاة هنا تحتمل المعنيين معاً : زكاة الأموال ، وزكاة النفوس(٥) .

والتدسية ضد التزكية ، كما قال تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دسّاها** ﴾(٦) ، وأصل التدسية الإخفاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **أم يدسه في التراب** ﴾(٧) فالعاصي يدسّ نفسه في المعصية ويحقرها(٨) .

---

(١) انظر (لسان العرب) - ٣٥٨/١٤ .
وقد زعم أصحاب دائرة المعارف الإسلامية أن كلمة (زكاة) ليست عربية أصيلة بل هي مأخوذة عن العبرية اليهودية ، من كلمة (زكوات) - دائرة المعارف الإسلامية (٣٥٥/١٠) .
وهذا الزعم لا يستند إلى حقيقة علمية ، فالثابت في كتب اللغة سبق العربية إلى هذه الكلمة وأنها أصيلة فيها وليست منقولة . (ينظر: تعليق الاستاذ مهدي علام على دائرة المعارف ٢٥٥/١٠)

(٢) المفردات في غريب القرآن / للراغب الأصفهاني - ص ٢١٣ .

(٣) لسان العرب ٣٥٨/١٤ .

(٤) سورة المؤمنون / آية ٤ .

(٥) ينظر (تفسير ابن كثير) ٢٣٨/٣ .

(٦) سورة الشمس / الآيتان ٩-١٠ .

(٧) سورة النحل / من الآية ٥٩ .

(٨) ينظر : الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي / للإمام ابن قيم الجوزية - ص/ ٨٤ .

قال الزجّاج : ﴿ دساها ﴾ جعلها ذليلة حقيرة خسيسة [1] .

وقال ابن قتيبة : أي أخفاها بالفجور والمعصية [2] .

وأصل الزكاة الزيادة في الخير ، ولن ينمو الخير إلا بترك الشر كما أن الزرع لا ينمو حتى يزال عنه الدغل [3] .

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله : (التزكية جعل الشيء زكياً ، إما في ذاته ، وإما في الاعتقاد والخبر ، كما يُقال عدَّلتُه : إذا جعلته عدلاً في نفسه أو في اعتقاد الناس قال تعالى : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾[4] أي تخبروا بزكاتها)[5] .

وقد وردت هذه الكلمة في مواضع عديدة من القرآن الكريم[6] ، فتارة تُنسب إلى الله تعالى وتارة تنسب إلى العباد ، ويمكنني أن ألخص المعاني التي وردت فيها كلمة (التزكية) في آيات القرآن الكريم في أربع نقاط :

١ – نسبت التزكية إلى الله سبحانه ، بمعنى الهداية والتوفيق في الدنيا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ بل الله يزكي من يشاء ﴾[7] ، كما نسبت إليه سبحانه في الآخرة ، بمعنى التطهير من دنس الذنوب للمؤمنين الطائعين ، ومنه قوله تعالى عن الكفار : ﴿ ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾[8] .

٢ – نسبت التزكية إلى الرسول ﷺ لأنه المربي والمزكي لأمته والمرشد إلى طريق الخير ، وهذه هي المهمة التي كلفه الله بها وأمره بأدائها .

(١–٣) ينظر : مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٦٢٨/١٠–٦٢٩ .

(٤) سورة النجم / من الآية ٣٢ .

(٥) مجموع الفتاوى ٩٧/١٠–٩٨ .

(٦) ذكر الإمام (الفيروزأبادي) في كتابه (بصائر ذوي التمييز) – ١٣٤/٣ – ما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي فيها الحديث عن التزكية والمعاني المقصودة بها ، وقسمها إلى أربعة عشر وجهاً لكنها جميعاً ترجع إلى المعاني الأربعة التي ذكرتها .

(٧) سورة النساء / آية ٤٩ .

(٨) سورة البقرة / آية ١٧٤ .

قال سبحانه : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ لقد منَّ ا لله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾[2] .

- وقال سبحانه : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾[3] .

٣ - ونسبت التزكية إلى العبد ، لأنه يزكي نفسه بالإيمان والمجاهدة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾[4] ، ويزكي أمواله بدفع الزكاة التي هي حق الفقير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾[5] ، ويزكي طعامه بالبحث عن الحلال الطيب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فلينظر أيها أزكى طعاماً ﴾[6] .

٤ - ووردت التزكية في القرآن الكريم ، في معرض الحديث عن دعوى التزكية،بأن يمدح الإنسان نفسه تفاخراً وتظاهراً بالصلاح والتقوى ، وهو شيء مذموم ومنهي عنه ، قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل ا لله يزكي من يشاء ﴾[7] ، وقال سبحانه : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾[8] .

والمقصود من التزكية في موضوعنا هذا هو المعنى الثالث من المعاني التي ذكرناها والذي يمكنني أن أعرفه بما يلي فأقول :

---

(١) سورة البقرة / آية ١٥١ .

(٢) سورة آل عمران / آية ١٦٤ .

(٣) سورة التوبة / من الآية ١٠٣ .

(٤) سورة الشمس / آية ٩ .

(٥) سورة البقرة / من الآية ٤٣ .

(٦) سورة الكهف / من الآية ١٩ .

(٧) سورة النساء / من الآية ٤٩ .

(٨) سورة النجم / آية ٣٢ .

تزكية النفس : (هو تطهيرها من نزعات الشر والإثم ، وتنمية فطرة الخير فيها مما يؤدي إلى استقامتها وبلوغها درجة الإحسان) .

ويؤكد هذا المعنى أن الرسول صلى الله عليه وسل فسّر التزكية ببلوغ مرتبه بالإحسان فقال ﷺ : (ثلاث من فعلهن فقد ذاق طعم الإيمان : من عَبَد الله عز وجل وحده بأنه لا إله إلا هو ، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام ، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة ، ولكن من أوسط أموالكم ، فإن الله عز وجل لم يسألكم خيرها ولم يأمركم بشرّها ، وزكّى نفسه، فقال رجل : وما تزكية النفس ؟ فقال : أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان)[1] .

ولا بد من التأكيد هنا أنه ليس المراد بتزكية النفس اقتلاع الأوصاف المذمومة منها ، لأن هذا يخالف طبيعة النفس وصفاتها وخصائصها التي خلقها الله عليها ، وإنما المقصود غلبة صفات الخير ، وضبط صفات الشر وتوجيهها بما يرضي الله سبحانه ، وبذلك يتم تطهير النفس من نزعات الشر والإثم ، والتخلي عن الأخلاق المذمومة والتحلي بالأوصاف المحمودة حتى يبلغ المسلم درجة الإحسان ، والمقصود بدرجة الإحسان ما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ عندما جاءه جبريل وسأله عن الإسلام والإيمان ثم قال له : (ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[2] .

وهذا يعني شعور العبد بالرقابة الإلهية وعدم غفلته عن الله سبحانه ، مما يؤدي إلى صلاح ظاهره وباطنه وإقامة أوامر الله في شؤون حياته كلها .

وقد ذكر هذا الحديث أركان الدين الثلاثة : الإسلام والإيمان والإحسان ، فعندما يصدق الإسلام والإيمان يجيء الإحسان نتيجة لازمة لهما .

تعريف النفس :

النفس لغة[3] تطلق على عدة معانٍ ، أبرزها المعاني الثلاثة التالية :

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ٢٠١/١ ، والبيهقي في السنن ٩٥/٤ ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة – حديث رقم / ١٠٤٦ .

(٢) رواه مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان – حديث رقم (٨) .

(٣) لسان العرب – مادة (نفس) – ٢٣٣/٦ ، والمفردات للراغب الأصفهاني ص / ٥٠١ بتلخيص وتصرف .

١ – النفس : بمعنى الروح ، يقال : خرجت نفس فلان ، أي روحه .

٢ – النفس : بمعنى ذات الشيء وحقيقته ، تقول : قتل فلان نفسه وأهلك نفسه ، أي : أوقع الإهلاك بذاته كلها ، فالنفس هنا تطلق على الإنسان جميعه ، ونفس الشيء : ذاته .

٣ – وتأتي أيضاً معنى ما يكون به التمييز

وجمع النفس أنفس ونفوس ، أما النَفَس فهو خروج الهواء ودخوله من الأنف والفم وجمعه أنفاس ، وهو كالغذاء للنفْس ، لأن بانقطاعه بطلانها .

وقد وردت (النفس) في القرآن الكريم في مواضع عديدة ، وتعددت معانيها بحسب سياق الآيات الكريمة الواردة فيها ، ولكن يمكن إجمال هذه المعاني في المجالات الخمسة التالية :

١ – النفس بمعنى الروح : ومنه قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ﴾[1] .

وذلك أن الكافر إذا حضرت وفاته تفرق روحه في جسده فتُخرجها الملائكة تنتزعها بشدة ، ويقال لأصحابها ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ أي أرواحكم ، وذلك توبيخاً وزجراً[2] .

٢ – النفس بمعنى الإنسان كله روحاً وجسداً : ومنه قوله تعالى : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفسٍ واحدة ﴾[3] ، أي إن خلق جميع الناس وبعثهم بالنسبة إلى قدرة الله سبحانه كمثل خلق إنسان واحد ، فالجميع هيّن عليه سبحانه .

٣ – النفس بمعنى القوى المفكرة في الإنسان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً ﴾[4] .

---

(١) سورة الأنعام / من الآية ٩٣ .

(٢) ينظر : تفسير ابن كثير – ١٥٧/٢ .

(٣) سورة لقمان / من الآية ٢٨ .

(٤) سورة النمل / من الآية ١٤ .

فاليقين الذي هو إدراك علمي نُسب إلى النفس ، كما هو واضح في قوله تعالى : ﴿ واستيقنتها أنفسهم ﴾ .

٤ – النفس بمعنى القلب ، وما يتصل به من الصدر والفؤاد وغيرهما، ومنه قوله تعالى : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ﴾[١] . وقوله سبحانه : ﴿ فأسرَّها يوسف في نفسه ولم يُبدها لهم ﴾[٢] . وبالتالي هناك صلة وثيقة بين النفس من جهة ، وبين القلب والصدر والفؤاد سوف نفصل الحديث عنها ، والنفس بهذا المعنى داخلة بلا شك في موضوع هذا البحث .

٥ – النفس بمعنى قوى الخير والشر في الإنسان :

وهذه النفس لها صفات وخصائص كثيرة ، فهي تحب وتكره ، وتسول وتوسوس وتنوي ، كما ترشد صاحبها إلى طريق الخير وتلومه على فعل الشر ، ولهذه النفس آثار ظاهرة في السلوك الإنساني .

ومعظم آيات القرآن الكريم التي ورد فيها ذكر (النفس) يقصد بها هذا المعنى، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾[٣] وقوله سبحانه : ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾[٤] وقوله عز وجل : ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾[٥] .

وإذا كان الفلاسفة قد أفاضوا في الحديث عن ماهية هذه النفس وحقيقتها[٦] فإن هذا لا يعدو أن يكون مجرد خبط في الظلام ، وما يهمنا هنا هو ما يتصل بصفات النفس وخصائصها كما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وكيفية التعامل مع هذه النفس لنرقى بها في درجات الكمال ، ونَسلم من شرورها وأخطارها ، وذلك بتزكيتها وفق المنهج الرباني .

(١) سورة الأعراف / من الآية ٢٠٥ .
(٢) سورة يوسف / من الآية ٧٧ .
(٣) سورة ق / من الآية ١٦ .
(٤) سورة النازعات / آية ٤٠–٤١ .
(٥) سورة القيامة / آية ٢ .
(٦) سأعرض مع النقد لموقف الفلاسفه من النفس . ينظر ص ٣٩ من هذا البحث .

ومن هنا يمكن تحديد تعريف النفس من خلال المعنيين الأخيرين بما يلي :

النفس[1] : هي شيء داخلي في كيان الإنسان لا تُدرك ماهيته ، جامع لكثير من الصفات والخصائص الإنسانية التي لها آثار ظاهرة في السلوك الإنساني ، وقابل للتوجه إلى الخير أو الشر .

والنفس بهذا المعنى تشمل الروح والقلب وكل ما في الإنسان من قوى الإدراك التي يميز بها بين الخير والشر ، وسوف يتضح هذا المعنى أكثر عند الحديث عن خصائص النفس البشرية وصفاتها وأحوالها .

تعريف الدعوة وصلتها بالتزكية :

الدعوة لغة : النداء والطلب ، يقال دعوت فلاناً ، أي ناديته

فالمعنى اللغوي للدعوة يتضمن الطلب والحث على الشيء .

والدعاة : قوم يدعون إلى هدىً أو ضلالة ، ورجل داعية إذا كان يدعو الناس ، أُدخلت الهاء فيه للمبالغة[2] .

أما اصطلاحاً فقد وردت كلمة (الدعوة) في أحد معنيين :

الأول : الدعوة بمعنى الدين بشموله ، وهو الإسلام . وقد وردت فيه عدة تعريفات منها :

: هي دين الله الذي ارتضاه للعالمين تمكيناً لخلافتهم ، وتيسيراً لضرورتهم ، وتكريماً لإنسانيتهم ، وإشاعة للحق والعدل فيما بينهم[3] .

وهذا التعريف يتضمن دعوات الأنبياء السابقين .

الثاني : الدعوة بمعنى التبليغ والنشر ، أي الدعوة إلى دين الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾[4] وقد عرفها الإمام ابن تيمية

---

(١) الأخلاق الإسلامية للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني ٢١٥/١ بتصرف وإضافة .

(٢) لسان العرب – مادة (دعا) ٢٥٨/١٤ .

(٣) الدعوة الإسلامية دعوة عالمية للشيخ محمد الراوي – ص ٥٩ .

(٤) سورة يوسف / من الآية ١٠٨ .

بقوله : (الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به ، وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا)[1] وهذا يتضمن الانتهاء عما نهوا عنه .

وإذا نظرنا إلى موضوع الدعوة كعلم له خصائصه وأهدافه ووسائله يمكننا أن نعرفه بما يلي: (هي العلم الذي به تُعرف كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق)[2] والشريعة بمفهومها العام شاملة للعبادات والمعاملات ، ولكن هذا التعريف يركز على جانب واحد من جوانب الدعوة وهو (التبليغ لدعوة الإسلام) مع أن هناك جانبين آخرين هما التعليم والتطبيق ، وهذه الجوانب الثلاثة هي عناصر الدعوة كما قام بها الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وبخاصة سيد الدعاة محمد ﷺ ، قال تعالى : ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾[3] .

فقد شمل قوله سبحانه : ﴿ **يتلو عليهم آياته** ﴾ البيان والتبليغ ، وهو العنصر الأول من عناصر الدعوة،كما شمل قوله سبحانه ﴿ **ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ التربية والتعليم الذي هو العنصر الثاني ، والتطبيق والتنفيذ وهو العنصر الثالث ، وذلك مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ **ويزكيهم** ﴾ لأن التزكية تربية النفس على تطبيق الإسلام وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، كما أن تعليم الحكمة فيه إشارة إلى التطبيق العملي لأن الحكمة – كما ذكر المفسرون [4] – هي السنة وهي بيان عملي للقرآن الكريم وتوجيه محكم للعمل بهديه ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ **واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة** ﴾[5] .

ومن هنا يمكن تعريف (الدعوة) اصطلاحاً بأنها :

(تبليغ الإسلام للناس ، وتعليمهم إياه ، وتطبيقه في واقع الحياة)[6] وجهاد المعارض له

---

(١) مجموع الفتاوى ١٥/١٥٧ .

(٢) الدعوة الإسلامية – للدكتور أحمد غلوش – ص/ ١٣ .

(٣) سورة الجمعة / آية ٢ .

(٤) ينظر مثلاً : تفسير الطبري ٢٨/٩٤ .

(٥) سورة الأحزاب / من الآية ٣٤ .

(٦) المدخل إلى علم الدعوة – للدكتور محمد أبو الفتح البيانوني – ص/ ١٧ .

وبهذا التعريف ندرك الصلة الوثيقة بين التزكية والدعوة ، فالتزكية ركن من أركان الدعوة ، والداعية الحق هو الذي لا يكتفي بالوعظ والتذكير وإنما يقوم بدور التربية والتزكية لنفسه وللمدعوين .

وقد يستشهد البعض بقوله تعالى : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ ﴾[1] ليستدل على أن معنى الدعوة قاصر على التبليغ والبيان فقط ، وأن التربية والتزكية أمور خارجة عن الدعوة وللإجابة عن هذه الشبهة لا بد من بيان أن هذه الآية الكريمة وردت في سياق إعراض الناس عن الدعوة ، فحيث يُعرض المدعوون عن الدعوة لا يُكلَّف الرسل الدعاة إلا بالبيان والتبليغ فقط ، أما الهداية فهي بيد الله سبحانه ، ولكن حين يستجيب المدعوون للدعوة ، فعلى الداعية تعليمهم دينهم والسعي لتطبيق هذا الدين في حياتهم وتزكية نفوسهم .

وقد كان الرسول ﷺ يجتمع مع من استجاب لدعوته في مكة المكرمة ، ويلتقي بهم في دار الأرقم ليعلمهم دينهم ويزكيهم ، واستمر الواقع العملي لدعوة الرسول ﷺ على هذه الطريقة في حياته ، ثم سار على هذا النهج أصحابه وأتباعه من بعده[2] .

ولكي ندرك الصلة الوثيقة بين التزكية والدعوة ، أردت أن أجعل الحديث عن أثر التزكية في الدعوة موزعاً على موضوعات البحث ، وليس مستقلاً في فصل خاص ، فالأسس العقدية لتزكية النفس هي في الوقت نفسه أسس للدعوة وركائز لها ، كما أن الوسائل العملية في التزكية هي وسائل للدعوة ، وأمراض النفس ومعوقات تزكيتها تعد من أبرز المعوقات في طرق الدعوة والدعاة ، وتأتي الثمرات دليلاً على بلوغ الدعوة أهدافها في تزكية نفوس المدعوين وتحقيق التزامهم بالإسلام قولاً وعملاً واستقامة وخلقاً .

❀ ❀ ❀

(١) سورة المائدة / من الآية ٩٩ .

(٢) المدخل إلى علم الدعوة – للدكتور محمد أبو الفتح البيانوني ، ص/ ١٩–٢٠ بتلخيص وتصرف .

الباب الأول

النفس الإنسانية وصفاتها

مع بيان المناهج المختلفة فيها

- **الفصل الأول** : خلق الإنسان ومهمته في الحياة .
- **الفصل الثاني** : النفس والفطرة .
- **الفصل الثالث** : النفس وصلتها بالروح والعقل والقلب .
- **الفصل الرابع** : صفات النفس الإنسانية وأحوالها .
- **الفصل الخامس** : موقف الفلاسفة وعلماء النفس الحديث من النفس الإنسانية.
- **الفصل السادس** : موقف الأديان من النفس وتهذيبها .
  - الأديان القديمة .
  - اليهودية .
  - النصرانية .

جامعة أم القرى مكة المكرمة
المكتبة المركزية
Umm al-Qura University

٢٢٥٢

الفصل الأول :

خلق الإنسان ومهمته في الحياة

قبل البدء بالحديث عن تزكية النفس الإنسانية لا بد من الوقوف عند حقيقة هذا الإنسان ووجوده ومهمته في الحياة .

وبالرجوع إلى آيات القرآن الكريم نجد تفصيلاً دقيقاً لمراحل خلق الإنسان وتكوينه ونشأته ، والعناصر التي تكون منها .

قال تعالى : ﴿ **وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً** ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ **هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً** ﴾[2] .

فالجسد الإنساني خلق من عنصرين هما الماء والتراب ، ومن امتزاجهما تكوَّن الطين الذي وصفه الله سبحانه بأنه طين لازب أي متماسك لزج .

قال تعالى : ﴿ **إنا خلقناهم من طين لازب** ﴾[3] .

ثم مرَّ هذه الطين في أطوار اسودَّ فيها حتى صار حمأً مسنوناً ، والحمأ هو الطين الأسود ، والمسنون هو المصوَّر بصورة إنسان أجوف .

قال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون** ﴾[4] والصلصال هو الطين اليابس كالفخار ، قال سبحانه : ﴿ **خلق الإنسان من صلصال كالفخار** ﴾[5] .

---

(١) سورة الفرقان / آية ٥٤ .

(٢) سورة غافر / من الآية ٦٧ .

(٣) سورة الصافات / من الآية ١١ .

(٤) سورة الحجر / آية ٢٦ .

(٥) سورة الرحمن / آية ١٤ .

وهذه المراحل هي بالنسبة لخلق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام ، وقد بدأ هذا الخلق من تراب الأرض ، وليس في ذلك أي فضل يميز الإنسان أو يعلي مكانته على غيره من الكائنات ولكن الذي يشرفه ويميزه هو الطَوْر الآخر الذي يقول الله سبحانه فيه :

﴿ **ثم سواه ونفخ فيه من روحه** ﴾[1] .

ويقول أيضاً : ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** ﴾[2] .

فالتسوية الإلهية للإنسان ونفخ الروح فيه ، هي من أوائل الأمور التي شرَّفت هذا المخلوق وجعلته كائناً عظيماً مكرماً ، وهذا التكريم يرجع إلى نفخ الروح فيه وما تبعه من عقل وفكر ، لا إلى نسبه الأرضي المادي .

وهذه النفخة من الروح وما تبعها من تكريم منحت الإنسان خصائص عديدة وميزته عن غيره من المخلوقات بميزات كثيرة من أبرزها في هذا المقام[3] :

١ - أن الله خلقه بيده ونفخ فيه من روحه

٢ - الفطرة السليمة التي تتجه للإيمان با لله وحده .

٣ - الإدراك الواعي بما وهبه ا لله من عقل .

٤ - الإرادة الحرة في اختيار طريق الخير أو الشر ، والقدرة على تنفيذ ما يختاره .

٥ - المسؤولية باعتبارها نتيجة للإرادة والقدرة .

وهكذا تكونت خصائص النفس الإنسانية وصفاتها وأحوالها ، ونشأ هذا المخلوق المتكامل بنظام دقيق يجمع بين متطلبات الجسد ومتطلبات الروح ، ويتولى العقل قيادته والإمساك بزمامه ، وتتولى الفطرة توجيهه إلى خالقه ، لكي يؤدي الدور والمهمة الملقاة على عاتقه إذا التزم بالمنهج الذي أُمر به ولم يحد عنه .

مهمة الإنسان في الحياة :

دلت آيات القرآن الكريم على أن الإنسان موضوع في هذه الحياة للابتلاء والاختبار . قال سبحانه : ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن**

(١) سورة السجدة / من الآية ٩

(٢) سورة الحجر / آية ٢٩ .

(٣) لمحات نفسية في القرآن الكريم للدكتور عبد الحميد الهاشمي - ص / ٤٩ بتصرف .

عملاً ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً، إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾[2] .

فا لله سبحانه خلق الإنسان من (أمشاج) أي أخلاط من الصفات والخصائص الجسدية والفكرية والنفسية[3] ليضعه موضع الابتلاء في الحياة ، كما منحه وسائل المعرفة وأهمها السمع والبصر ﴿ **فجعلناه سميعاً بصيراً** ﴾ لتكون عوناً له على تحديد طريقه في هذه الحياة ، والتعرف على الأدلة التي بثها ا لله في الكون ، وزوّده بالطاقة الإدراكية التي يدرك بها سبيل هدايته ورشاده ، وسبل ضلاله وفساده : ﴿ **إنا هديناه السبيل** ﴾ .

أما واقع حال الإنسان بعد ظروف الامتحان فهو إما أن يكون شاكراً ، وإما أن يكون كفوراً ، وهو بهذه النتيجة أو تلك ينال الجزاء بالثواب أو العقاب لتبرز ثمرة الامتحان[4] وقد أمر ا لله الإنس والجن بعبادته وكلفهم بالتكاليف الشرعية ليكون هذا هو موضوع الامتحان الذي يجازون عليه يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[5]

وبالرغم من أن هذا الأمر يشمل الإنس والجن ، إلا أن ا لله سبحانه ميز الإنسان عن الجن بأن جعله خليفة في الأرض ، وهذه المهمة داخلة في مفهوم العبادة .

قال تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم مالا تعلمون** ﴾[6] .

فالإنسان مكلف بمهمة عظيمة وهي الخلافة في الأرض وعمارتها بمقتضى المنهج الرباني ولذلك ميزه ا لله بخصائص وإمكانات ومنحه طاقات كثيرة من أبرزها طاقة المعرفة التي يسخر ا لله له بها ما في السموات والأرض .

---

(١) سورة الملك / من الآية ٢ .

(٢) سورة الإنسان / آية ٢-٣ .

(٣) ينظر : في ظلال القرآن ٦/٣٧٧٩ .

(٤) الأخلاق الإسلامية وأسسها - عبد الرحمن حبنكة الميداني - ١/٣٠٩ - ٣١١ بتصرف .

(٥) سورة الذاريات / آية ٥٦ .

(٦) سورة البقرة / آية ٣٠ .

قال تعالى : ﴿ **وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعاً منه** ﴾[1] .

ولقد كرم الله الإنسان بمهمة الخلافة التي منحها له ، كما كرّمه بالصورة الحسنة التي خلقه عليها . قال تعالى : ﴿ **وصوَّركم فأحسن صوركم** ﴾[2] وفضّله على كثير من خلقه قال تعالى : ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** ﴾[3] .

ومن مظاهر تكريم الله سبحانه للإنسان أمرُ الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام ، وهذا السجود لا يعني مجرد الإقرار بخلافة الإنسان في الأرض ، وإنما يعني أيضاً أن الملائكة مجندون بأمر الله سبحانه لمساعدة الإنسان على القيام بمهمة الخلافة التي اختبره الله بها لتكون مناط الجزاء في الحياة الآخرة ، كما أن امتناع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام يشير إلى دوره في محاولة منع الإنسان وصده عن تحقيق هذه الخلافة[4] .

وبهذه المهمة يعرف الإنسان لوجوده غاية ، ويحس أن لحياته قيمة ومعنى ، وأنه ليس ذرة تافهة ولا مخلوقاً سائباً يخبط خبط عشواء ، وإنما هو مخلوق مكلف يسير على هدى من ربه[5] .

قال تعالى : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾[6] .

ولذلك لا يصلح للخلافة إلا من كان طاهر النفس قد أُزيل رجسه ونجسه ، فللنفس نجاسة كما أن للبدن نجاسة ، ولكن نجاسة البدن تدرك بالبصر ، ونجاسة النفس لا تدرك إلا بالبصيرة ، وهذا معنى قوله سبحانه : ﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾[7] وقوله عز وجل : ﴿ **كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون** ﴾[8] ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن

---

(١) سورة الجاثية / من الآية ١٣ .

(٢) سورة التغابن / من الآية ٣ .

(٣) سورة الإسراء / آية ٧٠ .

(٤) استخلاف الإنسان في الأرض ـ للدكتور فاروق الدسوقي ـ ص / ١٥ .

(٥) الخصائص العامة للإسلام ـ للدكتور يوسف القرضاوي ـ ص / ١٢ .

(٦) سورة المؤمنون / آية ١١٥ .

(٧) سورة التوبة / من الآية ٢٨ .

(٨) سورة الأنعام / من الآية ١٢٥ .

طاهر القول والفعل ، فكل إناء بالذي فيه ينضح[1] .

وعندما غفل الناس عن الغاية التي خلقوا من أجلها والمهمة التي كلفوا بها ، انشغلوا بغايات أخرى جعلتهم شيعاً وأحزاباً ، وحولتهم عن إنسانيتهم ومكانتهم التي أكرمهم الله بها ، وبهذا وقع التناقض والاضطراب في الكيان الإنساني ، وتمزق الإنسان بين وجهتين مختلفتين ، وجهة الروح ووجهة الجسد[2] .

ومن هنا ندرك أهمية المعرفة الأولية بالإنسان ودوره في الحياة ، وأن الله سبحانه جعله وحدة متكاملة لا تتجزأ ، وخلقه من قبضة الطين ونفخة الروح ليكون بجانبه الطيني منجذباً إلى الأرض التي هو جزء منها ، كي يعمرها بالعمل الصالح ويقيم عليها العدل والأمن والحضارة ويؤدي دوره في الخلافة ، وليكون بجانبه الروحي منجذباً إلى الملأ الأعلى ، يستمد من أمر الله سبحانه المنهج الذي يسير على هديه ليؤدي دوره المكلف به ، وهكذا تظهر الصورة الحقيقية لمكان الإنسان في الكون ومهمته في الحياة .

ويبقى أن أقول إن هذا الربط الوثيق بين الأشياء التي خُلق منها الإنسان ، وبين المهمة التي كُلف بها ، يشير إلى التلازم الذي نظّمه الإسلام بين متطلبات الجسد ومتطلبات الروح ، فليس هناك طريق للآخرة مستقل عن طريق العمل في الدنيا ، إنما هو طريق واحد يجعل العمل عبادة والعبادة عملاً بانسجام فريد وترابط وثيق .

ومن هنا تظهر الصلة بين الحديث عن تزكية النفس وبين موضوع الخلافة ، فالإسلام ينظر إلى تزكية النفوس من خلال الدور الذي تؤديه في عمارة الأرض بالعمل الصالح وإقامة منهج الله فيها ، وليس من خلال سلوك فردي وعزلة ينقطع فيها المرء عمن حوله .

كما أن البعد عن تزكية النفس ، والتكالب على الحياة والانغماس فيها ، حوّل كثيراً من الناس عن الخصائص الفطرية التي صار بها الإنسان إنساناً ، والتي بدونها لا يملك أن يؤدي دوره في الخلافة ، حتى وصل الأمر إلى الحال التي نراها اليوم في ظل المدنية المعاصرة التي أطلقت العنان لشهوات الجسد وحطمت متطلبات الروح ، فأدت بالبشرية إلى التخبط والضياع ، وعاملت الإنسان بالمقاييس الآلية أو الحيوانية بعد أن دمرت خصائصه الإنسانية .

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ـ للإمام الراغب الأصفهاني ـ ص / ٩٦ .

(٢) الخصائص العامة للإسلام ـ ص ١٠٨ .

الفصل الثاني
النفس والفطرة

من حكمة الله سبحانه أنه حين خلق الخلق عرَّفهم بنفسه ، وأنه وحده المستحق للعبادة، قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا** ﴾[1]

ومن هنا كان الإيمان بالخالق سبحانه فطرة في النفس البشرية ، فطر الله الناس عليها ، وأخذ عليهم الميثاق بها وهم في عالم الذر ، وهذه الفطرة تتجه دائماً إلى معرفة الله سبحانه والإيمان به وتوحيده ، وقد دلت على هذه الحقيقة نصوص عديدة من الكتاب والسنة :

قال تعالى : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[2] .

فالله سبحانه يأمر بإخلاص العبادة له ، وهذا الأمر هو الذي فطر الله الناس عليه وجعل في قلوبهم الميل إليه ، وهو حقيقة الفطرة .

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ :

(ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تُنْتَج البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تُحسُّون فيها من جدعاء[3] ، ثم يقول أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : فطرة الله التي فطر الناس عليها ـ الآية ـ)[4] .

وهذا الحديث دليل واضح على أن الله سبحانه فطر الناس على الاتجاه للدين الحق ، ولو تُرك الإنسان على فطرته لما انحرف عن الإيمان الذي هو جبلّة في النفس ، وإنما يعدل عنه بتأثير والديه المنحرفين والبيئة السيئة المحيطة به .

---

(١) سورة الأعراف / من الآية ١٧٢ .

(٢) سورة الروم / آية ٣٠ .

(٣) الجمعاء : سليمة الأطراف مجتمعة الأعضاء ، والجدعاء : مقطوعة الاذن أو غيرها من الأعضاء .

(٤) رواه البخاري في الجنائز ـ باب : إذا أسلم الصبي فمات ـ ٢/٩٧ . واللفظ له .
ورواه مسلم في كتاب القدر ـ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ـ رقم (٢٦٥٨) .

وقد ضرب الرسول ﷺ مثلاً واقعياً للتأثير السيئ في تغيير الفطرة ، بالبهيمة الجمعاء السليمة من النقص والتشويه ، ولولا تعرض الناس لها بقطع بعض أطرافها كالأذن مثلاً لبقيت كما ولدت سليمة .

وكما أن البيئة لها تأثير سيئ في تغيير الفطرة وطمسها ، فكذلك وساوس الشياطين قد تستهوي النفس البشرية فتنحرف عن فطرتها وتنساق في طريق الضلال .

روى مسلم عن عياض المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : (ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علّمني يومي هذا : .. إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً)[1] .

ولذلك لا يسلم الإنسان من الانحراف عن الفطرة حتى لو نشأ منعزلاً عن البشر إذ لا يخلو أن تستهويه الشياطين ، لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق .

والله سبحانه لم يترك الناس لفطرتهم بل أرسل لهم الأنبياء والرسل يدعونهم إلى الهدى ويرشدونهم إلى استقامة الفطرة وسلامتها من الزيغ والضلال ، لأن الفطرة وحدها قد تنحرف ، وقد تتبلد فلا تحس ، وقد تعمى فلا تبصر ، وقد تنتكس وتنحط فتكفر بالله أو تعبد غيره كالبشر والحجر والبقر ، وكل ذلك من تأثير البيئة المنحرفة والتقليد الأعمى واستهواء الشياطين .

وإذا انحرفت الفطرة عن الحق ، فإن نتيجة ذلك تعطيل الحواس عن مهمتها التي خلقها الله لتكون عوناً للإنسان على معرفة الحق ، وقد أخبر المولى سبحانه عن حال هؤلاء المنحرفين فقال : ﴿ **وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ،**

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها – باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار – رقم/ ٢٨٦٥ .

(٢) سورة الأحقاف / من الآية ٢٦ .

أولئك هم الغافلون ﴾[١] .

ومما يدل على وجود الفطرة واتجاهها لخالقها أن الإنسان المنحرف عن الحق إذا ألمت به ضائقة أو حلت به كارثة سرعان ما يدعو ربه ويجأر إليه ويتوجه متذللاً لعظمته سبحانه وهذا دليل على يقظة الفطرة عند الشدائد ، وزوال الغشاوة عنها ، وعودتها إلى استقامتها وقد وردت آيات عديدة في كتاب الله عز وجل تقرر هذه الحقيقة ، منها قوله تعالى : **﴿ وإذا مسَّ الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضُرَّه مرَّ كأن لم يدْعُنا إلى ضر مسه ، كذلك زُين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾**[٢] .

وفي آيات أخرى عرض لنا الله سبحانه مشهداً حياً لحال الإنسان الذي أحاطت به الشدائد من كل مكان ، فزالت عنه فجأة كل شوائب الفطرة وتوجه إلى الله بكمال الإخلاص يدعوه بعد أن كان معرضاً عنه ، قال تعالى : **﴿ هو الذي يُسيّركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفُلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ﴾**[٣] .

وهكذا يهتدي الإنسان إلى فطرته عند الشدة ، ثم ترى البعض يزيغ عنها عند الرخاء وينساق وراء أهوائه التي تحوله إلى الحيرة والقلق نتيجة لما يحصل من تمزق وانقسام في نفسه .

ولقد وصف الرسول ﷺ ما يحصل في النفس من تردد واضطراب عندما تهم بفعل شيء يخالف الفطرة :

روى مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

(البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس)[٤] .

وعن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال : (أتيت رسول الله ﷺ فقال : جئت تسأل عن البر؟ قلت : نعم : قال استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ،

---

(١) سورة الأعراف / الآية ١٧٩ .

(٢) سورة يونس / آية ١٢ .

(٣) سورة يونس / آية ٢٢ ـ ٢٣ .

(٤) صحيح مسلم ـ كتاب البر والصلة ـ باب تفسير البر والإثم ـ رقم (٢٥٥٣) .

والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر)[1] .

وهذا تأكيد على أن الفطرة تهدي صاحبها إلى الحق وتوجه أحاسيسه إلى الخير ، وبها يستطيع أن يميز بين الخير والشر إن كانت فطرة نقية يقظة .

وإذا ما أقدم الإنسان على فعل شيء من الإثم ، فإن التردد والاضطراب والخجل من الناس ينغِّص عليه عمله ويشده إلى البعد عن هذا الإثم ، وهكذا يصبح واعظ الفطرة قائداً حكيماً يرشد إلى مواطن الخير ويبعد عن مواطن الزلل ، ويحمي الإنسان من شرور النفس الأمارة بالسوء .

وفي قول الرسول ﷺ : (البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب) دليل على أن الله سبحانه فطر عباده على معرفة الحق ، وأن النفس ستظل تحس بالتوتر والاضطراب إذا انحرفت عن الله حتى تتوجه إلى خالقها وتخلص له العبادة ، وعندها تستريح من القلق وتأمن من الخوف .

❀ ❀ ❀

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ـ ٢٢٨/٤ ، والدارمي في سننه ـ كتاب الرقائق (باب في البر والإثم) ـ ٢٧٩٢/٢ ، وحسَّنه الإمام النووي في الأربعين النووية ـ الحديث /٢٧ .

الفصل الثالث

النفس وصلتها بالقلب والعقل والروح

هناك أربعة ألفاظ يكثر إطلاقها على ما في داخل الكيان الإنساني من خصائص وصفات وما ينتج عنها من إدراك وإرادة واختيار ، وهذه الألفاظ هي : (النفس والقلب والعقل والروح) .

وقد اختلفت الآراء في تحديد معاني ومدلولات هذه الألفاظ ، وطبيعة الصلة التي تربط بينها ، والسؤال هنا :

- هل هذه الألفاظ متباينة يختلف بعضها عن بعض في المعنى ؟
- أو مترادفة تؤدي مدلولاً واحداً ؟
- أو بينها نقاط التقاء ونقاط اختلاف ؟

هذا ما سأعرض له إن شاء الله في هذا الفصل مسترشداً بآيات القرآن الكريم التي وردت فيها هذه الألفاظ ، وبما ذكره المفسرون فيها من أقوال .

وبما أنه قد سبق الحديث عن معنى النفس ومدلولاتها في القرآن الكريم ، فليكن تفصيل الحديث هنا عن الألفاظ الثلاثة (القلب ، والعقل ، والروح) وصلة هذه الالفاظ بالنفس ، والعلاقة التي تربط أحدها بالآخر .

أولاً – القلب :

ورد لفظ (القلب) في القرآن الكريم في آيات كثيرة ، ولدى البحث في دلالات هذه الآيات القرآنية يتضح أن القلب يمثل دائرة من دوائر النفس الإنسانية ، وأنه يتصف بالصفات التالية :

١ ـ القلب مستقر العلوم والمعارف الثابتة والعقائد الراسخة ، لذلك فهو مستقر الإيمان الصادق[١] ، قال تعالى : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا**

---

(١) ينظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ـ للشيخ عبد الرحمن حبنكة ـ ص / ٢٤٥ وما بعدها .

ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾[1] كما أنه محل الشك والزيغ عن الحق ، قال سبحانه : **﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾**[2] وقال تعالى في وصف المنافقين : **﴿ وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴾**[3] .

٢ ـ القلب محل الاعتبار والفهم والهداية .

ومنه قوله تعالى : **﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾**[4] .

فالقلب الحي اليقظ هو الذي تنفعه الذكرى وتؤثر فيه الموعظة ، كما أن القلب هو الذي يفتح أبوابه لسماع الحق أو يغلقها دونه ، وهو الذي تغشاه الغواشي فلا يستجيب لداعي الإيمان ، قال تعالى : **﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾**[5] وقال سبحانه : **﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾**[6] .

والران هو الغطاء على القلب بسبب المعاصي والآثام حتى ينطمس ذلك القلب ويُظلم ، وقد ورد في آيات أخرى التعبير عن هذا المعنى بالإقفال والأكنة والطبع والغواشي والختم على القلب ، وكلها حالات مرَضية يصاب بها القلب بسبب إعراضه عن الحق وإصراره على المعاصي ، وسنرى تفصيل ذلك عند الحديث عن أمراض النفس ومعوقات تهذيبها[7] .

٣ ـ القلب محل العواطف المختلفة .

قال تعالى : **﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ﴾**[8] .

وقال سبحانه : **﴿ فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾**[9] .

---

(١) سورة الحجرات / من الآية ١٤ .

(٢) سورة آل عمران / من الآية ٨ .

(٣) سورة التوبة / من الآية ٤٥ .

(٤) سورة ق / آية ٣٧ .

(٥) سورة محمد / آية ٢٤ .

(٦) سورة المطففين / آية ١٤ .

(٧) ينظر : الباب الخامس من هذا البحث ، ص /٢٢١.

(٨) سورة الحديد / من الآية ٢٧ .

(٩) سورة الحديد / من الآية ١٦ .

فالقلب محل الرأفة والرحمة كما أنه محل القسوة ، وغير ذلك من العواطف والانفعالات المختلفة كالخوف والوجل والغل والحب والكراهية والشجاعة والجبن[1] .

والإمام الغزالي يعرف القلب فيقول : (هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان ، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، هو المخاطب والمعاقب والمطالب)[2] .

وهناك لفظان آخران وردا في القرآن الكريم ولهما صلة وثيقة بلفظ (القلب) وهما (الصدر) و (الفؤاد) ، ولكي ندرك تلك الصلة نقف عند بعض الآيات القرآنية التي تبين أوصاف كل منها وخصائصه :

قال تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون** ﴾[3] .

وقال سبحانه : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين** ﴾[4] .

فالصدر هو الذي ينشرح لقبول الإيمان وهو الذي يحصل فيه الحرج والضيق ، والشرح يعبر عن راحة النفس واطمئنان القلب إلى الإيمان ، أما الضيق فهو اضطراب النفس وقلقها .

كما أن الصدر هو الذي يحصل فيه الكِبْر : ﴿ **إنْ في صدورهم إلا كِبْر ما هم ببالغيه** ﴾[5] . وهو الذي يحمل الغل والبغضاء : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غِل** ﴾[6] ، وهو الذي تصل إليه وساوس الشيطان : ﴿ **الذي يوسوس في صدور الناس** ﴾[7] ، وهو الذي تتركز فيه الأمراض النفسية كالحرج والغل والحسرة ، لذلك كان القرآن الكريم شفاء

---

(١) ينظر تفصيل ذلك في كتاب الأخلاق الإسلامية للشيخ عبد الرحمن حبنكة ـ ٢٦٣/١ وما بعدها .

(٢) إحياء علوم الدين ٢/٣ .

(٣) سورة الأنعام / آية ١٢٥ .

(٤) سورة الزمر / آية ٢٢ .

(٥) سورة غافر / من الآية ٥٦ .

(٦) سورة الأعراف / من الآية ٤٣ .

(٧) سورة الناس / آية ٥ .

لما في الصدور ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾[1] .

ومن هنا ندرك الترابط الوثيق بين القلب والصدر وأنهما يشتركان في الصفات والخصائص إلا أن دائرة الصدر أوسع من دائرة القلب ، ويستأنس لهذا المعنى بقوله تعالى : ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾[2] .

وأما الفؤاد فهو القلب ، وقيل وسطه ، وقيل الفؤاد غشاء القلب ، والقلب حبته وسويداؤه[3] وقد ورد ذكره في عدد من آيات القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً** ﴾[4] ، وقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ **فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم** ﴾[5] ، وقوله تعالى : ﴿ **وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك** ﴾[6] .

العقل :

هناك قول شائع بأن العقل يمثل الإرادة وأن القلب يمثل العاطفة ، وأنه إذا تحرك القلب بطل عمل العقل ، ولكن هذا القول لا تؤيده النصوص القرآنية التي ورد فيها الحديث عن القلب وخصائصه وصفاته ، فأحياناً نلمس من تلك الآيات الكريمة أنها تتحدث عن صورة من صور العقل أو عن العقل ذاته ، وأحياناً نشعر أننا أمام العاطفة والأحاسيس والمشاعر ، وأحياناً نجد أنفسنا أمام جانب يجمع بين الجانبين العقلي والعاطفي ويزيد عليهما عمقاً وبعداً آخر[7] .

---

(١) سورة يونس / آية ٥٧ .

(٢) سورة الحج / من الآية ٤٦ .

(٣) ينظر : لسان العرب ٣٢٩/٣ .

(٤) سورة الإسراء / آية ٣٦ .

(٥) سورة إبراهيم / من الآية ٣٧ .

(٦) سورة هود / من الآية ١٢٠ .

(٧) مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ـ د . محمد علي الجوزو ـ ص/١٨٥ وما بعدها .

ولذلك كان من الضروري استعراض بعض الآيات القرآنية التي تبين الصلة بين العقل والقلب ، وبالتالي الصلة بين العقل والنفس الإنسانية ، على اعتبار أن القلب دائرة من دوائر النفس .

وأبرز آية في القرآن الكريم تبين مدى الالتقاء بين العقل والقلب هي قوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾[1] .

فالقلب هنا يعقل ، لكنه لا يقصد به العقل ذاته وإنما شيء أعمق ، كما أن الأذن لا يقصد بها الأذن ذاتها ، والدليل تتمة الآية ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب** ﴾ بحيث أسندت (العماية) إلى القلب ، فهناك إذن بصر وبصيرة ، وهناك رؤية عينية ورؤية قلبية ، والبصيرة هي الرؤية الإيمانية التي تضيء القلب بنور الإيمان فيرى الوجود بعين البصيرة لا بعين البصر[2] .

كما وردت في كتاب الله عز وجل آيات أخرى تمثل اللقاء بين العقل والقلب في الارتباط بالمعرفة أولاً ، وبالحواس التي تساعد على معرفة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه** ﴾[3] ، وقوله سبحانه :﴿ **وطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون** ﴾[4] ، وقوله عز وجل : ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها ولم أعين لا يبصرون بها ولم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾[5] .

فالفقه والعلم مكانهما القلب ، وهذا يؤكد أهمية القلب بالنسبة للمعرفة ، كما يؤكد أهمية اللقاء بين العقل والقلب ، وأن أحدهما لا ينفك عن الآخر ، لكنهما يختلفان في بعض الجوانب ، وبالتالي يمكن القول بأن بينهما عموماً وخصوصاً وجهياً،

---

(١) سورة الحج / آية ٤٦ .

(٢) مفهوم العقل والقلب ـ د . محمد علي الجوزو ـ ص / ١٨٥ وما بعدها .

(٣) سورة الإسراء / من الآية ٤٦ .

(٤) سورة التوبة / من الآية ٨٧ .

(٥) سورة الأعراف / آية ١٧٩ .

فهما يشتركان في الناحية الفكرية ، يختص القلب بالناحية الوجدانية ، ويقتصر العقل على الدراسة والفهم والمعرفة[1] .

وبمعرفة الصلة بين العقل والقلب نتعرف على الصلة بين العقل والنفس على اعتبار أن القلب يمثل دائرة من دوائر النفس البشرية .

الروح :

الصلة بين النفس والروح صلة وثيقة ، لكن هل هما شيء واحد أو بينهما اختلافاً ؟ هذا ما تعرض له الإمام ابن القيم رحمه الله ، حيث أورد في كتابه (الروح) الأقول الواردة في هذا المجال ، ثم ناقش الأمر باستعراض معاني كل منهما كما وردت في القرآن الكريم[2] ، والمقصود هنا الروح التي بها حياة الإنسان ، وبخروجها يكون الموت .

وملخص القول أن هناك من يقول إن النفس والروح شيء واحد ، يقال فاضت وخرجت نفسه ، كما يقول خرجت روحه .

وهناك قول بأن الروح غير النفس ، ولكن قوام النفس بالروح ، فالنفس تميل إلى الدنيا لما جبلت عليه من الغرائز ، والروح تدعو إلى الآخرة وتؤْثرها[3] .

وقد أشار الإمام ابن كثير رحمه الله إلى الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها واستخلص أن الروح هي أصل النفس ومادتها ، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن ، فهي هي من وجه لا من كل وجه[4] .

وبهذه النتيجة تتحدد الصلة بين الروح والنفس دون أن نخوض في الحديث عن ماهية الروح وأسرارها ، لأن هذا مما اختص الله بعلمه ، ولا يملك الإنسان أن يصل فيه إلى علم يقيني .

---

(١) مفهوم العقل والقلب ـ ص / ٢٧٥ .

(٣) (٢) الروح ـ ص / ٢١٧ وما بعدها

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ـ ٦١/٣ .

قال تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾[1] .

وقد روى البخاري ومسلم عن أبن مسعود ﷺ قال : " بينما أنا مع مع رسول الله ﷺ وهو يتوكأ على عسيب مرَّ بنفرٍ من اليهود ، فقال بعضهم : سلوه عن الروح ؟ وقال بعضهم : لا تسألوه لا يُسمعكم ما تكرهون ، فقاموا إليه فقالوا : يا أبا القاسم حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ينظر ، فعرفتُ أنه يوحى إليه ، فتأخرت حتى صعد الوحي ، ثم قال : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ فقال بعضهم لبعض : قد قلنا لكم لا تسألوه "[2] .

---

(١) سورة الإسراء / آية ٨٥ .

(٢) رواه البخاري ـ كتاب العلم ـ باب قوله الله تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) ـ ١/٤٠ ، ومسلم ـ كتاب صفات المنافقين ـ رقم ٢٧٩٤ .

الفصل الرابع
صفات النفس وأحوالها

هذا الفصل يتناول مبحثين اثنين ، أولهما عن صفات الإنسانية ، وثانيهما عن أحوال تلك النفس .

المبحث الأول
صفات النفس الإنسانية

القرآن الكريم كتاب أنزله الله سبحانه لهداية النفس البشرية ، فهو يخاطب النفس ويوجهها ، وفي سبيل هذا التوجيه يكشف للإنسان عن بعض أسرار نفسه وخصائصها وصفاتها المحمودة والمذمومة ، ومن أبرزها الذي يهمنا في موضوعنا هذا :

١ ـ قابلية النفس للخير والشر :

أودع الله سبحانه في النفس الإنسانية خصائص القدرة على إدراك الخير والشر ، والتمييز بينهما ، والاستعداد لهما .

قال تعالى : ﴿ **ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها** ﴾[١] .

وقال عزوجل : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾[٢] ، أي : بيّنا له الطريقين ، طريق الخير وطريق الشر .

وقال سبحانه : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾[٣] .

وهذه الآيات الكريمة تشير إلى أن طبيعة الإنسان قابلة للخير والشر ، وأنه مزود باستعدادات لعملهما ، وقادر على التمييز بينهما ، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير

---

(١) سورة الشمس / الآيتان ٧ـ٨ .

(٢) سورة البلد / آية ١٠ .

(٢) سورة الإنسان / آية ٣ .

وإلى الشر ، وهو مسؤول ومحاسب بما منحه الله من عقل فيه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه[1] .

ولذلك اتصفت النفس بأن لها أحوالاً ، فهي تارة تسول وتوسوس وتغوي وتارة تلوم صاحبها على فعل الشر وتأمره بالخير ، وتارة تكون في حالة بين هذا وذاك ، وهذا ما سنراه تفصيلاً بعد صفحات عند الحديث عن أحوال النفس .

غير أن المهم هنا بيان أن الطبيعة الإنسانية تجعله يميل أحياناً لشهوات الجسد حتى تسيطر عليه ، وينطلق أحياناً من هذه السيطره مستجيباً لنداء الروح فيعود إلى فطرته الحقه ، ووضعه الطبيعي الذي ميّزه الله به على سائر المخلوقات .

وليس الجسم ولا الاستجابة لدوافعه هما منبع الشر في حياة الإنسان ، إنما الشر أن يتولى الجسم قيادة هذا الكائن البشري المترابط فتنطمس إشعاعة الروح المضيئة ، ويهبط الإنسان إلى مستوى أسوأ من مستوى الحيوان ، لأنه لا يستخدم طاقاته الروحية ، قال تعالى: **﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾**[2] .

فهو أضل من الحيوان لأن الحيوان ليس مطالباً بالارتقاء الروحي ، ولا قادراً عليه ، وإنما هو على فطرته الطبيعية حين يأتي ما يأتي من أعمال[3] .

ولو شاء الله سبحانه لجعل لجميع النفوس طريقاً واحداً ، هو طريق الهدى ، لكن إرادة الله اقتضت أن لا يكون الإنسان مجبوراً على فعل شيء بل جعل فيه طبيعة خاصة يملك معها الهدى والضلال ، ويؤدي دوره في هذا الكون بهذه الطبيعة الخاصة التي فطره الله عليها ، ويكون جزاءه إذا سلك طريق الضلال العقاب في نار جهنم[4] .

قال تعالى : **﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾**[5] .

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ، ٣٩١٨/٦ ، بتصرف .
(٢) سورة الأعراف / آية ١٧٩ .
(٣) دراسات في ال نفس الإنسانية ـ لمحمد قطب ـ ص٣٤٠ .
(٤) ينظر : في ظلال القرآن ٢٨١١/٥ .
(٥) سورة السجدة / آية ١٣ .

فالنفس الإنسانية ذات إرادة حرة غير مجبرة ، وهذه أهم صفة من صفات النفس وخصائصها .

٢ ـ الصفات المتقابلة في النفس البشرية(١) :

من عجائب التكوين البشري وجود خطوط متقابلة في النفس ، كل اثنين منهما مختلفان في الاتجاه ، ومن أبرزها ، الخوف والرجاء ، والحب والكره ، السلبية والإيجابية ... وغيرها .

وهذه الصفات المتقابلة المتوازية تؤدي مهمتها في ربط الإنسان بالحياة ، وفي الوقت ذاته توسع أفقه وتعدد جوانبه فلا ينحصر في نطاق واحد ، وبذلك يتحقق للإنسان كيان فريد يرجع إلى النشأة العجيبة المعجزة : قبضة الطين ونفخة الروح .

ومن الخطأ تفسير النفس بأي من هذه الصفات وحدها دون بقية الصفات ، لأن النفس تعمل بمجموعها كله ، وكل تفسير لها بجزء منفصل ومستقل ، هو تفسير مشوه وخاطئ .

ومن هذه الصفات : الخوف والرجاء ، فالنفس بطبيعتها تخاف وترجو ، والخوف والرجاء يوجهان اتجاه الحياة ويحددان للإنسان أهدافه وسلوكه ومشاعره وأفكاره ، فعلى قدر ما يخاف ونوع ما يخاف ، وعلى قدر ما يرجو ونوع ما يرجو ، يتخذ لنفسه منهج حياته .

وهاتان الصفتان أوسع وأعمق الصفات المتقابلة في النفس البشرية ، ويجيئ الحب والكره تاليين لهما، حين يتسع عالم الإنسان قليلاً ويشرع في الخروج من ذاته وينشئ صِلات بمن حوله .

والله سبحانه يوجه في آيات القرآن الكريم هذه المشاعر النفسية ، ويهذبها ، ويبين أن هناك مخاوف زائفة لا تقدم ولا تؤخر ، وهكذا تتحرر النفس من كل خوف فاسد وكل رجاء منحرف ، وتتوجه الوجهة الصحيحة لتواجه الحياة قوية عزيزة مطمئنة إلى قدر الله .

كما أن آيات القرآن الكريم تربط التوجيهات والأوامر والنواهي بهاتين الصفتين المتقابلتين في النفس ، وهما الخوف والرجاء ، لكي يغرس فيها التوجه إلى الخير بقوة تصل إلى قرارة النفس .

(١) ينظر : دراسات في النفس الإنسانية ـ لمحمد قطب ـ ص٧١ ، وما بعدها ، منهج التربية الإسلامية للمؤلف نفسه ١/١٢٦ ، وما بعدها .

والحب والكره صفتان أخريان من صفات النفس البشرية ، تشملان مساحة واسعة من النفس ، ومساحة واسعة من الحياة ، فالإنسان يحب نفسه ، كما يحب كل ما يحقق له شهوات هذه النفس وملذاتها ورغباتها من مال ومتاع وجاه وسلطان .

قال تعالى : ﴿ **إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد** ﴾[1] ، كما أنه يكره العوائق المادية أو المعنوية التي تقف في سبيل رغباته ، ويبخل بما عنده من مال ومتاع خشية تفويت مطالبه وشهواته ، قال تعالى : ﴿ **وأُحضرت الأنفس الشح** ﴾[2] ، وقد وصفت آيات القرآن الكريم النفس بأن لها هوى ، وهو ما تهواه من مطالب وحاجات ومتع ولذات .

قال تعالى : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾[3] ، وبيّن الله سبحانه أن الإنسان ينبغي أن يكون ملتزماً بالشرع ، وأن الانقياد وراء الشهوة يحطم النفس ويأسرها ، وأن الحب الحقيقي للنفس توجيهها لما فيه سعادتها في الدنيا والآخرة وصيانتها عن مذلة العبودية للشهوات .

قال تعالى : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى** ﴾[4] ، وقال سبحانه : ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[5] .

وكثيراً ما يميل الإنسان إلى إيذاء الآخرين وكراهتهم تحقيقاً لهوى نفسه ، ولذلك كانت النفس موضعاً لكثير من الصفات المذمومة التي حرص الإسلام على تهذيبها وتوجيهها ، ولعل من أبرزها التكبر والاستعلاء على الآخرين ، قال تعالى : ﴿ **لقد استكبروا في أنفسهم** ﴾[6] ، وكذلك الحسد ، قال تعالى : ﴿ **حسداً من عند أنفسهم** ﴾[7] ـ وغيرهما من أمراض النفوس التي ستكون موضع البحث في الباب الرابع إن شاء الله .

---

(١) سورة العاديات / الآيات ٦-٨ .

(٢) سورة النساء / من الآية ١٢٨ .

(٣) سورة النجم / آية ٢٣ .

(٤) سورة النازعات / الآيتان ٤٠-٤١ .

(٥) سورة التغابن / من الآية ٩ .

(٦) سورة الفرقان / من الآية ٢١ .

(٧) سورة البقرة / من الآية ١٠٩ .

٣ ـ الإدراك على اختلاف مستوياته[1] :

دلت النصوص القرآنية على أن الإدراك العلمي على اختلاف مستوياته من الصفات التي تتصف بها النفس الإنسانية ، ففي مستوى اليقين وصف القرآن الحالة النفسية لفرعون وقومه أمام الآيات التي جاءهم بها موسى عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً** ﴾[2] .

وفي مستوى الظن الباطل وصف القرآن حالة المنافقين في غزوة أحد ، قال تعالى : ﴿ **وطائفة قد أهمَّتهم أنفسهم يظنون با لله غير الحق ظنَّ الجاهلية** ﴾[3] .

وبين هذين المستويين الأعلى والأدنى سائر المستويات الإدراكية التي من خصائها معرفة طريق الفجور وطريق التقوى .

٤ ـ القدرة على إخفاء المطالب والمشاعر[4] :

من صفات النفس القدرة على إخفاء مطالبها ومشاعرها في ذاتها ، وقد وردت هذه الصفة في آيات عديدة من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ **يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك** ﴾[5] ، وقوله سبحانه : ﴿ **فعسى ا لله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسرُّوا في أنفسهم نادمين** ﴾[6] ، وقوله تعالى : ﴿ **فأسرَّها يوسف في نفسه ولم يُبدها لهم** ﴾[7] .

وقد بين سبحانه أنه مطلع على خفايا النفوس ، وأن النفس إذا أخفت الشر والمعصية عن الناس فإن هذا لا يخفى على علاّم الغيوب سبحانه .

قال تعالى : ﴿ **واعلموا أن ا لله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن ا لله غفور حليم** ﴾[8] .

---

(١) الأخلاق الإسلامية ـ عبد الرحمن حبنكه ـ ١/٢٢٦ .
(٢) سورة النمل / من الآية ١٤ .
(٣) سورة آل عمران / من الآية ١٥٤ .
(٤) الأخلاق الإسلامية ١/٢٢٨ .
(٥) سورة آل عمران / من الآية ١٥٤ .
(٦) سورة المائدة / من الآية ٥٢ .
(٧) سورة يوسف / من الآية ٧٧ .
(٨) سورة البقرة / من الآية ٢٣٥ .

المبحث الثاني

أحوال النفس

من خلال الآيات القرآنية التي ورد فيها الحديث عن النفس الإنسانية وصفاتها وأحوالها يتبين لنا أن هناك ثلاثة أحوال للنفس وهي : النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة .

١ ـ النفس الأمارة بالسوء :

عندما تنحط النفس البشرية فتميل عن طبيعة الفطرة التي فطرها ا لله عليها ، فإنها تأمر صاحبها بالشر وتسوِّل له الإقدام على فعله ، وتغوي بارتكاب المحرمات ، وقد ورد الحديث عن هذه الحالة من حالات النفس في قوله تعالى : ﴿ **وما أبرِّئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم** ﴾[١] .

وقوله تعالى على لسان السامري الذي صنع لبني إسرائيل عجلاً يعبدونه : ﴿ **وكذلك سوَّلت لي نفسي** ﴾[٢] .

ووصف النفس في هذه الحالة بالأمَّارة بالسوء ، يفيد المبالغة في أمرها لصاحبها بالسوء وإبعاده عن الخير .

وقد عرَّف (الجرجاني) النفس الأمارة بقوله :

" هي التي تميل إلى الطبيعة البدنيه ، وتأمر باللذات والشهوات الحسية ، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية ، فهي مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمية "[٣] .

فالنفس تميل لتكون أمارة بالسوء إلا التي رحمها ا لله وحفظها فارتقت وسمت .

وقد ختمت الآية الكريمة التي ذكرت النفس الأمارة بقوله تعالى : ﴿ **إن ربي غفور رحيم** ﴾ أي عظيم المغفرة لمن تاب ورجع عما يعتري نفسه من الأمر بالسوء والحض عليه ،

---

(١) سورة يوسف / آية ٥٣ .

(٢) سورة طه / من الآية ٩٦ .

(٣) التعريفات للجرجاني ـ ص٢٤٣ .

ورحيم فيعصم النفس من الجريان دائماً على موجب هذه الحالة النفسية[١] ، وإنما يتداركها لتكون في حالات أخرى لوّامة أو مطمئنة ، وهذا ما تميز به الإنسان من القابلية للخير والشر، والنفس الأمارة توسوس وتسوِّل وتغوي ، كما قال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾[٢] ، وقال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام : ﴿ **بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً** ﴾[٣] .

وقال عزوجل في الحديث عن قصة قابيل : ﴿ **فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين** ﴾[٤] ، أي زيّنت له الإقدام على هذه الجريمة وحسّنت له فعلها[٥] ، وهذه الصفات التي تتصف بها النفس الأمارة هي نفس الصفات التي وصف الله بها إبليس اللعين في معرض التحذير منه ، وبيان خطره وعداوته للبشر .

- فهو يوسوس للإنسان ، كما قال تعالى آمراً عباده بالاستعاذة من شره : ﴿ **من شر الوسواس الخناس * الذي يوسوس في صدور الناس** ﴾[٦] .

- وهو يسوِّل للإنسان إرتكاب المنكر أي يزيِّنه له ويحسنه حتى يقع فيه .

قال تعالى : ﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ، الشيطان سوّل لهم وأملى لهم** ﴾[٧] .

- وهو يغوي ويضل، كما قال تعالى: ﴿ **ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً** ﴾[٨].

وهكذا تلتقي عداوة الشيطان ومكره ووساوسه مع وساوس النفس الأمارة بالسوء ليكون كلاهما عدواً للإنسان يجره إلى المعصية ويصرفه عن الطاعة .

---

(١) روح المعاني - للألوسي - ٣/١٣ .

(٢) سورة ق / آية ١٦ .

(٣) سورة يوسف / من الآية ١٨ .

(٤) سورة المائدة / آية ٣٠ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢/٤٥ .

(٦) سورة الناس / الآيتان ٣-٤ .

(٧) سورة محمد/ آية ٢٥ .

(٨) سورة النساء / من الآية ٦٠ .

ويبن الإمام ابن القيم رحمه الله خطر النفس الأمارة واستغلال الشيطان لها فيقول :

" أما النفس الأمارة فالشيطان قرينها وصاحبها ، فهو يعدها ويمنيها ويقذف فيها الباطل ويأمرها بالسوء ويزينه لها ... في صورة تقبلها وتستحسنها ، ويمدها بأنواع الإمداد والباطل من الأماني الكاذبة والشهوات المهلكة ويستعين عليها بهواها وإرادتها ، فمنه يدخل عليها كل مكروه "[1] .

ولذلك استعاذ رسول الله ﷺ من شرور النفس كما ورد في خطبة الحاجة أنه ﷺ كان يقول : (إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا)[2]

٢ ـ النفس اللوّامة :

من فضل الله سبحانه أن النفس ترتقي إلى حالة تعود فيها إلى فطرتها النقية وتزول عنها غشاوة المعصية فتلوم نفسها على فعلها وتدعو صاحبها للتوبة ، أو تحذره من الوقوع في المعاصي قبل أن يقع .

وقد ورد ذكر هذه الحالة من حالات النفس في قوله تعالى : ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾[3] .

فالله سبحانه أقسم بهذه النفس تعظيماً لشأنها كما أقسم بيوم القيامة ، وقد نقل الإمام القرطبي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم ، أن هذه النفس هي نفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه ، يقول : ما أردتُ بكذا ؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه[4] .

قال الحسن : " هي والله نفس المؤمن ، ما يُرى إلا يلوم نفسه : ما أردتُ بكلامي ؟ ما أردت بأكلي ؟ ما أردتُ بحديث نفسي ؟ ، والفاجر لا يحاسب نفسه "[5] .

وقال مجاهد : " هي التي تلوم على ما فات وتندم ، فتلوم نفسها على الشر لِمَ فعلته ، وعلى الخير لِمَ لا تستكثر منه "[6] .

---

(١) الروح لابن القيم – ص / ٢٢٧ .

(٢) رواه أبو داود في النكاح – باب ما جاء في خطبة النكاح – رقم / ٢١١٨ ، والترمذي في النكاح – رقم / ١١٠٥ وقال : حديث حسن ، وصححه محقق جامع الأصول ٤٣٧/١١ .

(٣) سورة القيامة/الآيتان ١-٢ .

(٤-٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩٢/١٩-٩٣ .

وعلى هذا تكون اللوامة بمعنى اللائمة وهي صفة مدح[1] ، ولذلك أقسم الله بها في كتابه .

قال الجرجاني في تعريفه للنفس اللوامة : " هي التي تنورت بنور القلب ، قدر ما تنبهت به عن سِنةِ الغفلة ، كلما صدرت عنها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية، أخذت تلوم نفسها"[2].

فالنفس اللوامة تكبح جماح النفس الأمارة وتصرفها عن الشر ، ولا شك أن هذا يحتاج إلى قوة تتحكم في النفس وإيمان يضبط الغرائز ويزنها بميزان الشرع .

ويطلق بعض الباحثين على هذه الحالة من حالات النفس اسم (الضمير) الذي هو عبارة عن حالة نفسيه من الانشراح أو الانقباض ، ولكن الأولى أن تسمى (المراقبة) أو (الزاجرة) أو وازع القلب[3] .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في حديثه عن النفس اللوامة : " هي التي لامت نفسها في طاعة الله ، واحتملت ملام اللائمين في مرضاته ، فلا تأخذها فيه لومة لائم ، فهذه قد تخلصت من لوم الله ، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل في الله ملام اللُّوام، فهي التي يلومها الله عزوجل "[4] .

٣ ـ النفس المطمئنة :

هي أعلى درجات النفس ، فهي نفس اطمأنت بإقامتها على طاعة الله ، فسلّمت بوعده ورضيت بقضائه وتوكلت عليه ، وذاقت حلاوة الإيمان فلم تعد ترضى به بديلاً ، واستشعرت لذة المناجاة بين يدي الله سبحانه فلم تعد تشغلها عن طاعة ربها مغريات الحياة

---

(١) وقيل : اللوامة بمعنى الملومة المذمومة ، وأنها نفس الكافر يلوم نفسه ويتحسر في الآخرة على ما فرط في جنب الله ، ولكن هذاالقول لا يستقيم مع القَسَم ، ولذلك رجح كثير من المفسرين القول الأول بأنها النفس التي تلوم صاحبها على فعل الشر ، ولذلك استحقت أن يقسم الله بها لشرفها .

ينظر : جامع البيان للطبري ١٧٥/٢٩ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩٣/١٩ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٤٨/٤ .

(٢) التعريفات ـ ص٢٤٣ .

(٣) الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام ـ للدكتور مصطفى فهمي ـ ص/١٣٩،١٤٠ .

(٤) الروح ـ لابن القيم ـ ص٢٢٦ .

ولا تصدها عن زينتها وقد ورد ذكر هذه الحالة من حالات النفس في قوله تعالى : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي** ﴾[1] .

وقد نقل المفسرون في معنى النفس المطمئنة أقوالاً عن علماء السلف ، ومن أبرزها[2] :

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : " المطمئنة : المصدقة " .

وعن قتادة قال : " هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله " .

وعن مجاهد قال : " هي النفس الراضية بقضاء الله التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها " .

وعن ابن زيد قال : " سميت المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع " .

فهي نفس زكية ساكنة ثابتة مع الحق ، لا يعتريها صراع ولا تخبط ولا قلق ولا اضطراب ، لأنها أدركت طريق سعادتها ورضيت به ، ولذلك يقال لها : ﴿ **ارجعي إلى ربك راضية مرضية** ﴾ ، فقد رضيت عن الله ورضي الله عنها وأرضاها ، ولذلك تبشر بمقعدها من الجنة ويقال لها : ﴿ **فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** ﴾ وتأتيها البشارة هذه في مواضع ثلاثة : عند الاحتضار وعند الحشر وعند دخول الجنة[3] ، قال تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون** ﴾[4] .

قال الجرجاني في تعريفه للنفس المطمئنة :

" هي التي تم تنورها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة وتخلقت بالأخلاق الحميدة "[5] .

---

(١) سورة الفجر / الآيات ٢٧-٣٠ .

(٢) ينظر : جامع البيان للطبري ١٩٠/٣٠ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥٧/٢٠-٥٨ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥١٠/٤ .

(٤) سورة فصلت / آية ٣٠ .

(٥) التعريفات - ص٢٤٣ .

ولا شك أن الطريق لتحقيق هذه الحالة من حالات النفس والوصول إليها هو ذكر الله بالقول والعمل ومراقبته في السر والعلن ، حتى تطمئن النفس ويخشع القلب .

قال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾[1] .

والوصول بالنفس الإنسانية إلى هذه الحالة هي الثمرة الكبرى لتزكية النفس ، وهذه التزكية لها أسسها ووسائلها ومعوقاتها كما سنرى بالتفصيل في ثنايا هذا البحث إن شاء الله.

والفرق بين النفس اللوامة والنفس المطمئنة أن النفس اللوامة تقف في وجه النفس الأمارة وتكبح جماحها فتغلب أوتُغلب ، وتقوى أو تضعف ، ولكن النفس المطمئنة حالة مستقرة من حالات النفس وصفة راسخة تكون معها النفس الأمارة في ضعف شديد لا تقوى معه على التغلب ، وإنما يصبح الخير ملكةً مستقرة في النفس لا تحتاج معها إلى مجاهدة طويلة وعلى ذلك فالملكة صفة راسخة في النفس ، وهي قبل رسوخها كانت سريعة الزوال، فلما تكررت ومارستها النفس وصارت بطيئة الزوال أصبحت (ملكة) .

يؤكد ذلك الجرجاني في تعريفه لها ، فيقول : " هي صفة راسخة في النفس .... وتسمى حالة ما دامت سريعة الزوال ، فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال ، فتصير مَلَكة، وبالقياس إلى ذلك الفعل عادةً وخلقاً "[2].

ويبقى أن أشير إلى موضوع يتصل بأحوال النفس وهو أقسام القلوب ، فقد ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة الإشارة إلى أن للقلوب أقساماً[3] ، فمنها القلب الميت ، والقلب المريض ، وهذا يقابلهما النفس الأمارة ، ومنها القلب الذي استنار بنور الإيمان ولكن خالطه بعض الشهوات فللشيطان عليه إقبال وإدبار ، وهو يقابل النفس اللوامة .

ومنها القلب السليم المحشو بالإيمان وهو يقابل النفس المطمئنة ، وهكذا ترتبط أحوال النفس بأقسام القلوب باعتبار أن القلب دائرة من دوائر النفس تشترك معها في كثير من الخصائص والصفات ، كما سبق الحديث عن ذلك[4] .

---

(١) سورة الرعد / آية ٣٨ .

(٢) التعريفات ـ ص٢٢٩ .

(٣) سوف أتحدث بالتفصيل عن أقسام القلوب وأمراضها مع إيراد الأدلة من الكتاب والسنة ، وذلك في الباب الرابع من هذا البحث عند الحديث عن أمراض النفس ومعوقات تهذيبها .

(٤) ينظر ص / ٢٥ من هذا البحث .

الفصل الخامس

موقف الفلاسفة وعلماء النفس من النفس البشرية

يشتمل هذا الفصل على مبحثين اثنين :

أولهما يتناول هذا الفصل الحديث عن موقف الفلاسفة من النفس الإنسانية وثانيهما يتكلم عن موقف علماء النفس بمختلف اتجاهاتهم من النفس وتهذيبها وعلاج ما يعتريها من أمراض ، ولنبدأ بالحديث عن موقف الفلاسفة .

المبحث الأول

موقف الفلاسفة من النفس الإنسانية

كنت أود ألا أثقل البحث بالحديث عن موقف الفلاسفة من النفس ، لئلا يتحول الموضوع إلى بحث عقلي جاف يتنافى مع ما هدفت إليه وهو استخلاص المنهج الاسلامي في تزكية النفس ، غير أني وجدت أن عقد الموضوع لا يكتمل إلا بإشارة موجزة للآراء التي سطرها الفلاسفة عن النفس منذ القديم ، ولما كان منهم من اختلاف حول حقيقة النفس وأصلها ووحدتها وبقائها إلى غير ذلك من الأمور التي شغلت فلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين من بعدهم قروناً طويلة .

والواقع أن الفلاسفة توغلوا في الحديث عن النفس ، لكنه حديث قائم على منهج خاطئ ، لأنهم تصوروا أنهم يستطيعون بالبحث العقلي أن يصلوا إلى حقيقة النفس وكنهها فخاضوا غمارها وتشعبت آراؤهم وكثرت تخبطاتهم في المتاهات العقلية النظرية ، أما المنهج الإسلامي فإنه يقوم على أن حقيقة النفس غيب اختص الله بعلمه فلا نعلم كنهها إلا ما أشارت إليه نصوص الكتاب والسنة ، ولكن المطلوب هو دراسة أحوالها وكيفية تهذيبها وعلاج ضعفها ، ومن هذا المنطلق نستطيع أن نعرض لآراء الفلاسفة عن النفس ونناقش أقوالهم .

وأول ما يعرض له الفلاسفة إثبات وجود النفس بالبراهين العقلية[1] ، وقد رد عليهم

---

(١) ينظر كتاب : الدراسات النفسية عند المسلمين ـ عبد الكريم العثمان ـ ص/٦٦-٦٨ .

الإمام الراغب الأصفهاني فقال : " إن وجود النفس في الإنسان أمر لا يحتاج إلى دليل لوضوح أمره ، فالنفس هي التي تحصل الحياة والحركة والحس والعلم والرأي والتمييز "(١) .

* أما الحديث عن طبيعة النفس فإنهم اختلفوا في ذلك على قولين :

منهم من قال بماديتها ، ومنهم من قال بروحانيتها ، والقائلون بالمادية انقسموا أيضاً فمنهم من قال إنها جسم ، أو أنها الجسم الإنساني نفسه ، أو عَرَض من أعراضه ، أو إنها جسم لطيف .

أما أنصار روحانية النفس فقد قالوا : إن النفس ليست جسماً ولا عرضاً لجسم ، ولا طول لها ولا عرض ، ولا يجوز عليها الحركة والسكون واللون والطعم ، ولكن يجوز عليها العلم والقدرة والحياة والإرادة ، وهي جوهر قائم بذاته متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف.

ولا شك أن هذه الأقوال تبقى كلها في دائرة الظنون لأننا لا نستطيع أن نرجح أحدها بدليل قطعي صريح إذ أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، والعقل البشري لا يستطيع أن يتصور النفس ولا أن يدركها .

ومما يفيض فيه الفلاسفة بحثاً ومناقشة الحديث عن وحدة النفس فقد اختلفت آراؤهم حول كون النفس واحدة أو منقسمة(٢) .

ـ فمنهم من قال : إنها واحدة ، وإن ما يبدو لنا من اختلاف وتجزئة فيها إنما يعود إلى تنوع قواها ، وليس إلى تعدد النفوس وتجزئتها ، ومن هؤلاء أرسطو ، وأكثر فلاسفة الإسلام كابن سينا والفارابي .

ـ ومنهم من قال بانقسام النفس في الكيان الواحد إلى أجزاء متعددة ، كل منها يقوم بنصيبه في السلوك الإنساني منفصلاً عن الآخر ، ومن القائلين بذلك أفلاطون .

والواقع ـ كما أشارت النصوص القرآنية ـ أن النفس لها أحوال وصفات وخصائص ، وأن هذا لا يعني تنوع النفوس داخل الكيان الواحد وإنما يعني تغير أحوالها ، كما رأينا في الفصل السابق(٣) .

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ـ ص١١ .

(٢) الدراسات النفسية ص٧٨-٨١ .

(٣) ينظر ص / ٣٣ من هذا البحث .

والأغرب من ذلك أن الفلاسفة يختلفون في أصل النفس هل هي قديمة أو حادثة ، فقد قال بعضهم بأزلية النفس وقدمها وهم فلاسفة اليونان وبخاصة أفلاطون الذي ادعى أن النفس كانت في عالم المثل والأفلاك ثم هبطت فحلّت في أبدان البشرية .

وقال بعضهم بحدوثها ، وهم أكثر فلاسفة الإسلام ، ومن قبلهم أرسطو الذي يقول إن النفس صورة الجسد وهي بالتالي حادثة معه(١) .

ويظهر أن (ابن سينا)(٢) يتأرجح بين الرأيين ، فهو في قصيدته عن النفس يميل إلى القول بالقدم ويصف النفس في مطلع تلك القصيدة فيقول :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزّز وتمنّع(٣)

وفي كتابه المشهور (أحوال النفس) يتحدث عن حدوث النفس مع حدوث البدن ، ويتبين استحالة أن تكون النفس قد وجدت قبل البدن(٤) .

ولا شك أن النفس حادثة ولا يجوز أبداً القول بقدمها ، لأن هذا يعارض صريح آيات القرآن الكريم ، فقد قال تعالى : ﴿ **وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً** ﴾(٥) ، وقال سبحانه: ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً** ﴾(٦) .

كما أن القول بقدم النفس يعني أنها غير مخلوقة ، وهذا شرك بالله تعالى الذي هو الخالق لكل شيئ سبحانه وكل ما في الوجود مخلوق بأمره .

قال تعالى : ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾(٧) .

---

(١) ينظر : الدراسات النفسية عند المسلمين ـ ص/٨٦ ، وما بعدها .

(٢) ابن سينا هو : الحسين بن عبد الله بن سينا ، ولد سنة ٣٧٠هـ ، في إحدى قرى بخارى وتوفي سنة ٤٢٨هـ ، وهو أبرز الفلاسفة ، ويسمونه الفيلسوف الرئيس وله تصانيف كثيرة في الطب والمنطق ، وأشهر كتبه (القانون) في الطب ، وقد أخذ كثيراً عن الملاحدة وكان من أتباع الباطنية (الأعلام للزركلي ١٤١/٢) .

(٣) النفس أمراضها وعلاجها ص٢١ .

(٤) أحوال النفس لابن سينا ـ تحقيق د . أحمد فؤاد الأهواني ص٩٦ .

(٥) سورة مريم/من الآية ٩ .

(٦) سورة الإنسان / آية ١ .

(٧) سورة الزمر/من الآية ٦٢ .

هكذا نجد بهذا الاستعراض الموجز كيف اضطرب الفلاسفة وتخبطوا في المتاهات العقلية بحثاً عن حقيقة النفس وجوهرها فلم يظفروا إلا بما يزيدها غموضاً .

يقول الدكتور الأهواني معترفاً بما وصل إليه الفلاسفة من سراب :

" لا يخلو فيلسوف من كلام في النفس الإنسانية ، لأنها أقرب الأشياء إلينا ، وهي إلى ذلك القرب شديدة الغموض ، وكلما خيل إلى المفكرين أنهم قد ازدادوا بها علماً ، وبلغوا حقيقة أمرها ، وكشفوا سرها ، وعرفوا جوهرها ، إذا بهم يجدون ذلك العلم سراباً ... ولا تزال إلى اليوم حيث كان سقراط وأفلاطون وأرسطو بل أشد عن الحقيقة بعداً ، ولذلك ضرب العلم الحديث صفحاً عن طلبها ، واكتفى بتحليل الظواهر النفسية ، وترك للفلاسفة ميدان الجوهر يسلكون إليه السبيل ، عسى أن يصلوا يوماً ما إلى معرفة حقيقة النفس "[1]!! .

غير أني أقول : إن الفلاسفة لن يصلوا إلى معرفة حقيقة النفس مهما بحثوا وبخاصة أنهم قد أعياهم البحث منذ آلاف السنين فلم يظفروا إلا باضطراب يزيد النفس غموضاً .

كما أن العلم الحديث الذي تخلى عن منهج الفلاسفة ، واكتفى بتحليل الظواهر النفسية لن تكون نتائجه صحيحة ما دامت بعيدة عن المنهج الإسلامي ، وسيبقى علماء النفس الحديث في اضطراب من نوع آخر كما سنرى في المبحث القادم إن شاء الله :

❀ ❀ ❀

(١) مقدمة كتاب (النفس) لأرسطو - تقديم د . أحمد فؤاد الأهواني - ص٢٧ .

المبحث الثاني

موقف علماء النفس الحديث(١) من النفس الإنسانية

يعد علم النفس من العلوم الحديثه رغم اقتفائه بما يتصل بالماضي القديم ، وينطلق علم النفس المعاصر في اتجاهاته الغربية والشرقية من مبدأ أساسي وهو أن الإنسان في تكوينه النفسي يخضع كلياً لتكوينه العضوي المادي(٢) .

وقد تطورت الدراسات النفسية وتغيرت اهتماماتها تبعاً للثقافات السائدة ، فبينما كانت دراسات علم النفس سابقاً تركز علىالروح بتأثير الثقافة النصرانية ، اتجهت بعدها تلك الدراسات للبحث في العقل عندما تغلب الاتجاه اللاديني في أوربا ، ثم انتقلت الدراسات إلى التركيز علىالشعور والاحساس ، وأخيراً صار الموضوع الذي يشغل علم النفس هو السلوك الظاهري فقط(٣) .

وهكذا تظهر المشكلة الأساسية للدراسات النفسية إنها لا تنظر للإنسان ككل في إطار واحد متكامل ، وإنما كانت تركز في كل فترة زمنية من تاريخ علم النفس على جانب واحد فقط تسلط عليه أضواء البحث مهملة في ذات الوقت الجوانب النفسية الأخرى(٤) .

وبنظرة سريعة إلى مدارس واتجاهات علم النفس الغربي ندرك على الفور كيف أدت هذه النظرة الجزئية إلى كثير من الاختلال في تصور الإنسان وتشويه الصورة الصحيحة لكيانه المتكامل .

ـ فهذا فرويد مؤسس مدرسة التحليل النفسي يدعي أن العقل الباطن أو اللاشعور هو الإنسان الحقيقي ، وقد أرجع المحركات الإنسانية إلى الشعور واللاشعور ، ويعني (بالشعور) الطاقات التي زُوِّد بها الإنسان من التفكير والتدبر والتصرفات العقلية ، ويعني باللاشعور

(١) أعني بعلم النفس هنا علم النفس المادي .

(٢) علم النفس في التصور الإسلامي ـ د . عبد الحميد الهاشمي ص١١ .

(٣) علم النفس أسسه وتطبيقاته ـ د . عبد العزيز القوصي ـ ص٢٥ .

(٤) علم النفس في التصور الإسلامي ـ ص١٩ .

العواطف والشهوة الجنسية ، فأعطى للنفس صورة مزوَّرة خلاصتها أن الكيان الحقيقي للإنسان هو الطاقة البهيمية البحته ، وأن كل تعديل لهذه الطاقة أو تهذيب لها ليس داخلاً في هذا الكيان ، وإنما هو مفروض عليه من الخارج ، ويؤدي بالإنسان إلى الكبت بسبب ما يفرضه المجتمع من دين وأخلاق وتقاليد[1] .

وقد قسم (فرويد) النفس إلىثلاثة أقسام هي ، (الهو) ، (والأنا) ، (والأنا الأعلى) وهذه الأقسام ترتيبها كما يلي :

(الهو) يعني اللاشعور وهو الطاقات الجنسية التي هي برأيه حقيقة الإنسان .

(والأنا الأعلى) هوالشعور المفروض على الإنسان بتأثير الدين والبيئةوما يحيط به .

و(الأنا) هو واقع الإنسان الذي يكبت بعض الرغبات ويسمح بإشباع بعضها الآخر مراعياً مبدأ الواقع وتأثير العالم الخارجي[2] .

ومن العجب أن نرى من يتأثر بهذا التقسيم ويعده إنجازاً علمياً ويفخر أن القرآن الكريم قد أشار إليه منذ أربعة عرش قرناً من الزمان!!! ، ويدّعي أن القسم الأول (الهو) يشبه إلى حد ما مفهوم (النفس الأمارة بالسوء) وأن القسم الثاني (الأنا الأعلى) يشبه (النفس اللوامة) ، وأن القسم الثالث (الأنا) يشبه في النتيجة حالة (النفس المطمئنة) لأنها تؤدي بالإنسان إلى تحقيق الاتزان بين مطالب البدن ومطالب الروح[3] .

وهذه مغالطة جسيمة لأن المنطلق الذي ابتدأ منه (فرويد) نظريته هو اعتبار (الأنا الأعلى) حالة مفروضة على الإنسان من خارجه بالضغط والقهر ، وليست داخلة في كيانه ، وأن الانصياع لها يؤدي إلى تحطيم كيان الإنسان وتدميره وتشويه حقيقته[4] .

---

(١) لا يتسع المجال للحديث عن تفصيلات نظرية (فرويد) وما بنى عليها من آراء وتصور الإنسان عبداً للشهوة من أول يومه .
ويرجع إلى كتاب (دراسات في النفس الإنسانية) للشيخ محمد قطب ، ص١٨ ، وما بعدها .
وكتاب (مناهج البحث في العلوم الإسلامية) للدكتور مصطفى حلمي - ص١٢٩ ، وما بعدها .

(٢) القرآن وعلم النفس - د . محمد عثمان نجاتي - ص٢٠٩ .

(٣) المرجع نفسه - ص ٢٠٩

(٤) دراسات في النفس الإنسانية ص١٨ .

فكيف نقارن هذا بحالة النفس اللّوامة التي ترشد صاحبها إلى الخير وتذكره بالعودة إلى فطرته ، وهي حالة أصلية في نفس المسلم وليست خارجة عنه .

كما أن حالة النفس المطمئنة لا تعني مراعاة الإنسان للواقع الذي يعيش فيه ، كما هي حالة (الأنا) وإنما تعني أن يرقى الإنسان بنفسه حتى يتغلب على جواذب النفس التي تدعوه للمعصية ، ويطمئن بإقامته على طاعة ربه لا تصده عن ذلك مغريات الدنيا ، وقد سبق الحديث عن أحوال النفس في مبحث سابق[(١)] .

وبعد استعراض موقف مدرسة التحليل النفسي من النفس وتشويهها لصورة هذه النفس، ننتقل إلى إعطاء نبذة عن الاتجاهات الأخرى في علم النفس الحديث :

ـ فالمدرسة التجريبية تضع النفس الإنسانية في المعمل ، وتصر على تغيير النفس بما تلاحظه من جزئيات سلوكية تقع تحت دائرة الحواس ، وبالتالي تقف عاجزة عن الوصول إلى أي شيئ لا يقع في دائرة الحواس ، ولا تستطيع أن تأخذ من النفس إلا ما يتصل بالجانب المادي[(٢)] .

ـ والمدرسة السلوكية تفسر الإنسان على أنه مجموعة من العادات وردود الفعل الشرطية المنعكسة والتي لا يختلف بعضها عن بعض إلا باختلاف المؤثر ، وبالتالي تحيل الإنسان إلى حيوان لا إرادة له ولا قيم[(٣)] .

ولقد ظهر دارون بنظريته القائلة بتطور الإنسان من أصل حيواني فأصبحت هذه النظرية أساساً في علم النفس ، وجعلت علماء النفس يتجهون إلى دراسة سلوك الحيوان عسى أن تلقى هذه الدراسة بعض الضوء على سلوك الإنسان[(٤)] !! .

وهكذا نجد كيف سقط علماء النفس الماديين في الحضيض ، وانحرفوا في تصوير حقيقة النفس الإنسانية التي كرمها الله وميزها على سائر المخلوقات .

كما أن علماء النفس اقتصروا على دراسة حاجات الإنسان الفسيولوجية والدوافع النفسية التابعة لها ، وأهملوا دراسة الناحية الروحية من الإنسان وما ينبعث عنها من حاجات

---

(١) ينظر ص /٣٣ من هذا البحث .

(٢و٣) دراسات في النفس لمحمد قطب ، ص٢١-٢٢ .

(٤) علم النفس الإسلامي ـ د . محمد رشاد خليل ص٤٠ .

سامية هي أرقى الحاجات الإنسانية التي يتميز بها عن الحيوان[1] .

وقد اعترف عدد من أعلام الغرب بهذا الانتكاس والعجز الذي وصل إليه علم النفس الحديث : يقول (إريك فروم) : " إن علم النفس الحديث يهتم في أغلب الأحيان بدراسة نواحٍ تافهة وسطحية من سلوك الإنسان ، ويغفل مشكلات الإنسان الهامة وقيمه العليا "[2] .

ويقول ألكسيس كاريل : " لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه ، ولكن بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء ... فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا ، إننا لا نفهم الإنسان ككل .. وواقع الأمر أن جهلنا مطبق ، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب "[3] .

ويقول : " إن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب "[4] .

والذي أدى إلى هذا الجهل المطبق بمعرفة النفس والتشويه بصورتها ، هو انحراف علماء النفس في منهج دراستهم لها .

سبب انحراف علم النفس الحديث في دراسة النفس الإنسانية :

السبب الرئيسي لما وصلت إليه نظريات علم النفس الحديث من انحراف وتخبط في مجال معرفة النفس ودراستها ، أنها تغفل من حسابها توجه النفس البشرية توجهاً فطرياً إلى خالقها سبحانه ، واستمدادها منه مكونات حياتها ، وتهمل تأثير الدين في رسم خطوط جوهرية في تاريخ البشر ، وفوق ذلك تهمل حقيقة كونية وهي تأثر الإنسان بقدر ا لله ، وبالتالي ترسم صورة مشوهة للإنسان كأنه يقوم في هذا الكون وحده أو كأنه يتحرك آلياً بتأثير ما حوله من الأفعال المنعكسة والجنس والمادة وغير ذلك[5] .

---

(١) القرآن وعلم النفس - د . محمد عثمان نجاتي - ص٣٨ .

(٢) المرجع السابق - ص٣٩ ، نقلاً عن كتاب : الدين والتحليل النفسي - تأليف (أريك فروح) ترجمة : فؤاد كامل - ص١١ .

(٣) الإنسان ذلك المجهول - الكسيس كاريل - ترجمة / شفيق اسعد فريد - ص١٧ .

(٤) المرجع السابق ص١٩ .

(٥) دراسات في النفس الإنسانية - ص٢٥-٢٦ .

يقول الدكتور محمد رشاد خليل : " الحاجة إلى المعرفة الصحيحة بالنفس حاجة إنسانية أساسية ، لأن حياة الإنسان وبناءه الأخلاقي والنفسي والاجتماعي يتوقف عليها ، وإنه لمن السفه أن يظن ظان أن الله تعالى قد خلق الناس وتعبدهم وكلفهم ، ثم تركهم بدون علم صحيح بالنفس ، وهو يعلم أن حياتهم لا تصل إلا بهذا العلم ... وعليه فإن العلم الصحيح بالنفس لا يلتمس إلا عند الأنبياء الذين أخذوا هذا العلم من خالق النفس الذي هو أعلم بها من أهلها "[1] .

وهكذا نجد أن علم النفس الصحيح هو الذي يقوم على أساس إسلامي ويبحث في صفات النفس وخصائصها وأحوالها وعلاج أمراضها من خلال ما ورد في الكتاب والسنة ، وأن إخضاع النفس للملاحظة والتجربة لا يعطي صورة متكاملة عن النفس الإنسانية وإنما يعطي صورة مشوهة لبعض الحالات المرضية وبعض الظواهر النفسية مع إغفال كثير من الحقائق التي تتعلق بالمعرفة الأولية بالإنسان ودوره في الحياة .

علاج الأمراض النفسية :

الأمراض النفسية ـ كما يعرفها علماء النفس ـ هي مجموعة متعددة المظاهر من الاضطرابات والانفعالات التي تحدث في كيان الشخصية وتخل بوظائفها ، ولا تتسبب عن سبب عضوي معين في الجسم ، وتقترن غالباً بأسباب وعوامل نفسية المنشأ[2] .

ويُعنى علماء النفس الحديث كثيراً بعلاج أمراض النفس ، حتى أضحى الطب النفسي تخصصاً له أهميته وأقيمت العيادات المتخصصة بالعلاج النفس ، ومع ذلك يتزايد عدد الذين يعانون من الأمراض النفسية زيادة خطيرة تدعوا إلى الاستغراب .

ولقد أصحبت السمة التي يتصف بها هذاالعصر أنه عصر القلق والاضطراب بالرغم من تحقق الرفاهية ووفرة الإمكانات المادية وعمق الثقافة ، فمن أين تأتي هذه الزيادة المروعة يوماً بعد يوم في نسبة المصابين بالأمراض النفسية والذين يحطمهم القلق والخوف والاكتئاب ، حتى أضحى عدد الذين يدخلون المصحات النفسية كل عام يساوي عدد الذين يتخرجون من الجامعات في البلاد الغربية[3] ؟ !

---

(١) علم النفس الإسلامي ـ د . محمد رشاد خليل ـ ص٣٩ .

(٢) النفس انفعالاتها وأمراضها وعلاجها ـ د . علي كمال ـ ص٩ .

(٣) ينظر ما أورده الدكتور مصطفى فهمي من إحصائيات في هذا المجال في كتابه (الإنسان وصحته النفسية) ص١١٩ .

لقد استخدم علماء النفس طرقاً عديدة في علاج أمراض النفس ، واستندوا إلى أحدث ما توصلوا إليه من نظريات في علم النفس وطرق العلاج النفسي ، فلم يجنوا إلا فقدان معظم الناس للصحة النفسية وتعرضهم لمزيد من العقد النفسية والانهيار العصبي .

يقول الدكتور على كمال أحد المختصين في علم النفس المادي :

" يرى بعض الأخصائيين أن جميع الناس مرضى بالأمراض النفسية وأن الأمر لا يتعدى فرق الدرجة بين الفرد والأخر ، ومثل هذا الرأي له ما يسنده ، وفيه غير القليل من الصحة "(١) .

ثم يحاول تبرير ذلك بأسباب وهمية مثل زيادة عدد السكان وبعض العوامل الاجتماعية والاقتصادية وعامل الهجرة والتغرب(٢) ، وتجاهل السبب الحقيقي الذي فطن إليه كثير من المنصفين من علماء النفس ، ونادوا بالعودة إليه . ألا هو الدين .

- يقول الدكتور حسن الشرقاوي : (إذا كان علم النفس يريد حقاً أن يتعرف على حقيقة النفس البشرية ويسعى إلى حكم رشيد على الشخصية الإنسانية فعليه أن يغيّر من وسائله وغاياته ، ويبدل نظرته المحدودة ليصبح قادراً على الوصول إلى نتائج ايجابية تفسر السلوك الإنساني تفسيراً صادقاً وسليماً)(٣) .

ثم يؤكد أن الطريق الموصل لهذه النتائج هو اتباع المنهج الإسلامي الذي يستقي مادته من آيات الله تعالى ، بمعنى أن يكون علم النفس علماً إسلامياً(٤) .

ومن المؤسف حقاً أن نجد كثيراً من علماء النفس والمشتغلين بالعلاج النفسي لا زال يصرعلى تجاهل تلك الحقيقة، ويدّعي أن العلم يحقق سعادة الإنسان بمعزل عن الدين، وأن

---

(١) النفس انفعالاتها وأمراضها - د . علي كمال - ص/٢٠ .

(٢) المرجع السابق - ص/٤٢ .

(٣،٤) نحو علم نفس إسلامي ص/١٠ .

الدين يعارض العلم ، ويدعو إلى الكبت والحرمان من الحرية الشخصية[1] .

ولذلك نجد أن هؤلاء الأطباء النفسانيين ، لا يملكون من وسائل العلاج النفسي إلا طرقاً يشخصون فيها الداء دون معرفة الدواء ، ومن هذه الطرق طريقة التحليل النفسي الذي يعترف فيه المريض للطبيب بما في نفسه ، وما ارتكبه من أعمال ، وما يعانيه من مشكلات ، وبذلك يفرغ الشحنة المخزونة في نفسه فيحظى ببعض الراحة ، ويوصيه الطبيب بعدد من الوصايا والإرشادات ، كما يعطيه بعض الأدوية المسكنة التي تبعد عنه التوتر ساعة من الزمن ، وقد اعترف عدد من المتخصصين في علم النفس بفشل العلاج النفسي المعاصر في تحقيق أهدافه .

يقول الدكتور علي كمال : " إن علاج هذه الأمراض ، بالرغم من وسائله المختلفة وخاصة الحديثة منها ، ما زال علاجاً افتراضياً أو تجريبياً أو علاج مصادفة "[2] .

ويقول الدكتور حامد زهران: "إن علماء النفس يجب أن يستفيدوا من الدين، وأن يلتزموا بقوانين الخالق سبحانه ، لأنهم ليسوا أعلم بالإنسان من الله الذي خلقه "[3] .

ثم يقول : " إن من أخطر أسباب الأمراض النفسية الضلال والبعد عن الدين وعن الإيمان ، أو الإلحاد وتشوش المفاهيم الدينية وضعف القيم وعدم ممارسة العبادات "[4] .

ـ ويذكر الدكتور مصطفى فهمي أن الجمعية الأمريكية للطب النفسي عقدت اجتماعاً في عام ١٩٥٥م ، ضم أصحاب التخصصات في علم النفس والاجتماع والطب والتربية ، وطالب هؤلاء بأن شيئاً ما يجب أن يُعمل لتدارك الفشل في العلاج النفسي ، وكان مما توصلوا إليه دراسة الاستفادة من الدين في العلاج النفسي[5] .

❀ ❀ ❀

---

(١) راجع نقد هذه الدعوى ومناقشتها في الكتاب القيم : (الإيمان والحياة) للقرضاوي ـ ص٣٢٧ ، وكتاب (العلم يدعو للإيمان) وكتاب (الله يتجلى في عصر العلم) وغيرها .

(٢-٤) النفس انفعالاتها وأمراضها ـ ص١٦ .

(٥) الإنسان وصحته النفسية ـ د . مصطفى فهمي ـ ص١٧٣ .

ولكن ما هو الدين الذي ينبغي الإيمان به والانضواء تحت لوائه لينال الإنسان السعادة ويحظى بالطمأنينة والصحة النفسية ، ويظفر بتهذيب النفس وحسن الخلق والحياة الطيبة ؟

هل هو مطلق الدين بما في ذلك الديانات الوضعية كالهندوسية والبوذية ؟ أو أنها اليهودية والنصرانية بعد ما حلَّ بهما من تحريف ؟ أو هو الدين الحق الذي أُرسل به نبينا محمد ﷺ للناس كافة ؟

هذا ما سنراه في الفصل القادم إن شاء الله .

❀ ❀ ❀

الفصل السادس

موقف الأديان من النفس وتهذيبها

تقتضي طبيعة البحث أن نلقي نظرة على موقف الأديان المختلفة من النفس وتزكيتها ، والذي نعنيه بالأديان هنا كل ما خالف الدين الأسلامي ، مع بيان انحراف تلك الأديان وزيغها لكي تظهر بجلاء الصورة الساطعة للمنهج الإسلامي في تزكية النفس .

والأديان التي انتشرت في الأرض كثيرة ، منها أديان وضعية ، ومنها رسالات إلهية ، كاليهودية والمسيحية ، اللتان أرسل بهما موسى وعيسى عليهما السلام لكن يد البشر امتدت إليهما بالتحريف والتبديل ، حتى أصبح التحريف فيهما متغلغلاً في الجوانب العقدية والتشريعية ومجالات السلوك الإنساني والنظرة للنفس وخصائصها وتهذيبها .

وهكذا أضحت جميع هذه الأديان منحرفة عن الفطرة في مجالات كثيرة وبخاصة في نظرتها للنفس الإنسانية ، ومناهجها في الدعوة إلى تهذيب النفس وتصويرها لمكانة الإنسان في هذه الحياة ودوره فيها .

وسوف أعرض بإيجاز لأبرز هذه الديانات ضمن المباحث التالية .

المبحث الأول : الديانات الوضعية :

المصرية القديمة ، البرهمية ، البوذية ، الهندوسية ، المزدكية .

المبحث الثاني : اليهودية .

المبحث الثالث : النصرانية .

❀ ❀ ❀

المبحث الأول

الديانات الوضعية

أبرز ما تتصف فيه الديانات الوضعية أنها ديانات لا تُنسب إلى نبي مرسل من عند الله سبحانه ، وإنما هي من وضع البشر لأنفسهم ، ولذلك نجدها تحوي خليطاً عجيباً من الخرافات والتناقضات ، وإن كان بعض هذه الديانات تحتوي على قليل من المبادئ التي جاء بها الأنبياء والرسل ، بسبب احتمال أن يكون أولئك الأقوام على ديانة إلهية سابقة ثم انحرفوا عنها واتخذوا لأنفسهم معتقدات أخرى تتغير بين الحين والآخر ، وتزداد انحرافاً وبعداً عن التوحيد والفطرة مع مرور الزمن .

ومن هنا كان لا بد للباحث أن يلقي نظرة على مواقف هذه الديانات من النفس الإنسانية وتهذيبها ، وما تعتقد من معتقدات في مجال النفس وحسابها وجزائها بعد الموت .

١ ـ الديانة المصرية القديمة :

يرى بعض الكتاب أن قدماء المصريين كانوا يعرفون الإله الواحد ، وقد سموه (آتون)[1]، وأقاموا له التماثيل الرمزية ، ثم جاءت الأجيال فجعلت من كل تمثال إلهاً ، فصار لكل مدينة من المدن المصرية آلهتها ومعابدها ، وأخذت المعتقدات والآلهة المزعومة تتزايد وتتعدد ، فتتنافر حيناً وتأتلف حيناً[2] .

ويعتقد المصريون القدماء أن هناك إلهاً للإنبات والخصوبة ، وإلهاً للتدبير والعلم ، وإلهاً للشر والقحط ، وغير ذلك ، وأن هذه الآلهة تتناحر وتتنازع ، وكل منها يعمل على إفساد أعمال الآخر في الكون ، وأنها تحل في أجساد الملوك (الفراعنة)[3] .

وبما أن أجساد الملوك تفنى ، فلا بد لهم من معتقد للتوفيق بين خلود الألوهية وفناء الجثمانية ، وبالتالي قالوا إن روح الإله ذات ثلاث شعب ، أولاها : الروح الدنيا ، وهي التي

---

(١) الدين والفلسفة والعلم ـ تأليف : محمود أبو الفيض المنوفي ـ ص٦١ .

(٢) المرجع نفسه ص٧٣ .

(٣) الديانات القديمة ـ للشيخ محمد أبو زهرة ص١٠-١١ .

تحل في فرعون الزمان ، ثم تنتقل إلى من يليه ، والثانية : الروح العليا الحاكمة في السموات والأرضين .

والثالثة : روح تبقى في جسد فرعون الميت وتقوم بالنصح لفرعون الحي ، ولا تبقى هذه الروح إلا إذا بقي الجسم متماسكاً ، ولذلك قاموا بتحنيط الفراعنة وبناء الأهرام لتكون حفاظاً على أجسامهم[1] ، أما اعتقادهم في النفس الإنسانية فيرون أنها ذات أربع طبائع ، إحداها : الروح ، والثانية : العقل والإرادة ، والثالثة : صورة من الأثير على هيئة الجسم ، والرابعة : الجوهر الخالد السامي الذي يشترك فيه الإنسان مع الآلهة ، وهو سر الوجود ، وقد اجتهدوا في إقامة تماثيل للموتى تشبه أجسامهم لكي تحل فيها النفس إن كان الجسم غير صالح لعودة النفس إليه[2] .

ويقولون عن الروح إنها تترك النفس بعد الوفاة ثم تتصل بها في وقت الدينونة للثواب أو العقاب فإن كانت السيئات كثيرة تردُّ إلى الأرض بواسطة أدوار التقمص من حيوان إلى حيوان ، للتكفير عن هذه الذنوب[3] .

كما يعتقدون أن أحد الآلهة كتب كتاباً يسمونه (كتاب الموتى) مشتمل على آداب وفضائل وهو كتاب مقدس عندهم يتعبدون بتلاوته ، ويوضع معهم في قبورهم ليحسن الميت الإجابة أمام محكمة الحساب[4] .

وهكذا نرى أن معتقدات الديانة المصرية القديمة خليط من الشرك والخرافات ، وأن نظرتهم إلى النفس تقوم على أساس اعتقادهم بالتناسخ والتقمص وحلول الآلهة في البشر ، وغير ذلك من الأباطيل التي تمزق الكيان الإنساني وتورث النفس الاضطراب والذلة ، وتجعل الإنسان عبداً لإنسان مثله يأتمر بأمره وينساق لحكمه أسيراً ذليلاً .

وقد وصف الله سبحانه قوم فرعون في اتباعهم الأعمى لفرعون ، وانقيادهم الذلي له، واستخفافه بعقولهم ، فقال سبحانه : ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾[5].

---

(١) المرجع السابق ص١١-١٢ .

(٢) نفسه ص١٦-١٧ .

(٣) الدين والفلسفة والعلم - ص٦٦ .

(٤) الديانات القديمة ص١٨-١٩ .

(٥) سورة الزخرف / آية ٥٤ .

البرهمية[1] :

يعتقد البرهمية بإله اسمه (برهما) وبكتاب مقدس اسمه (الفيدا) ، وهي ديانة هندية قديمة تدعو إلى كبح جماح الحواس وتعذيب الجسد والبعد عن كل ما فيه الميل إلى شهوات النفس .

ويرى البرهمية أن الجسد الهابطة إليه النفس شيء زائل ، إنما النفس الخفية عن النظر سرمدية ، وإذا جاء الموت للجسد وكانت الحكمة متغلبة على النفس ، تطير إلى الأقطار العلوية وأما إن كان الهوى متملكاً لها فترد ثانية إلى الأرض .

وقد جاء في كتابهم (الفيدا) ما ترجمته :

" إذا عكف الإنسان على حاجات البدن فهنالك يبدأ الميل إليها ، ومن الميل تتولد الرغبة ، ومن الرغبة تتولد نيران الشهوة المفترسة ، والشهوة تولد الطيش والتهور ، وبذلك تخون الإنسان الذاكرة ، فيقضي على الأغراض النبيلة ويتقوض بناء العقل [2] .

ويعتقد البراهمة أن النفس خالدة باقية لا تفنى وأنها تنتقل من جسم إلى جسم ، ومن ذلك جاء اعتقادهم بتناسخ الأرواح ، وأن النفس إذا ارتكبت الخطايا أثناء حلولها في أحد الأجساد أركست في حيوان أدنى لتكفر عن خطيئاتها وتطهر من سيئاتها ثم تسير قدماً إلى الرقي حتى تصل إلى الملكوت الأعلى[3] .

ولهذا يكلّف البرهمي نفسه أنواع الشدائد وأشكال البلاء في حياته فوق طاقته لكي يكفّر عما وقع منه في تجسدٍ سابق أو عما سيقع منه في تجسدٍ مستقبل[4] ، وهو دائم الاكتئاب والخوف كثير الهموم ، لا أمل له حتى في أن يكون خلاصهُ بالموت ، لأن الموت نفسه في نظره ليس مخلّصاً ، له من شقاء الحياة[5] .

---

(١) ملخصاً من كتاب : الديانات القديمة للشيخ محمد أبو زهرة ص٢١وما بعدها .
وكتاب الدين والفلسفة والعلم لمحمود أبو الفيض المنوفي ـ ص٤٠ ، وما بعدها .

(٢) الدين والفلسفة ص٤٦ .

(٣) الديانات القديمة ص٤٥ .

(٤) يقصدون بالتجسد السابق أي عندما كانت الروح في جسد سابق ، والتجسد المستقبل عندما تحل روحه جسداً آخر بعد موته .

(٥) الدين والفلسفة ـ ص٤٨ .

وقد توسعت الطقوس البرهمية على مرّ العصور وانتقلت من دور عبادة الإله الواحد الذي يسمونه (برهما) إلى دور الشرك والوثنية ، ونشأ الثالوث الهندي (برهما ، وفشنو ، وسيفا) ، وطوّق الكهنة الناس بالأساطير والرموز وعبادة الأشخاص والتماثيل والحيوانات ، وتقسيم المجتمع إلى طبقات[1] .

فقد قسم البراهمة المجتمع إلى طبقات أربع : الأولى : طبقة الكهنة ورجال الدين .

والثانية : طبقة رجال الجيش ، والثالثة : طبقة الفلاحين والعمال ، والطبقة الرابعة ، هم المنبوذون الذين يوصفون بأنهم خُلقوا من قدم برهما ، وأنه يجب عليهم خدمة بقية الطبقات، ولا يجوز لأحد مخالطتهم أو تزويجهم وإلا يكون قد ارتكب جرماً لا يغتفر ، وهذه الطبقية شيء لافكاك منه ، ويرثها الأبناء عن الآباء[2] .

وهكذا يضاف على مايعتقده البراهمة من وجوب تعذيب الجسد وحرمانه ، اعتقادهم بأن هؤلاء المنبوذين خلقوا للعذاب الدائم والشقاء المستمر ، هم وأبناؤهم وذرياتهم من بعدهم ، وهو قدرهم ومصيرهم إلى الأبد .

وهكذا تشقى النفس الإنسانية ببعدها عن الدين الحق ، وانحرافها عن الفطرة ، وإغراقها في الخرافات ، وخضوعها للعقائد الباطلة التي تجعل الإنسان عبداً ذليلاً لأخيه الإنسان .

٣ ـ البوذية :

نشأت البوذية في القرن السادس قبل الميلاد ، على يد رجل هندي يسمونه (بوذا) وينسجون حوله الأساطير ويدّعون أنه ابن الأله وأنه قام بمعجزات مدهشة في حياته ، ولما مات ودفن صعد إلى السماء ، وأنه سيعود إلى الأرض ليعيد السلام والبركة فيها ، إلى غير ذلك من المعتقدات[3] .

وتعد البوذية امتداداً للبرهمية إلا أنها كانت رد فعل على تعسف البراهمة واستبدادهم بما أقاموه من نظام الطبقات[4] .

---

(١) المرجع السابق ص٤٩ .
(٢) قصة الأديان ـ د . رفقي زاهر ـ ص١٠٨ .
(٣) الديانات القديمة للشيخ محمد أبو زهرة ـ ص٥٥ .
(٤) أديان الهند الكبرى ـ د . أحمد شلبي ـ ص١٣٧ .

وتقوم العقيدة البوذية على القول بتناسخ الأرواح على نحو ما يؤمن به البراهمة[1] ، أما المذهب العملي فهو قائم على أن هذه الحياة تحوطها الأكدار والآلام من كل جانب ، وأن منشأ هذه الآلام اللذات والأماني ، فاللذات في عقباها آلام ، وإن تطلعت النفس إليها وتمنتها كان في الحرمان منها آلام أيضاً ، فلولا انبعاث اللذات ما كانت الآلام ،ولولا استهواء الأماني التي تبعثها اللذات ما كانت آلام الحرمان ، لذلك كان لابد لمحو الآلام القضاء على أصلها ، وذلك يكون بالقضاء على اللذات وآمالها وأمانيها ، ولا يتم هذا إلا إذا راض الشخص إرادته على هجر اللذات جملة ، ولذلك كان العماد الذي أقام عليه بوذا مذهبه أن يجاهد الشخص الشهوات ، ويروض إرادته على ترك اللذات والصبر على الحرمان منها ، فلا يكون أمل[2] !!

وهكذا ترى البوذية أن النفس شر يجب التخلص منه ، وأن خصائص النفس ميولها يجب القضاء عليها كلياً لكي يصل الإنسان إلى الغاية النهائية .

والغاية النهائية عندهم يسمونها : (النيرفانا) وهي التحرر من الهوى وسلطان النفس ، ويوضح بوذا معنى (النيرفانا) في تشبيهها بالشعلة التي تنطفئ عند انتهاء مادة الاحتراق ، وهكذا ينطفئ الفرد الذي يتوقف عن إذكاء نيران عواطفه ، ويمحو كل تفكير وكل إرادة وكل إحساس ، حيث تمسي جميعها مفصولة منطفئة[3] .

ويقولون إنه يجب على الإنسان بلوغ (النيرفانا) لينال الخلاص والشفاء من حالات التناسخ ، وأن هذه (النيرفانا) تتولد من خنق كل رغبة ، وأن الدخول فيه شرطه الوحيد خنق كل تفكير وكل إحساس ، وأن هذا هو أقصر الطرق إلى الخلاص قبل قدوم الموت ، وأنه لا يكفي التوهم ببلوغ هذه الدرجة بمجرد الاكتفاء بطمأنينة الضمير وراحة النفس[4] !!

ولا شك أن هذه الغاية التي يدعو البوذية إليها هي العدم النهائي والقتل لكل ما يتصل بالانسان من خصائصه ومقومات حياته ، بل إنها أبشع من القتل لأنها تشويه للإنسان وتدمير له ومعاندة للفطرة السوية التي خلقها الله فيه ، ومن الصعب العسير أن يعاند الإنسان

---

(١) قصة الأديان ـ د . رفقي زاهر ـ ص١١٦ .

(٢) الديانات القديمة للشيخ محمد أبو زهرة ص٧٢ .

(٣) البوذية ، تأليف : هنري أرفون ـ ترجمة : هنري زغيب ـ ص٤١ .

(٤) المرجع نفسه ـ ص٤٢-٤٤ .

فطرته ويدمر خصائصه النفسية لولا ما يوحونه به لأتباعهم أن هذا الأمر سيحقق لهم النجاة من تقمص أرواحهم بعد الوفاة في أجساد الحيوانات وبقائها في عذاب دائم .

ويدعون أن هناك قيوداً تحول دون بلوغ هذه الدرجة ، منها الوهم الخادع في وجود النفس والشك في بوذا وتعاليمه والشهوة وغير ذلك[1] .

اليوغا :

يقولون عن اليوغا إنها تمارين نفسية وجسدية لتسهيل التقرب من حالة (النيرفانا)[2] وتعني هذه الكلمة : (الوحدة) لأنها كما يقولون : اتحاد الإنسان مع الروح[3] .

وطريقة ممارستها باختصار أن يكون الإنسان عاري الجسم أو أكثره ، وأن يستقبل الشمس بجسمه عند شروقها وعند غروبها ، وأن يثبت نظره على قرص الشمس أو على الجدار ، ثم يردد كلمات معينة ، ويقوم بتمارين رياضية تتألف من عشر حركات تجري تباعاً ،وأبرز هذه التمارين أن يجلس المرء متشابك الأطراف السفلية لاصقاً بعض كفيه ببعض أمام وجه أو إلى أعلى رأسه مركّزاً نظره إلى الشمس[4] ، أو أن يجلس مستقيم النصف الأعلى من الجسم مكتوف الساقين ، مسنوداً إلى حبل وهمي من التأمل ملتفٍ حول جسده[5] .

ولكي يُغروا الناس بممارسة (اليوغا) كطريق لاعتناق البوذية بعد ذلك ، يدّعون أن لها فوائد عظيمة ، وأنها طريق الصحة والسعادة والشباب الدائم ، وأنها تشفي من كل مرض وعلة ، وأنها تطيل العمر وتمنع تجعد الجلد وتوقف الهرم ، وتكافح نزلات البرد والزكام[6]!!!

وقد تظهر على أحدهم أشياء من خوارق العادات يخدعون بها أعين السذج والجهلة ، وهي في الواقع من باب السحر أو الاستدراج ، أو الاستعانة بشياطين الجن[7] .

---

(١) أديان الهند الكبرى ـ د . أحمد شلبي ص١٦٤ .
(٢) البوذية ـ هنري أرفون ـ ص٤٤ .
(٣) اليوغا في ميزان النقد العلمي ، د . فارس علوان ص١٥ .
(٤) المرجع السابق ص١٥ـ٢٠ مختصراً .
(٥) البوذية ـ هنري أرفون ـ ص٤٤ .
(٦) اليوغا في ميزان النقد العلمي ص٢١ ، وقد ناقش المؤلف هذه الدعاوى ورد عليها بالتفصيل .
(٧) المرجع السابق ص٢٧ .

ولا يتسع المجال هنا لمناقشة دعوى البوذية ودفاعهم عن (اليوغا) وإنما نقول إن بقاء الإنسان ساعات طويلة في جلسات تتشابك فيها الأطراف تشابكاً غريباً وهو ساكن متأمل يؤدي إلى أمراض كثيرة جسدية ونفسيه ، ويجعل الإنسان منطوياً مكتئباً كالعضو الأشل ، ويؤدي ذلك به إلى الذهول عمن حوله والانغلاق على نفسه كما تفعل المخدرات بأصحابها، وكثيراً ما يستعين هؤلاء بالمهدئات والمنومات للاستمرار في تأملاتهم المزعومة ، ولعل هذا من أبرز أسباب الفقر والجوع والمرض عند الشعوب التي تنتشر فيها هذه الطقوس السخيفة فضلاً عن القذاره والجهل والعري والتواكل والكسل[1] .

٤ ـ الهندوسية :

تعد الهندوسية امتداداً للبرهمية ، وهي ديانة الجمهرة العظمى من الهند الآن ، وتسمى أيضاً (الهندوكية)[2] وتلتقي مع غيرها من ديانات الهند في القول بتناسخ الأرواح ، وعبادة كثير من الآلهة وغيرها من الأباطيل .

ولا يُعرف للهندوسية مؤسس معين ، كما أن كتابهم المقدس (الويدا) لا يُعرف له واضع معين ولذلك يزعم الهندوس أنه أزلي لا بداية له[3] .

وقلما تجد هندوسياً لا يعبد عدداً من الآلهة ، حتى أنه يصلي للنمر الذي يفترس أنعامه ، ولجسر الخط الحديدي الذي يصنعه الأوربي ، وأبرز ما تميزوا به عبادة (البقرة) التي يدّعون أنها أم للإنسان وأنها خير من الأم الحقيقية لأنها تمنحهم اللبن دائماً[4] .

وانطلاقاً من قولهم بتناسخ الأرواح يؤكدون على ضرورة إرهاق النفس وقتل رغباتها والانقطاع في الغابات لإتعاب الأبدان لترقي إلى القوى الروحانية[5] .

ويطلقون على تناسخ الأرواح تعبيرات اصطلاحية أخرى مثل (تجوال الروح) ، و(تكرار المولد) ويعنون بذلك رجوع الروح بعد خروجها من جسم إلى العالم الأرضي

---

(١) المرجع نفسه ص٥٢ـ٥٤ ، ويستحسن الرجوع إلى هذا الكتاب لمعرفة المزيد من الرد العلمي على دعاة (اليوغا) .

(٢) أديان الهند الكبرى ـ د . أحمد شلبي ـ ص٣٩ .

(٣) المرجع نفسه ـ ص٤٠ .

(٤) المرجع نفسه ص٢٨، ص٣٢ .

(٥) نفسه ـ ص٣٤ .

لتحلَّ في جسم آخر ، وذلك إذا خرجت من الجسم الأول ولا يزال لها أهواء وشهوات مرتبطة بالعالم المادي[1] .

وهكذا تلتقي الأديان الهندية في ضرورة سحق الجسد وكبته وحرمانه لئلا تقع الروح في التقمص بحيوان أدنى فتبقى معذبة شقية ، وهذه العقيدة المزعومة هي التي أدت بهم إلى ما يقومون به من تجويع الجسد وإنهاك قواه ، وقتل رغبات النفس سعياً وراء تخيلات وأوهام يظنون بها أنهم يصلون إلى السعادةوالخلاص ، وهي شقاء في الدنيا وشقاء في الآخرة .

وصدق الحق سبحانه القائل : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ﴾[2] .

٥ ـ المزدكية :

إذا كانت الديانات التي أشرنا إليها سابقاً تدعو إلى حرمان الجسد وقتل رغبات النفس، فإن المزدكية على العكس تماماً تطلق العِنان للشهوات بدون ضابط .

وقد ظهرت هذه الدعوة على يد رجل من أهل نيسابور في فارس ، يدعى (مزدك) وذلك في القرن الخامس الميلادي ، وكان يقول بإله النور وإله الظلمة ، وينهى عن البغض والحسد والقتال ويرى أنه لا سبيل للتخلي عن هذه الضغائن إلا بإباحة الأموال والنساء[3] ، وهكذا نادى بالأباحية المطلقة التي تجعل الناس شركاء في كل شيء ، ويبيح لهم إرضاء شهواتهم وقضاء نزواتهم بلا قيد ولا شرط ، وبالتالي لا يبقى فرق بين هؤلاء وبين الحيوانات، بل إن بعضاً من الحيوانات جُبلت على الغيرة ولكن هؤلاء افتقدوها فصاروا أضل من البهائم .

وقد قال الله تعالى في وصف كل من تنكرَّ لنداء الفطرة وانحرف عن سبيلها القويم : ﴿ **أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون** ﴾[4] .

ولا يخفى أن هذه الدعوات الهدامة التي تنادي بالإباحية وتطلق العِنان لشهوات النفس

---

(١) نفسه ص٦٣ .

(٢) سورة الكهف ـ الآيتان/١٠٣-١٠٤ .

(٣) الدين والفلسفة والعلم ، محمود أبو الفيض المنوفي ـص١٠٩ .

(٤) سورة الأعراف-الآية/١٧٩ .

ليست قاصرة على (المزدكية) ، بل هي ممتدة حتى عصرنا الحاضر ، وهي واقع كثير من البلاد الغربية والشرقية ، التي تخلت عن الدين ونبذت الخلق القويم ، مستندة إلى نظريات علم النفس المادي التي سبق الحديث عنها ، ومبررة انحلالها بما وصل إليه الواقع النظري والعملي للدين عندهم ، وسنشير إلى ذلك في الحديث عن موقف اليهودية والنصرانية من تهذيب النفس في الصفحات التالية إن شاء الله .

❀ ❀ ❀

المبحث الثاني

اليهودية

ينتسب بنو إسرائيل إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، ويعقوب هو إسرائيل ، وقد هاجر هو وأولاده من فلسطين إلى مصر عندما كان ولده يوسف عليه السلام وزيراً فيها ، وظلت سلالات بني إسرائيل في مصر تنعم برعاية المصريين حيناً من الدهر ، ثم تغير الموقف وأضحوا مضطهدين معذبين تحت نير الإستعباد من فرعون وقومه ، حتى أرسل الله موسى وأخاه هارون عليهما السلام يدعوان إلى التوحيد ، ويبلغان الناس الشريعة الإلهية التي جاءا بها ، والتي سميت فيما بعد الديانة اليهودية[1] .

وأنزل الله سبحانه على نبيه موسى التوراة التي وصفها سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بقوله : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور** ﴾[2] .

وقوله سبحانه : ﴿ **وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء** ﴾[3] .

وكما كذّب فرعون وقومه بدعوة موسى عليه السلام فإن كثيراً من بني إسرائيل لم يستجيبوا لها استجابة كاملة ، ولم يهتدوا بما أنزل الله عليه من التوراة ، وإنما كانوا معاندين متمردين ، يؤمنون حيناً ويكفرون حيناً، حتى لقد عبدوا العجل في عهد موسى عليه السلام.

قال تعالى : ﴿ **ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون** ﴾[4] .

إلى قوله سبحانه : ﴿ **وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم** ﴾[5] .

كما كان قتل الأنبياء والعصيان وقسوة القلب وحب الدنيا والتعلق بها من أهم

---

(١) ينظر : الأسفار المقدسة ـ د . علي عبد الواحد وافي ـ ص٦ .

(٢) سورة المائدة / من الآية ٤٤ .

(٣) سورة الأعراف / من الآية ١٤٥ .

(٤) سورة البقرة / آية ٩٢ .

(٥) سورة البقرة / من الآية ٩٣ .

الصفات الملازمة لهم ، قال تعالى : ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك ما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾[2] .

وقال عزوجل : ﴿ **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزمه من العذاب أن يعمَّر والله بصير بما يعملون** ﴾[3] .

ثم أرسل الله إليهم رسلاً وأنبياء كثيرين من بعد موسى عليه السلام ، ومن أبرزهم داود وسليمان عليهما السلام ، ولكن صفة التكذيب والعناد ظلت ملازمة لهم ، اتباعاً لهوى نفوسهم قال تعالى مخاطباً إياهم : ﴿ **أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون** ﴾[4] .

و لم يكتف اليهود بالانحراف عن شريعة موسى والإعراض عن دعوات الأنبياء والرسل الذين جاؤوهم وإنما قاموا بما هو أخطر من ذلك حينما حرّفوا التوراة وغيّروا فيها حتى توافق أهواء نفوسهم واستمر هذا التحريف وتزايد جيلاً بعد جيل حتى أضحت اليهودية بعيدة كل البعد عما جاء به موسى ومَن بعده/أنبياء ورسل عليهم السلام .
مِن

وقد توعد الله سبحانه أحبار اليهود بالعذاب الشديد لما حرفوه من التوارة مما تمليه نفوسهم المريضة ، فقال تعالى : ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** ﴾[5] .

واستقر الأمر عند اليهود على كتابهم (العهد القديم) الذي يدَّعون أنه كتاب

(١) سورة البقرة / من الآية ٦١ .

(٢) سورة البقرة / من الآية ٧٤ .

(٣) سورة البقرة / آية ٩٦ .

(٤) سورة البقرة / من الآية ٨٧ .

(٥) سورة البقرة / آية ٧٩ .

مقدس ، وهو مؤلف من تسعة وثلاثين سفراً ، الأسفار الخمسة الأولى منه يزعمون أنها التوراة التي جاء بها موسى والأسفار الباقية ينسبونها لأنبيائهم الآخرين[1] ، كما يقدسون كتاباً آخر يسمونه (التلمود) وهو روايات شفوية تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل ، منذ القرن الثاني الميلادي إلى أواخر السادس ، وتتمضن شروحاً لكتابهم المقدس ، وهي عندهم أفضل منزلة من التوراة[2] ، لأنهم يزعمون أن أقوال الحاخامات هي قول ا لله الحي وأن ا لله يستشير الحاخامات عندما توجد مسألة معضلة لا يمكن حلها في السماء[3] !! .

وأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى[4] !!

والآن نلقي نظرة سريعة على هذين الكتابين المقدسين عند اليهود ، وهما عماد ديانتهم لنرى هل تصلح اليهودية أن تقدم منهجاً في تزكية النفس وإصلاحها أو لا ؟

١ ـ الأساس في التزكية أن تتوجه النفس للإيمان بالخالق سبحانه وتوحيده ، والإقرار له بصفات الكمال وتنزيهه عن صفات النقص حتى تطمئن تلك النفس وتسمو ، ولكن اليهودية سرعان ما حل بها التحريف فأصبحت ديانة تدعو إلى الشرك با لله سبحانه وتنسب له الولد ، وتصفه بصفات العجز والقسوة والبخل والولغ في الدماء والسرقة والاعتراف بالخطأ .. تعالى ا لله عن ذلك علواً كبيراً .

والأمثلة على هذا كثيرة[5] ، منها ما أورده سفر التكوين أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع[6] ، وأن يعقوب لقي ا لله ذات ليلة وأخذ يصارعه حتى بزغ الفجر وقد بلغ الوهن من ا لله مبلغه[7] .

وما جاء في التلمود أنه وقع الخلاف بين ا لله وعلماء اليهود في مسألة ، فبعد أن طال

---

(١) الأسفار المقدسة ـ د . علي عبد الواحد وافي ـ ص١٢وما بعدها .

(٢) الأسفار المقدسة ص٢١ ، وكتاب (اليهودية) د . أحمد شلبي ص٢٧٣ .

(٣) الكنز المرصود في قواعد التلمود ـ تأليف د . روهلنج ، ترجمة د . يوسف حنا نصر ا لله ص٤٦ .

(٤) ينظر : الأسفار المقدسة : د . علي وافي ـ ص٢٣ـ٣٥ ، الإسلام بين الأديان ـ د . محمد كمال جعفر ص١٨ ، قصة الأديان ـ د . رفقي زاهر ـ ص٦٤ـ٧٠ ، وغيرها .

(٥) سفر التكوين ٤٥ .

(٦) سفر التكوين ٤٧ .

(٧) التلمود ص٧٤ ، نقلا عن : الكنز المرصود في قواعد التلمود ص٤٧ .

الجدال تقرر إحالة فصل الخلاف إلى أحد الحاخامات ، واضطر الله أن يعترف بغلطه(١) !!

فكيف تتوجه النفس إلى خالقٍ يتصف بصفات العجز والنقص ؟ وكيف تزكو النفس وتطلب الكمال في ظل دين منحرف يصف الله سبحانه بالنقصان ؟

٢ ـ القدوة أساس في تزكية النفس ، والله سبحانه جعل الأنبياء والرسل قدوة حسنة للناس ينهجون منهجهم ويسيرون على خطاهم ، ويطلبون الاستقامة والصلاح بالاقتداء بأفعالهم.فهل صوّرت اليهودية الأنبياء بصورة حسنة تدعو لمحبتهم والتأسي بهم ؟

ـ بالرجوع إلى كتابهم المقدس (سفر صموائيل الثاني ــ الإصحاح ١١) نطالع قصة تصف نبي الله داود عليه السلام بأخس الصفات وأبشعها وتدعي القصة أن داود تمشى على سطح بيته في أورشليم فرأى من السطح امرأة تستحم وكانت جميلة المنظر فأرسل لها ودخل بها ، ولما أدرك أنها حملت وكان زوجها ـ وهو قائد من قواده ويسمى أوريا ــ بعيداً في المعركة طلب داود من بعض قواده أن يجعلوا زوجها في وجه الحرب الشديدة ثم يتراجعوا لكي يموت ، وحصل ذلك له ، وأصبحت المرأة زوجة له ، وولدت ابناً هو سليمان ، يختتم الإصحاح تلك القصة بقوله : (وأما الأمر الذي فعله داود فقُبح في عيني الرب) فكيف يكون موقف اليهودي من الاقتداء بالنبي داود وهو يقرأ في كتابه المقدس هذه القصة التي تصفه بارتكاب جريمة الزنى والأمر بقتل أحد قواده ليستخلص زوجته منه ، وتصوره بصورة عربيد مشغول بإشباع شهواته ولا يبالي في تحقيقها بأن يكذب ويحتال ويقتل ، ثم يكون سليمان عليه السلام ولداً من زنى !!

ـ ويتحدث العهد القديم عن جريمة أخرى وقعت في بيت داود حين يزعم أن أحد أولاد داود زنى بأخته على الرغم منها فخرجت باكية ، ولما عرف ذلك شقيقها الآخر وقد كان يريد أخته لنفسه دسَّ الخمر في الطعام لأخيه حتى سكر ثم أمر عبيده فقتلوه(٢) !!

جريمة زنى بين أخ وأخته ، وجريمة قتل مدبرة من أخ لأخيه ، كل ذلك في بيت نبي الله داود كما يزعمون !! ، فأين يجد اليهودي القدوة في تزكية النفس وإصلاحها ؟! .

---

(١) في التلمود الرب سبحانه أنه يتندم على ما فعل حتى يلطم ويبكي وتسقط كل يوم من عينيه ومما يصف ومقتان في الحبر فتضطرب المياه (الكنز المرصود /٥٠) .

(٢) سفر صموائيل الثاني ـ الإصحاح الثالث عشر .

ـ ويبلغ افتراؤهم على الأنبياء مداه حينما يزعمون أن سليمان عليه السلام كان له سبعمائة من النساء وأنهن أملنَ قلبه لآلهة أخرى ، حتى أقام لنسائه معابد لآلهة كن يعبدنها ويقدمن لها الذبائح ، ولما مال قلبه إلى هذه الآلهة أوصاه الله ألا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب[1] !!

ـ وتصل افتراءاتهم إلى نبي الله لوط عليه السلام حين يزعمون أنه اعتزل الناس مع بنتيه في بيت بالجبل فقالت البكر للصغيرة ، أبونا قد شاخ ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل أهل الأرض ، هلم نسقي أبانا خمراً ونضجع معه فنحيي من أبينا نسلاً ، ففعلت البكر ذلك ثم الصغرى ، وولدت كل منهما ولداً[2] .

إلى غير ذلك من الجرائم المخزية[3] ، التي يندى لها الجبين ولا تصدر إلا عن سفهاء الناس وفجّارهم ، ولكنها عند اليهود صارت أعمالاً للأنبياء وقصصاً تتلى في الكتاب المقدس الذي يزعمون أنه من عند الله وأنه أنزل لإصلاح نفوس الناس ، وهو في الواقع كتاب للإفساد ودعوة للانحلال .

٣ ـ من الصفات التي خلق الله النفس عليها أنها تتجه للخير كما تتجه للشر ، لكنهم يزعمون أن النفس تتجه للشر فقط ، ولذلك يقومون بتبرير الشر والإغراء به ، ويجعلون الخير أمراً صعب المنال لأنه يخالف طبيعة الإنسان هذا ما يزعمه التلمود عندهم حيث يقول إنا الله أعطى الإنسان طبيعة ردئية ، وسنَّ له شريعة لم يستطع بطبيعته الردئية أن يسير على نهجها ، فوقف الإنسان حائراً بين إتجاه الشر ، في نفسه ، وبين الشريعة المرسومة إليه ، وعلى هذا فإن داود الملك لم يرتكب خطيئة بقتله أوريا واتصاله بامرأته ، لأن الله هو السبب في كل ذلك[4] !!

ولذلك يصرح التلمود لليهودي بأن يسلم نفسه للشهوات ولكنه يلزم أن يفعل ذلك سراً لعدم الضرر بالديانة ، ويزعم أنه ليس على المرأة اليهودية أن تبدي أدنى شكوى إذا زنى زوجها في المسكن معها[5] .

---

(١) سفر الملوك الأول ـ ١١ .

(٢) سفر التكوين ـ الإصحاح ١٩ .

(٣) ينظر : الأسفار المقدسة ص٤٢ـ٥٠ ، واليهودية ـ د . أحمد شلبي ص١٧٣ـ١٧٨ ، وقصة الأديان ـ د . رفقي زاهر ـ ص٧١ـ٧٨ .

(٤) اليهودية ـ د . أحمد شلبي ـ ص٢٧٥ .

(٥) الكنز المرصود في قواعد التلمود ص٩٠ .

وهكذا تشوه اليهودية طبيعة النفس التي تميل إلى الخير كما تميل للشر ، فيجعلـون الشر هو الصفة الوحيدة لها ، وبالتالي يكون التكليف الشرعي حسب زعمهم أمراً يعارض الفطـرة ويعاكسها ،ولا حرج من تركه والتساهل فيه .

ومما يزيد من دنس النفس ورجسها ويدعو إلى تكبرها وتعاليها وتأصل الإجرام فيهـا مـا تزعمه كتبهم أن اليهود هم شعب الله المختار وأما باقي الشعوب فهـم حيوانـات في صـورة إنسان ، وأن اليهود أجزاء من الله ، وهـم مـالكون لكـل مـا في الأرض بالنيابـة عـن الإلـه ، وبالتالي يجوز لهم سرقة مال الآخرين من غير اليهـود وغشـهم وإيذاؤهـم وقتلهـم ، وإذا رأى أحد اليهود رجلاً غير يهودي واقعاً في حفرة لزمه أن يسدها بحجر ، أو رآه واقفاً في نهـر لا يجوز له أن ينقذه ، وينص التلمود على أن من العدل أن يقتل اليهودي كل أممـي لأنـه بذلـك يقرب قرباناً إلى الله[1] !!

فأين موضع تزكية النفس مع هذه الدعـاوى الباطلـة وشـحن النفـس بالأحقـاد وتزيـين الجريمة والحض على قتل الأبرياء !! .

ـ يضاف إلى ذلك كله أن اليهودية بعد تحريفها لم يبق فيهـا مـا يشـير إلى اليـوم الآخـر والحساب والجزاء في الآخرة ، ومعظم حديث اسفارهم عن الجزاء المعجل في الدنيا[2] ، كمـا لا تجد حديثاً عن الزهد في الدنيا والعمل للآخرة وغير ذلك مما يدعو إلى إقبال النفـس علـى طاعة الله فهل يبقى عندهم أثر بعد هـذا للدعـوة إلى تزكيـة النفـس والحـث علـى اسـتقامتها وصلاحها ؟ ! . هيهات

❀ ❀ ❀

(١) الكنز المرصود ـ ص٦٦ ، وما بعدها ، واليهودية ـ د . أحمد شلبي ص٢٧٨ .

(٢) قصة الأديان ـ د . رفقي زاهر ص٥٧ .

المبحث الثاني

النصرانية

عندما اشتد انحراف بني إسرائيل عن منهج الأنبياء أرسل الله عيسى عليه السلام يدعو إلى عقيدة التوحيد ، وكانت دعوته تركز على الزهد في الدنيا والإقبال على العبادة والتحذير مما وصل إليه حال اليهود من الانغماس في الدنيا وشهواتها ، وقد كانت ولادة عيسى عليه السلام من غير أب معجزة ، كما كان نطقه في المهد معجزة أخرى تدل على قدرة الخالق سبحانه وإبداعه في الخلق ، وإعلائه لعالم الروح بين قوم جعلوا المادة كل اهتمامهم ، ولم ينظروا للإنسان إلا من ناحية شهواته الجسدية(١) .

وقد كانت مهمة عيسى عليه السلام شاقة ، حيث لاقى الإعراض والتكذيب ، وكانت قسوة القلوب هي الصفة الملازمة لليهود ، فهم قوم استولت المادة على مشاعرهم ، وعكفوا على الدنيا ونسوا الآخرة ، ولذلك أعرضوا عن دعوته وبالغوا في إيذائه وخططوا لقتله لكن الله سبحانه نجاه من كيدهم ورفعه إليه(٢) .

أما أتباعه الذين آمنوا به فقد نزل بهم الاضطهاد ، وتعرضوا لصنوف المحن على يد اليهود وقياصرة الرومان ، واستمر ذلك مدة طويلة ، كانوا خلالها يخفون عباداتهم ، ولم يتسنَّ لهم تدوين الأنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام ، والحفاظ على نقاء العقيدة التي دخلها كثير من العقائد الوثنية والفلسفة الرومانية .

وفي مطلع القرن الرابع الميلادي تغيرت الأحوال حينما أوقف قسطنطين اضطهاد المسحيين وأعلن الدخول في المسيحية ، وبهذا أصبحت المسيحية ذات قوة وسلطان ، لكنها لم تكن مسيحية عيسى عليه السلام بل مسيحية مشوهة دخلتها عقيدة التثليث والقول بصلب المسيح وكثير من الانحرافات كما انقسمت إلى فرق كثيرة متناحرة فيما بينها(٣) .

---

(١) ينظر : محاضرات في النصرانية ـ للشيخ محمد أبو زهرة ـ ص٢٢ .

(٢) ينظر تفصيل ذلك في : محاضرات في النصرانية ص٢٨وما بعدها ، والمسيحية ـ د . أحمد شلبي . ص٣٤-٥٨ ، وغيرهما .

(٣) المسحية ـ د . أحمد شلبي ص٧٣ .

أما الإنجيل فقد دخله التحريف و لم يبق إنجيلاً واحداً بل وجدت عشرات الأناجيل التي وضعها عدد من أتباعهم ولما عقد مجمع نيقية سن ٣٢٥م ، تمَّ اختيار أربعة أناجيل من أكثر من أربعين أو خمسين إنجيلاً ، وكانت الهيئة التي اختارات هذه الأناجيل هي التي تعتقد بألوهية المسيح وعلى هذا الأساس رُفضت الكتب التي لا توافق هذه العقائد المنحرفة وأُحرقت كلها[١]

وهذه الأناجيل الأربعة هي إنجيل متى ، وإنجيل مرقس ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا ، بالإضافة إلى كثير من الأسفار التعليمية ومجموع هذه الكتب يطلقون عليه (العهد الجديد)[٢] .

وبعد هذا العرض الموجز ننتقل إلى الحديث عن موقف النصرانية من تزكية النفس من خلال الفقرات التالية :

١ - الرهبانية[٣] :

دعوة عيسى عليه السلام تقوم أساساً على التوحيد والحث على تزكية النفس والزهد في الدنيا ومحاربة دعوى اليهود أنهم شعب الله المختار ، وأن لهم المنزلة السامية دون الناس ، لذا جاء عيسى عليه السلام ليقول إن الناس جميعاً سواء أمام ملكوت الله سبحانه[٤] ، وكان أتباع عيسى عليه السلام الأوائل - وهم الحواريون - متمسكين بدعوته .

وقد وصفهم الله سبحانه بأن في قلوبهم الرأفة والرحمة ، وأنهم ألزموا أنفسهم الرهبانية مبالغة في العبادة قال تعالى : ﴿ **ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الآنجيل ، وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون** ﴾[٥] .

---

(١) المسيحية - د . أحمد شلبي ص٢٠٥ .

(٢) ينظر التفصيل في كتاب الأسفار المقدسة - د . علي وافي - ص .

(٣) سوف نتحدث عن موقف الإسلام من الرهبانية عند الحديث عن الإنحرافات في التزكية ينظر ص ٤٨٨/ من هذا البحث .

(٤) محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة - ص٢٨ .

(٥) سورة الحديد / آية ٢٧ .

روى الإمام الطبري في تفسيره عن قتادة أنه قال : " الرهبانية ابتدعها قوم من أنفسهم ، ولم تُكتب عليهم ، لكن ابتغوا بذلك رضوان ا لله ، فما رعوها حق رعايتها ، ذُكر لنا أنهم رفضوا النساء واتخذوا الصوامع "[1] .

وبذلك يكون الاستثناء منقطعاً بها ابتغاء رضوان ا لله فما حافظوا عليها حق المحافظة[2]، وقد ذكر الإمام الطبري أن منهم من رعى الرهبانية حق رعايتها وهم الذين وصفهم ا لله سبحانه بقوله : ﴿ **فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم** ﴾ لأنهم حافظوا عليها ابتغاء رضوان ا لله ، ومنهم من لم يرعها وهؤلاء إما أنهم في عهد الذين ابتدعوا الرهبانية ، أو ممن جاء بعدهم[3] .

فالرهبانية التي ذكرها ا لله سبحانه في هذه الآية كانت اختياراً من بعض أتباع عيسى عليه السلام ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان ا لله وابتعاداً عن أوضار الحياة ، ولم يكتبها ا لله عليهم ابتداء ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم التزموا بأن يرعوا حقوقها ويحافظوا على مقتضياتها من تطهر وترفع وقناعة وعفة وذكر وعبادة ، مما يحقق في أنفسهم حقيقة التجرد لله ، ولكنها انتهت إلى أن تصبح في الغالب طقوساً وشعائر خالية من الروح ، ولم يصبر على تكاليفها إلا عدد قليل[4] .

وأشار الإمام القرطبي إلى أن سبب اختيار أتباع عيسى عليه السلام للرهبانية ما نزل بهم من إيذاء جعلهم يعتزلون الناس ويتخذون الصوامع في البراري والجبال ، ويتركون الزواج ، وأن بعض ملوكهم لما غيروا وبدلوا في الدين أنكر عليهم من كان بقي منهم على منهاج عيسى عليه السلام فبدأوا يقتلونهم ، فقال من نجا منهم إنه لا يسعنا المقام بينهم ، فاعتزلوا الناس واتخذوا الصوامع[5] .

---

(١) جامع البيان للإمام الطبري ٢٣٨/٢٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ٢٦٣/١٧ ، روح المعاني للإمام الألوسي ١٩٠/٢٧ .

(٣) جامع البيان للطبري ٢٤١/٢٧ ، وهناك قول آخر أورده الإمام الطبري وغيره من المفسرين بأن المقصود بقوله تعالى : ﴿ **فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم** ﴾ هم الذين آمنوا بالرسول ﷺ واتبعوا الإسلام ولكن الإمام الطبري رجح القول الأول .

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب ٣٤٩٥/٦ .

(٥) ينظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٦٣/١٧ .

وإذا كانت الرهبانية في مراحلها الأولى تعني عندهم الاعتزال عن الناس واللجوء إلى الصحاري والجبال للإكثار من العبادة فإن هذا الأمر قد تغير على مر الزمن ، حيث أقاموا الأديرة لتكون موطناً للراغبين في الرهبنة ، وأصبحوا ينسبون أسس الرهبانية إلى السيد المسيح لأنه احتقر المال وترك الزواج وعاش حياة الزهد وتحمل الآلام[1] .

كما نسبوا له أيضاً أقوالاً في أناجيلهم تدعو إلى التخلي عن الأموال والبيوت والدعوة إلى التبتل والترهب .

ـ منها ما ورد في إنجيل متى : " إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء ، وتعال اتبعني "[2] .

ـ وما ورد فيه أيضاً : " من ترك بيوتاً أو حقولاً من أجل اسمي يأخذ مائة ضعف ويرث الحياة الأبدية "[3] .

ـ والأغرب من ذلك ما نسبوه للسيد المسيح أنه قال : " يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات ، من استطاع أن يتحمل فليحتمل "[4] .

ولا شك أن هذه الدعوة لا تتفق مع الفطرة ولا تستقيم مع طبائع النفس وصفاتها فالله سبحانه خلق في الإنسان غرائز فطرية ، وكلفه بعمارة الأرض ، بالعمل الصالح ،وجعله خليفة فيها ، وكل دعوة تعارض فطرة الإنسان لا يمكن لها أن تستمر في واقع البشر ولا بد لها من زوال وانحراف وهذا ما حصل فعلاً بالنسبة للرهبنة عند المسيحيين ، فسرعان ما انتشر الفساد والفجور في الأديرة وأصبحت مواطن لرواد اللذة والمتعة الجسدية والانحلال الخلقي ، وكثرت الفضائح التي تنقل عما يحدث بين الرهبان والراهبات ، حتى كان القسس والرهبان يفعلون الفاحشة بالراهبات ويبررون ذلك أنه ضرب من المساكنة الروحية[5] .

وينقل الدكتور أحمد شلبي اعترافات كثيرة عن عدد من أساقفة النصارى وكتابهم في وصف الوضع المخزي الذي وصلت إليه الأديرة حتى إن منشئ الأديرة (الأنبا انطونيوس)

---

(١) المسيحية ـ د . أحمد شلبي ، ص٢٤٤ـ٢٤٥ .

(٢و٣) إنجيل متى ـ الإصحاح ١٩/١٦ .

(٤) إنجيل متى ـ الإصحاح ١٩/١١ .

(٥) الأسفار المقدسة ـ د . علي وافي ـ ص١٢٢ .

يقول : (اقفل الأديرة لأن الرهبنة فسدت)[1] .

ويقول آخر : (إن الأديرة لا تقي من الفساد وإن الرهبان يحيون حياة شريرة)[2] .

كما ينقل عن المجلة المسيحية قولها : (الأديرة تحتوي على فساد عميق ، وهيهات أن يوجد بها من يصلح للبقاء ، إذ أنها تضم بين جدرانها أفاكين أولى بهم غيابات السجون)[3].

وينقل عن بعض كتبهم وصف الأديرة بأنها من البقاع المعمورة المقصودة بالتنزه والشراب ، وعندما يجتمع فيها النصارى لا يبقى أحد ممن يحب اللهو والخلاعة إلا تبعهم[4]!!

فهل تصلح الأديرة والكنائس في هذا الوضع المخزي لأن تكن موطناً لعبادة ا الله وتهذيب النفس ؟ وهل يصلح هؤلاء الرهبان والراهبات ليكونوا نموذجاً يُحتذى به وقدوة تُتّبع لمن يريد طهارة نفسه وتزكيتها والبعد عن الرجس والدنس ؟ هيهات ..

٢ ـ صكوك الغفران :

يدّعي النصارى أن يسوع الميسيح قلّد الكنيسة سلطان منح الغفران ، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان فكانت تضرب بسيف الحرمان من يعارضها وتمنح المغفرة لمن تريد ، ومع مرور الزمن زاد إفراط رجال الدين النصارى في منح الغفران من الذنوب حتى وصل الحال إلى إنشاء صكوك للغفران تباع وتشترى ، واتخذتها الكنيسة مورداً لكسب المال ، وأقبل عليها أتباع النصرانية وبذلوا لها أموالهم سعياً وراء غفران الذنوب[5] .

وفيما يلي فقرات من نص هذا الصك الغريب : " ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان ، ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة ، وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها ، وأيضاً من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة .. وأمحو جميع أقذار المذنب

(١و٢) المسيحية ـ د . أحمد شلبي ص٢٤٦ .

(٣) المرجع نفسه ص٢٤٧ ، نقلاً عن مجلة رسالة الحياة المسيحية ـ السنة الأولى ـ العدد السادس ـ ص٧٤ .

(٤) ينظر التفصيل في المرجع السابق ـ ص٢٤٧وما بعدها .

(٥) الأسفار المقدسة ـ د . علي وافي ـ ص١٢٣ ، محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة ص٢٠٩.

وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك.. وأقرنك في شركة القديسين ، وأردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك ، حتى إنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة ، إلى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح ، وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتي ساعتك الأخيرة باسم الآب والابن والروح القدس "[1] !

ولا شك أن هذا الصك هدم لكل دعوة خلقية وتحلل من كل تكليف ديني لأنه ضمان مزعوم بدخول الجنة لقاء مبلغ مالي ، ينال به مشتري الصك مغفرة الذنوب والتحلل من كل التبعات حتى يصير طاهراً ويصبح مع القديسين ، كما يزعم هذا الصك أنه ضمان للمستقبل فالذي يشتريه لا يُكتب عليه ذنب إلى موته ، وكل ما يذنبه مغفور سلفاً لأن هذه النعمة المزعومة (تبقى غير متغيرة) ، فهو جواز مرور إلى النعيم المقيم يظفر به من كان لديه أموال ويُحرم منه الفقراء .

وبهذه الصفقة التجارية البحته ينال المشتري الضمان بالجنة مهما فعل ، وبعدها لا يضيره شيء ولو أصبح من كبار المجرمين والمفسدين والأشرار لأن الضمان بيده لا يتغير .

فما فائدة السعي إلى تهذيب النفس وبذل الجهد في تطهيرها من الدنس واتباع تعاليم الدين ؟

إن هذا الصك نسف عملي لكل تعاليم النصرانية ومبائها ، وتقوية لدنس النفس ورجسها وتشجيع على الإنحراف والجرائم ، ولا يمكن أن تُنال الجنة بهذه المهزلة المخزية !!

وقد استمر تفاقم الوضع وازداد سلطان الكنيسة ونفوذها مما أدى إلى ظهور دعوة لإصلاح النصرانية ــ وتكونت فرقة البروتستانت ، في القرن السادس عشر ، للاحتجاج علىتصرفات الكنيسة ، ولكن هذه الفرقة لا تختلف عن فرق النصارى الأخرى في أمور العقيدة كالقول بالتثليث وألوهية المسيح وصلبه وغير ذلك[2] .

❀ ❀ ❀

---

(١) الأسفار المقدسة ص١٢٣ ، محاضرات في النصرانية ص٢١٠ .

(٢) ينظر : التفصيل في كتاب : الأسفار المقدسة ص١٢٣-١٢٦ .

٣ ـ الاعتراف أمام القسيس :

إذا كانت صكوك الغفران قد لاقت بعض المعارضة باعتبارها مهزلة مفضوحة ، فإن استخدام الكنيسة لحقها المزعوم في منح المغفرة قد اتخذ شكلاً آخر وهو ما يسمى (الاعتراف أمام القسيس) فما على المذنب إلا أن يعترف بذنبه في خلوة مع قسيسه ، ليستطيع هذا القسيس أن يغفر له ذنبه ، ويحدث في خلوات الاعتراف ما تقشعر له الأبدان وبخاصة عندما يكون الاعتراف من قِبل النساء ، فتخلو المرأة مع القسيس لتدلي بأسرارها ومغامراتها وصِلاتها الغرامية وغير ذلك .

وقد أشار الدكتور أحمد شلبي إلى ما نشرته المجلة المسيحية (رسالة الحياة) من صور يندى لها الجبين وما ذكرته من أحداث اعتدى فيها رجال الدين أو حاولوا العدوان على المعترفات[1] .

ويزعم النصارى أن هذا الاعتراف يحقق الراحة النفسية وأن جلوس المعترف على كرسي الاعتراف والإدلاء بما في نفسه من أسرار يؤدي إلى شفاء النفس المتعبة[2] .

كما يقولون إن للاعتراف عناصر ثلاثة : الشكوى والعلاج والغفران ، ففي الشكوى يفرغ المعترف متاعبه وينفس عن نفسه ، والعلاج يقوم به الكاهن بعد الإصغاء للشكوى وهو نصح وتوجيه وغير ذلك ، أما الغفران فهو نطق كنسي يمنحه للمعترف ليطمئنه أن توبته مقبولة[3] .

ولا شك أن هذا الاعتراف تفريغ مؤقت لثقل النفس لا يلبث أن يعود من جديد ، وبخاصة إذا ما رجع المعترف إلى نداء فطرته وأدرك أن هذا القسيس لا يملك غفراناً لأحد ، وهو بشر مثله لا يضر ولا ينفع ، بل إنه في كثير من الأحوال منغمس في الشهوات متكالب عليها .

فلا تكون راحة النفس إلا بأن يلجأ الإنسان إلى خالقه يدعوه ويناجيه ويشكو إليه همه ويقر بذنوبه ويطلب التوبة منه سبحانه ، ويتحقق بشروطها من الندم والإقلاع عن الذنب

---

(١) المسيحيى ـ د . أحمد شلبي ص٢٥٥ .

(٢) من مقالة : (دور الكنيسة في ميدان الصحة النفسية) للأنبا غريغوريوس ـ وهي مقالة ملحقة بكتاب : (الإنسان وصحته النفسية) للدكتور مصطفى فهمي ص٣٦٤ .

(٣) المرجع السابق ص٣٦٥-٣٦٦ .

والعزم على أن لا يعود إليه ، وهو مع ذلك لا يضطر إلى أن يكشف سره أمام مخلوق ، ولا أن يعترف بذنوبه أمام عبد مثله لينال التوبة منه ، وكثيراً ما تؤدي هذه الاعترافات إلى أخطار جسيمة وفضائح وخيمة ، وقد يتعود المعترف على تكرار هذه الذنوب ما دام غفرانها لن يكلفه إلا جلسة اعتراف ! .

فكيف تتحقق تزكية النفس بهذه الطريقة ؟! .

٤ ـ سلطة الكنيسة :

ازداد تسلط الكنسية على الناس وتحكمها بهم حتى وصل حداً أباح للكنيسة قتل كل من يرى رأياً يخالف رأي الكنيسة ولو كان في أمور تتعلق بمسائل العلوم كالفلك والأحياء ، وقد كانوا يسمون هذه المخالفة (الهرطقة) ، وكم حُكم على أناس بالقتل رجماً أو حرقاً بدعو (الهرطقة) لمجرد القول ببعض الأقوال العلمية التي صرحوا بها ولم تنل رضاء الكنيسة ، وحتى الملوك أنفسهم لم يكونوا بمنجاة من هذا الطغيان فقد حكم على بعضهم بالطرد والحرمان لمخالفتهم رأي الكنيسة وخروجهم عن طاعتها[1] ، وقد نتج عن ذلك ابتعاد الغرب عن الدين وانتشار مبادئ العلمانية والإلحاد ونفورهم من كل ما يمتُّ إلى الدين بصلة وطغيان المادية وسيطرتها على حياتهم وسلوكهم[2] .

وأمام هذا النفور والكراهية للكنيسة وجد رجال الدين النصراني أنفسهم بأشد الحاجة إلى اجتذاب الناس للكنيسة من جديد فأدخوا في طقوسها ما يرغّب الشباب الماجن في الإقبال عليها حتى أضحت الكنائس دوراً للهو والتسلية بل وحتى الرقص والزنا وأصبحت مكاناً لكل شيء إلا العبادة[3] .

ولا تسل بعد ذلك كيف تؤدي الكنيسة دورها في تهذيب النفس وإصلاحها ؟!

يضاف إلى ذلك كله ما تدعو إليه أناجيلهم من أمور تخالف فطرة النفس ولا يمكن لها أن تستقيم في عالم الواقع لأنها مثاليات خيالية تؤدي إلى الرضا بالضيم ، وتدعو إلى السلبية .

---

(١) الأسفار المقدسة ص١٢٢ ـ والمسيحية ص٢٥٦ .

(٢) ينظر تفصيل ذلك في كتاب (مذاهب فكرية معاصرة) – لمحمد قطب.

(٣) الإسلام ومشكلة الحضارة لسيد قطب ـ ص٨٢ .

ومن ذلك ما جاء في إنجيل لوقا أن السيد المسيح قال : " من ضربك على خدك الأيمن فاعرض له الآخر ، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك "[1] ، وأنه قال : " أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم "[2] .

ولا شك أن هذه الدعوة للاستسلام الذليل تجعل النفس تنفر من تعاليم النصرانية لأن الإنسان بطبعه يحب العدل ويرغب في الإنصاف والدفاع عن حقه المشروع ، والمستعرض للتاريخ يرى أن مواقف النصارى مع أعدائهم كانت على العكس تماماً فقد أقاموا الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش وهاهم اليوم يبطشون بالمسلمين في البوسنة والهرسك وغيرها بوحشية وهمجية ، فأين تعاليم دينهم المزعوم ؟ ! .

❀ ❀ ❀

(١) إنجيل لوقا ٢٨/٦ ، ومتى ٣٨/٥ .

(٢) إنجيل متى : الإصحاح الخامس .

الباب الثاني

الأسس العقدية لتزكية النفس

ويتضمن تمهيداً وأربعة فصول

الفصل الأول : التوحيد .

الفصل الثاني : الاعتصام بالكتاب والسنة .

الفصل الثالث : الإيمان بالقضاء والقدر .

الفصل الرابع : الإيمان باليوم الآخر .

تمهيد :

لابد لكل بناء من أساس ، وبمقدار قوة ذلك الأساس ورسوخه بمقدار ما ينهض البناء ويعلو ويقاوم الأعاصير ، وبناء النفس على الاستقامة والصلاح ، أساسه العبودية الحقة لله وحده والإيمان به سبحانه وبالدين الحق الذي ارتضاه لعباده ليكون لهم شرعة ومنهاجاً وهذا الإيمان ليس مجرد إعلان المرء بلسانه أو كلمات يرددها بين الحين والآخر ، وإنما هو ما وقر في القلب وصدَّقه العمل ، فهو عمل نفسي يبلغ أغوار النفس ويصحبه الخضوع والطاعة والتسليم والعبادة ، وكلما ازداد الإيمان رسوخاً كلما أثمر ثمراته اليانعة في تزكية النفس واستقامة السلوك[1] .

والتزكية في بدايتها ونهايتها لا تخرج عن مقام العبودية لله ، فهو سبحانه هو المتفضل بإرشاد العباد لما فيه تزكية نفوسهم إذا هم أخلصوا التوجه له والصدق بين يديه قال تعالى : ﴿ **ولولا فضل ا لله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً ولكن ا لله يزكي من يشاء وا لله سميع عليم** ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ **ا لله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[3] .

ولذلك كان الأساس الأول لتزكية النفس توحيد ا لله سبحانه ، وهو معنى شهادة التوحيد (أشهد أن لا إله إلا ا لله) ، ثم يأتي الاعتصام بالكتاب والسنة ، وهو مقتضى الشطر الثاني من الشهادتين (أشهد أن محمداً رسول ا لله) .

كما أن أركان الإيمان الأخرى تعد أسساً مهمة في تزكية النفس ، وأبرز ما يتصل منها بهذا الموضوع ، الإيمان بالقضاء والقدر ، والإيمان باليوم الآخر .

فإذا ترسخت في النفس هذه الأسس قام بناء النفس شامخاً متميزاً ، وأثمرت شجرة الإيمان ثمارها اليانعة ، ومن هنا لابد من الحديث عن هذه الأسس العقدية في تزكية النفس .

---

(١) ينظر : الإيمان والحياة ـ د . يوسف القرضاوي ـ ص/ ١٩ وما بعدها .

(٢) سورة النور / من الآية ٢١ .

(٣) سورة البقرة / آية ٢٥٧ .

الفصل الأول

التوحيد

توحيد الله سبحانه هو الاعتقاد الجازم بأنه إله واحد في ربوبيته فلا رب سواه وهو رب كل شيء وخالقه ومليكه ، وواحد في ألوهيته لا شريك له ، ولا إله غيره ، وأنه وحده المستحق للعبادة ، وواحد في كل ما ثبت له من صفات الكمال التي لا تنبغي إلا له ، وفي أسمائه التي تليق بذاته تبارك وتعالى[1] .

وقد أرسل الله سبحانه جميع الرسل يدعون إلى التوحيد ويحذرون الناس من الشرك والوثنية قال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[3] .

وقال عزوجل آمراً رسوله أن ينذر المشركين ويدعوهم لعقيدة التوحيد :

﴿ **قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار * رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار** ﴾[4] .

وفي الحديث الشريف الذي رواه البخاري عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : (يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)[5] .

وروى البخاري أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (لما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى نحو

(١) ينظر كتاب : الإيمان ـ د . محمد نعيم ياسين ـ ص /٤ .
(٢) سورة النحل / من الآية ٣٦ .
(٣) سورة الأنبياء / آية ٢٥ .
(٤) سورة ص / الآيتان ٦٥-٦٦ .
(٥) صحيح البخاري ـ كتاب التوحيد ـ باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى التوحيد ـ ٨/١٦٤ ..

أهل اليمن قال له : إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحّدوا الله تعالى ، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ..)[1] إلى آخر الحديث .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : (التوحيد أول دعوة الرسل ، وأول منازل الطريق ، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى)[2] .

ولذلك كان الموضوع الأساسي في القرآن الكريم هو التوحيد ، وكانت آيات القرآن تنزل في مكة المكرمة سنوات طويلة ، لتثبيت هذه العقيدة في النفوس والرد على المعاندين الذين انحرفوا عنها ، وقد ألزم الله المشركين بما أقروا به من الاعتراف بأن الله هو الخالق سبحانه فأقام الحجة عليهم بوجوب توحيده سبحانه وإفراده بالعبادة والطاعة ، وأظهر عجز آلهتهم المزعومة ، وأنها لا تملك ضراً ولا نفعاً وأن ما يحوط الإنسان من النعم إنما هو من عند الله سبحانه .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾[3] .

وقال سبحانه : ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ، والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ، إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون** ﴾[4] .

كما أن آيات القرآن الكريم حافلة بالرد على أهل الكتاب الذين نسبوا لله الولد وغيرهم من أصناف الملحدين والمشركين ، وإلزامهم الحجة بما لا يستطيعون إنكاره من بديع صنع الله واستقامة نظام الكون وعدم اضطرابه .

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب التوحيد ـ باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى التوحيد ـ ١٦٤/٨ .

(٢) مدارج السالكين ـ لابن القيم ـ ٤٤٣/٣ .

(٣) سورة البقرة / الآيتان ٢١-٢٢ .

(٤) سورة النحل / الآيات ١٧-٢٢ .

قال تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون** ﴾[2] .

وأبرز ما تركز عليه آيات القرآن الكريم في تثبيت عقيدة التوحيد إيقاظ الفطرة ، فالإنسان إذا انطمست فطرته وأظلم قلبه ، انحرف عن التوحيد وادعى الاستغناء عن خالقه ، فإذا ألمّت به الشدائد وأيقن بالهلاك لجأ إلى الله وحده وأخلص التوجه إليه بالدعاء وأظهر افتقاره وتذلله لخالقه سبحانه ، وسرعان ما ينكص على عقبه ويبتعد عن خالقه بمجرد زوال الخطر قال تعالى : ﴿ **هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[3] .

فالإنسان في حالة الرخاء قد ينسى خالقه ، ولكنه عند الشدائد والكرب الشديد لا يلجأ إلا إلى الله ، لأن التوحيد فطرة في نفسه ، أما الشرك والإلحاد فهو غطاء خادع يغشى النفس ويحيط بها .

ولذلك تجد الإنسان الملحد عديم الثقة بالحياة ، دائم الاضطراب والقلق ، لأنه يواجه الحياة دون اعتماد على خالقه ، وإذا تهددته المخاطر انهارت أعصابه وخارت قواه ، فهو كريشة في مهب الريح ، دائم القلق والحيرة ، والتذلل للناس أو التعالي عليهم بحسب مقتضى الأحوال .

أما المؤمن الموحد الذي تيقظت فطرته فإنه يحيا حياة حرة كريمة ، يشعر فيها بإنسانيته ويدرك أن لوجوده قيمة وغاية ، ولحياته رسالة ، وينعم بسكينة النفس وطمأنينة القلب ،

---

(١) سورة الأنبياء / آية ٢٢ .

(٢) سورة المؤمنون / آية ٩١ .

(٣) سورة يونس / الآيتان ٢٢-٢٣ .

ويخلص نفسه من أسر العبودية للبشر لينال العزة والسمو بعبوديته للخالق سبحانه .

ـ ولقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله عزوجل تؤكد هذا المعنى وتعرض الصورتين المتناقضتين لآثار التوحيد في اطمئنان النفس وسلامتها وتأثير الشرك في اضطرابها وقلقها ، وهذه بعض النماذج مما ورد في آيات القرآن الكريم :

نماذج قرآنية لبيان آثار التوحيد في النفس الإنسانية وآثار الشرك فيها :

١ ـ النموذج الأول : قوله تعالى :

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾[١] .

وهذه الآيات الكريمة تصور أثر التوحيد في النفس وتضرب له مثلاً بالشجرة الطيبة الثابتة التي لا تزعزعها الأعاصير ، ولا تعصف بها الرياح ، والمثمرة على مر الأيام دون أن ينقطع ثمرها وقد روى المفسرون عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (الكلمة الطيبة شهادة أنه لا إله إلا الله)[٢] .

وهذا يدل على أن التوحيد هو الأساس الذي يقوم عليه البناء ، ولكن هذا الأساس لا يكفي في النجاة دون العمل الصالح وتزكية النفس واستقامة السلوك ، كما لا يكفي أساس البناء دون رفع الأعمدة والجدران ليتم الانتفاع من البناء ، ولا تكفي جذور الأشجار دون أن تنبت الأغصان وتثمر الثمار .

أما كلمة الشرك فهي كالشجرة الخبيثة التي لا أصل لها ولا ثبات ، وقد تهيج وتتعالى ويخيل إلى الناظر أنها أقوى من الشجرة الطيبة ، لكنها تظل هشة لا جذور لها تترسخ بها وما هي إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض ، فلا يبقى لها قرار ، وهذا هو حال الشرك في

(١) سورة إبراهيم / الآيات ٢٤-٢٧ .

(٢) ينظر : تفسير ابن كثير ٢/٥٣٠ .

اضطرابه وقلقه وعدم رسوخه[1] ، وهو مقطوع الأصل لا صلة له بالفطرة السليمة التي أوجدها الله في النفس والله سبحانه يثبت أهل التوحيد ليزدادوا رسوخاً ويزداد إيمانهم استقراراً ويثمر العمل الصالح ، كما يزيد أهل الشرك ضلالاً واضطراباً لانحرافهم عن الحق وإعراضهم عن نداء الفطرة .

٢ ـ والنموذج الثاني : قوله تعالى : ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق** ﴾[2] .

وفي هذا النص القرآني تصوير لحال المشركين الذين زلت أقدامهم عن طريق التوحيد ، وقد شبه الله سبحانه الإيمان بالسماء لعلوه ، والشرك بالسقوط منها ، فالمشرك ساقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر ، فهو كمن سقط من السماء إلى الأرض فتمزقت أوصاله وصارت الطير تتخطفها وتهوي بها الريح فتلقي بها في مكان سحيق ، ومن كانت هذه صفته لا يُرجى له خلاص إذ يفقد القاعدة الثابتة ، قاعدة التوحيد ، والمستقر الآمن الذي يثوب إليه ، فتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح ، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح .

ونلاحظ في هذا المشهد سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها (بالفاء) وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله تعالى[3] .

٣ ـ النموذج الثالث : قوله تعالى :

﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون** ﴾[4].

وفي هذه الآية الكريمة بيان لحال المؤمن الذي استقامت فطرته على التوحيد فشرح الله صدره للإسلام ونوّر طريقه وتولاه بالخير ، وأما من امتنع عن قبول الإيمان ، واتجه إلى

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن لسيد قطب ٢٠٩٨/٤ .

(٢) سورة الحج / من الآية ٣٠ ـ والآية ٣١ .

(٣) ينظر : تفسير ابن كثير ٢١٩/٣ ، روح المعاني للألوسي ١٤٩/٦ ، أضواء البيان للشنقيطي ٦٩١/٥ ، في ظلال القرآن لسيد قطب ٢٤٢١/٤ .

(٤) سورة الأنعام / آية ١٢٥ .

الضلال فإن ا لله يزيده ضلالاً ويجعل صدره ضيقاً منقبضاً[1] ، ومثله في ذلك كمثل الذي يصعَّد في السماء يجد ضيق الصدر كلما زاد صعوداً حتى ينقطع نَفَسه فلا يقدر على التنفس.

فا لله سبحانه يؤيد أهل التوحيد ويزيدهم هدىً وإيماناً ، قال تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم** ﴾[2] ، أما أهل الضلال فالشيطان مسلط على قلوبهم ممسك بخناقهم كما قال تعالى : ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر ا لله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾[3] .

٤ ـ النوذج الرابع : قوله تعالى :

﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بِقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد ا لله عنده فوفّاه حسابه وا لله سريع الحساب ، أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل ا لله له نوراً فما له من نور** ﴾[4] .

هذان مثلان ضربهما ا لله تعالى لنوعي الكفار ، فأما المثل الأول فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات ، وما هم إلا كسراب في أرض مبسوطة ، يلتمع التماعاً كاذباً ، فيتبعه صاحبه الظامئ ، وهو يتوقع الري ، ويجري وراءه وقتاً طويلاً يطلبه فلا يظفر به ، ثم يفاجأ بعد طول عناء بأنه كان يسير وراء وهم خادع وأن الذي يحصل عليه هو عذاب ا لله ومقته ، وهذا هو حال المنحرفين عن التوحيد يظنون أنهم بمبادئهم الضالة سينالون السعادة وسكينة النفس والحياة الطيبة فلا يظفرون إلا بالحسرات والشقاء وأما المثل الثاني فهو لأصحاب الكفر من الأتباع وعامة الناس ، المقلدون لأئمة الضلال ، السائرون خلفهم بعماية وطيش ، حتى أظلمت قلوبهم وختم ا لله عليها ، واجتمعت عليهم ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض كما تجتمع الظلمة في قاع البحر العميق الذي تعلوه الأمواج المتلاطمة ، إذا أخرج أحد يده في هذه الظلمة لم يكد يراها ، وهو مثل قلب الكافر المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده ولا يدري أين يذهب ويزداد هذا المثل دقة

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ١٧٤/٢ ، في ظلال القرآن ١٢٠٤/٣ .

(٢) سورة محمد / آية ١٧ .

(٣) سورة المجادلة / آية ١٩ .

(٤) سورة النور / الآيتان ٣٩-٤٠ .

في تصوير شدة هذه الظلمات عندما يصف مشهد هذا البحر المتلاطم الذي لا يدرك مقره ، بأن فوقه سحاب ، وهذا أعظم للخوف من وجهين :

أحدهما : أنه قد غطى النجوم التي يُهتدي بها .

والثاني : الريح التي تنشأ مع السحاب والمطر الذي ينزل منه فتبلغ الظلمة مداها ، كما يبلغ الخوف والاضطراب غايته ومنتهاه ، ولا يبقى أي أمل في بصيص من نور في خضم هذا البحر المخيف .

وهذا تصوير في غاية الدقة والشمول لحال الكافر ومآله ، فهو يتقلب في ظلمات من الجهل والشك والحيرة والضياع ، وكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، وطريقه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى أشد الظلمات(١) .

٥ ـ النموذج الخامس : قوله تعالى :

﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سَلَماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾(٢) .

وهذا مثل يضربه الله سبحانه للعبد الموحد والعبد المشرك ، فالموحد مثله كمثل عبد يملكه سيد واحد لا ينازعه آخر فيه ، إذا أطاعه عرف ذلك له ، ينعم بالراحة والاستقرار ، وتجتمع طاقاته على عمل واحد محدود ، وأما المشرك فمثله كعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً ، وهو بينهم حائر ، لكل منهم فيه توجيه ، ولكلٍ منهم عليه تكليف ، فهو لا يرضي هذا ولا ذاك مهما بذل من جهد ، ولا يلقاه واحد منهم إلا جرَّه واستخدمه ، فكيف يوفق بين أهوائهم المتنازعة المتشاكسه التي تمزق اتجاهاته وقواه ؟!

وهذا مثل غاية في البراعة لتصوير حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك ، فالقلب الموحد هو الذي يحيا على هدى ، ويستمد العون من الله وحده ، وبذلك تجتمع طاقته وتتوحد ويقف ثابت القدمين مستقراً ينعم باليقين ووضوح الطريق ، والقلب المشرك يخضع للأهواء ويستذل لعبوديات البشر فهو معذب قلق لا يستقر على حال ولا يظفر بمآل(٣) .

---

(١) ينظر : تفسير ابن كثير ٢٩٦/٣، وتفسير القرطبي ٢٨٣/١٢ ، وفي ظلال القرآن ٢٥٢١/٤ .

(٢) سورة الزمر / آية ٢٩ .

(٣) ينظر : تفسير ابن كثير ٥٢/٤ ، والقرطبي ٢٥٢/١٥ ، والظلال ٣٠٤٩/٥ .

ـ قال الإمام ابن تيمية رحمه الله : (القلب لا يصلح ولا يفلح ، ولا ينعم ولا يسر ، ولا يطيب ولا يسكن ، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحده ، وحبه والإنابة إليه ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن ، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه بالفطرة من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه ، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة ، وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له .. ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله ، بحيث يكون الله هو غاية مراده ونهاية مقصوده ... ومتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة (لا إله إلا الله) ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله ، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان ، بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك)[1] .

ـ وقال الإمام ابن القيم رحمه الله : (يتحقق للعبد مقام ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ علماً وحالاً ، فيثبت قدم العبد في توحيد الربوبية ، ثم يرقى منه صاعداً إلى توحيد الإلهية ، فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، والهدى والضلال ، والسعادة والشقاء : كل ذلك بيد الله لا بيد غيره ، وأنه الذي يقلب القلوب ، ويصرفها كيف شاء ، وأنه لا موفَّق إلا من وفقه وأعانه ، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه ، وأن أصح القلوب وأسلمها .. من اتخذه وحده إلهاً ومعبوداً ، فكان أحب إليه من كل ما سواه ، وأخوف عنده من كل ما سواه ، وأرجى له من كل ما سواه ، فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب ، فتنساق المحابُّ تبعاً لها كما ينساق الجيش تبعاً للسلطان ، ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخوفات ، فتنساق المخاوف كلها تبعاً لخوفه ، ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء ، فينساق كل رجاء تبعاً لرجائه ، فهذا علامة توحيد الإلهية في هذا القلب)[2] .

وهكذا ينال المؤمن الموحد العزة والكرامة والأمن والسكينة ، وصدق الله سبحانه القائل: ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾[3] .

---

(١) العبودية ـ لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ ص٥٤ .

(٢) مدارج السالكين للإمام ابن قيم الجوزية ـ ٤١١/١ .

(٣) سورة الأنعام / آية ٨٢ .

كما أن لتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية آثار عظيمة في تزكية النفس وترسيخ اليقين والطمأنينة في القلب ، وقد سبق بيان ذلك في الصفات السابقة ، فإن لتوحيد الأسماء والصفات آثار كبيرة أيضاً يدركها كل من تأمل آيات القرآن الكريم وتدبرها .

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بما وصف الله به نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ ، من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل[1] .

والعلم بهذا واجب على كل مسلم ، لأن معرفة أسماء الله وصفاته أساس خشيته .

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في حديثه عن أنواع العلم الواجب على المكلف : (أحدها ـ العلم به نفسه ، وبما هو متصف به سبحانه من نعوت الجلال والإكرام وما دلت عليه أسماؤه الحسنى ، وهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة)[2].

وقد أمر الله عباده أن يدعوه ويتوجهوا إليه بأسمائه الحسنى ، فقال تعالى : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون** ﴾[3] .

وقال عز وجل : ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيامّا تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾[4]

وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن لله تسعة وتسعين اسماً ، من حفظها دخل الجنة) وفي رواية (من أحصاها)[5] .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : (إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم ، فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقاً له أو أمراً .. ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى)[6] ، ثم يقول : (مراتب إحصاء اسمائه التي من أحصاها دخل الجنة ، وهذا هو قطب السعادة ، ومدار النجاة والفلاح . المرتبة الأولى : إحصاء ألفاظها وعددها ، والمرتبة الثانية : فهم معانيها ومدلولها ، والمرتبة الثالثة : دعاؤه بها .. دعاء ثناء وعبادة ، ودعاء طلب ومسألة ، فلا يثني عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وكذلك لا يسأل إلا بها)[7] .

ولكل اسم من أسماء الله الحسنى تأثير عظيم يؤدي إلى محبة الله سبحانه والخشية منه والتقرب إليه بالعمل الصالح .

ومن هذه الأسماء (الحليم) و (الغفور) و (الرحيم) فهي أكبر مؤثر في نفوس العباد

---

(١) مجموع الفتاوي ـ للإمام ابن تيمية ـ ٣/٣٧٣ .

(٢) المرجع نفسه ـ ٣/٣٣٣ .

(٣) سورة الأعراف / آية ١٨٠ .

(٤) سورة الإسراء / من الآية ١١٠.

(٥) صحيح البخاري ـ كتاب الدعوات ـ باب : لله تعالى مائة اسم غير واحد . وصحيح مسلم في الذكر والدعاء ـ باب أسماء الله تعالى ـ رقم /٢٦٧٧ .

(٦) بدائع الفوائد ـ ١/١٦٣ .

(٧) المرجع نفسه ١/١٦٤ .

ليسارعوا إلى التوبة ويقلعوا عن المعاصي والذنوب .

وفي هذا يقول سبحانه : ﴿ **نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم** ﴾[1] .

وكذلك اسم (الرقيب) المطلع على خفايا الصدور والخواطر ، والذي لا يغفل عن خلقه سبحانه ، وتأمل قوله تعالى : ﴿ **إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾[2] .

وقوله عز وجل : ﴿ **وكان الله على كل شيء رقيباً** ﴾[3] .

فالله سبحانه مراقب لجميع أحوال عباده وأعمالهم ، وفي هذا تنبيه لهم وإرشاد بأن يراقبوا ربهم ويخلصوا العمل له سبحانه[4] .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : (فهو سبحانه يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله ويأمر به ، وما يحبه ويبغضه ، ويثيب عليه ويعاقب عليه)[5] ، ثم يقول : (فتأمل ورود أسمائه الحسنى في كتابه ، وارتباطها بالخلق والأمر ، والثواب والعقاب)[6] .

ويفصّل ـ رحمه الله ـ في بيان هذا الموضوع في كتابه (مفتاح دار السعادة) فيقول : (الأسماء الحسنى والصفات العلا مقتضية لآثارها من العبودية والأمر ، اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين ، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها ، أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها ، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح ، فعلمُ العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع ، والعطاء والمنع ، والخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً ، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً .

وعلمه بسمعه تعالى وبصره ، وعلمه أنه لا يخفي عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، فإنه يعلم السرَّ وأخفي ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه ، وخطرات قبله عن كل ما لا يرضي الله ، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه ، فيثمر له ذلك الحياء باطناً ، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح .

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء ، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه .

وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه . تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة .. وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العُلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية ، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات)[7] .

---

(١) سورة الحجرات / الآيتان ٤٩ ـ ٥٠ .

(٢) سورة النساء / من الآية ١ .

(٣) سورة الأحزاب / من الآية ٥٢ .

(٤) ينظر : تفسير ابن كثير ٤٤٨/١ .

(٥) مدارج السالكين ٣/ ٤٦٨ .

(٦) المرجع نفسه ٤٦٩/٣ .

(٧) مفتاح دار السعادة ـ ٢/ ٩٠ .

الفصل الثاني

الاعتصام بالكتاب والسنة

أساس الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فالشطر الأول هو التوحيد ، أما الشطر الثاني فهو الإيمان بالرسول ﷺ ، والتصديق بما جاء به من عند الله سبحانه والاقتداء به ، وامتثال أمره ، وهذا هو الاعتصام بالكتاب والسنة .

والاعتصام من العصمة ، وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور ، والاحتماء من كل ما يضرك في دينك وآخرتك ، ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بحبل الله[1] ، قال تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾[2] .

والمراد بالحبل الكتاب والسنة على سبيل الاستعارة ، فكما أن الحبل سبب لحصول المقصود به من السقي وغيره ، فكذلك الاعتصام بالكتاب والسنة سبب لسعادة الإنسان ونجاته من عذاب جهنم[3] .

كما أن هذا الاعتصام طريق لا بد منه للانتصار على النفس الأمارة بالسوء والشيطان المتربص الماكر .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير** ﴾[4] .

وقد استدل الإمام ابن القيم رحمه الله بهذه الآية الكريمة على منزلة الاعتصام وأهميته فقال : (أي : متى اعتصمتم به تولاكم ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان ، وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد ، وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارجي ، فالنصر على

---

(١) مدارج السالكين للإمام ابن قيم الجوزية ٤٦٠/١ .

(٢) سورة آل عمران / من الآية ١٠٣ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر ٢٤٥/١٣ .

(٤) سورة الحج / من الآية ٧٨ .

هذا العدو أهم ، والعبد إليه أحوج ، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام با لله)[1] .

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تأمر بالاعتصام بالكتاب والسنة ، والاستجابة لله ورسوله والطاعة والتسليم لأمر ا لله ورسوله ، وتبين أثر هذه الاستجابة في حياة المسلم وسعادته في الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾[2].

فالاستجابة لأمر ا لله ورسوله فيها النجاة والحياة ، حياة القلب ونجاته ، من أسر الشهوات وقيودها ، وحياة العقل وانطلاقه من أغلال الجهل والشك والشبهات ، وحياة الإنسان وتحرره من ذل العبودية للبشر ، وتحقيق عزته وسموه ، وحياة المجتمع بتماسكه وطهارته وقوته ، ثم حياة السعادة الأبدية في الآخرة .

قال تعالى : ﴿ **للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد** ﴾[3] .

وقد أوجب ا لله على عباده طاعة الرسول ﷺ ، وجعلها من طاعته عزوجل ، وبيّن أن السنة النبوية وحي من عند ا لله يجب التمسك بها والحرص عليها .

قال تعالى : ﴿ **ومن يطع الرسول فقد أطاع ا لله** ﴾[4] .

وقال سبحانه : ﴿ **وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى** ﴾[5] .

وقال عز وجل : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾[6] .

---

(١) مدارج السالكين ١/١٨٠ .

(٢) سورة الأنفال / من الآية ٢٤ .

(٣) سورة الرعد / آية ١٨ .

(٤) سورة النساء / من الآية ٨٠ .

(٥) سورة النجم / من الآيتان ٣ ـ ٤ .

(٦) سورة الحشر / من الآية ٧ .

وهذا الاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه ، والتسليم لشرع الله ، هو العروة الوثقى المنجية من الهلاك قال تعالى : ﴿ **ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور** ﴾(١) .

كما تظاهرت نصوص الكتاب والسنة على وجوب طاعة الله ورسوله والانقياد عن رضاً ومحبة لأمر الله ورسوله ، والتسليم بذلك دون أي مخالفة أو منازعة أو ريبة .

قال تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾(٢) .

وقال سبحانه : ﴿ **إنما كان قولَ المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ، ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون** ﴾(٣) .

فإذا التزم المسلم بطاعة الله ورسوله والاعتصام بالكتاب والسنة نال رضاء الله وجنته .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)(٤) .

ـ ولا يتم الاعتصام بالكتاب والسنة ما لم يحرص المسلم على **التأسي والاقتداء** بالرسول ﷺ فالقدوة طريق الاعتصام ، وقد كانت سيرة الرسول ﷺ تطبيقاً عملياً لما يأمر به الإسلام ويحث عليه ، ولذلك أمرنا الله سبحانه بالتأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله .

قال تعالى : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾(٥) .

ـ كما لا يتحقق الاعتصام بالكتاب والسنة ما لم يلتزم المسلم **بالإخلاص** الذي هو

---

(١) سورة لقمان / آية ٢٢ .
(٢) سورة النساء / آية ٦٥ .
(٣) سورة النور / الآيتان ٥١-٥٢ .
(٤) صحيح البخاري ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ١٣٩/٨ .
(٥) سورة الأحزاب / آية ٢١ .

الأساس في قبول الأعمال ، فالله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم .

قال تعالى : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له** ﴾[2] .

وقد فصّل العلماء في الحديث عن الإخلاص وتصحيح النية ، وعدوا ذلك من أهم الأمور التي تنبغي معالجتها لكي يتخلص المسلم من داء الرياء الذي يحبط الأعمال[3] ، كما أن البخاري صدّر كتابه الصحيح بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى)[4] .

وقد نُقل عن الإمام أحمد رضي الله عنه أنه قال : [أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث : " حديث عمر : " إنما الأعمال بالنيات " وحديث عائشة : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد "[5] ، وحديث النعمان بن بشير : " الحلال بين والحرام بين "[6]][7]

وتوجيه ذلك أن الدين يرجع إلى فعل المأمورات وترك المحظورات والتوقف عن الشبهات ، وهذا كله تضمنه حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه ، وإنما يتم ذلك بأمرين :

أحدهما : أن يكون العمل في ظاهره على موافقة السنة ، وهذا ما تضمنه حديث عائشة رضي الله عنها .

والثاني : أن يكون العمل في باطنه يقصد به وجه الله عزوجل كما تضمنه حديث عمر رضي الله عنه .

وقد نقل الإمام ابن رجب الحنبلي عن الفضيل بن عياض قوله : (إن العمل إذا كان

---

(١) سورة البينة / من الآية ٥ .
(٢) سورة الأنعام / من الآية ١٦٢ .
(٣) سنعرض لذلك بالتفصيل عند الحديث عن أمراض النفس ، وذلك ص /٢٢١من هذا البحث .
(٤) رواه البخاري في بداية صحيحه ، ومسلم في الأمارة ـ رقم (١٩٠٧) .
(٥) رواه البخاري في كتاب الصلح ١٦٧/٣ ـ ورواه مسلم في الأقضية ـ رقم (١٧١٨) .
(٦) رواه البخاري في الإيمان ـ باب من استبرأ لدينه ١ /١٩ ، ورواه مسلم في البيوع ـ رقم (١٥٩٩) .
(٧) جامع العلوم والحكم ـ للإمام ابن رجب الحنبلي ـ ص/٥ .

خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً وصواباً والخالص ما كان لله عزوجل ، والصواب إذا كان على السنة)[1] .

نماذج من الحديث النبوي لبيان أثر الاعتصام بالكتاب والسنة في تزكية النفس :

الاعتصام بالكتاب والسنة أساس في صلاح النفس واستقامة السلوك ، وقد بين الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة أثر هذا الاعتصام في حياة الفرد والمجتمع ، ووصف بأساليب في غاية الحكمة حال المؤمن المعتصم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وما يناله من سكينة النفس والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة ، وحال المعرض عن هدي الإسلام وما يتعرض له من هوان وعذاب وشقاء .

وهذه بعض النماذج :

١ ـ عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله ، كأنها موعظة مودع فأوصِنا قال: (أوصيكم بتقوى الله عزوجل ، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومُحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة)[2] .

فقد كان من أواخر ما أوصى به الرسول ﷺ أصحابه الأمر بلزوم السنة وشدة التمسك بها ، واجتناب الأمور المحدثة في الدين ، وأن هذا هو سبيل النجاة من كل اختلاف وفتنة وضلال وقد ورد في روايات أخرى أن الرسول ﷺ قال : (تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك)[3] .

٢ ـ وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال : إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العُريان ، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم

---

(١) المرجع نفسه ص/ ١٠ .

(٢) رواه أبو داود ـ كتاب السنة ـ (رقم ٤٦٠٧) والترمذي في كتاب العلم ـ رقم (٢٦٧٨) وقال حديث حسن صحيح .

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند ٤/١٢٦ ، ورواه ابن ماجه في سننه في موضعين ١/٤، ١/١٦ .

فأصبحوا مكانهم فصبّحهم الجيش فأهلكم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذّب بما جئت به من الحق)[١] .

وقد شبّه الرسول ﷺ نفسه في إنذاره لقومه من عذاب الله ، وفي دعوته لهم إلى النجاة بالنذير العُريان ، الذي يسرع منذراً بخطر الجيش القادم ، وقد كان من عادة العرب أن الرجل إذا رأى خطراً من بعيد يوشك أن يدهم قومه نزع ثيابه وأشار بها إليهم إذا كان بعيداً عنهم ليخبرهم بالخطر المحقق الذي وصل إلى درجة قصوى لا تحتمل انتظاراً ، فمن صدّقه سار من أول الليل بعيداً عن موضع الخطر ومن كذّبه ولم يطعه وبقي في مكانه حتى دخل الصباح اجتاحه الجيش فصار من الهالكين[٢] .

وهذا حال من آمن بالرسول ﷺ وصدّق بما جاء به من عند الله ، وحال من كذّب وأعرض حتى حلت به الشقاوة ونزل به العذاب .

٣ ـ عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو يذبُّهن عنها ، وأنا آخذ بحُجزكم عن النار ، وأنتم تفلّتون من يدي)[٣] .

ووجه الشبه هنا أن الجنادب والفراش تنساق إلى النار فرحة بضوئها ، ولكنها تجهل عاقبة فعلها هذا ، ولا تتعظ بمن هلك قبلها عندما اقتحمت النار ، وكذلك الكفار والعصاة تغرهم الحياة الدنيا وزينتها فينساقون وراء شهواتهم ، ويُعرضون عن الاعتصام بالكتاب والسنة ، وهم يرون نهاية كل حي في هذه الحياة ، والرسول ﷺ يبصرهم بالعاقبة ويحذرهم من الوقوع في نار جهنم ويبذل الجهد في الإمساك بهم لإبعادهم عن خطر محقق، ويأخذ بحجزهم (وهو معقد الإزار) كناية عن شدة إشفاقه عليهم ولكنهم يتفلتون منه جهلاً وغروراً واستكباراً[٤] .

---

(١) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ١٤٠/٨ ، ومسلم في كتاب الفضائل ـ باب شفقته ﷺ على أمته ـ (رقم ٢٢٨٣) .

(٢) ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم ٤٨/١٥-٥٠ .

(٣) رواه مسلم في الفضائل ـ باب شفقته ﷺ على أمته وتحذيرهم مما يضرهم (رقم ٢٢٨٥) .

(٤) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ٥٠/١٥ .

ويتبين بهذا المثل النبوي عاقبة من أعرض عن طاعة الله ورسوله ، وأثر ذلك في وقوعه في الهلاك المحقق ، وأما من استجاب لله ورسوله واعتصم بشرع الله فقد حاز السلامة والنجاة .

٤ ـ وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " إن مثل ما بعثني الله به عزوجل من الهدي والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة ، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا ورعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه بما بعثني الله به فعَلِم وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدي الله الذي أُرسلت به "(١) .

فقد مثّل رسول الله ﷺ الهدي الذي جاء به بالغيث ، وقسَّم الناس في قبولهم له وانتفاعهم به إلى ثلاثة أقسام(٢) :

ـ قسم قبلوه وانتفعوا به في نفوسهم علماً وعملاً وحفظاً وفهماً وتعليماً فكان في ذلك حياة قلوبهم وانتفاع غيرهم ، فهؤلاء كالأرض الطيبة التي تقبل الماء فتنبت الكلأ والعشب .

ـ وقسم قبلوه وحفظوه وأدوه إلى غيرهم ، فهؤلاء لهم قلوب حافظة لكن ليست لهم أفهام ثاقبة لاستنباط المعاني والأحكام وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به فهم يحفظونه حتى يأتي طالب متعطش فينتفع بما عندهم ، فهؤلاء كالأرض الأجادب (التي لا تنبت) لكنها تمسك الماء فينتفع بها الناس والحيوان .

ـ وقسم لم يقبل ما جاء به الرسول ﷺ ولم يحفظه أو ينتفع به ، وإنما أعرض عن الكتاب والسنة جهلاً أو استكباراً ، فهو كالأرض القيعان (الملساء التي لا نبات فيها) فلا تمسك ماء ولا تنبت كلأً ، وهذا الصنف لا يعبأ بهدى ولا علم مما جاء به الرسول ﷺ لحياة القلوب، وإنما يصرُّ على الإعراض وعدم الاستجابة، ولا يرفع رأساً للإصغاء أو القبول فيحجب نفسه عن الخير، ويحيا قاسي القلب كالصخرة الصماء الصلبة، لا خير يُرتجى منه.

---

(١) رواه مسلم في الفضائل ـ باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم ـ (رقم ٢٢٨٢) .

(٢) ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم ٤٦/١٥ .

وهكذا يوضح الرسول ﷺ بالأمثلة الحسية المأخوذة من واقع الحياة ضرورة الاعتصام بالكتاب والسنة والتمسك بهما وخطر الإعراض عنهما واتباع الهوى .

ونختم هذا الفصل بقول الإمام ابن القيم رحمه الله في بيان أهمية الاعتصام وضرورته لمن يريد السير في طريق تزكية النفس والوصول بها إلى السعادة ، فيقول : (مدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله ، والاعتصام بحبله ، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين ، فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصم من الضلالة ، والاعتصام به يعصم من الهلكة ، فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده ، فهو محتاج إلى هداية الطريق ، والسلامة فيها ، فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له .

فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة ، وأن يهديه إلى الطريق ، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها .

فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل ، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح)[1] .

فالاعتصام بحبل الله هو التزام أمر الله وطاعته والتمسك بالكتاب والسنة ، أما الاعتصام بالله فهو الالتجاء إليه وحده سبحانه ، قال تعالى : ﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم** ﴾[2] .

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٤٦٠ .

(٢) سورة آل عمران / من الآية ١٠١ .

الفصل الثالث

الإيمان بالقضاء والقدر

الأساس الثالث من أسس تزكية النفس هو الإيمان بالقضاء والقدر ، وهو ركن من أركان الإيمان يقوم على الاعتقاد بأن الله سبحانه قدّر الأشياء في علمه من الأزل وأنه سبحانه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وكل ما يقع في هذا الكون فهو بعلمه وقدره وقضائه ، وبهذا يرتبط الإيمان بالقضاء والقدر بالركن الأول من أركان الإيمان وهو الإيمان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته ، ومن تلك الصفات العلم والإرادة .

أما **تعريف القضاء والقدر** فقد اختلفت فيه عبارات العلماء ، فمنهم من عرّف القضاء تعريفاً مغايراً للقَدَر فقال : (القدر : علم الله تعالى بما تكون عليه المخلوقات في المستقبل ، والقضاء : إيجاد الله تعالى الأشياء حسب علمه وإرادته)[١] .

ومنهم من عرفهما تعريفاً واحداً فقال : (هو النظام المحكم الذي وضعه الله لهذا الوجود والقوانين العامة والسنن التي ربط الله بها الأسباب بمسبباتها)[٢] .

أو : (هو علم الله الأزلي بكل ما أراد إيجاده من العوالم والخلائق والأحداث والأشياء ، وتقدير ذلك الخلق وكتابته في اللوح المحفوظ)[٣] .

فالإيمان بالقضاء والقدر يتضمن الإيمان بعلم الله القديم ، والإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة ، وفي بيان ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :

(تؤمن الفرقة الناجية ـ أهل السنة والجماعة ـ بالقدر خيره وشره ، والإيمان بالقدر على درجتين :

فالدرجة الأولى : الإيمان بأن الله تعالى عليم بما الخلق عاملون ، بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً وأبداً ، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ثم

---

(١) الإيمان ـ د . محمد نعيم ياسين ـ ص/٧٢ .

(٢) العقائد الإسلامية ـ سيد سابق ـ ص/٩٥ .

(٣) عقيدة المؤمن ـ أبو بكر الجزائري ـ ص/٣٤٨ .

كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق .. فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ... كما قال تعالى : ﴿ **ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب ، إن ذلك على الله يسير** ﴾(١) .

وقال سبحانه : ﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير** ﴾(٢) .

وأما الدرجة الثانية : فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة ، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه مافي السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه ، لا يكون في ملكه مالا يريد، وأنه سبحانه على كل شيء قدير "(٣).

وقد تكرر بيان ذلك في آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية لترسيخ هذه العقيدة في النفوس ، وبيان أن الحياة والموت والرزق والنفع والضر كل ذلك بيد الله سبحانه يقضي فيه ما يشاء بعلمه وحكمته وأمره ، ومن هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً** ﴾(٤) .

وقوله سبحانه : ﴿ **وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾(٥) .

وقوله عزوجل : ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كلٌ في كتاب مبين** ﴾(٦) .

أما الأحاديث النبوية التي تنص على هذه العقيدة وتبين أهميتها فهي كثيرة ، ومن أبرزها : حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي يذكر سؤال جبريل لرسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فلما سأله عن الإيمان قال رسول الله ﷺ : (أن تؤمن با لله

---

(١) سورة الحج / آية ٧٠ .

(٢) سورة الحديد / آية ٢٢ .

(٣) العقيدة الواسطية ص/٣٢-٣٣ .

(٤) سورة آل عمران / من الآية ١٤٥ .

(٥) سورة الأنعام / الآيتان ١٧-١٨ .

(٦) سورة هود / آية ٦ .

وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[1] .

وحديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال : يا غلام ، إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف)"[2] .

ولقد كان الصحابة ﷺ يربُّون أبناءهم على هذه العقيدة ويغرسونها في نفوسهم .

عن عطاء بن أبي رباح قال : (سألت الوليد بن عبادة بن الصامت : كيف كانت وصية أبيك حين حضره الموت ؟

قال : جعل يقول : يا بني اتق الله ، واعلم أنك لن تتقي الله ولن تبلغ العلم حتى تعبد الله وحده وتؤمن بالقدر خيره وشره .

قلت : يا أبت كيف لي أن أومن بالقدر خيره وشره ؟ قال : تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، فإن متَّ على غير هذا دخلت النار)[3] .

ولا بد هنا من البيان أن تقسيم القدر الذي يجب الإيمان به إلى خير وشر ، إنما هو بإضافته إلى الناس والمخلوقات ، أما بالنسبة لله عزوجل ، فالقدر كله خير وحكمة وعدل ورحمة من الله سبحانه الذي قضى بتقدير المصائب والبلايا وكل ما يكرهه الإنسان لحكم كثيرة ، من أبرزها :

١ ـ الابتلاء لعباده واختبارهم وتمحيص الإيمان في قلوبهم وزيادة درجاتهم وثوابهم إذا صبروا.

قال تعالى: ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون** ﴾[4]، والمقصود بالفتنة هنا الاختبار .

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ـ حديث رقم (٨) .

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة والرقائق ـ رقم /٢٥١٦ ، وقال حديث حسن صحيح ـ ورواه الإمام أحمد في مسنده ١/٣٠٧ .

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، للإمام ابن القيم – ص /٧٨ .

(٤) سورة الأنبياء / من الآية ٣٥ .

وقال سبحانه : ﴿ **أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾(1) .

٢ ـ التربية والتأديب والجزاء المعجل لكي يثوب الإنسان إلى رشده ويرجع عن خطئه .

وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير** ﴾(2) ، ويقول أيضاً : ﴿ **فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون** ﴾(3) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا أراد الله بعبده خيراً عجّل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يُوافي به يوم القيامة)(4) .

ولعل من المناسب هنا أن نذكر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في التأكيد على أن قضاء الله وقدره نعمةٌ لابد لها من شكر ، حيث يقول :

(ما يصيب الإنسان إن كان يَسُرُّه فهو نعمة بيِّنة ، وإن كان يسوؤه فهو نعمة ، لأنه يكفر خطاياه ، ويثاب عليه بالصبر ، ومن جهة إن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها العبد ، ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم** ﴾(5) الآية ، وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى صبر)(6) .

ثم يقول : (والمقصود أن الله تعالى منعم بهذا كله ، وإن كان لا يظهر في الابتداء لأكثر الناس ، فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون)(7) .

وأوضح ذلك شارح العقيدة الطحاوية في بيان قوله تعالى : ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾(8) ، فقال : (فرّق سبحانه وتعالى بين

---

(1) سورة العنكبوت / الآيتان ٢-٣ .

(2) سورة الشورى / آية ٣٠ .

(3) سورة النحل / آية ٣٤ .

(4) رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب رقم ٢٣٩٦ ، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (فيض القدير ١/٢٥٨) .

(5) سورة البقرة / من الآية ٢١٦ .

(6) مجموع الفتاوى ٨/٢٠٩-٢١٠ .

(7) نفس المرجع ٨/٢١٠ .

(8) سورة النساء / من الآية ٧٩ .

الحسنات التي هي النعم ، وبين السيئات التي هي المصائب ، فجعل هذه من الله ، وهذه من نفس الإنسان ، لأن الحسنة مضافة إلى الله ، إذ هو أحسن بها من كل وجه .. أما السيئة فهو إنما يخلقها لحكمة ، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه ، فإن الرب لا يفعل سيئة قط ، بل فعله كله حسن وخير)[1] .

ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر :

الإيمان بالقضاء والقدر يغرس في النفس الإنسانية فضائل كثيرة وينزع منها شروراً وآثاماً كبيرة ، وكلما زاد رسوخ هذه العقيدة في النفس ازدادت ثمراتها ، ولعل من أبرز هذه الثمرات ما يلي :

١ ـ تخفيف الجزع عند المصيبة ، وعدم البطر عند تكاثر النعم ، لأن خير ما يعصم الإنسان من البطر والطغيان عند النعمة ، ويصرفه عن الحزن ، المهلك واليأس القاتل عند نزول البلاء ، أن يؤمن بأن ما وقع له من خير أوشر قد جرت به المقادير ، وقضت به مشيئة الله سبحانه وحكمته فلا تذهب نفسه حسرات على مافوّت من رغبات وآمال ، ولا يفقد رشده فرحاً وغروراً عند حصول النعم .

وفي هذا يقول الله سبحانه : ﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحبُ كل مختالٍ فخور** ﴾[2] .

ولا شك أن هذا يورث النفس الإنسانية السكينة والطمأنينة ويبعد عنها القلق والاضطراب ، وقد قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : (لأن أعض على جمرة أو أقبض عليها حتى تبرد في يدي أحب إليّ أن أقول لشيء قضاه الله : ليته لم يكن)[3] .

٢ ـ غرس الشجاعة في النفس الإنسانية ، وتحليتها بالجود والسخاء وحب البذل في وجوه الخير لأن المؤمن بقضاء الله وقدره يعتقد أن الله هو الذي يحيى ويميت ، وأن الآجال والأرزاق بيد الله سبحانه ، وأن الإنسان مهما بذل جهده فلن ينال أكثر من رزقه الذي قُسم له ولن يحظى بأكثر من عمره الذي قُدّر أن يعيشه ، ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون**

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص/٣٠١-٣٠٢ .
(٢) سورة الحديد / الآيتان ٢٢/٢٣ .
(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ١١/٢٠٠٨٠ ، وأورده ابن القيم في كتابه طريق الهجرتين ص/ ٨٠ .

ساعة ولا يستقدمون ﴾[١] . فالجبن والخوف من الموت لن يزيد في عمر الإنسان أو يؤخر من وفاته ، قال تعالى : **﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾**[٢] .

وهكذا يندفع المؤمن بقضاء ا لله وقدره بشجاعة وثبات ، لا يخاف في ا لله لومة لائم ، فهو يحرص على الموت في سبيل ا لله كما يحرص الآخرون على الحياة ، مردداً قوله تعالى : **﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب ا لله لنا هو مولانا وعلى ا لله فليتوكل المؤمنون ﴾**[٣] .

وكيف يستقر الخوف والهلع في نفس المؤمن بقضاء ا لله وقدره وهو يعلم أن النفع والضر بيد ا لله وحده ، وأن ما يأتيه من خير أو شر فهو بتقدير ا لله سبحانه .

ثم كيف يبخل ويشح في الإنفاق فيما أمره ا لله به ، وهو يعلم أن رزقه مقسوم ، وأن ا لله الذي رزقه وجعله غنياً ابتلاه بهذا الرزق ، فإن جادت نفسه بما آتاه ا لله من مال وأنفق منه في رضى الرحمن فلن ينقص من رزقه المقسوم له شيء ، وإن بخل به وتملكه الغرور والبطر فلن يزيد ذلك في رزقه ، بل سيكون وبالاً عليه في الدنيا والآخرة .

ولذلك قال رسول ا لله ﷺ : " إن روح القُدس نفث في رُوعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وأجلها ، فاتقوا ا لله وأجملوا في الطلب "[٤] .

كما أن المؤمن بقضاء ا لله وقدره يدرك أن ا لله قسّم الأرزاق بحكمة ، وهو سبحانه الخبير بأحوال عباده البصير بأعمالهم قال تعالى : **﴿ ولو بسط ا لله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدرٍ ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾**[٥] .

٣ ـ بذل الجهد وطرد اليأس والسعي في العمل بعزيمة لا تلين ، وإن جاءت النتيجة تخالف رغبة الإنسان وميوله ، ما دام قد استخار ا لله في عمله هذا ، اعتقاداً أن ما قُدِّر له هو الخير ، وأن ا لله سبحانه أعلم بما يصلحه ، فلا يدع للوساوس والظنون مجالاً في حياته ولا يترك للكسل أو القنوط طريقاً يصده عن مسعاه .

---

(١) سورة الأعراف / من الآية ٣٤ .

(٢) سورة النساء / من الآية ٧٨ .

(٣) سورة التوبة / آية ٥١ .

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/٢٧ ، وابن حبان وغيرهما ، وصححه محقق جامع الأصول ١٠/١١٧

(٥) سورة الشورى / آية ٢٧ .

٤ ـ سلامة الصدر من الأحقاد والحسد ، لأنه يعلم أن حسد الناس على ما آتاهم ا لله من فضله سخط على الأقدار ، وأنَّ عليه أن يرضى بما قدَّر ا لله له من الرزق ويقنع به ، ولا يتطلع إلى دنيا الآخرين، فإن ذلك لن يغير من المقدور شيئاً ، ولن يجلب لنفسه إلا الحسرات.

٥ ـ والثمرة العظمى التي ينالها المؤمن بقضاء ا لله وقدره أن يحظى بالخير العظيم والجزاء الأوفى والنعيم المقيم في الآخرة ، وبذلك يجتمع عليه خير الدنيا والآخرة .

وهذا مصداق قول الرسول ﷺ : (عجباً لأمر المؤمن ، إنَّ أمره كلَّه له خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيراً له)(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : (إن عِظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن ا لله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط)(٢) .

وهكذا يبين الرسول ﷺ أن الإيمان بالقضاء والقدر يُكسب النفس الرضا والسكينة ، ويمنح العبد رضاء ا لله ومحبته ، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يحرص على غرس هذه العقيدة في نفوس أصحابه وترسيخها بشكل عملي ، كما سنرى من خلال النماذج التالية :

وصايا نبوية لتدريب النفس على الرضا بالقضاء والقدر :

لقد كان الرسول ﷺ مربياً ومزكياً لنفوس أصحابه ، وهي المهمة التي شرفه ا لله سبحانه بها ، وتتجلى هذه التزكية بأوضح صورها من خلال هذه الوصايا الثلاث التي تُعد بحقٍ نماذج للعلاج النبوي لأمراض النفوس ، وتدريبها عملياً على التسليم لقضاء ا لله وقدره والرضا به .

الوصية الأولى :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول ا لله ﷺ: (**المؤمن القوي خير وأحب إلى ا لله**

---

(١) رواه مسلم عن صهيب بن سنان رضي الله عنه ـ كتاب الزهد والرقائق ـ باب المؤمن أمره كله خير رقم /٢٩٩٩ .

(٢) رواه الترمذي ـ كتاب الزهد ـ باب ما جاء في الصبر على البلاء ـ رقم /٢٣٩٦ ، وقال : حديث حسن غريب .

من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍ خير ، احرص على ماينفعك واستعن با لله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلتُ كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر ا لله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان)[1] .

وفي هذا الحديث النبوي يبين الرسول ﷺ أن من أراد نيل محبة ا لله ورضوانه فعليه أن يبادر إلى تقوية إيمانه ومجاهدة نفسه وطلب القوة في العلم والجسم ، وغير ذلك من عناصر القوة النافعة التي تتضافر جميعها لتكوين شخصية المسلم الذي يحبه ا لله سبحانه .

ولكي يحظى المسلم بذلك ، فلا بد له من الأخذ بالوصايا النبوية الأربع الواردة في هذا الحديث وهي : أن يحرص على ما ينفعه ، ويطلب العون من ا لله سبحانه ولا يعجز ، وأن يسلم أمره لله فيما قدَّر له فلا يسخط ولا يتشكى من المصائب ولا يدع للشيطان مدخلاً بقوله : " لو أني فعلت كان كذا وكذا " فكلمة " لو " تجلب الحسرة والأسى وتزيد اللوعة وتورث القلق والاضطراب ، ولن يستطيع إعادة ما فات ولا إحياء من مات مهما تحسر ، وإنما سيجلب لنفسه الكآبة ولجسمه الأمراض والآلام ويتعرض لغضب ا لله باعتراضه على قدره ، فالعلاج العملي أن يقول " قدَّر ا لله وما شاء فعل " معلناً استسلامه لأمر ا لله ، ورضاه بقضائه ، وأن يعوِّد لسانه على هذا القول كلما ناله شيء يكرهه .

الوصية الثانية : دعاء الاستخارة :

عن جابر بن عبد ا لله رضي ا لله عنهما قال : كان رسول ا لله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن ، يقول : (**إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني استخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب .**

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، أو قال : عاجل أمري وآجله ، فاقدره لي ، وإن كنت علم أن هذا الأمر شرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، أو قال : عاجل أمري وآجله ، فاصرفه عني واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضِّني به ، ويسمي حاجته)[2] .

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب القدر ـ باب الأمر بالقوة وترك العجز ـ رقم ٢٦٦٤ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات ـ باب الدعاء عند الاستخارة ١٦٢/٧ ، وفي التوحيد ـ باب ﴿ قل هو القادر ﴾ ١٦٨/٨ ، ورواه أبو داود رقم /١٥٣٨ ، والترمذي رقم /٤٨٠ ، وغيرهما .

وهذه الوصية النبوية تعدُّ تدريباً عملياً على توطين النفس ورضاها بالقضاء والقدر وتسليمها لما يقدِّر الله ، اعتقاداً بأن ذلك هو الأصلح والأنفع للعبد .

فإذا همَّ المسلم بأمر من الأمور المباحة ، مِن سفرٍ أو زواج أو تجارة أو غير ذلك ، فعليه أن يبادر إلى العمل بهذه الوصية النبوية ، ويدعو بدعاء الاستخارة متذللاً أمام ربه متواضعاً بين يديه مستسلماً لأمره راضياً بحكمه داعياً أن يختار الله له ما فيه الخير في دينه ومعاشه وعاقبة أمره ، وأن يصرف عنه هذا الأمر إن كان فيه شرٌّ .

ثم يعزم على هذا الأمر ، فإن انشرح صدره له ويسَّر الله طريقه ، فهو الخير الذي اختاره الله ، وإن جاء الأمر على عكس ذلك ، فعليه أن يفرح ، لأن الله صرف عنه شراً واختار له ما يصلحه ولو لم يدرك الحكمة ، فلتطمئن نفسه ولا يبقى متعلقاً بهذا الأمر أو قلقاً من أجله .

وبهذه الوصية النبوية يدرب المسلم نفسه عملياً على الرضا بقضاء الله والتسليم لأمره، ويجاهد نفسه على مخالفة هواها، ويربيها على الالتزام بأمر الله لأن في ذلك صلاح دنياه وآخرته.

روى الأعمش عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى يتيسر له ، نظر الله إليه من فوق سبع سموات (فيقول للملائكة): اصرفوه عنه ، فإني إن يسَّرتُه له أدخلتُه النار ، قال : فيصرفه الله عنه ، قال : فيقول : من أين دُهيت ؟ وما هو إلا فضل الله سبحانه)"[1] .

ولذلك كان الرسول ﷺ يهتم كثيراً بدعاء الاستخارة ويعلّمه لأصحابه كما يعلمهم السورة من القرآن ، وهذا دليل على غاية الاهتمام به والحرص عليه .

الوصية الثالثة :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (**انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**)[2] .

وفي رواية للبخاري : " إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخَلق ، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فُضِّل عليه "[3] .

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ـ لابن القيم الجوزية ـ ص/٨٠ .

(٢) رواه مسلم ـ كتاب الزهد ـ رقم (٢٩٦٣ .

(٣) رواه البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب : لينظر إلى من هو أسفل منه ـ ١٨٧/٧ .

وفي هذا الحديث دواء لداء الحسد والتشكي من الأقدار ، فالنفس التي تتطلع إلى الآخرين لن ترضى بحال من الأحوال ، وكلما بلغت درجة من الغنى والجاه تعودتها فملّتها وتطلعت إلى المزيد فهي دائماً في تلهف إلى كثرة المال وتعلق به وسخط وحسرة وازدراء للنعم وجحود للمنعم وهذا مصداق قول الرسول ﷺ : (لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان ، ولن يملأ فاه إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب) [1] .

وفي رواية : (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب)[2] .

فإذا اتبع المسلم هذه الوصية النبوية فإنه سيعرف قدر النعمة ، ويرضى بما قسم الله له ، وينال القناعة ويحظى بالسعادة ولو كان مبتلى بالفقر أو المرض أو المصائب المختلفة .

لأنه إن كان فقيراً لا يملك وفرة من المال فلينظر إلى من ابتلى بالفقر المدقع والجوع الشديد ، وإن كان مريضاً يشكو من بعض الآلام فلينظر إلى من ابتلى بعاهة أو مرض مزمن خطير ، وهكذا يبقى دائماً مقدراً للنعمة ، راضياً بما قسم الله له شاكراً صابراً .

ولو أخذ المسلمون اليوم بهذه الوصية النبوية لسعدت أحوالهم واستقامت أوضاعهم وعرفوا الثمرة الحقيقية للإيمان بالقضاء والقدر ، وسارعوا إلى التنافس في التقوى والعمل الصالح والتقرب إلى الله عوضاً عن التنافس على حطام الدنيا .

وأخيراً لابد من القول : إن عقيدة القضاء والقدر كما وردت في الكتاب والسنة كانت عقيدة دافعة للعمل في عهد السلف الصالح[3] ، وكان لها الدور الأكبر في ترسيخ الإيمان وصدق التوجه إلى الله سبحانه وتزكية النفس ، ولكن انشغال المسلمين عن المهمة التي كلفهم الله بها وهي الخلافة في الأرض ، ودخول كثير من أقوال الفلاسفة في موضوعات القضاء والقدر ، وما نشأ من تفريعات جدلية في مسائل القدر لا مجال هنا للإشارة إليها[4] ،

---

(١) (٢) رواهما البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب ما يُتقى من فتنة المال ـ ١٧٥/٧ .

(٣) ينظر مثلاً ما أورده الإمام أبو بكر الآجري في كتابه (الشريعة) ص/٢٠٠ وما بعدها من رد الصحابة والتابعين على القدرية .

(٤) لقد أفاض شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الرد على الفلاسفة وعلماء الكلام في مسائل القضاء والقدر ، وذلك في المجلد الثامن من مجموع الفتاوى ، كما أبطل دعاوى الاحتجاج بالقدر وغير ذلك

=

جعل تأثير النفوس بهذه العقيدة ضعيفاً ، بل إن الاحتجاج بالقدر وتبرير الانحراف بأنه قدر من الله صار من الأمور المألوفة التي يسارع إليها ضعاف النفوس .

والأشد من ذلك أن الحديث عن القضاء والقدر بما دخله من أسلوب جدلي عقيم وأقوال فلسفية أصبح مصدراً للشك وإظلام القلب ولم يعد أساساً لتزكية النفس ودافعاً للعمل الصالح .

ولقد نهى الرسول ﷺ عن الخوض في القدر والجدل في مسائله ، وهذا ما رواه الإمام أحمد بإسناده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : (خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر قال : فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب ، قال : فقال لهم : ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ؟ بهذا هلك من كان قبلكم)[1] .

ولهذا قال الإمام الطحاوي رحمه الله : (وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، لم يطّلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه ، كما قال تعالى : ﴿ **لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون** ﴾[2] ، فمن سأل : لَمَ فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين)[3] .

فما أحرانا أن نلتزم بالمنهج الإسلامي الصافي ، وأن نعرض عقيدة القدر بأسلوب سهل مقنع مؤثر يهز أعماق النفس ويعرّف المسلم بمسؤوليته ودوره في الحياة .

= من المفاهيم الخاطئة في مسائل القدر ـ ينظر مثلاً صفحة / ٦٥ـ وما بعدها ، وصفحة /٢٦٢ ، وما بعدها ، وينظر ما أورده ابن القيم في طريق الهجرتين ص/٦٠ ، وما بعدها .

(١) رواه الترمذي في القدر ، رقم /٢١٣٤ ، وابن ماجه في المقدمة ، رقم / ٨٥ وحسّنه محقق جامع الأصول ١٠/ ١٣٥ .

(٢) سورة الإنبياء / آية ٢٣ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ، ص / ٢١٦ .

الفصل الرابع

الإيمان باليوم الآخر

يستطيع أن يكون بها طائعاً أو عاصياً

خلق الله سبحانه الإنسان لحكمة ، وزوده بالإرادة التي والعقل الذي يميز به طريق الخير من الشر والقدرة على تنفيذ ما يريد ، وهذه الصفات تؤهله للامتحان الرباني ، والابتلاء في هذه الحياة ، وهذا الامتحان يقتضي الجزاء ، وإلا كان عبثاً لا معنى له ، تعالى الله عن ذلك .

قال سبحانه : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾(١) .

وهكذا تأتي عقيدة الجزاء الرباني متصلة بالإيمان بالله الخالق العليم الحكيم القادر ، والإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة التي تقتضي عدم التسوية بين المحسن والمسيء، والمسلم والكافر.

قال تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾(٢) .

وقال عز وجل : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، مالكم كيف تحكمون ؟** ﴾(٣) .
يقول الإمام ابن القيم : (شهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية ، ولهذا كان الصحيح أن المعاد معلوم بالعقل ، وإنما اهتدى إلى تفاصيله بالوحي ، ولهذا يجعل الله سبحانه إنكار المعاد كفراً به سبحانه ، لأنه إنكار لقدرته ولإلهيته ، وكلاهما مستلزم للكفر به)(٤) .

ولقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن يكون اليوم الآخر هو يوم الجزاء الأوفى ، الذي يُجازى فيه المحسن ويعاقب المسيء ويعود الحق إلى نصابه ويُقتص من الظالم ويُكرم فيه

---

(١) سورة المؤمنون / الآيتان ١١٥-١١٦ .
(٢) سورة الجاثية / آية ٢١ .
(٣) سورة القلم / الآيتان ٣٥-٣٦ .
(٤) مدارج السالكين ١/١٢٦ .

المتقون : ﴿ **ليجزي ا لله كل نفس ما كسبت إن ا لله سريع الحساب** ﴾[1] .

وا لله سبحانه الخالق الذي بيده الملك كتب على نفسه الرحمة ، ومن مظاهر تلك الرحمة أنه سيجمع عباده ليوم الجزاء ، وهذا اليوم هو نهاية المطاف الذي يفيئون إليه كما يفيء الراحل إلى وجهته فيعطيهم جزاء كدهم ويمنّ عليهم بالمزيد من الأجر والفضل ويتجاوز عمن يشاء من عباده[2] .

وهذا مصداق قوله سبحانه : ﴿ **قل لمن ما في السموات والأرض قل لله ، كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون** ﴾[3] .

والإيمان باليوم الآخر ركن من أركان العقيدة الإسلامية ، لا يصح إيمان المرء بدونه ، ويتضمن هذا الإيمان أموراً ، منها : الإيمان بالبعث ، والإيمان بالحساب والجزاء ، والإيمان بالجنة والنار ، كما يتضمن الإيمان بكل ما يكون بعد الموت مما نص عليه الكتاب والسنة كالإيمان بعذاب القبر ونعيمه والشفاعة والصراط وغير ذلك من عوالم اليوم الآخر وأحواله ، وقد قال تعالى آمراً عباده بترسيخ إيمانهم باليوم الآخروغيره من أركان الإيمان .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا آمِنوا با لله ورسوله ، والكتاب الذي نزّل على رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل ، ومن يكفر با لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً** ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبل المشرق والمغرب ولكن البرَّ من آمن با لله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** ﴾[5] .

والمتأمل لآيات القرآن الكريم يجد التركيز الكبير في الحديث عن اليوم الآخر في معظم سور القرآن فتارة تتعرض الآيات القرآنية لإثبات اليوم الآخر والرد على منكري البعث

---

(١) سورة إبراهيم / آية ٥١ .

(٢) في ظلال القرآن ١٠٥٢/٢ .

(٣) سورة الأنعام / آية ١٢ .

(٤) سورة النساء / آية ١٣٦ .

(٥) سورة البقرة / من الآية ١٧٧ .

والجزاء ، وتارة تصف تلك الآيات مشاهد البعث وأهوال الحشر ونعيم الجنة وعذاب النار وغير ذلك من عوالم الدار الآخرة ، بالإضافة إلى أن عدداً من سور القرآن تحمل اسماً من أسماء يوم القيامة ، كسورة الواقعة والقارعة والقيامة والتغابن والزلزلة ، وكل هذا يبرز أهمية هذا الركن الاعتقادي وأثره في النفس الإنسانية .

يقول الأستاذ سيد قطب في حديثه عن مشاهد القيامة التي حفلت بها سور القرآن الكريم : (لقد عُني القرآن بمشاهد القيامة : البعث والحساب ، والنعيم والعذاب ، فلم يعد ذلك العالم الآخر موصوفاً فحسب ، بل عاد مصوَّراً محسوساً ، وحيًّا متحركاً ، وبارزاً شاخصاً ، وعاش المسلمون في هذا العالم عيشة كاملة : رأوا مشاهده ، وتأثروا بها ، وخفقت قلوبهم تارة ، واقشعرت جلودهم تارة ، وسرى في نفوسهم الفزع مرة ، وعاودهم الاطمئنان أخرى .. ومن ثم باتوا يعرفون هذا العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود)[1] .

كما أن مئات الأحاديث النبوية التي حفلت بها كتب السنة تتحدث تفصيلاً عن عوالم اليوم الآخر وعن الحساب والجزاء وعن الأهوال والشدائد التي يلقاها الكافر والفاجر عند سكرات الموت وفي القبر والحشر وعند الحساب والصراط ثم عندما يكون مصيره النار ، كما تتحدث عن النعيم المقيم والتكريم العظيم الذي يُلقاه المؤمن الصالح ابتداء من سكرات الموت وحتى دخول الجنة وكل ذلك بأسلوب مؤثر يهز أعماق النفس ويوقظها من غفلتها ويدفعها إلى العمل الصالح .

ولا يتسع المقام هنا لإيراد بعض من الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية التي تصف مشاهد اليوم الآخر ، لأننا سنعرض لذلك بالتفصيل إن شاء الله في الباب السادس عند الحديث عن ثمرات تزكية النفس .

ولكن الذي يهمنا هنا هو الحديث عن الإيمان باليوم الآخر كأساس لتزكية النفس ، والآثار التي يغرسها هذا الركن من أركان الإيمان في النفس الإنسانية ، والتي حُرم منها غير المسلمين من منكري البعث والجزاء، أو ممن يعتقدون به اعتقاداً مشوهاً محرفاً لا يوافق الدين الحق[2] .

---

(١) مشاهد القيامة في القرآن ـ سيد قطب ـ ص/٣٧ .

(٢) سبق الحديث في الباب الأول عن موقف الأديان المختلفة من تزكية النفس انطلاقاً من معتقداتهم الباطلة.

آثار الإيمان باليوم الآخر على النفس الإنسانية :

الإيمان باليوم الآخر له آثار عظيمة في تزكية النفس واستقامة أحوالها ، ومن أبرز هذه الآثار[1] :

١ ـ حجز الإنسان عن المعاصي وتقوية الوازع الديني في قلبه وضبط هوى النفس بمقتضى الشرع :

فالإيمان باليوم الآخر يغرس في الإنسان رقابة داخلية على أعماله وهو يعلم أن الله مطلع عليه ولا تخفى عليه خافية ، وبذلك يستشعر الخشية من الله ، ويبقى شديد الحذر من عذابه مسارعاً إلى التوبة كلما وقع في معصية ، معتقداً أنه مسؤول عن أقواله وأفعاله ، ومحاسب على ما أظهر وأبطن ، وأن كل صغيرة أو كبيرة تُحصى عليه وتسجل في صحائف أعماله .

قال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد * إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[2] .

وقال عزوجل : ﴿ **لله ما في السموات ومافي الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾[3] .

وهكذا يصل المؤمن إلى درجة الحساسية المرهفة والرقابة اليقظة على أعماله خشية من عذاب الله ، ويكون ممن وصفهم الله بقوله : ﴿ **والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون** ﴾[4] .

٢ ـ المسارعة إلى الطاعة والعمل الصالح :

كلما زاد تطلع المؤمن إلى اليوم الآخر وشوقه لما أعد الله لعباده المتيقن في الجنة ، كان

---

(١) هذه إشارة سريعة لأبرز الآثار والثمرات وسنتحدث بالتفصيل عن ثمرات تزكية النفس في الباب السادس إن شاء الله .

(٢) سورة ق / الآيات ١٦/ ١٨ .

(٣) سورة البقرة / آية ٢٨٤ .

(٤) سورة المعارج / الآيتان ٢٧-٢٨ .

أكثر مسارعة إلى العمل الصالح ومضاعفة الجهد في المسابقة إلى الخيرات ، وقد قال تعالى مبشراً عباده المسارعين إلى الطاعة بالجزاء العظيم في الجنة : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾[1] .

وهكذا يشحذ المؤمن همته ويبادر إلى كل عمل يقربه من الله سبحانه ثقة بوعده ، ويجتهد في تنقية النية والإخلاص لله عزوجل ابتغاء مرضاته ، لأنه تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً .

قال تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾[3] .

والمؤمن يعلم أن أيامه على هذه الأرض محدودة ، وأنه لا بد له من اغتنام الأوقات في الطاعات دون كسل أو ملل طلباً لمرضاة الله وطمعاً في جنته .

قال تعالى : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[4] .

٣ ـ بذل النفس والمال في سبيل الله[5] :

لقد أدت عقيدة الإيمان باليوم الآخر إلى تحول نفسي عميق عند المسلمين الصادقين ، فآثروا تحمل المشاق وأحبوا الاستشهاد في سبيل الله ، واندفعوا للبذل والعطاء ، واستعلت نفوسهم على كل قوى الأرض الحائدة عن منهج الإيمان ، واثقين بأن الله اشترى منهم أنفسهم وأموالهم التي هي أعز ما عند الإنسان ، فبذلوها لينالوا جنة عرضها السموات والأرض ، ويظفروا بالربح العظيم.قال تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم**

---

(١) سورة آل عمران / آية ١٣٣ .

(٢) سورة الكهف / من الآية ١١٠ .

(٣) سورة البينة / من الآية ٥ .

(٤) سورة التوبة / آية ١٠٥ .

(٥) سوف أتحدث بالتفصيل عن (بذل النفس والمال) في الباب السادس عند الحديث عن ثمرات تزكية النفس ينظر ص /٥٠٣

وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل ا لله فيقتلون ويُقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من ا لله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾[1] .

ولقد كان تأثير هذه العقيدة قوياً في نفوس الصحابة رضي ا لله عنهم بعد أن كانوا محرومين من الإيمان بها قبل إسلامهم ، ولذلك اندفعوا إلى البذل والتضحية وتسابقوا إلى الموت والشهادة في سبيل ا لله ، وسار على نهجهم كل المؤمنين الصادقين إلى يومنا هذا ، وسيظل هذا شأنهم إلى أن يرث ا لله الأرض ومن عليها .

هذه الخنساء ـ مثلاً ـ التي كانت في جاهليتها جازعة هالعة على موت أخيها صخر ، تحولت بعد الإسلام إلى امرأة عجيبة تدفع بأبنائها الأربعة إلى معركة القادسية ، وتحضهم على القتال في سبيل ا لله ، وعندما بلغها نبأ استشهادهم قالت في إيمان وتسليم : " الحمد لله الذي شرَّفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته "[2] .

٤ ـ الصبر على المصائب :

كما أن إيمان المؤمن بالقضاء والقدر يدفعه إلى الصبر على المصائب ومقابلتها بالتسليم والرضا فكذلك إيمانه باليوم الآخر يزيد من صبره ويخفف من حزنه ، لأنه يرجو الأجر العظيم يوم القيامة ، ويعلم أن هذه الدنيا دار ممر وأن المصائب ابتلاء من ا لله يرفع بها مقام عباده إذا صبروا ويكفر عنهم بها من خطاياهم .

قال تعالى : **﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾**[3] .

وقال رسول ا لله ﷺ : (ما يصيب المسلم من نَصَب ولا وَصَبٍ[4] ولا همٍ ولا حَزَن ولا أذىً ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر ا لله تعالى بها من خطاياه)[5] .

---

(١) سورة التوبة / آية ١١١ .

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة للإمام ابن حجر العسقلاني ٢٨١/٤ .

(٣) سورة الزمر / آية ١٠ .

(٤) النَصَب : التعب ، والوَصَب : المرض .

(٥) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي ا لله عنهما ـ كتاب المرضى ـ باب ما جاء في كفارة المرض ٢/٧ ، ورواه مسلم بروايات عديدة ـ كتاب البر والصلة ـ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه ـ رقم /٢٥٧٣ ، واللفظ للبخاري .

وأما الذي لا يؤمن بالآخرة فإنه يعاني من ويلات الأيام وشدائدها وكُرَبها المتلاحقة ، ويعيش في ضنك الحياة ، ولو كان ذا مال وفير ، كما أنه يوم القيامة سينال سوء المصير قال تعال : ﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾[1] .

٥ ـ الحذر من إيذاء الآخرين :

المؤمن بالله واليوم الآخر يخشى من الإساءة إلى إخوانه المسلمين ، أو التسبب في إيذائهم، ويتجنب كل ما فيه اعتداء عليهم ، في أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ، لأنه يعلم أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية ، وأنه إن نجا من العقاب الدنيوي وتغلّب على غيره بقوته ودهائه ، فلن ينجو من العقاب في الآخرة ، حيث يتكاثر حوله الخصوم حتى يصبح مفلساً ويهلك مع الهالكين .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال ﷺ : إن المفلس من أمتي ، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح في النار)"[2] .

وهكذا يتميز المؤمن باليوم الآخر بأنه آلفٌ مألوف لا يسيء إلى غيره من المسلمين ، ولا يتعالى على أحد منهم ولا تعرف الغلظة والقسوة إليه طريقاً ، بل يتسم بالرحمة والرفق واللين وإغاثة الملهوف .

ولا تقتصر الرحمة في قلب المؤمن على بني الإنسان ، بل تتعداها لتشمل الحيوانات ، وهذا ما بينه قول الرسول ﷺ : (عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، لاهي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض)[3] .

فإذا كان المؤمن باليوم الآخر المتشوق إلى لقاء ربه وبلوغ جنته ، يخشى أن يؤذي هرة فيدخل بسببها النار ، فكيف يؤذي إخوانه من المؤمنين أو يعتدي عليهم ؟.

---

(١) سورة طه / آية ١٢٤ .

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب البر والصلة ـ باب تحريم الظلم ـ رقم /٢٥٨١ .

(٣) صحيح مسلم ـ كتاب السلام ـ باب تحريم قتل الهرة ـ رقم /٢٢٤٢ .

وهكذا تتصل الحياة الدنيا بالآخرة ، فهي حلقات متلاحقة بدايتها على هذه الأرض ، ونهايتها في الجنة أو النار ، ومن أراد أن يُمضي حياته الدنيا سعيدة هنية فليُرسِّخ اعتقاده بأركان الإيمان ودعائمه التي هي الأسس الكبرى لتزكية النفس وإصلاح السلوك .

والإيمان بهذه الأركان يمسك بزمام الإنسان راشداً في الدنيا موصولاً بالآخرة ، وتتأصل فيه رقابته لربه وخشيته منه .

وهذه العقيدة لا تنقطع ثمارها ما دامت راسخة الجذور ، يتعهدها صاحبها بالري والسقاية .

وإذا كنا قد تحدثنا في هذا الباب عن الأسس العقدية لتزكية النفس التي هي جذور شجرة الإيمان فسيكون الحديث في الباب القادم إن شاء الله عن الأساليب العملية لهذه التزكية ، وهي ما شرعه الله لعباده من العبادات والتكاليف الشرعية وما يتبع ذلك من سنن ونوافل ، وأوامر وزواجر ، وغيرها من الأساليب التي شرعها الله لعباده ، لأن تزكية النفس عملية مستمرة لا تنقطع ، وهي بالتالي تحتاج إلى تغذية مستمرة وسقاية دائمة ، لكي تؤدي بالنفس إلى صلاحها وتهذيبها ورقيها في مدارج القرب من الله سبحانه .

الباب الثالث

العبادات الفعلية والقولية المؤدية إلى تزكية النفس

ويتضمن تمهيداً وعشرة فصول :

الفصل الأول : العلم النافع .

الفصل الثاني : العمل الصالح .

الصلاة - الصيام - الزكاة - الحج - الجهاد بأنواعه - تلاوة القرآن الكريم - الدعاء والذكر - قيام الليل .

الفصل الثالث : المحاسبة والتوبة .

الفصل الرابع : مجاهدة النفس .

الفصل الخامس : صحبة الصالحين والتأمل في أخبارهم.

الفصل السادس : الزواج .

الفصل السابع : التفكر في المخلوقات .

الفصل الثامن : تذكر الموت وأهوال القيامة .

الفصل التاسع : الترغيب والترهيب .

الأساليب العملية المساعدة : القصص - ضرب الأمثال - الشعر .

تمهيد :

التزكية بناء شامخ يقوم على أسس وقواعد ، كما يحتاج إلى وسائل وأعمال ، لكي يحقق أهدافه ويثمر ثمراته ونتائجه .

والعمل بهذا البناء دائم لا يتوقف حتى الموت ، لأن تزكية النفس عملية مستمرة ، وترقيها في مقامات القرب من الله سبحانه لا حدَّ له ، وكل ذلك لا يخرج عن مقام العبودية لله سبحانه .

ولذلك كانت العبادة هي الطريق المؤدي إلى تزكية النفس ، وبلوغها درجات التقوى ، وقد خلق الله الخلق لعبادته ، وأرسل الرسل يدعون إلى توحيد الله وعبادته سبحانه .

قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[1] .

وقال عز وجل : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[2] .

والعبادة تشمل جميع أعمال المرء الإرادية ، قلبية كانت أو سلوكية ، وقد عرَّفها الإمام ابن تيمية رحمه الله بقوله : (العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)[3] .

والعبادة أصل معناها الذل ، يقال : طريق معبد إذا كان مذللاً ، لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له ، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له[4] .

---

(١) سورة الذاريات / آية ٥٦ .

(٢) سورة النحل / من الآية ٣٦ .

(٣) العبودية ـ للإمام ابن تيمية ـ ص/٥ .

(٤) المرجع نفسه ـ ص/٩ .

ومن هنا كانت العبادة تحمل معنى الغاية والوسيلة في آن واحد ، فهي غاية في حد ذاتها ، لأنها قربة وطاعة لله وخضوع عملي له ، وهي وسيلة من جهة أخرى نظراً لما تحتوية من تمرين على الخضوع وإشعار به .

وقد أفاض الإمام الشاطبي رحمه الله في الحديث عن هذا المعنى مبيناً أن للعبادة مقصداً أصلياً ومقاصد تابعة ، فالمقصد الأصلي فيها هو التوجه إلى الواحد المعبود ، وإفراده بالقصد إليه في كل حال ، ويتبع ذلك قصد التعبد لنيل الدرجات في الآخرة ... ومن المقاصد التابعة للعبادة صلاح النفس واكتساب الفضيلة ، والمقاصد التابعة خادمة للمقاصد الأصلية ومكمّلة لها ، فالصلاة مثلاً أصل ، مشروعيتها الخضوع لله سبحانه بإخلاص التوجه إليه .. ثم إن لها مقاصد تابعة كالنهي عن الفحشاء والمنكر ، والاستراحة إليها من أنكاد الدنيا[1] .

وهكذا فإن المقصود بالعبادة أداء حق الله سبحانه ، والخضوع بين يديه ، وإظهار الذل والافتقار له ، وامتثال أمره سبحانه فيما تعبَّد به خلقه ، وهذه هي علة العبادات كلها ، ثم تأتي تزكية النفس واستقامة الأخلاق ثمرة لازمة للعبادة[2] .

وبهذا التوضيح يزول اللبس في مسألة المقاصد والوسائل ، فالأمر نسبي ، بمعنى أن كل وسيلة هي غاية بالنسبة لغيرها ، وكل غاية هي وسيلة لغيرها ، فالصلاة هدف وغاية ، وهي وسيلة لتزكية النفس وطهارة القلب ، والوضوء وسيلة لتحقيق شرط من شروط صحة الصلاة ، كما أنه غاية لأنه امتثال لأمر الله في تحقيق الطهارة والنظافة .

والذي دعاني إلى هذا التفصيل ما يروِّجه بعض الناس من دعاوى شريرة يبررون بها إعراضهم عن الفرائض والتكاسل عن أدائها ، بحجة أنها مجرد وسيلة لتهذيب النفس ، وإذا تم الوصول إلى تهذيب النفس بدون تلك الفرائض فلا حاجة إليها !! .

---

(١) ينظر : الموافقات في أصول الأحكام ـ للإمام الشاطبي ١٢٦/١ وما بعدها .

(٢) ينظر : العبادة في الإسلام ـ د . يوسف القرضاوي ـ ص/١١٥ .

ولا شك أن الرد المحكم على دعاوى هؤلاء أن الله سبحانه أمر رسوله ﷺ بالعبادة حتى الموت مع ما كانت عليه نفسه الشريفة من تزكية وبلوغ لدرجات الكمال التي لا يرقى إليها بشر آخر ومع هذا أمره ربه بقوله : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾[٢] ، أي : الموت .

ولو أن هذا المدعي بأن نفسه قد تزكت وتهذبت بدون الفرائض يدرك المعنى الحقيقي لتزكية النفس ، لعرف أن نفسه الشريرة مليئة بالأمراض وبعيدة كل البعد عن ما هية التزكية، وأنها نفسٌ أمارة بالسوء تزين المنكر وتصد عن الطاعة .

نعود فنقول : إن للعبادة مقصداً أصلياً ، ولها مقاصد أخرى هي في حد ذاتها وسائل لغيرها ، والوسيلة العظمى تحقيق تزكية النفس وطهارتها ، وشفائها من عللها ، واستقامة السلوك وتقويم الأخلاق ، مع تفاوت في أحكام هذه العبادات ودورها في التزكية ، ولعل القارئ لهذا الباب يرى الارتباط الوثيق بين ما سنعرض له من عبادات ووسائل شرعية عملية، وبين ما تحققه من تأثير كبير في تزكية النفس وبناء الشخصية الإسلامية المتكاملة .

---

(١) سورة الحجر / آية ٩٩ .

الفصل الأول

العلم النافع

العلم النافع الذي يحقق التزكية : هو كل علم يقرِّب من الله سبحانه ، ويزيد الخشية منه ، ويدفع إلى العمل الصالح .

ويدخل في هذا العلم الشرعي أولاً : ثم تأتي بعض العلوم الأخرى التي تدفع الإنسان إلى التفكر في المخلوقات وإدراك قدرة الله تعالى وبديع صنعه[1] .

والعلم عبادة عظيمة ، وقد أمر الله عباده به وجعله مقدماً على العمل ، فقال تعالى : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك** ﴾[2] .

وقد استدل الإمام البخاري بهذه الآية الكريمة على أهمية العلم وكونه سابقاً للعمل[3] ، لأن الله سبحانه بدأ بالعلم قبل العمل ، حيث قال : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾ ، ثم قال: ﴿ **واستغفر لذنبك** ﴾ .

ولهذا كان العلم النافع القائم على توحيد الله سبحانه الوسيلة الأساسية الأولى لتزكية النفس وبلوغها مقامات الخشية والقرب من الله سبحانه ، وتصحيح مسار المسلم ، وترسيخ الإيمان في قلبه .

ولا شك أن طلب العلم عبادة جليلة ، وهو من أفضل القربات عند الله سبحانه ، وأن تعلم ما تصح به العبادة فرض عين على كل مسلم ، كما أن الاستزادة من العلم تُعلي قدر

---

(١) لا شك أن العلوم النافعة التي تدفع المسلم إلى التفكر في المخلوقات ، تعد من الأساليب العملية في تزكية النفس كالطب والفلك ، لما فيها من تأمل بديع صنع الله وحكمته في خلقه ، وسنعرض لذلك بالتفصيل في الفصل السابع من وسائل التزكية ، أما العلوم التي لا تثمر فضيلة التفكر في المخلوقات بشكل مباشر ، فلا ترقى أن تكون وسيلة لتزكية النفس وإن كانت علوماً نافعة للأمة ونهضتها وقوتها، ويثاب صاحبها عند الله سبحانه إذا أخلص فيها .

(٢) سورة محمد / من الآية ١٩ .

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب العلم ـ باب العلم قبل القول والعمل ـ ١/٢٥ .

صاحبها عند ربه وترفع منزلته .

وقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة[1] في بيان فضل العلم ومنزلة العلماء وآداب طلب العلم والثمرات العظيمة التي يحظى بها العلماء العاملون بعلمهم .

- قال تعالى : ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾[2] .

فالقنوت لله واستشعار الخوف من عذابه والتطلع إلى رحمته ثمرة من ثمرات العلم النافع الذي يفتح البصيرة وينوّر القلب .

- وقال سبحانه : ﴿ **يرفع ا لله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾[3] .

- كما أن ا لله سبحانه شَرف العلم والعلماء بما وفّقهم إليه من خير عميم ، فقال عزوجل : ﴿ **يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾[4] .

قال مجاهد في تفسير هذه الآية الكريمة : (يؤتي الحكمة: أي العلم والفقه والقرآن)[5].

- ومما يدل على شرف العلم وفضله أن ا لله سبحانه أمر نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه فقال تعالى : ﴿ **وقل رب زدني علماً** ﴾[6] .

- والعلم النافع له ثمرات عظيمة بما يغرس في نفس صاحبه من تقوى ا لله والخشية منه ، ولهذا كان العلماء العاملون أكثر الناس خشية من ربهم ، بل إن هذه الخشية محصورة في أهل العلم قال تعالى: ﴿ **إنما يخشى ا لله من عباده العلماء** ﴾[7]، ولفظ ﴿**إنما**﴾ يدل على الحصر.

---

(١) من أراد التوسع فليرجع لما أورده الإمام ابن القيم في كتابه (مفتاح دار السعادة) ٤٨/١ ، وما بعدها .

(٢) سورة الزمر / آية ٩ .

(٣) سورة المجادلة / من الآية ١١ .

(٤) سورة البقرة / آية ٢٦٩ .

(٥) تفسير ابن كثير ٣٢٢/١ .

(٦) سورة طه / من الآية ١١٤ .

(٧) سورة فاطر /من الآية ٢٨ .

وهذه الآية الكريمة دليل صريح على أهمية العلم في التزكية ، وكونه وسيلة لابد منها لمن أراد البداية الصحيحة لتزكية النفس وطهارتها من أمراضها .

ـ أما الأحاديث النبوية التي تذكر فضل العلم وتبين منزلة العلماء وشرفهم ، وما ينبغي لهم أن يتأدبوا به ويحرصوا عليه ، فهي كثيرة[1] ، ولعل من أبرزها الأحاديث التالية :

١ ـ عن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)[2] .

فالفقه في الدين من أعظم الخير الذي يوفق الله إليه عباده ، ويشمل معنى الفقه في هذا الحديث العلوم الشرعية كلها ، وهذا دليل على منزلة العلم الشرعي وأثره في سلوك المسلم طريق الخير والسعادة .

٢ ـ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سلك الله به طريقاً من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[3] .

---

(١) من أراد التوسع في ذلك فليرجع إلى كتب السنة حيث أفردت أبواباً خاصة للأحاديث الواردة في العلم ومنزلته وآداب حملته ، كما صنف العلماء كتباً خاصة في ذلك ، ومن أبرزها :
أخلاق العلماء لأبي بكر الآجري (ت٣٦٠هـ) ـ جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر القرطبي (ت٤٦٣هـ) ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) ـ الفقيه والمتفقه للخطيب أيضاً ـ اقتضاء العلم العمل للخطيب ـ أدب الدنيا والدين للماوردي (ت٤٥٠هـ) ـ تعليم المتعلم طريق التعلم للزرنوجي (ت٦٤٠هـ) ـ أدب المفتي والمستفتي لابن الصلاح (ت٦٤٣هـ) ـ تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم لابن جماعة (ت٧٣٣هـ) ـ مفتاح دار السعادة لابن القيم (ت٧٥١هـ) ـ فضل علم السلف على الخلف لابن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ) وكذلك مقدمة المجموع للإمام النووي (ت٦٧٦هـ) وغيرها من كنوز تصانيف السلف الصالح رحمهم الله .

(٢) رواه البخاري ـ كتاب العلم باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ـ ١/٢٥ ، ورواه مسلم في كتاب الزكاة ـ باب النهي عن المسألة ـ رقم ١٠٣٧، والترمذي رقم ٢٦٤٧ .

(٣) رواه أبو داود في العلم ـ رقم /٣٦٤١ ، والترمذي في العلم ـ رقم /٢٦٨٢ . وإسناده حسن كما قال محقق جامع الأصول ٨/٦ .

وفي هذا الحديث النبوي بيان للتكريم العظيم والمنزلة الكبيرة التي يحظى بها العالم والمتعلم وإشارة إلى أهمية العلم كوسيلة في تزكية النفس ، لأنه الطريق الموصل إلى الجنة ، وهو ميراث الأنبياء ، وبه حياة القلوب وسعادة النفوس .

ولا شك أن تشبيه العلماء بالقمر ليلة البدر يُعد من البلاغة النبوية ، فالقمر يضيء الآفاق ويمتد نوره ، أما الكواكب الأخرى فنورها ضيئل ، وإذا كان الجهل كالليل في ظلمته ، فإن العلماء بمنزلة القمر ليلة البدر الذي يبدّد الظلام ويزين السماء .

وهناك لطيفة أخرى في هذا التشبيه النبوي، فالقمر يضعف نوره ثم يزداد، وتراه كاملاً ثم يتضاءل وينقص، وكذلك العلماء تتفاوت مراتبهم في العمل الصالح والدعوة إلى دين ا لله .

وفي قوله ﷺ : " إن العلماء ورثة الأنبياء " تنبيه للعلماء أن يسلكوا هدي الأنبياء وطريقتهم في الدعوة وتزكية النفوس وتربية الأمة ، وبذلك يحصل لهم نصيبهم من هذا الميراث العظيم[1] .

وإذا كان قِوام حياة البدن وأمور المعيشة عن طريق المال ، فإن حياة القلب وغذاءه وشفاءه من أسقامه لا يكون إلا بالعلم النافع الذي يورث العمل الصالح ، ومن أخذَ به فقد أخذ بحظٍ وافر .

٣ - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (مثل ما بعثني ا لله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقيَّة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع ا لله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً .

فذلك مثل من فَقُه في دين ا لله ونَفَعه ما بعثني ا لله به ، فعَلِم وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى ا لله الذي أرسلتُ به)[2] .

وهذا الحديث النبوي دليل آخر على منزلة العلم النافع في تزكية النفس ، فقد شبَّه الرسول ﷺ ما جاء به من الدين كالغيث الذي يُمطر الناس وهم في أشد الحاجة إليه ،

---

(١) ينظر : مفتاح دار السعادة لابن القيم ٦٥/١ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب العلم - باب فضل من عَلِم وعلَّم ٢٨/١ .

ثم شبه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث ، فمنهم العالم العامل بعلمه المعلّم لغيره ، فهو بمنزلة الأرض الطيبة ، شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها.

ومنهم الجامع للعلم المستغرق فيه غير أنه لم يتأدب بآدبه ولم يعمل به إلا قليلاً ، فلم يثمر علمه الثمرة المطلوبة في تزكية النفس واستقامة السلوك ، فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء لينتفع الناس به في السقاية والري ، دون أن تستفيد تلك الأرض من مائها المخزون فيها لكي تنبت وتخضرّ ، بل بقيت جرداء قاحلة ، أو أنبتت نباتاً قليلاً تتفاوت نسبته بحسب استفادة الأرض من مائها .

ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره ، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء ولا تنبت الكلأ ، وهذه الطائفة أعرضت عن العلم النافع وأصرت على ظلمات الجهل وانحرفت عن طريق الحق الذي يدعو إليه الرسول ﷺ .

ولا شك أن الطائفة الأولى هي المحمودة لكونها تعلمت العلم النافع وأثمر هذا العلم عندها ثمرات كثيرة في تزكية النفس والدعوة إلى الدين الحق وإرشاد العباد إلى ما فيه سعادتهم .

*** ولكي يؤدي العلم دوره في تزكية النفس لا بد من أن يتحقق فيه الشرطان الآتيان**

١ ـ أن يصحبه العمل الصالح مع الإخلاص لله سبحانه والتزام الآداب المطلوبة للعالم والمتعلم.

٢ ـ أن يتجنب المسلم المراء والخصام في مسائل العلم .

ولنبدأ بالفقرة الأولى ، وهي الشرط الأول :

العلم والعمل :

العلم النافع هو العلم الذي يتبعه العمل ويلتزم صاحبه بالخلق الفاضل والآدب الكامل والاعتصام بالكتاب والسنة وإخلاص القصد لله سبحانه ، وبذلك يثمر ثمراته المرجوة في تزكية النفس .

ولقد حذرنا الله سبحانه من العلم الذي لا يصاحبه العمل ، ومن القول الذي لا يتبعه

الفعل ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند ا لله أن تقولوا مالا تفعلون** ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** ﴾[2] ، كما بين الرسول ﷺ أن العالم سيسأل يوم القيامة عن علمه ماذا عمل فيه وهل أثمر عنده الخشية من ا لله والتقرب إليه بالعمل الصالح أم اتخذه وسيلة للتظاهر والتباهي أمام الناس ؟

روى الترمذي عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول ا لله ﷺ : (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه فيم فَعَل ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه)[3] .

وروى مسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول ا لله ﷺ يقول : (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه)[4] .

وهذه عقوبة من لا يعمل بما آتاه ا لله من علم ، ولا ينتفع به ، وإنما يكتفي بأمر الناس ونهيهم ، ويترك نفسه لتنساق وراء المعاصي في غفلة عن أعين الناس ، ولكن ا لله سبحانه الذي لا تخفى عليه خافية ، والذي ستره في الدنيا حتى ظن الناس به الصلاح ، يفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد .

ولذلك كان الصحابة رضي ا لله عنهم مع تقواهم وتمسكهم بالكتاب والسنة يخشون هذا الموقف العصيب يوم القيامة .

ـ فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : (إنما أخاف أن يقال لي يوم القيامة أعلمتَ أو جهلت؟ ، فأقول : علمت ، فلا تبقى آية من كتاب ا لله عز وجل آمرة أو زاجرة إلا جاءتني

---

(١) سورة الصف / الآيتان ٢/٣ .

(٢) سورة البقرة / آية ٤٤ .

(٣) رواه الترمذي في صفة القيامة ـ رقم ٢٤١٧، وقال حديث حسن صحيح .

(٤) رواه مسلم في الزهد ـ باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ـ رقم /٢٩٨٩ .

تسألني فريضتها ، فتسألني الآمرة هل ائتمرت ، والزاجرة هل ازدجرت ، فأعوذ با لله من علم لا ينفع)[١] .

ـ وعنه رضي الله عنه أنه قال : (لا تكون عالمًا حتى تكون بالعلم عاملاً)[٢] .

ولقد كان الرسول ﷺ يسأل ربه العلم النافع ويتعوذ به من العلم الذي لا ينفع .

روى مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول : " اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها "[٣] .

قال الإمام ابن رجب الحنبلي : (من فاته هذا العلم النافع وقع في الأربع التي استعاذ منها النبي ﷺ ، وصار علمه وبالاً وحجة عليه ، فلم ينتفع به لأنه لم يخشع قلبه لربه ، ولم تشبع نفسه من الدنيا ، بل ازداد عليها حرصاً ولها طلباً ، ولم يُسمع دعاؤه لعدم امتثاله لأوامر ربه ، وعدم اجتنابه لما يسخطه ويكرهه)[٤] .

ولقد كان الرسول ﷺ يربي أصحابه على العلم النافع الذي يزكي النفس ، وبذلك تخرج من مدرسة النبوة هذا الجيل القرآني الفذ الذي حمل رسالة الإسلام إلى الآفاق ، وتسلّم وراثة النبوة ليسلّمها لمن بعده بأمانة وإخلاص ، وتعاقبت الأجيال الفاضلة التي تتلقى العلم للعمل وتتأدب بآداب العلم وتتحلى بفضائله .

ـ روى الخطيب البغدادي عن مالك بن أنس قال : قال ابن سيرين : " كانوا يتعلمون الهديَ كما يتعلمون العلم "[٥] .

ـ وعن مالك أيضاً عن ابن شهاب أنه قال : (إن هذا العلم أدبُ ا لله الذي أدَّب به نبيه ﷺ ، وأدَّب النبي ﷺ أمته ، أمانة ا لله إلى رسوله ، ليؤديه على ما أُدِّي إليه ، فمن سمع علماً فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين ا لله عزوجل)[٦] .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ، للإمام ابن عبد البر ـ ٣/٢ .

(٢) أخلاق العلماء ـ للإمام الآجري ـ ص/٥٧ .

(٣) صحيح مسلم ـ كتاب الذكر والدعاء ـ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ـ رقم /٢٧٢٢.

(٤) فضل علم السلف على الخلف ـ للإمام ابن رجب الحنبلي ـ ص/١٢٢ .

(٥) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ـ للإمام الخطيب البغدادي ـ ١/٧٩ .

(٦) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ـ للإمام الخطيب البغدادي ـ ١/٧٩ .

- وعن إبراهيم بن حبيب قال : قال لي أبي : (يا بني إيتِ الفقهاء والعلماء ، وتعلّم منهم وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم ، فإن ذاك أحب إليَّ لك من كثير من الحديث)[1].

ولذلك كانت العلامة التي يتميز بها أهل العلم النافع أنهم يتواضعون ولا يرون لأنفسهم حالاً ولا مقاماً ويكرهون المدح وثناء الناس عليهم ، ولا يتكبرون على أحد ، وتراهم زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة ، يواظبون على عبادة ربهم ، وكلما ازدادوا علماً ازدادوا تواضعاً لله وخشية وانكساراً وذلاً له سبحانه[2] .

وقد حدّد الإمام الشاطبي رحمه الله شروط العالم المتحقق بالعلم ، وهي ثلاثة :

١ - العلم بما علم حتى يكون قوله مطابقاً لفعله .

٢ - أن يكون ممن ربّاه الشيوخ في ذلك العلم لأخذه عنهم وملازمته لهم .

٣ - الاقتداء بمن أخذ عنه والتأدب بآدابه. فلما تُركت هذه الأوصاف رفعت البدع رؤوسها وحلّ اتباع الهوى محل الاقتداء[3]

المراء والخصام في مسائل العلم يقسي القلب ويحرم من ثمرات العلم:

الشرط الثاني الذي لا بد من تحققه لكي يؤدي العلم دوره في تزكية النفس وترقية حالها هو تجنب الخصام والمراء والجدال في مسائل العلم .

والدليل على ذلك ما رواه أصحاب السنن[4] ، عن أبي أمامة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : (ما ضلَّ قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل ، ثم قرأ : ﴿ **ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون** ﴾[5]) ، وقال بعض السلف : (إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل ، وأغلق عليه باب الجدل ، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عنه باب العمل وفتح له باب الجدل)[6] .

---

(١) المرجع نفسه ١/٨٠ .

(٢) ينظر : فضل علم السلف على الخلف للإمام ابن رجب الحنبلي ص/١٢٨-١٢٩ .

(٣) ينظر : الموافقات للإمام الشاطبي ١/٥٤-٥٥ .

(٤) رواه الترمذي في التفسير رقم /٣٢٥٠ ، وقال حسن صحيح ، وابن ماجة في المقدمة رقم /٤٨ ، وأحمد في المسند ٥/٢٥٢و٢٥٦ .

(٥) سورة الزخرف / الآية ٥٨ .

(٦) فضل علم السلف على الخلف ص/٨٦ .

وقال مالك رحمه الله : (المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم)"[1] .

وقال أيضاً : (المراء في العلم يقسّي القلب)[2] .

وسمع الحسن البصري قوماً يتجادلون فقال : (هؤلاء قوم ملّوا العبادة ، وخفّ عليهم القول ، وقلّ ورعهم فتكلموا)[3] .

وقال محمد بن جعفر الصادق : (إياكم والخصومات في الدين فإنها تشغل القلب وتورث النفاق)[4] .

وقد علق الإمام ابن رجب الحنبلي بعد أن أورد هذه الأقوال عن علماء السلف ، فقال : (وقد فتن كثير من المتأخرين بهذا ، فظنوا أن مَن كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين فهو أعلم ممن ليس كذلك ، وهذا جهل محض ... فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به الحق ويميز به بينه وبين الباطل "[5] .

ثم قال : (وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدَّم ، فمنهم من يظن في شخص أنه أعلم من كل مَن تقدم من الصحابة ومن بعدهم لكثرة بيانه ومقاله ، ومنهم من يقول هو أعلم من الفقهاء المشهورين المتبوعين)[6] .

وبعد هذا البيان لضرورة البعد عن الجدال والمراء في مسائل العلم وضع لنا الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله ضوابط للعلم النافع البعيد عن الجدل والخصام فقال : " العلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها ، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث ، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام ، والزهد والرقائق ، والمعارف وغير ذلك ، والاجتهاد في تمييز صحيحه من سقيمه أولاً ، ثم الاجتهاد في الوقوف على معانيه وتفهمه ثانياً ، وفي ذلك

---

(١)(٢) المرجع نفسه ص/ ٨٨ .

(٣) نفس المرجع ص/٨٩ .

(٤) المرجع نفسه ص/٩١ .

(٥) نفس المرجع ص /٩٢-٩٤ .

(٦) نفسه ص/٩٧ .

كفاية لمن عقل ، وشغل لمن بالعلم النافع عُني واشتغل)[1] .

ولا شك أن هذا التحديد يشمل كل علم نافع يسير في ركاب الكتاب والسنة ويلتزم بمنهج السلف الصالح ويحذر صاحبه غرور النفس وهواها .

وبعد هذا التفصيل لمعنى العلم النافع والشروط الواجب تحققها في هذا العلم ليؤدي دوره في تزكية النفس ، نستطيع أن نجمل القول لبيان آثاره في مجال تزكية النفس وتصحيح مسارها .

آثار العلم النافع في مجال التزكية

١ ـ العلم النافع يعرِّف المسلم بالعقيدة الصحيحة ويرسِّخ إيمانه بها ، ويزيد يقينه بقدرة الله سبحانه وبديع صنعه وحكمته في خلقه وتدبيره ، ويقوي دعائم أركان الايمان في نفسه ، وهذه الأركان هي الأساس في تزكية النفس كما سبق بيانه في الباب الثاني .

٢ ـ العلم النافع يعلِّم المسلم أحكام الحلال والحرام ، وكل ما يحتاجه من أحكام العبادات والمعاملات فالعلم إمام العمل وقائد له ، ولا بد أن يكون العمل موافقاً للكتاب والسنة لكي يقبل عند الله سبحانه والعامل بغير علم كالسائر بلا دليل في مكان لا يعرفه .

ثم إن العلم يحدد للمسلم منزلة كل عبادة ويبين له الفرائض من النوافل ، فلا ينشغل بنافله على حساب فريضة ، فإن من علامة اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات .

٣ ـ العلم يحفظ صاحبه من موارد الهلكة ، فالإنسان لا يعرض نفسه للتلف والخطر إلا إذا كان جاهلاً بذلك لا علم له به ، فهو كمن يأكل طعاماً مسموماً ، ولو علم بالسم لامتنع عن أكله فالعلم يحرس صاحبه ، ويجنبه مداخل الشيطان ويحجزه عن المعاصي[1] .

٤ ـ العلم يثمر أعظم ثمرة يتمناها كل مسلم وهي الخشية من الله سبحانه ومحبته والقرب منه، وهذه الخشية تنمو في النفس كلما ازداد المسلم طلباً للعلم وعملاً به ، والخشية

(١) فضل علم السلف على الخلف ص/١١١ .

(٢) ينظر : مفتاح دار السعادة لابن القيم ـ١٢٨/١ .

الصحيحة لا يحظى بها إلا العلماء العاملون ، كما قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[1] .

فالعبد يستدل بالعلم على ربه فيعرفه وإذا عرف العبد ربه عرف نفسه وأدرك افتقاره إلى خالقه ولذلك كان الإمام أحمد رحمه الله يقول : (أصل العلم خشية الله)[2] .

وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ **وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم** ﴾[3] .

والعلم الذي يُبعد الإنسان عن ربه ويوقعه في الضلال ويزيده تكبراً وغروراً ، لا يُعد علماً نافعاً مهما تعمق الإنسان فيه ، فما هو إلا أخو الجهل ، لأن العلم النافع ليس مجرد المعرفة ولكنه الذي يدفع لتحقيق عبودية الإنسان لخالقه .

وقد بين لنا الله سبحانه ذلك في حديث عن الكفار وما تعلموه من علم مبتوت لا يرتبط بالدار الآخرة .

فقال تعالى : ﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾[4] .

وقال سبحانه : ﴿ **فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يُرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم** ﴾[5] .

٥ ـ العلم كفارة للذنوب والخطايا وتطهير للنفس ، وذلك لأن العلم عبادة جليلة يحظى بها المسلم بالأجر العظيم ، وهو من الحسنات التي يكفّر الله بها السيئات .

كما قال تعالى : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾[6] .

وقال ﷺ : (وأتبع السيئة الحسنة تمحها)"[7] .

---

(١) سورة فاطر / من الآية ٢٨ .

(٢) فضل علم السلف على الخلف ـ ص/١٢١ .

(٣) سورة الحج / من الآية ٥٤ .

(٤) سورة الروم / آية ٧ .

(٥) سورة النجم / آية ٢٩، وجزء من الآية ٣٠ .

(٦) سورة هود / من الآية ١١٤ .

(٧) جزء من حديث رواه الترمذي - كتاب البر - باب ما جاء في معاشرة الناس - رقم/١٩٨٨ . وقال حديث حسن .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة ، فإذا سمع العلم خاف ورجع وتاب ، فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء)[1] .

ولذلك قال الإمام الراغب الأصفهاني : (العلم والعبادة هما المطهران للنفس ، وأثرهما كأثر الماء في تطهير البدن)[2] .

٦ ـ العلم منشّط للنفس وممتع لها ، وهذه المتعة تنسي طالب العلم ما يناله من متاعب ، وتخفف عنه ما يبذله من عناء ، لأنه يجد في العلم مرتعاً يأوي إليه ويرتاح عنده ، وبذلك تقوى الهمة عنده في طلب العلم ولا يشبع منه أبداً .

وهذا ما أشار إليه الحديث النبوي الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: (منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال)[3] .

وهذا النهم في طلب العلم هو بلا شك دافع للعمل ومغذٍ للنفس حتى تتزكى وتشفى من أمراضها وتبتعد عن اللذات المحرمة التي تميل إليها النفس الأمارة .

قال الإمام الماوردي : (العلم عوض من كل لذةٍ ومغنٍ عن كل شهوة ... ومن تفرد بالعلم لم توحشه خلوة ، ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوة ... فلا سمير كالعلم ولا ظهير كالحلم)[4] ، وما أحسن قول الشاعر :

شربتُ العلم كأساً بعد كأس   فما نفد الشراب ولا رويت[5]

وقد أورد الإمام ابن القيم قصة في هذا المجال عن شيخه الإمام ابن تيمية فقال : (حدثني شيخنا قال : ابتدأني مرض فقال لي الطبيب : إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض . فقلت له : لا أصبر على ذلك وأنا أحاكمك إلى علمك ، أليس النفس إذا

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٧٧ .

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهاني ـ ص/٢١ .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك ١/٩٢ وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في حاشيته على مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي ١/٨٦ .

(٤) أدب الدنيا والدين ـ ص/٩٢ .

(٥) الدين الخالص للشيخ صدّيق حسن خان ـ ٣/٢٢٨ .

فرحت وسُرَّت قويت الطبيعة فدفعت المرض ؟ فقال : بلى . فقلت له : فإن نفسي تُسرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجدُ راحة فقال : هذا خارج عن علاجنا)[1]

❋ ❋ ❋

ولعل خير ختام نُجمل به ما سبق في موضوع العلم النافع أن نذكر القول المأثور عن معاذ ابن جبل رضي الله عنه ، حيث قال : (تعلموا العلم ، فإن تعلُّمه لله خشية ، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقه ، وبذله لأهله قُربه ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل أهل الجنة ، وهو الأُنس في الوحشة ، والصاحب في الغربة ، والمحدث في الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة وأئمة ، تُقتصُّ آثارهم ويُقتدي بأفعالهم ويُنتهي إلى رأيهم ، ترغب الملائكة في خلَّتهم وبأجنحتها تمسحهم ، يستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه ، لأن العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصابيح الإبصار من الظُلم ، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة ، التفكر فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام ، به توصل الأرحام ، وبه يُعرف الحلال من الحرام ، هو إمام العمل ، والعمل تابعه ، ويلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء)[2] .

---

(١) روضـة المحبين ونزهة المشتاقين – لابن القيم – ص /٨٧ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله للإمام ابن عبد البر ٥٥/١ ، ومفتاح طريق السعادة للإمام ابن القيم ١٢٠/١ ، وقد قال الامام ابن القيم بعد أن أورده : " رُوى حديث معاذ من طرق أخرى مرفوعاً إلى النبي ﷺ لكنه لا يصح مرفوعاً ، وحسبه أن يصل إلى معاذ رضي الله عنه " .

الفصل الثاني

العمل الصالح

ويتضمن تمهيداً وستة مباحث :

المبحث الأول : الصلاة .

المبحث الثاني : الزكاة والصدقات .

المبحث الثالث : الصيام .

المبحث الرابع : الحج والعمرة .

المبحث الخامس : الجهاد بأنواعه .

المبحث السادس : النوافل (تلاوة القرآن الكريم، الذكر والدعاء، قيام الليل) .

تمهيد :

الترابط بين العلم النافع والعمل الصالح وثيق جداً ، فالعلم الذي لا يثمر العمل ولا يدل عليه ليس علماً نافعاً ، والعمل الذي لا يستند إلى أساس من العلم الشرعي والاتباع للكتاب والسنة لا يحظى صاحبه بالقبول الكامل .

ودائرة العمل الصالح واسعة جداً تشمل الحياة وما فيها ولا تختص بالشعائر التعبدية ، كما تشمل كيان الإنسان كله ظاهره وباطنه ، وهذا ما وضحه الإمام ابن تيمية رحمه الله عندما عرف العبادة بقوله : (هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة)[1] .

كما بيّن الإمام ابن القيم رحمه الله الصلة الوثيقة بين العلم النافع والعمل الصالح ، فقال:

(كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهما الهدى ودين الحق ..

كما قال تعالى : ﴿ **والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾[2] . أقسم الله سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمّل قوته العلمية بالإيمان ، وقوته العملية بالعمل الصالح ، وكمّل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه ، فالحق هو الإيمان والعمل ، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما)[3] .

وقد حفلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالتأكيد على أهمية العمل الصالح في تزكية النفس والسمو بها إلى المنزلة العالية والمقام العظيم ، وتحقيق السعادة في الدارين .

قال تعالى : ﴿ **من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾[4] ..

---

(١) العبودية – للإمام ابن تيمية – ص/٥ .

(٢) سورة العصر .

(٣) مدارة السالكين ١/ ٦ .

(٤) سورة فاطر / من الآية ١٠ .

وروى مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها)[١] .

وقد دل هذا الحديث على أن العمل الصالح يزكي النفس ويطهرها ، وأن كل إنسان إما أن يسعى في هلاك نفسه أو في نجاتها ، فمن سعى في طاعة الله فقد باع نفسه لله وأعتقها من عذابه ، ومن سعى في معصة الله فقد باع نفسه بالهوان وأوبقها بالآثام الموجبة لغضب الله وعقابه [٢] .

فمن أراد أن يعتق نفسه من أسر شهواتها وأن يخلصها من آفاتها وأمراضها ، وأن يتحرر من العبودية لها ، ويحظى بالعتق من النار يوم القيامة ، فليكن غدوُّه ورواحه في جميع شؤونه وأحواله مستنداً إلى دين الله ، مسترشداً بهداه .

وسأعرض في هذا الفصل لأبرز الأعمال الصالحة التي تُعدُّ معالم على طريق التزكية وهي أركان الإسلام وما يتصل بها من نوافل كالصدقة والذكر والدعاء وتلاوة القرآن الكريم ، كما سأتحدث عن الجهاد وأثره في تزكية النفس ، وأما ما عدا ذلك من أنواع العمل الصالح ومجالاته فإن كثيراً منها له صلة وثيقة بالحديث عن ثمار التزكية وبخاصة أعمال القلوب والأخلاق والآداب ، ولذلك آثرت أن أؤخر الحديث عنها إلى الباب السادس .

ولنبدأ الآن بالشعيرة الأولى من شعائر الإسلام وهي الصلاة لنرى آثارها العظيمة في تزكية النفس وترسيخ الإيمان :

---

(١) رواه مسلم – كتاب الطهارة – باب فضل الوضوء – رقم / ٢٢٣ .

(٢) جامع العلوم والحكم – للإمام ابن رجب الحنبلي – ص / ١٩٣ .

المبحث الأول

الصلاة

الصلاة عماد الدين ومفتاح الجنة وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من أعماله، ولها في الإسلام منزلة عظيمة وخصائص كثيرة ، فهي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وهي العبادة الوحيد التي فرضت في السموات العلى ليلة الإسراء والمعراج ، وهي العبادة التي شرع لها الأذان وشيدت لها المساجد ، كما أنها العبادة الوحيدة التي لا تسقط عن المكلف في حضر ولا سفر ، ولا غنى ولا فقر ، ولا صحة ولا مرض ، ولا أمن ولا خوف .

ولقد أمر الله سبحانه بهذه الفريضة وحض عليها وبين منزلتها في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين** ﴾[1] .

وقوله سبحانه: ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين**﴾[2].

وقوله عز وجل: ﴿ **فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً** ﴾[3].

كما وردت أحاديث كثيرة في بيان مكانة الصلاة في الإسلام وفضلها وأحكامها والتحذير من تركها ومن ذلك :

- ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سألت النبي ﷺ : (أي العمل أفضل ؟ قال: " الصلاة على وقتها " ، قال : ثم أي ؟ قال : " بر الوالدين " ، قال : ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله)[4] .

---

(١) سورة البقرة / آية ٤٣ .

(٢) سورة البقرة /آية ٢٣٨ .

(٣) سورة النساء / آية ١٠٣ .

(٤) رواه البخاري ـ كتاب مواقيت الصلاة ـ باب فضل الصلاة لوقتها ـ ١٣٤/١ .
ومسلم – كتاب الإيمان – باب الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال – رقم / ٨٥ .

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر)"[1] .

ولكن هناك شروط لابد من تحققها لكي تؤدي الصلاة دورها في تزكية النفس .

من أهمها شرطان :

الشرط الأول : إتمام الصلاة وإتقانها والمحافظة عليها وعدم التهاون فيها ، مع أدائها على الوجه المطلوب في الإخلاص والمتابعة للكتاب والسنة .

ولذلك لمّا ذكر الله سبحانه صفات المؤمنين الذين لا يصيبهم الهلع في دنياهم جعل من أولى هذه الصفات المداومة على الصلاة ثم ختم تلك الصفات بذكر المحافظة على الصلاة أيضاً .

قال تعالى : ﴿ **إن الإنسان خُلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون** ﴾[2] ، ثم قال سبحانه : ﴿ **والذين هم على صلاتهم يحافظون أولئك في جنات مكرمون** ﴾[3] .

ـ والمحافظة على الصلاة تشمل أموراً كثيرة منها : أداؤها على الوجه الشرعي والالتزام بأحكامها ، وعدم سبق الإمام .

يقول الإمام أحمد في رسالته القيمة عن الصلاة : " من العجب أن يكون الرجل في منزله، فيسمع الأذان ، فيقوم فزعاً يتهيأ ، ويخرج من منزله يريد الصلاة لا يريد غيرها ، ثم لعله يخرج في الليلة المطيرة المظلمة يتخبط في الطين ، ويخوض الماء وتبتل ثيابه ... ولعله مع هذا أن يكون مريضاً ضعيفاً ، فلا يدع الخروج إلى المسجد فيتحمل هذا كله إيثاراً للصلاة ، وحباً لها ، وقصداً إليها .. فإذا دخل مع الإمام في الصلاة خدعه الشيطان، فيسابق الإمام في الركوع والسجود والرفع والخفض خدعاً من الشيطان له ، لما يريد من إبطال صلاته وإحباط

---

(١) رواه الترمذي في الصلاة – رقم ٤١٣ ، والنسائي ٢٣٢/١ ، والحاكم ٢٦٣/١ ، وانظر صحيح الجامع – للألباني – رقم ٢٥٧٠ .

(٢) سورة المعارج / الآيات ١٩/ ٢٣ .

(٣) سورة المعارج /الآيتان ٣٤ـ٣٥ .

عمله ، فيخرج من المسجد ولا صلاة له)[1] !!

- كما تشمل المحافظة على الصلاة أداءها في أول وقتها دون تأخير أو تهاون ، ولذلك قال الله سبحانه : ﴿ **فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون** ﴾[2] .

وهذا الويل والوعيد لمن تهاون في صلاته وأخّرها عن وقتها المقدّر لها وتكاسل في أدائها[3] .

وكم نرى من أناس ينتسبون إلى الإسلام ولا تجد عندهم أي همة لأداء الصلاة ، وإنما تراهم متكاسلين في أدائها ، متثاقلين عنها ، وكأنها عبء ثقيل يريد أن يتخلص منه .

وقد وصف الإمام ابن القيم هؤلاء المتقاعسين وحالتهم النفسية عند أداء الصلاة فقال : (تأمل كيف قال ﷺ : " ارحنا بالصلاة " ولم يقل أرحنا منها كما يقول المتكلف الكاره لها الذي لا يصليها إلا على إغماض وتكلف ، فهو في عذاب ما دام فيها ، فإذا أخرج منها وجد راحة قلبه ونفسه ، وذلك أن قلبه ممتلئ بغيره - أي بغير الله تعالى - ، والصلاة ناطقة له عن أشغاله ومحبوباته الدنيوية ، فهو معذّب بها حتى يخرج منها ، وذلك ظاهر في أحواله فيها في نقرها والتفاف قلبه إلى غير ربه ، وترك الطمأنينة والخشوع فيها ، ولكن قد علم أنه لا بد له من أدائها فهو يؤديها على أنقص الوجوه)[4] .

ولقد وصف الله حال المنافقين في أدائهم للصلاة تظاهراً بالإسلام ، فقال سبحانه : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً** ﴾[5] .

ومما يؤسف له أن بعض المسلمين اليوم يتصفون بالتكاسل عن الصلاة ، ولا يبالي أحدهم إذا ضاعت عليه الصلاة فلم يؤدها في وقتها ، ولكنه يحزن كثيراً إذا ضاعت عليه فرصة

---

(١) كتاب الصلاة للإمام أحمد بن حنبل - ص/٤١ - ضمن كتاب / مجموعة رسائل في الصلاة - طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء بالرياض .

(٢) سورة الماعون / الآيتان ٤-٥ .

(٣) ينظر : تفسير ابن كثير ٤/٥٥٥ .

(٤) الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة - لابن القيم - ص/٥٨ .

(٥) سورة النساء / آية ١٤٢ .

ماليه أو عمل دنيوي ، وينسى قول الرسول ﷺ : (من فاتته صلاة ، فكأنما وُتِر أهله وماله)[1].

ولاشك أن هذه الحالة التي وصل إليها بعض المسلمين إنما هي بسبب ضعف الإيمان وغلبة الشهوات والإصغاء لوساوس الشيطان والتدرج في التهاون يوماً بعد يوم ، حتى قلّت المبالاة وضاع الإهتمام بهذه العبادة الجليلة ، فكيف يُرجى لهؤلاء بعد ذلك أن تؤتي صلاتهم ثمراتها في تزكية النفس ؟! .

الشرط الثاني : الخشوع في الصلاة :

روح الصلاة الخشوع والتدبُّر وحضور القلب ، والصلاة بغير خشوع كجسد بلا روح، ولا فلاح للمؤمن إلا بالخشوع في صلاته ، كما قال تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾[2] .

وقد عرّف الإمام ابن عطية الخشوع بقوله : (هو هيئة في النفس يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع)[3] ، فالخشوع في الصلاة يتضمن معنيين ـ كما قال الإمام ابن تيمية ـ : أحدهما : التواضع والذل لله ، والثاني : السكون والطمأنينة[4] .

كما بيّن الإمام الغزالي منزلة الخشوع وحضور القلب في الصلاة فقال : " إن حضور القلب هو روح الصلاة ، وإن أقل ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التكبير ، فالنقصان منه هلاك ، وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في أجزاء الصلاة ، وكم من حي لا حِراك به قريبٌ من ميت ، فصلاة الغافل في جميعها إلا عند التكبير كمثل حي لا حِراك به "[5] .

فلا تثمر الصلاة ثمراتها في تزكية النفس إلا إذا وجد الخشوع مع بقية الشروط المطلوبة في الصلاة ، قال تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾[6].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه . (ينظر : موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للهيثمي ـ ص/٩٤) . وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (رقم /٥٧٦) .

(٢) سورة المؤمنون / الآيتان ١-٢ .

(٣) تفسير ابن عطية ٢٧٨/١ .

(٤) الإيمان للإمام ابن تيمية ـ ص/٢٤ .

(٥) إحياء علوم الدين ١٦١/١ .

(٦) سورة البقرة / آية ٤٥ .

وإذا كان الخشوع في الصلاة ثمرة من ثمرات تزكية النفس ، ولا يحظى بالخشوع الكامل إلا من ذاق حلاوة الإيمان ، فإن استجلاب الخشوع ، وتدريب النفس عليه ، ومجاهدة النفس للوصول إليه ضرورة لا بد منها لكي تحقق الصلاة ثمارها في تزكية النفس وصلاح القلب .

فهناك اذن سببان لنيل الخشوع في الصلاة: أحدهما ينال بعلاج تدريبي عملي، وهذا ما سنشير إليه في هذه الأسطر، والثاني يناله العبد كثمرة من ثمرات تزكية النفس ، فلا يحتاج معها لمجاهدة نفسه في كل صلاة على الخشوع ، وإنما يصبح الخشوع ملكة وخُلقاً وعادة .

ولذلك نشير هنا إلى أبرز الأسباب التي لا بد من اتخاذها لمعالجة الغفلة واستجلاب الخشوع ، وهي :

١ ـ استشعار أهمية الصلاة وأنها صلة بين العبد وربه ومناجاة لخالقه وإستجابة لأمره ، وراحة لنفس المؤمن وتكفير للسيئات ورفع للدرجات وحاجز عن المعاصي وتشريف للعبد ، وهذا ما ذكرناه قبل صفحات ، في الآثار التي ينالها المصلي في مجال تزكية النفس .

٢ ـ دفع الخواطر وعدم الانشغال بالأمور التي تسبب هذه الخواطر وتشتت الذهن ، وإبعاد كل ما يشغل عن الصلاة من أصوات ومناظر ونقوش وغيرها ، وتركيز البصر في موضع السجود وعدم الالتفات أو رفع البصر إلى أعلى ، لأن هذا يؤدي إلى الانشغال عن الخشوع ، وهو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد .

ـ فعن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت النبي ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال : (هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد)[1] .

ـ وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : (لا يزال الله عزوجل مقبلاً على العبد وهو في صلاته مالم يلتفت ، فإذا التفت انصرف عنه)[2] .

ـ وقد كان حال السلف الصالح رحمهم الله أن أحدهم إذا قام إلى الصلاة يهاب الرحمن أن يشرد بصره ، أو أن يُحدِّث نفسه بشيء من أمر الدنيا[3] .

---

(١) رواه البخاري في صفة الصلاة ـ باب الالتفات في الصلاة - ١٨٣/١ ، وأبو داود رقم /٩١٠ ، والنسائي في السهو ـ باب التشديد في الالتفات في الصلاة - ٨/٣ .

(٢) رواه أبو داود - في الصلاة ـ باب الالتفات في الصلاة ـ رقم /٩٠٩ ، وصححه الحاكم في المستدرك - ٢٣٧/١ ، ووافقه الذهبي .

(٣) الإيمان - للإمام ابن تيمية - ص/٢٥ .

ولا شك أن أهم ما يدعو إلى حضور القلب في الصلاة الاهتمام بها وإدراك منزلتها ، فإن حضور القلب سببه الهمة ، فالقلب لا يحضر إلا في الأمر الذي يهتم به ، وإذا لم يحضر القلب في الصلاة فإنه سيجول في أمور أخرى تحوز على اهتمامه وتشغل تفكيره .

فلا بد من إبعاد كل سبب خارجي يشغل عن الصلاة مما يؤثر في السمع أو البصر وكل سبب داخلي كالهموم والمشاغل الدنيوية وما شابه ذلك .

وأصل الخشوع لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه ، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء ، لأنها تابعه له[1] .

وقد ورد في الحديث أن الرسول ﷺ قال : (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب)[2] .

فإذا خشع القلب خشع السمع والبصر والرأس وسائر الأعضاء ، ولم ينشغل المسلم عن صلاته بشيء آخر .

٣ - تدبر الآيات التي يتلوها المسلم في صلاته والتفكر في معانيها ، ومما يساعد على التدبر حضور القلب وعدم تشتت الذهب ودفع الخواطر ، كما أن اختيار بعض الآيات القرآنية التي تقرع المسامع وتهز القلوب وتصور مشاهد الدار الآخرة وأهوالها ، وتذكر الإنسان بمصيره .. كل ذلك يساعد على التدبر ويسيل مدامع العيون .

وقد وصف الله عباده المتقين فقال : ﴿ **إذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خرُّوا سُجَّداً وبُكِّياً** ﴾[3] .

ولا شك أن مجاهدة النفس على التفكر والتدبر لآيات القرآن الكريم أصل عظيم في موضوع الخشوع ، وهذا ما سنعرض له في مبحث مستقل عند الحديث عن تلاوة القرآن الكريم[4] .

---

(١) الخشوع في الصلاة - للإمام ابن رجب الحنبلي - ص/٦ .

(٢) من حديث رواه البخاري في كتاب الإيمان - باب من استبرأ لدينه وعرضه -١/١٩ ، ورواه مسلم في البيوع - باب أخذ الحلال وترك الشبهات - رقم/١٥٩٩ .

(٣) سورة مريم / من الآية ٥٨ .

(٤) ينظر ص /١٩٤من هذا البحث .

٤ - يقين المسلم بأن هذه الصلاة سيسأل عنها يوم القيامة ، واستحضاره مشهد الوقوف للحساب ، وأنها قد تكون آخر صلاة يصليها في هذه الدنيا ، فيتذكر الموت الذي هو نهاية كل مخلوق ، والقبر الذي هو مسكن الإنسان بعد موته ، ما أن يكون روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، ويستحضر مشاهد القيامة وأهوالها .

وقد أشارت إلى هذا المعنى الآية الكريمة التي تحض على الخشوع في الصلاة ، وهي قوله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون** ﴾[1] .

فالصلاة كبيرة وثقيلة إلا على الخاشعين الخاضعين لطاعة الله ، المصدقين بوعده ووعيده الذين يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة ، وأنهم سيقفون بين يديه سبحانه[2] ، فهؤلاء لما استشعروا الخشية من الله سبحانه واستحضروا مشاهد القيامة وأهوالها سهل عليهم الخشوع في الصلاة وبادروا إلى العمل الصالح ، وكلما وقف أحدهم للصلاة حدَّث نفسه أن هذه قد تكون آخر صلاة قبل موته فازداد خشوعه، ومما يؤكد هذا المعنى قول الرسول ﷺ: (وصلِّ صلاتك وأنت مودِّع)[3] .

وقد سئل حاتم الأصم رحمه الله عن صلاته فقال : (إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء، وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه ، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي ، ثم أقوم إلى صلاتي، وأجعل الكعبة بين حاجبي ، والصراط تحت قدمي ، والجنة عن يميني ، والنار عن شمالي ، وملك الموت ورائي ، أظنها آخر صلاتي ، ثم أقوم بين الرجاء والخوف ، وأكبر تكبيراً بتحقيق ، وأقرأ قراءة بترتيل ، وأركع ركوعاً بتواضع ، وأسجد سجوداً بتخشع)[4] .

وبقدر توفر الخشوع في الصلاة ينشرح الصدر وتطمئن النفس ، وتحقق تلك الصلاة ثمراتها وينال العبد الآجر ويحظى بالمنزلة العظمى عند الله سبحانه .

---

(١) سورة البقرة / الآيتان ٤٥، ٤٦ .

(٢) ينظر : تفسير ابن كثير ١/٨٧ ، تفسير ابن عطية ١/٢٧٨ ، ومعنى يظنون هنا ، أي يوقنون ويعلمون ، والعرب تسمي اليقين ظناً والشك ظناً ، وهذه من الألفاظ التي يسمَّى بها الشيء وضدُّه .

(٣) رواه ابن ماجه - كتاب الزهد - رقم/ ٤١٧١ والإمام أحمد ٥/ ٤١٢ وانظر الأحاديث الصحيحة للألباني رقم/ ٤٠١

(٤) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ١/١٥١ .

ولكن عندما يقسو القلب وينشغل بأمور الدنيا وتذهب خشية ا لله منه ، فإن الصلاة تصبح بلا روح ، ولذلك ذمَّ ا لله سبحانه قسوة القلب في أكثر من موضع من آيات القرآن الكريم . فقال تعالى : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ **فويل للقاسية قلوبهم من ذكر ا لله أولئك في ضلال مبين** ﴾[2] .

كما دعا ا لله سبحانه عباده إلى خشوع القلب ، ونهاهم عن أن يكونوا كالذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، قال تعالى : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر ا لله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** ﴾[3] .

ولنختم حديثنا في موضع الخشوع بهذه **الوصية الجامعة** للإمام أحمد بن حنبل رحمه ا لله، حيث يقول : (رحم ا لله من أقبل على صلاته خاشعاً خاضعاً ذليلاً لله عزوجل ، خائفاً داعياً راغباً وجلاً ، مشفقاً راجياً ، وجعل أكبر همِّه في صلاته لربه تعالى ، ومناجاته إياه ، وانتصابه قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً ، وفرَّغ لذلك قلبه وثمرة فؤاده ، فإنه لا يدري هل يصلي صلاة بعد التي هو فيها أو يعاجَل قبل ذلك ؟ فقام بين يدي ربه عزوجل محزوناً مشفقاً، يرجو قبولها ويخاف ردَّها ، فإن قَبلها سَعِد وإن ردَّها شقي)[4] .

وبذلك تكون الصلاة من أعظم الوسائل في تزكية النفس وترقيتها في مقامات القرب من ا لله سبحانه ، كما أنها في الوقت نفسه ميزان ومقياس للنفس المزكّاة ، فالخشوع في الصلاة هو المظهر الأرقى لصحة القلب وتزكية النفس ، واستجلاب الخشوع هو الذي يُصلح القلب ويمنح الصلاة ثمراتها في التزكية .

وهكذا تترابط العبادات الإسلامية في وحدة متكاملة تلتقي فيها الغايات مع الأساليب والثمرات حتى ينال العبد رضاء ا لله ويحظى بمحبته ويبلغ المنزلة العظمى في تزكية النفس وصلاح القلب ، ولنستعرض أبرز الآثار التي ينالها العبد من صلاته في مجال التزكية :

---

(١) سورة البقرة / من الآية ٧٤ .

(٢) سورة الزمر / من الآية ٢٢ .

(٣) سور الحديد /آية ١٦ .

(٤) كتاب الصلاة – للإمام أحمد بن حنبل ـ ص/٥٧ .

أهمية الصلاة وآثارها في تزكية النفس :

تأتي الصلاة في مقدمة العبادات التي تؤدي دوراً عظيماً في تقوية إيمان المسلم وتربيته وتحقيق عبوديته لربه عز وجل ، ولعل من أبرز آثارها في مجال تزكية النفس ما يلي :

١ ـ الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه :

فالمسلم عندما يقف بين يدي ربه لأداء الصلاة إنما يستجيب لأمر الله ويتقرب إليه بطاعته ، ويعلن الخضوع والتذلل له سبحانه ويتشرف بالعبودية له .

وقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الذين استجابوا لأمره ، فقال عزوجل : ﴿ **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[١] .

ولا تتحقق معاني العبودية الصادقة لله سبحانه إلا إذا اقترنت بصدق التوجه إليه والإخلاص له سبحانه ، قال تعالى : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾[٢] .

فالعبد في صلاته يقف بين يدي ربه موقف العبودية والتذلل والإنكسار ، ولا يلتفت يميناً أو يساراً ، ويتوجه بكليته إلى ربه ، ثم يكبر بالتعظيم والإجلال مستحضراً ألايكون في قلبه شيء أكبر من الله يشغله عنه ، ثم يثني على الله سبحانه بما هو أهله ، فإذا شرع في القراءة قدّم أمامها الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، فإنه أحرص ما يكون على الوسوسة للعبد في مثل هذا المقام الذي هو أشرف مقامات العبودية[٣] .

ولكل عمل من أعمال الصلاة عبودية خاصة ، وتأثير في النفس ، فقراءة سورة الفاتحة مع التدبر تشعر العبد بعبوديته لربه ، فهو عندما يتلو : ﴿ **الحمد لله رب العالمين ..** ﴾ يثبت كل كمال لله سبحانه ويحمده على ما وفقه إليه من الطاعة وما أنعم عليه من النعم ، ويثني عليه بصفاته وأسمائه الحسنى .

---

(١) سورة الشورى / آية ٣٨ .

(٢) سورة الأنعام / الآيتان ١٦٢-١٦٣ .

(٣) الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة والقرآن / للإمام ابن قيم الجوزية ـ ص/٣١ .

وكذلك عندما يتلو : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ يقر بالتوحيد والاستعانة با لله وحده ، فا لله هو المعبود وهو المستعان ، وكل استعانة لا تكون با لله فهي خذلان وذل .

وعندما يقول : ﴿ **إهدنا الصراط المستقيم ..** ﴾ فهو إقرار من العبد بأنه مفتقر إلى الهداية والثبات على طريق الحق ، وأنه محتاج إلى ثمار الهداية والاستزادة منها ، والبعد عن سبل المغضوب عليهم والضالين[1] .

وعندما ينحني للركوع يكبّر ربه معظماً له ناطقاً بتسبيحه ، فيجتمع في هذا الركن خضوع الجوارح وخضوع القلب ، ثم يأتي السجود فيجعل العبد أشرف أعضائه وأعزها متذللاً لله سبحانه ، ويتبع هذا انكسار القلب وتواضعه فيسجد القلب لربه كما سجد الجسد[2] ، وحري به في هذه الحال أن يكون أقرب ما يكون من ربه ، وكلما ازداد تواضعاً وخشوعاً لربه في سجوده ازداد قرباً منه ، كما في قوله تعالى : ﴿ **واسجد واقترب** ﴾[3] .

وفي الحديث : (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء)[4] .

وعندما يعتدل جالساً يتمثل جاثياً بين يدي ربه ملقياً نفسه بين يديه مُعتذراً إليه مما جناه راغباً إليه أن يغفر له ويرحمه .

وهكذا تتجلى في كل أفعال الصلاة العبودية لله سبحانه ، وإقبال العبد على ربه ، وتوحيده وتقوية الإيمان به الذي هو أساس التزكية ، وهذه أعظم ثمرة من ثمرات الصلاة ، وهي التي تنير للعبد طريق حياته وتمنحه طهارة القلب وطمأنينة النفس ، ثم إن تحديد الصلوات بأوقات معينة لا يجوز تجاوزها يدرب المسلم عملياً على الطاعة والامتثال لأمر ا لله، وضبط النفس بميزان الشرع وتعويدها على التقيد بأحكام الإسلام دون تهاون ، فالصلاة لها أوقات مفروضة ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً** ﴾[5] .

---

(١) ينظر التفصيل في كتاب / الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة ص/٣٥-٤٠ .

(٢) ينظر : الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة - لابن القيم - ص/٤٣-٤٦ ، والخشوع في الصلاة لابن رجب الحنبلي - ص/٢٠-٢٢ .

(٣) سورة العلق / من الأية ١٩ .

(٤) رواه مسلم - كتاب الصلاة - باب ما يقال في الركوع والسجود - رقم /٤٨٢ .

(٥) سورة النساء / من الآية ١٠٣ .

٢ ـ مناجاة العبد لربه :

الصلاة صلة بين العبد وربـه ، يستمد منهـا القلـب القـوة وتحس فيهـا النفـس بالثبـات والطمأنينة ، فهي معراج روحي تسمو به روح المؤمن .

وهذا ماجاء في الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ :

(إن المؤمن إذا كان في الصلاة فإنما يناجي ربه)[١] .

ولعل هذا سر من أسرار تكرار الصـلاة المفروضـة في اليـوم خمـس مـرات ، ينـتزع فيهـا الإنسان نفسه من دنياه وما فيها مـن أحقـاد وصراعـات ، ويقـف بـين يـدي مـولاه لحظـات خاشعة يخفف بها عن نفسه من هموم الحياة ومتاعبها ، ويغذي الجانب الروحي من كيانـه ، ذلك الجانب الذي لا يغذيه إلا معرفة ا لله سبحانه وحسن الصلـه بـه[٢] ، ومناجاتـه بخشـوع والتقرب إليه بالعمل الصالح .

ولنتأمل مشهداً من مشاهد هذه المناجاة فيما رواه مسلم عن أبـي هريـرة رضي الله عنه قـال : سمعت رسول ا لله ﷺ يقول : (قال ا لله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبـدي نصفـين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال ا لله تعالى : حمدني عبدي .

وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال ا لله تعالى : أثنى عليَّ عبدي .

وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجّدني عبدي .

فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل .

فإذا قال : إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهـم ولا الضآلين قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)[٣] .

ولذلك قال الإمام ابن القيم : (ينبغي للمصلي أن يقف عند كل آيـة مـن الفاتحـة وقفـة يسيرة ينتظر جواب ربه له وكأنه يسمعه)[٤] .

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الصلاة ١/١٠٧ ، ومسلم ـ كتاب المساجد ـ رقم /٥٥١ .

(٢) العبادة في الإسلام ـ للقرضاوي ـ ص/٢١٦ .

(٣) صحيح مسلم ـ كتاب الصلاة ـ باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ـ رقم /٣٩٥ .

(٤) الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة ـ لابن القيم ـ ص/٣١ .

ولا شك أن هذه المناجاة من أعظم أسباب تزكية النفس وتقوية الإيمان ، إذا هيأ العبد نفسه لها ، ولم ينشغل في صلاته بالتفكير في أمور الدنيا ، وإنما أقبل عليها إقبال المتشوق للوقوف بين يدي ربه الوافد عليه ، المستمطر لرحمته وفضله ، يستمد العون منه سبحانه في كل أموره وأعماله .

٣ ـ طمأنينة النفس وراحتها :

إذا أقبل العبد على صلاته بهمّة ورغبة واستشعر مناجاته لربه وتضرعه بين يديه ، فإن تلك الصلاة تمده بقوة روحية وتمنحه طمأنينة النفس وراحتها ، وتعينه على مواجهة متاعب الحياة ، ولذلك قال الله تعالى موجهاً عباده إلى أهمية الصلاة في تحقيق الراحة النفسية :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾(١) .

فالصلاة أكبر عون على مهمات الحياة ومصائبها ، يلجأ فيها العبد المكروب إلى ربه فيجد راحته ويحس بتأييد الله له ورحمته به .

فعن حذيفة رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر صلى)(٢) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (وجعلت قرة عيني في الصلاة)(٣) .

وكان الرسول ﷺ يقول : (قم يا بلال فأرحنا بالصلاة)(٤) .

أي :أقم الصلاة لنستريح بها من مقاساة الشواغل ، كما يستريح المتعب إذا وصل إلى مأمنه ومنزله .

وهكذا يشعر المؤمن في صلاته بالسكينة والطمأنينة ويفزع إليها كما يفزع الخائف إلى ركن ركين ومكان أمين .

ولذلك لم تكن الصلوات مقصورة على الفرائض ، وإنما هناك سنن ونوافل متنوعة ، تزيد من صلة العبد بربه ، وتقر بها عينه ، وتأمن بها نفسه ، حتى تصبح الصلاة سلاحه

---

(١) سورة البقرة / آية ١٥٣ .

(٢) رواه أبو داود في الصلاة رقم / ١٣١٩ ، والإمام أحمد في المسند ٣٨٨/٥ ، وانظر : صحيح الجامع للألباني /٤٥٧٩ .

(٣) رواه النسائي ٦٢/٧ . ورواه أحمد في مسنده (٢٨٥،١٩٩،١٢٨/٨) والحاكم ١٦٠/٢ ، وصححه وأقره الذهبي .

(٤) رواه أبو داود رقم /٤٩٦٤ ـ ورواه الامام أحمد ٣٦٤/٤ ـ وغيرهما .

الدائم والمفتاح لحلّ همومه ومشاكله .

ولا شك أن المتأمل للحكم العظيمة من صلاة الاستسقاء والخسوف وصلاة الحاجة وصلاة الاستخارة ، يدرك الحكمة الربانية في توجيه انفعال الخوف والفزع عند المسلم ، وتحقيق الراحة والسكن النفسي للمؤمن الذي كلما واجهه كرب أو أحاط به خوف فزَع إلى الصلاة والتجأ إليها ، ولهذا كان السلف الصالح يكثرون من صلوات النوافل وبخاصة في الليل إذا نام الغافلون ولها اللاهون .

ولعل من المفيد هنا الإشارة إلى بعض أقوال علماء النفس الغربيين في الاعتراف بأهمية الصلاة لبث الطمأنينة في النفس وعلاجها من أمراضها .

يقول (ألكسيس كارليل): (إن الصلاة تُحدث نشاطاً روحياً معيناً يمكن أن يؤدي إلى الشفاء السريع لبعض المرضى)[1] .

ويقول : (توماس هايسلوب) : (إن الصلاة أهم أداة عُرفت حتى الآن لبثّ الطمأنينة في النفوس وبث الهدوء في الأعصاب)[2] .

وكلامهم هذا ـ مع أهميته ـ عن صلاة ليست كصلاتنا نحن المسلمين ، فماذا كانوا يقولون لو عرفوا ما هية الصلاة التي جاء بها ديننا الإسلامي ، وما فيها من آثار عظيمة وفوائد كبيرة .

٤ ـ الصلاة حاجز عن المعاصي :

عندما يؤدي العبد الصلاة وترتاح بها نفسه فإنها تمده بقوة دافعة لفعل الخيرات والابتعاد عن المنكرات ، وتغرس في قلبه مراقبة الله عزوجل ورعاية حدوده والابتعاد عن الانحراف ، والتغلب على نوازع الهوى ، ومجاهدة النفس الأمارة بالسوء ، فهي سياج منيع يقيه من الوقوع في المعاصي، ولذلك قال الله سبحانه : ﴿ **وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾[3] .

---

(١) الإنسان ذلك المجهول / الكسيس كارليل ـ ص/١٧٠ .

(٢) القرآن وعلم النفس / د . محمد عثمان نجاتي ـ ص/٢٥٦ .

(٣) سورة العنكبوت / من الآية ٤٥ .

وبهذا الأثر العظيم من آثار الصلاة تتبوأ تلك العبادة المنزلة السامية في علاج النفس من أمراضها ، وتطهيرها من عيوبها وتزكيتها بالعمل الصالح ، وغرس الأخلاق الفاضلة وحسن المعاملة مع الناس والمسارعة إلى فعل الخير .

ولكن واقع كثير من المسلمين مع الصلاة اليوم مختلف تماماً لأنها تؤدى بالأجساد دون الأرواح ، حتى أصبح البعض يشكك في تأثير الصلاة وثمارها ، لأنه قلّما يرى صورة تطبيقية مثمرة لها[1] .

٥ ـ الصلاة تكفير للسيئات ورفع للدرجات :

لا يخلو مؤمن من زلة أو هفوة يعصي بها ربه ، وهذه المعاصي يتراكم أثرها على القلب حتى يُظلم ، ولا بد لها من استغفار وتوبه دائمين .

ومن رحمة الله سبحانه بعباده أنه جعل الأعمال الصالحة تكفيراً للسيئات ورفعاً للدرجات ، وبخاصة الصلاة وما يصاحبها من وضوء ومشي إلى المسجد وذكر وتسبيح .

وقد وردت بذلك أحاديث نبوية كثيرة منها :

ـ عن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ غصناً يابساً فهزّه حتى تحاتّ ورقه ، فقال: (يا سلمان ألا تسألني لم أفعل هذا ؟ قلت : ولم تفعله ؟

قال : " إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم صلى الصلوات الخمس ، تحاتت خطاياه كما تحاتّ هذا الورق ، وقرأ : ﴿ **وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾[2])[3] .

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله ، كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة ، والأخرى ترفع درجة)[4] .

---

(١) ينظر ما أورده الدكتور : محمد أبو الفتح البيانوني في كتابه : العبادة ـ ص/١٢٧ وما بعدها .
(٢) سورة هود /آية ١١٤ .
(٣) رواه أحمد في مسنده ٤/٧٠ ، ٥/٤٣٧
(٤) رواه مسلم ـ كتاب المساجد ـ باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا ـ رقم /٦٦٦ .

ولا شك أن هذا التكفير خاص بالصغائر التي لا يصرُّ عليها العبد ، أما الذنوب الكبائر فلا بد لها من توبة نصوح .

ولذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغشَ الكبائر)[1] .

كما أن للصلاة التي يكفِّر الله بها السيئات شروطاً لا بد من تحققها ، وهي إكمالها وأداؤها بأركانها وخشوعها ، وبذلك تثمر محو الذنوب وتكفير الخطايا .

وهذا ما أكده الحديث النبوي عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها ، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم يؤتِ كبيرةً ، وذلك الدهرَ كله)[2] .

وعندما يكرر المسلم الصلاة خمس مرات يومياً ويزيد عليها ما شاء الله أن يزيد من النوافل ، يمنُّ الله عليه بالمغفرة مرة بعد مرة ، حتى تغسل أدران ذنوبه فلا يبقى منها شيء .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)[3] .

ولا شك أن المسلم الذي تطهر من الذنوب وحظي بمضاعفة الأجر وزيادة الدرجات ، بما حافظ عليه من الصلوات ، فإنه يرتقي في مقامات القرب من الله سبحانه ، وبذلك تزكو نفسه ويظفر بالفلاح والسعادة .

٦ ـ الصلاة تدريب عملي على مجاهدة النفس :

إذا أراد العبد أن يعوِّد نفسه على الطاعات ويجاهدها حتى يروِّضها ويكسر من حدَّتها فعليه أن يكثر من الصلوات ويحافظ على النوافل ويحرص على التبكير إلى المساجد وإسباغ

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب الطهارة ـ باب الصلوات الخمس مكفرات ـ رقم /٢٣٣ .

(٢) رواه مسلم ـ كتاب الطهارة ـ باب فضل الوضوء ـ رقم /٢٢٨ .

(٣) رواه البخاري ـ كتاب مواقيت الصلاة ـ باب فضل الصلاة لوقتها ـ ١/١٣٤ ، ومسلم ـ كتاب المساجد ـ باب المشي إلى الصلاة ـ رقم /٦٦٧ .

الوضوء على المكاره والبرد الشديد الذي يشق على النفس ، وغير ذلك من الأعمال المتعلقة بالصلاة التي تكبح جماح النفس ، طمعاً في القرب من الله سبحانه وتكفير الذنوب ورفع الدرجات .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط)[1] .

٧ ـ الصلاة تطهر النفس من الأنانية والأحقاد :

الصلاة في خصوصيتها ـ إذا أُديت كاملة ـ فإنها تغرس في نفس صاحبها ذل العبودية لله وحده وعزة المؤمن القريب من مولاه ، فلا يتكبر على مسلم ولا يحقد على غيره لأنه غني بالله سبحانه .

كما أن الصلاة في المسجد تحقق أهدافاً وحكماً عظيمة ، فهي تعارف وتآلف بين أبناء الحي الواحد أو البلد الواحد ، يصلي المسلم بجانب أخيه في صفوف متراصة ، يقف فيها الغني بجانب الفقير ، والشاب بجانب الشيخ الكبير ، وهذا بلا شك تدريب عملي على تطهير النفس من أنانيتها ونزع آفة التكبر والعجب منها ، فالكل عبد ذليل لإله واحد مستحق وحده للعبادة ، يتضرع إلى الخالق سبحانه ويناجيه ، ويغسل أدران ذنوبه بالوقوف بين يديه.

وهذا اللقاء المتكرر يزيد بلا شك الألفة بين المسلمين ويقوي روابط الأخوة ، ويوثق العلاقات الاجتماعية ، ويحقق التعاون على البر والتقوى ، ويعين على تفقد الأخ لأخيه ، ويزيل الفوارق المادية بين المسلمين ، فالكل يستقبلون قبلة واحدة يتجهون إليها في صلاتهم ، إلههم واحد ونبيهم واحد ودينهم واحد .

وإذا جاء يوم الجمعة كان اللقاء الأسبوعي الذي يتميز بخصائص كثيرة ، ففيه خطبة الجمعة التي تعالج مشكلات المسلم وتربطه بربه وتحثه على الاستقامة وتهذّبه سلوكه وتوصيه بتقوى ربه ولعظيم فضل خطبة الجمعة وآثارها في تكوين شخصية المسلم فقد أمر الهادي البشير ﷺ بالإصغاء إليها وعدم التكلم أثناءها .

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب الطهارة ـ باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره ـ رقم /٢٥١ .

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : (إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت)[1] .

ثم يأتي اللقاء الأكبر في عيد الفطر وعيد الأضحى ليظهر المسلمون مشاركتهم بأفراح العيد وابتهاجهم بما أتم الله عليهم من التوفيق للطاعة في الصيام والحج .

✵ ✵ ✵

وهكذا تتضافر الآثار التربوية والنفسية التي يغنمها العبد المصلي ، وتؤدي الصلاة دورها في تزكية النفس وطهارتها ، ويتحقق قول الرسول ﷺ الذي سبقت الإشارة إليه في حديث أبي مالك الشعري ، حيث قال ﷺ : (**والصلاة نور**)[2] .

فهي نور تضيء لصاحبها طريق الهداية وتحجزه عن المعاصي وتهديه إلى العمل الصالح .

وهي نور في قلبه بما يجد من حلاوة الإيمان ولذة الناجاة لربه .

وهي نور بما تمنح النفس من تزكية وطمأنينة وراحة وبما تمدُّها من أمن وسكينة .

وهي نور ظاهر على وجه المقيم لها في الدنيا ، يجد بها وضاءة الوجه وبهاءه بخلاف تارك الصلاة .

وهي نور له يوم القيامة[3] : ﴿ **يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[4] .

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الجمعة ـ باب الانصات يوم الجمعة والإمام يخطب ـ ٢٢٤/١ .

(٢) ينظر مقدمة هذا الفصل ص /١٣٢ ، والحديث رواه مسلم ـ رقم / ٢٢٣ .

(٣) اشار إلى هذه المعاني الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم ١٠٠/٣ ، والإمام ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ص/١٩٠ .

(٤) سورة الحديد / آية ١٢ .

المبحث الثاني

الزكاة والصدقات

الزكاة ركن من أركان الإسلام ، وهي اسم لما يجب على المسلم أن يخرجه من ماله إلى الفقراء بالشروط التي حددها الإسلام ، وسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات ، فاللفظ مأخوذ من الزكاء وهو النماء والطهارة والبركة(١) .

قال تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾(٢) .

ومن هنا ندرك الصلة الكبيرة بين هذا الركن من أركان الإسلام ، وبين ما نتحدث عنه من تزكية النفس ، فالزكاة وما يتبعها من الصدقات تُعد وسيلة لهذه التزكية ، كما أنها أيضاً وسيلة ينال بها العبد رضى الله سبحانه .

ولأهمية الزكاة فقد ذكرت في آيات القرآن الكريم مقرونة بالصلاة ، وذلك في اثنتين وثمانين آية ، منها قوله تعالى : ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة فإخوانكم في الدين** ﴾(٣) .

وقوله سبحانه : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين** ﴾(٤) .

وقوله عز وجل : ﴿ **الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾(٥) .

والزكاة في الإسلام فريضة لازمة يكفر من جحدها ويفسق من منعها ، وهي جزء مهم من نظام الإسلام الاقتصادي الذي عالج مشكلة الفقر بل مشكلة المال عموماً ، وهي حق الفقير وليست تفضلاً من الغني أو تبرعاً منه(٦)، ولها أحكام شرعية تفصِّل مقاديرها ومصارفها

---

(١) ينظر : لسان العرب ، ١٤ /٣٥٨ .

(٢) سورة التوبة / من الآية ١٠٣ .

(٣) سورة التوبة / من الآية ١٢ .

(٤) سورة البقرة / آية ٤٣ .

(٥) سورة الحج / آية ٤١ .

(٦) العبادة في الإسلام للقرضاوي ـ ص/٢٣٩ .

وتبيِّن شروطها وآدابها .

وكما أمر الإسلام بالزكاة وجعلها فرضاً لازماً فقد رغَّب في الصدقات التي هي تطوع ونفل يزداد بها العبد تقرباً من ربه سبحانه ، وكلما أكثر من تلك الصدقات وسارع إلى البذل والإنفاق كان ذلك تطهيراً لنفسه وماله وتزكية له ومضاعفة لأجره عند ا لله سبحانه .

ولذلك حض الإسلام على هذه الصدقات ودعا إلى التنافس فيها ابتغاءً للأجر العظيم ومضاعفة للثواب من ا لله ذي الخير العميم .

قال تعالى : **﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل ا لله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة وا لله يضاعف لمن يشاء وا لله واسع عليم ﴾**(1) .

وفي الحديث عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : سمعت رسول ا لله ﷺ يقول : (اتقوا النار ولو بشقِّ تمرة)(2) .

وبذلك تتسع دائرة الصدقات فلا يختص بها الأغنياء الموسرون ، وإنما تشمل حتى الفقير الذي يسارع إلى التصدق على من هو أفقر منه ولو بشق تمرة يقتطعها من طعامه ويؤثر بها غيره ، طلباً لرضاء ا لله سبحانه وعلاجاً لنفسه من آفاتها ، بل إنه إن لم يجد مالاً فليتصدق ببذل العون لإخوانه .

روى البخاري عن أبي بردة عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال : (على كل مسلم صدقة ، فقالوا : يا نبي ا لله فمن لم يجد ؟ قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق ، قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف ، قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة)(3) .

*** ولكن الزكاة والصدقات لا تثمر ثمراتها في تزكية النفس إلا إذا تحقق فيها شرطان:**

الشرط الأول : البعد عن الرياء والتباهي والمنّ على الفقير :

فالمتصدق عندما يتباهى بصدقته ويرائي بها أمام الناس ويمنُّ بها على الفقراء محتقراً لهم

---

(1) سورة البقرة / آية ٢٦١ .

(2) رواه البخاري في الزكاة ـ باب اتقوا النار ولو بشق تمرة ٢ /١١٤ ، ورواه مسلم في الزكاة ـ باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ـ رقم /١٠١٦ .

(3) رواه البخاري في الزكاة ـ باب صدقة الكسب ـ ١٢١/٢ .

ومتعالياً عليهم ، ويرى نفسه أنه محسن متفضل ، فإن هذا يبطل الصدقة ويضيع أجرها ويُذهب الآثار والثمرات المرجوّة منها في تزكية النفس ، بل يجعل صاحبها متعرضاً لسخط ا لله وعقوبته .

قال تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن با لله واليوم الآخر ﴾**(1) .

وقال سبحانه مبيناً أن أجر الصدقة وثوابها لا يناله إلا من أخلص فيها وخلّصها من المنّ والأذى : **﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل ا لله ثم لا يُتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذىً لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾**(2) .

وأصل المنّ أن يرى المتصدق نفسه محسناً إلى الفقير ومنعماً عليه ، مع أن الفقير هو المحسن بقبوله هذه الصدقة التي هي سبب تزكية نفس المتصدق وتطهير ماله ونجاته من النار ، وا لله سبحانه هو المحسن الحقيقي الذي تكفل برزق عباده ، وأودع هذا المال عند الغني ليؤدي للفقير حقه منه .

فليحذر المتصدق من آفة الرياء ، وليعلم أنه سيقف بين يدي ربه ليُسأل عن صدقته هل أخلص فيها ؟ أم تباهى بها لكي ينال ثناء الناس وإعجابهم ؟

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول ا لله ﷺ يقول : (أن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة ...) وذكر منهم : (ورجل وسّع ا لله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : ما تركتُ من سبيل تُحبُّ أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلتَ ليقال جواد ، وقد قيل ، ثم أُمر به فسُحب على وجهه ثم أُلقي في النار)(3) .

ولذلك حثنا ا لله سبحانه على صدقة السر ، وجعلها أعظم أجراً من صدقة العلن لما فيها من البعد عن الرياء فقال تعالى : **﴿ إن تبدوا الصدقات فنِعِمَّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم وا لله بما تعملون خبير ﴾**(4) .

---

(1) سورة البقرة / من الآية ٢٦٤ .

(2) سورة البقرة / آية ٢٦٢ .

(3) رواه مسلم ـ كتاب الإمارة ـ باب من قاتل للرياء والسمعة ـ رقم /١٩٠٥ .

(٥) سورة البقرة / آية ٢٧٠ .

كما بين الله عز وجل أن من تصدق طلباً لمرضاة ربه ، وتثبيتاً لنفسه على الإيمان ، ويقيناً بما أعده الله له من الجزاء الأوفى ، فقد استحق مضاعفة الأجر ، ومثل صدقته كمثل بستان عظيم في ربوة من الأرض الخصبة إذا أصابها المطر تضاعف ثمرها ، وإن لم يصبها المطر فإن القليل من السقاية يكفيها لتثمر ، فصدقة المؤمن لا تضيع أبداً لأن الله تعالى يتقبلها وينميها ما دامت خالصة له سبحانه .

قال تعالى : ﴿ **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير** ﴾[١] .

والوابل هو المطر الشديد ، والطَّل : الرذاذ من المطر[٢] .

الشرط الثاني : أن ينفق مما يحب وليس مما يكره ، وأن تكون نفسه راضية غير كارهه .

ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم** ﴾[٣] .

فالبر الذي هو جِماع الخير لا يُنال إلا بأن يبذل المسلم ما يحبه من المال سخيَّه بذلك نفسه وبذلك يتحرر من العبودية للمال ومن شح النفس وحب الذات ، وهي آفات خطيرة تعوق مسيرة التزكية وتقف في طريقها .

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يسارعون إلى بذل المال في سبيل الله والتصدق بأطيب ما يملكون رجاء ما عند الله من الأجر العظيم .

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : " كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً ... فلما نزلت هذه الآية : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ بَيْرُ حاءٍ ، وإنها صدقة لله أرجو بها

---

(١) سورة البقرة / آية ٢٦٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣١٩/١ .

(٣) سورة آل عمران / آية ٩٢ .

برِّها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله .

فقال النبي ﷺ : بخٍ بخٍ[1] ، ذلك مال رابح ذلك مال رابح ، وقد سمعت ، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين)[2] .

وقد أمر الله عباده أن ينفقوا من الكسب الطيب وحذَّرهم من التصدق برديء المال وخبيثه فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تُغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد** ﴾[3] .

ومعنى ﴿ **ولا تييموا الخبيث** ﴾ أي : تقصدوه بالإنفاق وتتركوا غيره .

ومعنى ﴿ **ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه** ﴾ أي : إنكم لو أُعطيتموه لما قبلتم أخذه إلا بإنقاص قيمته والتهوين من شأنه وإغماض العين عن قبوله فكيف تتقربون إلى ربكم فإنفاق مالا ترضونه لأنفسكم[4] ؟ وهو سبحانه غني عنكم ولا يتقبل إلا ما كان طيباً ، يبذله المتصدق عن طيب نفس ، ويصدر عن رضى وفرح بالبذل وليس عن كراهية وتأفف .

وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن الرسول ﷺ قال : (من تصدَّق بعدِل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، وإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيّها لصاحبها كما يربّي أحدكم فَلُوَّهُ حتى تكون مثل الجبل)[5] .

آثار الزكاة والصدقات في مجال تزكية النفس :

الزكاة تزكية وتطهير لنفس الغني وماله ، كما أنها تزكي نفس الفقير وتطهرها من آفاتها ، وبذلك استحقت هذه العبادة الجليلة أن يشق لها إسم من التزكية فتسمى زكاة ، ولكي تتأكد هذه الصلة الوثيقة بين الزكاة والتزكية نستعرض أبرز آثار الزكاة في مجال تزكية النفس وأهميتها كوسيلة عملية من وسائل التزكية التي ترتقي بالعبد حتى يبلغ منزلة المتقين .

---

(١) كلمة تقال عند الرضى بالشيء .

(٢) رواه البخاري في الزكاة ـ باب الزكاة على الأقارب ١٢٦/٢ .

(٣) سورة البقرة / آية ٢٦٧ .

(٤) ينظر : تفسير ابن كثير ٣٢١/١ .

(٥) تفسير البخاري في الزكاة ـ باب الصدقة من كسب طيب ـ ١١٣/٢ ، والفَلُوّ: المهر يفصل عن أمه .

١ ـ الزكاة اختبار عملي لاستجابة المؤمن لأمر ربه :

فالله سبحانه هو الخالق الرازق ، وهو المنعم المتفضل ، وهو المالك الحقيقي الذي وهب للإنسان هذا المال وجعله وديعة بين يديه ينفقه في مرضاة مولاه ، ويؤتي الفقير حقه الواجب منه ، قال تعالى : ﴿ **وآتوهم من مال الله الذي آتاكم** ﴾(١) . وقال سبحانه : ﴿ **وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾(٢) .

وقد جعل الله هذا المال اختباراً لعباده وامتحاناً لاستجابتهم واستقامتهم على أمر ربهم وهذا ما أوضحه قوله سبحانه : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾(٣) ، أي : اختبار وامتحان .

فالغني ممتحن بغناه ، والفقير ممتحن بفقره ، والمال مال الله سبحانه ، والعبد مستأمن عليه ، ومع ذلك فقد امتنَّ الله على عباده فسمَّى ما ينفقه المسلم ويتصدق به قرضاً يقرضه لربه سبحانه ، قال تعالى : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة** ﴾(٤) .

وقال سبحانه : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾(٥) .

وهكذا تحقق الزكاة أهدافها في تقوية الإيمان وتعميق عقيدة التوحيد في النفس التي هي الأساس الأول للتزكية ، وتكون الزكاة برهاناً على إيمان صاحبها واستجابته لأمر الله سبحانه ، وهذا مصداق قول الرسول ﷺ : (والصدقة برهان)(٦) .

٢ ـ تطهير النفس من آفة الشح :

النفس مجبولة على حب المال والتعلق به والبخل في إنفاقه وطلب الزيادة منه ، وقد قال

---

(١) سورة النور / من الآية ٣٣ .

(٢) سورة الحديد : من الآية ٧ .

(٣) سورة التغابن / من الآية ١٥ .

(٤) سورة التغابن / من الآية ١٧ .

(٥) سورة التوبة / من الآية ١١١ .

(٦) رواه مسلم رقم /٢٢٣ ، وقد سبق بنصّه في بداية هذا الفصل ـ ص/١٣٢ .

تعالى واصفاً هذه الطبيعة من طبائع النفس الإنسانية : ﴿ **وإنه لحب الخير لشديد** ﴾[1] والخير هنا بمعنى المال .

فالزكاة طهارة من الشح والبخل ، وتدريب عملي على البذل والعطاء وحب الخير للناس، وعدم التعلق بالدنيا والتنافس على حطامها ، وإنما يكون ميدان التنافس في بذل المال وإنفاقه ابتغاء رضوان الله ، وهذا هو الباقي الذي يجد العبد جزاءه يوم القيامة .

والله سبحانه يحذرنا من آفة البخل والشح ، ويجعل الفلاح مرتبطاً بالتخلص من هذه الآفة وتطهير النفس منها .

يقول تعالى : ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[2] .

ويقول سبحانه : ﴿ **ها أنتم هؤلاء تُدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخلُ ومن يبخلْ فإنما يبخلُ عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾[3] .

ويبين الرسول ﷺ خطر الشح في إيقاع العداوة وتأجيج نار الخصومة واستباحة الدماء وظلم العباد ، ففي الحديث عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حَملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلُّوا محارمهم)[4] .

وعندما يلمس المسلم في نفسه شيئاً من البخل والشح فعليه أن يسارع إلى الصدقات ليعالج بذلك مرض نفسه ويخلِّصها من هذه الآفة ، وبذلك يحظى بالأجر العظيم .

وقد أشار الرسول ﷺ إلى ذلك في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أيُّ الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تُمهل حتى إذا بلغت الحلقوم

---

(١) سورة العاديات / آية ٨ .

(٢) سورة الحشر / الآية ٩ .

(٣) سورة محمد / الآية ٣٨ .

(٤) رواه مسلم ـ كتاب البر والصلة والأدب ـ باب تحريم الظلم ـ رقم /٢٥٧٨ .

قلتَ لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد كان لفلان)[1] .

ومما يزيد من مسارعة العبد إلى الزكاة والصدقات وتنافسه في البذل والعطاء وتخلصه من آفة الشح المهلكة ، أن يعلم أنه بهذا الإنفاق ينفع نفسه ، وأنه محتاج إلى بذل المال والتصدق به ابتغاء وجه الله سبحانه لكي يطهِّر نفسه ويزكيها ويحظى بثواب الله وإحسانه في الآخرة.

قال تعالى : ﴿ **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون** ﴾[2] .

٣ ـ تطهير نفس الفقير وتزكيتها :

ليست الزكاة تطهيراً وتزكية لنفس الغني فحسب ، وإنما هي تطهير لنفس الفقير إذا أُديت بشروطها وآدابها ، فكما أن الغني يتطهر من آفة الشح والبخل ، فإن الفقير يتطهر من آفة الحسد والضغينة علىالأغنياء ، لأن النفس التي تنظر إلى أصحاب الأموال وقد حُرمت من ضروريات الحياة قد تحمل الضغينة والحقد وتتوقد حسداً وكراهية لأولئك الأغنياء الذين يكتنزون الأموال ويتقلبون في ألوان النعم وغيرهم يعاني من الحرمان .

فإذا أدى الأغنياء الزكاة ، وأكثروا من التصدق ، ولم يُشعروا الفقراء بالمنة والتفضل ، وتسابقوا إلى تفقد أحوال إخوانهم الفقراء وبذل المال لهم ، وانتشرت مظاهر التراحم والتعاطف في المجتمع ، فإن هذا يزيد روابط الأخوّة ، ومن شأن الإحسان أن يستميل القلب وينزع الضغائن .

وقد بيّن الله سبحانه أثر الزكاة والصدقات في تطهير النفس من الضغائن .

فقال عز وجل : ﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهوٌ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ، إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم** ﴾[3] .

وقد بين ابن كثير رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **ولا يسألكم أموالكم** ﴾ فقال : (أي : هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة

---

(١) رواه البخاري في الزكاة ـ باب أي الصدقة أفضل ٢/١١٥ .

(٢) سورة البقرة / من الآية ٢٧٢

(٣) سورة محمد / الآيتان ٣٦،٣٧ .

لإخوانكم الفقراء ليعود نفع ذلك عليكم ويرجع ثوابه إليكم)[1] .

ومعنى ﴿ **فيحفكم** ﴾ أي يحرجكم ، وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ويخرج أضغانكم** ﴾ أورد ابن كثير قول قتادة : (قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الضغائن) .

ثم قال : (وصدق قتادة ، فإن المال محبوب ، ولا يُصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه)[2] .

وبذلك تكون الزكاة والصدقات وسيلة عملية لتطهير القلب من آفات الحسد والحقد والضغينة ، وتنمية شخصية الفقير وثقته بنفسه وشعوره بالعزة والكرامة ، وإحساسه بأنه ليس ضائعاً في المجتمع ولا متروكاً لضعفه وفقره[3] .

والإسلام يحرص كثيراً في عباداته وأحكامه على تقوية روابط الأخوة وتعميق صلات المحبة بين المسلمين ، حتى يكون المجتمع كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، وعندما تضاف إلى رابطة الأخوّة رابطة أخرى هي القرابة والرحم فإن نصوص الكتاب والسنة تؤكد على ضرورة تقوية هذه الرابطة ، والتحذير من تقطيع أواصرها أو التهاون في شأنها ، ولذلك كانت الصدقة على الأقارب والأرحام الفقراء أولى وأعظم أجراً ينال بها العبد أجر الصدقة وأجر صلة الأرحام ، كما جاء في الحديث أن الرسول ﷺ قال : (الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم ثنتان : صدقة وصلة)[4] .

وإذا كانت هناك خصومه بين المسلم وأحد أقربائه الفقراء فلا ينبغي له أن يمتنع عن مساعدته ، بل عليه أن يحرص على ذلك أكثر لأن الأجر فيها أعظم ، ولعل هذه الصدقة تكون سبباً في ذهاب الخصومة وصفاء النفوس وتآلف القلوب .

---

(١) (٢) تفسير ابن كثير ٤/١٨٣ .

(٣) العبادة في الإسلام للقرضاوي - ص / ٢٦٠ .

(٤) رواه الترمذي في الزكاة - باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة - رقم /٦٥٨ ، وقال هذا حديث حسن،ورواه النسائي في الزكاة - باب الصدقة على الأقارب - ٥/٩٢ ، وابن ماجه في الزكاة رقم /١٨٤٤ .

وهذا ما أوضحه النبي ﷺ بقوله : (أفضل الصدقة : الصدقة على ذي الرحم الكاشح)[1] ، أي المضمر للعداوة .

ولا شك أن الصدقة بهذه الكيفية وسيلة عظيمة لعلاج أمراض النفوس وتطهيرها من آفاتها وأمراضها ، وغرس الصفات المحمودة فيها ، فهي طهارة لنفس الغني من الشح والبخل والتعالي على الناس ، وهي كذلك طهارة لنفس الفقير من العداوة والحسد والأحقاد ، وهي ثالثاً طهارة للمال من دنسه وتنمية له[2]، فالزكاة تخلية للنفس من الرذائل وتحلية لها بالفضائل.

وصدق الله العظيم القائل : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾[3] .

٤ ـ شكر النعمة ومعرفة قدرها :

الزكاة والصدقات مظهر عملي يُشعر بشكر النعمة التي أنعم الله بها على عباده ، وبذلك ينمو في النفس الشعور بقيمة النعم وتقديرها ، ووجوب الشكر عليها بالقول والعمل ، وبخاصة عندما يقارن صاحب المال حاله بما يجده من أحوال الفقراء المعدمين الذين ابتلوا بالفقر والبؤس ، ولولا أنه مكلّف شرعاً بتفقد أحوالهم ومساعدتهم لما أدرك عظيم النعمة التي هو فيها ، وإنما يبقى مشغولاً بما يحيط به من المال والتجارات حتى يعتاد هذه النعم ويقل شعوره بفضل المنعم ، مما يدفعه إلى التراخي في العبادات والتكاسل عن الطاعات .

وكما أن الصحة لا تُدرك قيمتها كاملة إلا بالإصابة بالمرض أو رؤية أحوال المرضى ، فكذلك الغنى لا تُدرك قيمته إلا برؤية أحوال الفقراء والنظر في أوضاعهم ، وهذا يدفع المسلم الذي وسَّع الله عليه بالمال أن يشعر بالتقصير في حق الله عز وجل وأن يسارع إلى المزيد من الإنفاق شكراً لله على هذه النعمة .

وقد وعد الله عباده الشاكرين بزيادة النعم والبركة فيها .

قال تعالى : ﴿ **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي**

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٣/٤٠٢ ، ٥/٤١٦
وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢/٣٨) .

(٢) العبادة في الإسلام للقرضاوي ـ ص/٢٥٩ .

(٣) سورة التوبة / من الآية ١٠٣ .

لشديد ﴾[1] .

والزكاة التي هي في الحساب المادي نقص في المال ، هي في الحقيقة نماء وزيادة وبركة ، وأما الربا التي يسعى صاحبها إليها طلباً للزيادة في المال فهي في حقيقة الأمر نقص وسحت ومحق وهلاك .

قال تعالى : ﴿ **يمحق الله الربا ويربي الصدقات** ﴾[2] .

وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : (ما نقص مال من صدقة)[3] .

وعنه أيضاً أن النبي ﷺ قال : (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تَلَفاً)[4] .

وهكذا يتم علاج آفة الشح والبخل من نفس المسلم ، ويسارع إلى الإنفاق موقناً بفضل الله ووعده الذي لا يتخلف بالرزق الواسع ، وقد قال سبحانه : ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين** ﴾[5] ، وتستقيم النظرة إلى المال في حسِّ المسلم فهو عنده وسيلة ينال به رضى الله سبحانه وليس غاية يتعلق به ويشقى لجمعه وكنزه .

وعندما تتطهر النفس من آفاتها وتتحلى بالفضائل تثمر أعظم الثمرات في سعادة الدنيا والقناعة والرضا بما قسم الله من رزق ، والفلاح في الآخرة .

ولنختم الحديث في هذا المبحث بوصية الإمام ابن الجوزي رحمه الله حيث قال : (ينبغي للمتيقظ أن يفهم المراد من الزكاة ، وذلك ثلاثة أشياء :

أحدها : الابتلاء بإخراج المحبوب .

---

(١) سورة إبراهيم / آية ٧ .

(٢) سورة البقرة / من الآية ٢٧٦ .

(٣) رواه مسلم في البر والصلة ـ باب استحباب العفو والتواضع ـ رقم /٢٥٨٨ .

(٤) رواه البخاري في الزكاة ــ باب قوله تعالى : ﴿ **فأما من أعطى واتقى** ﴾ ٢/١٢٠ .

(٥) سورة سبأ / من الآية ٣٩ .

والثاني : التنزه عن صفة البخل المهلك .

والثالث : شكر نعمة المال ، فليتذكر نعمة الله عليه إذ هو المعطي سبحانه) .

ثم قال : (ولا يبطل صدقته بالمنِّ والأذى ، وليعط الفقير بانشراحٍ ولُطف حتى كأن الفقير هو الذي يُنعم بما يأخذه)[1] .

وهكذا تؤدي الزكاة والصدقات دورها في تزكية النفس واستقامة السلوك وإصلاح الفرد والمجتمع .

---

(١) التبصرة – للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ـ ٢٥٠/٢ .

المبحث الثالث

الصيام

فَرَض الله تعالى الصيام على هذه الأمة وجعله ركناً من أركان الإسلام ، كما فرضه على الأمم السابقة ، وفي ذلك تأكيد على أهمية هذه العبادة الجليلة ومكانتها .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾[1] .

كما امتدح الله سبحانه شهر الصيام ، واختصه من بين سائر الشهور لإنزال القرآن العظيم ، فقال عز وجل : ﴿ **شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾[2] .

والصيام الذي أمر الله به هو الإمساك عن الطعام والشراب والجماع بنية خالصة لله سبحانه[3] ، وذلك من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، مع الالتزام بما ورد في الكتاب والسنة من أحكام الصيام والحرص على آدابه واستشعار المعاني العظيمة التي شرع الصيام من أجلها .

وقد وضَّحت الآية الكريمة الثمرة العظمى التي يحظى بها الصائمون المخلصون ، ألا وهي بلوغ درجة التقوى : ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ ، فالصيام مدرسة فريدة ، ودورة تدريبية للنفس ، حتى تنخلع من آفاتها وتتحلى بالفضائل ، وترتقي في مدارج التقوى والصلاح .

قال الإمام الفخر الرازي : (بيَّن الله سبحانه أن الصوم يورث التقوى لما فيه من انكسار الشهوة وانقماع الهوى فإنه يردع عن الأشر والبطر والفواحش ، ويهوِّن لذات الدنيا)[4] .

---

(١) سورة البقرة /آية ١٨٣ .

(٢) سورة البقرة / من الآية ١٨٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢١٣/١ .

(٤) تفسير الفخر الرزاي ٧٦/٥ .

وإذا كان الطعام والشراب غذاء للجسد فإن الصيام غذاء للروح ، حيث يتحرر المسلم من سلطان غرائزه ، ويتغلب على نزعات شهواته ، ويقوى الجانب الروحي ويسمو ، ويعرف الإنسان قيمة نفسه ، وأنه ينبغي له ألا يُخضع أشواق روحه لمطالب جسده ، لأن الجسد بيت والروح صاحبه وساكنه ، وما أعجب حال من يهمل مطالب روحه ويُعنى بجسده ، ولا يفكر إلا في إشباع غرائزه فهو كمن يعتني بجدران البيت ويهمل السكان[1] .

وقد وصف الداعية الشيخ أبو الحسن الندوي حال هؤلاء الأسارى لشهوات أجسادهم فقال : " إذا ملك الجسد زمام الحكم استرسل الإنسان في لذاته وشهواته ، ورتع فيها رتع البهائم السائمة .. فيصبح وهو في أوج مدنيته وحضارته ، وقمة علمه وثقافته ، كحمار الطاحون أو كثور الحرث يدور بين المعطم والمرحاض .. لا يعرف سوى ذلك مبدءاً ومعاداً.. ويزول عنه كل همٍّ إلا هم الكسب ليأكل ، والأكل ليكسب ، ولا تصوير أدق وأصدق من تصوير القرآن المعجز : ﴿ **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾[2] ، وما ذاك إلا طبيعة الجسد الذي تحرر من سلطان الروح ، وحُرم توجيه النبوة وإرشادها وانقاد للنفس والهوى "[3] .

ولا شك أن هذا الذي يترك نفسه أسيرة لمطالب جسده ينطبق عليه قول الشاعر :

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران ؟
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ولذلك كان الصوم وسيلة عظمى لتزكية النفس وتحريرها من سلطان الغرائز ، وإذا كان الامتناع عن الطعام والشراب يبدو في ظاهره عملاً سلبياً فهو في حقيقته عمل إيجابي نفسي إرادي له ثقله في ميزان الحق والقبول عند الله سبحانه[4] .

---

(١) ينظر : العبادة في الإسلام للقرضاوي – ص/٢٧٣-٢٧٤ .

(٢) سورة محمد / من الآية ١٢ .

(٣) الأركان الأربعة – للشيخ أبي الحسن الندوي - ص/١٨٢ .

(٤) العبادة في الإسلام – للقرضاوي ص/٢٧١ .

* ولكي يؤدي الصيام دوره في تزكية النفس لا بد أن يتحقق فيه هذان الشرطان :

الشرط الأول : أن يكون الصيام إيماناً واحتساباً :

الصوم عبادة وليس عادة ، ولذلك لا بد له من النية الخالصة لله سبحانه ، والرغبة في نيل الأجر والتقرب إلى الله تعالى ، وأن يوطّن الصائم نفسه على استشعار حقيقة الصوم ومراقبة الله تعالى في تلك العبادة حتى ينال الأجر العظيم منه سبحانه .

ولذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (مَن صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدَّم من ذنبه)[1] .

قال الحافظ ابن حجر في معنى هذا الحديث: (المراد بالإيمان : الاعتقاد بحق فرضية صومه، وبالاحتساب : طلب الثواب من الله تعالى ، وقال الخطابي : احتساباً أي عزيمة ، وهو أن يصومه على معنى الرغبة في ثوابه، طيبةً نفسه بذلك غير مستثقل لصيامه ولا مستطيلٍ لأيامه)[2].

ولذلك لا ينال ثمرة الصوم ويحظى بفضائله إلا من جعل صيامه لله سبحانه وأقبل عليه بمحبة ورغبة ، أما من يرى الصيام عبئاً ثقيلاً ، ويشغل نهاره بالكسل وتوافه الأمور لكي تنقضي ساعات الصيام ، وتراه يحسب الأيام حتى يتخلص من شهر رمضان ليعود إلى إطلاق العنان لشهوته ، فليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ، ولا حظ له فيما وعد الله به عباده الصائمين من مغفرة الذنوب ، ولن يكون صومه مدرسة تدريبية لمجاهدة النفس وتزكيتها ، لأنه لم يتغير عنده إلا مواعيد الطعام ، بل إن شغله الشاغل في أيام رمضان التفكير في ألوان المأكولات وأصناف الأطعمة والحلويات التي يملأ بها مائدة الإفطار ويُتخم بها معدته حتى لا يقوى على القيام ، وكأنه كان أسيراً فانفكَّ قيده في لحظة الإفطار !!

ولو تأملنا آداب الصيام التي حضَّ عليها الرسول ﷺ لوجدنا أنها تهدف إلى إشعار المسلم بمعاني تلك العبادة الجليلة وتعويده على ترويض نفسه وامتثالها لأمر الله سبحانه ، ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك :

---

(١) رواه البخاري في الصوم ـ باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ٢/٢٢٨ ، ومسلم في صلاة المسافرين باب الترغيب في قيام رمضان ـ رقم /٧٥٩ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤/١١٥ .

١ ـ تعجيل الفطر

عن سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (لا يزال الناس بخير ما عجَّلوا الفِطر)[١].

ولا شك أن في هذا تعويداً للنفس على الامتثال الدقيق لأمر الله تعالى وخضوعها وانقيادها له سبحانه في حالتي الصيام والإفطار ، فإذا دخل وقت الإفطار بادر الصائم إلى شيء من الطعام أو الشراب دون تأخير أو تراخٍ ، لأنه يطيع أمر الله بإفطاره كما أطاعه بالصيام لينال محبته والقرب منه سبحانه .

ولذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : (قال الله عز وجل : أحبُّ عبادي إليَّ أعجلهم فطراً)[٢] .

وقد أشار الإمام ابن رجب الحنبلي إلى ذلك فقال : (الصائم ترك شهواته لله بالنهار تقرباً إلى الله وطاعة له، ويبادر إليها في الليل تقرباً إلا الله وطاعة له، فما تركها إلا بأمر ربه ولا عاد إليها إلا بأمر ربه ، فهو مطيع له في الحالين ، ولهذا نهى عن الوصال في الصيام)[٣].

٢ ـ الإفطار على تمرات :

عن سلمان بن عامر الضَّبِّيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال : " إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر فإنه بركة فمن لم يجد فليفطر على ماء فإنه طهور "[٤] .

وبهذا يشعر الصائم أن الإفطار لا يُقصد منه ملء البطن والتعويض عما فقدته بالجوع ،

---

(١) رواه البخاري في الصوم ـ باب تعجيل الفطر ٢/٢٤١ ، ومسلم في الصيام ـ باب فضل السحور ـ رقم /١٠٩٨ .

(٢) رواه الترمذي في الصوم ـ باب ما جاء في تعجيل الافطار ـ رقم ٧٠٠ ، وقال حديث حسن ورواه ابن حبان ـ رقم ٨٨٦ ـ وصححه .

(٣) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي ـ ص/١٦٥ .

(٤) رواه الترمذي في الصوم ـ باب ما يُستحب عليه الإفطار – رقم /٦٩٥ ـ وقال : حديث حسن صحيح . وأبو داود في الصوم ـ باب ما يفطر عليه ـ رقم /٢٣٥٥ .
وقد ثبت طبياً أن التمر من أغنى الأغذية بسكر الجلوكوز ، وهو بالتالي أفضل غذاء يُقدم للجسم بعد الصيام ، كما أنه يمتاز بأنه يتم امتصاصه بسرعة فائقة ليروي ظمأ الجسم من الطاقة ، ينظر كتاب : (الصيام معجزة علمية) ـ للدكتور عبد الجواد الصاوي ـ ص/١٣١ .

وإنما هي تمرات وشربة ماء ولقيمات ينتقل بعدهـا إلى أداء الصلاة ، ويكون شغله في تلك الساعة الاقبال على عبادة ربه وشكره على ما أنعم وفرحه بما وفقه الله إليه من الصيام ولذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (للصائم فرحتان، فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه)[1] .

٣ ـ الدعاء عند الإفطار :

الدعاء المأثور عند الفطر وردت فيه أحاديث عدة ، ولعل من الحكم في ذلك أن يستشعر الصائم أن لحظات الإفطار ليست لملء البطن وفكّ جماح الشهوة بعد أن قُيدت طيلة النهار ، وإنما هي لحظات عبادة وتضرع وتقرب إلى الله سبحانه وامتثال لأمره في الفطر ، فيشكر لله سبحانه الذي أعان على الصيام ورزق عند الإفطار .

ولا يقتصر الصائم عند إفطاره على الدعاء المأثور الوارد عند الفطر ، وإنما يدعو بما شاء لدنياه وآخرته اغتناماً لتلك الساعة المباركة .

الشرط الثاني : الابتعاد عن المعاصي :

الصوم الذي أمر الله به هو ما يمنع النفس عن المعاصي ويحجزها عن تسلط الهوى والشهوات ، أما إذا كان الصائم لا يتورع عن حرام ولا يبتعد عن منكر ، ويقارف المعاصي ويصر عليها ولا يبالي بحرمة شهر رمضان ، ولم يغيِّر الصيام شيئاً من سلوكه وأفعاله ، فإن هذا الصيام لا يعدو أن يكون تقليداً وعادة ، ولا يُرجى له أن يثمر أو يحقق فوائده وأهدافه ، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)[2] .

وقد نقل الحافظ ابن حجر عن ابن بطال قوله في معنى هذا الحديث : (ليس معناه أن يؤمر بأن يدع صيامه ، وإنما معناه التحذير من قول الزور وما ذكر معه)[3] ، كما نقل عن الإمام البيضاوي قوله : " ليس المراد من شرعية الصوم نفس الجوع والعطش ، بل ما يتبعه

---

(١) رواه البخاري في الصوم ـ باب هل يقول : إني صائم إذا شتم ٢/٢٢٨ ، ورواه مسلم في الصيام ـ باب فضل الصيام رقم /١١٥١ ، واللفظ لمسلم .

(٢) رواه البخاري في الصوم ـ باب من لم يدع قول الزور والعمل به ـ ٢/٢٢٨ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤/١١٧ .

من كسر الشهوات وتطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة) .

ولا شك أن الذي يمنع نفسه عن الطعام والشراب وهي من المباحات في غير أوقات الصيام حريٌ به أن يمنع نفسه عن المحرمات التي لا ينال منها إلا الأذى والضرر .

وقد وصف الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله حال أقوام يسارعون إلى اغتنام الشهوات قبل دخول رمضان لتأخذ النفوس حظها قبل أن تُمنع من ذلك بالصيام ، وربما لا يقتصرون على الشهوات المباحة بل يتعدون إلى المحرمات ، ولذلك قال أحدهم :

إذا العشرون من شعبان ولّت فواصل شُرب ليلك بالنهار

ولا تشرب بأقداح صغارٍ فإن الوقت ضاق على الصغار

ومن كانت هذه حاله فالبهائم أعقل منه[1] ، وكيف يثمر صيامه تزكية لنفسه وهو متثاقل من رمضان كاره لقدومه ؟

آثار الصيام في مجال تزكية النفس :

عندما يستشعر الصائم حقيقة الصيام ، ويجعل صيامه إيماناً واحتساباً لا تقليداً وعادة ، ويبتعد عن المعاصي والآثام كما صام عن الطعام والشراب ، فإن هذا الصيام له ثمرات عظيمة في تزكية النفس ، وهو بحقٍ مدرسة تربوية فريدة ، ودورة تدريبية تجدد الإيمان وتقوِّم السلوك والأفعال .

وهذه أبرز آثار الصيام في مجال تزكية النفس وتهذيبها :

١ ـ تدريب النفس على كمال العبودية لله سبحانه :

الامتثال لأمر الله سبحانه وكمال العبودية له عزوجل هو الهدف الأسمى من كل عبادة، ولكن ذلك يظهر في الصيام أكثر ، فالصائم يجوع ويعطش وأسباب الغذاء والريِّ أمامه ميسَّره ، ولولا طاعته لربه وخشيته منه سبحانه وامتثاله لأمره ورغبته في رضاه لما امتنع عن الطعام والشراب وهو يشعر بالجوع ويتلهف أحياناً إلى شربة ماء .

---

(١) لطائف المعارف للإمام ابن رجب الحنبلي ـ ص/١٥٣ .

وهكذا يربي الصيام في نفس المؤمن العبودية لربه ، وينمّي فيه خُلق المراقبة والمحاسبة الذاتية ولو ابتعد عن أعين الناس ، ولذلك يضاعف الله له الأجر بغير حساب .

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله سبحانه : إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به ، يدع طعامه وشهوته من أجلي)[1] .

قال الإمام البغوي في شرحه لهذا الحديث : " معناه أن الصوم عبادة خالصة لي لا يستولي عليه الرياء والسمعه ، وليس كسائر الأعمال التي يطّلع عليها الخلق "[2] .

وقال الإمام ابن حجر : (إنما خص الصيام لأنه ليس يظهر من ابن آدم بفعله ، وإنما هو شيء في القلب .. وذلك لأن الأعمال لا تكون إلا بالحركات ، إلا الصوم فإنما هو بالنية التي تخفى عن الناس)[3] .

وأضاف الإمام ابن رجب الحنبلي وجهاً آخر في معنى هذا الحديث فقال : (إنَّ الله خص الصيام بإضافته إلى نفسه دون سائر الأعمال .. لأن الصيام ترك حظوظ النفس وشهواتها الأصلية التي جُبلت على الميل إليها لله عز وجل ، ولا يوجد ذلك في عبادة أخرى غير الصيام ، لأن الإحرام إنما يُترك فيه الجماع ودواعيه من الطيب دون سائر الشهوات من الأكل الشراب ، وكذلك الاعتكاف ، وأما الصلاة فإنه وإن ترك المصلي فيها جميع الشهوات إلا أن مدتها لا تطول ، فلا يجد المصلي فقد الطعام والشراب في صلاته ، بل قد نُهي أن يصلي ونفسه تشوق إلى طعام بحضرته حتى يتناول منه ما يسكن نفسه .. وهذا بخلاف الصيام فإنه يستوعب النهار كله فيجد الصائم فقد هذه الشهوات وتشوق نفسه إليها خصوصاً في نهار الصيف لشدة حرِّه وطوله .. فإذا اشتد توقان النفس إلى ما تشتهيه مع قدرتها عليه ، ثم تركته لله عز وجل في موضع لا يطلع عليه إلا الله كان ذلك دليلاً على صحة الإيمان)[4] .

---

(١) رواه البخاري في الصوم ـ باب فضل الصوم ٢/٢٢٦ ، وباب هل يقول إني صائم إذا شُتم ٢/٢٢٨ ، ورواه مسلم في الصيام ـب اب فضل الصيام ـ رقم ١١٥١١ (١٦٤) واللفظ لمسلم .

(٢) شرح السنة للإمام البغوي – ٦/٢٢٤ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري – ٤/١٠٧ .

(٤) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي – ص/١٦٠-١٦١ .

٢ ـ تقوية الإرادة والتدريب على الصبر :

من آثار الصيام وحِكمه أنه يقوي الإرادة ويدرب النفس على الصبر عند المصاعب والشدائد ، فالصائم يجوع وأمامه لذيذ الطعام ومع ذلك يمتنع ولا رقيب عليه إلا ربه سبحانه، وبذلك تقوى إرادته ويتحرر من سلطان شهواته ، ويتغلب على تحكُّم العادات التي قد يظنها لقوة هيمنتها طبيعة من طبائعه ، وما هي إلا أمور فرضها هو على نفسه أو فرضتها عليه ظروف حياته ، وإذا به عندما يأتي رمضان يتسلح بالعزيمة والصبر ويتخلص من قيود تلك العادات ويخفف من أعبائها ، وتقوى إرادته فلا تملكه أية عادة من عادات الطعام والشراب والنوم والعمل وغير ذلك .

والصوم مدرسة للتعويد على الصبر والتغلب على ثورة الانفعال أو الغضب ابتغاء مرضات الله سبحانه ، ولذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (والصيام جُنَّة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤٌ صائم)[1] .

وقد سمَّى الله سبحانه الصوم صبراً ، وذلك على أحد الأقوال في تفسير قوله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾[2] .

قال مجاهد : (الصبر في هذه الآية الصوم) ، ومنه قيل لرمضان شهر الصبر ، فجاء الصوم والصلاة على هذا القول متناسباً في أن الصيام يمنع الشهوات ويزهد في الدنيا ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر "[3] .

ولذلك ينبغي للآباء أن يحثوا أبناءهم على الصيام منذ الصغر ، تعويداً لهم على هذه العبادة ، وتدريباً لهم على تحمل المشاق وتقوية لإراداتهم وصبرهم .

---

(١) رواه البخاري في الصوم ـ باب هل يقول إني صائم إذا شتم ٢/٢٢٨ .
وقد ثبت طبياً أن الضغط النفسي في حالات الغضب والتوتر يزيد من تكون (الكوليسترول) من الدهن البروتيني ، والذي قد يزداد أثناء الصيام ، وقد يؤدي ذلك إلى تصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم ، انظر كتاب : الصيام معجزة علمية ـ للدكتور عبد الجواد الصاوي ـ ص/١٣٤ .

(٢) سورة البقرة / آية ٤٥ .

(٣) تفسير القرطبي ١/٣٧٢ ، وينظر : تفسير ابن كثير ١/٨٧ ، وشرح السنة للبغوي ٦/٢١٩ .

وذلك ما ورد عن الربيع بنت مُعَوِّذ رضي الله عنها أنها قالت عن صيام يوم عاشوراء : (كنا نصومه بعدُ ونُصوِّم صبياننا ، ونجعل لهم اللعبة من العهن فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار)[1] .

والصبر ضرورة لا يستغني عنها المسلم ، فهو السلاح الذي يقاوم به نفسه الأمارة وشيطانه المخادع وأعداءه الظالمين ، وهو ضرورة حياتيه لكل عمل نافع في الدنيا يتحمل به أعباء الحياة ، لذلك لابد له من هذه دورة التدريبية السنوية يتدرب فيها على خلق الصبر .

٣ ـ التدريب على مجاهدة النفس :

لابد من مجاهدة النفس لتكف عن المعاصي وتسارع إلى الطاعات ، وهذه المجاهدة وسيلة المسلم لكي يمسك بزمام نفسه ، وهو معها بين موافقة ومعارضة وقبول ورفض ، وكثيراً ما يرخي لها الزمام ويعلن أمامها الاستسلام .

فإذا جاء شهر رمضان كان فرصة عظيمة لتدريب المسلم على مجاهدة نفسه وأن يبادر إلى إلزامها بأمر الله عزوجل ، والتغلب على نزعاتها المحرمة وأهوائها المفسدة ، ولن يجد في ذلك المشقة التي كان يجدها في غير رمضان وذلك لسببين[2] :

١ ـ أن فراغ المعدة والشعور بالجوع يكسر حدة النفس ، ويخفف من تسلطها ، ويعيدها إلى اتزانها ، ويقوّي جانب الروح ، فيسارع العبد إلى الطاعات ويبتعد عن المنكرات .

ولذلك أوصى الرسول ﷺ بالصيام لمن لا يجد نفقات الزواج ويخشى على نفسه من الحرام فقال ﷺ : (من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[3] ، أي : قاطع للشهوة .

وفي حديث آخر : (الصوم جُنَّة)[4] أي : وقاية من المعاصي .

---

(١) رواه البخاري في الصوم ـ باب صوم الصبيان ـ ٢٤٢/٢ .

(٢) سوف نتحدث بالتفصيل عن مجاهدة النفس (ينظر ص / ٢٤٦)

(٣) رواه البخاري في الصوم ـ باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة ٢٢٨/٢ .

(٤) سبق بنصه ص/١٦٩

٢ ـ أن من خصائص شهر رمضان التي امتن الله بها على عباده تصفيد الشياطين فلا يبقى لها تسلط أو تأثير على المسلم ، وبذلك ينطلق سالماً من خطر أكبر عدو كان يترصد له ، ليوقعه في الحرام أو ليصده عن طاعة الرحمن .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا دخل رمضان فُتحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم وسُلْسِلَتِ الشياطين)[١] .

وفي رواية : (وصفدت الشياطين)[٢] .

وعندما تصفد الشياطين فلا يعني هذا أن أسباب المعاصي قد زالت ، لأن النفس الأمارة بالسوء والتي لم يقم صاحبها بمجاهدتها قد تكون أشد خطراً من وساوس الشياطين .

ولذلك كان لا بد من اغتنام فرصة شهر رمضان لتدريب المسلم على مجاهدة نفسه حتى تقلع عن المخالفات وتُقبل على الطاعات ، فإذا تعودت على ذلك في هذا الشهر الكريم سهل عليها أن تستمر على صلاحها واستقامتها بعد رمضان ، حتى يكون العمر كله كشهر رمضان في التزام الأوامر والعبادات واجتناب النواهي والمحرمات .

وقد أشار الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله إلى ذلك فقال : (الدنيا كلها شهر صيام المتقين ، يصومون فيه عن الشهوات المحرمات ، فإذا جاءهم الموت فقد انقضى شهر صيامهم واستهلوا عيد فِطرهم)[٣] .

ولقد اختص الله سبحانه شهر رمضان بأن أودع فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ، ووعد بعظيم الثواب لمن أدركها وأقامها بالصلاة والدعاء ، وجعلها ليلة مباركة تتنزل فيها الرحمات وتحف الملائكة فيها عباد الله فتغشاهم السكينة ، وتشرق نفوسهم وتسمو ، كما قال تعالى : ﴿ **تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر** ﴾[٤] .

---

(١) رواه البخاري في الصوم ـ باب هل يقال رمضان ـ ٢/٢٢٧ .

(٢) رواه مسلم في أول كتاب الصيام ـ رقم /١٠٧٩ .

(٣) لطائف المعارف للإمام ابن رجب الحنبلي ص/١٥٥ .

(٤) سورة القدر / الآيتان ٤،٥ .

ومن حكمة الله بعباده أن جعل هذه الليلة إحدى ليالي العشر الأواخر من رمضان دون تحديد ، لكي يجاهد المسلم نفسه على الاكثار من العبادات في تلك الليالي ويختتم شهره بمضاعفة الجهد والتنافس لإدراكها وتحريها كل ليلة ، وهذا أعظم تدريب عملي للنفس وأكبر مجاهدة لها على الطاعة ، بل إن من السنن التي كان الرسول ﷺ يحرص عليها اعتكاف العشر الأواخر من رمضان في المسجد والانقطاع عن أعمال الدنيا ومشاغلها والتفرغ للعبادة ليكون ذلك دورة تدريبية مكثفة تغذّي روح المؤمن وتزكي نفسه .

وقد ورد في الاعتكاف أحاديث كثيرة منها ما رواه عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها : (أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ، ثم اعتكف أزواجه من بعده)[1] .

وعنها رضي الله عنها أنها قالت : (كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره)[2] .

٤ ـ التعريف بقدر النعم :

الإنسان إذا تكررت عليه النعم قلّ شعوره بها ، ولا بد له لكي يحس بكمال النعمة أن يتذوق ضدها حيناً من الوقت حتى لا يتعود على الترف ويصل به الحال إلى البطر والجحود وينسى المنعم سبحانه ، ويفقد شعوره بجوع الجائعين وبؤس البائسين[3] .

ولذلك كان الصيام درساً عملياً للتعريف بالنعمة والتذكير بأعمال البر وتفقد المحتاجين والفقراء وعلاج مرض الشح من النفس ، وبذلك سمي رمضان شهر الجود والمواساة .

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل)[4] .

ومن مظاهر الجود التي ينال بها الصائم أجراً عظيماً أن يسارع إلى تفطير غيره من

---

(١) رواه البخاري في الاعتكاف ٢/٢٥٥، ومسلم في الاعتكاف ـ باب اعتكاف العشر الأواخر من رمضان رقم /١١٧٢ .

(٢) رواه مسلم في الاعتكاف ـ رقم /١١٧٥ .

(٣) ينظر : العبادة في الإسلام للقرضاوي ـ ص /٢٧٧ .

(٤) رواه البخاري في الصوم ـ باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان ـ ٢/٢٢٨ .

الصائمين ولا يستأثر بالطعام لنفسه .

وقد جاء في الحديث عن زيد بن خالد الجهني قال : قال رسول الله ﷺ : (من فطّر صائماً كان له مثلُ أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئاً)[1] .

* يضاف إلى ذلك كله أن الصيام يكفر السيئات ويرفع الدرجات وبذلك يخف عن النفس ثقل المعاصي ويُغسل القلب من أدرانه فيصفو ، وينطلق المسلم مسارعاً إلى العبادات نشيطاً في الطاعات .

وإذا كان صيام رمضان يغرس في النفس كل هذه المعاني ويسمو بها إلى الأعالي **فإن صيام النفل يزيد على ذلك بأمور عديدة** من أبرزها :

١ ـ أنه صيام اختياري لا يجب على المسلم فإذا بادر إليه فهذا علامة على تقوى القلب والحرص على الأجر من الله سبحانه .

٢ ـ عندما يبادر المسلم لصيام النفل ويرى الآخرين من حوله مفطرين يزداد شعوره بأهمية هذه العبادة ويدرك المعاني العظيمة والآثار والثمرات المستفادة منها في تزكية النفس ، وتكون مجاهدته لنفسه لإكمال الصوم أكبر ، لأنه يُلزمها بأمر يسعها ألا تُقدم عليه .

٣ ـ وعندما يشعر المسلم بمشقة صيام النفل ويحس بالجوع والعطش فيصبر ابتغاء مرضاة الله سبحانه ، فإنه سيتذكر كثيراً من النوافل الأخرى التي ينال بها أجراً عظيماً ولا تتطلب جهداً كبيراً، كصلاة الضحى وقيام جزء من الليل وتلاوة القرآن والصدقة وغيرها من العبادات التي تثمر تزكيةً للنفس، فيبادر إليها دون تردد ، ويقوم بها دون أن يُحس بثقلٍ أو ملل.

٤ ـ ولا يخفى أن صيام النفل عبادة متاحة طيلة السنة ولا تختص بشهرٍ من الشهور ، وبذلك يمكن للمسلم أن يبادر إليها كلما أحسَ بقسوة في قلبه وحاجة لترويض نفسه ورغبة في المزيد من الأجر والفضل عند الله سبحانه .

وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يصوم عبد مسلم يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً)[2] .

---

(١) رواه الترمذي في الصيام ـ باب ما جاء في فضل من فطر صائماً ـ رقم /٨٠٧ ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) رواه البخاري في الجهاد ـ باب فضل الصوم في سبيل الله ـ ٢١٣/٣ ، ورواه مسلم في الصيام ـ باب فضل الصيام في سبيل الله ـ رقم /١١٥٣ ، واللفظ لمسلم .

المبحث الرابع

الحج

الحج ركن من أركان الإسلام ، ويمتاز عن باقي الأركان بأنه عبادة قلبية وبدنية ومالية، وأنه يجب في العمر مرة واحدة على المستطيع ، وأن له مكاناً معيناً لا يؤدى إلا فيه وهو بيت ا لله الحرام والمشاعر المقدسة .

قال تعالى : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدىً للعالمين ، فيه آياتٌ بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن ا لله غني عن العالمين** ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ **وأذِّنْ في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍ عميق ليشهدوا منافع لهم** ﴾[2] .

قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسيره لهذه الآية :

(ليشهدوا منافع لهم : أي منافع الدنيا والآخرة ، أما منافع الآخرة فرضوان ا لله تعالى ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدن والذبائح والتجارات)[3] .

فا لله سبحانه جعل منافع الحج تحقيق مصالح الدين والدنيا ، وقد جاء اللفظ نكرة ليدل على كثرة المنافع وتجددها وتنوعها ، ومن أبرزها تزكية النفس وتقويم السلوك وتغذية الروح بتلك الدورة التدريبية الإيمانية التي تقام في أقدس بقعة علىوجه الأرض .

*** ولكي يحقق الحج دوره في تزكية النفس لابد أن تتوفر فيه شروط ، من أهمها :**

---

(١) سورة آل عمران / الآيتان ٩٦-٩٧ .

(٢) سورة الحج / الآية ٢٧، وجزء من الآية ٢٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٢١٦ .

أولاً : الإخلاص لله وحده وتجنب الرياء والسمعة :

فالحاج يقصد بيت الله الحرام الذي جعله الله سبحانه رمزاً للتوحيد والتوجه إليه تعالى في العبادة ، وقد رفع قواعد هذا البيت أبو الأنبياء إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام ، فليتذكر الحاج نبي الله إبراهيم الخليل داعي التوحيد ومحطم الأصنام ، وليعزم على أن ينقي حجه من كل شوائب الشرك الخفي وهو حب السمعة والتباهي والمراءاة أمام الناس ، وليتوجه إلى الله بقلب خالص ملبياً داعياً ، وليسأل ربه في كل منسك من مناسك الحج قائلاً: اللهم حجاً لا رياء فيه ولا سمعة .

وليتمثل قول الحق سبحانه : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لاشريك له** ﴾[١] .

ثانياً : تجنب الرفث والفسوق والجدال :

لابد للحاج أن يوطّن نفسه على تجنب الرفث والفسوق والجدال ، وكل ما فيه إيذاء لإخوانه امتثالاً لأمر الله سبحانه ، حيث يقول : ﴿ **الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب** ﴾[٢] .

وقد ذكر العلماء في تفسير هذه الآية أقوالاً عديدة[٣] ، نستخلص منها أن (**الرفث**) اسم جامع لكل فحش في الكلام وكل فعل ينافي أعمال الحج ، وبخاصة الجماع ودواعيه لأن هذا من محظورات الإحرام .

وأما (**الفسوق**) فهو الخروج عن طاعة الله سبحانه والوقوع في المعاصي .

و (**الجدال**) هو المخاصمة والمنازعة التي تورث الضغائن .

ولا شك أن إقدام الحاج على مثل هذه الأمور يُفقده ثمرة الحج ويُعرِّضه لسخط المولى سبحانه الذي جعل بيته الحرام آمناً وأمر بالتزام حرمته .

---

(١) سورة الأنعام / آية ١٦٢وجزء من الآية ١٦٣ .

(٢) سورة البقرة / آية ١٩٧ .

(٣) ينظر : تفسير الطبري ٢/٢٦٣-٢٦٧ ، وتفسير ابن كثير ١/٢٣٦-٢٣٧ ، وشرح السنة للإمام البغوي ٧/٥ .

فقد قال تعالى : ﴿ ومن يُرد فيه بإلحاد بظلمٍ نُذقه من عذابٍ أليم ﴾[1] .

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية تشمل كل من همَّ في الحرم بمعصية عامداً قاصداً عازماً عليها وإن لم يفعلها[2] ، فكيف إذا فعلها ؟ ! .

فعلى الحاج أن يلتزم بتقوى الله سبحانه ويجاهد نفسه للإقلاع عن المعاصي ويبادر إلى الأعمال الصالحة اغتناماً لشرف المكان والزمان ، ويلتزم بحسن الخلق في صحبة إخوانه المسلمين ، وليس حسن الخلق كفُّ الأذى عنهم فحسب بل احتمال الأذى منهم حتى يثمر حجه ثمراته المرجوة في تزكية النفس ويرجع كيوم ولدته أمه .

وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه)[3] ، أي : عارياً من الذنوب .

آثار الحج وثمراته في تزكية النفس :

منذ أن يشرع الحاج في السفر وحتى يرجع إلى بيته بعد أدائه الحج ، فإنه يخوض غمار دورة تدريبية يجاهد فيها نفسه ويداوي عللها وينهض بها في مقامات التزكية ، وهذه العبادة الجليلة تشبه في كثير من آثارها وثمراتها أركان الإسلام الأخرى كالصلاة والصيام والزكاة .

وفي ذلك يقول القاضي الدبوسي رحمه الله :

(أما الحج فله شَبَه بالصوم لما فيه من الكفِ عن محظورات الإحرام .. وله شبه بالصدقة لما فيه من بذل المال . . وله شبه بالصلاة لما فيه من الوقوف والطواف بالكعبة)[4] .

وقد سبق الحديث بالتفصيل عن آثار هذه العبادات في تزكية النفس مما يقتضي عدم الإطالة هنا وبخاصة في الجوانب المشتركة لتلك الآثار .

وبنظرة سريعة إلى أعمال الحج ومناسكه وآدابه **نستخلص الآثار التالية في مجال تزكية النفس:**

---

(١) سورة الحج / من الآية ٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٢١٤ .

(٣) رواه البخاري - كتاب المحصر - باب قول الله تعالى : ﴿ فلا رفث ﴾ ٢/٢٠٩ ، ورواه مسلم - كتاب الحج - باب فضل الحج والعمرة - رقم /١٣٥٠ ، واللفظ للبخاري .

(٤) الأمد الأقصى - للقاضي الإمام عبد الله بن عمر الدَّبُوسي (ت ٤٣٠هـ) - ص/١٤٥ .

١ ـ الحج تدريب عملي على امتثال أمر الله سبحانه :

أول ما يستفيده الحاج من مدرسة الحج تمام العبودية والتسليم والانقياد لله وحده ، وفي ذلك يقول الشيخ أبو الحسن الندوي يحفظه الله : (الحج بمناسكه وأركانه وأعماله ، كله تمرين وتمثيل للإطاعة المطلقة ، وامتثال للأمر المجرد .. وتلبية وإجابة للطلب ، فالحاج يتقلب بين مكة ومنى ، وعرفات والمزدلفة ، ثم منى ومكة ، يقيم ويرحل ويمكث وينتقل ، ويخيّم ويقلع ، إنما هو طوع إشارة ورهين أمر)[١] .

ثم إن كثيراً من أعمال الحج قد لا يُدرك العقل المراد منها كرمي الجمار وتحديد الطواف والسعي بسبعة أشواط وتقبيل الحجر الأسود ، ولذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول عندما يقبل الحجر الأسود : (والله إني لأقبلك وإني أعلم أنك حجر ، وأنك لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك)[٢] .

وما دام العقل لا يدركها فإن الطبع لا يميل إليها إلا امتثالاً لأمر الله سبحانه واقتداء برسوله ﷺ وبذلك يظهر كمال عبودية المسلم لربه وترويض نفسه لطاعة الله سبحانه .

ولذلك يردد الحاج التلبية ويرفع بها صوته معلناً التزامه بأمر ربه ، وتجرده عن شهوات النفس ، وإقباله على الله سبحانه ، واستجابته ومحبته لله عزوجل وإخلاصه في العبادة[٣] .

كما أن اجتناب الحاج لمحظورات الإحرام وتجرده من المخيط وامتناعه عن كل ما تشتهيه النفس من الميل للنساء والرغبة في التطيب والتجمل بأنواع الثياب ، كل ذلك إعلان عن الخضوع والتذلل لله سبحانه، فالحاج يقف عاري الراس ليس عليه من عرض الدنيا إلا إزار ورداء ، وكأنه يقول : يارب لا أملك لنفسي من الأمر شيئاً فأنت المالك وكل ما في الكون عبيدك .

---

(١) الأركان الأربعة للندوي ص/٢٤٦ .

(٢) رواه البخاري ـ كتاب الحج ـ باب ما ذكر في الحجر الأسود ٢/١٦٠ ، ورواه مسلم ـ كتاب الحج ـ باب استحباب تقبيل الحجر الأسود ـ رقم /١٢٧٠ واللفظ لمسلم .

(٣) ذكر الإمام البغوي أربعة أقوال في معنى " لبيك اللهم لبيك " أحدها : أستجيب لك إجابة بعد إجابة ، والثاني : إتجاهي لك وقصدي ، والثالث : محبتي لك ، والرابع : إخلاصي لك .
ينظر : شرح السنة للبغوي ٧/٥٠ .

٢ ـ الحج غذاء للروح :

لابد للروح من غذاء يتزود به المسلم ليزداد إيماناً وخشية ، وتُغذى فيه عاطفة الحب لله ولرسوله ، وتمتلئ جوانحه شوقاً إلى لقاء ربه والخشوع بين يديه ، حتى يذوق حلاوة الإيمان وينعم بالسكينة والاطمئنان .

وإذا كان العبد يقف بين يدي ربه في صلاته خمس مرات ينال بها غذاء الروح وصفاء النفس ، فإن الحج غذاء أكبر بما يمنحه من شحنة إيمانية قوية ، وبما يورثه من عاطفة متأججة نحو هذه الأماكن المقدسة التي تحنُّ إليها القلوب وتهوي إليها الأفئدة .

وهذا مصداق لدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام كما ورد في قوله تعالى : ﴿ **ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم** ﴾[١] .

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم عليه السلام، وجعل قلوب العباد تهوي إلى البيت وتحّن إليه وتشتاق إلى زيارته والطواف حوله، وتجد في ذلك متعة وغذاء للروح، وهذا بلا شك يزيد الإيمان في القلب ويقوي الصلة بين العبد وخالقه ويرقى بالنفس في مقامات التزكية.

ولذلك يستحب للحاج أن يستحضر الذكريات التي ترتبط بمناسك الحج والأماكن المقدسة ، ابتداء من عهد إبراهيم عليه السلام وهو ينقل زوجته هاجر مع ولدها إسماعيل إلى هذا الوادي المقفر ، وكيف نبع ماء زمزم ليروي عطش الصغير وأمه وليكون رياً لقاصدي البيت بعد ذلك ، ثم يتمثل الحاج مشهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت ، ويتذكر عند رمي الجمرات قصة إبراهيم عليه السلام حينما اعترضه إبليس ليثنيه عن تنفيذ ما أمره الله به في الرؤيا من ذبح ولده إسماعيل ، وكيف كان الرد العملي الحاسم الذي أخسأ الشيطان حينما رماه بحصيات عند مكان الجمرات الثلاث .

كما يستحضر الحاج سيرة الرسول ﷺ وأصحابه في هذه الأماكن المقدسة التي شع منها نور الإسلام وتنزّل فيها القرآن ، وتخضبت أرضها بدماء الصحابة الكرام والسلف الصالح عند الغزوات وفي المعارك ، كما ابتلت بدموعهم عند الصلوات وذكر الله وتلاوة القرآن،

---

(١) سورة إبراهيم / من الآية ٣٧ .

وبهذا يجد الحاج نفسه وقد أشرقت بنور الإيمان .

بل إن مما ينبغي للحاج أن يستحضره وهو يعدُّ الزاد للسفر ويودع الأهل أن هناك سفراً لا رجعة بعده ولا بد له من زاد كبير هو التقوى ، وأن المسافر للدار الآخرة لا يدري متى يكون سفره وكيف يكون مُقامه هناك ! .

ولقد وجَّه الله تعالى عباده إلى الربط بين رحلة الحج والرحلة إلى الدار الآخرة بقوله تعالى : ﴿ **الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب** ﴾[1] .

ولذلك يجدر بالحاج وهو يغتسل ثم يلبس لباس الإحرام أن يتذكر خلع ملابسه عند موته ، وأنه سيغسَّل ثم يُلّف بالأكفان البيضاء ، ويُحمل على الأكتاف ، ويوضع في حفرة مظلمة لا أنيس له إلا عمله الصالح .

فإذا وصل إلى مكة المكرمة وشرع في أعمال الحج فليستحضر مشاهد يوم القيامة عند طوافه وسعيه ، وليتذكر عند وقوفه في عرفات الموقف الأكبر يوم الحشر ، كما يتذكر عند الإفاضة إلى منى الوفود على الله عزوجل للحساب بعد انقضاء المحشر ، ويتأمل وهو يقدم إلى مكة لزيارة البيت وأداء طواف الإفاضة كيف سيقدم إن شاء الله إلى الجنة ويدخلها مع المؤمنين .

فايُ غذاء للروح أعظم من هذا ؟ وأية دورة تدريبية ينال بها العبد الثمرات ويحظى بها بالخيرات أكبر من هذا الركن الإسلامي وذلك المجمع الإيماني الذي تبقى ذكرياته ماثله في ذهن الحاج سنوات طويلة يهتز لها شوقاً وتدمع عيناه تأثراً كلما جالت بخاطره تلك المشاهد والأماكن .

٣ ـ الحج جهاد للنفس وتدريب لها على تحمل المشاق :

الحج تدريب عملي على الحياة الفاضلة التي يريدها الإسلام ، حيث يلتزم الحاج بحسن

---

(١) سورة البقرة / آية ١٩٧ .

الخلق وسعة الصدر ، جاهد نفسه التزاماً بحرمة المكان والزمان للبعد عن كل ما يُسخط الله سبحانه، ويتدرب على خشونة العيش وترك الترفُّه والاقتصار على ماديات الحياة وشهوات النفس.

فالحاج يعاني من مشقة السفر والتنقل ، وهجر الأوطان والبعد عن الأهل ، وترك ما تعوَّده من وسائل الراحة الجسمية وطريقة الحياة اليومية ليجد نفسه في معسكر تدريبي عملي يجد مشقته ، ولكنه يُقدم عليه راغباً ويخوض غماره متشوقاً لما عند الله من الأجر العظيم ولما يلمسه من غذاء روحي يُنسيه الأتعاب ويهوِّن عليه الصعاب .

وقد وردت أحاديث كثيرة تبين أن الحج جهاد وبخاصة بالنسبة للمرأة منها ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (يا رسول الله : نَرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد ؟ قال : لا لكن أفضل الجهاد حج مبرور)[1] .

فالحج جهاد يجتمع فيه جهاد المال والنفس والبدن ، ويشارك فيه الرجل والمرأة والقوي والضعيف والصغير والكبير .

ولذلك قال عمر رضي الله عنه : (شدوا الرحال في الحج فإنه أحد الجهادين)[2] .

٤ ـ الحج علاج لأمراض النفس وآفاتها :

من أبرز أمراض النفس التي شاعت بين المسلمين الشح والأنانية والحقد والتكبر ، وهذه آفات مهلكة ، لابد لها من علاج يطهِّر النفس منها ، ويغرس عوضاً عنها صفات البذل والمحبة والتواضع والإيثار حتى ترتقي النفس وتسمو .

ولذلك نجد أن شعائر الإسلام وعباداته تركز على علاج النفس من هذه الآفات ، وقد سبق بيان ذلك في المباحث السابقة عند الحديث عن الصلاة والزكاة والصيام وآثارها في التزكية ، ثم يأتي الحج ليتضافر مع الأركان الأخرى لتحقيق هذا الهدف .

ويتجلى ذلك في عدة أمور من أبرزها :

١ ـ ما يبذله الحاج من مال ينفقه على سفره وتنقله ، وما يتقرب به من هَدْي وذبائح ابتغاء مرضاة الله ، وقد أشار الحق سبحانه إلى أن القصد من هذا الهدي تطهير النفس من

---

(١) رواه البخاري في الحج ـ باب فضل الحج المبرور ١٤١/٢ ، وفي الجهاد ـ باب فضل الجهاد ٢٠٠/٣ .
(٢) أورده البخاري تعليقاً في صحيحه ـ كتاب الحج ـ باب الحج على الرحل ـ ١٤١/٢ .

الشح وتزكيتها حتى تتحقق بالتقوى ، فقال تعالى : ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن ينالهُ التقوى منكم** ﴾[1] .

٢ ـ اجتماع الحجاج في صعيد واحد لباسهم واحد ونداؤهم واحد يدعون رباً واحداً ، تجمعهم أخوَّة الإسلام وتلتقي قلوبهم على طاعة ربهم والتضرع إليه ، فتصفو نفوسهم وتتطهر من الأحقاد ، وتتحقق بينهم المساواة فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، إنها وحدةفي المشاعر ووحدة في الشعائر ، ووحدة في الهدف[2] ، وبذلك تزول من النفوس صفاتها الذميمة وتتخلى عن أمراض الحقد والأنانية والتكبر ، ويقوى في النفس الشعور برابطة الإيمان ، ويلتقي الجميع على طاعة الرحمن ، ويحل بينهم التعارف والتآلف، وتُشحذ الهمم وتُوقظ الآمال .

٣ ـ إن الله سبحانه يُكرم عباده الحجيج يوم عرفة بالمغفرة والرضوان ويُنزل عليهم الرحمات ، فتُغسل قلوبهم من أدران المعاصي ، وتصفو نفوسهم من أكدار الذنوب ، ويندحر الشيطان خائباً ، فتتحرر النفس من وساوسه ، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة منها ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : (ما من يوم أكثر من أن يعتقَ الله فيه عبيداً من النار مِن يوم عرفة ، وإنه ليدنو، ثم يباهي بهم الملائكة ، فيقول : ما أراد هؤلاء ؟)[3].

* **ويُلحق بالحج العمرة**، وهي عبادة لها آثار عظيمة في تزكية النفس ، وتتميز عن الحج بأنها وسيلة متاحة طيلة أشهر السنة ولا تختص بوقت محدد ، وهي سهلة الأداء لا تستغرق وقتاً طويلاً ، لأنها تقتصر على الطواف والسعي ، فكلما لاحظ المسلم من نفسه بُعداً عن الله تعالى أو قسوة في القلب فليسارع لأداء العمرة يغذي بها روحه ويزكي نفسه ويجدد عزمه ، وبخاصة إن كان وصوله إلى بيت الله الحرام متيسراً ولا تبعده عنه مسافات طويلة .

وبذلك يحقق الحج والعمرة دورهما في تزكية النفس ، ويظفر المسلم ببشرى الرسول ﷺ كما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)[4] .

---

(١) سورة الحج / من الآية ٣٧ .
(٢) ينظر : العبادة في الإسلام للقرضاوي ـ ص/٢٩٠ .
(٣) رواه مسلم في الحج ـ باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة ـ رقم /١٣٤٨ .
(٤) رواه البخاري في العمرة ـ باب وجوب العمرة وفضلها ١٩٨/٢ ، ومسلم في الحج ـ باب فضل الحج والعمرة ـ رقم /١٣٤٩ .

المبحث الخامس

الجهاد بأنواعه

لازال الاعتقاد السائد عند كثير من الناس أن طريق الجهاد بأنواعه بما في ذلك الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يغاير طريق تزكية النفس ويعارضها ، وأن تزكية النفس لا بد لها من خلوة وعزلة وبُعد عن الناس ، وأن ينشغل الإنسان بنفسه لا بغيره ، وأن ينظر في عيوبه ولا يلتفت لعيوب الآخرين ، وأن يهجر المسلم دنياه ومَن فيها ليَسلم لـه دينُه ويتفرغ لعلاج نفسه وترويضها .

ولخطورة هذه المفاهيم المنحرفة ، وآثارها السيئة على الفرد والمجتمع ، وتشويهها للصورة النقية التي رسمها الإسلام لتزكية النفس ، فإني سأعرض لمناقشتها والرد عليها في الباب الخامس من هذا البحث ، ولكن المقصود هنا إبراز دور الجهاد في تزكية النفس وبيان أهمية هذه العبادة الجليلة بأنواعها في تطهير النفس وترقيتها وصلاحها .

والجهاد مشتق من الجهد وهو الطاقة والمشقة ، والاجتهاد : أخذ النفس ببذل الطاقة ، وتحمل المشقة في العبادة[1] ، وقد ورد الجهاد في القرآن الكريم على عدة معانٍ[2] :

الأول : مجاهدة الكفار والمنافقين بالبرهان والحجة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾[3] ، أي : جاهدهم بهذا القرآن حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله ويدينوا به[4] .

الثاني : جهاد القتال ، وقد ورد فيه آيات كثيرة،منها قوله تعالى : ﴿ **وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً** ﴾[5] .

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن ـ للإمام الراغب الأصفهاني ـ ص/١٠١ . وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ـ للإمام الفيروز آبادي ـ ٤٠١/٢ .

(٢) بصائر ذوي التمييز ٤٠٢/٢-٤٠٣ .

(٣) سورة الفرقان / من الآية ٥٢ .

(٤) تفسير الطبري ٢٣/١٩ .

(٥) سورة النساء / من الآية ٩٥ .

الثالث : مجاهدة النفس والشيطان ، وهو أحد الأقوال في تفسير قوله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾[1] .

وقد قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية : " الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون "[2]، وقال الإمام الفخر الرازي: " من جاهد بالطاعة هداه الله سبل الجنة "[3].

وهناك آيات كريمة أخرى تشمل المعاني الثلاثة . منها قوله تعالى : ﴿ **وجاهِدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾[4] .

قال الإمام ابن كثير : " وجاهدوا في الله .. أي بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم ... فالله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم .. وما كلفكم مالا تطيقون وما ألزمكم بشيء يشق عليكم .. "[5] .

وقد بين الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله أنواع الجهاد وأقسامه فقال : (الجهاد شرعاً بذل الجهد في قتال الكفار ، ويطلق أيضاً على مجاهدة النفس والشيطان والفسّاق) ، ثم قال : (أما مجاهدة الكفار فتقع باليد والمال واللسان والقلب)[6] .

وهكذا نجد أن الجهاد يشمل مجاهدة العدو الداخلي والخارجي ، وأن مجالاته كثيرة من أبرزها:

١ ـ المجاهدة باللسان والبيان عن طريق الحجة والنصح والدعوة والتعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٢ ـ المجاهدة بقتال الأعداء وبذل النفس والمال في سبيل الله .

٣ ـ مجاهدة النفس والشيطان وقمع تسلطهما ، وهذا الجانب سأتحدث عنه بالتفصيل في فصل مستقل إن شاء الله[7] .

---

(١) سورة العنكبوت / آية ٦٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٢٢/٣ .
(٣) تفسير الفخر الرازي ٩٥/٢٥ .
(٤) سورة الحج / الآية ٧٨ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢٣٦/٣ .
(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢/٦ .
(٧) ينظر ص / ٢٤٦ من هذا البحث .

وسيكون الحديث هنا على نوعي الجهاد البياني والقتالي ، وما لهما من آثار عظيمة في تزكية النفس، ولعل أول ما تنبغي ملاحظته أن الله سبحانه جعل الفلاح متعلقاً بتزكية النفس فقال تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾[1] ، كما جعله متعلقاً بالجهاد ، فقال سبحانه : ﴿ **وجاهِدوا في سبيله لعلكم تفلحون** ﴾[2] ، وجعله أيضاً متعلقاً بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقال عزوجل : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾[3] .

فطريق الفلاح هو طريق الدعوة والجهاد ، وهو نفسه طريق تزكية النفس لا يختلفان ، ومن هنا كان الجهاد بأنواعه وسيلة عظمى للتزكية في المنهج الإسلامي[4] .

وقد أمر الله عباده بالجهاد وجعله ذروة سنام الإسلام ، وهو فرض كفاية لا يجوز لجميع المسلمين أن يتخلوا عنه أبداً ، وقد يتعين بحسب الأشخاص والأحوال .

ولقد وردت آيات قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة في الأمر بالجهاد وبيان فضله ومنزلته وما أعده الله للمجاهد من أجر عظيم ، والتأكيد على أهمية الجهاد في تقوية الإيمان والتحقق بالصدق ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾[5] .

وقوله سبحانه : ﴿ **لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرُ أولي الضرر ، والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾[6] .

وهناك عشرات الأحاديث النبوية الواردة في الجهاد وبيان منزلته بين العبادات

---

(١) سورة الشمس / آية ٩ .

(٢) سورة المائدة / من الآية ٣٥ .

(٣) سورة آل عمران / آية ١٠٤ .

(٤) ينظر : المستخلص في تزكية الأنفس ـ للشيخ سعيد حوى ـ ص/١٥٣ .

(٥) سورة الحجرات / آية ١٥ .

(٦) سورة النساء / الآيتان ٩٥-٩٦ .

الإسلامية، منها :

- ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : (سئل النبي ﷺ : أيُ العمل أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور)[1] .

- وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : (لغدوة في سبيل الله أو رَوْحة خير من الدنيا وما فيها)[2] .

فإذا كانت الغَدوة الواحدة في سبيل الله ، وهي السير أول النهار ، والروحة وهي السير آخره ، خير من نعيم الدنيا كلها ، فكيف بمن يُمضي أيامه ولياليه مجاهداً في سبيل الله داعياً إلى دينه ؟ ! .

- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قيل للنبي ﷺ: (ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قال: لا تستطيعونه، قال فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول لا تستطيعونه ، وقال في الثالثة: مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتُر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى)[3] ، وفي رواية : (قال هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر؟ فقال: ومن يستطيع ذلك؟)[4].

قال الإمام النووي رحمه الله : (في هذا الحديث عظيمُ فضل الجهاد ، لأن الصلاة والصيام والقيام بآيات الله أفضل الأعمال ، وقد جعل المجاهدَ مثل مَن لا يفتُر عن ذلك لحظة من اللحظات ، ومعلوم أن هذا لا يتأتى لأحد ، ولهذا قال النبي ﷺ لا تستطيعونه)[5] .

ولكي يثمر الجهاد ثمراته المرجوة في تزكية النفس ويحظى المجاهد بالمنزلة الكبيرة عند ربه فلا بد من أن يتحقق في جهاده شرطان :

---

(١) رواه البخاري في الحج - باب فضل الحج المبرور ٢/١٤١ . ومسلم في الإيمان - .

(٢) رواه البخاري في الجهاد - باب الغدوة والروحة في سبيل الله ٣/٢٠٢ ، ومسلم في الإمارة - باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله - رقم /١٨٨٠ .

(٣) ورواه مسلم في الإمارة - باب فضل الشهادة في سبيل الله - رقم /١٨٧٨ .

(٤) رواه البخاري في الجهاد - باب فضل الجهاد والسير ٣/٢٠٠ .

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم ١٣/٢٥ .

الشرط الأول : الإخلاص لله سبحانه في كل أنواع الجهاد .

الشرط الثاني : التطبيق لما يدعو إليه ويأمر الناس به ، وذلك في جهاد الدعوة :

ولنبدأ بالشرط الأول :

الإخلاص في الجهاد :

تكرر الحديث عن الإخلاص في مواضع عدة ، ومع ذلك لابد من الإشارة إليه هنا ، إذ أن المسلم الذي يبذل جهده ويضحي بماله ونفسه ويعرِّض حياته للخطر ثم يقصد بذلك عَرَضاً من أعراض الدنيا كالشهرة والسمعة ولا يريد بذلك وجه الله عزوجل ، فهو في غاية البعد عن ربه ، ولا يُرجى لعمله وتضحياته أن تؤدي ثمراتها في تزكية النفس ، بل إنه يعرِّض نفسه لسخط الله وعقوبته ويرمي بها في نار جهنم .

والدليل على ذلك ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استُشهد ، فأُتيَ به فعرَّفه نعمُه ، فعرفها قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء ، فقد قيل ، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار .

ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن،فأُتي به ، فعرَّفه نِعَمهُ فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلَّمتُه ، وقرأت فيك القرآن .

قال : كذبت ، ولكنك تعلَّمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي به في النار .

ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأُتي به فعرَّفه نعمهُ ، فعرفها ، قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : ما تركتُ من سبيل تُحب أن يُنفَق فيها إلا أُنفقتُ فيها لك . قال : كذبت ، ولكن فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه ثم أُلقي في النار)[1] .

ويشمل هذا الحديث النبوي ثلاثة أنواع من الجهاد ، وهي القتال ، والجهاد الدعوي

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب الإمارة ـ باب من قاتل للرياء والسمعة ـ رقم /١٩٠٥ .

بالعلم والتعليم ، والجهاد بالمال ، فمن فعل شيئاً من ذلك بقصد الرياء والمباهاة فقد استوجب العقوبة ، لأن الله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له .

ولذلك لا بد للمجاهد أن يصحح نيته ، ويجعل جهاده لإعلاء كلمة الله والدعوة إلى دينه ، لا من أجل المغانم والمنافع والمكاسب الدنيوية .

روى البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : (الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانُه ، فمن في سبيل الله ؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[(١)] .

الشرط الثاني : العمل بما يدعو إليه ويأمر الناس به في جهاد الدعوة :

لكي يؤدي النصح والارشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دوره في تزكية نفس الداعية ونفوس المدعوين ، وينال صاحبه به الأجر والقربى من الله سبحانه ، لابد أن يكون ملتزماً بما يدعو إليه متحققاً بما يُرشد الناس إليه .

وقد سبق الحديث بالتفصيل عن هذا الجانب في موضوع العلم النافع الذي يتبعه العمل[(٢)]، مع بيان ما ورد في الكتاب والسنة من التحذير والوعيد لمن يأمر الناس وينسى نفسه.

فالواجب على الداعية الذي يجعل الدعوة إلى الله ميدان جهاده أن يدعو نفسه ويجاهدها وأن يخوض المعركة معها ، لكي يثمر جهاده النفع للآخرين والتأثير فيهم .

وقد أوضح ابن القيم رحمه الله هذه المسألة بجلاء[(٣)] ، وبيّن أن الواعظ إذا عمي عن عيوبه حُرم الانتفاع بموعظته ، لأن النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ، ولذلك قال شعيب عليه السلام لقومه : ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه** ﴾[(٤)] .

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ـ ٢٠٦/٣ .

(٢) ينظر : ص / ١١١ من هذا البحث .

(٣) ينظر : مدارج السالكين ٤٤٦/١ .

(٤) سورة هود / من الآية ٨٨ .

فالموعظة لا تنفع إلا إذا خرجت من القلب ، فهي عندئذ تصل إلى القلوب ، أما إذا خرجت من اللسان و لم يكن صاحبها متحققاً بها فإنها لا تجاوز الآذان .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب من أبواب الجهاد ، ولا بد فيه من الالتزام والتطبيق لما يأمر به أو ينهى عنه ، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (التحقيق أن المؤمن إذا نهى عن المنكر ، فلا بد أن لا يقربه ، ويعزم على تركه ، ويكره فعله)[1] .

ولكن ينبغي أن لا يتخذ المسلم هذا الشرط ذريعة للتخلي عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلية ، فكل ابن آدم خطاء ، والعبد مأمور بأن يتقي ربه بقدر الاستطاعة ، وأن يبادر إلى التوبة عند الذنب ولا يصر عليه ،

وقد نبَّه على ذلك الإمام ابن رجب الحنبلي ، فقال : (ومع هذا كله فلا بد للإنسان من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ والتذكير ، ولو لم يعظ إلا معصومٌ من الزلل لم يعظ الناس بعد رسول الله ﷺ أحد، لأنه لا عصمة لأحد بعده)[2] .

كما نقل عن الحسن البصري رحمه الله أنه قيل له : (إن فلاناً لا يعظ ويقول أخاف أن أقول مالا أفعل ، فقال الحسن : وأينا يفعل ما يقول - أي بتمامه – ودَّ الشيطان أنه ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروف و لم ينه عن منكر)[3] .

ولاشك أن الداعية عندما يُخلص في دعوته ونصحه يكون أول المتأثرين بها المستجيبين لها فالكلمة الصادقة تؤثر في قائلها مثلما تؤثر في سامعيها،وكثيراً ما يقف الداعية واعظاً للناس وخطيباً فيلاحظ تأثر المستمعين وانفعالاتهم وإذا به يهتز من أعماق نفسه وكأن المستمعين من شدة تأثرهم هم الذين يعظونه بدموعهم وخشوعهم ، موعظة صامته أبلغ من موعظته الناطقة ، ولا شك أن هذه المجالس تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة وتنزل على قلوب أهلها السكينة فتلين وتخشع ، وبهذا يجد الداعية أن نفسه قد غمرتها السكينة وأصبحت طوع أمره تبصّره بعيوبه وتلومه على هفواته وغفلاته ، وهذا كله من بركة الاخلاص في الدعوة والتفاني في الجهاد بمختلف أنواعه .

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٦٣١ .

(٢) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي - ص/١٦ .

آثار الجهاد في مجال تزكية النفس :

عندما يجاهد المسلم في سبيل الله سبحانه بلسانه وماله ونفسه ، ويبذل جهده في إعلاء كلمة الله تعالى بكل ما أوتي من قوة ، وبجميع المجالات الممكنة بما فيها الدعوة والنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن لهذا الجهاد آثاره العظيمة في تزكية النفس ، والتي تتجلى في الجوانب التالية :

١ ـ **الجهاد تحرير للنفس من حب الحياة والتعلق بها** ، وبيع لها في سبيل الله ، وتدريب عملي على الزهد في الدنيا والتطلع إلى الآخرة والتشوق لما أعده الله لعباده في الجنة، وهذا من أعظم ما يهدف إليه المنهج الإسلامي في تزكية النفس .

فالمجاهد يبيع نفسه لله تعالى ابتغاء مرضاته ، والله سبحانه واهب الأنفس والأموال ومالكها يكرم عباده المجاهدين بأن يشتري منهم ما وهبهم إذا بذلوها في سبيله .

قال تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم * التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين** ﴾(١) .

وهكذا يتضح أن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة ، والله سبحانه قد عقد الصفقة واشترى هذه الأنفس والأموال وهو مالكها سبحانه ، وجعل الثمن في تلك التجارة الرابحة جنة عرضها السموات والأرض ، ولكن هذا الجهاد ليس بجرد اندفاع للقتال إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان والعمل الصالح ، فالله سبحانه وصف المجاهدين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بصفات جليلة : ﴿ **التائبون العابدون ...** ﴾ إلى آخر الأية .

ومجمل هذه الصفات يبين أن الجهاد في سبيل الله يشمل جهاد الأعداء وجهاد النفس وجهاد الشر والفساد(٢) ، وبذلك ينطلق المجاهد من قيود التعلق بالدنيا والتثاقل إلى الأرض

---

(١) سورة التوبة / الآيتان ١١١-١١٢ .

(٢) ينظر : تفسير ابن كثير ٣٩١/٢ ، وفي ظلال القرآن ١٧١٩/٣ .

وينفر باذلاً نفسه وماله في سبيل الله .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل** ﴾(١) .

وقال سبحانه : ﴿ **فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يَغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾(٢) .

٢ ـ الجهاد تمحيص للنفس وتدريب لها على الصبر والفداء :

طريق الجنة محفوف بالمكاره ولا ينال براحة البدن ، ولا بد من تعويد النفس على المشاق والصعاب ليقوى بنيانها وتصمد في وجه الشدائد والأهوال ، وتدع الخمول والكسل والتواني

كما أن حكمة الله سبحانه اقتضت أن تتعرض النفوس للتمحيص ليظهر ثباتها ويستقيم حالها ، ولا شك أن أكبر ميدان لهذا التمحيص هو ميدان الجهاد .

قال تعالى : ﴿ **إن يمسسكم قَرح فقد مسَّ القوم قرحٌ مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحِّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين.أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم اللهُ الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين * ولقد كنتم تمنّون الموت مِن قبل أن تلقَوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون** ﴾(٣) .

فالشدائد والمحن تربي النفوس ، كما تكشف عن معادنها وتظْهر درجة ثباتها ، ولذلك كان ميدان الجهاد المقياس الحقيقي الذي يعرف به المؤمن درجة التزكية التي ارتقت إليها نفسه ، فإن لاحظ فتوراً أو إحجاماً عن البذل والفداء ، وصدَّته نفسه عن كل جهاد يخدم به دينه فهو في بداية الطريق ، ولابد له من ترويض النفس ومجاهدتها وتدريبها على الصبر والثبات ، وتقوية إيمانها بالله واليوم الآخر ، وإنْ لمس فيها هِمَّة وقوة فهذا مؤشر على ترقي النفس في مقامات التزكية ، كما أنه دليل على صحة المنهج الذي يسلكه في تزكية النفس .

---

(١) سورة التوبة / الآية ٣٨ .

(٢) سورة النساء / الآية ٧٤ .

(٣) سورة آل عمران / الآيات ١٤٠-١٤٣ .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن بعض السائرين في طريق التزكية يلمس من نفسه إقبالاً على الطاعات وإحجاماً عن المعاصي ، فيظن أنه ارتقى بنفسه إلى المقام المطلوب في تزكية النفس ، مع أن هذا المقياس لا يكفي ، إذ أن حقيقة النفس تظهر في الشدة لا في الرخاء ، ولذلك كان الجهاد هو المحك الذي يكشف عن معدن النفس ليسارع صاحبها إلى تدارك مافيها من نقص .

فينبغي للمسلم أن يشد أزر نفسه ويقويها لتكون أهلاً لتحمل أعباء الجهاد ، وهذا ما كان يفعله الصحابة الكرام والسلف الصالح رضي ا لله عنهم .

- ولعل أبرز مثال على ذلك قصة عبد ا لله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غزوة مؤته لما استشهد أمير جيش المسلمين جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فأخذ ابن رواحة الراية وتقدم بها وهو على فرسه ، وجعل يخاطب نفسه ويستحثها على القتال ويذكرها بالأجل المحتوم وهو يردد هذه الأبيات :

أقسمت يانفسُ لتنزلِنّه ... لتنزلِنَّ أو لَتُكرهِنّهْ
قد أجلب الناس وشدوا الرَّنّهْ[(1)] ... مالي أراكِ تكرهين الجنة ؟
قد طال ما قد كنتِ مطمئنةْ ... هل أنتِ إلا نطفة في شَنّه[(2)] ؟
يا نفسُ إن لا تقتلي تموتي ... هذا حِمام الموتِ قد صُليت
وما تمنيتِ فقد أُعطيتِ ... إن تفعلي فعلهما هُديتِ

ثم قاتل حتى قُتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(3)] .

- ومثال آخر لأحد علماء السلف وصلحائهم وهو الأسود بن كلثوم ، رحمه ا لله تعالى ، فقد روى عبد ا لله بن المبارك عن حميد بن هلال قال : " كان الأسود بن كلثوم إذا

---

(١) الرَّنّه : صوت يشبه البكاء .

(٢) الشَّن : السِقاء البالي ، فيوشك أن ينخرق السقاء وتهراق النطفة ، يقصد بذلك الموت .

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/١٢٠ ، والطبراني ورجاله ثقات كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/١٦٠ ، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية ٤/٢٤٥ .

مشى نظر إلى قدميه أو أطراف أصابعه لا يلتفت ، وجُـدُر النـاس إذ ذاك فيهـا تواضـع ـ أي منخفضة قد يُرى ما وراءها ـ فعسى أن يفجأ النسوة .. فلما قدم غازياً قال : اللهـم إن هـذه نفسي تزعم في الرخاء أنها تحب لقـاءك ، فـإن كـانت صادقـة ، فارزقهـا ذاك ، وإن كـانت كاذبة فاحلمها عليه وإن كرهت ، فاجعله قتلاً في سبيلك . . فقاتلهم حتى قُتل "[1] .

وهكذا أدرك الأسود رحمه الله أن الإحجام عن المعاصي عند الرخاء ليس مقياساً كافيـاً لمعرفة حقيقة النفس ، وأن نفسه التي تعودت البعد عـن محارم الله قـد لا تطاوعـه في الجهـاد فكان لا بد لها من هذاالدرس الجهادي .

٣ ـ الجهاد عزة النفس وقوة لها :

الجهاد أعظم وسيلة لتنميـة العزة في نفـس المسـلم وتقويـة كيانهـا وتطهيرهـا مـن الذلـة والانطوائية والخمول وغيره من الصفات المهلكة للفرد والمجتمع .

ولقد بيّن الله سبحانه أن المؤمن عزيز الجانب لأنه يستمد العزة من إيمانـه بربـه وتمسكه بدينه ، فقال تعالى : ﴿ **و لله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكـن المنـافقين لا يعلمـون** ﴾[2] ، فـإذا تخلى المسـلم عـن الجهـاد وشُغل بالدنيـا عـن الآخـرة ، تعـودت نفسـه الذلـة والهــوان والاستكانة والخنوع .

ولهذا جاء في الحديث عـن ابـن عمـر رضـي الله عنهمـا قـال : قـال رسـول الله ﷺ : (إذا تبايعتم بالعِينة[3] ، وأخذتم أذناب البقر[4] ، ورضيتم بالزرع ، وتركتـم الجهـاد ، سلّط الله عليكم ذلاً ، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[5] .

والنفس الذليلة لا تصلح لعمل ، ولا يُرجى منها خير ، إلا إذا تخلـت عـن أسـباب هـذه

---

(١) ينظر : كتاب الجهاد للإمام عبد الله بن المبـارك ص/١٤٩

وحاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص/٤٤ ، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٣/١٦٨ .

(٢) سورة المنافقون / من الآية ٨ .

(٣) أي وجهتم همكم للبيع والشراء وكسب المال، والعينة أن يبيع الرجل لغيره سلعة ثم يشتريها منه بثمن أقل.

(٤) معناه : اتخذتم الماشية للحرث والري وعكفتم على ذلك فلم تنشغلوا إلا به .

(٥) رواه أبو داود في البيوع ـ باب في النهي عن العنية ـ رقم /٣٤٦٢ ، وهو حديث صحيح كما قال محقق جامع الأصول ١١/٧٦٥ .

الذلة وعرفت أن الحياة الكريمة لا تكون إلا بالإقبال على الآخرة وبذل النفس لإعلاء كلمة الله سبحانه .

وبهذا يتضح أن الجهاد وإن كان شاقاً على النفس إلا أنه وسيلة عظمى لصلاحها وتزكيتها ، ومن جاهد فإنما يعود نفع ذلك على نفسه والله غني عن عمله ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين** ﴾[1] .

ولذلك كان الفرق كبيراً عند الله سبحانه بين من جعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه لا يعمل إلا لها ولا يفكر إلا من أجلها ، وبين من جعل همَّه الأكبر الدعوة لهذا الدين والبذل من أجله والتضحية في سبيله .

ـ فالفريق الأول بعيد عن الله وقريب من أهل الكفر والنفاق لأنه يسلك مسلكهم ويتصف ببعض صفاتهم ، وهذا ما أوضحته الآية الكريمة ،وهي قوله تعالى : ﴿ **إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون** ﴾[2] .

وما أشار إليه الحديث النبوي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من مات ولم يَغْزُ ولم يُحدِّث به نفسه ، مات على شعبة من نفاق)[3] .

قال الإمام النووي : (المراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد في هذا الوصف ، فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق)[4] ، وذلك لأنه مشغول بدنياه لا يفكر إلا فيها .

ـ والفريق الثاني هو الذي سلك سبيل الهداية مع السالكين ، وعرف أن أعظم ما ينبغي للمسلم أن يهتم به ويسلك طريقه لتزكو نفسه ويُرضي ربه هو الجهاد بأنواعه ، وبذلك يحظى بالبشارة العظمى وهي قوله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾[5] .

---

(١) سورة العنكبوت / آية ٦ .

(٢) سورة يونس / الآيتان ٧ ـ ٨ .

(٣) رواه مسلم ـ كتاب الإمارة ـ باب ذم من مات ولم يغزُ ـ رقم /١٩١٠ .

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٥٦/١٣ .

(٥) سورة العنكبوت / آية ٦٩ .

المبحث السادس

النوافل

تلاوة القرآن الكريم ، الذكر والدعاء ، قيام الليل

النوافل باب عظيم من أبواب الخير ، وميدان كبير للمسابقة في الطاعات ، ونعمة عظمى أكرم الله بها عباده ليزدادوا منه تقرباً ويحظوا بالرحمة والرضوان ، ويزكّوا بها أنفسهم ويحيوا قلوبهم .

ولقد جاء في الحديث القدسي الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (إن الله عز وجل قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنّه)[1] .

ولقد سبق الحديث في المباحث الماضية عن بعض النوافل المتصلة بالفرائض ، كنوافل الصلاة والصدقة ، وصيام التطوع ، مع بيان مالها من آثار عظيمة في تزكية النفس ، ولذلك سنقتصر في هذا المبحث على أربع من النوافل التي تُعد من أعظم روافد التزكية وأجلّ وسائلها وهي : تلاوة القرآن الكريم والذكر والدعاء وقيام الليل .

فإذا أراد العبد أن يتقرب من مولاه وأن يغذّي شجرة الإيمان في قلبه فليسارع إلى هذه النوافل ، وليكثر منها ما استطاع ، وليجاهد نفسه على ذلك ، حتى ترتقي تلك النفس وتصل إلى مقام تذوق معه حلاوة الإيمان ، ويصبح إقبالها على هذه النوافل طبيعة وملكة ، تجد فيها الأُنس والراحة ولا تصبر على فراقها في حضر ولا سفر .

وقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة على عظيم فضل هذه النوافل ، والمنزلة السامية التي يحظى بها أهلها وما يمنحهم الله تعالى من مضاعفة الأجر ورفع الدرجات ، وأنها من أعظم التجارة الرابحة التي يكرم الله بها بالأجر الجزيل على العمل اليسير .

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب التواضع – ٧/١٩٠ .

- ففي فضل تلاوة القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور** ﴾(1) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ﴿ الٓمٓ ﴾ حرف ، ولكن ألفٌ حرف ولامٌ حرف ، وميمٌ حرف)(2) .

- وفي فضائل الذكر والحث عليه قال تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾(3) ، وقال سبحانه : ﴿ **والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدَّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾(4) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم)(5) .

- وفي فضائل الدعاء ومنزلته قال تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون** ﴾(6) .

وقال سبحانه : ﴿ **وقال ربكم ادعوني أستجب لكم** ﴾(7) .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوةٍ إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، فقال رجل من القوم : إذاً نُكثر قال : الله أكثر)(8) .

---

(1) سورة فاطر / الآيتان ٢٩-٣٠ .

(2) رواه الترمذي في فضائل القرآن - رقم /٢٩١٠ ، وقال حسن صحيح .

(3) سورة البقرة / آية ١٥٢ .

(4) سورة الأحزاب / من الآية ٣٥ .

(5) رواه البخاري في الدعوات - باب فضل التسبيح - ١٦٨/٧ ، ومسلم في الذكر والدعاء ، باب فضل التهليل والتسبيح - رقم /٢٦٩٤ .

(6) سورة البقرة / آية ١٨٦ .

(7) سورة غافر / من الآية ٦٠ .

(8) رواه الترمذي في الدعوات - باب انتظار الفرج - رقم / ٣٥٧٣ ، وقال حديث حسن صحيح - وصححه الحاكم ٤٩٣/١ ، ووافقه الذهبي .

أي : أكثر إحساناً مما تسألون ، وفي رواية للحاكم : (أو يدخر له من الأجر مثلها) .

- وفي **فضائل قيام الليل** والثناء على أهله قال تعـالى : ﴿ **إن المتقـين في جنـات وعيـون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعـون ، وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً** ﴾[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل)[3] .

كما بيَّن الرسول ﷺ أهمية قيام الليل في استكمال شـخصية المسلم وبلوغـه مقامـات القرب من ربه ، وذلك حينما أرشد عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال : (نِعم الرجـل عبد الله لو كان يصلي من الليل ، " قال سالم بن عبد الله : " فكان عبـد الله بعـد ذلـك لا ينام من الليل إلا قليلاً)[4] .

*** ولكي تحقق هذه النوافل دورها في تزكية النفس لابد أن يتوفر فيها مايلي:**

١ ـ ترك الإصرار على المعاصي .
٢ ـ حضور القلب .

ولنبدأ بالشرط الأول :

ترك الإصرار على المعاصي :

الإصرار على المعاصي والإنغماس فيها له آثـار سيئة علـى النفـس والقلـب ، ولا يمكـن للعبد أن يحظى بالقرب من الله تعالى وينال بركة الطاعات وثمرات العبادات وهو غـافل عـن ربه منغمس في المحرمات .

يقول الإمام ابن القيم يرحمه الله : (إن الذنوب والمعاصي تضر ، ولا بد أن ضررهـا في القلـب كضـرر السـموم في الأبـدان ، علـى اختـلاف درجاتهـا في الضـرر ، وهـل في الدنيـا

---

(١) سورة الذاريات / الآيات ١٥-١٨ .
(٢) سورة السجدة / من الآية ١٦ .
(٣) رواه مسلم في الصيام ـ باب فضل صوم المحرم – رقم /١١٦٣ .
(٤) رواه مسلم في فضائل الصحابة – رقم /٢٤٧٩ .

والآخرة شر وداءٌ إلا سببه الذنوب والمعاصي ؟)[1] .

وأبرز أضرار المعاصي التي يصر صاحبها عليها ولا يبادر إلى التوبة منها ، أنها تجعل القلب مظلماً مسوداً ، وتحجبه عن التأثر بالذكر والدعاء وسائر العبادات ، وتحرمه من الانتفاع بها .

وهذا ما أوضحه الحديث النبوي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتت في قلبه نُكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها ، حتى تعلو قلبه ، وهو الران الذي ذكر الله عزوجل : ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾[2])[3] .

فالذنوب إذا كثرت تُعمي القلب وتميته وتجعله منكوساً لا يتأثر بموعظة ، ولا يخشع لدعاء أو ذكر أو تلاوة للقرآن ، فهو كالإناء أو الكوز المقلوب الذي لم يبق فيه شيء من ماء وإذا أردت أن تضع فيه شيئاً تساقط على جوانبه[4] .

يقول الإمام ابن القيم يرحمه الله : (إن القلب يصدأ من المعصية ، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير راناً ، ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلاً وختماً ، فيصير القلب في غشاوة وغلاف ، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله)[5] .

ولهذا كان لابد لمن أراد أن يتقرب إلى الله تعالى بالنوافل ويزكي نفسه بها ، أن يتخلى عن المعاصي وبخاصة الكبائر حتى ينفتح القلب للطاعة ويحيا بها ، ويُوفَّق للإكثار منها ، ويجد الهمة والنشاط في أدائها .

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في بيانه للطريق الذي يزكو به القلب : (وكذلك ترك المعاصي ، فإنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن ، ومثل الدغل في الزرع .. وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغاً من تخليطاته .. فتخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة واستراح القلب)[6] .

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم - ص /٤٣ .

(٢) سورة المطففين / آية ١٤ .

(٣) رواه الترمذي - كتاب تفسير القرآن - باب /٧٤ ، رقم /٣٣٣٤ ، وقال حديث حسن صحيح - وصححه ابن حبان - رقم /٢٤٤٨ ، والحاكم ٥١٧/٢ ، ووافقه الذهبي .

(٤) ينظر : تفصيل ذلك في الباب الرابع عند الحديث عن صحة القلب ومرضه - ص /٣٤٢ .

(٥) الجواب الكافي - ص/٦٣ .

(٦) مجموع الفتاوى ٩٦/١٠-٩٧ .

وما أحسن قول الإمام عبد الله بن المبارك يرحمه الله :

رأيت الذنوبُ تميت القلوبَ وقد يُورثُ الذلَّ إدمانها
وتركُ الذنوبِ حياةُ القلوب وخيرٌ لنفسكَ عصيانها[1]

ومن أبرز المعاصي التي تُقسِّي القلب ، وتحرم العبد من أنوار الطاعة وآثارها : أكل المال الحرام ، وقد ورد في ذلك الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ..) إلى قوله : (ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمدُّ يديه إلى السماء يا ربُّ يا ربُّ ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِيَ بالحرام ، فأنَّى يستجاب له ؟)[2] .

وفي هذا الحديث بيان لحال هذا الرجل الذي يدعو ربه وهو متحقق بكثير من آداب الدعاء والأسباب التي تقتضي الإجابة ، فهو يطيل السفر وهذا مظنة حصول انكسار النفس بطول الغربة وتحمل الشاق ، ثم هو أشعث أغبر خرج متواضعاً متذللاً ، كما أنه يمدُّ يديه ويرفعهما إلى السماء بإلحاح وتضرع ، " والله سبحانه حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما خائبتين "[3] ، ثم إن هذا الرجل يلح في دعائه بتكرير ذكر ربوبية الله عز وجل (يا رب يارب) وهو من أعظم ما يُطلب به إجابة الدعاء[4] ، ومع كل ذلك سُدَّت أبواب الإجابة في وجهه لأنه كان يأكل المال الحرام ويتغذى به ، وهذا يشير إلى تعلقه وحرصه الشديد على الدنيا وأموالها والتنافس فيها .

فمن أراد أن يتقرب إلى الله سبحانه بالذكر والدعاء فليلزم طاعته وليبتعد عن طريق المعاصي وبخاصة الكسب الحرام لينال الخيرات وتَنزُّل الرحمات .

ولهذا قال سعيد بن جبير رحمه الله : (الذكر طاعة الله ، فمن أطاع الله فقد ذكره ، ومن لم يطعه فليس بذاكر ، وإن أكثر التسبيح وتلاوة الكتاب)[5] .

---

(١) الجواب الكافي ـ ص/٦٣ .

(٢) رواه مسلم ـ كتاب الزكاة ـ باب قبول الصدقة من الكسب الطيب ـ رقم/١٠١٥ .

(٣) رواه ابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب رفع اليدين في الدعاء ، رقم/٣٨٦٥ ، والإمام أحمد في مسنده ٥/ ٤٣٨ .

(٤) ينظر : جامع العلوم والحكم ، للإمام ابن رجب ، ص/ ٩٠ ـ ٩٢.

(٥) شرح السنة للإمام البغوي ٥/١٠ .

الشرط الثاني : حضور القلب :

إذا حرص العبد على اجتناب المعاصي ، وسارع إلى التوبة مما اقترفه منهـا ، فـإن القلـب يُغسل من أدرانه ، ويلين من قسوته ، وما على صاحبه إلا أن يبادر إلى الطاعات ويكـثر مـن النوافل ، ليكون ذلك دواء لهذا القلب الذي أسقمته المعاصي وأوهنته الذنوب .

وأعظم غذاء للقلب يعيد إليه حياته ويقظته ذكر الله تعالى مع التدبر والخشوع والتفكـر وذلك بتلاوة القرآن الكريم والتسبيح والتحميد والتهليل والدعاء ونحو ذلـك ، وبغـير التدبـر وحضور القلب لا ينال العبد ما يرجوه من ثمرات .

قال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾[(١)] .

وقال سبحانه : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾[(٢)] .

وقد ذم الله سبحانه قسوة القلب والغفلة عن ذكره وحض على الخشوع والتدبر ، فقال تعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم مـن ذكر الله أولئك في ضلال مبين ، الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلـك هـدى الله يهـدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾[(٣)] .

كما بين سبحانه أن هذا القرآن لو أنزل على الجبـال القاسية لخشـعت وتصدعـت مـن خشية الله ، فقلب المؤمن أحق بالخشوع وأجدر .

قال تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعـاً مـن خشـية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾[(٤)] .

ولذلك ينبغي للعبد أن يستجلب الخشـوع في ذكـره وتلاوتـه للقرآن وأن يحضر قلبـه

---

(١) سورة ص / آية ٢٩ .

(٢) سورة محمد / آية ٢٤ .

(٣) سورة الزمر / الآيتان ٢٢ - ٢٣ .

(٤) سورة الحشر / آية ٢١ .

ويبعد عنه الغفلة ليحصل له المقصود .

قال الإمام النووي : (المراد من الذكر حضور القلب ، فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر فيحرص على تحصيله ، ويتدبر ما يذكر ، ويتعقل معناه)[١] .

فالذكر والغفلة لا يجتمعان لأن الذكر لا يكون إلا بالتيقظ والتذكر، ولهذا قال الإمام المحاسبي:

(التيقظ أصل كل خير ، كما أن الغفلة أصل كل شر)[٢] .

ولهذا كان الفرق كبيراً بين من يذكر ربه مع حضور القلب ، وبين من يغفل عن ذكر الله سبحانه وقد بين ذلك الحديث النبوي الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت)[٣] .

فالذكر حياة للقلب وتنوير له ، والغافل عن الذكر شبيه بالأموات لأن الغفلة تميت القلب ، ولذلك كان الطريق الأساسي لحياة القلب وتزكية النفس استجلاب الخشوع وطرد الغفلة ، ومجاهدة النفس على كمال الخشوع وصدق التوجه إلى الله سبحانه في عبادته ، وهذا ما دعانا إليه ربنا سبحانه بقوله تعالى : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولايكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** ﴾[٤] .

وقد روى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين)[٥] ، وفي رواية للنسائي : (فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضاً)[٦] .

وكما أن الذكر وتلاوة القرآن الكريم لا بد فيهما من حضور القلب ، فكذلك الدعاء لا بد له من قلب يقظ وتوجه صادق .

---

(١) الأذكار للإمام النووي ـ ص / ٣٤ .

(٢) آداب النفوس للإمام الحارث المحاسبي ـ ص / ٦٢ .

(٣) رواه البخاري في الدعوات ـ باب فضل ذكر الله ١٦٨/٧ ومسلم في المسافرين ـ باب استحباب النافلة ـ رقم / ٧٧٩ .

(٤) سورة الحديد / آية ١٦ .

(٥) رواه مسلم في التفسير ـ باب في قوله تعالى ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا** ﴾ ـ رقم / ٣٠٢٧ .

(٦) رواه النسائي

ولقد سبق الحديث في مبحث الصلاة عن الخشوع والتدبر والأسباب المساعدة لحصوله، ولكن الذي ينبغي التركيز عليه هنا **لاستجلاب الخشوع وحضور القلب** أمور عديدة ، من أبرزها :

١ ـ التدبر . ٢ ـ البكاء . ٣ ـ اغتنام فترات النشاط والراحة .

٤ ـ اغتنام الأوقات والأماكن الفاضلة .

أولاً : التدبر .

التدبر[١] هو الفهم لما يتلو العبد من قرآن وما ينطق به من ذكر ودعاء ونحو ذلك ولو بشكل مجمل ، والتأمل في معانيها ومراميها ، وأن يقيس المسلم نفسه على ما يتلوه من الأوامر والنواهي ليجد حاله ويعرف تقصيره ، وبذلك يستحضر الخشية من الله سبحانه ويخشع قلبه وتسكن جوارحه ويجتهد في الطاعة .

ولذلك يستحب للعبد أن يكرر بعض الآيات الكريمة ويرددها أثناء تلاوته ليكون ذلك أدعى للتدبر والخشوع .

روى النسائي عن أبي ذر رضي الله عنه قال : (قام النبي ﷺ بآية يرددها حتى أصبح ، وهي قوله تعالى : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك** ﴾[٢])[٣] .

وعن تميم الداري رضي الله عنه أنه كرر هذه الآية حتى أصبح ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾[٤])[٥] .

وعن عباد بن حمزة قال : (دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ : ﴿ **فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السَّموم** ﴾[٦] فوقفتُ عندها فجعلت تعيدها وتدعو ، فطال عليَّ ذلك،

---

(١) أصل التدبر لغة : التفكر في دبر الأمور ، أي في عواقبها وما تؤول إليه .

(٢) سورة المائدة / من الآية ١١٨ .

(٣) رواه النسائي ـ ٢/١٧٧ .
وابن ماجه ـ باب ما جاء في القرآن في صلاة الليل ـ رقم / ١٣٥٠

(٤) سورة الجاثية / من الآية ٢١ .

(٥) التبيان في آداب حملة القرآن ـ للإمام النووي ـ ص / ٦٧ .

(٦) سورة الطور / آية ٢٧ .

فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي ، ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو)[1] .

وكما يطلب التدبر عند تلاوة القرآن الكريم وسماعه ، فإنه يطلب عند ذكر الله تعالى ، وذلك بأن يستحضر العبد عظمة ربه ، ويتفكر في مخلوقاته وبديع صنعه وآلائه ونعمه ، ويستشعر مقام العبودية والتذلل لخالقه ، وهذا ما أرشد الله إليه عباده بقوله سبحانه :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾[2] .

وكذلك يطلب التدبر عند الدعاء ، بأن يتخير العبد من الدعاء المأثور ما يُحرِّك به قلبه ويلِّين قسوته ، ويدعو ربه متواضعاً متذللاً بين يديه ، ويسأله حاجته كلها وهو موقن بالإجابة .

ثانياً ـ البكاء :

البكاء صفة الخاشعين عند تلاوة القرآن الكريم أو سماع آياته ، وعند ذكر ربهم أو دعائه، وعند الوقوف بين يدي مولاهم في الصلوات ، فهو ثمرة للخشوع وحضور القلب ، كما أنه طريق لاستجلاب الخشوع وإيقاظ القلب .

وقد وصف ربنا سبحانه حال عباده الأبرار فقال تعالى : **﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجَّداً وبُكِيّاً ﴾**[3] .

وقال تعال: **﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سُجَّداً ويقولون سبحان ربنا إنْ كان وعد ربنا لمفعولاً ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾**[4] .

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ آيات من سورة النساء على الرسول ﷺ فقال : (حسبك الآن ، فالتفتُّ فإذا عيناه تذرفان)[1] .

---

(١) التبيان للإمام النووي ـ ص / ٦٧ .

(٢) سورة آل عمران / الآيتان ١٩٠ ـ ١٩١ .

(٣) سورة مريم / من الآية ٥٨ .

(٤) سورة الإسراء / الآيات ١٠٧ ـ ١٠٩ .

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن ـ باب قول المقرئ للقارئ حسبك ١١٣/٦ ، ومسلم في صلاة =

وهكذا كان حال الرسول ﷺ والصحابة والسلف الصالح في تلاوتهم للقرآن الكريم وذكرهم لله تعالى لهم فيه حنين وأنين ونشيج وبكاء ، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفيرجهنم بين أذنه

فإن لم يجد العبد هذا الخشوع ، ولم تسل دموعه بالبكاء ، فليجاهد نفسه وليتباك مستحضراً خشيته من ربه ، فإن هذا التباكي طريق لحضور القلب .

وهذا ما أوصى به الرسول ﷺ أمته كما ورد في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : (اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا)[1] .

ولهذا قال الإمام السيوطي : (يستحب البكاء عند قراءة القرآن ، والتباكي لمن لا يقدر عليه ، والحزن والخشوع)[2] .

كما بين الإمام الغزالي الطريق لاستجلاب البكاء واستحضار الخشوع وهو أن يحضر في قلبه الحزن بأن يتأمل ما في القرآن من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ، ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي ، فإن لم يحضره حزن وبكاء فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصائب[3] .

ثالثاً ـ اغتنام فترات النشاط والراحة :

لا يمكن للنفس أن تبقى على حالة واحدة من النشاط والهمة ، فالمشاغل والمتاعب والأمراض والأكدار تفقد النفس نشاطها ، فإذا أراد العبد أن يستحضر الخشوع في قلبه في هذه الحالات قد لا يجد إلى ذلك سبيلاً ، ولا بد له من بعض الراحة والترويح عن النفس حتى يجدد نشاطه ، وعندها يُحضر قلبه وتطمئن نفسه ، وهذا ما أرشد إليه الرسول ﷺ في **أحاديث كثيرة منها :**

= المسافرين باب فضل استماع القرآن ـ رقم / ٨٠٠ .

(١) رواه ابن ماجه ـ كتاب الزهد ـ باب/١٩ـ رقم / ٤١٩٦ ، وكتاب إقامة الصلاة ـ رقم/١٣٣٧ وقال الحافظ العراقي في تخريجه على الإحياء (٢٧٧/١) : إسناده جيد .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢٩٧/١ .

(٣) إحياء علوم الدين ٢٧٧/١ .

- ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ (يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تَملُّوا)[1] .

وقد بين الإمام النووي رحمه الله ما يرشد إليه هذا الحديث فقال : (في هذا الحديث كمال شفقته ﷺ ورأفته بأمته لأنه أرشدهم إلى ما يصلحهم وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة ولا ضرر ، فتكون النفس أنشط والقلب منشرحاً)[2] .

- وعن أنس رضي الله عنه قال : دخل النبي ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين ، فقال: ما هذا الحبل ؟ قالوا : هذا حبل لزينب ، فإذا فترت تعلقت به ، فقال النبي ﷺ : حلُّوه، ليصل أحدكم نشاطه ، فإذا فتَر فليرقد)[3] .

- وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : (إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب النوم ، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه)[4] - أي يدعو عليها - .

- وعن جندب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا)[5] .

قال الإمام ابن كثير في شرحه لهذا الحديث : (معنى الحديث أنه عليه الصلاة والسلام أرشد وحض أمته على تلاوة القرآن إذا كانت القلوب مجتمعة على تلاوته ، متفكرة فيه ، متدبرة له ، لا في حال شغلها وملالها ، فإنه لا يحصل المقصود من التلاوة بذلك ، كما ثبت في الحديث " عليكم بما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا "[6])[7].

---

(١) صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين - باب فضيلة العمل الدائم - رقم / ٧٨٢ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٧١/٦ .

(٣) رواه البخاري في أبواب التهجد - باب ما يكره من التشديد في العبادة - ٤٨/٢ ، ومسلم في صلاة المسافرين باب أمر من نعس في صلاته أن يرقد رقم /٧٨٤.

(٤) رواه البخاري في الوضوء - باب الوضوء من النوم - ٦٠/١ ، ومسلم في الباب السابق نفسه رقم / ٧٨٦ .

(٥) رواه البخاري في فضائل القرآن - باب اقرؤوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم - ١١٥/٦ .

(٦) رواه البخاري في الرقاق ١٢٢/٨ وفي الصوم ٥٠/٣ ، ومسلم - رقم / ٧٨٥ .

(٧) فضائل القرآن للإمام ابن كثير - ١١٥/٦ .

فالعبد الموفق هو الذي يغتنم أوقات صحته ونشاطه وفراغه في الإقبال على الطاعات والإكثار من النوافل ، لأنه سيجد سهولة في استحضار الخشوع واستجلاب الدموع قد لا يجدها في أوقات التعب والإرهاق .

ومن فرط في هذه الأوقات فهو المغبون ، وهذا الغبن أشد مما يتعرض له التجار في تجاراتهم المادية من خسائر فادحة لأن الأموال تعوَّض والأوقات لا تعوض .

وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (نعمتان مغبون فيهما كثر من الناس : الصحة والفراغ)[1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه : (اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك)[2] .

وما أحسن قول الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله :

اغتنم ركعتين زُلفى إلى الله   إن كنت فارغاً مستريحاً
وإذا ما هممت بالنطق بالبا   طل ، فاجعل مكانه تسبيحاً[3]

ومن الآفات التي يقع فيها كثر من المسلمين أنه إذا لمس أحد من نفسه نشاطاً يؤهله لحضور القلب مع ربه في صلاة أو ذكر أو دعاء جاءه الشيطان يسوِّف له ، ويذكّره بأنواع من المشاغل والأعمال ليصده عن طاعة الله .

ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله : (إياك والتسويف ، فإنك بيومك ولستَ بغدك ، فإن يكن غدٌ لك فكن في غد كما كنت في اليوم ، وإن لم يكن لك غد لم تندم على ما فرطتَ في اليوم)[4] .

---

(١) رواه البخاري في الرقاق ـ باب الصحة والفراغ ـ ٧/١٧٠ .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤/٣٠٦) وصححه ووافقه الذهبي . وصححه الألباني في حاشية (اقتضاء العلم العمل) للخطيب البغدادي ـ ص / ١٠٠ .

(٣) طبقات الشافعية للإمام تاج الدين السبكي ١/٢٨٦ .

(٤) اقتضاء العلم العمل للإمام الخطيب البغدادي ـ ص / ١١٣ .

رابعاً ـ اغتنام الأوقات والأماكن الفاضلة :

لقد اختص الله سبحانه بعض الأوقات والأماكن بمزيد من الفضل ، وجعلها موطناً لتنزل الرحمات واستجابة الدعوات ، فإذا حرص المؤمن عليها وتعرض لها كان ذلك أدعى لحضور القلب والخشوع والتأثر ، ومن هذه الأوقات الثلث الأخيرمن الليل وساعة الإجابة في كل ليلة .

فعن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة)[1] .

ـ وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قيل لرسول الله ﷺ : أي الدعاء أسمع ؟

قال : (جوف الليل الآخر ودُبر الصلوات المكتوبات)[2] .

كما أن شهر رمضان المبارك فرصة عظيمة للاستزادة من الذكر والدعاء وتلاوة القرآن الكريم وقيام الليل ، فهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار ، وفيه ليلة القدر خير من ألف شهر ، فمن بادر إلى الطاعات في هذه الأوقات أكرمه الله بتنزل الرحمات فيخشع قلبه ويتذوق حلاوة الطاعة ، ويحظى بآثارها في تزكية نفسه واستقامة سلوكه .

وأما الأماكن فأفضلها بيت الله الحرام بجوار الكعبة المشرفة ومسجد النبي ﷺ الذي يحوي روضة من رياض الجنة ، فيا سعادة من وفقه الله لذكره وعبادته في تلك البقاع المباركة التي يخشع فيها القلب وتذرف فيها الدموع .

ولا شك أن المساجد عموماً مواضع لتنزل الرحمات ، فمن كان يشكو من قسوة قلبه فليسارع إلى المسجد ، وليجلس فيه بتواضع وسكينة يدعو ربه ويذكره ويتلو آياته ، ويجاهد نفسه على الخشوع والتدبر، وإذا به يجد قلبه حاضراً وقد طُردت منه الغفلة وحلت فيه الطمأنينة.

وهكذا نجد أن حضور القلب يسيرٌ على من يسّره الله عليه ، وأن الذي يبذل جهده ليبعد الغفلة عن قلبه لا بد أن يتخذ لذلك الأسباب حتى لا يكون الذكر والدعاء حركة

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين ـ باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء ـ رقم / ٧٥٧ .

(٢) رواه الترمذي ـ كتاب الدعوات ـ باب / ٧٩ ـ رقم / ٣٤٩٩ وقال : حديث حسن .

باللسان لا يصحبها الَجنان .

وهنا قد يرد سؤال :

إذا كان المسلم لا يجد خشوعاً في الذكر ولا يحضر قلبه فيه فهل يتركه لأنه قليل الجدوى ؟!

والجواب أن الذكر مع غفلة القلب خير من السكوت ، لأنه انشغال عضو بطاعة ا لله وهو على الأقل يحجز هذا العضو ـ وهو اللسان ـ عن المعصية ، فالذكر وإن كان مع الغفلة تحصين للّسان من آفاته ، ولعل القلب يتحرك بالخشوع ساعة ما ، فيترقى هذا الذكر إلى ذكر القلب واللسان ، ولو أن اللسان توقف عن الذكر فإن القلب سيزداد غفلة ، وينجرف المرء مع دوامة الحياة ، وقلما يخطر على باله ذكر ربه(١) .

ولا شك أن الذكر ليس مقصوراً على التسبيح والتحميد ونحوهما ، وإنما هو شامل لكل طاعة يتلفظ بها اللسان مع حضور القلب ، ولهذا قال الإمام ابن تيمية رحمه ا لله :

(إن كل ما تكلم به اللسان وتصوّره القلب مما يقرِّب إلى ا لله من تعلم علم وتعليمه ، وأمر بمعروف ونهي عن منكر فهو من ذكر ا لله)(٢) .

آثار النوافل في مجال تزكية النفس :

عندما يبادر العبد إلى الإكثار من الذكر والدعاء وتلاوة القرآن الكريم والاستماع إليه ، واغتنام الساعات الفاضلة في قيام الليل ، ويجاهد نفسه على الخشوع والتدبر وحضور القلب، فإن ذلك من أعظم القربات إلى ا لله تعالى ، وله آثار عظيمة في تزكية النفس وترقيتها في مقامات الكمال .

وقد سبقت الإشارة في المباحث الماضية إلى آثار كثير من العبادات ، وهي أيضاً بلا شك آثار وثمرات لهذه النوافل من ذكر ودعاء وغيره ، كما أنها آثار لغيرها من العبادات التي تشمل جوانب حياة المسلم ومجالاتها .

---

(١) ينظر كتاب : الجانب العاطفي من الإسلام للشيخ محمد الغزالي ـ ص / ٨٣ .

(٢) مجموع الفتاوى ٦٦١/١٠ .

ولذلك سنقتصر هنا على أبرز آثار تلك النوافل التي تتصل بشكل مباشر بالتزكية وهي:

١ ـ المناجاة بين العبد وربه ، والتحقق بمقام العبودية :

أعظم ما يظفر به العبد من آثار الذكر والدعاء والتلاوة أنه يناجي ربه ويزداد منه تقرباً ويتحقق بمقام العبودية الحقة التي تعلي قدر صاحبها وتجعله في معية الله سبحانه .

وهذا مصداق قول الحق سبحانه : ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾[(١)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني . إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم ، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)[(٢)] .

قال الإمام الشوكاني رحمه الله : (قوله " وأنا معه حين يذكرني " فيه تصريح بأن الله سبحانه وتعالى مع عباده عند ذكرهم له ، ومن مقتضى ذلك أن ينظر إليهم برحمته ، ويمدهم بتوفيقه وتسديده ، فإن قلت : هو مع جميع عباده ، كما قال سبحانه : ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾[(٣)] .. قلت : هذه معية عامة ، وتلك معية خاصة حاصلة للذاكر على الخصوص ، بعد دخوله مع أهل المعية العامة ، وذلك يقتضي مزيد العناية ووفور الإكرام له والتفضل عليه ومن هذه المعية الخاصة ما ورد في الكتاب العزيز من كونه مع الصابرين وكونه مع الذين اتقوا)[(٤)] .

ـ ومن أعظم أنواع الذكر تلاوة القرآن الكريم ، فمن أراد أن يناجي ربه فليقرأ القرآن، فهو كلام الله سبحانه ، وكلما عظمت محبة الله في قلبك كان إقبالك على تلاوة كتابه أعظم ، مع استحضار الخشية منه سبحانه ، وتدبر القرآن طريق للتحقق بالعبودية الصادقة والإيمان الكامل .

---

(١) سورة البقرة / آية ١٥٢ .

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء ـ باب الحث على ذكر الله تعالى ـ رقم / ٢٦٧٥ .

(٣) سورة الحديد / من الآية ٤ .

(٤) تحفة الذاكرين للإمام الشوكاني ـ ص / ١١ .

- وأما الدعاء فهو من أجلى مظاهر العبودية والمناجاة لله سبحانه ، ولهذا أمر الله به وتوعد من يستكبر فيترك الدعاء وكأنه مستغن عن ربه .

قال تعالى : ﴿ **وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين** ﴾[1] .

قال الإمام ابن كثير : (يستكبرون عن عبادتي ، أي : عن دعائي وتوحيدي)[2] .

ولذلك ورد في الحديث عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (الدعاء هو العبادة)[3] .

فما أعظم النعمة التي أكرمنا الله بها ، وهي التقرب إليه ومناجاته بالدعاء ، فالعبد مفتقر إلى مولاه الذي خلقه ورزقه وأغدق عليه النعم ، ثم أمره أن يدعوه ويسأله المزيد من كل خير ووعده بالإجابة ، وجعل هذا الدعاء - الذي هو لمصلحة العبد - عبادة يثيبه عليها ، فكيف يترك العبد سؤال ربه وهو مالك الملك ، ويسأل العباد وهم لا يملكون له نفعاً ولا ضراً إلا بإذن الله ؟ !

وما أحسن قول الشاعر :

لا تسألن بُنيَّ آدم حاجة — وسل الذي أبوابه لا توصد
الله يغضب إن تركت سؤاله — وبُنيَّ آدم حين يسأل يغضب

فليستحضر المسلم عظمة مناجاته لربه وهو يدعوه ويرجوه ويتذلل بين يديه ، فيجد لذة المناجاة وحلاوة الطاعة ، وبخاصة في ساعات الليل الأخيرة التي يأنس بها العباد الصادقون في تقربهم لربهم وخشوعهم بين يديه .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ،

---

(١) سورة غافر / آية ٦٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٨٦/٤ .

(٣) رواه أبو داود - رقم / ١٤٧٩ والترمذي - رقم / ٢٩٧٣ وقال : حديث حسن صحيح ، وصححه الحاكم في المستدرك ٤٩٠/١ ووافقه الذهبي .

ومن يسألني فأعطيه ، ومن يستغفرني فأغفر له)[١] .

وفي رواية : (من يقرض غير عديم[٢] ولا ظلوم)[٣] .

وهذا غاية التفضل منه سبحانه على عباده والمؤانسة لهم ، فهو سبحانه خالق الخلق وموفقهم إلى طاعته ، ومع ذلك سمى طاعة العبد لمولاه قرضاً ، والله غني عن العالمين لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ، ولكنه يدعونا لاغتنام تلك الساعات في جوف الليل لندعوه ونناجيه ونزكي أنفسنا بالتقرب منه ، ونتحقق بمقام العبودية الصادقة لله عز وجل .

ولذلك روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطّر رجلاه ـ وفي رواية : حتى ورمت قدماه ـ قالت عائشة : يارسول الله ، أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: ياعائشة أفلا أكون عبداً شكوراً)[٤].

٢ ـ غذاء القلب وزيادة الإيمان :

وصف الله عباده المؤمنين بأوصاف كثيرة في تأثرهم بالذكر وتلاوة القرآن الكريم وسماعه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** ﴾[٥] .

وقوله سبحانه : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون** ﴾[٦] .

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يجتمعون على ذكر الله وتلاوة القرآن ليزدادوا إيماناً وخشية من الله سبحانه وينوروا قلوبهم بذكره وشكره ، **وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة** ، من أبرزها :

---

(١) رواه البخاري في الدعوات ـ باب الدعاء نصف الليل ـ ١٤٩/٧ .
ورواه مسلم في صلاة المسافرين ـ باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل رقم/٧٥٨ واللفظ لمسلم.

(٢) عديم : من قولهم أعدم الرجل إذا افتقر فهو معدم وعديم . (شرح النووي على مسلم ٣٨/٦) .

(٣) رواه مسلم ـ رقم / ٧٥٨ .

(٤) رواه مسلم ـ كتاب صفة المنافقين وأحكامهم ـ باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة ـ رقم / ٢٨٢١ .

(٥) سورة الأنفال ـ آية / ٢ .

(٦) سورة التوبة / آية ١٢٤ .

- عن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه ، فقال :

(ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا ، قال آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك .

قال : أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتاني جبرائيل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة)[1] .

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال : **تعال نؤمن بربنا ساعة** ، فقال ذات يوم لرجل فغضب الرجل، فجاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة ، فقال النبي ﷺ : يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة)[2] .

- وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه : يا أبا موسى ذكّرنا ربنا ، فيقرأ وهم يسمعون ويبكون[3] .

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله : (ولهذا السماع من المواجيد العظيمة ، والأذواق الكريمة، ومزيد المعارف ، والأحوال الجسيمة ، مما لا يتسع له خطاب ولا يحويه كتاب ، كما أن في تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان ما لا يحيط به بيان)[4] .

ولا شك أن القرآن **منهج لتربية النفس** وتوجيهها إلى طريق سعادتها وهدايتها ، وقد قال المولى سبحانه : ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً** ﴾[5] .

فلقد قرر القرآن الكريم عقيدة التوحيد ورسَّخ مفهومها في النفس ، وحدد معالم الحلال والحرام ، وسلك في التربية أساليب متنوعة من الترغيب والترهيب والوعظ والتذكير ،

---

(١) رواه مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر رقم / ٢٧٠١ .

(٢) رواه الإمام البخاري - كتاب الإيمان -

(٣)

(٤) مجموع الفتاوى ٨١/١٠ .

(٥) سورة الإسراء / الآيتان ٩ - ١٠ .

والتربية من خلال الأحداث والوقائع ، كما دعا إلى تقويم النفوس واستقامة السلوك بما حفلت به آياته من مشاهد القيامة وقصص الأنبياء والسابقين .

قال الإمام الآجري رحمه الله : (المؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن ، فكان كالمرآة يرى بها ما حسُن من فعله وما قبح فيه ، فما حذّره مولاه حذره ، وما خوّفه من عقابه خافه وما رغّب فيه مولاه رغب فيه ورجاه ، فمن كانت هذه صفته أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته ورعاه حق رعايته)[1] .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله : (ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل .. فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما ، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ، ومآل أهلهما .. وتثبّت قواعد الإيمان في قلبه ، وتشيد بنيانه ، وتوطد أركانه ، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه .. وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها.. وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه ، وماله من الكرامة إذا قدم عليه ، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى : ما يدعو إليه الشيطان ، والطريق الموصلة إليه ، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب)[2] .

وكذلك الذكر والدعاء وقيام الليل يغذي القلب ويزيد الإيمان ويوجّه النفس إلى ما فيه صلاحها ، وكثيراً ما تجد أناساً شُغلوا بالدنيا وغفلوا عن ربهم ونسوا ذكره ، وإذا بهم تهتز أعماق قلوبهم وتنفتح أقفالها بسماع دعاء خاشع ، أو صلاة ركعتين في جوف الليل ، أو ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى ، فتزول عن القلب غشاوته ، ويحيا من غفلته .

وقد أرشد الإمام ابن القيم رحمه الله إلى ذلك فقال :

(من تجريبات السالكين التي جربوها فألفوها صحيحة : أن من أدمن " يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت " أورثه ذلك حياة القلب والعقل ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ شديد اللهج بها جداً ، وقال لي يوماً : لهذين الإسمين ـ وهما : الحي القيوم ـ تأثير عظيم في حياة القلب)[3] .

---

(١) أخلاق حملة القرآن للآجري ص / ٣٩ .

(٢) مدارج السالكين ١/٤٥١ ـ ٤٥٢ .

(٣) مدارج السالكين ١/٤٤٨ .

٣ ـ شفاء النفس وغرس الطمأنينة فيها :

من أبرز آثار الذكر والدعاء وتلاوة القرآن الكريم أنها شفاء للنفس من أمراضها ، وبخاصة تلك الأمراض التي أصبحت داء العصر في أيامنا ، وحيَّرت الأطباء وعلماء النفس في كثرتها وانتشارها ، ألا وهي أمراض القلق والكآبة والاضطراب العصبي والكبت ونحو ذلك، فالمؤمن يجد شفاءه وطمأنينة نفسه وهدوء أعصابه بالتوجه إلى خالقه يذكره ويدعوه ويتلو آيات كتابه الكريم.

قال تعالى : ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً** ﴾(١) .

وقال سبحانه : ﴿ **قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء** ﴾(٢) .

وقال عز وجل : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾(٣) .

وكما أن ذكر الله وتلاوة القرآن شفاء للنفس من القلق والكآبة ، فهو أيضاً شفاء للقلب من أمراض الشبهات والشهوات التي إذا ملأت القلب أظلمته وأفسدته ، فإذا تغذى القلب بالذكر والقرآن عاد إلى صفائه ونقائه .

وقد روى الإمام أحمدعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : (عليكم بذكر الله فإنه شفاء ، وإياكم وذكر الناس فإنه داء)(٤) .

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله : (القرآن شفاء لما في الصدور ، ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات .. فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته ، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها ، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي ، ويتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يتغذى البدن بما ينميه ويقوِّمه ، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن)(٥) .

ولعل هذا المعنى الذي أشار إليه الإمام ابن تيمية وهو حاجة القلب إلى غذاء دائم

---

(١) سورة الإسراء / آية ٨٢ .

(٢) سورة فصلت / من الآية ٤٤ .

(٣) سورة الرعد / آية ٢٨ .

(٤) كتاب الزهد – للإمام أحمد بن حنبل – ص / ١٧٩ .

(٥) مجموع الفتاوى ١٠/٩٥ ـ ٩٦ .

بالذكر والدعاء وتلاوة القرآن ، ليكون ذلك تحصيناً له من الأمراض والآفات ، هو أحد الحكم من التأكيد الذي ورد في الكتاب والسنة على الإكثار من الذكر والدعاء ، وما يستحب للمسلم أن يداوم عليه من الأدعية والأذكار المأثورة في الصباح والمساء ، وعند دخول المنزل أو الخروج منه، وعند دخول السوق أو الأكل أو اللبس ، وغير ذلك من أعمال المسلم اليومية ، حتى يبقى القلب في وقاية دائمة من كل مرض ، فإذا أصيب بمرض عارض كانت تلك الأذكار والدعوات البلسم الشافي الذي تطمئن به القلوب وتحيا به النفوس .

ومن بين تلك الأذكار والدعوات المأثورة دعاء الكرب الذي ورد فيه أحاديث عديدة منها:

ما رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نبي الله ﷺ كان يقول عند الكرب – وفي رواية : كان إذا حزبه أمر – قال : (لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم)(١) .

فالمسلم يلجأ إلى الله سبحانه وقت الضيق ليجد المأمن والسكينة ، فلا يفزع ولا يقلق وهو موقن بأن الله معه ، وأنه ناصره ومؤيده ، وأنه يجيب دعاء المضطرين .

قال تعالى : ﴿ **أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء** ﴾(٢) .

ولا شك أن أعظم ما يورث السكينة في النفس ويغسل صدأ القلب الاجتماع على تلاوة القرآن الكريم وتدبره والذكر وطلب العلم وبخاصة في المساجد ، وقد ورد في فضل ذلك أحاديث عديدة منها :

ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (.. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)(٣) .

ـ وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : (لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، ونزلت

---

(١) رواه البخاري في الدعوات ـ باب الدعاء عند الكرب ٧/١٥٤ .
ورواه مسلم في الذكر والدعاء ـ باب دعاء الكرب ـ رقم / ٢٧٣٠ واللفظ لمسلم .

(٢) سورة النمل / من الآية ٦٢ .

(٣) رواه مسلم في الذكر والدعاء ـ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ـ رقم /٢٦٩٩.

عليهم السكينة ، وذكرهم ا لله فيمن عنده)[1] .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة[2] فُضُلاً[3] يتبعون مجالس الذكر ، فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم ، وحفَّ بعضهم بعضاً بأجنحتهم حتى يملؤا ما بينهم وبين السماء الدنيا ، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء ، قال : فيسألهم ا لله عز وجل وهو أعلم بهم : من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عباد لك في الأرض ، يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك .

قال : وما ذا يسألوني ؟ قال : يسألونك جنتك .

قال : وهل رأوا جنتي ؟ قالوا : لا أيْ ربٌّ ! قال : فكيف لو رأوا جنتي ؟

قالوا : ويستجيرونك . قال : وممَّ يستجيرونني ؟ قالوا : من نارك يارب . قال وهل رأوا ناري ؟ قالوا : لا ، قال : فيكف لو رأوا ناري ؟

قالوا : ويستغفرونك . قال فيقول : قد غفرت لهم ، فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا ، قال فيقولون : رب ! فيهم فلان عبد خطاء ، إنما مرَّ فجلس معهم ، قال فيقول : وله غفرت ، **هم القوم لا يشقى بهم جليسهم**)[4] .

فأيُّ بشارة أعظم من ذلك ، وأي فضل أكبر من هذا الفضل الذي يكرم ا لله به عباده الذاكرين الذين تحفهم الملائكة وتتنزل عليهم السكينة ، فلا يبقى لأمراض النفس أي سبيل أو مدخل ، ولا يتمكن الشيطان من بث سمومه ووساوسه في ذلك القلب المنوَّر بالإيمان ولذلك قال ا لله تعالى مخبراً عن حمايته لعباده الصالحين من تسلط الشياطين :

﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾[5] .

---

(١) رواه مسلم - رقم / ٢٧٠٠ .

(٢) سيارة : أي سياحون في الأرض .

(٣) فُضُلاً : أي أنهم ملائكة زائدون على الحفظة وغيرهم من المرتبين مع الخلائق ، فهؤلاء لا وظيفة لهم إلا حلق الذكر . (ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم ١٤/١٧) .

(٤) رواه البخاري في الدعوات - باب فضل ذكر ا لله عز وجل - ١٦٨/٧ .
ورواه مسلم في الذكر والدعاء - باب فضل مجالس الذكر - رقم / ٢٦٨٩ واللفظ لمسلم .

(٥) سورة الحجر / آية ٤٢ .

وفي ختام هذا الموضوع لا بد من التأكيد على أن فضائل الذكر والدعاء وتلاوة القرآن وقيام الليل وآثار هذه النوافل في مجال تزكية النفس ، لا يمكن أن تحيط بها صفحات ولا كتب ، ولعل ما ذكرته يلقي بعض الضوء على هذه العبادات الجليلة ودورها العظيم في التزكية بالإضافة إلى العبادات الأخرى .

ولقد جمع الله سبحانه بين الأمر بالذكر وبيان آثاره وثمراته ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً** ﴾[1] .

وقد استوفى الإمام ابن القيم رحمه الله بيان فوائد الذكر وفضائله فقال : (وفي ذكر الله تعالى أكثر من مائة فائدة : يرضي الرحمن ، ويطرد الشيطان ، ويزيل الهمّ ، ويجلب السرور ، ويقوي القلب والبدن ، وينور القلب والوجه ، ويجلب الرزق ، ويكسب المهابة والحلاوة ، ويورث محبة الله تعالى التي هي روح الإسلام ، ويورث المعرفة والإنابة والقرب وحياة القلب وذكر الله للعبد ، وهو قوت القلب وروحه ، ويجلو صدأه ، ويحط الخطايا ويرفع الدرجات ، ويُحدث الأنس ويزيل الوحشة ...) .

إلى أن قال : (وهو أيسر العبادات وأفضلها ، وهو غراس الجنة ، ويؤمِّن العبد من نسيان ربه سبحانه ...) .

ثم قال : (ويدخل في ذكر الله ذكرُ أسمائه وصفاته والثناء عليه بهما وتنزيهه عما لا يليق به ، والخبر عن أحكام ذلك ، وذكر أمره ونهيه . ويكون الذكر بالقلب واللسان وهو الأكمل ، ثم القلب وحده ، ثم اللسان وحده ، وأفضل أنواع الذكر : القرآن ، ثم الذكر والثناء على الله ، ثم أنواع الأدعية)[2] .

فالإكثار من ذكر الله حياة للقلب وهداية له وتزكية للنفس وإنقاذ لها من الظلمات وأبرز ما يفعله الشيطان ليصد العبد عن طريق الحق أنه يستحوذ على القلب حتى ينسيه ذكر الله ، فيسيطر عليه ويوجهه إلى الشر والغواية .

---

(١) سورة الأحزاب / الآيات ٤١ - ٤٣ .

(٢) انظر : الوابل الصيب من الكلم الطيب - للإمام ابن القيم - من ص / ٥٧ حتى ١٣٣ .

وقد قال الله سبحانه مخبراً عن هذا الكيد الشيطاني : ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله** ﴾[1] .

كما أخبر عن حال المنافقين فقال سبحانه : ﴿ **يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً** ﴾[2] .

نسأل الله أن يجعلنا من عباده المؤمنين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون .

---

(١) سورة المجادلة / من الآية ١٩ .

(٢) سورة النساء / من الآية ١٤٢ .

الفصل الثالث

المحاسبة والتوبة

من أبرز الوسائل التي ينبغي على العبد أن يداوم عليها ليترقى في مقامات التزكية أن يحاسب نفسه وينظر في أعماله ، فما وجد من خير حمد الله عليه وعزم على المزيد منه ، وما وجد من سوء ندم عليه وسارع إلى التوبة منه توبة صادقة .

فلا بد من المحاسبة أولاً ثم التوبة النصوح التي هي ثمرة ونتيجة لهذه المحاسبة ، وبهذا ينقسم الحديث في هذا الفصل إلى مبحثين هما : المحاسبة والتوبة .

المبحث الأول

المحاسبة

محاسبة النفس تعني النظر والتأمل فيما عمل المسلم من أعمال ، وما قدم من خير أو شر، مع النظر في النية والقصد وحساب الربح والخسائر فيما كان منه وليكون إعداداً لما يستقبل من أيامه بعزم جديد على الاستقامة وبهذا تشمل المحاسبة الماضي والحاضر والمستقبل ، وإن كانت في ظاهرها لا تشمل إلا الماضي والحاضر فقط .

الأدلة على ضرورة المحاسبة لكل مسلم :

لا بد لكل مسلم أن يكون له مواقف مع نفسه يحاسبها ويعاتبها ليأمن شرها ويتحكم في قيادها وقد وردت أدلة كثيرة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف الصالح في التأكيد على محاسبة النفس وبيان أهميتها وآثارها النافعة في التزكية . **ومن هذه الأدلة :**

١ ـ قوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا**

الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[1] .

قال الإمام ابن القيم : (هذه الآية تدل على وجوب محاسبة النفس)[2] .

وقال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : ﴿ **ولتنظر نفس ما قدمت لغد ..** ﴾ أي : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وانظروا ما ذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم .. واعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية)[3] .

٢ ـ وقال تعالى : ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾[4] .

قال مجاهد : اللوامة هي التي تندم على ما فات وتلوم نفسها[5] .

وقد أقسم الله بها وذكرها مع يوم القيامة دلالة على شرفها ومنزلتها وبياناً لضرورة المحاسبة وأهميتها .

٣ ـ وقال تعالى : ﴿ **بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره** ﴾[6] .

فالإنسان بصير بعيوب نفسه ، ولو تظاهر بالأعذار وجادل عن نفسه فلن ينفعه ذلك يوم القيامة وهذه إشارة إلى ضرورة الرجوع إلى النفس ومحاسبتها وكشف عيوبها قبل فوات الأوان .

٤ ـ وعن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (الكيس[7] من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله)[8] .

قال الإمام الترمذي: معنى دان نفسه أي: حاسبها في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة[9].

---

(١) سورة الحشر / آية ١٨ .

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم ١/٨٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

(٤) سورة القيامة / الآيتان ١ ـ ٢ .

(٥) آدب النفوس للإمام الآجري ـ ص / ٢٩ .

(٦) سورة القيامة / الآيتان ١٤ ـ ١٥ .

(٧) الكيس : هو العاقل .

(٨) رواه الترمذي ـ كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ـ باب ٢٥ حديث رقم/٢٤٥٩ وقال حديث حسن .

(٩) سنن الترمذي – ٤/٥٥٠ .

٥ ـ وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية)[١] .

*** كما وردت آثار كثيرة عن السلف الصالح رحمهم الله في وجوب المحاسبة وأهميتها** ، ومن هذه الآثار :

ـ قول الحسن البصري رحمه الله : (لا تلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ، ما ذا أردت بكلمتي؟ ما ذا أردت بأكلتي ؟ ما ذا أردت بشربتي ؟ والعاجز يمضي قُدماً لا يعاتب نفسه)[٢] .

ـ وقوله أيضاً : (إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همته)[٣] .

ـ وقول ميمون بن مهران : (لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه)[٤] .

وقال مالك بن دينار[٥] رحمه الله : (رحم الله عبداً قال لنفسه النفيسة : ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها ثم خطمها[٦] ، ثم ألزمها كتاب الله فكان لها قائداً)[٧].

---

(١) رواه الإمام أحمد في كتابه الزهد ص / ١٧٧ ، وابن أبي الدنيا في كتابه محاسبة النفس ص / ٣٠ ، وأورده الترمذي في سننه ٥٥٠/٤ ، وابن الجوزي في صفة الصفوة ٢٨٦/١ ، وابن القيم في إغاثة اللهفان ٧٨/١ .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص / ٣١ ، وأورده ابن القيم في إغاثة اللهفان ٧٨/١ ، وابن كثير في تفسيره ٤٤٧/٤ .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ـ ص / ٣٢ ، وأورده ابن القيم في إغاثة اللهفان ٧٨/١ .

(٤) محاسبة النفس ص / ٣٣ ، إغاثة اللهفان ٧٩/١ .

(٥) مالك بن دينار البصري ، يكنى أبا يحيى ، توفي سنة ١٣٠ هـ ، أسند عن أنس بن مالك وجماعة من كبار التابعين وأخرج له أصحاب السنن ، كان مشهوراً بالزهد والورع يأكل من كسبه ويكتب المصاحف بالأجرة .
انظر ترجمته في : صفة الصفوة لابن الجوزي ٢٧٣/٣ ، تهذيب التهذيب لابن حجر ١٤/١٠ وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٤٠/١ .

(٦) الخطام هو الحبل الذي يقاد به البعير والمراد أنه أمسك بقيادها و لم يدع هواها يسيطر عليه .

(٧) محاسبة النفس ص / ٣٤ ، إغاثة اللهفان ٧٩/١ .

وهكذا تتوالى أقوال السلف رحمهم الله في التأكيد على ضرورة محاسبة النفس والتدقيق عليها في كل صغيرة وكبيرة ليسلم المسلم من أخطارها وشرورها .

وهناك أمور **تعين على هذه المحاسبة وتقوّي بواعثها في النفس** ، ومن أبرزها :

١ ـ استشعار رقابة الله على العبد واطلاعه على خفاياه :

الله سبحانه لا تخفى عليه خافية ، يعلم السر وأخفى ، وهو مطلع على السرائر ، يعلم ما توسوس به الأنفس ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، واستشعار هذه الرقابة الربانية كفيل أن يوقظ المسلم من غفلته ويجعله في خشية دائمة من سوء أعماله ويقوي إرادته على محاسبة نفسه ومجاهدتها .

قال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾(1) .

وقال سبحانه : ﴿ **ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم** ﴾(2) .

وقال عز وجل : ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم** ﴾(3) .

وقد عرّف الإمام ابن القيم (المراقبة) وبين ضرورة تحقق العبد بها ، فقال :

(المراقبة دوام علم العبد ، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه .. والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات ، فكيف بحال المريدين ؟ فكيف بحال العارفين ؟)(4) .

---

(١) سورة ق / الآيات ١٦ ـ ١٨ .
(٢) سورة المجادلة / آية ٧ .
(٣) سورة البقرة / من الآية ٢٣٥ .
(٤) مدارج السالكين ٢/٦٥ .

٢ ـ تذكر الحساب الأكبر والسؤال يوم القيامة :

الحقيقة التي ينبغي للمسلم ألا يغفل عنها أن الله سبحانه سيحاسب العباد يوم القيامة ويسألهم عما قدموا من خير أو شر ، ويومئذ تحل بالكفرة والعصاة الندامة والحسرة ، أو يجد الإنسان أعماله وقد أحصيت عليه لا يغيب منها شيء ولو كان مثقال الذرة .

وقد تظاهرت الآيات القرآنية في بيان تصوير مشاهد الحساب وأهواله بصورة تهز أعماق النفس وتستحث المسلم أن يبادر إلى محاسبة نفسه وتصحيح أخطائها وكشف بواطنها لينجو من مواقف الخزي يوم القيامة ويحظى برحمة الله وسعة فضله فيكون من الفائزين ، ومن أبرز الآيات الكريمة التي تصف مشاهد الحساب ومواقفه وشدائده وما يصاحبه من نصب الموازين ونشر الصحف وكتب أعمال العباد قوله تعالى : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً** ﴾[(١)] .

وقوله سبحانه : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد** ﴾[(٢)] .

وقوله عز وجل : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾[(٣)] .

وبالرغم من رهبة الموقف وشدته وانكشاف خبايا النفوس ونشر صحف الأعمال التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصيت فيها ، فإن هناك من يحاول الإنكار ظناً منه أنه سينجو ، ولكن الله يبعث شهيداً عليه من نفسه فتنطق أعضاؤه وجوارحه لتكشف خباياه على رؤوس الأشهاد وفي ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾[(٤)] .

---

(١) سورة الكهف / آية ٤٩ .

(٢) سورة المجادلة / آية ٦ .

(٣) سورة الأنبياء / آية ٤٧ .

(٤) سورة يس / آية ٦٥ .

ويقول عز وجل : ﴿ **ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون** ﴾[1] .

ويقابل تلك المشاهد الرهيبة التي يتعرض لها الكفار والعصاة يوم الحساب ، مشاهد أخرى تشرق بالفرحة والسرور لأناس عرفوا طريق الحق فسلكوه واستعدوا ليوم الحساب فكانوا من المتقين فأكرمهم الله بالغفران وآمنهم من المخاوف فانطلقوا يحملون كتب حسناتهم بأيمانهم يتباهون بها في غبطة وسرور ، وقد أخبر الله عنهم فقال سبحانه :

﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه فهو في عيشة راضية في جنة عاليه** ﴾[1] .

إذا أراد العبد أن يحاسب نفسه فليتذكر هذه المشاهد وليتخذ العبرة منها حتى تقوى في نفسه الهمة على المحاسبة .

وفي ذلك يقول الحسن البصري رحمه الله : (إن المؤمن قوام على نفسه ، يحاسب نفسه لله عز وجل ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة)[3] .

ويقول أيضاً : (أيسر الناس حساباً يوم القيامة الذين يحاسبون أنفسهم في الدنيا ، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم ، فإن كان الذي هموا به لهم مضوا ، وإن كان عليهم أمسكوا ، وإنما يثقل الأمر يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور في الدنيا ، أخذوها من غير محاسبة فوجدوا الله عز وجل قد أحصى عليهم مثاقيل الذر)[4] .

كما ينبغي للمسلم أن يستحضر في نفسه وهو يحاسبها مشاهد القيامة الأخرى بالإضافة لمشهد الحساب والجزاء ، فيتصور عوالم القيامة وأهوالها من حشر وصراط وجنة ونار ،

---

(١) سورة فصلت / الآيات ١٩ ـ ٢١ .

(٢) سورة الحاقة / الآيات ١٩ ـ ٢٢ .

(٣) أدب النفوس ـ للإمام أبي بكر الآجري ـ ص / ٢٨ .

(٤) محاسبة النفس ـ لابن أبي الدنيا ـ ص / ٩٤ .

وبذلك تخشع نفسه وتستجيب للمحاسبة راضية راغبة وفي ذلك يقول إبراهيم التيمي[1] رحمه الله :

(مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها .. ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها ، فقلت لنفسي أيْ نفسي، أي شيء تريدين ؟ قالت : أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً قال : قلت : فأنت في الأمنية فاعملي)[2] .

فالنفس تتمنى ، ولكن الأماني بدون عمل سراب خادع .

٣ ـ مطالعة سيرة الرسول ﷺ وأصحابه والسلف الصالح :

لا شك أن من أعظم الوسائل العملية في تزكية النفس أن يطالع العبد سيرة الرسول ﷺ وأصحابه الكرام والسلف الصالح[3] ويرى اجتهادهم في العبادة ومسارعتهم إلى نيل رضاء الله ، وبذلك يرى نفسه مقصراً مهما بذل من الطاعات فيسارع إلى محاسبة نفسه على كل عمل يعمله ، وكل وقت يضيعه ، ليلحق بالسابقين ويسير في ركابهم ، لكنه إذا غفل عن هذا الجانب ونظر إلى غيره من العصاة والفسقة فإنه سيصاب بالغرور والرضى عن النفس ، وتلك آفة مهلكة ومدخل من مداخل الشيطان لا خلاص منها إلا بالإكثار من مطالعة سير الصالحين من الأنبياء والصديقين والعلماء العاملين ، وأن يقيس المسلم نفسه على ما ورد في القرآن الكريم من أوصافهم كما في أوائل سورة المؤمنون وآيات عباد الرحمن في سورة الفرقان ونحو ذلك .

طريقة محاسبة النفس ومجالاتها :

أورد الإمام ابن القيم رحمه الله في حديثه عن المحاسبة وصفاً للطريقة التي ينبغي للمسلم

---

(١) هو إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي ، من العباد الزهاد ، توفي سنة ٩٢ هـ .
(انظر ترجمته في : صفة الصفوة ٣/٩٠ ، تذكرة الحفاظ ١/٧٣ ، شذرات الذهب لابن العماد ١/١٠٠) .

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص / ٣٤ .

(٣) سأتحدث بالتفصيل إن شاء الله عن هذا الجانب في فصل مستقل لكن المقصود هنا إبراز أثره في تقوية النفس على المحاسبة .

أن يسلكها في محاسبة نفسه والتدقيق على أعماله ، فقال :

(جماع ذلك أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض ، فإن تذكر فيها نقصاً تداركه ، إما بقضاء أو إصلاح ، ثم يحاسبها على المناهي ، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية ، ثم يحاسب نفسه على الغفلة ، فإن كان قد غفل عما خُلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى ، ثم يحاسبها بما تكلم به ، أو مشت إليه رجلاه أو بطشت يداه أو سمعته أذناه : ماذا أرادت بهذا ؟ ولمن فعلته ؟ وعلى أي وجه فعلته ؟ ويعلم أنه لا بد أن يُنشر له لكل حركة وكلمة منه ديوانان : ديوان لمن فعلته ؟ وكيف فعلته ؟ فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثاني سؤال عن المتابعة)[1] .

فالمحاسبة تشمل حياة المسلم ، وكل صغيرة وكبيرة يعملها أو يتركها أو يعزم عليها في قلبه ، وكلما أحكم العبد رقابته على نفسه كان أكثر سلامة من شرورها .

ويمكن تقسيم مجالات محاسبة النفس إلى الأقسام التالية :

١ ـ المحاسبة على المعاصي الظاهرة والباطنة : وهو أول ما ينبغي أ، يبادر إليه المبتدئ في طريق التزكية . وقد ورد الأمر بذلك في آيات كثيرة من كتب الله تعالى ، منها قوله عز وجل : ﴿ **وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون** ﴾[2] .

ويشمل ظاهر الإثم وباطنه كل معصية صغيرة أو كبيرة ظاهرة أو خفية ، كما تشمل معاصي القلب من حسد وحقد وسوء ظن واحتقار للمسلم ونحو ذلك ، ولا تتحقق للمرء التوبة من هذه المعاصي إلا بالندم على فعلها ومحاسبة نفسه ومعاتبتها والإقلاع عنها والعزم على أن لا يعود إليها .

وليعلم المسلم أن طريقه في محاسبة نفسه على هذه المعاصي أن يذكرها بأخطارها المهلكة وعواقبها الخطيرة في الدنيا والآخرة ، فهي أشد خطراً من السموم فكيف يميل إليها ويرغب فيها ؟

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم ١/٨٣ .

(٢) سورة الأنعام / آية ١٢٠ .

وهل رأيت من يأتي بالأفاعي والعقارب فيربيها في داره ويتركها طليقة تفتك به وتقتله؟

ثم ليعلم أن هذه الجوارح والأعضاء أمانة لديه سيسأل عنها يوم القيامة فإن لم يحفظها أهلكته ، قال تعالى : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً** ﴾[1] .

ولا شك أن ترك الفرائض والتهاون فيها من أخطر المعاصي ، فيجب على المسلم أن يحاسب نفسه على أدائه للفرائض وإتقانه لها .

وليتذكر العبد وهو يحاسب نفسه كيف يحاسب الشريك شريكه إذا كان لا يأمن له ويخشى من خيانته .

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : (وقد مثّلت النفس مع صاحبها بالشريك في المال ، فكما أنه لا يتم مقصود الشركة من الربح إلا بالمشارطة على ما يفعل الشريك أولاً، ثم بمطالعة ما يعمل والإشراف عليه ومراقبته ثانياً ، ثم بمحاسبته ثالثاً ، ثم يمنعه من الخيانة إن اطلع عليه رابعاً .

فكذلك النفس : يشارطها أولاً على حفظ الجوارح التي حفظها هو رأس المال ، والربح بعد ذلك فمن ليس له رأس مال فكيف يطمع في الربح ؟ .. وهي مراكب العطب والنجاة... فحفظها أساس كل خير وإهمالها أساس كل شر ..

فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح انتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها ، فلا يهملها ، فإنه إن أهملها لحظة رتعت في الخيانة ولا بد ، فإن تمادى على الإهمال تمادت في الخيانة حتى تُذهب رأس المال كله .

فمتى ما أحس بالنقصان انتقل إلى المحاسبة ، فحينئذ يتبين له حقيقة الربح والخسران .

فإذا أحس بالخسران وتيقنه استدرك منها ما يستدركه الشريك من شريكه ، من الرجوع عليه بما مضى ، والقيام بالحفظ والمراقبة في مراقبته ومحاسبته وليحذر من إهماله)[2].

ونستخلص من هذا القول القيم أن المسلم لا يستغني عن المحاسبة بحال من الأحوال ،

---

(١) سورة الإسراء / من الآية ٣٦ .

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١/٧٩ - ٨٠ .

وكلما كانت نفسه أمارة بالسوء مصغية لوساوس الشيطان ، كان أكثر احتياجاً للمحاسبة ليأمن مكرها وخيانتها ، وعليه أن يحاسبها وهو خائف حزين منكسر القلب على ما فرط في جنب الله ، فإن فعل ذلك وكانت محاسبته صادقة أبدله الله بالحزن فرحاً وبالذل عزاً .

وقد وصف عبد الله بن مسعود حال المؤمن الصادق في خشيته من ذنوبه وخوفه منها فقال:

(إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا)[1] .

٢ ـ المحاسبة على النية والقصد :

لا يتقبل الله سبحانه من العمل إلا ما كان خالصاً له ، فالإخلاص أساس قبول الأعمال، قال تعالى : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾[2] .

وقد سبق الحديث عن الإخلاص مراراً في الفصول الماضية ، ولكن المقصود هنا التنبيه على ضرورة محاسبة النفس على النية والقصد الذي دفعها إلى ذلك العمل ، وهذه المحاسبة لا بد منها ليسلم المسلم من الرياء المحبط للأعمال ، والرياء قد يسبق العمل وقد يصاحبه وقد يأتي نتيجة وثمرة له .

فقد يصلي العبد ركعتين بخشوع وتضرع فإذا فرغ منهما لاحظ نظر الناس إليه وإعجابهم بصلاته فأصيب بالغرور والعجب ، وأرخى لنفسه العنان لتسترسل في آفة الغرور والرضى عن النفس دون أن يضبطها بالمحاسبة والمعاتبة .

ولذلك كانت المحاسبة في هذا المجال شاملة لثلاثة أنواع : قبل العمل ، وأثناءه ، وبعده وقد وصف الإمام ابن القيم أول همِّه وإرادته ، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه)[3] .

ثم أورد قول الحسن البصري رحمه الله : (رحم الله عبداً وقف عند همه ، فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخر)[4] .

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الدعوات ـ باب التوبة ـ ١٤٦/٧ .

(٢) سورة البينة / من الآية ٥ .

(٣و٤) إغاثة اللهفان ٨١/١ .

وأما المحاسبة أثناء العمل وبعده فهي حراسة العمل من آفة الرياء المهلكة التي تنشأ من أنانية النفس وحب المباهاة ، وسبب ذلك الغفلة عن مراقبة الله سبحانه ، وعدم الصبر على طاعته .

وقد حذر المولى عباده من تلك الآفة التي تبطل الأعمال ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس** ﴾[2] .

ولهذا كان السلف الصالح رحمهم الله يحاسبون أنفسهم بشدة على أقوالهم وأفعالهم مخافة الرياء والمباهاة ومن ذلك قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله : (إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافة المباهاة)[3] .

وهكذا ينبغي على العبد أن يطارد مقاصد الرياء المتسللة إلى القلب ، وأن يحاسب نفسه على النية الباعثة لكل عمل والمصاحبة لها حتى تكون خالصة لله وحده .

وليضع نصب عينيه قول الحق سبحانه : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب** ﴾[4] .

٣ ـ المحاسبة على تفويت الطاعات وتضييع الأوقات :

الغفلة داء عضال يجب الحذر منه والمسارعة إلى علاجه ، لكي يتيقظ قلب المسلم ويبادر إلى اغتنام أوقاته في مرضاة ربه ، ولذلك لا بد من محاسبة النفس على ضياع الأوقات وتفويت الطاعات ، وقد صرحت الأحاديث النبوية بوجوب حفظ أوقات المسلم من الضياع وأنه سيسأل عن ذلك يوم القيامة :

فعن أبي بَرْزَة نضْلة بن عُبيد الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تزول

---

(١) سورة محمد / آية ٣٣ .

(٢) سورة البقرة / من الآية ٢٦٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ١٣٧/٥ .

(٤) سورة الشورى / آية ٢٠ .

قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيم فعل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه)[1] .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : (إن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم بل أسوأ حالاً منه ، فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده .. لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك ، ويُقعده عن الاستدراك سِنَة القلب ، وهي غفلته التي رقد فيها فطال رقوده .. وانغمس في غمار الشهوات ، واستولت عليه العادات ، ومخالطة أهل البطالات ، ورضي بالتشبه بأهل إضاعة الأوقات ، فهو في رقاده مع النائمين .. فمتى انكشف عن قلبه سِنَة هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق في قلبه ، استجاب فيها لواعظ الله في قلب عبده المؤمن .. ورأى سرعة انقضاء الدنيا .. فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلاً :

﴿ **يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله** ﴾[2] فاستقبل بقية عمره مستدركاً بها ما فات ، محيياً بها ما أمات ، مستقبلاً بها ما تقدم له من العثرات ..

ثم يبرق له في نور اليقظة بارقة أخرى يرى في ضوئها عيوب نفسه وآفات عمله ، وما تقدم له من الخبايات والإساءات وهتك الحرمات والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات ، فإذا انضم ذلك إلى شهود نعم الله عليه وأياديه لديه ، رأى أن حق المنعم عليه في نعمه وأوامره لم يبق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه .. انكسرت نفسه وخشعت جوارحه ..

ثم تبرق له بارقة أخرى يرى في ضوئها عزة وقته وخطره وشرفه ، وأنه رأس مال سعادته، فيبخل به أن يضيعه فيما لا يقربه إلى ربه ، فإن في إضاعته الخسران والحسرة والندامة، وفي حفظه وعمارته الربح والسعادة، فيشح بأنفاسه أن يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده .

ثم يلحظ في ضوء تلك البارقة ما تقتضيه يقظته من سنة غفلته ، من التوبة والمحاسبة والمراقبة والغيرة لربه أن يؤثر عليه غيره ..

---

(١) رواه الترمذي – كتاب صفة القيامة والرقائق والورع – حديث رقم / ٢٤١٧ .
وقال حديث حسن صحيح ، ورواه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل – ص / ١٧ ، وأورد المنذري في الترغيب والترهيب ٣٩٦/٤ رواية أخرى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه وقال : رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح .

(٢) سورة الزمر / من الآية ٥٦ .

فهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها ، وهي أول منازل النفس المطمئنة)[1] .

وبهذا يتبين للمسلم أهمية محاسبة النفس على ما ضيعت من أوقات ، وكيف يكون إيقاظ النفس وشد همتها لاغتنام الأوقات ، فالوقت هو الحياة وما أحسن قول الشاعر :

إذا أنت لم تزرع وألفيت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذر

ويوضح الإمام الغزالي طريقة محاسبة النفس على تضييع الأوقات والغفلة عن الطاعات فيقول:

(إذا أصبح العبد ، وفرغ من فريضة الصبح ، ينبغي له أن يفرِّغ قلبه ساعة لمشارطة النفس فيقول للنفس : ما لي بضاعة إلا العمر ، ومتى فني فقد فني رأس المال ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه . ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً ، فاحسبي أنك قد توفيت ثم رددت ، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم ، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة)[2] .

والواقع أن الإنسان يرغب فيما يحب ، ويسارع إلى ما يهفو قلبه إليه ، فإن كان قلبه متعلقاً بالدنيا ألفيته سباقاً إلى أعمالها وأموالها بطيئاً عن طاعة ربه ، وإذا تعلق قلبه بالله سبحانه وخلصه مما يشغل عنه كانت همته إلى الطاعات كبيرة وغفلاته عن الله قليلة .

ولذلك ينبغي أن تكون محاسبة العبد لنفسه في هذا المجال ميزاناً يعرف به مستوى الإيمان في قلبه فيسارع إلى تغذية شجرة الإيمان لتثمر المسارعة إلى الأعمال الصالحة .

٤ ـ المحاسبة على النعم .

أخبر الله سبحانه بأن العبد سيسأل يوم القيامة عن شكر ما أنعم به عليه من النعم ، فقال تعالى : ﴿ **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾[3] .

ولا شك أن نعم الله على عباده لا تعد ولا تحصى ، وأبرزها نعمة الأمن والصحة والرزق والفراغ والأولاد والذرية ونحو ذلك ، قال تعالى : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله**

(١) الروح لابن القيم ص / ٢٢٣ ـ ٢٢٥ .

(٢) إحياء علوم الدين ٣٩٤/٤

(٣) سورة التكاثر / آية ٨ .

لا تحصوها ﴾[1] .

ولذلك ينبغي على المسلم أن يستشعر نعم ا لله ويحاسب نفسه على القيام بشكرها ويعاتب تلك النفس إذا تهاونت في شيء من النعم أو استقلت بشأنه .

قال الإمام ابن القيم رحمه ا لله : (والنعيم المسؤول عنه نوعان : نوع أُخذ من حله وصرف في حقه ، فيسأل عن شكره ، ونوع أخذ بغير حله وصرف في غير حقه ، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه فإذا كان العبد مسؤولاً ومحاسباً على كل شيء ، حتى على سمعه وبصره وقلبه . . فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب)[2] .

وقال أيضاً مبيناً مجالات محاسبة النفس على النعم وعبودية العبد تجاهها :

(وأما عبودية النعم فمعرفتها والاعتراف بها أولاً ، ثم العياذ به سبحانه أن يقع في قلبه نسبتها وإضافتها إلى سواه ، وإن كان سبباً من الأسباب فهو مسببه ومقيمه ، فالنعمة منه وحده بكل وجه واعتبار ، ثم الثناء بها عليه ومحبته عليها ، وشكره بأن يستعملها في طاعته ، ومن لطائف التعبد بالنعم أن يستكثر قليلها عليه ، ويستقل كثير شكره عليها)[3] .

كما بين رحمه ا لله أن على العبد أن يقايس بين نعمة ا لله عليه وبين ما يقع فيه من المعاصي ، فحينئذ يظهر له التفاوت ، ويعلم أنه ليس له إلا عفو ا لله ورحمته ، فيعاتب نفسه ويتوب إلى ربه[4] .

أفضل الأوقات للمحاسبة :

ليس للمحاسبة وقت محدد أو ساعة معينة ، فالمسلم رقيب على نفسه يعاتبها ويحاسبها في كل أوقاته ، ومع ذلك يستحب له أن يكون له مجلس مع نفسه عندما يريد النوم ليقوم بمحاسبتها وهذا أنفع الأوقات لأنه يحصي على نفسه أعمال يومه ليعرف الربح من الخسائر .

ـ قال الإمام الماوردي رحمه ا لله في حديثه عن محاسبة النفس :

---

(١) سورة إبراهيم / من الآية ٣٤ .
(٢) إغاثة اللهفان ١/٨٤ .
(٣) الفوائد ص / ١١٣ .
(٤) مدارج السالكين ١/١٧٠ .

(عليه أن يتصفح في ليله ما صدر من أفعال نهاره ، فإن الليل أخطر للخاطر وأجمع للفكر ، فإن كان محموداً أمضاه ، وأتبعه بما شاكله وضاهاه ، وإن كان مذموماً استدركه إن أمكن ، وانتهى عن مثله في المستقبل)[1] .

ـ وقال الإمام ابن القيم رحمه الله وهو يتحدث عن الأسباب المنجية من عذاب القبر :

(ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه ، ثم يجدد له توبة نصوحاً بينه وبين الله ، فينام على تلك التوبة ، ويعزم على أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ ، ويفعل هذا كل ليلة ، فإن مات من ليلته مات على توبة ، وإن استيقظ استيقظ مستقبلاً للعمل مسروراً بتأخير أجله حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فات)[2] .

ولا شك أن مما يساعد على صفاء الذهن ساعة المحاسبة أن يجلس العبد بعيداً عن الناس ويخلو بنفسه لأن انشغاله بمن حوله يحول دون صدق المحاسبة وشمولها .

ولهذا قال مسروق[3] رحمه الله : (إن المرء لحقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها ، يتذكر ذنوبه ويستغفر منها)[4] .

وفي الختام يمكن تلخيص فوائد المحاسبة وأهميتها في نقاط عدة ، وهي :

١ ـ معرفة حق الله تعالى وهل قام العبد به كما ينبغي ، وتدارك ما قصر فيه ، والاستزادة مما أحسن فيه .

٢ ـ الاطلاع على عيوب النفس ، ومعالجة أمراضها وآفاتها ، وهذا يورث التواضع والانكسار .

---

(١) أدب الدنيا والدين – للماوردي ـ ص / ٣٤٢ .

(٢) الروح – لابن القيم ـ ص / ٧٩ .

(٣) هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني من خيار التابعين ، سرق وهو صغير ثم وجد فسمي مسروقاً أسند عن عمر وعلي وكثير من الصحابة رضي الله عنهم ـ توفي بالكوفة سنة ٦٣ هـ .
(تنظر ترجمته في : صفة الصفوة ٢٤/٣) .

(٤) صفة الصفوة لابن الجوزي ٢٦/٣ .

٣ ـ كشف خداع النفس ووساوس الشيطان .

وبهذا تكون المحاسبة وسيلة عملية جليلة لتزكية النفس بتطهيرها من الرذائل وتحليتها بالفضائل ، وأما من ترك المحاسبة وأغمض عينيه عن العواقب ، فإن ذلك يسهِّل عليه مواقعة الذنوب والأنس بها والاتكال على العفو والاغترار بالأماني حتى يؤول الحال به إلى الهلاك والخسران المبين ، أعاذنا الله من ذلك .

المبحث الثاني

التوبة

التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً يرجع به الإنسان عن المعصية إلى الطاعة[(١)] ، وحقيقتها أن يندم على ما سلف منه في الماضي ، ويقلع عنه في الحال ويعزم على أن لا يعاوده في المستقبل ، والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة ، فإنه في ذلك الوقت يندم ويقلع ويعزم ، فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خُلق لها ، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة[(٢)] .

وقد بيَّن الإمام ابن القيم رحمه الله الصلة الوثيقة بين المحاسبة والتوبة ، فقال : " مِن منزلةِ المحاسبة يصح له نزول منزلة التوبة ، لأنه إذا حاسب نفسه ، عرف ما عليه من الحق فخرج منه ... وهي حقيقة التوبة فكان تقديم المحاسبة عليها لذلك أولى .

ولتأخيرها عنها وجه أيضاً ، وهو أن المحاسبة لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة ، والتحقيق: أن التوبة بين محاسبتين ، محاسبة قبلها تقتضي وجوبها ، ومحاسبة بعدها تقتضي حفظها ، فالتوبة محفوفة بمحاسبتين "[(٣)] .

ولذلك قدم الإمام ابن القيم في مدارجهِ الحديث عن المحاسبة ثم أوضح أن من تحقق بالمحاسبة أشرف منها على مقام التوبة ، لأنه بالمحاسبة يتميز عنده ماله مما عليه وبذلك يُجمع همته على التوبة التي ينبغي ألا تفارق السالك إلى ربه حتى الموت[(٤)] .

وبذلك يتبين لنا أهمية التوبة كوسيلة عملية لتزكية النفس وترقيتها في مقامات القرب من الله سبحانه ، وهذا ما أشار إليه الإمام ابن القيم رحمه الله بقوله : " منزل التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها ، فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال فيه إلى الممات .. فالتوبة هي بداية العبد ونهايته ، وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية كذلك "[(٥)] .

---

(١) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي ص/٢٥٩ .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١٨٢/١ . وهذه الشروط الثلاثة : الندم والاقلاع والعزم هي شروط التوبة، أما إذا كانت المعصية تتعلق بآدمي فلها شرط رابع وهو رد الظلامة إلى صاحبها أو تحصيل البراءة منه ، ينظر : شرح مسلم للنووي ٢٥/١٧ .

(٣) مدارج السالكين ١٦٩/١-١٧٠ .

(٤و٥) المرجع نفسه ١٧٨/١ .

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة على وجوب التوبة ومنزلتها في تحقيق صلاح العبد وفلاحه في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿**وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**﴾(١).

وقال سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفّر عنكم سيئآتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يُخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيدهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير** ﴾(٢) ، والتوبة النصوح - كما يقول الإمام ابن كثير — هي التوبة الصادقة الجازمة التي تمحو ما قبلها من السيئات وتكفّه عما كان يتعاطاه من الدناءات ، وذلك بأن يقلع عن الذنب في الحاضر ويندم على ما سلف منه في الماضي ويعزم على أن لا يفعل ذلك في المستقبل(٣) .

وقد قسّم الله العباد إلى تائب وظالم ، فمن لم يتب فقد استحق أن يكون ظالماً ، لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله(٤) .

قال تعالى : ﴿ **ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾(٥) .

وأما الأحاديث النبوية التي تحث على التوبة وتأمر بها فهي كثيرة ، من أبرزها:

- ما رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيءُ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)"(٦) .

- وروى أيضاً عن الأغر المزني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة)(٧) .

---

(١) سورة النور / من الآية ٣١ .

(٢) سورة التحريم / آية ٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤١٨/٤ .

(٤) مدارج السالكين ١٧٨/١ .

(٥) سورة الحجرات / من الآية ١١ .

(٦) رواه مسلم - كتاب التوبة - باب قبول التوبة من الذنوب - رقم /٢٧٥٩ .

(٧) رواه مسلم - كتاب الذكر والدعاء - باب استحباب الاستغفار رقم /٢٧٠٢ .

وقد ذكر العلماء في معنى استغفار الرسول ﷺ وتوبته أقوالاً منها أن المراد أنه إذا فتر عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه عدّ ذلك ذنباً واستغفر منه ، أو أن استغفاره ﷺ إظهار للعبودية والتذلل لربه وملازمة للخشوع(١) .

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: (الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الإقرار على الذنوب كبارها وصغارها، وهم بما أخبر الله به عنهم من التوبة يرفع درجاتهم ويعظم حسناتهم ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وليست التوبة نقصاً بل هي من أفضل الكمالات وهي واجبة على جميع الخلق .. فغاية كل مؤمن هي التوبة، ثم التوبة تتنوع ، كما يقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين)(٢) .

ومن رحمة الله بعباده أنه يفرح بتوبة العاصي الذي رجع إليه وأناب ، وقدمثّل النبي ﷺ ذلك الفرح بمثال عظيم ، وذلك ما رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرضٍ فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها ، وقد أيِس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمةً عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح)(٣) .

وقد علّق الإمام ابن القيم رحمه الله على هذا الحديث النبوي فقال : " هذه فرحة إحسان وبرٍ ولطف ، لا فرحة محتاج إلى توبة عبده منتفع بها "(٤) .

كما قال رحمه الله : " اشتدت محبة الرب له - أي للتائب - فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، فأوجبت هذه المحبة فرحاً كأعظم ما يُقدَّر من الفرح ، ولو كان في الفرح المشهود في هذا العالم نوع أعظم من هذا الذي ذكره النبي ﷺ لذكره ، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغِهِ في سفره ، بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده "(٥) .

---

(١) ينظر : شرح مسلم للإمام النووي ٢٤/١٧ .

(٢) مجموع الفتاوى ٥١/١٥ .

(٣) رواه مسلم - كتاب التوبة - باب الحض على التوبة والفرح بها - رقم /٢٧٤٧ .

(٤) مدارج السالكين ١٩٥/١ .

(٥) المرجع نفسه ٢١٥/١ .

وبهذا يتبين عظيم فضل الله تعالى وسعة رحمته في قبول توبة عباده ، وفرحه سبحانه بتلك التوبة ، ولم يجئ هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة ، ولا شك أن ذلك له تأثير عظيم في حال التائب وإقباله على ربه المنعم المتفضل سبحانه الذي يحب العبد المتذلل إليه المفتقر إلى عفوه .

ويؤكد هذا المعنى ما ورد في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك والتعالى أنه قال : (.. يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم)[١] .

التعجيل بالتوبة :

أكد العلماء أهيمة التوبة وفرضيتها وعدم جواز التراخي فيها ، فقال الإمام النووي رحمه الله : (اتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة ، وأنها واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة ، والتوبة من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة)[٢] .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله : (إن المبادرة إلىالتوبة من الذنوب فرض على الفور ، لا يجوز تأخيرها ، فمتى أخرّها عصى بالتأخير ، فإذاتاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى ، وهي توبته من تأخير التوبة ، وقلّ أن تخطر هذه ببال التائب .. ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم)[٣] .

وقد يتساهل العبد في الصغائر ولا يبادر إلى التوبة منها تهويناً لشأنها ، وإذا بتلك الصغائر تجتمع الواحدة منها تلو الأخرى ، ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يُصر عليها فتكون سبباً في هلاكه .

ومصداق ذلك ما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن وادٍ فجاء ذا بعودٍ ،

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب البر والصلة ـ باب تحريم الظلم ـ رقم /٢٥٧٧ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ٥٩/١٧ .

(٣) مدارج السالكين ٢٧٢/١-٢٧٣ .

وجاء ذا بعودٍ ، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه)[١] .

فإذا كان معظم النار من مستصغر الشرر ، فإن كثيراً من الكبائر لا يصل إليها العبد حتى يتهاون في الصغائر ولا يبالي بها، ويغتر بأماني المغفرة، فتجتمع تلك الصغائر، كما تجتمع الأعواد لتأجيج النار، وتكون العاقبة أن يستقل العبد شأن المعصية ، ويخف تأثيرها في نفسه ، فيسترسل فيها ، ويتجرأ على ربه ، حتى يكون تبعاً لهواه وأسيراً لنفسه الأمارة وعبداً للشيطان .

وقد بيّن الإمام ابن القيم خطر التسويف في التوبة والاتكال على أماني المغفرة ، فقال رحمه الله : (إن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة ، وبالتسويف بالتوبة والاستغفار باللسان تارة ، وكثير من الناس من يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال : " استغفر الله " زال الذنب ، وراح هذا بهذا .. وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء واتكل عليها ، وتعلق بكلتا يديه وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء)[٢] .

ولا شك أن هؤلاء يخادعون أنفسهم ، فالذي يحفظ نصوص الرجاء والرحمة ويتكل عليها وينسى نصوص التخويف والوعيد الشديد للعصاة ، فكأنه ينظر بعين واحدة ، وقد ورد ذكر الرجاء والرحمة مقروناً بالتخويف والوعيد في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ **نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابي هو العذاب الأليم** ﴾[٣] .

وقوله سبحانه : ﴿ **إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾[٤] .

فالعاقل الذي يحسن الظن بالله ويرجو رحمته ينبغي عليه أن يحسن العمل ، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز ، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند .

---

(١) رواه الامام أحمد في مسنده ٣٣١/٥ ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٩٣/١٠ ، وقال : رجاله رجال الصحيح ، كما صححه السيوطي في الجامع الصغير (فيض القدير ١٢٧/٣) .

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص/٢٠ .

(٣) سورة الحجر / الآيتان ٤٩-٥٠ .

(٤) سورة الأعراف / من الآية ١٦٧ .

وفي هذا يقول الحسن البصري رحمه الله : (إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة ، يقول أحدهم : لأني أحسن الظن بربي ، وكذب ، لو أحسن الظن لأحسن العمل)[1] .

حاجة الأبرار إلى التوبة والاستغفار :

أهل الطاعة محتاجون إلى التوبة كما يحتاج إليها أهل الذنوب ، ومن ظن منهم أنه ليس عنده ما يتوب منه أو أنه مستغنٍ عن التوبة فقد زل ، فالتوبة لازمة للعبد من جهات عدةٍ[2]:

١ ـ من الخلل الذي يقع في الطاعات والتقصير فيها .

٢ ـ من التقصير والتفريط في شكر النعم التي لا تعد ولا تحصى ، ومهما كان العبد طائعاً فلن يؤدي حقها .

٣ ـ من غلب الهوى والميل إلى ما ترتاح إليه النفس من الطاعات تجنباً لمشقة طاعات أخرى .

٤ ـ مما قد يشوب العمل من الرياء .

وقد ألمح إلى ذلك الإمام ابن تيمية رحمه الله فقال : (العبد دائماً بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر ، وذنب يحتاج فيه إلى الاستغفار ، وكل من هذين من لأمور اللازمة للعبد دائماً ، فإنه لا يزال يتقلب في نعم الله وآلائه ، ولا يزال محتاجاً إلى التوبة والاستغفار ، ولهذا كان سيد ولد آدم وإمام المتقين محمد ﷺ يستغفر في جميع الأحوال)[3] .

كما بيَّن الإمام ابن القيم حاجة الطائعين إلىالاستغفار فقال رحمه الله : (الرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها ، وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات ، لشهودهم تقصيرهم فيها ، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه)[4] .

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص/٢٦ .

(٢) ينظر : الجانب العاطفي من الإسلام ـ للشيخ محمد الغزالي ـ ص/١٨٩ .

(٣) مجموع الفتاوى ٨٨/١٠ .

(٤) مدارج السالكين ١٧٥/١ .

آثار التوبة في مجال تزكية النفس :

التوبة دواء ناجع لكل أدواء النفس وأمراض القلب لأنها عودة بالعبد العاصي إلى حلاوة الطاعة والانخلاع عن تعاطي السموم القاتلة التي تفتك بالقلب .

ولعل أبرز آثار التوبة في مجال التزكية الآثار التالية :

١ ـ تذلل العبد لربه وتحققه بصدق العبودية له سبحانه :

لا تتحقق للنفس عزتها وسكينتها إلا إذا تذللت لخالقها وخضعت له سبحانه راضية راغبة ، وأقبلت عليه خائفة وجلة ، وبذلك تنال الأمن ، ويتذوق المسلم لذة المناجاة لخالقه عزوجل فتشرق نفسه وينشرح صدره وتصغر الدنيا في عينيه .

وأعظم مواطن المناجاة تلك التي يقبل العبد فيها على ربه تائباً نادماً يتوسل إليه ويتضرع بين يديه ويدعوه بخشوع وخضوع أن يقبل توبته ويغفر زلته .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : " من موجبات التوبة الصحيحة كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء .. قد أحاطت به من جميع جهاته ، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً ، كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيده ، فأخذ فأحضر بين يديه ، ولم يجد من ينجيه من سطوته ، ولم يجد منه بداً ولا عنه غناءً ولا منه مهرباً ، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه ، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته هذا مع حبه لسيده وشدة حاجته إليه ، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده ، وذله وعز سيده .

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ، ما أنفعها للعبد ، وما أجدى عائدها عليه .. فليس شيء أحبَّ إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستسلام له ، فلله ما أحلى قوله في هذه الحال : أسألك بعزتك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي وبغناك عني وفقري إليك ، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سواي كثير ، وليس لي سيد سواك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك رقبته ورغم لك أنفه ، وفاضت لك عيناه ، وذلَّ لك قلبه ...

فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها ، فما أصعب التوبة

الصحيحة بالحقيقة ، وما أسهلها باللسان والدعوى "[1] .

٢ ـ تطهير النفس وانشراح الصدر :

عندما يبادر المسلم إلى التوبة ويتحقق منه الندم على ما فرّط ويتذلل لخالقه داعياً أن يغفر ذنوبه ، فإن ذلك يعيد إليه الثقة بنفسه بعد أن كان ينفر منها ويكرهها ويحط من شأنها بسبب الآثام التي ارتكبها ، ولا شك أن هذا التحرر من الشعور بالذنب دافع قوي إلى تكوين شخصية المسلم الثابتة المطمئنة التي لا تحس بالتوتر ولا تعتريها الكآبة والقلق .

والمؤمن الذي يقع في المعصية لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه ، ولكنَّ سُكرَ الشهوة يحجبه عن الشعور بهذاالحزن ، فإذا انتبه وتيقظ صار ذلك الحزن ناراً تتأجج في قلبه لا يطفئ لهيبها إلا بالتوبة النصوح التي تعيد إلى القلب طمأنينته وتغسل ما علق به من أدران المعاصي ، فالقلب مثله كالقدر الجديد توقد تحتها النار ساعة فتسودُّ ، فإن بادرت إلى غسلها انغسلت من ذلك السواد ، وإن تركتها وطبخت فيها مرة بعد مرة ثبت السواد فيها حتى تصعب إزالته ، والتوبة هي التي تغسل سواد القلب .

وقد أثنى ا لله على عباده المسارعين إلى الخيرات بأوصاف عديدة منها أنهم يبادرون إلى التوبة والاستغفار دون إمهال ولا تسويف طلباً لطهارة النفس وحذراً من سواد القلب فقال تعالى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا ا لله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا ا لله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين** ﴾[2] .

وقد أوضح الإمام ابن القيم رحمه ا لله ما يناله التائب من آثار عظيمة يتقلب في بركتها فقال : (إن التوبة توجب للتائب آثاراً عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدونها ، فتوجب له من المحبة والرقة واللطف وشكر ا لله وحمده والرضا عنه عبوديات أخر ، فإنه إذا تاب إلى ا لله تقبل ا لله توبته ، فرتب له على ذلك القبول أنواعاً من النعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها ، بل يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضها ويفسدها .

---

(١) مدارج السالكين ١/١٨٦-١٨٧ .

(٢) سورة آل عمران / الآيتان ١٣٥-١٣٦ .

ومنها أن الله سبحانه يحبه ويفرح بتوبته أعظم فرح ، وقد تقرر أن الجزاء من جنس العمل ، فلا ينسى الفرحة التي يظفر بها عند التوبة النصوح .. وهذا أمر لا يحس به إلا حي القلب ، وأما ميت القلب فإنما يجد الفرح عند ظفره بالذنب ، ولا يعرف فرحاً غيره ، فوازن إذا بين هذين الفرحين وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالذنب من أنواع الأحزان والهموم والغموم والمصائب ، فمن يشتري فرحة ساعة بغم الأبد ؟ وانظر ما يعقبه الظفر بالطاعة والتوبة النصوح من الانشراح الدائم والنعيم وطيب العيش)[1] .

٣ ـ الرجاء والمسارعة إلى العمل الصالح :

اليأس داء قاتل ، والمريض إذا يئس من الشفاء ترك الدواء وزادت علله وأمراضه بما يعتريه من كآبة وبؤس ، حتى يغدو كالميت وإن كان يعيش بين الأحياء .

والعبد المذنب إذا كثرت ذنوبه وسُدَّ أمامه باب التوبة وتوهم أن طريق العودة إلى ربه مقفل في وجهه ، فإنه سيصاب باليأس ، وينظر إلى الحياة نظرة سوداء قاتمة ، وتخبو آخر ومضة من نور الإيمان في قلبه ، ويتحول عن إنسانية التي كرَّمه الله بها إلى درجة أخس من البهائم ويصبح شراً مستطيراً على كل من حوله ، لذا حذرنا ربنا سبحانه من اليأس والقنوط من رحمته ، وأمرنا أن نسارع إلى التوبة والندم .

فقال تعالى : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون** ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ **ولا تيأسوا من رَوْح الله إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون** ﴾[3] .

وقال عزوجل : ﴿ **قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون** ﴾[4] .

ولقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال : (كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على راهب

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/٢٩٤ .
(٢) سورة الزمر / الآيتان ٥٣-٥٤ .
(٣) سورة يوسف / من الآية ٨٧ .
(٤) سورة الحجر / آية ٥٦ .

فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً ، فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمَّل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء .

فانطلق حتى إذا نَصّف الطريق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله .

وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط .

فأتاهم مَلَك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له ، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة ، وفي رواية : فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي ، وإلى هذه أن تقربي "[1] .

فالعابد الجاهل الذي سد باب التوبة أمام هذا التائب كان سبباً في إصابته باليأس وعودته إلى ارتكاب جريمة القتل ، ولكن هذا اليأس لم يدم طويلاً فقد عاوده الرجاء ثانية ليسأل عن عالم يفتيه في قبول توبته ، فلما أفتاه العالم وأرشده إلى طريق التوبة سارع بلا تردد ليحيا من جديد مع قوم أطهار ، وبادر بالسفر إلى القرية الصالحة ليعبد الله مع أهلها ، وأقبل على ربه بتوبة صادقة فكان أهلاً لسعة رحمة الله تعالى .

وهكذا أعاد الرجاء إلى هذا العبد ثقته بنفسه وشعوره بإنسانيته ، وزالت الحجب الكثيفة عن فطرته فبادر إلى التوبة وحطم حواجز اليأس القاتل ، ولو أنه استسلم لليأس وقنط من رحمة ربه ومات على ذلك لخسر خسراناً مبيناً .

قصة مؤثرة

أورد الإمام ابن القيم رحمه الله في مدارجه أن بعض الصالحين رأى في أحد الطرق باباً قد فُتح وخرج منه صبي يستغيث ويبكي وأمه خلفه تطرده حتى خرج ، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت ، فذهب الصبي غير بعيد ، ثم وقف مفكراً ، فلم يجد له مأوى غير البيت

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب التوبة ـ باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ـ رقم /٢٧٦٦ .

الذي أُخرج منه ، ولا من يؤويه غير والدته ، فرجع مكسور القلب حزيناً ، فوجد الباب مُرْتَجاً فتوسَّده ووضع خده على عتبة الباب ونام ، فخرجت أمه ، فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه ، والتزمته تقبله وتبكي ، وتقول : يا ولدي أين تذهب عني ؟ ومن يؤويك سواي ؟ ألم أقل لك لا تخالفني ، ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلتُ عليه من الرحمة بك والشفقة عليك وإرادتي الخير لك ؟ ! ثم أخذته ودخلت .

وقد علق الإمام ابن القيم على هذه القصة قائلاً : " فتأمل قول الأم : " لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلتُ عليه من الرحمة والشفقة "

وتأمل قوله ﷺ : " لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها "(١) .

وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء ؟ فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه ، فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأولى به "(٢) .

وصدق الحق سبحانه القائل : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾(٣) .

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : "(قال الله عز وجل : سبقت رحمتي غضبي)(٤) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه "(٥) .

---

(١) الحديث رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة المرأة التي أخذت صبيها فألصقته ببطنها وأرضعته وقد جيء بها إلى رسول الله ﷺ مع السبي فلما رأى ذلك قال ﷺ : " أترون هذه المرأة طارحةً ولدها في النار ؟ قلنا : لا والله ، وهي تقدر على أن لا تطرحه ، فقال رسول الله ﷺ : " لله أرحم بعباده من هذه بولدها " صحيح مسلم - كتاب التوبة - باب سعة رحمة الله تعالى - رقم /٢٧٥٤ .

(٢) مدارج السالكين ٢١٣/١-٢١٤ .

(٣) سورة الأعراف / من الآية ٥٦ .

(٤) صحيح مسلم - كتاب التوبة - باب سعة رحمة الله - رقم /٢٧٥١ .

(٥) صحيح مسلم - رقم /٢٧٥٢ .

وهكذا ينبغي للمؤمن أن يجمع بين الخوف والرجاء وأن يبادر إلى التوبة النصوح ويدعو ربه وهو موقن بالإجابة ، وأن يكثر من الاستغفار ، ويذكّر الناس به ليعودوا إلى ربهم تائبين خاضعين .

الفصل الرابع

مجاهدة النفس

من أعظم وسائل التزكية أن يجاهد العبد نفسه حتى تستقيم على شرع الله سبحانه، وقد سبقت الإشارة عند الحديث عن الجهاد وأثره في تزكية أن الجهاد يشمل ثلاثة معان:

الجهاد بالحجة والبرهان ، وجهاد القتال بالنفس والمال ، وجهاد النفس والشيطان ، أو يمكن القول بأن الجهاد يشمل مجاهدة العدو الداخلي والخارجي ، ولا شك أن النفس عندما تكون أمارة بالسوء فهي عدوة لصاحبها وخطرها أشد من خطر العدو الخارجي ، لأنها لا تقتصر في إهلاكها لصاحبها على إيقاع الضرر به في دنياه ، وإنما تجعله يخسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين (١) .

وبذلك يتبين أن المجاهدة شاقة على النفس ، وأن هذه المشقة تزداد كلما ازدادت عداوة النفس لصاحبها وتحكم الأهواء فيها ، ولذلك كان لزاماً على العبد أن يتحلى بالصبر والمصابرة ليفلح في مجاهدة نفسه والتغلب عليها .

وهكذا يدخل الصبر بجميع مجالاته في مجاهدة النفسس ، ومن أبرز هذه المجالات الصبر على طاعة الله والصبر عن معصية الله ، والصبر على ما يتعرض له العبد من بلاء حتى لا يتسخط القضاء .

وقد أورد الإمام ابن القيم رحمه الله تعريفات عدة للصبر ، من أبرزها قوله : " هو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل ، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها " (٢)

---

(١) لا شك أن من ترك نفسه لهواها ولم يقم بتزكيتها فقد خسر الدنيا وإن جمع من طعامها وانكب على شهواتها ، وهذا ما سنراه بالتفصيل إن شاء الله في الباب السادس عند الحديث عن ثمرات التزكية . (ينظر ص /٤٩٨ من هذا البحث)

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم - ص /١٥ .

كما عرَّف الإمام الألوسي رحمه الله الصبر فقال: (هو حبس النفس على ما تكره)[1].

فالصبر زاد المجاهدة ، والدافع لاستمرارها وتقويتها ، ومن عُدم الصبر لم يفلح في مجاهدة نفسه وكبح جماحها ، وكلما ازداد تعلق النفس بحظوظها وأهوائها ازدادت حاجة العبد إلى الصبر في مجاهدتها والمصابرة على عنادها حتى يلزمها بطاعة الله سبحانه ، ولهذا بين الإمام ابن القيم حقيقة الصبر وصلته بالمجاهدة فقال : " الصبر ثبات باعث العقل والدين في مقابلة باعث الهوى والشهوة " [2] .

ويمكن اعتبار هذا القول تعريفاً لمجاهدة النفس وتوضيحاً لكيفيتها .

الأدلة على وجوب وفضل مجاهدة النفس :

تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب مجاهدة النفس وإلزامها بشرع الله القويم ومن هذه الأدلة :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ **وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير** ﴾ [3] .

والمجاهدة في الله هي مجاهدة النفس في طاعة الله وردها عن الهوى ، ومجاهدة الشيطان في رد وسوسته ، والظلمة في رد ظلمهم ، والكافرين في رد كفرهم ـ كما قال الإمام القرطبي [4] .

فمن أبرز ما تأمر به هذه الآية الكريمة مجاهدة النفس التي هي أساس لكل مجاهدة ، ولذلك قال الإمام عبد الله بن المبارك في تفسيره لهذه الآية : " حق جهاده : مجاهدة النفس والهوى " [5] .

---

(١) روح المعاني للألوسي ٢٤٨/١ .
(٢) عدة الصابرين ـ ص/١٨ .
(٣) سورة الحج / آية ٧٨ .
(٤) تفسير القرطبي ٩٩/١٢ .
(٥) تفسير الفخر الرازي ٧٣/١٢ .

ولا شك أن سياق هذه الآية يشير إلى التأكيد على مجاهدة النفس بتحمل التكاليف الشرعية التي شرف الله عبادة بحملها واجتباهم لحمل هذه الأمانة ، من بين سائر الخلائق ، ولكن هذه التكاليف محفوفة برحمة الله تعالى ، بموافقتها للفطرة الإنسانية ، وتيسيرها على العباد ، وهذا واضح من قوله تعالى في هذه الآية : ﴿ **هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ .

فالمسلم عندما يؤمر بمجاهدة نفسه لا يعني ذلك أن يبذل فوق طاقته وأن يتحمل أكثر مما يقدر عليه ، وإنما هو ضبط للنفس وتحكم فيها لتسير في طريق صلاحها وسعادتها ، وتعتصم بحبل ربها (١) .

٢ - قوله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ (٢) .

وهذه الآية كسابقتها وإن كانت في عموم لفظها لا تختص بجهاد النفس لكن تأكيدها على جهاد النفس واضح من دلالتها ، ولذلك نقل الإمام ابن كثير عن ابن أبي حاتم قوله في معنى هذه الآية : " الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون " (٣) .

كما علق الإمام ابن القيم على هذه الآية فقال : " علق سبحانه الهداية بالجهاد ، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً ، وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا ، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته ، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد ، قال الجنيد : " والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص " .

ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً (٤) ، فمن نُصر عليهانصر علىعدوه ، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه " (٥) .

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن ٤/٢٤٤٦ .

(٢) سورة العنكبوت / آية ٦٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٤٢٢ .

(٤) ولكن هذا لا يعني ما يقول به بعض المتخاذلين من دعوى ترك الجهاد كلية بحجة الاشتغال بتزكية النفس وستتعرض لمناقشة هذه الدعوى عند الحديث عن الانحرافات في التزكية . (ينظر : ص ٤٧٦ من هذا البحث)

(٥) الفوائد لابن القيم ص / ٥٩ .

٣ - قوله تعالى : ﴿ **فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى** ﴾ (١) .

وفي هذه الآيات الكريمة تأكيد على ضرورة مجاهدة النفس وزجرها عن هواها المحرم الذي إن استرسلت فيه أدى إلى طغيانها ونسيانها للدار الآخرة وتعلقها بالحياة الدنيا حتى يكون مأواها نار جهنم مع الهالكين ، وإن أقدم العبد على مجاهدتها وعلاجها من آفاتها وألزمها بتقوى الله سبحانه والخوف من عذابه كان من أهل السعادة في جنة المأوى ، وفي هذا بيان لأهمية مجاهدة النفس ، وأن قيمة العبد ومكانته عند ربه بحسب ما يبذل من مجاهدة نفسه وتقويمها .

وقد قال الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية : " ونهى النفس عن الهوى : أي زجرها عن المعاصي والمحارم " (٢) .

٤ - وأما الأحاديث النبوية التي تحض على مجاهدة النفس فهي كثيرة ومن أبرزها : ما رواه الترمذي وغيره عن فُضالة بن عبيد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (**المجاهد من جاهد نفسه في الله عز وجل**)(٣) .

ويمكن الإشارة هنا إلى أن كل ما ورد من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية التي تأمر بالصبر عموماً وتحض على لزوم الطاعة والعبادة لله سبحانه والاستقامة على شرعه ، فهي أدلة على ضرورة مجاهدة النفس ورياضتها حتى تتعود على الطاعة وتنفر من المعصية .

ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً** ﴾ (٤) .

---

(١) سورة النازعات / الآيات ٣٧ - ٤١ .

(٢) تفسير القرطبي ٢٠٨/١٩ .

(٣) روه الترمذي - كتاب فضائل الجهاد - باب في فضل من مات مرابطاً - رقم /١٦٢١ وقال حسن صحيح،والإمام أحمد في مسنده ٢١/٦ ، والحاكم في المستدرك ١٠/١ وصححه ووافقه الذهبي ، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص / ٦٢ ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم /٥٤٩ ، والآجري في أدب النفوس ص/١٤ .

(٤) سورة مريم / آية ٦٥ .

وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ [1] .

وقد أشار الإمام ابن القيم إلى شمول هذه الآية لمعاني الصبر والمرابطة ومجالاتهما،فقال رحمه الله : " المرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر ، فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته " [2] .

وهذه هي حقيقة المجاهدة التي يتوصل بها العبد إلى الثبات والاستقامة على طاعة الله سبحانه ، ويترقى بنفسه من حالة النفس الأمارة إلى حالة النفس اللوامة المتيقظة ، ثم تترقى حتى تكون نفساً مطمئنة ، فتنال رضاء الرحمن وتدخل الجنة مع عباده راضية مرضية .

خطر النفس وضرورة مجاهدتها :

لكي نتبين أهمية مجاهدة النفس وضرورة كبح جماحها والإمساك بقيادها لابد من إلقاء الضوء على ما تتصف به النفس الأمارة من معاندة وزيغ عن طريق الحق ، وأن من غفل عنها جعلته عبداً لأهوائها ومن تيقظ لمجاهدتها سلم من شرها ، وسار في طريق الاستقامة وقد خفت أمامه العوائق .

يقول الامام ابن القيم رحمه الله : " النفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله عزوجل ، وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل ، فلا بد أن ينتهي إليه ، ولكن منهم من هو شاق عليه ، ومنهم من هو سهل عليه ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه .

وفي ذلك الجبل أودية وشعوب .. ولصوص يقطعون على السائرين .. فإذا لم يكن معهم عدد الإيمان ومصابيح اليقين تتقد بزيد الإخبات ، وإلا تعلّقت بهم تلك الموانع ، وتشبثت بهم تلك القواطع وحالت بينهم وبين السير .

فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته والشيطان على قلّة ذلك الجبل يحذر الناس من صعوده وارتفاعه ويخوفهم منه ... وكلما رقى

---

(١) سورة آل عمران / آية ٢٠٠ .

(٢) عدة الصابرين ـ ص / ٢٣ .

السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع وتحذيره وتخويفه ، فإذا قطعه وبلغ قُلته انقلبت تلك المخاوف كلهن أماناً ، وحينئذ يسهل السير ، وتزول عنه عوارض الطريق ، ومشقة عقباتها ، ويرى طريقاً واسعاً آمناً يفضي به إلى المنازل والمناهل ..

فبين العبد وبين السعادة والفلاح : قوة عزيمة ، وصبر ساعة ، وشجاعة نفس ، وثبات قلب "(١) .

وقد مثل الإمام الآجري رحمه الله النفس بمثل يبرز ضرورة مجاهدة النفس ورياضتها فقال : " اعلم أن النفس مثلها كمثل المُهر الحسن من الخيل ، إذا نظر إليه الناظر أعجبه حسنه وبهاؤه ، فيقول أهل البصيرة به : لا يُنتفع بهذا حتى يراض رياضة حسنة ويؤدب أدباً حسناً ، فحينئذ ينتفع به ، فيصلح للطلب والهرب ، ويحمد راكبه عواقب تأديبه ورياضته ..

ثم لا يصلح أن يكون الرائض إلا عالماً بالرياضة ، معه صبر على ما معه من علم الرياضة فإن كان الرائض لا معرفة له بالرياضة ولا علم بأدب الخيل ، أفسد هذا المهر وأتعب نفسه ولم يحمد راكبه عواقبه ، وإن كان له معرفة بالرياضة إلا أنه لم يصبر على مشقتها لم يصلح المهر للطلب ولا للهرب وكان له منظر بلا مخبر ، وندم على توانيه يوم لا ينفعه الندم)(٢) .

وكذلك النفس عندما تكون أمارة بالسوء فإنها لا تنقاد للمجاهدة بسهولة ، ولابد من ترويضها وبذلك الجهد المتواصل مع الصبر والثبات لكي تلين وتخشع ، وعندها تصبح مجاهدتها يسيرة لأنها تتحول من نفس أمارة إلى نفس لوامة تكون عوناً لصاحبها على طريق الخير بعد أن كان عدوة له .

وقد بين الإمام ابن القيم أن معركة المجاهدة بين المسلم ونفسه لابد أن تنجلي عن إحدى حالات ثلاث (٣) :

١ ـ الحالة الأولى : تغلب داعي الدين على داعي الهوى .

وهذا الظفر لا يصل العبد إليه إلا بدوام المجاهدة والصبر حتىتتزكى النفس وتسمو .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٧ـ٨ .

(٢) أدب النفوس للإمام أبي بكر الآجري ـ ص/٢٣ـ٢٤ ، بتصرف .

(٣) ينظر : عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص /٢٧ـ٣٠ .

٢ ـ الحالة الثانية : تغلب داعي الهوى على باعث الدين .

وذلك عندما تكون المجاهدة متراخية أو ضعيفة ، فتكون الغلبة لداعي الهوى ، ويستسلم البائس للشيطان وجنده حتى يكون تابعاً لهم ، وقد تغلب عليه شهوته ويشتري الحياة الدنيا بالآخرة حتى يصير الشيطان من جنده ، وهذه حال الفاجر القوي المتسلط والمبتدع الداعية لبدعته وضلاله ، كما قال القائل :

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتقى ... بيَ الحال حتى صار إبليس من جندي

٣ ـ الحالة الثالثة : أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين فتارة له وتارة عليه ، وهذه حال أكثر المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

وعندما تكون الحرب سجالاً بين المرء وهواه ينبغي عليه ألا ينفد صبره ويستسلم لشرور نفسه وإنما يصر على المضي إلى هدفه ، ويسارع إلى الاستقامة كلما تعثر ، ويضع نصب عينيه عقبى المتقين وعقبى الفجار في الدار الآخرة ، مما يزيد صبره على المجاهدة خوفاً من عذاب الله ورجاء لرحمته .

فقد وعد الله عباده الموفين بعدهم مع ربهم في سلوك طريق مرضاته ، الصابرين على ذلك بمجاهدة نفوسهم ، بأنه سبحانه سيمنحهم عقبى الدار في جنة الخلد ، فقال تعالى : ﴿ **الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ (١) .

وأما من استسلم لهواه ونقض عهده مع ربه ، وسار في طريق الغواية أسيراً لنفسه وشيطانه فجزاؤه سوء العاقبة يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الرعد / الآيات ٢٠-٢٤ .

(٢) سورة الرعد / آية ٢٥ .

وبهذا يتبين ضرورة مجاهدة النفس وخطر إهمالها أو الاستسلام لأهوائها .

طريقة المجاهدة والعوامل الميسرة لها :

لما أمر الله سبحانه عباده بمجاهدة النفس وتزكيتها ، يسر لهم سبل هذه المجاهدة وأوضح معالمها وأرشد إلى ما يسهل مشقتها ويخفف عناءها .

ويمكن إيضاح طريقة المجاهدة والعوامل المساعدة والميسرة لها من خلال الوصايا التالية :

١ ـ المداومة على العمل الصالح :

العمل الصالح هو الذي يمد العبد بالهمة على مجاهدة نفسه ويبعد الغفلة عن قلبه ، وكلما ازداد تمسك المسلم بالفرائض ومسارعته إلى النوافل كان ذلك زاداً له على طريق المجاهدة وغذاء يشحن قلبه بالعزم والتصميم على مواصلة الطريق .

وما دام العبد مداوماً على العمل الصالح وبخاصة قيام الليل والذكر والدعاء والصدقات وصيام التطوع ونحو ذلك فإنه قادر على مجاهدة نفسه والتغلب عليها ، فإذا ترك هذه الطاعات ضعف الزاد وتعثر الجواد .

ولذلك أرشدنا النبي ﷺ إلى أن القليل الدائم من العمل خير من الكثير المنقطع ، لأن من يلزم نفسه بعمل كثير قد يستمر عليه فترة من الزمن ثم يتركه ، ولا يقدر أن يداوم عليه، فإذا انقطع غفل قلبه من جديد وضعف عن مجاهدة نفسه فرجع إلى سالف عهده .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : " أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قَلّ " [(١)] .

قال الإمام النووي رحمه الله في بيانه لما يرشد إليه هذا الحديث : " فيه الحث على المداومة على العمل ، وأن قليله الدائم خير من كثير ينقطع ، وإنما كان القليل الدائم خيراً من الكثير المنقطع ، لأنه بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى ، ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة)[(٢)] .

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين ـ باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره ـ رقم /٧٨٢ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٦/٧١ ، وينظر : أدب الدنيا والدين للماوردي ص/١١٣ .

فالعمل الصالح زاد للمجاهدة لأنه يمد العبد بالطاقة التي يغلب بها على نفسه الأمارة فإذا توصل العبد في مجاهدتها ورياضتها إلى مستوى معين ثم أهملها وغفل عنها فإنها ستعود إلى سالف عهدها من جديد .

وفي هذا يقول الحكيم الترمذي : " إذا غفلت عن النفس بعدم رياضتها ، فلا تأمن أن تعود إلى بعض عاداتها ما دامت الشهوات منها حية ، والهوى قائماً " (١) .

ـ ويقول الإمام ابن حزم : " إهمال ساعة يفسد رياضة سنة " (٢) .

ـ ويقول الحافظ ابن حجر العسقلاني : " تمام المجاهدة أن يكون متيقظاً لنفسه في جميع أحواله ، فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات " (٣) .

٢ ـ البعد عن مواطن المعاصي :

المعاصي كالأمراض المعدية من جالس أهلها أو خالطهم لابد أن يتأثر بهم ولو بعد حين، ولذلك يجب على العبد الذي يسلك طريق المجاهدة أن يلزم نفسه بالابتعاد عن كل ما يجر إلى المعاصي أويذكر بها ، وبخاصة رفاق السوء ومجالس اللهو ومواطن المنكرات ، كما يجب عليه أن يتلف كل ما لديه من وسائل المعاصي كآلات اللهو وأشرطة الغناء والأفلام والصور الماجنة لأن هذه المنكرات ما دات قريبة منه فهي أسلحة بيد النفس الأمارة والشيطان المتربص ، وهي كالوقود إذا وضع بجانب لهب النار سرعان ما يشتد اشتعاله فيدمر ويهلك .

فمن أراد لزوم طريق الطاعة وبادر إلى التوبة النصوح عن المعاصي وعزم على مجاهدة نفسه للسير بها إلى مرضاة ربه ، فليجرد تلك النفس من كل سلاح قد تستخدمه لإعادة العبد إلى طريق السوء أو تُشوِّقه إليه .

وأبرز دليل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم من قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ثم دُل على راهب فقتله فكمَّل به مائة ، فلما دُل على عالم وأرشده إلى طريق

---

(١) أسرار مجاهدة النفس ـ للحكيم الترمذي ـ ص/٨٤ .

(٢) مداواة النفوس للإمام ابن حزم ـ ص/٨٢ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣٣٨/١١ .

التوبة ، بيّن له ما يعين على استمرارها وعدم الرجوع عنها ويمده بالطاقة على مجاهدة نفسه ، فقال له : " انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء " (١) .

وهكذا يتبين أن البعد عن مواطن المعاصي، وكل ما يتصل بها ، أساس لا بد منه لتقوية داعي الإيمان في النفسس والتغلب على داعي الهوى ، والانتصار على النفس الأمارة بالسوء .

ومن أبسط الأمثلة العملية المؤيدة لذلك أن من أراد الإقلاع عن التدخين ، وقد ترك علب السجائر في بيته ولم يتخلص منها ، واستمر في تقديمها ضيوفه ، فإن امتناعه عن التدخين لن يطول ، ولابد أن تضعف إرادته وتخور عزيمته ، وهو يرى علب السجائر أمامه صباح مساء ، ومهما اعتقد نظرياً بضرر التدخين وشره فإن نفسه ستغلبه لأنه لم يجردها من سلاحها .

٣ ـ التدرج في مجاهدة النفس :

العزم الأكيد على المبادرة إلى جهاد النفس وعدم التسويف في ذلك لا يعني أن يجاهد العبد نفسه الأمارة في ساعة من الزمن ، كأنه يريد أن ينقضّ عليها انقضاضاً ، حتى تتخلى عن جميع الصفات المذمومة وتتحلى بالخصال المحمودة دفعة واحدة ، فإن هذا مخالف لطبيعة البشر ، وبخاصة أن كثيراً من العادات والأفعال السيئة عندما يمارسها الإنسان مدة طويلة من الزمن فإنها تصبح ثابتة في النفس مستقرة فيها ، ولابد من إرادة قوية وجهد متواصل وتدريب متكرر حتى تتخلى عنها ، وتتحول من الشغف والتعلق بها إلى النفور منها والكراهية لها .

وأقرب مثال لذلك الطفل الرضيع الذي اشتد تعلقه بالرضاعة فلو أرادت أمه أن تفطمه دفعة واحدة فإنها لن تتمكن من ذلك وسيزداد تعلق طفلها بالرضاعة وتشوقه إليها ، والأسلوب الصحيح أن تحاول الأم بالتدريج وبمختلف الوسائل صرف الطفل عن هذا التعلق الشديد وإيجاد البديل الذي يستغني به عن الرضاعة فإذا انفطم كره أن يعود للرضاعة مرة ثانية ونفر منها

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب التوبة ـ باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ــ رقم / ٢٧٦٦ وقد سبق بنصه في مبحث التوبة (ص/٢٤٢ من هذا البحث) .

وهذا الأسلوب الحكيم في مجاهدة النفس حتى تتحول من محبة المعصية إلى كراهيتها ، هو الأسلوب الذي حرّم به الإسلام الخمر والربا وغيرهما من المنكرات التي كانت متأصلة في النفوس حتى سارع الصحابة رضي الله عنهم إلى سكب ما لديهم من الخمر في طرقات المدينة بعد أن كانوا قبل الإسلام لا يصبرون على فراقها .

ولا شك أن النفس الأمارة عدو متربص ولا يتم التغلب عليها إلا بالثبات وطول المجاهدة وترسيخ الإيمان وزيادة الصبر حتى تذل وتقنع .

وتحطيم العادات السيئة المتأصلة في النفس مع المبادرة إلى الأعمال الصالحة أشبه بالتدريب الرياضي ، فمن أراد التدرب على رياضة ما كالمشي الطويل فلا بد أن يعد نفسه لذلك بالتدريج ، ولو أنه بدأ من اليوم الأول مسيراً طويلاً قد لا يتمكن من إتمامه ولا يصبر عليه فيخفق في تحقيق هدفه ويتخلى عنه وييأس من إكمال الطريق .

والعادة سواء كانت حسنة أو سيئة فإنها تتكون في النفس وتتعمق فيها مرة بعد مرة ويعاني الإنسان في بادئ الأمر من الاستمرار فيها إذا لم تكن موافقة لحظوظ النفس ولكنه مع التكرار والتدرج يألفها ويتعود عليها .

فإذا أرد العبد أن يستأصل عادة سيئة ويزرع مكانها عادة حسنة وخلقاً فاضلاً فلابد له أولاً من تقوية الهدف الباعث لذلك ثم العزم والتصميم والثقة في النفس وعدم التردد حتى يصل إلى الهدف ويصبح ذلك ملكة وطبعاً مألوفاً ، وقد أوضح الإمام ابن القيم هذا المعنى فقال : " المزاولات تعطي الملكات ، ومعنى هذا أن من زاول شيئاً واعتاده وتمرن عليه صار ملكة وسجية وطبيعة .. غير أن هذاالانتقال قد يكون ضعيفاً ، فيعود العبد إلى طبعه بأدنى باعث " [١] .

٤ ـ معاقبة النفس والتشديد عليها :

إذا رأى المسلم من نفسه ميلاً إلى المعاصي وتقصيراً في الطاعات ولم تطاوعه نفسه على سلوك طريق الحق ، فليبادر إلى معاقبتها بعقوبة مشروعة حتى تنزجر وتستقيم ، وذلك كما

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ـ ص/٢٢ .

يعاقب الأب ولده العاصي لتأديبه وتربيته ، فالنفس أحق بالعقوبة والتأديب من الولد ونحوه .

والمقصود بالعقوبة المشروعة هنا إلزام النفس بشيء يشق عليها فعله بشرط أن لا يؤدي ذلك إلى ضرر بالجسم أو إيذاء له،فلا يجوز أن يعاقب نفسه بالامتناع عن الطعام حتى يشرف على الهلاك أو تعذيب عضو من أعضائه بالنار ونحو ذلك ، فإن هذا محرم شرعاً ، وهو من الانحرافات التي وقع فيها بعض المشتغلين في تزكية النفس كما سنبين ذلك إن شاء ا لله (١) .

وأنفع العقوبات ما كان عملاً صالحاً من الأعمال التي تشق على النفس كالصدقة وصيام عدة أيام وقيام ساعات من الليل، وذلك يختلف بحسب اختلاف النفوس وقوة صبرها.

وقد ألمح الإمام ابن القيم إلى ذلك فقال : " من الناس من تكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به وثباته عليه أقوى من صبره عما يضره ، فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له على داعي هواه إلى ارتكاب ما نهي عنه ، ومنهم من تكون قوة صبرة عن المخالفات أقوى من صبره على مشقة الطاعات .. وكثير من الناس يصبر على مكابدة قيام الليل في الحر والبرد وعلىمشقة الصيام ولا يصبر على نظرة محرمة .. " (٢) .

وعلى هذا يمكن للعبد أن يلاحظ الأعمال التي تشق على نفسه فيجعلها عقوبة يؤدب بها تلك النفس إذا وقعت في معصية أو فرطت في طاعة .

فإن ضيّع صلاة الفجر بسبب مشقة الاستيقاظ وترك لذيذ المنام فليقم بإحياء ساعات من إحدى الليالي يهجر فيها مضجعه ، وإن قصر في حق غيره بخلاً المال فليتصدق ليلزم نفسه بالإقلاع عن عن تلك الآفة .

فالتشديد على النفس ومنعها مما تحب لفترة محددة ترويض لها وتليين لطبعها وعلاج لأمراضها ، وهو بمنزلة الدواء المر الذي يشربه المريض وهو كاره له رجاء أن يكون سبباً في الشفاء بإذن ا لله .

كما أن من وسائل عقوبة النفس منعها من طعام تشتهيه أو نحو ذلك حتى تتخلى عن صفة مذمومة أو عادة سيئة ، بل إن تقليل الطعام وعدم الاسراف فيه وسيلة لابد منها

---

(١) ينظر ص ٤٦٢ من هذا البحث .

(٢) عدة الصابرين ص /١٧-١٨ .

لتنشيط النفس على الطاعة وتقوية بواعث المجاهدة ، ولهذا ورد في الحديث عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه " (١) .

فالإكثار من الطعام والشبع المفرط يثقل عن الطاعات ، ومن أكل كثيراً شرب كثيراً فنام كثيراً فخسر كثيراً " (٢) .

٥ ـ ترويح النفس :

كثرة المجاهدة والاشتغال بتأديب النفس وموعظتها قد يؤدي إلى السآمة والملل ، ولذلك لابد من ترويحها بين الحين والآخر ببعض المباحات للتقوّي بها على الطاعات .

ـ ودليل ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا " (٣) .

والمقصود من ذلك ـ كما قال الحافظ ابن حجر رحمه الله أنه كان يراعي الأوقات في تذكيرهم ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا يملوا، والضابط في ذلك الحاجة مع مراعاة وجود النشاط(٤).

ـ وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُلجة " (٥) .

وفي رواية له : " سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا ، وشي من الدلجة ، والقصد القصد

---

(١) رواه الترمذي ـ كتاب الزهد ـ باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل ـ رقم /٢٣٨٠ وقال حديث حسن صحيح ، ورواه الحاكم ١٢١/٤ ، وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) ينظر : مدارج السالكين ٤٥٨/١-٤٥٩ .

(٣) رواه البخاري ـ كتاب العلم ـ باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم ـ ٢٥/١ .
ورواه مسلم ـ كتاب صفات المنافقين ـ باب الاقتصاد في الموعظة ـ رقم /٢٨٢١ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٦٢/١ ـ ١٦٣ .

(٥) رواه البخاري ـ كتاب الإيمان ـ باب الدين يسر ـ ١٥/١ .

تبلغوا " [1] .

قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث : " الغدوة : سير أول النهار ، والرَّوْحة : آخر النهار ، والدلجة : آخر الليل ، وهذا استعارة وتمثيل ومعناه : استعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون ، وتبلغون مقصودكم ، كما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته في غيرها ، فيصل المقصود بغير تعب " [2] .

وفي هذا المثل النبوي البليغ درس توجيهي عظيم لكيفية التعامل مع النفس حتى يصل بها العبد إلى صلاحها بأيسر السبل دون أن يلزمها مالا تطيقه فتنفر منه وتتمرد عليه .

وما أحسن قول الإمام ابن الجوزي رحمه الله وهو يبين أهمية ترويح النفس ومداراتها فيقول : " رُبَّ شدٍ أَوجبَ استرخاء ، ورُبَّ مضيِّق على نفسه فرَّت منه فصعب عليه تلافيها، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل ، يحملها على مكروهها في تناول ما ترجو من العافية ، ويذوب في المرارة قليلاً من الحلاوة .. فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها ولا يهمل مقودها ، بل ليرخي لها في وقت والطول بيده ، فما دامت على الجادة لم يضايقها في التضييق عليها ، فإذا رآها قد مالت ردها باللطف ، فإن وَنت [3] وأبت فبالعنف " [4] .

ولاشك أن هذاالترويح للنفس له أوقات معينة وأهداف محددة ، وضوابط شرعية ، حتى لا يتحول إلى تضييع وهدر للأوقات واسترخاء للنفس يؤدي إلى تثاقلها عن الطاعة وإخلادها للكسل ، فهو كما وصف الإمام ابن الجوزي أن يرخي لجام نفسه دون أن يتركه ويهمله .

ومن وسائل هذا الترويح التمتع بالمباحات دون سرف ولا خيلاء .

وفي ذلك يقول الامام ابن جماعة رحمه الله : " لا بأس أن يريح نفسه إذا خاف مللا

---

(١) رواه البخاري - كتاب الرقاق - باب القصد والمداومة على العمل - ١٨٢/٧ .

(٢) رياض الصالحين - ص/٧٩ .

(٣) أي ضعفت .

(٤) صيد الخاطر لابن الجوزي - ص/٧٠ .

وكان بعض أكابر العلماء يجمع أصحابه في بعض أماكن التنزه في بعض أيام السنة ، ويتمازحون بما لا ضرر عليهم في دين ولا عرض " [1] .

مجاهدة النفس على الخواطر :

من رحمة الله بعباده أن الخواطر - التي هي حديث النفس - لا حساب عليها ما لم تتحول إلى عزم محرم ونية وقصد .

وقد نزل بادئ الأمر على الرسول ﷺ قوله تعالى : ﴿ **وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾ [2] ففهم الصحابة من عمومها المؤاخذة على حديث النفس ، وشق ذلك عليهم فأمرهم النبي ﷺ أن يقولوا : سمعنا وأطعنا ، فلما فعلوا ذلك نزلت الآيات التالية [3] ، وفيها قوله تعالى : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾ [4] .

كما أن مما يدل على أن الله سبحانه تجاوز برحمته عن الخواطر وحديث النفس ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أويعلموا به " [5] .

ولا شك أن الخواطر منها ما هو داع إلى المعصية ومنها ما هو ترغيب وهمة إلى الطاعة، ولذلك قسم الإمام الغزالي الخواطر إلى ثلاثة أقسام [6] .

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم - للإمام أبي عبد الله بن جماعة (ت٧٣٣ هـ) ضمن مجموعة (آداب المعلمين) جمع وتحقيق : أحمد عبد الغفور عطار - ص / ١٨٧ .

(٢) سورة البقرة / من الآية ٢٨٤ .

(٣) ينظر التفصيل في صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان أنه سبحانه لم يكلف إلا ما يطاق - حديث رقم /١٢٥-١٢٦، وينظر: تفسير القرطبي ٤٢١/٣، وابن كثير ٣٤٢/١ ، قال الإمام ابن رجب الحنبلي: (وقد سمى ابن عباس وغيره ذلك نسخاً، ومرادهم أن هذه الآية أزالت الإبهام الواقع في النفوس من الآية الأولى وبين أن المراد بالآية الأولى العزائم المصمم عليها) - جامع العلوم والحكم ص/٣١١ .

(٤) سورة البقرة / من الآية ٢٨٦ .

(٥) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر - رقم / ١٢٧ .

(٦) ينظر : إحياء علوم الدين ٢٩/٣ .

القسم الأول : ما يعلم قطعاً أنه داع إلى الشر ، فلا يخفى كونه وسوسة .

القسم الثاني : ما يعلم أنه داع إلى الخير فلا يشك في كونه إلهاماً .

القسم الثالث : ما يتردد فيه ، فإن من مكايد الشيطان أن يعرض الشر في معرض الخير أحياناً ليستدرج العبد إلى المعصية بالحيلة ويزينها له [1] .

وبهذا التقسيم تتبين أهمية الخواطر باعتبارها البذرة الأولى التي تُنبت العمل سواء كان طاعة أومعصية ، وقد أشار الإمام الغزالي إلى ذلك فقال :

" الخواطر هي المحركات للإرادات ، فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوي بالبال لا محالة ، فمبدأ الأفعال الخواطر ، ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء " [2] .

فمن أراد وقاية نفسه من العزم المحرم وما ينتج عنه من فعل المعصية فليجاهد مبدأ هذا العزم ألا وهو الخواطر ، لأن معظم النار من مستصغر الشرر ، ومن قضى على الشرر سلم من خطر النيران .

وقد أرشد الإمام ابن القيم إلى ضرورة مجاهدة الخواطر لئلا تترسخ في النفس ، فقال :

" دافع الخطرة ، فإن لم تفعل صارت فكرة ، فدافع الفكرة ، فإن لم تفعل صارت شهوة ، فحاربها ، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة ، فإن لم تدافعها صارت فعلاً ، فإن لم تتداركه بضده صار عادة فيصعب عليك الإنتقال عنها " [3] .

فالخواطر وإن كان الله سبحانه قد عفا عنها إلا أن الاسترسال فيها يؤدي إلى العزم المحرم حتى يوقع العبد في المعصية ، ولذلك لا بد من مجاهدةهذه الخواطر ومتابعة آثارها في النفس حتى تقتلع وتزول .

ولعل مما يستشهد به في هذا المجال ما رواه الترمذي عن عطية السعدي رضي الله عنه قال :

---

(١) سنتحدث عن مكائد الشيطان ووساوسه عند الحديث عن معوقات التزكية في الباب الرابع من هذا البحث (ينظر ص /٤٢٧)

(٢) إحياء علوم الدين ٣/٢٧ .

(٣) الفوائد ـ للإمام ابن القيم ـ ص/٣١ .

قال رسول الله ﷺ : " لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً لما به البأس " (١) .

يضاف إلى ذلك أن ملاحظة خواطر النفس والانتباه إليها يُعرّف المسلم بمستوى التزكية التي ارتقت إليها نفسه ، فمن كانت خواطر السوء متأججة في نفسه فهذا مؤشر خطير على مرض تلك النفس وضعفها وتسلط الشيطان عليها ، وعندئذ لا بد له من مجاهدتها واتباع المنهج الإسلامي في تزكيتها حتى تتطهر من أدرانها .

ولو أن العبد المسلم أقلع عن المعاصي وتاب منها ، لكنه ما زال يعاني من خواطر السوء التي تدعوه إليها ، فليستعن بالله تعالى في مجاهدتها ، لأن هذه الخواطر دخان المعاصي ، فقد ذهبت العصية وبقي دخانها ، وذهب الشيطان وبقي ظلله ، ولازال الهوى والتعلق بالمعصية باقياً في قلبه الذي لم يصقل بعد (٢) ، وفائدة مجاهدة هذه الخواطر انتزاع دخان المعصية حتى تفطم النفس عنها وتنفر منها .

صلة المجاهدة بالدعوة :

مجاهدة الداعية لنفسه أساس لا بد منه لكي تكون دعوته ناجحة ومؤثرة في نفوس الناس ولكي يتمكن من تزويد الآخرين بالطاقة والقدرة على مجاهدة نفوسهم والانتصار عليها .

وفي ذلك يقول الإمام أبو بكر الآجري رحمه الله : " إن من قوّم نفسه حتى تستقيم فبالحري أن ينفع نفسه وغيرها ، ومن غلبته نفسه فأنفس الناس أحرى أن تغلبه ، وكيف لا يضعف عن أنفس الناس وقد ضعف عن نفسه ؟ وكيف يُؤْمن على كل شيء من الأنفس وهو متهم على نفسه ؟ وكيف يُهتدى بمن قد أضل نفسه ؟ ...

ومن لم يحسن أن يكون طبيباً لنفسه لم يصلح أن يكون طبيباً لنفس غيره ، ومن لم يحسن أن يؤدب نفسه لم يحسن أن يؤدب غيره " (٣) .

وقد سبقت الإشارة (٤) إلى ضرورة اهتمام الداعية بنفسه والحرص على تزكيتها ليحقق

---

(١) رواه الترمذي - كتاب صفة القيامة - باب / ١٩ - حديث رقم / ٢٤٥١ وقال : حديث حسن ، وحسّنه محقق جامع الأصول الشيخ عبد القادر الأرناؤوط (٤/٦٨٢) .

(٢) ينظر : أسرار مجاهدة النفس للحكيم الترمذي - ص / ٧٦ .

(٣) أدب النفوس للآجري ص / ٢٥-٢٦ .

(٤) ينظر ص / ١١١ من هذ البحث عند الحديث عن العلم النافع .

النجاح لدعوته ، وضرورة أن يعلم نفسه قبل غيره ويلتزم بما يأمر الناس به ليحظى بمرضاة الله سبحانه وينجو من سخطه .

ونختم الحديث في هذا المجال بإعادة التأكيد على ضرورة المجاهدة وتقوية بواعثها في النفس ، وبخاصة الخوف من عذاب الله سبحانه والطمع في رضوانه ، ولا شك أن النفس لا تصبر على حرمانها مما تشتهي إلا إذا أيقنت بوعد صادق أنها ستعوض بما هو خير وأبقى ، ومثلها في ذلك كمن افتقد دراهمه فاشتد حزنه وضاق ذرعاً ، فإذا أتاه من يخبره بأنه سيعطيه أضعاف ما فقد اطمأن وانشرح صدره وتحول الحزن إلى سرور ، وهكذا شأن المجاهدة يعاني صاحبها من شدائدها في بادئ الأمر فإذا ارتقى إيمانه وازداد يقينه بوعد الله سبحانه وعظيم أجره وفضله سارع بنشاط إلى متابعة الطريق حتى ينتصر على نفسه فيحس بلذة الظفر ويتذوق حلاوة الإيمان .

ولذلك كان أول ما أرشد إليه النبي ﷺ الحصين رضي الله عنه عندما أسلم أن يدعو ربه ويلجأ إليه ليعينه على مجاهدة نفسه ويبعد عنه شرورها .

فقد روى الترمذي عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه قال : ـ وهو يحدث عن إسلام أبيه حصين ـ قال رسول الله ﷺ : " يا حصين أما إنك لو أسلمت لعلمتك كلمتين تنفعانك .

قال : فلما أسلم حصين قال : يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني ، فقال : قل اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي " (١) .

(١) رواه الترمذي في الدعوات ـ باب رقم (٧٠) ـ حديث / ٣٤٧٩ ، وقال : حسن غريب .

الفصل الخامس

صحبة الصالحين والتأمل في أخبارهم

صحبة الصالحين ومجالستهم والتأمل في أخبارهم وسيرهم تُكسب المرء الصلاح والتقوى، وترقى بالعبد إلى مدارج الكمال ، وتُعدُّ سياجاً واقياً من آفات النفس ومكائد الشيطان .

ولذلك أمرنا ربنا سبحانه بصحبة أهل الصدق والتقوى والحرص على مجالستهم وملازمتهم فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه** ﴾ (٢) .

كما بين المولى سبحانه أن كل صحبة أو صداقة لا ترتبط عراها على أساس الدين والإيمان والتقوى فسوف تنقلب إلى عداوة يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌّ إلا المتقين** ﴾ (٣) .

وما أشد موقف الحسرة والندامة لمن انساق وراء أصدقاء السوء وجالسهم حتى كانوا سبباً في إفساده وإبعاده عن طريق أهل الإيمان .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً** ﴾ (٤) .

---

(١) سورة التوبة / آية ١١٩ .

(٢) سورة الكهف / من الآية ٢٨ .

(٣) سورة الزخرف / آية ٦٧ .

(٤) سورة الفرقان / الآيات ٢٧-٢٩ .

ومن طبيعة الإنسان أنه لا يستغني عن الأصدقاء فهو يجب دائماً أن يكون له أصحاب يلتقي بهم ويأنس بمجالستهم ، ومن هنا جاءت أهمية اختيار الصحبة ، لما لها من دور بارز في التأثير ، فالصحبة الصالحة تضيء للمسلم طريق الخير ، والصحبة السيئة كالمرض المعدي في إهلاكها وانتشار أضرارها وشرورها .

ولذلك أرشد النبي ﷺ في أحاديث كثيرة إلى ضرورة اختيار الجليس الصالح والبعد عن جلساء السوء،ومن هذه الأحاديث :

١ ـ ما رواه الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : " إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يُحذيك وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة " (١) .

وفي هذا المثل النبوي المحكم إشارة إلى درجات التأثير لكلٍ من الجليس الصالح وجليس السوء فالجليس الصالح كحامل المسك ، إما أن يحذيك ، أي يمنحك من إرشاداته ونصائحه وعلمه،وإما أن تقتبس منه ما يصلح أحوالك ويدلك على الخير ، وإن لم يكن هذا ولا ذاك فإنك على أقل الأحوال ستكسب من مجالسته السمعة الحسنة بينالناس ، ولابد أن تتأثر من سلوكه وأخلاقه ، وعلى الأقل فإن مجالسته تذكرك با لله فلا تقع في المعاصي ولا تفكر فيها .

أما جليس السوء فإنك بمصاحبته تعرّض نفسك لخطر الانحراف في طريق الفساد ، حتى تصبح مثله في ضلاله فيحرق إيمانك كما يحرق نافخ الكير ثياب من اقترب منه ، ولو أنك سلمت من التأثير به في بادئ الأمر ، وكنت حذراً في مجالسته فإنك لن تسلم من السمعة السيئة ، والتأثر النفسي الذي هو بداية للتأثير في السلوك ، وذلك ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله : " وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة " فمن حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه .

فالصاحب ساحب ولو بعد حين ، ومن ادعى أنه لا يتأثر بمصاحبة الأشرار فقد أخطأ ، لأن أثر الصحبة السيئة يبدأ في القلب الذي يدخله الميل إلىالمعصية والرغبة فيها وعدم

---

(١) رواه البخاري في البيوع ـ باب في العطار وبيع المسك ٣/١٦ ، ورواه أيضاً في الذبائح والصيد ـ باب المسك،ورواه مسلم في البر والصلة ـ باب استحباب مجالسة الصالحين ـ رقم/٢٦٢٨ واللفظ له .

إنكارها ، ويزداد ذلك التأثر حتى ينعكس على السلوك والأفعال ، وبمقدار ما يدخل ذلك القلب من ظلمة المعصية بمقدار ما يخرج منه من نور الإيمان .

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله : " ما رأيت أكثر أذى للمؤمن من مخالطة من لا يصلح ، فإن الطبع يسرق ، فإن لم يتشبه بهم ولم يسرق منهم فتر عن عمله "[1] .

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل "[2] .

وفي هذا الحديث النبوي تأكيد على اختيار الصاحب الصالح وبيان لمدى تأثير الصحبة على عقيدة الإنسان وسلوكه ، حتى إنه من شدة التأثير يتحول إلى دين خليله وصاحبه ، فإن كان ذلك الصاحب مؤمناً زاده تمسكاً بالإيمان ومسارعةً إلى العمل الصالح ، وإن كان من أهل الانحراف والفساد انحرف معه وسار في طريقه ، ولذلك حثّ الرسول ﷺ على اختيار الصحبة الصالحة فقال : " فلينظر أحدكم من يخالل " .

والخلة أعلى درجات الصحبة والمحبة ، وهي مأخوذة من تخلل المودة في القلب وتمكنها منه ، وفي هذه الحالة يكون التأثير سريعاً إلى درجة أن الخليل يحاكي خليله في أقواله وأفعاله دون أن يبذل جهداً في ذلك .

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف "[3] .

وفي هذا الحديث ـ كما قال الإمام الخطابي ـ إشارة إلى معنى التشاكل في الخير والشر، والصلاح والفساد ، وأن الخيِّر من الناس يحن إلى شكله ، والشرير نظير ذلك يميل إلى

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي ـ ص/٣٦٣ .

(٢) رواه أبو داود ـ كتاب الأدب ـ باب من يؤمر أن يجالس ، رقم / ٤٨٣٣ . .
والترمذي ـ كتاب الزهد-باب / ٤٥ ، رقم ٢٣٧٨ ، وقال حديث حسن ، والإمام أحمد في المسند ٣٠٣/٢ وغيرهم .

(٣) رواه مسلم ـ كتاب البر والصلة والآداب ـ باب الأرواح جنود مجندة ـ رقم /٢٦٣٨ . وأورده البخاري تعليقاً في صحيحه ـ كتاب الأنبياء ـ باب الأرواح جنود مجندة .

نظيره [1] ، وموضع الشاهد هنا من هذا الحديث أن مصاحبة الصالحين ضرورة لابد منها ولو وجد المرء في بادئ الأمر عناء في ذلك ، فإن هذا العناء دليل على أن نفسه الأمارة بالسوء تدعوه إلى مصاحبة من هو على شاكلته ، فإذا جاهد نفسه على مصاحبة الأخيار ، ولم يترك أمر الصحبة تبعاً لهوى النفس ، فإنه سيحظى بالخير العميم ، وسيلاحظ التغير في حاله وسلوكه حتى يألف صحبة الصالحين ولا يستغني عن مجالستهم .

ولا شك أن مما يسهل على النفس صحبة الأخيار ، أنهم لما منحهم الله من حسن الخلق في معاملة الناس والتلطف في دعوتهم والرفق بهم ، فإن النفوس تميل إليهم بسرعة وتألف مجالستهم ومخالطتهم .

ومصداق ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : " المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف " [2] .

فليحرص المؤمن على مصاحبة الأخيار ومجالسة العلماء لكي يقتبس من أحوالهم ويتأسى بأفعالهم،وقد روى الإمام أحمد رحمه الله أن لقمان الحكيم قال لابنه : " يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل القطر " [3].

ومن هنا نتبين أهمية الصحبة الصالحة وضرورة مجالسة الصالحين كما كان عليه حال الصحابة رضي الله عنهم في حرصهم على مجلس الرسول ﷺ ولزوم محبته والاقتداء به .

ولا شك أن العلماء العاملين خير من تنبغي مجالستهم وملا زمتهم ، فهم ورثة الأنبياء ، وكلما كان العالم أكثر علماً وعملاً وإخلاصاً ، فمجالسته غنيمة وصحبته كسب عظيم لكل من أراد سلوك الطريق المستقيم .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : " لما كان طالب الصراط المستقيم طالبَ أمرٍ أكثرُ الناس ناكبون عنه .. نبّه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق ، وأنهم هم الذين :

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣٦٩/٦ .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ٤٠٠/٢ ، والطبراني والحاكم وصححه .

(٣) مدارج السالكين ٢٦٢/٣ .

﴿ أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾[1]، فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له ، وهم الذين أنعم الله عليهم ، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه ، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط : هم الذين أنعم الله عليهم ، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له ، فإنهم هم الأقلون قدراً وإن كانوا الأكثرين عدداً ، كما قال بعض السلف : " عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين ، وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين " ، وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق ، واحرص على اللحاق بهم ، وغض الطرف عمن سواهم ، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم ، فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك " [2] .

ثم قال رحمه الله : " القصد أن في ذكر الرفيق ما يزيل وحشة التفرد ، ويحث على السير والتشمير للّحاق بهم ، وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت : " اللهم اهدني فيمن هديت " أي : أدخلني في هذه الزمرة واجعلني رفيقاً لهم ومعهم " [3] .

آثار الصحبة الصالحة في مجال تزكية النفس :

الصحبة الصالحة كنزٌ لا ينفد ، ومعين لا ينضب ، وكلما كان صلاح الأصحاب أكبر، ازدادت ثمرات تلك الصحبة وعظمت آثارها في مختلف المجالات ، ومن أبرزها مجال تزكية النفس ، فالصحبة الصالحة رافد كبير من روافد التزكية بما تمنحه من آثار عظيمة ، من أهمها:

١ ـ الحب في الله :

طريق الحب الخالص لله سبحانه هو طريق الجنة ، ولا يبلغ العبد منزلة الحب الصادق إلا بصحبة الصالحين ، لأن الصحبة تؤدي إلى الألفة ، فإذاتعمقت الألفة توثق الحب في الله وأثمر حلاوة الإيمان وحظي المتحابون بمحبة الرحمن .

وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة ، منها :

---

(١) سورة النساء / من الآية ٦٩ .

(٢) مدارج السالكين ١/٢١ ـ ٢٢ .

(٣) المرجع نفسه ١/٢٢ .

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ : " ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار " (١) .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أُظلهم في ظلي يوم لا ظلَ إلا ظلي " (٢) .

- وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله " وذكر منهم : " ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه " (٣) .

- وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ : " قال الله تعالى : وجبت محبتي للمتحابين فيَّ ، والمتجالسين فيَّ ، والمتزاورين فيَّ ، والمتباذلين فيَّ " (٤) .

فمحبة الصالحين ومجالستهم وزيارتهم توجب محبة الله سبحانه ، فما أعظمها من ثمرة يظفر بها المتحابون وما أسعد العبد الذي يحظى بمحبة الله ورضوانه .

٢ - التناصح والتواصي :

الربح الحقيقي للمسلم أن يكون له صحبة ينصحونه ويوصونه بالخير ويذكرونه بربه حتى لا يغفل أو يضل ، ولا سعادة للمرء إلا بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالإستقامة على طريق الحق .

وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ .

---

(١) رواه البخاري - كتاب الإيمان - باب حلاوة الإيمان - ٩/١ .
ومسلم - كتاب الإيمان - باب بيان خصال الإيمان - رقم/ ٤٣ .

(٢) رواه مسلم - كتاب البر والصلة - باب فضل الحب في الله تعالى .

(٣) رواه البخاري - كتاب الأذان - باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة - ١٦١/١ .
ومسلم - كتاب الزكاة - باب سبعة يظلهم الله - رقم/ ١٠٣١ .

(٤) رواه مالك في الموطأ ٩٥٣/٢ ، بإسناد صحيح كما قال النووي في رياض الصالحين ص / ١٥٦ ، ورواه ابن حبان رقم / ٢٥١٠ ، وصححه ، والحاكم ووافقه الذهبي ، وصححه المنذري في الترغيب والترهيب ١٨/٤ .

فالله سبحانه يقسم بالعصر على أن الإنسان في خسارة وهلاك إلا الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم وتواصوا فيما بينهم على أداء الطاعات وترك المحرمات ، كما تواصوا بالصبر على كل ما يتعرض له المسلم من مصائب ومحن [١] .

ولا شك أن العبد المسلم لا يخلو من العيوب ولا يسلم من الأخطاء والزلات ، وأن كثيراً من هذه العيوب قد لايلاحظها العبد لأنه ألِفها واعتاد على فعلها أو لأنه لم يتبصر بخطرها .

فإذا لم يكن له أصحاب أوفياء ناصحون يرشدونه إلى السلوك القويم وينصحونه في كل صغيرة وكبيرة ، فإن النفس تستهويها هذه الأفعال حتى تنساق وراءها وتتمادى في انحرافاتها فتهلك ، فإذا وجدت الصحبة الصالحة كانت سياجاً واقياً من الهلاك .

وقد شبه الرسول ﷺ ما يقوم به المؤمن من نصيحة أخوانه وتبصيرهم بعيوبهم بأنه كالمرآة تكشف العيوب وترشد إلى مواطن القبح حتى يتلافاها صاحبها .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " المؤمن مرآة أخيه ، والمؤمن أخو المؤمن ، يكفُّ عنه ضيعته ويحوطه من ورائه " [٢] .

وعندما ينظر الإنسان في المرآة فيرى أوساخاً على وجهه فإنه لا يعاتب المرآة ولا يهجرها وإنما يفرح بما لاحظه من عيوبه التي كشفتها تلك المرآة ويسارع إلى إزالتها ، وكذلك الصديق الناصح ينبغي أن نفرح بنصيحته ونشكره عليها ونستجيب لها ، ونصبر على مرارتها لأنها ستؤدي إلى نجاتنا من المهالك وطهارة نفوسنا من الدنس .

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله : " المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى ، وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوعٍ من الخشونة ، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة ما نحمد معه ذلك التخشين " [٣] .

---

(١) ينظر : تفسير ابن كثير ٥٨٥/٤ .

(٢) رواه أبو داود - كتاب الأدب - باب في النصيحة - رقم / ٤٩١٨ ، ورواه البخاري في الأدب المفرد - باب المسلم مرآة أخيه - ص/٩٣ ، وحسنه محقق جامع الأصول (٥٦٣/٦) .

(٣) مجموع الفتاوى ٥٣/٢٨ .

فالصاحب الصالح هو الذي يبصِّرك بعيوبك ويرشدك إلى ما يرفع مقامك عند ربك ويذكرك بالآخرة ويخوفك من أهوالها وعذابها ، وأما من يقرك على أخطائك ويبرر لك كل تصرفاتك ويزيدك غفلة عن الدار الآخرة فهو عدو يجب البعد عنه ؛ ولهذا قيل : صديقك من صَدَقك لا من صدَّقك؛ وقد سأل رجل الحسن البصري رحمه الله فقال : " يا أبا سعيد ، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير ؟

فقال : والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خير من أن تصحب أقواماً يؤمِّنونك حتى تلحقك المخاوف " [1] .

وما أحسن قول الإمام ابن حزم رحمه الله : " استبقاك من عاتبك ، وزهد فيك ، استهان بسيئاتك ، العتاب للصديق كالسبك للسبيكة " [2] ، وقد عرَّف حدَّ الصداقة فقال : " حدّ الصداقة .. أن يكون المرء يسوءه مايسوء الآخر ، ويسرُّه ما يسره ، فما سفل عن هذا فليس صديقاً .. وليس كل صديق ناصحاً ، لكن كل ناصح صديق فيما نصح فيه " [3] .

ولا شك أن للنصيحة شروطاً وآداباً ، منها أن تكون سراً لا يطلع عليها الناس فالنصحية على الملأ توبيخ وفضيحة ، وأن تكون بالحكمة واللطف مع إظهار الشفقة وتأكيد المحبة ، وأن يُختار لها الوقت المناسب لتكون أدعى للقبول وأسرع في الاستجابة ، فإذا تحققت تلك الشروط انقلبت مرارة النصيحة إلى حلاوة يتذوقها المنصوح ويفرح بها ويدرك أنها هدية ثمينة أهديت إليه .

ولذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: " رحم الله امرءاً أهدى إلى أخيه عيوبه " [4].

٣ - القدوة الحسنة :

القدوة الحسنة لها تأثير كبير في التربية والتزكية ، وهي من أبرز وسائل الإعداء التربوي والإجتماعي والأخلاقي ، كما أن القدوة السيئة طريق إلى الانهيار والفساد .

ولذلك أرشدنا المولى سبحانه إلى الاقتداء والتأسي بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقال سبحانه : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه** ﴾ [5] .

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم - ص/٢٦ .

(٢) مداواة النفوس لابن حزم - ص / ٩٣ .

(٣) المرجع نفسه ص/٩٧ .

(٤) إحياء علوم الدين ٢/١٨٣ .

(٥) سورة الممتحنة / من الآية ٤ .

وقال سبحانه : ﴿ **لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو ا لله واليوم الآخر** ﴾ (١) .

وقال عز وجل : ﴿ **أولئك الذين هدى ا لله فبهداهم اقتده** ﴾ (٢) .

وخاتم الأبنياء محمد ﷺ أعظم قدوة لكل مسلم ، وهو الهادي إلى طريق الحق بأقواله وأفعاله ، وجميع شؤونه وأحواله وشمائله .

قال تعالى : ﴿ **لقد كان لكم في رسول ا لله أسوة حسنة لمن كان يرجو ا لله واليوم الآخر وذكر ا لله كثيراً** ﴾ (٣) .

فاتخاذ القدوة الحسنة أمر لا يستغني عنه المسلم ، وهو الطريق لحسن العاقبة في الآخرة ، ولا تتحقق القدوة إلا بالصحبة ، والملازمة لأهل الصلاح ، والعلم والتقوى حتى ينظر المسلم في أعمالهم وأخلاقهم وأحوالهم ويتأسى بها .

وقد بيّن الرسول ﷺ أبرز جوانب الاستفادة من مجالسة الصالحين والاقتداء بهم ، وذلك في الحديث الذي رواه ابن عباس رضي ا لله عنهما قال : " قيل يا رسول ا لله : أيُّ جلسائنا خير ؟ قال : من ذكّركم ا لله رؤيته ، وزاد في علمكم منطقُه ، وذكّركم في الآخرة عمله " (٤) .

فمصاحبة الصالحين لها آثارها العظيمة في مجال القدوة وبخاصة في المجالات التالية :

١ ـ التأثر بأخلاقهم وسمتهم ووقارهم وانشراح الصدر بمجالستهم وملازمتهم ، مما يؤدي إلى يقظة القلب وطرد الغفلة حتى ولو لم يستمع إلى حديثهم ، وهو ما يؤخذ من قول الرسول ﷺ : " من ذكركم با لله رؤيته " فكما أن مجالسة أهل الدنيا والمتنافسين فيها يشغل عن الطاعة ويؤدي إلى الغفلة ، فكذلك أهل الصلاح تحيي مجالستهم قلوب الغافلين .

٢ ـ الاستفادة من علمهم وحديثهم ونصائحهم ومواعظهم ، والمسارعة إلى التأسي بها

---

(١) سورة الممتحنة / من الآية ٦ .

(٢) سورة الأنعام / من الآية ٩٠ .

(٣) سورة الأحزاب / الآية ٢١ .

(٤) رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح ، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٦/١٠ .

والاستزادة منها ، وهذا ما بينه الرسول ﷺ بقوله : " وزاد في علمكم منطقه " .

٣ ـ الإقبال على الطاعات ، وتذكر المصير المحتوم لكل إنسان بحلول الأجل وما يتبع ذلك من سعادة الآخرة أو شقائها ، فالصاحب الصالح هو الذين يجعل الدنيا مزرعة للآخرة فإذا رأيت أعماله وانشغاله الدائم بعمارة آخرته لم ترض لنفسك أن تقصِّر عنه وهذا ما أرشد إليه النبي ﷺ بقوله : " وذكّركم في الآخرة عمله " .

فهذ؛ الجوانب الثلاثة من أعظم مايحظى به العبد الموفّق في صحبته للصالحين واقتدائه بهم، ولا شك أن الجانب الأول وهو التأثر بأخلاقهم وسمتهم لا يقل أهمية عن الجانبين الآخرين ، وقد كان السلف الصالح رحمهم ا لله يهتمون به ويرشدون إليه ، وهذه بعض أقوالهم في هذا المجال :

عن الأعمش قال : كانوا يأتون همام بن الحارث [(١)] يتعلمون من هديه وسَمْته [(٢)] .

وعن خلف قال : كان محمد بن سيرين [(٣)] ، قد أُعطي هدياً وسمتاً وخشوعاً ، فكان الناس إذا رأوه ذكروا ا لله [(٤)] .

وعن جعفر قال : كنت إذا وجدت من قلبي قسوة نظرت إلى وجه محمد بن الواسع[(٥)]، نظرة ، وكنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع حسبت أن وجهه وجه ثكلى [(٦)] .

فمجالسة الصالحين وصحبتهم لها تأثير كبير في الاقتداء بأفعالهم والاستفادة من أقوالهم والتأثر بسمتهم ووقارهم ، ومن أكثر مجالستهم لابد أن يتأسى بهم ، ويسارع إلى محاكاتهم

---

(١) همام بن الحارث النخعي أحد أئمة التابعين ، وقد أسند عن كثير من الصحابة منهم عمروابن مسعود وحذيفة وعائشة رضي ا لله عنهم ، توفي بالكوفة في ولاية الحجاج (تنظر ترجمته في : صفة الصفوة ٣٦/٣) .

(٢) صفة الصفوة ٣٦/٣ .

(٣) محمد بن سيرين ، مولى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أسند عن زيد بن ثابت وابن عمر وابن عباس وأنس وكثير من الصحابة رضي ا لله عنهم ، توفي سنة عشر ومائة ،(صفة الصفوة ٢٤١/٣).

(٤) صفة الصفوة ٢٤٣/٣ .

(٥) محمد بن الواسع أحد أئمة التابعين أسند عن أنس بن مالك وروى عن جماعة من كبار التابعين توفي سنة عشرين ومائة (ينظر : صفة الصفوة ٢٧١/٣) .

(٦) صفة الصفوة ٢٦٧/٣ .

والتشبه بهم .

ولا يرضى لنفسه أن يقصر عنهم ، أو أن يكون في الخير دونهم ، فيصيرون سبباً لسعادته وباعثاً على استزادته (١) .

وقد حفلت كتب الأدب بالحكم والأشعار في تأثير الصحبة الحسنة وفوائدها وتأثير الصحبة السيئة ومضارها ، ومن ذلك قول الشاعر :

رأيتُ صلاحَ المرء يُصلح أهله ويعديهم داءُ الفساد إذا فسد (٢) .

وقوله الشاعر :

لا تصحب الكسلان في حالاته كم صالحٍ بفساد آخر يُفسَدُ

عدوى البليد إلى الجليد سريعةٌ والجمر يوضع في الرماء فيخمد(٣)

البحث عن الصحبة الصالحة :

عندما يطالع المرء أهمية الصحبة الصالحة ، وضرورتها في حياة المسلم وآثارها في مجال تزكية النفس واستقامة السلوك ، فإن السؤال الذي يطرح نفسه : أين هو ذلك الصاحب الصالح والصديق الصدوق ، والأخ المحب الناصح الذي يحب لأخيه ما يحب لنفسه بل إنه يؤثر على نفسه لما يفيض من قلبه من الحب الصادق لإخوانه ؟! .

والواقع أن العثور على هذا المستوى الرفيع من الصحبة الصالحة أمر صعب المنال وبخاصة في هذا الزمان الذي كثرت فيه صداقات المصالح المادية والمنافع الدنيويه ، وتغلغل حب الدنيا إلى شغاف القلوب حتى أضحت مقياس التعامل ، فلا تقوم صداقة في أغلب الأحيان إلا لتحقيق هدف دنيوي فإذا تحقق الهدف انقطعت الصداقة بل سرعان ما تنقلب إلى عداوة وكراهية !! .

وقد أدى هذا الواقع المرير إلى وجود نظرة تشاؤمية عند كثير من الناس تدعو إلى البعد عن كل صديق ، لأن الصداقة الحقة لم يعد لها وجود ، وأن على الإنسان أن يخشى عدوَّه

(١-٣) أدب الدنيا والدين للماوردي ص/١١٢ .

مرة ويخشى صديقه ألف مرة لأنه عدو مستتر وخادع . ولا يخفى أن هذا التشاؤم لـه أسبابه الخاصة عند كل إنسان بحيث تجعله ينفر من أخيه الإنسان ويخشى غدره في كل لحظة ، حتى قال أحد الشعراء :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصــوَّت إنســان فكــدتُ أطــير

وقد يطرأ على المرء حالة شدة يفتقد فيها للصديق الصدوق ويرى تباعد الناس عنه عند الملمَّات وهو الذي كان يحرص على صحبتهم ومؤازرتهم فيصاب بخيبة أمـل تدعـوه إلى تلك النظرة التشاؤمية التي يجعل منه قاعدة لا استثناء فيها .

ويبدو أن ذلك حصل للإمام ابن الجوزي رحمه الله مما جعله يقـول : " رأيـت نفسـي تأنس بخلطاء نسـميهم أصدقـاء ، فبحثـت بالتجـارب عنهـم فـإذا أكـثره حسـاد على النعـم ، وأعداء لا يسترون زلة ، ولا يعرفون لجليس حقاً ، ولا يواسون من مالهم صديقـاً . . فينبغي أن يعد الخلق كلهم معارف ليس فيهم صديق ، بل تحسبهم أعداء .. بـل عـاملهم بالظـاهر ، ولا تخالطهم إلا في حالة الضرورة بالتوقي لحظة ، ثم انفر عنهم ، وأقبل على شأنك متوكـلاً على خالقك " (١) .

والواقع أن الصاحب الصالح والصديق المخلص قليل الوجود في عصرنا الحاضر لكن هذا لا يعني التواني في طلبه والتقاعس في البحث عنه ، والاسترسال في النظرة التشاؤمية التي تحذِّر من جميع الأصحاب وتدعو إلى البعد عنهم ، فـالعبد المسـلم الـذي يحـرص على تزكيـة نفسـه وتقويم سلوكه ، ويعلم أهمية الصحبة الصالحة كوسيلة ناجحة وضرورية لتحقيـق التزكيـة ، لا يألو جهداً في البحث الدقيق عن هذه الصحبة والتغاضي عن بعـض العيـوب الـتي لا يسـلم منها بشر إلا من عصمه الله سبحانه من الأنبياء والرسل .

وفي ذلك يقول الإمام الغزالي : " إنك لو طلبت منزَّهاً عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة ، ولن تجد من تصاحبه أصلاً ، فما من أحد من الناس إلا وله محاسـن ومسـاوئ ، فـإذا غلبت المحاسن المساوئ ، فهو الغاية والمنتهى ، فالمؤمن الكريـم يحضـر في نفسـه محاسـن أخيـه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام " (٢) .

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي - ص / ٣٨٣ .
(٢) إحياء علوم الدين - ١٧٧/٢ .

ولا شك أن الصحبة إذا أريد بها وجه الله سبحانه فإن الله يبارك فيها ويقوّي روابطها ويجعل منها طريقا للتناصح والتواصي ، فينظر الأخ لأخيه بعين الشفقة والرحمة ، لا بعين الحقد وتصيُّد العثرات ، وعند ذلك لا يسيء الظن به وإنما يلتمس لـه المعاذير ، ويتلطف في نصحه وإرشاده ، وينهض كل منهما بصاحبه حتى يستقيما على طريق الحق ، ولو أنه ترك صحبته وهجره بسبب هفوة وقعت منه فإنه بذلك يتركه صيداً للشيطان .

وقد أرشد الرسول ﷺ أصحابه إلى أن الرفق بمن وقع في المعصية والتلطف بنصحه أولى من العنف والتغليظ والقطيعة ، فقال عليه الصلاة والسلام : " لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم " [(١)] ، ومما ورد عن السلف الصالح رحمهم الله في هذا المجال أن رجلاً كان على حال حسنة فأذنب ذنباً فرفضه أصحابه ونبذوه ، فبلغ ذلك إبراهيم النخعي [(٢)] رحمه الله ، فقال لهم : " مَهْ تداركوه وعظوه ولا تَدَعوه " [(٣)] .

ولذلك ينبغي لمن اتخذ الصحبة الصالحة ، وبذل جهده حتى ظفر بهم ألا يسارع إلى الإعراض عنهم لمجرد هفوة أو خطأ حصل من أحدهم ، فليس ذلك من الوفاء في شيء ، فالصحبة لها حقوق من أهمها التناصح والنُصرة ، فهل تترك أخاك أسيراً في يد أعدائه من الشياطين والنفس الأمارة أم تأخذ بيده وتبادر إلى نجدته ؟! .

إن المؤمن قوي بإخوانه ، ويد الله على الجماعة ، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ، فما أعظم آثار صحبة الأخيار في تحصين الإيمان والاستقامة على طاعة الرحمن !! .

التأمل في سير الصالحين ومطالعة أخبارهم :

أكرم الله سبحانه هذه الأمة برجال أطهار وعلماء وصالحين أبرار سارت بأخبارهم الركبان ، وحفلت بسيرهم كتب التراجم والتاريخ والوعظ والرقائق ، وكانوا مثالاً يحتذى في الالتزام بالإسلام والتخلق بأخلاق القرآن .. رجال هانت عليهم نفوسهم ، وغمرت حلاوة الإيمان قلوبهم ، واشتد شوقهم وحنينهم إلى لقاء الله تعالى وبلوغ جنته ، فشمروا عن

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الحدود ، باب ما يكره من لعن شارب الخمر ٨/ ١٥ .

(٢) إبراهيم بن يزيد النخعي أحد كبار التابعين ، أدرك جماعة من الصحابة منهم : أبو سعيد الخدري وعائشة رضي الله عنهما ، توفي سنة خمس وتسعين بالكوفة (صفة الصفوة ٣/٨٩ - ٩٠) .

(٣) صفة الصفوة ٣/٨٩ .

ساعد الجد ، وسارعوا إلى الخيرات وبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الدعوة إلى الله ، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فكانوا هداة مهتدين .

ولقد سلك هؤلاء الصالحون طريق الإيمان وترقوا في مدارج الإحسان ، وجاهدوا أنفسهم حتى اطمأنت إلى طاعة الرحمن ، وتخلصت من أسر الشهوات وتطهرت من الآفات، ولم يصلوا إلى هذه المنزلة إلا بطول المجاهدة ولزوم الاستقامة .

فمن أراد أن يسير في طريق التزكية ويتحقق بمقاماتها فليرجع إلى سيرهم وليتأمل أخبارهم وليطالع صفحات أعمالهم وبدائع توجيهاتهم ، فهي أكبر دافع للعمل ، فليست التزكية أقوالاً وإنما هي سلوك يُحتذى وتطبيق يُقتدى به ، ومشاهد ناطقة وصور صادقة ، يلمس منها المرء تقصيره ، ويضعها نصب عينيه لتكون زاداً لها ، يزيد همته على الطاعة ويزيل عنه التكاسل والوهن ، فيطمح دائماً إلى المزيد .

يقول الإمام ابن رجب الحنبلي في مقدمته لسيرة الشاب الصالح عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز : " إن في سماع أخبار الأخيار مقوياً للعزائم ، ومعيناً على اتباع تلك الآثار ، وقال بعض العارفين : الحكايات جند من جنود الله ، تقوى بها قلوب المريد ، ثم تلا قول الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ **وكلاً نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نُثبِّتُ به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين** ﴾ (١) .

وقد رأيت أن أجمع في هذا الجزء أخبار عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز .. لسببٍ اقتضى ذلك ، لقد كان رحمه الله تعالى مع حداثة سنّه مجتهداً في العبادة ، ومع قدرته على الدنيا وتمكنه منها ، راغباً مؤثراً للزهاده ، فعسى الله أن يجعل في سماع أخباره لأحد من أبناء جنسه أسوة ، لعل أحداً كريماً من أبناء الدنيا تأخذه بذلك حمية على نفسه ونخوة ، مع أنه لن يخلو سماع أخبار الصالحين من تحصيل رقة للقلوب وإزالة للقسوة " (٢) .

ويقول الإمام الصفدي : " إن النفس تستروح إلى مطالعة أخبار من تقدَّم ، والمطلعُ على أخبار من دَرَج .. يعود كأنه عاصر أولئك وجلس معهم .. فأفاد ذلك حزماً وعزماً ، وموعظة وعلماً ، وهِمَّة تُذهب هماً وبياناً يزيل وهناً ووهماً " (٣) .

---

(١) سورة هود / آية ١٢٠

(٢) سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز / لابن رجب ، ص/٢٧ - ٢٨ .

(٣) الوافي بالوفيات للصفدي ٣/١ .

فإذا كانت كل هذه الفوائد والثمرات يحظى بها المتأمل لسيرة السلف الصالح ممن سار على طريق الأنبياء وتأسى بهم ونهل من موردهم ، فكيف بمن يطالع أخبار الأنبياء وقصصهم وشمائلهم وما كانوا عليه من الثبات والفداء ، والعزيمة ، الصادقة والإباء ، والسعي المتواصل في مرضاة الله سبحانه ، وبخاصة خاتم الأنبياء ﷺ الذي أمرنا الله بالاقتداء به والتمسك بسنته ولزوم محبته ، وكانت سيرته العطرة وشمائله المجيدة تطبيقاً عملياً لمنهج الإسلام في تزكية النفس كما كان المربي والمزكي لنفوس أصحابه الكرام بما آتاه الله من نور النبوة ، وبما أنزل عليه من الكتاب والحكمة .

وقد امتن الله على عباده ببعثة هذا الرسول الأمين ﷺ وجعل من أبرز مهماته تزكية النفوس فقال تعالى : ﴿ **لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾(١).

ولذلك كان جيل الصحابة الكرام جيلاً قرآنياً لم تعرف الشهوات المضلة إلى نفوسهم سبيلاً ، كانوا كما وصفهم الله سبحانه : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود** ﴾ (٢) .

كانوا كما قال عنهم الحق سبحانه : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً** ﴾ (٣) .

فلا بد لمن أراد السير في طريق التزكية أن يكون له اهتمام دائم وشغف متواصل بمطالعة سيرة الرسول ﷺ وأصحابه الأبرار ، وما كانوا عليه من ثبات على منهج الإسلام واستقامة على الطاعات وتضحية وفداء ، وبذلك وعطاء وزهد في الدنيا وتشوُّق إلى الآخرة وحنين إلى الجنة ، ثم إن لهؤلاء الصحابة الكرام تلاميذ أوفياء وهم التابعون ومن جاء بعدهم من السلف الصالح رحمهم الله الذي ساروا على خطى الرسول ﷺ وأصحابه في العلم والعمل والدعوة والجهاد والاشتغال بتزكية النفس حتى تسمو وتطمئن لطاعة الله سبحانه .

---

(١) سورة آل عمران / آية ١٦٤ .

(٢) سورة الفتح / من الآية ٢٩ .

(٣) سورة الأحزاب / آية ٢٣ .

ولا شك أن الأمثلة والشواهد من حياة الصحابة والتابعين ومَن بعدهم أكثر من أن تحصر في هذا المقام [(١)] ، وقد حفلت بها كتب التراجم والتاريخ والأدب ، وازدانت بها كتب التفسير والحديث مما يجعل القارئ لهذه الكنوز من كتب السلف الصالح رحمهم الله يدرك مقدار ما كانوا عليه من الاهتمام بتزكية النفس والحرص على التأسي بالصفوة من عباد الله والسير على خطاهم .

فما أحرانا أن ننهل من معين هذه الأخبار وأن نكثر من مطالعتها ، وتدبرها والتأمل فيها لتكون حافزاً للهمم ومقوياً للعزائم ، فهي الصديق الناصح والواعظ الصادق .

كما ينبغي للدعاة أن يهتموا بهذا الأخبار ، وأن يَعرضوا نفسائها على الناس في دعوتهم ووعظهم وإرشادهم إلى الخيرات مع ملاحظة توثيقها وصحتها .

يضاف إلى ذلك ضرورة الإهتمام بأقوال السلف الصالح وإرشاداتهم ، فهي في غالبها حِكم بليغة ومواعظ مؤثرة لأنها مستقاة من مشكاة النبوة ، وصادرة من قلوب يغمرها الإخلاص،كما أنها تُعدُّ نتاجاً لخبراتهم الطويلة في تربية النفوس وإرشاد العباد لما فيه صلاحهم [(٢)] .

(١) وقد أوردت بعضاً منها في معرض الحديث عن ثمرات تزكية النفس في الباب الأخير من هذا البحث ينظر ص /٤٩٥

(٢) يستحسن الرجوع إلى كتاب صفة الصفوة للإمام ابن الجوزي وسير أعلام النبلاء للإمام الذهبي وأمثالهما من الكتب المليئة بالأخبار والآثار عن السلف الصالح رحمهم الله .

الفصل السادس

الزواج

قد يستغرب القارئ الحديث عن موضوع الزواج ضمن الوسائل العملية لتزكية النفس، إذ أن المعهود عند بعض من يتحدث عن التزكية ويرشد إليها أن يدعو للبعد عن كل ما يتصل بالدنيا وأموالها وكل ما يشغل المرء من زوجة وأولاد ، بدعوى أن هذا كله يصد عن طاعة الله تعالى ، ولخطورة هذه الدعوات وتشويهها للمنهج الاسلامي النقي في تزكية النفس ، فإني سأتحدث عنها بالتفصيل في موضوع مستقل إن شاء الله [1] ، ولكني هنا أود إبراز أهمية الزواج كوسيلة عملية ناجحة في تطهير النفس وترقيتها وإصلاح أحوالها ، والاستقامة على طاعة الله سبحانه بعيداً عن تأجج الشهوة وأخطار المغريات .

فلقد دعا الإسلام إلى الزواج ورغّب فيه ، فقال تعالى : ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم** ﴾[2].

كما وصف الرسل وما امتن به عليهم فقال سبحانه : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية** ﴾ [3] .

وامتدح عباده الصالحين بحرصهم وطلبهم للأزواج والذرية التي تقربهم إلى ربهم وتكون سكناً لنفوسهم فقال عزوجل : ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً** ﴾ [4] .

---

(١) ينظر ص٣٨٤ من هذا البحث .

(٢) سورة النور / من الآية ٣٢ ، .

والأيامى : جمع أيم ، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها ، وللرجل الذي لا زوجة له ، وسواء كان قد تزوج ثم فارق أو لم يتزوج واحد منهما (تفسير ابن كثير ٢٩٧/٣) .

(٣) سورة الرعد / من الآية ٣٨ .

(٤) سورة الفرقان / آية ٧٤ .

ولذلك حض الرسول ﷺ الشباب على الزواج وبين أثره في تحصين النفس ، في أحاديث كثيرة منها :

- ما رواه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة [1] فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء " [2] .

ففي هذا الحديث النبوي بيان واضح لأهمية الزواج في تزكية النفس ووقايتها من الانحراف وتوجيه الشهوة في طريقها الشرعي المأمون الذي يرقى بالفرد والمجتمع ويحقق صلاحهما .

- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " إذاتزوج العبد فقد استكمل نصف الدين فليتق الله في النصف الباقي " [3] .

وفي رواية : " من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه ، فليتق الله في الشطر الباقي " [4] .

والمتأمل لهذا الحديث يدرك الصلة الوثيقة بين الزواج وتزكية النفس ، فالزواج في الإسلام يهدف إلى تحقيق شطر الدين في حياة الزوجين لما يؤدي من تحصين النفس عن الرذائل ، وما على الزوجين إلا أن يلتزما تقوى الله سبحانه بالتحلي بالفضائل وهو الشطر الثاني من الدين.وقد كان السلف الصالح رحمه الله يحثون على الزواج لأنهم يدركون أثره الكبير في تحصين النفس وتزكيتها .

روى البخاري عن سعيد بن جبير رحمه الله قال : " قال لي ابن عباس : هل تزوجت ؟

---

(١) الباءة في اللغة مشتقة من المباءة ، وهي المنزل ، ثم قيل لعقد النكاح باءة لأن من تزوج امرأة بوأها منزلاً ، والمراد هنا القدرة على مؤونة النكاح ونفقاته (ينظر : شرح مسلم للنووي ١٣٧/٩) .

(٢) رواه البخاري - كتاب النكاح - باب من لم يستطع الباءة - ١١٧/٦ .
ورواه مسلم - كتاب النكاح - باب استحباب النكاح - رقم /١٤٠٠ .

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان ، وانظر : صحيح الجامع الصغير للألباني رقم /٤٤٣ .

(٤) رواه الطبراني في الأوسط والحاكم وقال صحيح الإسناد .

قلت : لا . قال : فتزوج فإن خير هذه الأمة أكثرها نساءً " [١] .

فابن عباس رضي الله عنه يسدي هذه النصيحة لتلميذه التابعي سعيد بن جبير ، وكان سعيد في بداية شبابه لم تنبت لحيته بعد [٢] .

ولكن الزواج لا يحقق ثمراته المرجوة في تزكية النفس إلا إذا توفرت فيه شروط عديدة أهمها :

١ ـ تصحيح النية والقصد :

وذلك بأن لا يقتصر الشاب في مقصده من الزواج على إشباع الغريزة فقط ، دون أن يضع في حسبانه الأهداف السامية للزواج في تحقيق السكن والرحمة وإنجاب الذرية وتربيتها على منهج الإسلام ، فالمسلم يسارع إلى الزواج اقتداء بسنة المصطفى ﷺ الذي كان يحذر أصحابه من الرهبانية [٣] ويقول : " أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني " [٤] .

فالزواج وإن كان عملاً دنيوياً تميل إليه النفوس لكنه بالنية الصالحة يصبح عبادة يؤجر عليها صاحبها يوم القيامة .

روى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : " .. وفي بضع أحدكم صدقة قالوا : يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر " [٥] .

٢ ـ اختيار الزوجة الصالحة والزوج الصالح :

الزواج رابطة وثيقة ، لابد لها من دعائم قوية وأساس صالح متين ، ومن أراد أن يحظى

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب النكاح ـ باب كثرة النساء ـ ٦/١١٨ .

(٢) ذكر ذلك الحافظ ابن حجر نقلاً عن بعض الروايات (ينظر : فتح الباري ٩/١١٤) .

(٣) ينظر ص٤٩٢ من هذا البحث لمناقشة موضوع الرهبانية

(٤) جزء من حديث رواه البخاري ـ كتاب النكاح ـ باب الترغيب في النكاح ـ ٦/١١٦ .

(٥) جزء من حديث رواه مسلم ـ كتاب الزكاة ـ رقم/١٠٠٦ .

بسكن النفس وأن يجعل من بيت الزوجية بناء شامخاً يسعد به وطريقاً للتقرب إلى ربه ، فليكن اختياره لمن يشاركه هذا البناء على أساس الدين والتقوى وحسن الخلق ، سواء في ذلك الرجل أو المرأة.وقد حضّ الرسول ﷺ الأزواج على الظفر بالزوجة الصالحة وأن يكون ذلك هوالمقياس الأول للاختيار .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : " تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك " (١) .

كما أمر ولي أمر المرأة أن يختار لابنته الزوج الصالح الذي يتلزم بالدين ويتحلى بالأخلاق الفاضلة وأن لا يقدم أي مقياس آخر على ذلك .

" إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض " (٢) .

فحسن الاختيار شرط لا بد منه لاستقرار الحياة الزوجية ، وأساس ضروري لتحقيق السكن والرحمة والألفة بين الزوجين،أما الذي لا يبالي من أي مسلك يأخذ ، ويجعل أساس اختياره المال والجمال وغير ذلك من المقاييس المادية التي هي عُرضة للزوال والتقلب ، فهو كمن يشيد بناء فوق الرمال ، فكيف يُرجى له استقرار ، وكيف يجعل من هذه الحياة الزوجية وسيلة لتزكية النفس والتقرب إلى الله وقد اختار زوجة تبعده عن ربه ؟! .

والزوجة التي تطلب صاحب المال من الفجار وتعرض عن الزواج برجل من الأخيار ، كيف ترجو أن يكون بيتها محضناً لتزكية النفس وموطناً لطاعة الرحمن ؟ إنها ولو أرادت القيام بالعبادات واغتنام أوقاتها بالطاعات ستجد من يصدها عن ذلك بالرغبة أو الرهبة حتى تنزلق في مهاوى الضلال أوتعيش في أتعس حال .

وقد بين الرسول ﷺ خطر الإعراض عن الخاطب صاحب الدين والخلق الذي هو كنز

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب النكاح ـ باب الأكفاء في الدين ـ ١٢٣/٦ .
ومسلم ـ كتاب النكاح ـ باب استحباب نكاح ذات الدين ـ رقم/١٤٦٦ .

(٢) رواه الترمذي ـ كتاب النكاح ـ باب إذا جاءكم من ترضون دينه ـ رقم / ١٠٨٥ ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجه ـ رقم/١٩٦٧ ، والحاكم ١٦٤/٢ ، وصححه .

ثمين ، واستبدال ذلك بالغثاء من الماجنين ، فإن ذلك يؤدي إل فتنة في الأرض وفساد كبير .

وأي فتنة أعظم من أن يصبح بيت الزوجية قائماً على مقاييس مادية ، وأن يتسلط الرجل الفاجر على المرأة يعمل على إفسادها بدل أن يصلحها ، وأن يبقى الرجل الصالح عزَباً يقاوم المغريات وقد يقع في الانحراف ويتحول إلى طريق أهل الفساد !! .

٣ ـ وقاية الأسرة من الأخطار :

شرع الله سبحانه للأسرة نظاماً محكماً لضمان استقرار الحياة الزوجية وإزدهارها حتى تثمر التعاون على طاعة الله وتحقق السكن والراحة النفسية للزوجين ، فجعل لكل من الزوجين حقوقاً وواجبات ، وكلف الرجل بالقوامة على أسرته وإدارة شؤونها ، وأمر الزوجة أن تكون عوناً له على ذلك ، تطيعه عن محبة ورضى لا عن كُره وإجبار .

فإذا تعرضت الأسرة لخلاف عارض أو مشكلة طارئة وجب المسارعة إلى حلها بالتفاهم لئلا تنفصم عرى المحبة ويبرز الشقاق وتنفر النفوس وتشتعل نار البغضاء .

فالأصل في الحياة الزوجية المعاشرة بالمعروف لتدوم رابطة المحبة وتقوى ، لأنها سر هذا السكن النفسي الذي يحظى به الزوجان ، وعند الخلاف ينبغي لكل منهما أن يحذر من ضياع تلك المحبة وأن يسارع إلى العلاج باللين ، وألا يحوِّل هذا الخلاف إلى معركة فيها غالب ومغلوب. وفي ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾ (١) .

فالكراهية التي ظهرت بوادرها في النفوس بسبب الخلاف ، ينبغي ألا تُترك للشيطان ليستغلها في تهديم كيان الأسرة أوتسلط الزوج على زوجته بالقسوة ، وإنما يتغلب على هوى نفسه ويتقي الله في زوجته رجاء أن يجعل الله له خيراً ، ومن ذلك الخير أن تعود المحبة إلى القلوب .

ولذلك قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : " أي فعسى أن يكون صبركم في إمساكهن مع الكراهية فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة " (٢) .

---

(١) سورة النساء /من الآية ١٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٧٧/١ .

والواقع أن الحديث في هذا الموضوع لا يتسع المقام هنا لتفصيله ، ولكني أود إبراز الجانب النفسي فيه وبيان أهمية معالجة كل خلاف انطلاقاً من آصرة المحبة المتبادلة ، حتى تحقق الحياة الزوجية دورها في تزكية النفس وتطهيرها من آفاتها ، ومنها آفة الأنانية وحب الذات .

ولننظر إلى هذا التوجيه النبوي البديع في الحث على تنازل كلٍ من الزوجين عن عناده لكي تستمر المحبة بينهما ويعمَّ الرضى والسرور .

فقد روى الطبراني عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال : " ألا أخبركم بنسائكم في الجنة ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : ودود ولُود [1] ، إذا غضبتْ أو أُسيء إليها أو غضبَ زوجها قالت : هذه يدي في يدك ، لا أكتحل بغمض[2] حتى ترضى "[3].

آثار الزواج وثمراته في مجال تزكية النفس :

١ ـ تحقيق السكن النفسي :

الطمأنينة النفسية والسكنية التي تغمر الزوجين من أهم ثمرات الزواج الصالح ، بل إنها من الحكم العظيمة التي شرع الزواج من أجلها ليحيا الناس في ظلال وارفة من التحابب والتراحم وراحة البال .

وقد وثّق الله سبحانه عرى الرابطة الزوجية بهذا السكن النفسي فقال سبحانه : **﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾** [4] .

وقال عز وجل : **﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾** [5] .

---

(١) أي تتصف بمودة زوجها وطاعته وإنجاب الأولاد .

(٢) أي لا أذوق النوم وأغمض عيني حتى ترضى .

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١٦٣/٣) وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ٥٧/٣ ، وقال : " رواته محتج بهم في الصحيح إلا إبراهيم بن زياد القرشي فإنني لم أقف فيه على حرج ولا تعديل " . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ـ رقم /٢٨٧ .

(٤) سورة الأعراف / من الآية ١٨٩ .

(٥) سورة الروم / آية ٢١ .

إن هذا السكن النفسي الذي ينمو بسرعة منذ الأيام الأولى للزواج يعدُّ آية من آيات الله سبحانه ، ولذلك تجد الألفة والمحبة تغشى الحياة الزوجية وتتعمق يوماً بعد يوم ، ليجد الأطفال في هذا المحضن الآمن سعادتهم ويستشعروا قوة الصلة التي تربطهم بالوالدين وينشؤوا على الحنان والعطف .

وقد وصف الإمام ابن كثير الرابطة بين الزوجين فقال : " لا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين " (١) .

وهكذا نجد أن الله سبحانه بحكمته ورحمته جعل بيت الزوجية مأوى لراحة الزوجين واستقرارهما فالزوج يعود من عمله ليلقى عن كاهله الأتعاب والأكدار وتنشرح نفسه للقيا زوجته الصالحة التي جعلها الله من أعظم أنواع النعيم في هذه الحياة .

فقد روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : " الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة " (٢) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول : " ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عزوجل خيراً له من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله " (٣) .

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " أربع من السعادة : المرأة الصالحة والمسكن الواسع والجار الصالح ، والمركب الهنيء" (٤) .

٢ ـ تحصين النفس :

الزواج علاج إسلامي حاسم للحد من خطر انحراف الشهوة في طريق الحرام ، والله سبحانه لم يحرم علينا شيئاً إلا وأباح لنا ما يعوضنا عنه مما فيه صلاحنا ، بل وحضّنا عليه

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٨٥ .

(٢) رواه مسلم ـ كتاب الرضاع ـ باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ـ رقم /١٤٦٧ .

(٣) رواه ابن ماجه ، كتاب النكاح ، باب أفضل النساء ، رقم / ١٨٥٧ ، ورواه أبو داود بلفظ مشابه في كتاب الزكاة ، باب حقوق المال ، رقم / ١٦٦٤ .

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه (١٢٣٢) ، وأحمد في المسند ١/ ١٦٨ ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢٧٢ ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم / ٢٨٢ .

ورغبنا فيه .

وهذه الغريزة التي جعلها ا لله سبحانه فطرة في البشر ، لها حكم عظيمة منها استمرار النوع الإنساني ، ولولا هذا الميل الفطري والدافع الغريزي لأعرض كل من الزوجين عن الآخر وتوقف النسل .

فإذا كان النفس أمارة بالسوء ، منحرفة عن طريق الإيمان ، مستجيبة لوساوس الشيطان فإن هذه الغريزة تنحرف فتجعل من الإنسان حيواناً بهيمياً يريد أن ينقضَّ على فريسته .

ولذلك لابد من تحصين النفس بالزواج لتتجه الغريزة إلى طريق مأمون وتثمر الثمرات الصالحة ، وهذا ما حضَّ عليه الرسول ﷺ الشباب في الحديث الذي سبق ذكره : " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج .. " .

ولقد جعل الإسلام من الزواج علاجاً سريعاً لكل نزوة طارئة قد يتعرض لها المسلم وبخاصة في المجتمعات الجاهلية التي يكثر فيها السفور والاختلاط .

جاء ذلك في الحديث الذي رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول ا لله ﷺ قال : " إذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يردُّ ما في نفسه "

وفي رواية : " إذا أحدكم أعجبته المرأة فوقعت في قلبه ، فليعمد إلى امرأته فليواقعها فإن ذلك يردُّ ما في نفسه " (١) .

٣ ـ التعاون بين الزوجين على طاعة ا لله .

الصالحين

ليس هناك من صحبة أكثر ترابطاً وأعمق جذوراً من الصحبة بين الزوجين، ومن حقوق هذه الصحبة التناصح والتواصي وأن يأخذ كل منهما بيد صاحبه ، فيرشده إلى طريق الخير ويحذره من كل تقصير أو غفلة تؤدي إلى الانحراف .

وإذا كان التعاون والتناصح شعار المجتمع المسلم بجميع أفراده ، فكيف بالزوجين اللذين توثقت بينهما رابطة المحبة ، وأثمرت شفقة كل منهما على الآخر والخوف عليه من كل سوء أومكروه كما أنه ليس هناك من صاحبين يطلع أحدهما على أحوال الآخر ويعرف من

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب النكاح ـ رقم /١٤٠٣ .

أسراره أكثر من الزوجين ، لأن المرء قد يخفي عيوبه أمام الناس ويتظاهر بينهم بالصلاح ولكنه لا يقدر أن يخفي ذلك عن زوجه ، فالواجب عليها في هذا المقام أن تكون له ناصحة مشفقة وأن تتحين الفرص لتذكيره بربه كما ينبغي للزوج أن يكون موجهاً لزوجته محذراً لها من عذاب الله مراقباً لتصرفاتها مرشداً لها ولأولادها إلى طريق الخير .

وقد أمرنا بذلك ربنا سبحانه فقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ (١) .

وقال عز وجل : ﴿ **وأمرْ أهلك بالصلاة واصطبر عليها** ﴾ (٢) .

ولا يتوقف ذلك النصح والإرشاد بين الزوجين عند حد الفرائض والواجبات وإنما ينبغي أن يرشد كل منهما صاحبه إلى الإكثار من النوافل واغتنام الأوقات بها، وهذا ما أرشد إليه الرسول ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها ، فإن أبى نضحت في وجهه الماء " (٣) .

وعنه رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : " إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا ركعتين جميعاً كُتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات " (٤) .

وبهذا ندرك الآثار الكبيرة التي يحققها الزواج في مجال تزكية النفس إذا التزم بالمنهج الإسلامي ، كما ندرك تماماً أسباب الحملات الشديدة التي يشنها أعداء الإسلام وأجراؤهم في بلاد المسلمين للتشويه من صورة الزواج في مختلف وسائل الإعلام ، وتضخيم ما يقع من

---

(١) سورة التحريم / آية ٦ .

(٢) سورة طة / من الآية ١٣٢ .

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ، وأبو داود في الصلاة - باب قيام الليل - رقم /١٣٧ ، والنسائي في قيام الليل - باب الترغيب في قيام الليل - ٣/٢٠٥ ، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (انظر : فيض القدير ٤/٢٥) .

(٤) رواه أبو داود في الصلاة - باب قيام الليل رقم /١٣٠٩ ، وفي باب الحث على قيام الليل رقم /١٤٥١ وإسناده صحيح كما ذكر محقق جامع الأصول ٦/٦٧ .

خلافات بين الزوجين ، وتصوير الزواج على أنه عبء ثقيل ، وأن كلاًّ من الزوجين يسعى للتسلط على الآخر والكيد له ، وأن الرابطة الزوجية لم تقم إلا على أساس الطمع المادي والمنافع المالية ، وقد ساعد على هذه الحملات المغرضة ما أحيط بالزواج من قيود اجتماعية وعادات وتقاليد سيئة ، جعلت منه أملاً بعيد المنال لا يصل إليه الشاب إلا بعد سنين طويلة ، ويبقى قبلها عرضة للانحراف والضياع .

والإسلام عندما يجعل الزواج تكميلاً لشطر الدين وتزكية للنفس وتحصيناً لها ، فقد يسّر سبله ، حتى إن عقد الزواج يتم بكلمات معدودة وشروط ميسورة ، وأما المهر فهو هدية يقدمه الرجل لزوجة المستقبل ولا ينبغي أن يكون عائقاً في طريق الزواج ، ولذلك ورد في الحديث عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لرجل : " تزوج ولو بخاتم من حديد " (١) .

فأين نحن الآن من هذا التشريع الإسلامي المحكم ؟! .

(١) رواه البخاري - كتاب النكاح - باب المهر بالعروض وخاتم من الحديد - ١٣٨/٦ .

الفصل السابع

التفكر في المخلوقات

كرّم الله سبحانه الإنسان بالعقل الذي يميز به بين النافع والضار ، ويعرف به طريق الخير من طريق الشر ، ويتقبل بواسطته العلوم والمعارف وإدراك حقائق الأشياء ويتحكم في غرائزه وأهوائه ، ولذلك جعل الإسلام العقل مناط التكليف .

وهذا العقل الذي هو من أجلّ النعم ، إذا استخدمه الإنسان فيما خُلق له ، وأطلق له حرية التأمل في صفحات هذا الكون العظيم والتدبر في بديع صنع الله تعالى ، فإنه سيصل بصاحبه إلى الإيمان بالخالق وتوحيده ، والإقبال على عبادته بخشوع وخضوع .

وإذا عطّل الإنسان وظيفة العقل ، وجعله أسيراً للهوى منقاداً لشهوات النفس ، فقد أسفّ به إلى منزلة البهائم التي لا عقل لها ، وهذا ما وصف به الله سبحانه المنحرفين عن دينه ، المعرضين عن نداء الفطرة ، وذلك في أكثر من موضع من آيات القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾[1] .

فهؤلاء الذين عطلوا وظيفة العقل وسدوا منافذ التدبر في القلب ، ونظروا إلى الكون بعين البصر لا بعين البصيرة ، وأصموا آذانهم عن سماع الحق والإصغاء إليه ، فقد استحقوا أن يكونوا في عداد البهائم التي تسيّرها غرائزها ، ولكنهم أضل منها سبيلاً لأنهم مُنحوا نعمة عظيمة فضيّعوها ، وعطّلوا عقولهم التي كرمهم الله بها لتكون سبباً للهداية وزيادة الإيمان فجعلوها مقيّدة بالأهواء .

ولقد حفلت آيات القرآن الكريم بالدعوة إلى التفكير في خلق الله سبحانه واستخلاص الدروس والعبر منها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ**

---

(١) سورة الأعراف / آية ١٧٩ .

الخلق ثم ا لله يُنشى النشأة الآخرة إن ا لله على كل شيء قدير ﴾ [١] .

وقوله سبحانه : **﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾** [٢] .

وقوله عزوجل : **﴿ فلينظر الإنسان ممَّ خُلق ، خُلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾** [٣] .

وقوله سبحانه: **﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾**[٤].

وغير ذلك من الآيات القرآنية التي تحث على التفكر في خلق الإنسان والحيوان والنبات والأرض والسموات وتقلب الليل والنهار وعجائب البحار ، وما حفلت به المخلوقات من دلائل القدرة الباهرة والحكمة العظيمة للخالق سبحانه .. **﴿ صنع ا لله الذي أتقن كل شيء ﴾** [٥] .

ولكن الذي ينبغي التركيز عليه هنا ما يدل من تلك الآيات القرآنية على أن التفكر عبادة جليلة ووسيلة عملية لتزكية النفس والتوجه بها إلى خالقها ، وقد ورد ذلك صريحاً في قوله تعالى : **﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون ا لله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾** [٦] .

فقد أثنى ا لله سبحانه على أولي الألباب ، وهم أصحاب العقول الزكية التي تدرك الأشياء بحقائقها [٧] ، وهؤلاء الذين استحقوا هذا الثناء ، يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات ا لله الكونية والتفكر فيها ويتوجهون إلى ا لله تعالى بقلوبهم ويذكرونه في جميع أحوالهم .

---

(١) سورة العنكبوت / آية ٢٠ .

(٢) سورة الغاشية / الآيات ١٧-٢٠ .

(٣) سورة الطلاق / الآيات ٥-٧ .

(٤) سورة فصلت / من الآية ٥٣ .

(٥) سورة النمل / من الآية ٨٨ .

(٦) سورة آل عمران / الأيتان ١٩٠-١٩١ .

(٧) ينظر / تفسير ابن كثير ٤٣٨/١ .

وقد قرن الله سبحانه بين توجه القلب إلى ذكره وعبادته وبين التفكر في مخلوقاته ليبين أن هذا التفكر عبادة يتقرب بها المتقربون إلى ربهم ، وهي نوع من أنوع الذكر الذي يحي القلب بنور الإيمان ويشرح الصدر لما يظهر للمتأمل من حكم عظيمة تدل على عظمة الخالق سبحانه ورحمته وعنايته بخلقه .

ولذلك كان الرسول ﷺ يحرص على قراءة هذه الآيات الكريمة في قيام الليل ليجمع بين الذكر والتفكر ، ويرشد إلى أهمية ذلك في حضور القلب واستجلاب الخشوع .

روى مسلم عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما : " أنه رقد عند رسول الله ﷺ فاستيقظ ـ أي الرسول ﷺ ـ فتسوك وتوضأ وهو يقول : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** ﴾ فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة ، ثم قام فصلى ركعتين ، فأطال فيهما القيام والركوع والسجود " [1] .

وفي رواية أنه رضي الله عنه قال : " بتُّ في بيت خالتي ميمونة ، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد ، فنظر إلى السماء فقال : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض** .. ﴾ ثم قام فتوضأ واستنَّ .. " .

وفي رواية أخرى : " أن النبي ﷺ قام من آخر الليل فخرج فنظر إلى السماء ، فتلا هذه الآية في آل عمران : ﴿ **إن في خلق السموات** ... ﴾ ثم رجع إلى البيت فتسوك وتوضأ ، ثم قام فصلى ، ، ثم اضطجع ، ثم قام فخرج فنظر إلى السماء ، ثم تلا هذه الآية .. " .

وفي حديث آخر عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه دخل على عائشة رضي الله عنها مع بعض أصحابه وبينها وبينهم حجاب فقال لها ابن عمر : أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكان فيما قالت : " أن الرسول ﷺ قام يصلي فبكى حتى بلَّ لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى ، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح ، قالت : فقال : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فقال : " ويحك يا بلال ، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليَّ في هذه الليلة :

---

(١) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين ـ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ـ رقم /٧٦٣ .

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ .

ثم قال : " ويل لمن قرأها و لم يتفكر فيها " (١) .

وهكذا نجد أن التفكر في خلق السموات والأرض عبادة جليلة ، لابد لمن أراد السير في طريق التزكية أن يحرص عليها ، ليفتح بصيرته على مشاهد هذا لكون العظيم ، ويتوجه إلى ربه بقلب خاشع يعمره الإيمان ، وقد أشار إلى ذلك الصحابي الجليل أبو الدرداء رضي الله عنه فقال : " تفكر ساعة خير من قيام ليلة " (٢) .

مجالات التفكر و آثاره في تزكية النفس :

١ ـ إيقاظ الفطرة وتحرير العقل من تسلط الهوى :

عندما تنطمس الفطرة وتتحكم أهواء النفس يضل الإنسان ويشقى ، ولكن هذه الفطرة تتيقظ من جديد إذا فتح العقل بابه للنظر في عجائب الكون ومشاهده وآياته الباهرة ، وهذا يشمل الكافر الذي انحرف عن عقيدة التوحيد ، والفاسق الذي نسي آخرته في غمرة تعلقه بالدنيا وقد دعا الله سبحانه المعرضين عن اتباع الرسول ﷺ أن يبادروا إلى التفكر ، لعل ذلك يوقظ فطرهم بعد أن يطرحوا عنهم العصبيات الجاهلية وينظروا بعقول مجردة من الهوى.

قال تعالى : **﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنَّة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾** (٣) .

ويشمل هذا التفكر كل نظر وبحث صادق لا تتحكم فيه الأهواء ، ولا تؤثر فيه مؤثرات البيئة وعصبياتها ، وإنما هو تأمل هادئ ، مثنى وفرادى ، من غير تأثر بالعقلية الجماعية التي تجرف الناس وتمنعهم من تدبر الحجة ومواجهة النفس في تمحيص عميق (٤) .

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ـ رقم /٥٢٣) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ رقم /٦٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٤٨/١ .

(٣) سورةسبأ / الآية ٤٦ .

(٤) ينظر : في ظلال القرآن ٢٩١٤/٥ .

وقد ورد في هذه الآية الكريمة ذكر الأصول الثلاثة التي أنكرها المشركون ، وهي التوحيد والإيمان بالرسول ﷺ واليوم الآخر ، فقوله تعالى : ﴿ **أن تقوموا لله** ﴾ إشارة إلى التوحيد ، وقوله : ﴿ **ما بصاحبكم من جنة** ﴾ إشارة إلى الرسالة ، وقوله : ﴿ **بين يدي عذاب شديد** ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر [١] ، والطريق الموصل إلى الإيمان بهذه الأصول هو التفكر وتحرير العقل من تسلط الهوى .

وكم من أناس تيقظت فطرتهم وأعلنوا إسلامهم وأصبحوا دعاة لهذا الدين ، لأنهم أطلقوا عقولهم للتفكر في بدائع المخلوقات ، من خلال اختصاصاتهم العلمية في الطب والفلك وعلم الأحياء ومختلف العلوم والمعارف [٢] .

٢ - ترسيخ الإيمان :

الإيمان يزيد وينقص ، ولابد له من غذاء مستمر حتى يقوى ويؤدي إلى تزكية النفس ، وقد سبق الحديث عن دور العبادات من فرائض ونوافل في تقوية الإيمان ، ولابد هنا من إبراز دور التفكر وأهميته في تحقيق ذلك .

فالمسلم عندما يفتح بصيرته للتفكر في حلق السموات والأرض وما فيهما من عجائب باهرة وآيات عظيمة ، وينظر في ملكوت الله سبحانه وما حوى من مخلوقات بديعة ونظام محكم ويتأمل عجائب البحار وتقلب الليل والنهار ودوران الأفلاك ، وما يصل إليه العلماء يوماً بعد يوم من اكتشافات تدهش العقل في كل جوانب العلوم ، فإنه سيزداد يقيناً بعظمة الخالق عزوجل وقدرته ويزداد إجلالاً ومحبة له سبحانه وخشوعاً بين يديه .

بل إن مجرد التفكير في خلق الإنسان وما يحوي هذاالكائن البشري من أجهزة معقدة لكل منها وظائف دقيقة ، ومفاصل وأعضاء وأعصاب وأوعية دموية وغير ذلك مما يعمل في هذا الجسم ليل نهار ويؤدي دوره بكل اتقان [٣] .. فإن المرء يزداد إيماناً كلما أمعن النظر في

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٦٩/٢٥ .

(٢) يرجع إلى كتاب / الله يتجلى في عصر العلم ، وكتاب / العلم يدعو إلى الإيمان ، تأليف كرسي موريسون .

(٣) يرجع إلى كتاب : الطب محراب الإيمان للدكتور / خالص حلبي ، وما أصدرته هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة التابعة لرابطة العالم الإسلامي من كتب ونشرات وأفلام مصورة ونحو ذلك .

ذلك ، ويزداد إجلالاً للمولى سبحانه : ﴿ **الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾ (١) .

وتطمئن النفس إلى طاعة ربها راضية مرضية .

٣ ـ اعتراف الإنسان بضعفه وافتقاره إلى ربه :

من أخطر آفات النفس التكبر (٢) والتعالي وإدعاء الاستغناء بما يملك الإنسان من قوة وصحة وأموال وأولاد ، فينشغل بالنعم عن المنعم ، وقد يصل به الأمر إلى جحود نعمة ربه ونسبة هذه النعم إلى نفسه تعالياً واستكباراً .

ولذلك نجد التركيز في آيات القرآن الكريم ، في مواضع كثيرة على التفكر في ما سخرّ الله للإنسان من مخلوقات وما أغدق عليه من نعم والتأكيد على وجوب شكرها .

ففي سورة إبراهيم مثلاً توجيه إلى التفكر في خلق السموات والأرض والبحار والأنهار والشمس والقمر وتحذير من جحود هذه النعم والإعراض عن المنعم عزوجل .

يقول سبحانه : ﴿ **الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ..** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ (٣) .

وفي سورة فاطر تذكير بخلق الإنسان من نطفة وعجائب الخلق في البحار والأنهار ، وتقلب الليل والنهار ، ثم يختم السياق ببيان ضعف الإنسان وافتقاره لمولاه الغني القادر سبحانه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد** ﴾ (٤) ، ثم يعود السياق إلى بيان ما أودعه الله سبحانه في هذا الكون من مخلوقات ينبغي التفكر فيها وتأمل عجائبها التي تزيد المرء إيماناً بربه وخشية منه ومسارعة إلى طاعته .

يقول تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها**

---

(١) سورة طه / من الآية ٥٠ .

(٢) ستتحدث عن هذه الآفة بالتفصيل عند الحديث عن أمراض النفس ومعوقات تزكيتها ينظر ص/٣٨٢ من هذا البحث .

(٣) سورة إبراهيم / الآيات ٣٢-٣٤ .

(٤) سورة فاطر / آية ١٥ .

ومن الجبال جُدَدٌ بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى ا لله من عباده العلماءُ ، إن ا لله عزيز غفور ﴾ [1] .

فالعلماء هم الذين يتدبرون صفحات هذا الكون العظيم ، ويستشعرون عظمة الخالق سبحانهويدركون افتقارهم إليه فيزدادون خشية له عزوجل وإقبالاً علىعبادته .

وقد أرشد المولى سبحانه إلى ضرورة تفكر الإنسان في نفسه ليعرف قدرها ويمنعها من غرورها وطغيانها ، فقال تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان مم خُلق ، خُلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ [2] .

وقال سبحانه : ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين ، إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ [3] .

فالانسان مهما بلغ به الغنى والجاه والقوة فهو عبد ضعيف مفتقر إلىمولاه مخلوق من ماء مهين ، وهذا المعنى لا يترسخ في النفس إلا بالتفكر .

٤ ـ اقتباس الدروس والعبر :

المشاهد المتنوعة في الكون والأحياء علىاختلاف أنواعها دروس ناطقة لمن تأملها بعين البصيرة ليستلهم منها العبر وتكون عوناً له على علاج النفس من آفاتها وترقيتها في مدارج التقوى والتحلي بالأخلاق الفاضلة .

فلو نظر مثلاً إلى الأشجار لا تخذ منها دروساً لا تعد في ثباتها ورسوخ جذورها ومقاومتها للرياح ، وهي عندما تُرمى بالأحجار تُلقي بالثمار ، وتمد أغصانها لتمنح الظلال ، فليكن المؤمن كذلك في قوة إيمانه وحسن خلقه وإحسانه إلى الآخرين .

والشجرة عندما كانت فسيلة صغيرة لا تقوى على مقاومة الرياح فإنها تحاط بسياج أو تُربط بعصا ثابتة تسندها وتساعد على استقامتها ، وفي هذا المشهد درس بليغ لضرورة

---

(١) سورة فاطر / الآيتان ٢٧ـ٢٨ .

(٢) سورة الطلاق / الآيات ٥ـ٧ .

(٣) سورة المرسلات / الآيات ٢٠ـ٢٤ .

الصحبة الصالحة التي يرتبط بها المسلم لتساعده على الاستقامة ، وتكون سياجاً واقياً له من تيارات الضلال .

وفي نبات الصبّار دروس وعبر ، فهو مليئ بالأشواك شديد المرارة ، لكن ثمره حُلو المذاق لمن عرف كيف يجنيه ويأكله ، وكذلك طريق الإيمان لابد فيه من معاناة وصبر لكن ثماره التي يحظى بها العبد في الدينا والآخرة تهون من أجلها الصعاب .

وفي مشهد النار وألسنة اللهب والشرر المتطاير عِبر لا تخفى ، فالإنسان إذا كان لا يصبر لحظة على حرها في الدنيا فكيف يصبر عليها في الآخرة !! .

والجمادات فيها أيضاً عبرة فهذا أحجار الطاحون يرمي لها الناس بالخشن وتعطيهم الناعم وكذلك المؤمن ينبغي له أن يقابل السيئة بالحسنة ويتحلى بالحلم والصفح .

وهكذا يتخذ العبد الموفق من كل مشهد عبرة ، حتى إنه إذا نظر إلى الدنيا وزينتها ومباهجها ، فإنه لا ينظر إليها بعين البصر فقط فتشغله عن طاعة ربه ، وإنما ينظر بعين البصيرة ، فيقول : إذا كان كل هذا النعيم في الدنيا الفانية التي لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، فيكف بالآخرة الباقية ؟ وكيف بنعيم الجنة التي فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟ ! .

روى الحافظ ابن أبي الدنيا عن أبي سليمان الداراني أنه قال : " إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء [1] إلا رأيت لله عليَّ فيه نعمة ولي فيه عبرة " [2] .

وبذلك ندرك الثمرات العظيمة التي يجنيها العبد من التفكر في المخلوقات ، والآثار التي يحظى بها المتفكر في مجال تزكية النفس وإصلاح السلوك .

كماندرك أهمية الدعوة إلى التفكر والحث عليه ، وضرورة اغتنام الدعاة لهذاالجانب في دعوتهم وبخاصة ممن آتاهم الله العلم في مجالات الطب والفلك وغيرهما من مجالات العلوم الحديثة . .

وصدق الله سبحانه القائل في كتابه العزيز : **﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادِ الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾** [3] .

---

(١) أي : مما أحل الله النظر إليه .

(٢) أورده الإمام ابن كثير في تفسيره ٤٤٧/١ .

(٣) سورة الحج / آية ٥٤ .

الفصل الثامن

تذكر الموت وأهوال القيامة

شاءت حكمة الله سبحانه أن يكون لكل مخلوق أجل يموت فيه ، وأن يكون موعد ذلك ومكانه غيب لا يعلمه إلا الله ، وقد بيّن المولى سبحانه ذلك في محكم آياته فقال تعالى: **﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾** (١) .

ولا شك أن هذا من رحمة الله بعباده ، فلو علم الناس مدى أعمارهم وأوقات آجالهم لتعطلت سبل حياتهم وانقطعت آمالهم وما شعروا بأي هناء أو راحة ، ولكن ينبغي ألا يحملنا جهلنا بموعدنا مع الموت على نسيانه والغفلة عنه ، فتطغى علينا شهوات الدنيا الفانية ، ونسارع إلى التنافس فيها سعياً وراء آمال لا نهاية لها ، فإذا جاء الموت حلت بنا الحسرة والندامة(٢).

وقد تظاهرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على وجوب ذكر الموت والاستعداد له والعمل لما بعده ، والتحذير من الغفلة عن ذلك المصير المحتوم والأجل المكتوب .

قال تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكرا لله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾** (٣) .

وقال سبحانه : **﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلامتاع الغرور ﴾** (٤) .

---

(١) سورة لقمان / آية ٣٤ .

(٢) حياتنا والموعد المجهول / للشيخ عبد الحميد طهماز - ص / ٢٥ ، باختصار .

(٣) سورة المنافقون / الآيات ١١/٩ .

(٤) سورة آل عمران / آية ١٨٥ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: " أكثروا من ذكر هادم اللذات "[1]. يعني الموت .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: " كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: " إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك "[2] .

وهذا الحديث دليل على ضرورة الإكثار من ذكر الموت وعدم الركون إلى الدنيا ، وأن يكون حال المؤمن فيها كالغريب الذي يحنُّ إلى وطنه والمسافر الذي يأمل أن يبلغ مقصده ليستريح من عناء السفر [3] ، وأن يكون دائم الاستعداد لذلك اليوم والتطلع لما بعده من عوالم الآخرة رجاء أن يمنَّ الله عليه ببلوغ الجنة والنجاة من النار .

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : " من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقلت : يا نبي الله أكراهية الموت ؟ فكلنا نكره الموت ! فقال : ليس كذلك ، ولكن المؤمن إذا بُشِّر برحمة الله ورضوانه وجنته أحبَّ لقاء الله فأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا بُشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله ، وكره الله لقاءَه " [4] .

وفي هذا دليل واضح على أن من آثر الركون إلى الدنيا والتعلق بها وأسقط من حسابه العمل للدار الآخرة فإنه يبشر عند موته بعذاب الله وسخطه فيكره لقاء الله ، وقد ذم الله سبحانه من يتعلق بالدنيا حتى ينسى الآخرة ، فقال تعالى : ﴿ **إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون** ﴾ [5] .

---

(١) رواه الترمذي - كتاب الزهد - باب ما جاء في ذكر الموت - حديث رقم /٢٣٠٧ ، وقال حديث حسن غريب ، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٠٨/١٠ .

(٢) رواه البخاري - كتاب الرقاق - باب كن في الدنيا كأنك غريب - ١٧٠/٧ .

(٣) ينظر : فتح الباري ٢٣٣/١١ .

(٤) رواه البخاري - كتاب الرقاق - باب من أحب لقاء الله ١٩١/٧ ، ورواه مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة - باب من أحب لقاء الله - رقم /٢٦٨٤ ، واللفظ لمسلم .

(٥) سورة يونس / الآيتان ٧-٨ .

وأما كراهية الموت الذي أشارت إليه عائشة رضي الله عنها ، فقد أورد شراح الحديث في معناه تفصيلاً دقيقاً فقال الإمام ابن حجر العسقلاني : " مَن كرهه ـ أي الموت ـ إيثاراً للحياة على ما بعد الموت من نعيم الآخرة كان مذموماً ، ومن كرهه خشية أن يفضي إلى المؤاخذة كأن يكون مقصراً في العمل لم يستعد له بالأهبة ، بأن يتخلص من التبعات ويقوم بأمر الله كما يجب ، فهو معذور ، لكن ينبغي لمن وجد ذلك أن يبادر إلى أخذ الأهبة حتى إذاحضره الموت لا يكرهه بل يحبه لما يرجو بعده من لقاء الله تعالى " (١) .

فالموت في حس المسلم ليس شبحاً مخيفاً وإنما هو دافع للمسارعة إلى العمل الصالح ، وإن كان في حد ذاته مصيبة لأنه يقطع الإنسان عن أهله وإخوانه وعما ألفه من أمور الدنيا كما يقطعه عن الاستزادة من العمل الصالح والمبادرة إلى التوبة من المعاصي ، وقد سمّى الله سبحانه الموت مصيبة ، فقال تعالى : ﴿ **فأصابتكم مصيبة الموت** ﴾ (٢) .

والمؤمن وإن كان سيفارق الدنيا وأهلها عند موته ، فإنه يأمل أن يكرمه الله برضوانه وجنته وأن يكون في الدار الآخرة من السعداء ، وهو من أجل ذلك يكثر من ذكر الموت ، ولا يجزع من الحديث عنه ، لأنه باب لدار الكرامة والخلاص من شقاء الحياة الدنيا ، ومصداق ذلك ما رواه الطبراني عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تحفة المؤمن الموت " (٣) .

وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : " يكفي في طيب هذه الحياة مرافقة الرفيق الأعلى ، ومفارقة الرفيق المؤذي المنكد ، الذي تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة ، فضلاً عن مخالطته وعشرته ، إلى الرفيق الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً ، في جوار الرب الرحمن الرحيم .. ولو لم يكن في الموت من الخير إلا أنه باب الدخول إلى هذه الحياة ، وجسر يُعبَر منه إليها لكفى به تحفة للمؤمن "(٤).

---

(١) فتح الباري ٣٦١/١١ .

(٢) سورة المائدة / من الآية ١٠٦ .

(٣) رواه الطبراني ، وإسناده جيد كما قال المنذري في الترغيب والترهيب ٣٣٥/٤ .

(٤) مدارج السالكين ٢٧٤/٣ .

ثم أورد قول الشاعر :

جزى الله عنا الموت خيراً فإنه　　أبرُّ بنا من كل بَرٍّ وألطفُ

يعجل تخليص النفوس من الأذى　　ويُدني إلى الدار التي هي أشرفُ

كما بين رحمه الله سبب تعلق النفوس بالحياة الدنيا والطمأنينة إليها مع ما فيها من شقاء فقال : " النفس لإلفها لهذا السجن الضيق النكد زماناً طويلاً ، تكره الانتقال منه إلى ذلك البلد ـ أي الآخرة ـ وتستوحش إذا استشعرت مفارقته "(١).

ولذلك لابد للمسلم من أن يكثر من ذكر الموت وما بعده من عوالم الآخرة ، وأن يستعرض بذاكرته مشاهد القيامة وأهوالها ليكون ذلك واعظاً لنفسه وحاجزاً لها عن التعلق بالدنيا والشغف بها ، وكلما ازداد إقبال الدنيا على العبد وأصبح ذا مال وجاه وسلطان ازدادت حاجته إلى الإكثار من ذكل الموت لئلا تفتنه الدنيا عن الآخرة .

وقد ذكر الإمام ابن رجب الحنبلي أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان يجمع الفقهاء كل ليلة فيتذاكرون الموت والقيامة ، ثم يبكون كأن بين أيديهم جنازة (٢) .

ولا شك أن مما يذكّر بالموت ويهز أعماق النفس أن يشهد الإنسان مشاهده ، وبخاصة عندما يرى شخصاً في سكرات الموت وهو يعاني النزع الأخير ، ثم يراه بعد أن يلفظ أنفاسه وتبرد أعضاؤه وتشتد أحزان أهله لفراقه ، ثم يراه وهو يغسل ويكفن ويصلى عليه ويوضع في تلك الحفرة الضيقة المظلمة ، ثم تغطى ويهال التراب فوقها ويتفرق عنه الأهل والأصحاب .

إن هذه المشاهد تحفر في النفس آثاراً عميقة وتؤثر فيها أكثر من عشرات الخطب والمواعظ والدروس ، وكثيراً ما تحدث انقلاباً في سلوك المرء وتغيراً لأفكاره واتجاهاته ، وهي بلا شك سبب رئيسي في توبة كثير من أهل المعاصي واستقامتهم على طريق الإيمان .

ويزداد هذا التأثير عندما يكون الميت أحد الأبوين أو الأبناء أو الإخوة أو غيرهم من الأقرباء والأرحام ، لأن المرء حينئذ يجد أثراً واضحاً لفراق ذلك المتوفى ، ويستعيد في ذاكرته حياته وأيامه التي عاشها في الدنيا وآماله وآلامه وأقواله ، وأعماله ، وكيف انقضى كل ذلك

---

(١) المرجع نفسه ٣/٢٧٥ .
(٢) سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ـ للإمام ابن رجب الحنبلي ـ ص / ٨٤ .

في لحظة واحدة انتهت بها حياته وقامت فيها قيامته ، ولم يبق له إلا عمله الصالح .

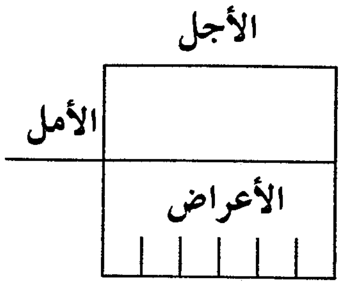

روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : خطَّ النبي ﷺ خطاً مربعاً ، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه وخط خُططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط وقال : " هذا الإنسان وهذا أجله محيط به ـ أو قد أحاط به ـ وهذا الذي هو خارجٌ أملُه ، وهذه الخُطط الصغار الأعراض ، فإن أخطأه هذا نهشه هذا ، وإن أخطأه هذا نهشه هذا " (١) .

والمراد بالأعراض الآفات العارضة له ، فإن سلم من آفة لم يسلم من غيرها ، وإن سلم من الجميع ولم تصبه آفة من مرض أو فقد مال أو غير ذلك بغتةُ الأجل فقطع عليه الأمل ، وفي ذلك إشارة إلى الحض على قصر الأمل والاستعداد لبغتة الأجل (٢) .

ولا شك أن مما يدعو لتذكر الموت وقصر الأمل تدبر آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية التي تتحدث عن الموت وأحوال الناس في الآخرة ، والوقوف عند مشاهد القيامة وأهوالها ، ابتداء من سكرات الموت ثم عالم القبر إلى النفخ في الصور ومشاهد يوم القحشر ومواقف الحساب والميزان وتطاير الصحف والمرور على الصراط ، حتى يصل الإنسان إلى مقعده في الجنة أو النار ، وما يُصب على أهل النار من عذاب شديد ، وأهوال عظيمة ، كل ذلك يدعو إلى المسارعة إلىتقوى ا لله سبحانه قبل حلول الأجل ، والإكثار من ذكر الموت والاستعداد للقائه .

وإذا عاش الإنسان حياته في غفلة وإعراض عن ربه ، واتخذ من دنياه طريقاً للضلال ، حتى أتاه الموت وهو على هذه الحال ، فإنه سيندم أعظم الندم وسيلقى أشد العذاب في النار، وهيهات أن يتمكن من تدارك ما فاته من أيام حياته الدنيا وقد أخبر ا لله سبحانه عن حال أهل النار ، فقال تعالى : ﴿ **وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أوَ لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾(٣) .

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب في الأمل وطوله ـ ٧/١٧١ .

(٢) فتح الباري ١١ / ٢٣٨ .

(٣) سورة فاطر / آية ٣٧ .

وقال سبحانه محذراً عباده من النار : **﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون ا لله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾** (١) .

وقال عز وجل : **﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾** (٢) .

آثار تذكر الموت وأهوال القيامة في مجال تزكية النفس :

بعد أن عرفنا أهمية تذكر الموت وأهوال القيامة في مجال التزكية يمكن إجمال آثاره في النقاط التالية :

١ ـ التحرر من أسر الدنيا والشغف بها :

إذا علم العبد أن الموت ينتظره ، ووضع هذه الحقيقة نصب عينيه ، فإنه لن يجعل كل اهتمامه أن يكدح لدنياه ويبذل من أجلها ، وإنما يجعلها مزرعة للآخرة ، فيعمل فيها فيما يرضي ا لله سبحانه ويجتنب ما يسخطه ، ويفرغ قلبه من التعلق بالدنيا ليكون متوجهاً إلى محبة ا لله ورسوله دون أن يصل به الأمر إلى هجر الدنيا كلية (٣) ، وإنما يكون كما قال تعالى : **﴿ وابتغ فيما آتاك ا لله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن ا لله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن ا لله لا يحب المفسدين ﴾** (٤) .

وفي هذا علاج لكثير من أمراض النفس من الحسد والطمع والأنانية ، كما أن فيه علاجاً لمرض خطير يصيب القلب في مقتل ألا وهو التكبر والغرور ، فالذي يتحرر من أسر الدنيا ويجعل الموت نصب عينيه لا يمكن له أن تحدثه نفسه بالغرور والتعالي على إخوانه ، لأنه عرف أنه من تراب وسيعود إلى التراب ، وأن الذي يعلي قدره ليست زخارف الدنيا

---

(١) سورة التحريم / آية ٦ .

(٢) سورة الزمر / آية ٥٤ .

(٣) سنفصل الحديث عن موضوع الزهد في الدنيا عند الحديث عن الانحرافات في التزكية (ص٤٦٧ من هذا البحث) .

(٤) سورة القصص / آية ٧٧ .

وإنما التقوى الذي يعمر القلب ويغني النفس عن جميع الخلق .

قال تعالى : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين** ﴾ [1] .

٢ ـ التحرر من مخاوف الدنيا :

ما أتعس العبد عندما يكون أسيراً للمخاوف ، قلقاً مضطرباً مما قد يحل به في المستقبل ، يخاف من الناس خشية أن يوقع أحد منهم الضرر به أو يمنع عنه الرزق أو يمسه بسوء ، يخاف من شبح المرض لأنه سيحرمه من متع الدنيا ويقربه من الموت ، يخاف حتى من نفسه خشية أن تتقاعس في السعي لطلب الدنيا والتنافس فيها .

ولا شك أن هذه المخاوف وغيرها إذا ترسخت في النفس ، فإنها ستحرم صاحبها لذيذ المنام وشهي الطعام ، وتمنعه من الراحة والأمان ، وتؤدي به إلى الأسقام ، وهي قبل ذلك كله خطر على عقيدة المسلم وما يجب عليه من التسليم لأمر الله سبحانه والرضى بما قسم وقدَّر .

والعلاج الحاسم لهذه المخاوف أن يكثر المسلم من تذكر الموت والاستعداد للرحيل ، وبذلك تهون الدنيا في نظره ، ويضعف تعلقه بها ، فلا يأسى على ما فاته من أموالها وزينتها ، ويستقر في نفسه أن ما يقع به من ضر أو أذى فهو قدر مكتوب ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ساعة الموت لابد منها ولا يمكن تأخيرها مهما حاول الفرار منها .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ [2] .

ويقول عز وجل : ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة** ﴾[3] .

وفي هذا غرس للقناعة في قلب المسلم وتدريب له على التسليم لأمر الله وعدم الجزع

---

(١) سورة القصص / آية ٨٣ .

(٢) سورة الجمعة / آية ٨ .

(٣) سورة النساء / من الآية ٧٨ .

عند المصائب ، كما أنه يدفع إلى بذل النفس في سبيل ا لله تعالى ، وذلـك مـن أعظـم ثمـرات التزكية .

٣ ـ التزام التقوى والمسارعة إلى العمل الصالح :

غاية ما يسعى من أجله المؤمـن أن يرزقـه ا لله التقـوى ، فيكـون مـن أصحـاب النفـوس المطمئنة التي تبشَّر بالخير العميم في الدنيا والآخرة ، بعد أن تحررت من أسر الدنيا .

ولا شك أن البعد عن المعاصي والمبادرة إلى العمل الصالح هوالطريق إلى التقوى ، وخـير ما يعين على هذا الطريق تذكر الموت وأهوال القيامة والاستعداد للأجل المحتوم .

وقد أرشد المولى سبحانه إلى ذلك ، فقال تعـالى : ﴿ **يـا أيهـا الذيـن آمنـوا اتقـوا ا لله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا ا لله إن ا لله خبير بما تعملون ولا تكونوا كـالذين نسـوا ا لله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ (١) .

وقال عز وجل : ﴿ **يـا أيهـا الذيـن آمنـوا اتقـوا ا لله حـق تقاتـه ولا تموتـن إلا وأنتـم مسلمون** ﴾ (٢) .

ولأهمية ترسيخ هذاالجانب في النفوس فقد حفلت آيات القرآن الكريـم بالتـأكيد عليـه حتى إن آخر آية نزلت كانت للتأكيد على تذكر المـوت ومـا بعـده والاسـتعداد لكـل ذلـك وهي قوله تعالى : ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى ا لله ثم توفّى كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون** ﴾ (٣) .

٤ ـ أخذ الدروس والعبر :

تذكر الموت والأموات فيه أعظم الدروس والعبر ، فكم من أنـاس شـيدوا القصـور فلـم يسكنوها واشتروا الملابس فلم يلبسوها ، وتقلبوا في اللذات واللهو والغفـلات فلـم يبـق منهـا إلا الحسرات .

---

(١) سورة الحشر / الأيتان ١٨ـ ١٩ .

(٢) سورة آل عمران / آية ١٠٢ .

(٣) سورة البقرة / آية ٢٨١ .

وقد أرشد المولى سبحانه إلى أخذ الدروس والعبر من السابقين ، وبخاصة أولئك الذين أعرضوا عن ربهم وعاندوا رسله .

قال تعالى : ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونَعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنظرين** ﴾ [(١)] .

فالعبرة من تذكر الأموات عظيمة ، والعبد عندما يجول بخاطره في عالم الأموات ويتذكر كيف كانت حياتهم قبل الموت ، وماذا تركوا من آثار بعدما فارقوا الدنيا ، فإن ذلك من أعظم المواعظ للنفس .

لقد فارق بعض هؤلاء الدنيا ولكن ذكراهم بقيت حية ، بما تركوا من آثار طيبة ، وبما كانوا يتحلون به من نفس زكية وسيرة رضيَّة وأفعال مرضيَّة .

والبعض الآخر ترك الأثر بما كان عليه من ظلم وطغيان وعتوٍّ في الأرض ، حتى إذا جاءهم الموت استراح من شرورهم العباد والبلاد ، وفرحت القلوب للخلاص منهم ، وأصبح مصيرهم تلك الحفر الضيقة المظلمة ، ليكونوا طعاماً للديدان ، وهوامّ الأرض !! وفي ذلك درس بليغ يُعين المظلوم على الصبر ، فالله سبحانه يمهل ولا يهمل ولابد لكل ظالم من نهاية .

روى مسلم عن أبي قتادة بن ربعي رضي الله عنه أنه كان يحدِّث أن رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة فقال : " مستريح أو مستراح منه ، قالوا يا رسول الله : ماالمستريح والمستراح منه ؟ .

فقال : العبد المؤمن يستريح من نَصَب الدنيا ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب " [(٢)] .

وما أحسن قول ابن الوردي في لاميته المشهورة :

أين مَن سادوا وشادوا وبنوا ... هلك الكلُّ فلم تُغنِ القُلَلِ
أين أربابُ الحِجى أهل النُهى ... أين أهل الفضل والقومُ الأوَل
سيعيد الله كلاً منهم ... وسيجزي فاعلاً ما قد فعل

---

(١) سورة الدخان / الآيات ٢٥-٢٩ .

(٢) رواه مسلم كتاب الجنائز - باب ما جاء في مستريح ومستراح منه ، رقم /٩٥٠ .

ولا شك أن مما يعين المؤمن على تذكر الموت واتخاذ العبرة من الأموات أن يكثر من زيارة القبور ، وقد ورد في الحث على ذلك أحاديث عديدة منها :

ـ ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، فقال : " استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذَن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذِن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت " (1) .

ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إني نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإن فيها عبرة " (2) .

ـ وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : " زُرْ القبور تَذكرُ بها الآخرة ، واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاوٍ موعظة بليغة ، وصلِّ على الجنائز لعل ذلك يحزنك ، فإن الحزين في ظل الله يوم القيامة " (3) .

ولا بد هنا من لفت أنظار الدعاة إلى ضرورة الإكثار من زيارة القبور وحض الناس على ذلك ، مع بيان آثارها في ترقيق قسوة القلب والتذكر بالموت والآخرة ، والتنبيه إلى آداب الزيارة الشرعية للقبور ، والتحذير مما يقع به البعض من مخالفات وبدع في هذا المجال .

وليستشعر المسلم أن هذه القبور التي يزورها قد تضم قبره يوماً ما .

يقول الشاعر :

أمرُّ على المقابر كل حين ولا أدري بأي الأرض قبري

وأفرح بالغنى إن زاد مالي ولا أبكي على نقصان عمري

---

(1) رواه مسلم ـ كتاب الجنائز ـ باب استئذان النبي ربه في زيارة قبر أمه رقم /٩٧٦ ، وانظر شرح النووي ٤٥/٧ .

(2) رواه أحمد في مسنده ورواته محتج بهم في الصحيح كما قال المنذري في الترغيب والترهيب ٣٥٧/٤ ، والجزء الأول منه رواه مسلم في الجنائز ـ رقم /٩٧٧ .

(3) رواه الحاكم في المستدرك (٣٣٠/٤) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

الفصل التاسع

الترغيب والترهيب

سبق الحديث في الفصل الماضي عن أهمية تذكر الموت وأهوال القيامة ، وآثار ذلك في تزكية النفس ، لما يغرس فيها من الخشية والرهبة التي توجهها إلى الخير وتحجزها عن الشر .

وننتقل هنا إلى الحديث عن وسيلة مهمة أخرى من وسائل المنهج الإسلامي في التزكية، وهي على صلة وثيقة بالموضوعات السابقة عموماً ، وبتذكر الموت والدار الآخرة بشكل خاص ، ألا وهي الترغيب والترهيب .

فقد خلق المولى سبحانه في النفس البشرية خطوطاً متقابلة تؤدي مهمتها في ربط الكائن البشري بالحياة ، وصفات فطرية تحقق للإنسان كياناً فريداً متميزاً عن باقي المخلوقات ، ومنها صفتا الخوف والرجاء ، اللتان تحددان مشاعر الإنسان واتجاهاته ، وأهدافه وسلوكه وأفكاره ، فعلى قدر ما يخاف ونوع ما يخاف ، وعلى قدر ما يرجو ونوع ما يرجو .. يتخذ لنفسه منهج حياته ، ويوفق بين سلوكه وبين ما يرجو وما يخاف [1] .

والمنهج الإسلامي في التزكية يمسك بزمام النفس البشرية من هذين الخطين المتقابلين ، ويربط بهما توجيهاته وأوامره ونواهيه حتى تتلازم في أعماق النفس ، وهذا ما يُعرف بإسم الترغيب والترهيب [2] .

ولقد حفلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالحض على الطاعات والتحذير من المنكرات عن طريق الترغيب والترهيب ، لكي تنقاد النفس وتنزجر وتسارع إلى ما فيه مرضاة الله سبحانه ، مع بيان أهمية الخوف والرجاء في حياة المسلم وآثارهما في تقويم سلوكه ومن ذلك قول الحق سبحانه : ﴿ **أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا**

---

(١) ينظر : منهج التربية الإسلامية ـ محمد قطب ـ ١٢٨/١ ، وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه ١٣٨/١ .

الألباب ، قل ياعباد الذين آمنوا اتقوا ربكم ، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (١) .

وقوله تعالى : **﴿ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هوالخسران المبين ، هم من فوقهم ظُلَل من النار ومن تحتهم ظُلل ذلك يخوِّف الله به عباده يا عباد فاتقون ، والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله هم البشرى فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ، أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ مَن في النار لكن الذين اتقوا ربهم هم غرف من فوقها غرف مبينة تجري من تحتها الأنهار وَعْد اللهِ لا يخلف الله الميعاد ﴾** (٢) .

وهكذا تتوالى مشاهد الترغيب والترهيب في هذه الآيات الكريمة ، الترغيب والبشارة لمن استقام على طاعة الله ، والنذير والوعيد والتخويف الشديد لمن أعرض عن هدي الإسلام وحاد عن الطريق المستقيم .

والمتأمل لهذه الآيات الكريمة لابد أن تهتز أعماق نفسه وتتيقظ فطرته وهو يرى هذا التقابل بين مشاهد النعيم المقيم لأهل الجنة وما فيها من غرف من فوقها غرف مبنية ، ومشاهد الشقاء والعذاب لأهل النار وهم يحترقون في طيات تلك الظُلل المعتمة من فوقهم ومن تحتهم (٣) .

ومهما ترقى العبد في مدارج التقوى والعمل الصالح فإن نفسه لا تستغني عن الترغيب والترهيب ولا تستقيم بدون الخوف والرجاء ، وهذا ما أرشد إليه المولى سبحانه في قوله تعالى: **﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾** (٤) .

---

(١) سورة الزمر / الآيتان ٩- ١٠ .

(٢) سورة الزمر / الآيات ١٥-٢٠ .

(٣) ينظر : في ظلال القرآن ٥/٣٠٤٥-٣٠٤٦ .

(٤) سورة المؤمنون / الآيات ٥٧-٦١ .

وقد روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : " سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة** ﴾ قالت عائشة : هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ، وهم يخافون أن لا يُقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات " (١) .

فهؤلاء العباد الصالحون الذين أثنى عليهم المولى سبحانه هم الذين يعطون العطاء لمستحقيه ويقومون بأعمال البر والطاعة ، وهم خائفون وجلون أن لايُتقبل منهم إشفاقاً مما قد يعتريهم من تقصير ، ولذلك جعلهم الله من السابقين لكونهم جمعوا بين إحسان العمل والخشية من المولى سبحانه فهم مع إحسانهم مشفقون خائفون (٢) .

كما قال الحسن البصري رحمه الله : " عملوا - والله بالطاعات - واجتهدوا فيها ، وخافوا أن تردَّ عليهم ، إن المؤمن جمع إحساناً وخشية ، والمنافق جمع إساءة وأمناً " (٣) .

كما أثنى الله سبحانه على عباده الصالحين عموماً فقد أثنى على أنبيائه ورسله عليهم السلام بأنهم كانوا يتقربون إلى ربهم ويدعونه رغباً ورهباً ، فيجعلون الرغبة والرهبة متلازمتين،وفي ذلك يقول الحق عزوجل : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين** ﴾ (٤) .

وبعد استعراض جانب يسير مما حفلت به آيات القرآن الكريم من بيان أهمية الترغيب والترهيب وتوجيه العباد لما فيه صلاحهم بالرغبة والرهبة ، ننتقل إلى الأحاديث النبوية لنستعرض بعض ما ورد منها في هذا المجال ، ولندرك أهمية الترغيب والترهيب وآثارهما في تزكية النفس وإصلاح السلوك .

- فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " لو يعلم المؤمن ما

---

(١) رواه الترمذي - كتاب تفسير القرآن - باب سورة المؤمنون - رقم / ٣١٧٥ ، .
والحاكم في المستدرك ٣٩٣/٢ والإمام أحمد في المسند ١٥٩/٦ ، ٢٠٥) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة - رقم /١٦٢ .

(٢) ينظر : ابن كثير ٢٤٨/٣ .

(٣) مدارج السالكين ٥١٢/١ .

(٤) سورة الأنبياء / من الآية ٩٠ .

عند ا لله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند ا لله من الرحمة ما قنط من جنته أحد " [1] .

وفي هذا تنبيه للمؤمن أن لا يغتر بالرجاء ويترك الخوف فيدعوه ذلك إلى التكاسل عن الطاعات ، وترغيب للكافر أن يبادر إلى الإيمان وأن لا يقنط من رحمة ا لله سبحانه مهما بدر منه ، فالإيمان يجبُّ ماقبله ، ولعل هذه الومضة من الرجاء تنير قلبه وتكون سبباً في هدايته .

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول ا لله ﷺ يقول : " من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة ا لله غالية ، ألا إن سلعة ا لله الجنة " [2] .

وهذا الحديث دليل واضح على دور الترهيب في تزكيةالنفس وتقويم اعوجاجها ، فمن خاف الليل الحالك في المكان الموحش أسرع السير من أول الليل ليدرك مأمنه ، ولو أنه تباطأ وتقاعس لحلت به الندامة ، واجتمعت عليه المخاوف واشتدت ظلمة الليل فلم يعد يستطيع المسير وكذلك العبد الموفق الذي يسير في طريق الآخرة ينبغي عليه أن يستحث الخطا ليبلغ منزله في الجنة ، وأن يهرب من المعاصي ويحذر من مكائد الشيطان ويجاهد نفسه على طاعة ا لله ، ليحظى بالجنة التي هي غالية الثمن ولا تنال إلا بالجهد والبذل ودوام الخشية من المولى سبحانه .

ـ وعن أنس رضي الله عنه قال : " بلغ رسول ا لله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال : " عرضت علي الجنة والنار ، فلم أرَ كاليوم في الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً .

قال : فما أتى على أصحاب رسول ا لله ﷺ يوم أشدّ منه ، قال : غطوا رؤوسهم ولهم خنين [3] ، قال : فقام عمر فقال : رضينا با لله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً " [4] .

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب التوبة ـ باب في سعة رحمة الله تعالى ـ رقم /٢٧٥٥ .

(٢) رواه الترمذي ـ كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ـ باب / ١٨ ، حديث رقم /٢٤٥٠ ، وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٣) الخنين : صوت البكاء ، وهو نوع من البكاء دون الانتحاب ، وأصله خروج الصوت من الأنف (شرح النووي على صحيح مسلم ١١٢/١٥) .

(٤) رواه مسلم ـ كتاب الفضائل ـ باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله .. رقم / ٢٣٥٩ ، .

وقد جاءت هذه الموعظة البليغة من الرسول ﷺ تعقيباً على ما بلغه عن بعض أصحابه مما لا ينبغي فعله ، ولذلك اقتضى الأمر تغليب جانب الترهيب والتخويف ليكون أسرع في التأثير وأبلغ في تحريك النفس واستجابتها ، فخطب عليه الصلاة والسلام هذه الخطبة التي ذكّر فيها بالجنة والنار ، وخوّف فيها من عذاب الجبار سبحانه ، حتى اشتد بكاء الصحابة رضي ا لله عنهم وقد كان الرسول المربي ﷺ في غاية الحرص على تزكية نفوس أصحابه وتقويم سلوكهم بما يرضي ا لله سبحانه ، وكانت مواعظه ووصاياه وإرشاداته تأخذ بمجامع القلوب ، وتحيي النفوس ، حتى بلغ الصحابة رضي ا لله عنهم هذا المبلغ العظيم من الالتزام بالإسلام وإخلاص العمل لله سبحانه وبذل النفس في سبيله .

وقد حفلت كتب الحديث النبوي بمواعظه ﷺ وإرشاداته التي تجمع بين الترغيب والترهيب ، والخوف والرجاء ، وتجعل منها مرتكزاً للتأثير في النفس .

ومن ذلك ما رواه الترمذي عن أبي نجيح العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : " وعظنا رسول ا لله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول ا لله كأنها موعظة مودّع فأوصنا .

قال : أوصيكم بتقوى ا لله عزوجل والسمع والطاعة ، وإن تأمّر عليكم عبد ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة " (١) .

وقد جاءت هذه الوصايا الجامعة بعد تلك الموعظة البليغة لتكون علاجاً حاسماً لما قد يعتري النفس من أمراض ودافعاً قوياً إلى رقيها واستقامتها على منهج الإسلام ، ولقد ملأت تلك الموعظة قلوب الصحابة خشية من ا لله وأسالت مدامع عيونهم ورقت بنفوسهم إلى العالم الآخر ولذلك سارعوا إلى طلب وصية يلتزمون بها ليبقوا على عهدهم مع الرسول ﷺ بعد وفاته ولا شك أن الترهيب والتخويف له أثره البليغ في تزكية النفس وترقيق قسوة القلب، ولكن لابد فيه من ميزان دقيق لئلا يؤدي إلى اليأس من رحمة ا لله سبحانه .

يقول الإمام ابن القيم رحمه ا لله : " الخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم ا لله عز وجل ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط " (٢) .

---

(١) رواه الترمذي في العلم - باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع - رقم ٢٦٧٦ - وقال حديث حسن صحيح ، ورواه أبو داود في السنة - باب لزوم السنة - رقم /٤٦٠٧ .

(٢) مدارج السالكين ٥١٤/١ .

ويقول في بيان منزلة الخوف والرجاء : " إن الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة التي عليها مدار مقامات السالكين جميعها ، وهي الخوف والرجاء والمحبة ، وقد ذكره سبحانه في قوله : ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه** ﴾ (١) فجمع بين المقامات الثلاثة ، فإن ابتغاء الوسيلة إليه هوالتقرب إليه بحبه وفعل ما يحبه " (٢) .

وينبه رحمه الله ـ على ضرورة تغليب جانب الخوف على جانب الرجاء ، وبخاصة في حالة الصحة ، فيقول : " القلب في سيره إلى الله عزوجل بمنزلة الطائر ، فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحاه ، فمتى سلم الرأس والجناحات فالطائر جيد الطيران ، ومتى قطع الرأس مات الطائر ، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائر وكاسر ، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء ، وعند الخروج من الدنيا يقوي جناح الرجاء على جناح الخوف " (٣) .

ولا شك أنه لا بد من تغليب الخوف في الدعوة والمواعظ والخطب وبخاصة في وقتنا الحاضر الذي طغت فيه المادة على النفوس وازداد الرجاء عند الناس حتى اغتروا بالأماني ، ولا تعود تلك النفوس إلىاستقامتها إلا بالتخويف من عذاب الله سبحانه ، والتذكير بمشاهد القيامة وأهوالها ، ولو كان أثرها شديداً على النفس،وفي ذلك يقول الإملم ابن رجب الحنبلي رحمه الله : " المواعظ سياط تضرب بها القلوب فتؤثر في القلوب كتأثير السياط في البدن ، والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثيره في حال وجوده ، لكن يبقى أثر التألم بحسب قوته وضعفه ، فكلما قوي الضرب كانت مدة بقاء الألم أكثر " (٤) .

وهكذا يحقق الترهيب والتخويف من عذاب الله دوره في تزكية النفس ، فيحظى أهل الخشية بالأمن يوم الوعيد والفوز بالجنة يوم الخلود .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾(٥) .

---

(١) سورة الإسراء / آية ٥٧ .

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ـ ص/٢٦٨ .

(٣) مدارج السالكين ١/٥١٤ .

(٤) لطائف المعارف ص/١٣ .

(٥) سورة الرحمن / آية ٤٦ .

أساليب دعوية مساعدة في الترغيب والترهيب

هناك عدد من الأساليب الدعوية المفيدة التي لا يستغني عنها الداعية في دعوته لكونها ذات تأثير بليغ في تزكية النفس وحثها على العمل الصالح وحجزها عن الموبقات ، ومن هذه الأساليب : القصة ، وضرب الأمثال ، والشعر .

المبحث الأول

القصة

القصة ذات أهمية كبرى في سرعة استيعابها وقوة تأثيرها واستمرار أثرها إذا ما قورنت بالكلام العادي ، لأنها تمثل الحياة بكل معانيها من نشاط وتفكير ومواقف ، وهي محببة إلى النفس ولذلك نجد الاستماع لها كبيراً ، والإصغاء إليها لا يقف عند حد ، كما أنها تدفع إلى المحاكاة والتقليد في الأخلاق والأفعال ، وقد يصل الأمر بالسامعين إلى الانفعال التام لما يجري من أحداث القصة والاستغراق في متابعتها مع التأثر الشديد الذي يتّسم بالقلق والحزن وذرف الدموع أحياناً أو الفرح والسرور أحياناً أخرى (١) .

والمنهج الاسلامي يستثمر هذاالميل الفطري إلى القصة ومالها من تأثير عجيب في النفس، فيجعل منها وسيلة مهمة من وسائل التربية والتزكية وتقويم السلوك .

وقد حفلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالقصص المؤثرة الهادفة ، وبخاصة

---

(١) ينظر : كتاب منهج التربية الإسلامية للاستاذ محمد قطب ١٩٢/١ ، وما بعدها ، وكتاب الرسول العربي للدكتور عبد الحميد الهاشمي ـــ ص / ٢٤٦ ، وكتاب : غزو في الصميم للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني ـ ص/١٦٠ وما بعدها .

القصص التاريخية للأنبياء والمرسلين والأمم السابقة وبعض حوادث السيرة النبوية ، كما حفل التاريخ الإسلامي بروائع القصص ، مما تُعد بحق نموذجاً أمثل للقدوة الحسنة ، ومادة خِصبة للتأثير في النفوس ، ومشاهد حية مليئة بالدروس والعبر .

وليس هناك ما هو أدل على تأثير القصص الحق في النفوس من قوله تعالى : ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾[1] ، وقوله سبحانه : ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص** ﴾[2] .

ولذلك أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بأن يقص على المعاندين قصص السابقين وما حلّ بهم من عذاب لعل ذلك يعيدهم إلى رشدهم كي يحذروا أن يكونوا مثلهم .

قال تعالى : ﴿ **فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾[3] .

والواقع أن استعراض القصص القرآني والنبوي وبيان دوره في تزكية النفس وما حفل به من دروس وعبر ، لا يتسع له مجال البحث هنا ، ولكني سأشير بإيجاز إلى بعض هذا القصص لبيان دور القصة في التزكية وضرورة استغلال الدعاة لهذا الإسلوب المهم في الدعوة والتربية .

فمن أبرز القصص القرآني قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، فهي مليئة بالدروس التوجيهية في الصبر وعفة النفس عن الحرام مهما تيسرت أسبابه وكثرت دواعيه ، وقد أوضحت هذه القصة القرآنية بأسلوب فريد معجز شخصية يوسف عليه السلام الذي توالت عليه المحن وتنوعت ، وكان أشدها على النفس محنة كيد امرأة العزيز التي اتبعت كل وسائل الإغراء والتهديد لتحقق نزوتها الشهوانية ، ولكن الرد الحاسم أبطل كيدها وخيّب سعيها ، وهو قول يوسف عليه السلام بتصيمم المؤمن الراسخ في إيمانه : ﴿ **معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون** ﴾[4] .

---

(١) سورة يوسف آية ١١١ .
(٢) سورة يوسف / من الآية ٣ .
(٣) سورة الأعراف / من الآية ١٧٦ .
(٤) سورة يوسف / من الآية ٢٣ .

وفي هذا المشهد تصوير واقعي دقيق لحالة النفس المطمئنة التي لا يغيب عنها تذكر نعم الله وآلائه ووجوب حفظها وصيانتها والوقوف بثبات عند حدود الله والاعتصام بحبله سبحانه وتغلب قوة الإيمان على جوانب الضعف البشري الذي قد يعتري النفس .

ولا شك أن هذه القصة بما حوت من مشاهد وأحداث تعد أنموذجاً عملياً للشباب في حياتهم التي تحيط بها المغريات من كل جانب وتفرض ثقلها عن النفس بشتى الوسائل ، كما أنها أنموذج يُحتذى لدعاة الإسلام في خضمِّ التحديات والمعوقات والشدائد التي مهما كثرت فلابد له من نهاية تظهر بها العاقبة الحسنى للصبر والثبات .

ولذلك جاء التعقيب في خواتيم سورة يوسف بقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا فُنجِّي من نشاء ولا يُردُّ بأسنا عن القوم المجرمين** ﴾ (١) ، كما بين المولى سبحانه أثر القصص في تثبيت القلوب وترسيخ الطمأنينة في النفوس فقال تعالى : ﴿ **وكلاًّ نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نُثبِّت به فؤادك وجاءك في هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين** ﴾ (٢)

وهناك كثير من القصص القرآني الذي لا يستعرض مشاهد الأحداث وإنما يمر بها بشكل مجمل ليلقي الضوء على النتائج ويبرز ما فيها من دروس وعبر ، ومن ذلك قصة أصحاب الأخدود في سورة البروج التي جاء تفصيلها في السنة النبوية (٣) ، وقصة صاحب الجنتين في سورة الكهف وأصحاب الجنة في سورة القلم وما شابه ذلك .

كما أن بعض القصص القرآني يعدُّ إبراز لجانب من السيرة النبوية وتعليقاً على حدث من أحداثها ، كما في الآيات الكريمة من سورة آل عمران ، التي تلقي الضوء على جوانب من غزوة أحد وتعقب على أحداثها بأسلوب تربوي فريد ، وكما في سورة التوبة التي نزلت تعقيباً على أحداث غزوة تبوك وعلاجاً لما أصاب بعض النفوس من أمراض وآفات.

---

(١) سورة يوسف / آية ١١٠ .

(٢) سورة هود / آية ١٢٠ .

(٣) ينظر : صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق - باب قصة أصحاب الأخدود - رقم / ٣٠٠٥ .

ولو انتقلنا إلى القصص النبوي فإننا نجد أنفسنا أمام عدد كبير من القصص التي وردت بأسانيد صحيحة والتي كان الرسول ﷺ يربي من خلالها أصحابه ويزكي نفوسهم ويربط على قلوبهم بالإيمان ، ويجلي بها ما يصيب النفس من أمراض وانحرافات وما يعتريها من تكبر وغرور كما يبرز فيها الثمرات اليانعة لتزكية النفس في الدنيا والآخرة .

ومن ذلك مثلاً قصة الأبرص والأقرع والأعمى ، كما وردت في الصحيحين [1] ، وملخصها أن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً يسأل كل واحد منهم عن أحب شيء إليه ، فكان الجواب لكل منهم أن يشفيه الله مما هو فيه ويرزقه مما يحب من المال فشفاهم الله ، وأعطي الأول ناقة عشراء ، والثاني بقرة حاملاً ، والثالث شاةً والداً ثم قال الملك لكل منهم : بارك الله لك فيها ، فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر ولهذا وادٍ من الغنم ، ثم جاءهم بعد مدة في صورة رجل مسكين يذكرهم بما منَّ الله عليهم من الشفاء والمال الكثير بعد المرض والفقر ، فكان جواب الأبرص والقرع بالإعراض والمنع ، وادعي كل منهما أنه ورث هذا المال كابراً عن كابر ، وأما الأعمى فقد قال معترفاً بفضل الله عليه وما أنعم الله عليه من الشفاء والرزق : " قد كنت أعمى فردَّ الله إليَّ بصري ، فخذ ما شئت ودع ماشئت فوالله ما أجهدك [2] اليوم بشيء أخذته لله عز وجل " فقال الملك : " أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك " .

وفي هذه القصة وصف دقيق لحالة قسمين من الناس ، قسم يجحد النعم ويمتلئ قلبه بالتكبر والغرور ، وتفتنه شهوات الدنيا عن آخرته إذا وُسِّع عليه في الرزق ، فيكون ذلك وبالاً عليه ، وقد أخبر المولى سبحانه عن حال هؤلاء فقال تعالى : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾ [3] .

وأما القسم الآخر فهو الذي يزداد معرفة بالمنعم وشكراً له مهما زادت عليه النعم ، ولا

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الأنبياء - باب حديث أبرص وأعمى وأقرع - ١٤٦/٤ .

(٢) أي : ما أشق عليك بردِّ شيء تأخذه أو تطلبه من مالي ، ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم ١٠٠/١٨ .

(٣) سورة العلق / الآيتان ٦-٧ .

يمكن أن تشغله الدنيا عن الآخرة ، فهو دائم التذكر لربه والتواضع له سبحانه والتحلي بصفات الجود والبذل لأنه يجعل ما بين يديه من مال وسيلة لنيل مرضاة الله والتقرب إليه .

ولا شك أن هذه المعاني عندما تترسخ في النفس بتأثير القصة والتفاعل مع أحداثها فإن لذلك بالغ الأثر في تحقيق الاستجابة لداعي الإيمان والسير في مرضاة الرحمن .

وهناك نماذج أخرى من القصص النبوي الذي يعالج بشكل غير مباشر أمراض النفس ويغرس فيها الفضائل ، ويلقي بظلال كبيرة من المعاني من خلال جمل معدودة ومشاهد محدودة .

مثال ذلك ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " اشترى رجل من رجلٍ عقاراً ، فوجد الذي اشترى العقار في عقاره جرَّة فيها ذهب ، فقال له الذي اشترى العقار ، خذ ذهبك ، إنما اشتريت منك الأرض ولم أشتر الذهب ، وقال الذي له الأرض : إنما بعتك الأرض وما فيها ، فتحاكما إلى رجل فقال الذي تحاكما إليه : ألكما ولد؟ قال أحدهما : لي غلام ، وقال الآخر: ولي جارية. قال : أنكحا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدَّقا " (١) .

فما أعظم الفارق بين هذين الرجلين الصالحين اللذين تنازعا لأن كلاًّ منهما لا يريد أن يأخذ مالاً قد تكون فيه أدنى شبهة ، وبين ما نجده في عالمنا اليوم من خصومات وتنازع وعداوات لكي يستحوذ الأخ على مال أخيه ، وما يُتخذ لذلك من حيل وأساليب في المكر والخداع والجرائم التي لا تنتهي عند حد .

ولقد جاءت هذه القصة التي هي من بدائع التوجيه النبوي لتغرس في النفس الفضائل وتجلي الصورة المشرقة للنفس المزكاة التي لا موضع فيها لمطامع الدنيا والتي يهدف المنهج الإسلامي في التزكية إلى بلوغها .

وهكذا تبلغ المواعظ مداها عندما تعرض عن طريق القصة الهادفة التي تحثّ على الفضائل وتنفّر من الرذائل ، ولذلك اهتم السلف الصالح رحمهم الله بإيراد القصص في مجالسهم

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الأنبياء ـ ٤/١٥٠ .
ومسلم كتاب الأقضية ـ باب استحباب إصلاح الحاكم بين الخصمين ـ رقم / ١٧٢١

والاستشهاد بها ، سواء كانت من قصص الكتاب والسنة أو من القصص الأخرى من سيرة الرسول ﷺ وأصحابه ومن سار على طريقهم مع التزام الصدق في روايتها وتحري الدقة في ذلك.

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله : " ما أحوج الناس إلى قاصّ صادق " (١) .

كما حذّر العلماء رحمهم الله من نوع القصّاص الذين اتخذوا القصص طريقاً للكذب ، وإيراد الخرافات والأحاديث الموضوعة ، وعُرفت لهم مجالس خاصة في المساجد تسمى مجالس القصاص ، ومنهم من يستجيز وضع الروايات المكذوبة المتضمنة لبعض الحكايات المرغبة في الطاعات ، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى طريق الحق ، فهذه من نزغات الشيطان(٢).

ولذلك أخرج علي رضي الله عنه القصّاص من مسجد البصرة ، فلما سمع كلام الحسن البصري لم يخرجه إذ كان يتكلم في علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها ويذكر بآلاء الله ونعمائه وتقصير العبد في شكره ونحو ذلك من التذكير المحمود (٣) .

وقد صنف بعض العلماء كتباً في بيان أهمية القصص في الوعظ والتذكير ، والتفريق بين القصص المحمود والقصص المذموم ، ومن هؤلاء الإمام ابن الجوزي رحمه الله في كتابه (القصاص والمذكرين) والإمام السيوطي رحمه الله في كتابه (تاريخ القصاص) وغيرهما (٤).

فما أحرى الدعاة اليوم أن يركّزوا على القصص الحق في مواعظهم ، وأن يتخذوا من أحداث القصة ومشاهدها مدخلاً إلى التأثير في قلوب المدعوين ، وأن يستغلوا كذلك الوسائل الإعلامية المعاصرة من أشرطة مسموعة ومرئية ومجلات إسلامية في العرض القصصي بأسلوب شيق هادف يؤثر في النفوس ، ويربي الناشئة على الفضيلة ، ويتصدى بشكل عملي للموجة الكاسحة من الفن الهابط الذي فُتن به الناس اليوم حتى أصبح أكبر عائق في طريق التزكية .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣٥/١ .

(٢) ينظر : إحياء علوم الدين ٣٤/١-٣٥ .

(٣) المرجع نفسه ٣٥/١

(٤) ومن الرسائل المعاصرة في ذلك : تاريخ القصاص وأثرهم في الحديث النبوي ورأي العلماء فيهم – للدكتور / محمود بن لطفي الصباغ .

المبحث الثاني

ضرب الأمثال

المثل وجه من الأسلوب البياني البديع يقرب المعاني من الأذهان ويؤثر في السامع فيكون أكثر استجابة ، لأن المعنى المطلوب ارتبط عن طريق المثل بالواقع الملموس والحياة المحيطة ، بذلك السامع والبيئة التي يعيش فيها .

وقد عرَّف الإمام ابن القيم ضرب الأمثال بقوله : " إنها تشبيه شيء بشي في حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسين من الآخر "(١) .

وهناك أدلة عديدة على أهمية ضرب المثل ودوره في تزكية النفس منها : قوله تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾(٢) .

وقوله سبحانه : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾(٣) .

وقوله عز وجل : ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾(٤) .

وقد بين ربنا سبحانه أن فريقاً من الناس الذين أظلمت قلوبهم بالكفر والنفاق لا ينتفعون بفوائد ضرب الأمثال مهما استبان الحق بها لاستكبارهم وعنادهم قال تعالى : ﴿ **ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون** ﴾(٥) .

والمتأمل لآيات القرآن الكريم يجد أنها حفلت بكثير من الأمثال التي تجلّي المعاني وترغّب فيها لتأنس النفس بها وتستميل القلوب إليها .

---

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين ١/١١٦ .

(٢) سورةالحشر / من الآية ٢١ .

(٣) سورة العنكبوت / من الآية ٤٣ .

(٤) سورة إبراهيم / من الآية ٢٤ .

(٥) سورة الروم / الآيتان ٥٨-٥٩

ومن ذلك قوله تعالى في حق المنافقين : ﴿ **مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب ا لله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون ، أو كصيبٌ من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت وا لله محيط بالكافرين** ﴾[1] .

فالمنافقون تظاهروا بالإسلام فاستضاؤوا به وخالطوا المسلمين ولكن قلوبهم لم يدخلها شيء من نور الإسلام ولذلك حُجِب عنهم هذا النور ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ **ذهب ا لله بنورهم** ﴾ ولم يقل بنارهم ، فإن النار فيها الإضاءة والإحراق ، فذهب ا لله بما فيها من الإضاءة ، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، فهذا حال من أبصر ثم عمي ، وعرف ثم أنكر ، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه .

كما ضرب سبحانه لهؤلاء المنافقين مثلاً آخر : ﴿ **أوكصيب من السماء** ﴾ فشبههم بأصحاب المطر الذي يَصُوب أي ينزل من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، فلضعف بصائرهم وما أحاط بقلوبهم من الشكوك والكفر والنفاق فإنهم يفزعون من هذا المطر فيجعلون أصابعهم في آذانهم ، وهذا حال المنافقين لأنهم عندما يسمعون آيات القرآن الكريم وما فيها من الزواجر والوعيد والتهديد التي تشبه الصواعق يفرون منها ويسدون الآذان عن سماعها لأنها ثقيلة عليهم[2] . وهذا تشبيه لما يتصفون به من إصرار على الباطل ومعاندة للحق ، وخبث متأصل في نفوسهم وحيرة وتخبط ، فلاحظْ لهم من الوحي الذي أنزله ا لله من السماء لحياة القلوب واستنارتها .

وأما المؤمنون فقد ضرب لهم ا لله سبحانه أمثلة عديدة في كتابه الكريم ، ولنتأمل قوله تعالى : ﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حليةٍ أو متاع زبدٌ مثله ، كذلك يضرب ا لله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جُفاءً وأما ما ينفع النلس فيمكث في الأرض كذلك يضرب ا لله الأمثال** ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة / الآيات ١٧-١٩ .

(٢) أعلام الموقعين ١/١١٦ - ١١٧ ، وينظر تفسير ابن كثير ١/٥٣-٥٥ .

(٣) سورة الرعد / آية ١٧ .

فقد شبه الله سبحانه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات ، وشبه القلوب بالأودية ، فقلب كبير يسع علماً عظيماً كوادٍ كبير يسع ماء كثيراً ، فسالت أودية بقدرها ، واحتلمت القلوب من الهدى والعمل بقدرها ، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومرَّ عليها احتمل غُثاء وزبداً ، فكذلك الهدى والعمل يقتلع الشبهات والشهوات من القلوب ويُذهبها ، وهناك مثل آخر لهذا الزبد وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة ونحوها فتخرجه النار وتفصله عن الجوهر ، الذي يُنتفع به فيرمى ويطرح ويذهب جفاء ، فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث ، فلا يستقر في قلب المؤمن إلا الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره (١) .

وهناك موضوعات كثيرة أخرى تحدث عنها القرآن الكريم عن طريق ضرب الأمثال ، ومنها إبطال حجج الكافرين ، والتحذير من عاقبة كفر النعمة ، وبيان سنن الله تعالى في الكون والحياة ، وتصوير الحقائق الإيمانية المجردة بصور محسوسة ، وبيان حقيقة الدنيا وهوانها على الله سبحانه ونحو ذلك مما حفلت به آيات القرآن الكريم (٢) .

وقد سبق الاستشهاد ببعض الأمثال القرآنية والحديث عنها في الموضوعات السابقة وبخاصة تلك الأمثال التي تثبت عقيدة التوحيد وتبين آثارها في النفس الإنسانية ، وتؤكد أن التوحيد أساس التزكية (٣) .

وأما الأحاديث النبوية فهي حافلة أيضاً بكثير من الأمثال البديعة والصور التشبيهية البليغة التي تقرِّب المعاني وتوضح الحقائق ، وتعدُّ دليلاً على أهمية ضرب الأمثال وآثارها في تزكية النفس ومن ذلك مثلاً ما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو يَذُبُّهُن عنها ، وأنا آخذ بحُجَزكم عن النار وأنتم تفلَّتون من يدي " (٤) .

---

(١) أعلام الموقعين ١/١١٧ - ١١٨ .

(٢) ينظر تفصيل ذلك في كتاب : ضرب الأمثال في القرآن - أهدافه وآثاره - للشيخ عبد المجيد البيانوني — ص/٦٤ ، وما بعدها .

(٣) ينظر : ص / ٨١ من هذا البحث .

(٤) صحيح مسلم - كتاب الفضائل - باب شفقة النبي ﷺ على أمته - رقم /٢٢٨٤ .

وفي هذا الحديث بيان شفقة النبي ﷺ على أمته وحرصه على نجاتهم من النار وتلهفه على سلامتهم منها ، ولكن الكفار والعصاة يصرون جهلاً وغروراً علىاقتحامها ولا يبالون بتخويف ولا وعيد ، كما تصر الجنادب والفراش علىالاقتراب من النار وتحوم حولها فرحة بضوئها وترى أمامها تساقط مثيلاتها واحتراقها فلا تتعظ حتى تقع فيها .

فما أعظم هذا المثل النبوي ، وما أشد تأثيره على النفس ، فهو تمثيل حسي من الواقع المشاهد لبيان حقائق قد تغيب عن الأذهان عندما ينساق الإنسان وراء شهواته فيظن أنه باتباع هذه الشهوات المنحرفة ينال السعادة ، وإذا به يقع في سوء أعماله ويتخبط في التعاسة الدنيوية والشقاء الآخروي ، ولو تمسك بالإسلام وزكى نفسه من الآثام لظفر بسعادة الدارين .

وهناك أمثال كثيرة أخرى وردت في الأحاديث النبوية ، منها تشبيه الجليس الصالح وجليس السوء بحامل المسك ونافخ الكير [(١)] ، وتشبيه هوان الدنيا على الله سبحانه بحال الجدي الأسك الميت [(٢)] ، وتشبيه المؤمنين في توادهم وتراحمهم بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر [(٣)] ، وتشبيه المؤمن بخامة الزرع وهو الزرع الغض اللين الذي تميله الرياح وذلك لما يصيب المؤمن من البلاء [(٤)] ، وتشبيهه أيضاً بالنخلة[(٥)] . في كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها وصلابة عودها والانتفاع بخشبها وأوراقها وأغصانها وكل شيء فيها .

وهكذا يستفاد من ضرب الأمثال في تجلية الحقائق وتصويرها بشكل محسوس حتى تبدو

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الذبائح والصيد ـ باب المسك ٢٣١/٦ ، وصحيح مسلم ـ كتاب البر والصلة والآداب ـ باب مجالسة الصالحين ـ رقم ـ ٢٦٢٨ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الزهد رقم /٢٩٥٧ ، وانظر شرحه في شرح مسلم للنووي ٩٣/١٨ .

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب الأدب ـ باب رحمة الناس والبهائم ـ ٧٧/٧ ، ومسلم ـ كتاب البر ـ رقم /٢٥٨٥ .

(٤) صحيح مسلم ـ كتاب صفات المنافقين ـ باب مثل المؤمن كالزرع ـ رقم / ٢٨٠٩ ، وانظر شرح هذا الحديث في رسالة نفيسة للإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله بعنوان : " غاية النفع في تشبيه المؤمن بخامة الزرع " .

(٥) صحيح مسلم ـ كتاب صفات المنافقين ـ باب مثل المؤمن مثل النخلة رقم /٢٨١١ .

وكأنها ماثلة للعيان ، وبخاصة إذا كان المثل مأخوذاً من بيئة المخاطبين ومنتزعاً من واقعهم ، فإن ذلك المعنى المراد يعود إلى الذهن من جديد كلما مرَّ بالمخاطب المشهد الذي صيغ منه المثل فالشي بالشي يذكر ، وكأن هذه المشاهد المحسوسة المحيطة بالإنسان أصبحت واعظاً يؤثر في النفوس ، ويمتد تأثيرها وتيكرر مع تكرر وجودها في عالم الواقع .

ويجدر التنبيه هنا إلى أنه يمكن للداعية أن يولّد أمثالاً من واقع المدعوين قياساً على ما ورد من الأمثال القرآنية والنبوية لتكون مأخوذة من مشاهد الحياة المعاصرة ، كما أنه ينبغي عليه اغتنام ما يحيط به من مشاهد وأحداث ليستلهم منها المثل المؤثر في النفوس وقد اهتم علماء السلف رحمهم الله بهذا الأمر في خطبهم ومواعظهم ، ومن ذلك ما رواه مسلم عن خالد بن عمير العدوي قال : خطبنا عتبة بن غزوان [١] ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولّت حذّاء [٢] ، و لم يبق منها إلا صُبابة كصُبابة الإناء يتصابها صابها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها... " [٣] .

والمقصود بهذا المثل أنه لم يبق من الدنيا إلا كما يبقى في أسفل الأناء وقعره من بقايا الماء الذي يتهافت عليه الناس وما هو إلا نذر يسير [٤] .

فانظر إلى هذا المثل البديع المأخوذ من الواقع لتصوير حال كثير من الناس في تهافتهم على الدنيا الفانية وزهدهم في الآخرة الباقية ، كما يتهافت العطشى على بقايا الماء في الإناء الفارغ ويتركون الكؤوس المترعة الممتلئة بالماء العذب ، وهذا غاية في السَّفَه وقلة العقل !! .

وهكذا نرى أن ضرب الأمثال وسيلة مساعدة مهمة في تزكية النفس والتأثير فيها وإزالة حجب الجهل والشهوات عنها ، حتى تسارع راغبة في مرضاة الله تعالى وتترقى في مدارج التقوى والصلاح .

---

(١) ذكر مسلم في رواية أخرى أنه كان آنذاك أميراً على البصرة .

(٢) أي : إن الدنيا قد أعلمت بذهابها وقرب انقضائها وولّت حذاء : أي مسرعة الانقطاع (ينظر: شرح النووي على مسلم ١٠٢/١٨) .

(٣) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق - رقم /٢٩٦٧ .

(٤) ينظر : صحيح مسلم للنووي ١٠٢/١٨ .

المبحث الثالث

الشعر

يخطئ من يظن أن الشعر أداة للترفيه والتسلية والإمتاع فقط ، فالشعر وسيلة فعالة في التأثير والإقناع وإيصال الفكرة إلى المستمعين ، لما له من وقع خاص يؤثر في أعماق النفس ويهز القلب ويلهب الحماس ، وبخاصة إذا صدر من قلب مخلص ، واتسم بالقوة في النظم ، والدقة في التعبير والجمال في الأسلوب البياني .

ولقد جاء الإسلام ليوجّه انفعالات الناس وميولهم وأقوالهم وأفعالهم إلى الوجهة الحقة التي تستقيم معها الحياة وتُنال بها السعادة ، ويقوم انحرافات أهل الجا الذين اتخذوا من الشعر وسيلة لإثارة النعرات القبلية وافتراء الكذب والسخرية بالآخرين واتباع الأهواء المضلة ولذلك قال تعالى : ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا ا لله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون** ﴾ (١) .

ففي هذه الآيات الكريمة ذم لمن اتخذ الشعر وسيلة للغواية واللغو الباطل ، وثناء على من جعل الشعر ملتزماً بطريق الإيمان وداعياً إلى العمل الصالح وانتصاراً للحق وأهله .

وقد بين الرسول ﷺ أهمية الشعر في تزكية النفس والتأثير فيها في أحاديث عدة منها ما رواه البخاري وغيره عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أن رسول ا لله ﷺ قال : " إن من الشعر حكمة " (٢) ، وفي رواية لأبي داود : " وإن من البيان سحراً " (٣) .

فالشعر الحسن يقوي حجة صاحبه ويزيد الحق وضوحاً وجلاء ويدفع إلى العمل الصالح وقد أورد الحافظ ابن حجر العسقلاني عن ابن بطال قوله : " ما كان في الشعر والرجز من ذكر الله تعالى وتعظيم له ووحدانيته وإيثار طاعته والاستسلام له فهو حسن مرغّب فيه ، وهو

---

(١) سورة الشعراء / الآيات ٢٢٤-٢٢٧ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه ، ١٠٧/٧.

(٣) سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب ما جاء في الشعر - رقم / ٥٠١١ .

المراد في الحديث بأنه حكمة ، وما كان كذباً وفحشاً فهو مذموم " [1] .

ولأهمية الشعر ودوره في تقوية الإيمان ودحر الكفر فقد كان الرسول ﷺ يحض الشعراء من الصحابة على نظمه ، ومن أبرزهم حسان بن ثابت رضي الله عنه الذي دعا له الرسول ﷺ فقال : " اللهم أيده بروح القدس " [2] ، كما قال له وهو يهجو المشركين بشعره : " اهجهم وجبريل معك " [3] ، ولما اعترض عمر رضي الله عنه على عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لأنه كان يقول الشعر في المسجدقال له الرسول ﷺ : " خلِّ عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح الإبل " [4] ، وهذا دليل على مدى تأثير الشعر في النفوس .

ولقد ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا يرتجزون الشعر في مجالات عديدية، وبخاصة في المواطن التي تحتاج إلى شحذ همة النفس على البذل وتقوية تحملها للصعاب .

ـ ومن ذلك ما رواه البخاري عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : " خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر ، فسرنا ليلاً ، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع ، ألا تسمعنا من هنيهاتك ؟ قال وكان عامر رجلاً شاعراً ، فنزل يحدو بالقوم يقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداءً لك ما اقتفينا   وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينةً علينا
إنا إذا صيح بنا أتينا   وبالصياح عَوَّلوا علينا

فقال رسول الله ﷺ : من هذا السائق ؟ قالوا : عامر بن الأكوع ، فقال : يرحمه الله[5] .

ـ وما رواه كتاب السيرة مما قاله جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة رضي الله

---

(١) فتح الباري ١٠/٥٤٠ .

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب الأدب ـ باب هجاء المشركين ـ ٧/١٠٩ .

(٣) رواه البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ٤/٧٧ ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رقم / ٤٨٦

(٤) رواه الترمذي ـ كتاب الأدب ـ باب ماجاء في إنشاد الشعر ـ رقم /٢٨٤٧ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٥) صحيح البخاري ـ كتاب الأدب ـ باب مايجوز من الشعر والرجز ـ ٧/١٠٧ .

عنهما في غزوة مؤتة وهما من أمراء تلك الغزوة التي اشتد فيها القتال واحتدم وأبلى فيها المسلمون بلاء حسناً ، فقد أورد ابن هشام أن جعفر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قاتل وهو يحمل اللواء ويقتحم صفوف الأعداء وهو يقول : "

يا حبذا الجنة واقترابها   طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها   كافرة بعيدة أنسابها
عليَّ إن لاقيتها ضِرابها

فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه وهو يردد :

أقسمتُ يا نفس لتنزلنَّه   لتنزلنَّ أو لتُكرهنَّ
إن أجلب الناس وشدو الرَّنة[1]   مالي أراك تكرهين الجنة ؟
قد طال ما قد كنتِ مطمئنة   هل أنتِ إلا نطفة في شنَّهْ [2]

وقال أيضاً :

يا نفس إلا تقتلي تموتي   هذا حِمام الموتِ قد صليتِ
وما تمنيتِ فقد أعطيتِ   إن تفعلي فعلهما هُديتِ

يريد صاحبيه زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب اللذين سبقاه إلى الشهادة ، ثم قاتل حتى قُتل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [3] .

ونلاحظ في تلك الأبيات من الشعر ما كان يرمي إليه جعفر وابن رواحة رضي الله عنهما من شد أزر النفس وتثبيتها في خضم المعركة وتشويقها إلى لقاء الله سبحانه وجنته وعتابها خشية أن يبدر منها تقصير أو تردد ، وتذكيرها بالمصير المحتوم لكل إنسان ، ولا شك أن هذه المعاني لا بد أن يزداد وقعها المؤثر على النفس عندما تكون شعراً صادقاً نابضاً بالحياة أكثر مما لو كانت جملاً نثرية .

---

(١) أجلب الناس : صاحوا واجتمعوا ، والرنةّ : صوت فيه ترجيع شبه البكاء .

(٢) النطفة : الماء القليل الصافي ، والشنّة : السقاء البالي ، فيوشك أن تهراق النطفة أو ينخرق السقاء ، ضرب ذلك مثلاً لنفسه في جسده .

(٣) ينظر : السيرة النبوية لابن هشام ٤/٢٠-٢١ .

ولذلك استخدم كثير من علماء السلف الشعر كوسيلة لوعظ النفس والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، ومن أبرز هؤلاء الإمام الشافعي رحمه الله الذي تعد أشعاره من بدائع الحكم على الرغم من انشغاله بالفقه ، وقد حفلت كتب التراجم والأدب والرقائق بالنفائس من شعره ومن ذلك قوله :

يا واعظ الناس عما أنت فاعله … يا من يُعدُّ عليه العمر بالنفس
احفظ لشيبك من عيب يدنّسه … إن البياض قليل الحمل للدنس
كحاملٍ لثياب الناس يغسلها … وثوبه غارق في الرجس والنجس
تبغي النجاة ولم تسلك طريقتها … إن السفينة لا تجري على اليبس
ركوبك النعش ينسيك الركوب على … ماكنت تركب من بغلٍ ومن فرس
يوم القيامة لا مالٌ ولا ولَدٌ … وضمَّة القبر تُنسي ليلة العرس(١)

وقوله وهو في مرضه الذي مات فيه :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي … جعلتُ الرجا مني لعفوك سُلّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته … بعفوك ربي كان عفوك أعظما

إلى أن قال :

ألستَ الذي غذيتني وهديتني … ولا زلتَ مناناً عليَّ ومُنعما
عسى مَن له الإحسان يغفر زلتي … ويستر أوزاري وما قد تقدما(٢)

ولا شك أن الشعر سلاح ذو حدين ، يستخدم في الخير كما يستخدم في الشر ، وقد أُسيء استخدامه عند كثير من الشعراء فأصبح وسيلة للهجاء والسخرية والنفاق وإشاعة الفحش والرذيلة كما أصبح وسيلة للتكسب عند بعض الخلفاء والسلاطين ، ولكنه مع ذلك استخدم كسلاح نفاذ في وعظ النفوس وعتابها ونصرة الحق والدعوة إلى الإسلام ونحو ذلك من المقاصد الشرعية النافعة .

ولو رجعنا إلى كتب التراجم لوجدناها مليئة بالشواهد على استخدام العلماء والوعاظ

---

(١) ديوان الإمام الشافعي - جمع وتعليق : محمد عفيف الزعبي - ص/٥٢ .

(٢) المرجع نفسه ص/٧٨-٧٩ .

الصادقين للشعر في مجال تزكية النفوس والدعوة إلى الخير ، وهذه بعض الأمثلة :

- أورد الإمام ابن رجب الحنبلي في ترجمته لعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز أن سابق البربري دخل يوماً على عمر بن عبد العزيز فقال له عمر : عظني يا سابق وأوجز ، قال : نعم فأنشده:

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى وواقيت بعد الموت مَن قد تزوَّدا
ندمتَ على أن لا تكون شركتَهُ وأرصدتَ قبل الموت ما كان أرصدا

فبكى عمر حتى خرَّ مغشياً عليه (١) .

- وذكر الإمام ابن كثير أن الواعظ أبا عثمان المنتخب ابن أبي محمد الواسطي ، وكان من كبار الصالحين ، أنشد نور الدين محمود زنكي أبياتاً يعظه فيها ، ومن جملة ما قال :

مثّل وقوفك أيها المغرور يومَ القيامة والسماء تمورُ
إن قيل نور الدين رحت مُسلّماً فاحذر بأن تبقى ومالك نورُ
ماذا تقول إذا نُقلت إلى البلى فرداً وجاءك منكر ونكير ؟
ماذا تقول إذا وقفت بموقف فرداً ذليلاً والحساب عسير؟
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في يوم الحساب مسلسلٌ مجرور
ووددت أنك ما وليتَ ولايةً يوماً ولا قال الأنامُ : أمير
أرضيتَ أن تحيا وقلبك دارسٌ عافي الخراب وجسمكَ المعمور؟
أرضيت أن يحظى سواك بقربه أبداً وأنت مُعذَّب مهجور ؟
مَهِّدْ لنفسك حجةً تنجو بها يوم المعاد ويوم تبدو العُور

فلما سمع نور الدين هذه الأبيات بكى بكاء شديداً (٢) .

وهكذا تقرع المواعظ قلب المؤمن وتؤثر في نفسه وبخاصة إذا كانت في قالب شعري صادق تربط العبد باليوم الآخر وتدعو إلى تزكية النفس وتحث على فضائل الأعمال .

---

(١) سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز - للإمام ابن رجب الحنبلي - ص/٩٢ .

(٢) البداية والنهاية - لابن كثير ٢٨٢/١٢ .

- ومثال ثالث هو ما أورده الإمام ابن القيم رحمه الله أن شيخه الإمام ابن تيمية رحمه الله بعث في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه يقول فيها:

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسيكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتنا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس لي دفعُ المضرات
وليس لي دونه مولىً يدبرني ... ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتي
والفقر لي وصفُ ذاتٍ لازم أبداً ... كما الغنى أبداً وصفٌ له ذاتي [١]

ولا شك أن النفس تلين وتخشع عندما يعاتبها صاحبها ويذكرها بافتقارها إلى خالقها بمثل هذا الشعر الرقيق المؤثر .

ولكن ينبغي ألا يكثر الدعاة والوعاظ من إيراد الشعر في مواعظهم ، لأن الإكثار منه قد يؤدي إلى ملل السامعين وانصرافهم عن المتحدث ، فالشعر في الكلام كالملح في الطعام ، فلينتق الدعاة من أطايب الشعر بما لا يطغى على أصل الموضوع وعناصره الرئيسية وشواهده الأساسية من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح .

ولذلك قال الإمام الغزالي : " وأما الأشعار فتكثيرها في المواعظ مذموم " [٢] .

ومع هذا تبقى أهمية الشعر كوسيلة مساعدة لتزكية النفس ، وبخاصة أن كثيراً من الدعاة اليوم قد لا يتقن عرض الفكرة بأسلوبه الخاص ولا يجيد صياغة العبارات بشكل بليغ موجز ، فتأتي تلك الأشعار والقصص والأمثال المضروبة عاملاً مساعداً يقوي أسلوبه ويدعّم موضوعه ويشد انتباه السامعين إليه ويزيد من تأثرهم واستجابتهم .

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٥٢٤/١ - ٥٢٥ .

(٢) إحياء علوم الدين ٣٥/١ .

الباب الرابع

أمراض النفس ومعوقات تزكيتها
وعلاج ذلك

ويتكون من تمهيد وفصلين :

الفصل الأول : أمراض النفس وعلاجها .

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : صحة القلب ومرضه .

المبحث الثاني : أمراض بسبب الشبهات .

الشرك ـ النفاق ـ البدعة .

المبحث الثالث : أمراض بسبب الشهوات .

أولاً : شهوتا حب النفس وحب الجاه .

ثانياً : شهوة حب المال .

ثالثاً : شهوة الفرج .

رابعاً : شهوة البطن .

علاج طغيان الشهوات .

الفصل الثاني : معوقات تزكية النفس وعلاجها .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الشيطان .

المبحث الثاني : تأثير الأسرة والمجتمع .

تمهيد :

سبق الحديث في الباب الماضي عن الأساليب العملية في التزكية ، وقد اقتضت طبيعة البحث التوسع والتفصيل في مناقشة واستعراض تلك الأساليب ، لكونها توضح معالم طريق التزكية ، وتلقي الضوء على الكيفية الموصلة إليها ، وتعد بمجموعها بياناً لماهيّة التزكية وحقيقتها .

وشجرة التزكية لابد لها من حماية ووقاية ، لأن هناك كثيراً من الأمراض التي قد تصيبها أو المعوقات التي تعترض سبيلها بين الحين والآخر ، وهذه الأمراض والمعوقات لا توقف نمو تلك الشجرة فحسب ، وإنما تحيلها إلى أغصان ذابلة ، وقد تقتلعها من جذورها ، وذلك حينما يصل تأثيرها إلى الأسس العقدية في التزكية ، فيكون خطرها وبيلاً وشرها مستطيراً .

والفرق بين الأمراض والمعوقات أن الأمراض تأتي من داخل النفس بسبب شبهة أو شهوة وأما المعوقات فإنها تأتي من خارجها فتؤثر فيها ، وأبرز هذه المعوقات تأثير الشيطان ووساوسه وتأثير الأسرة والمجتمع الذي يعيش فيه المسلم .

ومعرفة الأمراض والمعوقات ضرورية لكل من يسير في طريق التزكية لكي يحذرها ويتخذ التدابير الواقية منها ، ولذلك ركزت آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية على تشخيص هذه الأمراض ووصف العلاج لها ، كما بينت أخطار المعوقات وآثارها وكيفية علاجها .

والواقع أن الحديث عن أمراض النفس ومعقوات تزكيتها يُعدُّ في غاية الأهمية ، ولكننا في هذا الباب سنكتفي بإلقاء الضوء بشكل مجمل على أبرز جوانبها دون التفصيل فيها ، وذلك بما يتناسب مع طبيعة البحث الذي يتطلب توضيح معالم المنهج الإسلامي في التزكية ورسم خطوطه الأساسية دون الخوض في الجزئيات التي تكفلت بإيضاحها عشرات الكتب والرسائل الجامعية المؤلفة لبحث كل موضوع من هذه الموضوعات بشكل مستقل ، كما أن كثيراً من موضوعات هذا الباب سبق الحديث عنها وبخاصة ما يتعلق بعلاج أمراض النفس بترسيخ الأسس العقدية في التزكية والحرص على تطبيق الأساليب العملية لتلك التزكية .

وقبل البدء بموضوعات هذا الباب لابد من بيان حقيقة مهمة ركزت عليها الآيات

القرآنية وجعلتها أساساً لكل أمراض النفس ومعوقات تزكيتها ألا وهي اتباع الهوى ، فالنفس تهوى وتحب ؛ ولها غرائز ورغبات ومشتهيات ، والإسلام لا يجابه هذه الرغبات والغرائز وإنما ينظمها لتسير في طريق مأمون يحقق السعادة ويوصل إلى تزكية النفس وتحليها بالأخلاق الفاضلة كما سبق بيانه في الحديث عن صفات النفس (١) .

فإذا جعل المرء من هوى النفس قائداً يقوده ، واتبع ذلك الهوى بلا وازع ولا ضابط ، فقد سلك سبيل الردى ، ولم يبق أمام الأمراض والمعوقات أي مانع يمنعها من التغلغل في أعماق النفس حتى يحل به الهلاك ولو كان في عداء الأحياء .

وفي ذلك يقول الله سبحانه : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون** ﴾(٢) .

ويقول عز وجل : ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً** ﴾ (٣) . أي : تضييعاً وهلاكاً .

ويقول تعالى : ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدىً من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ (٤) .

فلا نجاة للعبد ولا سلامة له من أمراض النفس وآفاتها إلا بأن يجعل هوى نفسه تبعاً لأوامر ربه ليحظى بجنته ورضوانه .

قال تعالى : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى** ﴾ (٥) .

وأما كيف يتحكم العبد في هواه ويتخلص من أخطار أمراض نفسه ومعوقات تزكيتها فهذا ما سنراه في ثنايا موضوعات هذا الباب (٦) إن شاء الله .

---

(١) ينظر ص / ٢٨ ، من هذا البحث .
(٢) سورة الجاثية / آية ٢٣ .
(٣) سورة الكهف / من الآية ٢٨ .
(٤) سورة القصص / آية ٥٠ .
(٥) سورة النازعات / الآيتان ٤٠-٤١ .
(٦) وقد سبق إلقاء الضوء على جانب من هذا الموضوع عند الحديث عن مجاهدة النفس ومحاسبتها ـ ينظر ص /٢٦٤

الفصل الأول

أمراض النفس وعلاجها

معظم الأمراض النفسية التي أصبحت داء العصر وسمة من سمات الحضارة المادية الحديثة ، ماهي إلا نتائج لأمراض أخطر منها وأكثر تأصلاً في النفس الإنسانية البعيدة عن ربها ، مما يؤدي إلى إفساح المجال للشبهات والشهوات كي تستقر في النفس ، وتغزو صميم القلب ، ولكن هذه الأمراض المخفية قلّما يشعر بها الإنسان ، لأنها لا تؤدي إلى آلام محسوسة أو تغيرات مشاهدة على شخص المريض ، تجعله يفر من الحياة ، ويسلك بعض المسالك المضطربة الدالة على قلقه واهتزاز شخصيته ، ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم .

والمتأمل لآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية يجد أنها حافلة بالحديث عن أمراض النفس والقلب ، وأقسام تلك الأمراض ، والأسباب الموقعة فيها ، وكيفية الحذر منها حتى يستقيم حال الإنسان في دنياه ، ويحظى بسعادة الدارين ، ويظفر بالحياة الطيبة فيهما .

وفرق كبير بن هذا المنهج القويم في علاج أمراض النفس ، وبين ما يقوم به أطباء النفس من علاجات مؤقتة سواء بالعقاقير ، أو بالإيحاء ، أو الرياضة ، والتي سرعان ما يزول تأثيرها ويعود المريض أكثر خوفاً وقلقاً وأرقاً [١] .

ولأهمية هذا الموضوع وصلته المباشرة بتزكية النفس ، فقد رأيت أن ألقي الضوء عليه بحسب ما يتسع له مجال البحث ، مع توضيح وبيان المنهج الإسلامي في علاج هذه الأمراض ، وتخليص النفس من شرورها ، وجعلت ذلك في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : صحة القلب ومرضه .

المبحث الثاني : أمراض بسبب الشبهات .

المبحث الثالث : أمراض بسبب الشهوات .

---

(١) ينظر : العلاج النفسي في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ـ د. عبد المنان ملاّ بارـص /٢٢ .

المبحث الأول

صحة القلب ومرضه

القلب والنفس لفظان يكثر ورودهما في الكتاب والسنة مع غيرهما من الألفاظ المشابهة كالفؤاد ونحو ذلك ، وقد سبق في الباب الأول بيان معاني هذا الألفاظ والصلة بينها، وملخص ذلك أن القلب يمثل دائرة من دوائر النفس الإنسانية تستقر فيها العواطف المختلفة ، وهو محل الاعتبار والهداية والإيمان ، وأما الفؤاد فله دائرة أعمق داخل القلب تتركز فيها مجموعة من خصائص النفس ووظائفها ، والحد الفاصل بين الدائرة الكبرى التي تمثل النفس عموماً وبين دائرة القلب يعد موضعاً للغرائز والأهواء والشهوات [١] ، ويمكن أن نطلق على هذا الحد دائرة سطح النفس فإذا بقيت تلك الغرائز والشبهات في دائرة سطح النفس ولم تغزُ القلب بسهامها ، فذلك حال صحة القلب وسلامته من الأمراض ، وهذا ما يحقق النجاة لصاحبه يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى ا لله بقلب سليم** ﴾ [٢] .

وهذا القلب إذا لم يتعهده صاحبه بذكر ا لله تعالى ومراقبته ودوام الخشية منه ، فإن الشهوات سرعان ما تتسرب إليه ، وهنا تبدأ بوادر المرض ، ويزداد تغلغل حب الدنيا وشهواتها إلى ذلك القلب حتى يطغى على حب ا لله ورسوله فيمرض القلب ويضعف الإيمان فيه ، فإذا لم يتدارك العبد هذا المرض وداوم على العصيان فإن القلب يقسو ويشتد مرضه حتى يُغلَّف ويُطمَس ويُقفل ويُطبع عليه ويزيغ عن الحق وعندها تكون حالة موت القلب التي هي أسوأ الحالات لأنها تنقل صاحبها من الإيمان إلى الكفر وتجعله في مرتبة البهائم .

قال تعالى : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يُبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل**

---

(١) ينظر ص / ٢١ من هذا البحث .

(٢) سورة الشعراء : الآيتان ٨٨-٨٩ .

أولئك هم الغافلون ﴾ [١] .

ومما ورد من أوصاف هذا القلب في كتاب الله تعالى أنه قلب أعمى قال سبحانه : ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ [٢] .

فالعمى الحقيقي ليس عمى البصر وإنما هو عمى القلب والبصيرة ، لأن أعمى البصر يستطيع السير في الطريق بالاستعانة بعصاً أو دليل ، أما عمى القلب فلا دليل يرشده ، فهو يتخبط في كل إتجاه ويقع في كل هاوية ويصطدم بكل ما يعترض طريقه ، فهو في زيغ دائم ، وقلبه مقفل مختوم بما فيه من ظلمات .

قال تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ [٣] .

وقال عز وجل : ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ [٤] .

وقال سبحانه : ﴿ **وطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون** ﴾ [٥] .

وقد ورد في آيات القرآن الكريم ذكر بضعة وعشرين وصفاً لأمراض القلوب المعنوية وهي : الرين والزيغ والطبع والصرف والضيق والحرج والختم والإقفال والإشراب والرعب والقساوة والإصرار وعدم التطهير والنفور والاشمئزاز والإنكار والشكوك والإبعاد والتأبي والبغضاء والغفلة والغمرة واللهو والارتياب والنفاق [٦] .

وعلى هذا تنقسم القلوب إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : القلب الميت : وهو قلب الكافر والمنافق نفاق عقيدة ، وهو قلب لا حياة فيه ، واقف مع شهواته ولذائذه منقاد لها ، أعمى يتخبط في طريق الضلالة .

---

(١) سورة الأعراف / آية ١٧٩ .

(٢) سورة الحج / من الآية ٤٦ .

(٣) سورة الصف / منالآية ٥ .

(٤) سورة البقرة / آية ٧ .

(٥) سورة التوبة / من الآية ٨٧ .

(٦) النفاق آثاره ومفاهيمه للشيخ عبد الرحمن الدوسري - ص/١٥ .

القسم الثاني : القلب المريض : وهو القلب الذي غزته الشبهات والشهوات حتى شغلته عن حب الله ورسوله فأصبح معتلاً فاسداً ، وهذا المرض درجات كثيرة وأنواع عديدة بحسب أسبابه .

وقد عرف الإمام ابن تيمية رحمه الله (مرض القلب) بقوله : " هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته ، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق ، أو يراه على خلاف ما هو عليه ،وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الضار " (١) ، ثم قال : " والمرض دون الموت ، فالقلب يموت ، بالجهل المطلق ويمرض بنوع من الجهل ، فله موت ومرض ، وحياة وشفاء ، وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه " (٢) .

كما ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في تعريفه للقلب المريض أنه قلب له حياة وبه علة، فله مادتان ، تمده هذه مرة وهذه أخرى وهو لما غلب عليه منهما ، ففيه محبة الله تعالى والإيمان به وفيه محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها (٣) .

القسم الثالث : القلب السليم : وهو الذي تمكّن فيه الإيمان وأصبح عامراً بحب الله ورسوله وقد عرفه الإمام ابن القيم رحمه الله بقوله : " هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة من مرض الشبهة التي توجب اتباع الظن ، ومرض الشهوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس " (٤) .

وأكثر ما يهمنا في هذا الباب المتعلق بأمراض النفس أن نفصل الحديث عن القسم الثاني وهو القلب المريض الذي طغى فيه حب الدنيا وشهواتها على حب الله ورسوله بنسب تختلف من شخص إلى آخر ، ومع اختلافها يشتد المرض أو يخف حتى يصل إلى حالة الزيغ والطمس فيموت ذلك القلب .

ومصداق ذلك ما رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (إن

---

(١) مجموع الفتاوى ٩٣/١٠ .

(٢) المرجع نفسه ٩٤/١٠ .

(٣) إغاثة اللهفان ٩/١ .

(٤) الروح لابن القيم ص/٢٤٤ .

العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها ، حتى تعلو قلبه ، وهو الران الذي ذكر ا لله في كتابه : ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون** ﴾ [(١)][(٢)] .

فكثرة المعاصي وعدم المبالاة بها تجعل القلب يصدأ ويسوَدّ حتى يُطبع عليه ويرين عليه غطاء كثيف يحجب عنه نور الإيمان ، ويفقده الحساسية شيئاً فشيئاً حتى يتبلد ويموت [(٣)] .

قال مجاهد : هو الرجل يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه ، ثم يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه ، حتى تُغشّي الذنوب قلبه " [(٤)] .

وما أبدع البلاغة النبوية في وصف تأثير الفتن والشهوات على القلوب حتى تشوِّه صفاءها وتُسوِّد نقاءها وتؤدي إلى انتكاسها .

وذلك ما رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول ا لله ﷺ يقول : " تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيُّ قلب أُشربها نُكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نُكت نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مُجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أُشرب من هواه " [(٥)] .

فالفتن وشهوات الدنيا تنسلُّ إلى القلب متتابعة واحدة بعد الآخرى كما يُنسج الحصير عوداً عوداً ، فأما قلب المؤمن العامر بحب ا لله ورسوله فإنه " كالصفا " أي : كالحجر الأملس في صلابته وتماسكه ونقاوته وعدم علوق شيء به ، فلا تضره فتنة ولا تستهويه معصية ولا يرضى بديلاً عما ظفر به من حلاوة الإيمان في قلبه .

وأما غيره ممن لم يتمكن حب ا لله ورسوله في قلوبهم فإن سهام الفتن وشهوات الدنيا

---

(١) سورة المطففين / آية ١٤ .

(٢) رواه الترمذي ـ كتاب تفسير القرآن ـ باب / ٧٤ ـ رقم / ٣٣٣٤ ، وقال حديث حسن صحيح .

(٣) في ظلال القرآن ٣٨٥٨/٦ .

(٤) تفسير القرطبي ٢٥٩/١٩ .

(٥) رواه مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب ذكر الفتن التي تموج كموج البحر ـ رقم /١٤٤ .

تؤثر تدريجياً في ذلك القلب وتشوه صفاءه حتى يكون "مُرباداً" وهو بياض يسيرٌ مع السواد، فإذا انساق العبد أكثر فأكثر وراء أهوائه اختفى أثر البياض الباقي واسودَّ القلب وأظلم .

وهناك وصف آخر لهذا القلب المفتون وهو الكوز المجخي أي المائل المنكوس ، وهذا الميل كان في بدايته قليلاً بحسب ماتسرب إليه من الفتن ، ثم ازداد ميلاً حتى انقلب وانتكس[1] ، ولا يخفى أن الكوز كلما مال عن استقامته انسكب منه ما كان فيه بمقدار الميل، حتى إذا انتكس انسكب كل ما فيه ولم يعد قابلاً لأن يمتلئ بشيء على الإطلاق حتى يعود إلى اعتداله ، فما فائدة الكأس إذا انسكب منه الماء الزلال ولم يبق فيه إلا الهواء ؟ .

وهنا تتجلى البلاغة النبوية في أبهى صورها ، بحيث تترسخ في النفس صورة الكأس المقلوب الذي لا ينتفع منه بشيء ، فهو كالعدم وإن كان موجوداً ، والهواء الذي فيه تمثيل للهوى المستقر في القلب المنكوس الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، إلا ما اشرب من هواه!! .

وهذا شر القلوب وأخبثها فإنه يعتقد الباطل حقاً والحق باطلاً .

ومثال آخر لبيان أقسام القلوب وأحوالها بحسب الصحة والمرض والحياة والموت وذلك قول حذيفة رضي الله عنه : " القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط عليه غلافه وقلب منكوس ، وقلب مصفح .

فأما القلب الأغلف فقلب الكافر .

وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر .

وأما القلب المصفح فقلبٌ فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يَمُدُّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم ، فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه " [2] .

---

(١) ينظر : شرح مسلم للنووي ١٧١/٢ .

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده ١٧/٣ ، مرفوعاً للنبي ﷺ ، والصحيح وقفه على الصحابي كما أورده الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٣٠٤/٧ ، والإمام ابن القيم في إغاثة اللهفان ١٢/١ .

فالقلب السليم هو قلب المؤمن المستضيء بنور إيمانه المتجرد في إخلاصه لربه ، وأما الفاسق فقد اختلط في قلبه الماء الطيب مع القيح المؤذي ، فأيُّ المادتين غلبت أحالت القلب إليها ، والظاهر أنه يقصد بالقلب المصفح الذي فيه إيمان ونفاق أنه الرياء ونحو ذلك من نفاق الأعمال وليس نفاق العقيدة الذي يكون قلب صاحبه منكوساً .

وقد أوضح الإمام ابن القيم رحمه الله أقسام القلب بقوله : " القلب الصحيح السليم ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه ، فهو صحيح الإدراك للحق تام الإنقياد والقبول له .

والقلب الميت القاسي لا يقبله ولا ينقاد له .

والقلب المريض إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي ، وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم .

فما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ ، وفي القلوب من الشبه والشكوك فتنة لهذين القلبين وقوة للقلب الحي السليم "(١).

فالمعاصي هي التي تُمرض القلب وتوهنه وتمنع عنه الحياة وتحجب عنه نور الإيمان لما يسيطر عليه من حب الدنيا .

قال ابن المبارك رحمه الله :

رأيت الذنوب تميتُ القلوب   وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب   وخيرٌ لنفسك عصيانها .

وما أحسن قول الإمام ابن القيم رحمه الله في بيان العلاج من هذه الأمراض :

" القلب يمرض كما يمرض البدن وشفاؤه في التوبة والحمية ، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر ، ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى ، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١/١٠ .

وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة "[1] .

ولا شك أن مرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان ، وذلك لأسباب كثيرة[2] :

أحدها ـ أن المريض به لا يدري أنه مريض .

والثاني ـ وأن عاقبة مرض القلوب غير مشاهدة لكثير من الناس ، والإحساس بآلام هذا المرض قليل بخلاف مرض البدن .

والثالث ـ وهو الداء العضال : قلة الأطباء لأمراض القلوب ونُدرتهم ، فإن الأطباء هم العلماء ، وقد تأثر كثير منهم بهذا المرض إلا من رحم الله .

---

(١) الفوائد ص/١٢٩ .

(٢) ينظر : إحياء علوم الدين ٥١/٤ .

الحد الفاصل بين القلب السليم والقلب المريض :

إذا كان تغلغل حب الدنيا وشهواتها في القلب يؤدي إلى مرضه ، فما هو حال المؤمن إذا تسرَّب إلى قلبه شيء قليل من حب الدنيا وشهواتها المباحة دون أن يطغى على حب الله ورسوله ؟

هل يُعدُّ ذلك مرضاً ، أو أنه نقص في منزلة صاحبه مع بقاء وصفه بسلامة القلب ؟

الواقع أنني توقفت عند هذه النقطة كثيراً ، وتأملت ما ورد من آيات كريمة وأحاديث نبوية وأقوال للعلماء والمفسرين لعلي أصل إلى مقياس في ذلك ، وقد استوقفتني آية كريمة وحديثان نبويان ، أما الآية فهي قوله تعالى :

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾[1].

وأما الحديثان فالأول ما رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

(ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)[2].

والثاني : ما رواه مسلم أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)[3].

فكلمة (**أحب**) في المواضع الثلاثة أفعلُ تفضيل ، وهي تدل بوضوح على أن المذموم تفضيل حب الدنيا وشهواتها في القلب على حب الله ورسوله ، وأن ذلك القلب لو دخله شيء من حب الدنيا دون أن يسيطر عليه فلا يلحقه بذلك ذم ما دامت هذه الشهوات

---

(١) سورة التوبة / آية ٢٤ .

(٢) رواه مسلم في الإيمان – باب ١١٥ – حديث رقم / ٤٣ .

(٣) رواه مسلم في الإيمان – باب ١٦ – حديث رقم / ٤٤ .

مباحة، وإنما ينقص من منزلته بمقدارما دخله من حب الدنيا .

فا لله سبحانه أمر عباده بأن تكون قلوبهم عامرة بحب ا لله ورسوله ، وحذرهم من أن تتقلب فيها محبة ألوان الوشائج والقرابات والمطامع واللذائذ وشهوات الدنيا من الأموال والتجارات والمساكن المريحة التي تدعو إلى زيادة التعلق بالدنيا ونسيان الآخرة .

فإذا تجرد العبد من كل هذه المحبوبات الدنيوية ولم يدخل شيء منها إلى قلبه ، وإنما جعلها في دائرة سطح النفس لا يتعلق بها ولا تشغله عن طاعة ربه بشيء ، فذلك هو المقام السامي الذي وصف ا لله سبحانه مَن تحقق به بأنهم السابقون وأصحاب النفوس المطمئنة .

وإذا انسلَّ شيء من حب الدنيا إلى القب دون أن يغلب على حب ا لله ورسوله فهي منزلة أقل من سابقتها ، لأن القلب لابد أن يُشغل بعض الوقت بالتعلق بما دخله ولو بنسبة قليلة وقد وصف ا لله سبحانه هؤلاء بأنهم أصحاب اليمين ، والمقتصدون ، وأصحاب النفوس اللوامة ، وهذه المنزلة تتناقص تدريجياً بحسب ما يزيد في قلوب أصحابها من حب الدنيا حتى يوازي حب ا لله ورسوله فيكون الخطر ، فإذا تغلَّب حب الدنيا انساق العبد وراء شهواته ومرض قلبه ، وعندها تتراكم الشبهات والشهوات ، وينحدر العبد في دركات الفسق والفجور حتى يصل إلى الكفر والعياذ با لله سبحانه ، وهؤلاء هم الذين وصفهم ا لله بأنهم أصحاب الشمال والظالمون لأنفسهم ووصف نفوسهم بأنها أمارة بالسوء .

فالناس إذن ثلاثة أقسام :

١ ـ القسم الأول : السابقون ، وأصحاب النفوس المطمئنة .

٢ ـ القسم الثاني : أصحاب اليمين ، والمقتصدون ، وأصحاب النفوس اللوامة .

٣ ـ القسم الثالث : أصحاب الشمال ، والظالمون لأنفسهم ، وأصحاب النفوس الأمارة بالسوء .

وقد ورد هذا التقسيم في قوله تعالى :

﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد

ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ [1] .

وقوله تعالى : ﴿ **وكنتم أزواجاً ثلاثة * فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون السابقون * أولئك المقربون * في جنات النعيم * ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين ﴾** [2] .

وهنا يرد سؤال :

هل الظالم لنفسه الوارد ذكره في آية فاطر ، وأصحاب الشمال الوارد ذكرهم في آيات الواقعة خاص بالكفار والمنافقين أو أنه لعصاة المؤمنين أيضاً ؟

وللإجابة على ذلك لابد من الرجوع إلى أقوال المفسرين ، فقد أورد الإمام ابن جرير في تفسيره والإمام ابن كثير والإمام القرطبي وغيرهم[3] روايات كثيرة في هذا المجال بعضها مرفوعة وبعضها الآخر آثار من أقوال الصحابة والتابعين .

أما الروايات المرفوعة فهي ضعيفة ولكن الامام ابن كثير قال : " إنها وردت من طرق يشد بعضها بعضاً "[4] ومن هذه الروايات :

ما رواه الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " قال الله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾** فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحسبون في طول المحشر) [5] .

وأما الآثار : فمنها ما رواه ابن جرير عن عبد الله بن مسعود أنه قال :

---

(١) سورة فاطر / آية ٣٢ .

(٢) سورة الواقعة / الآيات ٧-١٤ .

(٣) ينظر جامع البيان للطبري ١٧٠/٢٧ ، وتفسير ابن كثير ٢٨٣/٤ ، والقرطبي ١٩٨/١٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ٥٥٥/٣ .

(٥) رواه الإمام أحمد ١٩٤/٥ ، وأورده ابن كثير في تفسيره ٣ / ٥٥٥ .

إن هذه الأمة ثلاث أثلاث يوم القيامة ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ، وثلث يجيئون بذنوب عظام .. وتلا هذه الآية : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب ..**﴾ "[١] .

وعن أبي الجارود قال : سألت محمد بن علي - يعني الباقر - رضي الله عنهما عن قول الله تعالى : ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ فقال : " هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً "[٢] .

وعن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ قال : (هم أصحاب المشأمة)[٣].

وبعد ذكر هذه الروايات نجد أن هناك عدة أقوال أوردها المفسرون في المراد بالقسم الثالث بشكل خاص " أي الظالم لنفسه " وتتلخص هذه الأقوال بما يلي[٤] :

١ ـ أنه الكافر .

٢ ـ أنه الفاسق العاصي الذي يتلو القرآن ولا يعمل به ويقع في الكبائر .

٣ ـ أنه مؤمن مغفور له لأنه يجتنب الكبائر ويقع في الصغائر .

وعلى القول الأول والثاني يكون الضمير في قوله تعالى : ﴿ **جنات عدن يدخلونها** ﴾ يعود على المقتصد والسابق لا على الظالم ، أما على القول الثالث فالضمير يعود على أصحاب الأوصاف الثلاثة جميعهم : الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات ، وإن تفاوتت درجاتهم ووقوفهم للحساب يوم القيامة ، فعد بعضهم القول الثالث وصفاً للمقتصد وليس للظالم[٥] .

والذي يترجح من خلال تدبر آيات سورة فاطر وآيات سورة الواقعة أن كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة لا يمكن حدّه بوصف واحد ، وإنما هو درجات كثيرة لها مرتبة أعلى

---

(١) جامع البيان للطبري ، وتفسير ابن كثير ٣/٥٥٥

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٥٦ .

(٣) المرجع نفسه ٣/٥٥٥

(٤) جامع البيان للطبري ٢٢/١٣٤ ، وابن كثير ٣/٥٥٥ ، والقرطبي ١٤/ ٣٤٦ .

(٥) ينظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبن عطية ١١٢/٢٥٠ .

ومرتبة أدنى ، فالظالم لنفسه يشمل كل من دخل حب الدنيا إلى قلبه حتى غلب على حب الله ورسوله ، فقد يكون ذلك عارضاً سرعان ما يزول ويتغلب عليه نور الإيمان فهو مؤمن مغفور له إن شاء الله ، وقد يزداد هذا العارض حتى يصبح عادة متكررة فهو الفاسق العاصي وقد يستفحل حب الدنيا في القلب حتى يسيطر عليه ويملأ جوانبه فلا يبقى فيه أثر للإيمان وهو الكافر والمنافق ، فهي درجات كثيرة ترتقي نحو زيادة الإيمان ودركات تتردى في مهاوي الضلال ، كما في هذا الشكل التوضيحي :

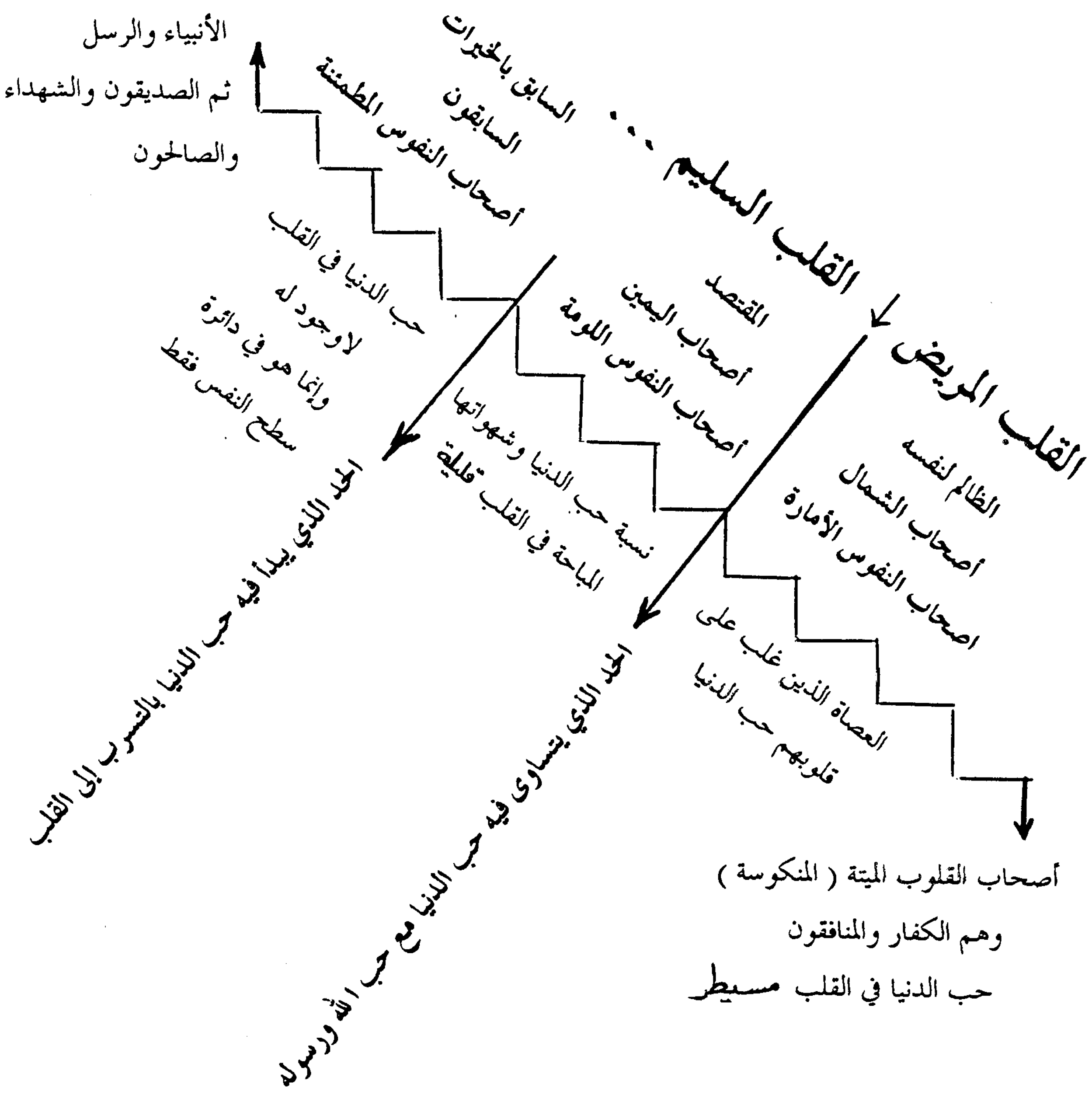

وهذا التقسيم له ما يؤيده من أقوال العلماء ، فقد قال الإمام ابن تيمية رحمه الله :
(الناس في الإيمان والإسلام على ثلاث مراتب : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ،

فالمسلم ظاهراً وباطناً إذا كان ظالماً لنفسه فلا بد أن يكون معه إيمان ولكن لم يأت بالواجب)[1] .

وقال الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله : (إن كان القلب سليماً ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله ، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه صلحت حركات الجوارح كلها ، ونشأ عنها اجتناب المحرمات كلها وتوقي الشبهات حذراً من الوقوع في المحرمات ، وإن كان القلب فاسداً قد استولى عليه اتباع الهوى وطلب ما يحبه ولو كرهه الله فسدت حركات الجوارح وانبعثت إلى كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب)[2] .

وقال الإمام ابن القيم في تعريفه للقلب السليم : (الذي سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره)[3] .

فالحد الفاصل الذي يتحول فيه القلب السليم إلى قلب مريض هو الذي يتساوى فيه حب الله ورسوله مع حب الدنيا وشهواتها المباحة أما الشهوات المحرمة فإن دخول أي شيء منها إلى القلب يؤدي إلى مرضه ، ومعرفة هذا الحد لا يتأتى لكل إنسان لأن النفس قد تخدع صاحبها فيظن أنه يقدم حب الله ورسوله على حب الدنيا ولا يدري أنه واقع في شِباك الدنيا ومأسور بقيودها وأن الإيمان يخبو ويضعف في قلبه ، وأنه يتدرج من التوسع في المباحات إلى الوقوع في الشبهات حتى يصل إلى دائرة المحرمات .

ولذلك بين الرسول ﷺ أن الطريق لصلاح القلب وسلامته من الأمراض أن يتقى صاحبه الشبهات خشية الوقوع في المحرمات .

روى البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الحلال بين وإن الحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله

---

(١) الإيمان لابن تيمية - - ص /٣٥١ .
(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب - ص /٦٥ .
(٣) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١/ ٧ .

محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب)[1] .

فمن اتقى الأمور المشتبهة واجتنبها فقد حصَّن عرضه من القدح وحصن دينه من النقص ، ومن حام حول الحمى واقترب من المحرم يوشك أن يقع فيه لأن من جعل الحاجز بينه وبين الحرام ضعيفاً لم يستطع أن يقاوم المغريات ووساوس الشياطين .

ومصداق ذلك ما رواه الترمذي عن عطية السعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال رسول ا لله ﷺ : (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به البأس)[2] .

وعن ابن عمر رضي ا لله عنهما قال : (إني لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال لا أخرقها)[3] .

ولا شك أن في ذلك وقاية للقلب من الأمراض ، والوقاية خير من العلاج ، ومن الوقاية أن يلتجئ العبد إلى ربه بالدعاء ليثبت قلبه على الإيمان ، وهذا ما كان الرسول ﷺ يكثر من الدعاء به .

روى الترمذي عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : (كان رسول ا لله ﷺ يكثر أن يقول : " يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك ، فقلت : يا رسول ا لله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع ا لله يُقلبها كيف يشاء)[4].

وروى مسلم عن عبد ا لله بن عمرو بن العاص رضي ا لله عنهما قال : سمعت رسول ا لله ﷺ يقول : (إن قلوب بني آدم كلها بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يُصرفه حيث يشاء ، ثم قال رسول ا لله ﷺ : اللهم مُصرف القلوب صرِّف قلوبنا على

---

(١) رواه البخاري- كتاب الإيمان - باب من استبرأ لدينه وعرضه - ١/١٩ ومسلم -كتاب البيوع - باب أخذ الحلال وترك الشبهات - رقم / ١٥٩٩ .

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة - رقم /٢٤٥٣ ، وقال حديث حسن .

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي -ص / ٦٤ .

(٤) رواه الترمذي في القدر -باب ما جاء أن القلوب بين أصبعين الرحمن -رقم / ٢١٤٠ وقال حديث حسن .

طاعتك)[1] .

ولنتأمل هذا المثل النبوي البديع فإن فيه بياناً شافياً ووصفاً دقيقاً لكيفية وقاية القلب وحمايته من الأمراض الفتاكة . عن النواس بن سمعان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

(ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعند رأس الصراط داعٍ يقول : استقيموا على الصراط ولا تعوَجُّوا ، وفوق ذلك داعٍ ، يدعو كلما همَّ عبد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجْهُ .

فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله ، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم)[2] .

فانظر إلى هذا التصوير الدقيق : (ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه) فإن فيه تأصيلاً لقاعدة : الوقاية خير من العلاج ، فمن فتح باب المعاصي دخلت آثارها إلى قلبه حتى يمرض . وأما إن كان القلب سليماً فإن فيه واعظاً يقظاً وحارساً أميناً يقيه الأخطار ويمنع عنه سمومها .

ولنختم الحديث في هذا الموضوع بما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله في بيان أهمية القلب وضرورة الإهتمام بسلامته من العلل وحمايته من أسبابها ، حيث يقول :

" لما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود ، تصدر كلها عن أمره ويستعلمها فيما يشاء ، وتكتسب منه الإستقامة والزيغ ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون ، والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسَّك به الناسكون ... ، فإن العمل السيء مصدره عن فساد قصد القلب، ثم يعرض للقلب من فساد العمل قسوة ، فيزداد مرضاً على مرضه حتى يموت ، ويبقى لا حياة فيه ولا نور له "[3] .

---

(١) رواه مسلم في القدر - باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء - حديث رقم /٢٦٥٤ .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (١١١٨٢/٤) ، والحاكم (٧٣/١١١١) ، وصححه ووافقه الذهبي ، وأورده الإمام ابن كثير في تفسيره ١٩١/٢ ، كما أورد الإمام التبريزي في مشكاة المصابيح رواية أخرى للحديث عن ابن مسعود ﷺ، وصححها محقق المشكاة الشيخ الألباني (٦٧/١) .

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١١/ ٥-٦ ، باختصار .

المبحث الثاني

أمراض بسبب الشبهات

إذا لم يسترشد العقل بالشرع القويم و لم يستجب لنداء الفطرة ، فإنه يضل ويضطرب ويرمي بصاحبه في خضم اتجاهات متناقضة ، ويصبح أسيراً لهوى النفس الأمارة بالسوء والقلب المشحون بالشبهات والشهوات .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : " الفتن التي تُعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشبهات ، فتن الغي والضلال ، فتن المعاصي والبدع ، فتن الظلم والجهل ، فالأولى توجب فساد القصد والإرادة ، والثانية ، توجب فساد العلم والاعتقاد "[١] .

وقد جمع الله سبحانه بين فتنة الشبهات ، وفتنة الشهوات وذلك في قوله تعالى : **﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثرَ أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون[٢]﴾**

فمعنى استمتعوا بخلاقهم : أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها ، والخَلاق هو النصيب المقدَّر ، ومعنى خضتم كالذي خاضوا : أي الخوض بالباطل ، وهو الشبهات .

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى مايحصل به فساد القلوب والأبدان من الاستمتاع بالخلاق والخوض بالباطل ، لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به ، أوبالعمل بخلاف العلم الصحيح ، فالأول فساد من جهة الشبهات والثاني من جهة الشهوات[٣] .

والشبهة عندما تَرِد على العقل ولا تكون موافقة لهوى النفس ، فإنها لا تؤثر كثيراً ،

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١/١٢ .

(٢) سورة التوبة / آية ٦٩ .

(٣) إغاثة اللهفان ٢/١٦٦ .

لأن النفس سرعان ما تدفعها أوتتجاهلها ، لكن الذي يلاقي القبول من النفس ما كان موافقاً لهواها ، وعندئذ تترسخ الشبهة وتأخذ طريقها إلى القلب ، وهي بالتالي شبهة نفسية وليست شبهة عقلية محضة لأنها تجد سندها ومددها من هوى النفس .

وهذا ما أكدته آيات القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، منها قوله تعالى عن المشركين : ﴿ **إن هي إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وأباؤكم ما أنزل ا لله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾[1] .

كما وصف ربنا سبحانه هؤلاء المشركين بسفه النفس ، وذلك السفه أخطر من سفه العقل لأنه هو المحرك له والباعث على إيجاده .

فقال سبحانه : ﴿ **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه** ﴾[2] .

ومن هنا كانت الشبهات مرضاً من أمراض النفس ، بل هي من أخطر أمراضها ، لأن المرض الناتج عن شهوة مجردة لا يستمر على حالة واحدة ، فالشهوة تقوى وتضعف ، أما المرض الناتج عن شبهة فإنه يستمد مادته من الشبهة العقلية والشهوة النفسية فيكون أكثر تأثيراً وأخطر نتيجة .

والشبهات كثيرة ومتشعبة ، ولكن أبرزها وأكثرها انتشاراً عبر العصور ، وأشدها خطراً وإبعاداً للناس عن طريق التزكية .. الشبهات التالية : الشرك ، والنفاق ، والبدعة .

وهذه لمحة سريعة عن كلٍ منها بحسب ما يتسع له مجال البحث :

أولاً : الشرك

الشرك قديم في تاريخ البشر ، والبداية التي أوصلت إليه شبهات استطاعت أن تجد لها مدخلاً في أعماق النفوس مدعومة بوساوس الشيطان ، حتى أخرجت كثيراً من الأمم عن التوحيد إلى الشرك وعبادة الأصنام وتقديس الأشخاص .

وأصل هذه الشبهات الغلو في محبة الصالحين وتقديسهم بدعوى التقرب إلى ا لله تعالى ،

---

(١) سورة النجم /آية ٢٣ .

(٢) سورة البقرة /من آية ١٣٠ .

ثم أدى ذلك إلى عبادتهم .

ومصداق ذلك ما بينه ا لله سبحانه من قصة قوم نوح وسبب شركهم وضلالهم وذلك في قوله تعالى مخبراً عن دعاوى قوم نوح : ﴿ **وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً** ﴾[1] .

وقد روى ابن جرير بسنده عن محمد بن قيس أن ﴿ **يغوث ويعوق ونسراً** ﴾ كانوا قوماً صالحين من بني آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يستسقون المطر ، فعبدوهم "[2] .

واستمرت عبادة الأصنام من بعدهم قروناً بعد قرون حتى وصلت إلى كثير من الأمم في أنحاء الأرض ، وكان كل نبي يبعث إلى قومه لينقذهم من الشرك ويدعوهم إلى التوحيد الخالص ويحذرهم من الضلال .

قال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا ا لله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى ا لله ومنهم من حقت عليه الضلالة** ﴾[3] .

وقال سبحانه : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[4] .

وجاء خاتم الرسل محمد ﷺ وقد استحكمت هذه الشبهة في نفوس مشركي العرب وتأصل الشرك في قلوبهم فاتخذوا أصناماً من الحجارة وغيرها وعمدوا إلى عبادتها بدعوى أنها تقربهم إلى ا لله تعالى .

وفي ذلك يقول ا لله تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد ا لله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى ا لله**

---

(١) سورة نوح / الآيتان ٢٣-٢٤ .

(٢) جامع البيان للإمام الطبري ٢٩-٩٩ .

(٣) سورة النحل / من الآية ٣٦ .

(٤) سورة الأنبياء / آية ٢٥ .

زلفى إن ا لله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن ا لله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾[1].

فقد أخبر ا لله سبحانه عن المشركين أنهم يدَّعون أن عبادتهم للأصنام التي صوَّروها على صور الملائكة في زعمهم يبتغون منها التقرب إلى ا لله بشفاعة الملائكة المقربين قال الإمام ابن كثير رحمه ا لله : " وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه ، وجاءتهم الرسل صلوات ا لله وسلامه عليهم أجمعين بردِّها والنهي عنها والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له "[2] .

والعلاج الحاسم الذي شرعه الإسلام لمنع تسرب هذه الشبهة إلى النفوس يتكون من جوانب كثيرة ، ومن أبرزها :

١ – **التأكيد على التوحيد الخالص** وإفراد ا لله تعالى بالعبادة والتحذير من الشرك وكل ما يؤدي إليه .

قال تعالى : **﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا ا لله مخلصين له الدين حنفاء ﴾**[3] .

وقال سبحانه : **﴿ إن ا لله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك با لله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾**[4] .

وقال عز وجل : **﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل ا لله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾**[5] .

وقد روى البخاري عن عبد ا لله بن مسعود رضي الله عنه قال : (سألت رسول ا لله ﷺ أيُّ الذنب أعظم عند ا لله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك)[6] .

٢ – **سد الذرائع لكل ما قد يؤدي إلى الشرك** من إتخاذ التصاوير والتماثيل واتخاذ

---

(١) سورة الزمر /الآيتان ٢-٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٥ .

(٣) سورة البينة /من الآية ٥ .

(٤) سورة النساء / آية ٤٨ .

(٥) سورة الزمر /الآيتان ٦٥-٦٦ .

(٦) رواه البخاري في التوحيد –باب قول اللّه تعالى : **﴿ فلا تجعلوا للّه أنداداً ﴾** –٨/٢٠٧ .

المساجد على القبور والغلو في محبة الصالحين ونحو ذلك .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[1] .

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : " قد رأيت أن سبب عبادة وَدٍّ ويعوق ونسر واللات ، إنما كانت من تعظيم قبورهم ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها ، قال شيخنا[2]: وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك ، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين ، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم للكواكب ونحو ذلك ، فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر ، ولهذا نجد أهل الشرك كثيراً يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون ، ويعبدونهم بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ..

فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها ، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً ..

كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها ، لأنها أوقات يقصد المشركون الصلاة فيها للشمس ، فنهى أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد المصلي ما قصده المشركون ، سداً للذريعة "[3] .

وقد حفلت آيات القرآن الكريم بالرد على المشركين وإبطال دعاواهم وتثبيت عقيدة التوحيد في النفوس ، وهذا ما سبق بيانه عند الحديث عن الأسس العقدية في تزكية النفس[4]، ولكن الذي ينبغي التأكيد عليه هنا أن صاحب الهوى ، يبحث عن مبرر لما يريد فتأتي الشبهة العارضة فيزداد تعلقاً بها حتى تصبح عقيدة راسخة وإن كانت مخالفة لعقله وفطرته ولا دليل

---

(١) رواه البخاري في الصلاة - باب الصلاة في البيعة - ١/ ١١٢ومسلم في المساجد -باب النهي عن بناء المساجد على القبور -رقم / ٥٣٠ .

(٢) يقصد الإمام ابن تيمية رحمه الله .

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١/١٨٤-١٨٥ .

(٤) ينظر ص / ٧٨ من هذا البحث .

له عليها إلا اتباع الهوى .

ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله ا لله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد ا لله أفلا تذكرون** ﴾[1] .

ومما يدخل في اتباع الهوى أن تميل النفس إلى ما ألِفته ونشأت عليه مما يخالف الدين الحق ، وهذا ما كان مشركوا العرب ومن قبلهم من الأمم يتذرعون به في عبادتهم للأصنام .

قال تعالى مخبراً عن دعواهم : ﴿ **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾[2] .

فالمشركون لا حجة لهم إلا التقليد الأعمى للآباء والأجداد ، وهم من أجل هذه الدعوى الواهية مصرون على شركهم اتباعاً لأهواء نفوسهم .

يقول الإمام الغزالي : (من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم ، وإنما يعبد هواه، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل ، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى)[3].

وكما يجب سد الذرائع في وجه كل ما يؤدي إلى الشرك الأكبر كذلك يجب سدها في وجه كل ما يؤدي إلى الشرك في العمل وهو الرياء ، لأن كليهما تعلقٌ بغير ا لله تعالى وصرف القلوب إلى سواه ، وإن كان الرياء سببه الشهوة وليس الشبهة ، ولذلك سنتحدث عنه في المبحث القادم إن شاء ا لله .

---

(١) سورة الجاثية / آية ٢٣ .

(٢) سورة الزخرف / الآيات ٢٢ - ٢٤ .

(٣) إحياء علوم الدين ١/٣٤ .

ثانياً : النفاق

النفاق لغة مأخوذ من النفق وهو يدل على انقطاع الشيء وذهابه ، وتارة على إخفاء الشيء وإغماضه ، ويطلق النفق على السرب في الأرض له مخلص إلى مكان آخر ، ومنه المنافق فإنه يدخل في الدين من باب ويخرج من باب[1] .

والنفاق مرض نفسي خطير يتظاهر صاحبه بأمور الخير وهو في الحقيقة يبطن غيرها من أمور الشر ، كما أن قوله يخالف فعله ، وسره يغاير علانيته ، والنفاق قد يكون في العقيدة فيخرج صاحبه من الدين وقد يكون في الأعمال فيكون صاحبه على خطر عظيم .

وقد كشف الله سبحانه أسرار المنافقين في القرآن ، وجلى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر ، ولخطورة النفاق وأهله على المسلمين فقد جاء الحديث عنه فيما يقرب من ثلاثمائة وأربعين آية من آيات الكتاب العزيز في سبع عشرة سورةً من السور المدنية[2] ، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن فيها نفاق ، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة وقويت شوكتهم فيها تظاهر عبد الله بن أبي بن سلول ، ومن معه بالاسلام ، وفعل مثل ذلك طوائف من أهل الكتاب وبعض الأعراب وانتشر النفاق وتشعبت مسالكه[3] .

والمتأمل للآيات الأولى من سورة البقرة يجد أنها تحدثت عن صفات المؤمنين في أربع آيات ، وانتقل السياق بعدها للحديث عن الكفار في آيتين ، ثم توالت الآيات الكريمة في وصف المنافقين وكشف خداعهم وبيان مكائدهم في ثلاث عشرة آية . وفي هذا تنبيه للمؤمنين ليحذروا منهم ويجتنبوا صفاتهم ويبتعدوا عن مسالكهم .

وقد عد الله سبحانه النفاق مرضاً ، فقال تعالى : ﴿ **في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾[4] .

---

(١) بصائر ذوي التمييز للفيروزأبادي – ١٠٤/٥ وينظر : تفسير ابن كثير ٤٧/١١١ .

(٢) ينظر : المنافقون كما يصورهم القرآن الكريم – لمحمد جميل غازي – ص / ٦ .

(٣) ينظر تفسير ابن كثير ٤٧/١١١ . .

(٤) سورة البقرة / آية ١٠ .

وهذا المرض هو مرض الشبهة والشك والحيرة والاضطراب والتلون والخداع الذي اتصفوا به .

روى ابن جرير الطبري في تفسيره عن عبدالرحمن بن زيد قال : (هذا مرض في الدين وليس مرضاً في الأجساد)[1] .

وعن قتادة قال : " في قلوبهم مرض : ريبة وشك في أمر الله جل ثناؤه "[2] .

وتقديم الخبر على المبتدأ في قوله تعالى : ﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ يفيد أن المرض مختص بقلوبهم مستقر فيها مبالغة في تعلق المرض بهذه القلوب[3] .

وقوله تعالى : ﴿ **فزادهم الله مرضاً** ﴾ يؤكد أن الجزاء من جنس العمل وأن هذه القلوب مرضت بالشبهات ، إن الشبهات يجر بعضها بعضاً حتى تورث صاحبها الاضطراب والقلق والرجس ، كما قال تعالى : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون** ﴾[4] .

والشبهة التي توصِّل النفاق في النفوس وتزيد إشتعاله هي الظن بأن مخادعة المؤمنين لا تنكشف ، وأن المنافق يحقق بهذه الخديعة مآربه النفسية ومطامعه الدنيئة دون أن يدري بحقيقة أمره أحد .

وقد كشف الله سبحانه هذا الخداع وبين أن ضرره يعود على أصحابه ، فقال تعالى : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾[5] .

فالخداع الذي يتخذه المنافقون طريقاً لمكاسب موهومة يعود شرُّه عليهم في الدنيا والآخرة ، فهم يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون ربهم وأن ذلك نافعهم ، ولا يدرون أنهم

(١-٢) جامع البيان للإمام الطبري ١/١٢١ .

(٣) النفاق آثاره ومفاهيمه – للشيخ عبد الرحمن الدوسري –ص /١١.

(٤) سورة التوبة / الآيتان ١٢٤-١٢٥ .

(٥) سورة البقرة /الآيتان ٨-٩ .

يسيئون إلى أنفسهم أكثر من إساءتهم إلى غيرهم ، وأن هذا الخداع يوردهم موارد التهلكة .

والأصل أن النفس هي التي تخدع صاحبها ، لكن هؤلاء بما تأصل فيهم من الخديعة صاروا مخادعين لأنفسهم وهي أحب شيء عليهم ، فخسروا نفوسهم مع أنهم نافقوا من أجل تحقيق المكاسب لها .

قال تعالى : ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** ﴾[1] .

وبما أن رأس مال المنافقين الذي يتاجرون به تلك التجارة الخاسرة هو الخداع فإنهم يبذلون كل جهد لئلا ينكشف ، ولذلك تراهم يقسمون الأيمان الكاذبة ، في كل موطن ظناً منهم أن ذلك يستر خداعهم ويغطي على مؤامراتهم ويُكسبهم رضاء المؤمنين .

وقد أخبر الله سبحانه عن ذلك فقال : ﴿ **يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم** ﴾[3] .

وقال عز وجل : ﴿ **يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾[4] .

ولذلك فإن الحذر من الفضيحة ملازم للمنافق ، والفزع والاضطراب لا يفارقهم .

قال تعالى : ﴿ **يحذر المنافقون أن تنزَّل عليهم سورة تُنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرجٌ ما تحذرون** ﴾[5] .

---

(١) سورة البقرة /آية ١٦ .

(٢) سورة التوبة /آية ٦٢ .

(٣) سورة التوبة / من الآية ٧٤ .

(٤) سورة التوبة/ آية ٩٦ .

(٥) سورة التوبة /آية ٦٤ .

وقال سبحانه مبيناً حالة الفزع والخوف من الفضيحة التي يتصفون بها : ﴿ **وإذا أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف ا لله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾[1] .

ولذلك فإنهم دائماً يتطلعون إلى ما يستر نفاقهم عن الأعين وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ **لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مُدَّخلاً لولّوا إليه وهم يجمحون** ﴾[2] .

وسرعان ما يخرج المنافقون عن نفاقهم إلى الكفر الصريح عندما توشك كفة الكفر أن ترجح ، وهذا ما فعلوه في غزوة الأحزاب عندما اشتد الحصار على المسلمين وبلغت القلوب الحناجر ، وفي ذلك يقول ا لله سبحانه : ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا ا لله ورسوله إلا غروراً** ﴾[3] .

وهكذا يعيش المنافقون حالة الاضطراب والذعر والحيرة الدائمة والتخبط في كل مسلك وانطماس البصيرة وعمى القلب ، وكفى بذلك عذاباً تحترق به أفئدتهم في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

وقد ضرب ا لله سبحانه لهؤلاء المنافقين مثلاً يبين ما هم فيه من حالة الانتكاس .

فقال تعالى : ﴿ **مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب ا لله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون** ﴾[4] .

فهؤلاء لم يُعرضوا عن الهدى ابتداءً كما فعل الذين كفروا ، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى بعدما استوضحوا الأمر وتبينوه ، فقد أبصروا الحق ثم تركوه و لم ينتفعوا به[5] ، فكان جزاؤهم انطفاء النور عنهم وبقاءهم في ظلمات الشبهات والشهوات .

لقد طفئ عنهم النور وبقيت نار سوداء تتأجج ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **ذهب ا لله**

---

(١) سورة التوبة /آية ١٢٧ .

(٢) سورة التوبة /آية ٥٧ .

(٣) سورة الأحزاب/ آية ١٢ .والمقصود بقوله تعالى: ﴿ **الذين في قلوبهم مرض** ﴾ أي :في قلبه شبهة وفي نفسه وسواس لضعف إيمانه (تفسير ابن كثير ٤٧٣/٣) .

(٤) سورة البقرة / الآيتان ١٧-١٨ .

(٥) ينظر : في ظلال القران ٤٦/١ .

بنورهم﴾ ولم يقل بنارهم إشارة إلى عدم إنطفاء النار[1] .

وهذا هو جزاؤهم أيضاً يوم القيامة عند المرور على الصراط ، حيث يعطون نوراً ظاهراً مع أهل الإسلام ، ثم ينطفى عنهم ذلك النور ، ويحال بينهم وبين المؤمنين بسور له باب ، فتحل بهم الحسرات ولا تجديهم النداءات .

قال تعالى : **﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضُرب بينهم بسورٍ له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير ﴾**[2] .

وتشير هذه الآيات الكريمة إلى السمات الأساسية للنفاق وأهله وهي أنهم فتنوا أنفسهم وأهلكوها وضيعوها بالشهوات والشبهات ، كما أنهم تربصوا بالحق وأهله ، وارتابوا بالوعد الحق والبعث بعد الموت ، وغرتهم أماني المغفرة ووساوس الشياطين[3] .

وقد تحدث الإمام ابن القيم رحمه الله عن النفاق وأهله حديثاً مستفيضاً فكان مما قاله : (لبسوا ثياب أهل الإيمان على قلوب أهل الزيغ والخسران والغل والكفران .. رأس مالهم الخديعة والمكر ، وبضاعتهم الكذب والختر ، وعندهم العقل المعيشيي : أن الفريقين عنهم راضون .. قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها ، وغلبت القصود السيئة على إرادتهم فأفسدتها)[4] .

كما قال في وصفهم : (لكل منهم وجهان : وجه يلقى به المؤمنين ، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين ، وله لسانان : أحدهما يقبله بظاهره المسلمون ، والآخر يترجم به عن سره المكنون .. خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحر الظلمات ، فركبوا مراكب الشبه والشكوك تجري بهم في موج الخيالات ، فلعبت بسفنهم الريح العاصف فألقتها بين سفن الهالكين)[5] .

---

(١) النفاق آثاره ومفاهيمه للدوسري – ص / ٣٣ .

(٢) سورة الحديد/ الآيتان ١٣/١٥ .

(٣) ينظر :تفسير ابن كثير ٣٠٩/٤ .

(٤) مدارج السالكين /٣٤٩ .

(٥) المرجع نفسه ٣٥٠/١ .

نفاق الأعمال

هناك نوع من النفاق يتسرب إلى قلوب المؤمنين وينفذ إليها من خلال بعض الذنوب والمعاصي التي تتسم بصفة مشتركة تشبه النفاق العقدي ألا وهي الخديعة ، ومن هذه الذنوب الكذب والخيانة وإخلاف الوعد ، وقد سمى العلماء هذا النفاق نفاق الأعمال .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان)[1] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر)[2].

قال الإمام النووي في شرحه لهذين الحديث :

(معناه أن هذه الخصال خصال نفاق ، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ، ومتخلق بأخلاقهم ، فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه ، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال ، ويكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وأتتمنه وخاصمه وعاهده من الناس ، لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر .. وقوله ﷺ : " كان منافقاً خالصاً " معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال .. وحكى الخطابي رحمه الله قولاً آخر معناه التحذير للمسلم أن يعتاد هذه الخصال التي يُخاف عليه أن تُفضي به إلى حقيقة النفاق)[3] .

وقد علق الإمام الترمذي في سننه على هذا الحديث فقال : (إنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل)[4] .. ثم أورد قول الحسن البصري رحمه الله : (النفاق نفاقان : نفاق العمل ونفاق التكذيب)[5] .

(١-٢) صحيح البخاري – كتاب الإيمان – باب علامة المنافق – ١٤/١ .وصحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان خصال المنافق – رقم /٥٩،٥٨ .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٤٧/٢ .

(٥) سنن الترمذي – كتاب الإيمان – ٢١/٥ .

ولا يقتصر نفاق الأعمال على هذه الخصال المذكورة ، وإنما يشمل كل قول أو فعل أو نية يقصد منها الخديعة والتظاهر بخلاف واقع الأمر ، ظناً من المخادع أن تصديق الناس له وأخذهم بظاهره سيحقق له مآربه التي يرجوها .

وهذا ما بينه الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله حيث قال : (وجه الاقتصار على هذه العلامات الثلاث أنها منبهة على ما عداها ، إذ أصل الديانة منحصر في ثلاث : القول والفعل والنية ، فنبَّ على فساد القول بالكذب ، وعلى فساد الفعل بالخيانة ، وعلى فسادالنية بالخُلف ، لأن خُلف الوعد لا يقدح إلا إذا كان العزم عليه مقارناً للوعد ، أما لو كان عازماً ثم عرض له مانع أو بدا له رأي فهذا لم توجد منه صورة النفاق)[1] .

ومن هنا يتبين أن صور ومظاهر نفاق الأعمال كثيرة والصفة الجامعة بينها تظاهر المرء بخلاف ما يبطن خداعاً للناس وتحقيقاً لمآربه التي توسوس بها نفسه الأمارة بالسوء ، وقد تفشى ذلك كثيراً بين المسلمين اليوم حتى صار هذا النفاق تياراً يكتسح بشروره المجتمعات الأسلامية ، ويسمى بالانتهازية والوصولية والنفعية بحيث ينتهز الإنسان كل فرصة ليصل إلى مآربه ولو على حساب الآخرين ، وأصبح لهذا النفاق طرقٌ وحيل وخفايا ، كما أقيمت له نظريات تبرره وتنشره ، وصيغت له أمثال تشجع عليه ، ومنها قولهم إن الغاية تبرر الوسيلة ، وإن الفرصة لا تأتي إلا مرة ، بل إن الأدهى من ذلك أن يطلق على هذا النفاق الخسيس أوصاف تصف أصحابه بالذكاء والنباهة والفطانة ، والحنكة وأن يوصف الأتقياء المتعففون عنه بالغفلة والسذاجة والبساطة في التفكير .

فليحذر هؤلاء من عذاب الله سبحانه الذي لا تخفى عليه خافية ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وليعلموا أن خداعهم وتلونهم سيعود شرُّهُ عليهم في الدنيا والآخرة .

وقد قال تعالى في وصف المنافقين : ﴿ **يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، إذ يبيتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً** ﴾[2] .

كما بين الرسول ﷺ أن من شر الناس المداهن المخادع الذي يتظاهر لكل فريق بما

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩٠/١ .

(٢) سورة النساء /آية ١٠٨ .

يرضيه روى مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : " تجدون من شرار الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء ، بوجهٍ وهؤلاء بوجه"[1] .

ولا شك أن من اعتاد مخادعة الناس ليصل غلى مبتغاه لابد أن يقع في إحدى كبيرتين من الكبائر المهلكة :

- **إما الرياء**[2] : بأن يتظاهر بالصلاح والتقوى ليكسب ثقة الآخرين ويستر حيله ومآربه النفسية الباطلة ، وذلك إذا كان الذين يخادعهم من المؤمنين .

- **وإما المداهنة**[3] : بأن يتظاهر بالرضا عن أعمال الكفرة الفسقة والمنحرفين وعدم المبالاة بما يجاهرون به من المعاصي ، لكي يظفر بمكاسب ومصالح من ورائهم .

وفي كلتا الحالتين يقع المرء في نفاق الأعمال ، ويوشك هذا النفاق أن يتأصل في نفسه ويترسخ حتى ينقلب في الحالة الأولى إلى نفاق العقيدة ، وفي الحالة الثانية غلى الكفر الظاهر .

ولذلك كان السلف الصلح رحمهم الله يحذرون من النفاق حذراً شديداً مع ما آتاهم الله من علم راسخ وصلاح وإيمان وتقوى .

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : (تالله لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين ، لعلمهم بدقه وجلّه وتفاصيله وجمله ، ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين ، قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما : " يا حذيفة نشدتك بالله ، هل سماني لك رسول الله ﷺ منهم ؟ قال : لا ولا أزكي بعدك أحداً) .. تالله لقد مُلئت قلوب القوم إيماناً ويقيناً ، وخوفهم من النفاق شديد وهمهم لذلك ثقيل ، وسواهم كثير منهم لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، وهم يدّعون أن إيمانهم كإيمان

---

(١) صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - باب خيار الناس - رقم /٢٥٢٦ .

(٢) آثرت أن أجعل الحديث عن الرياء في الفصل القادم عند الحديث عن الشهوات لصلته الوثيقة بشهوة حب النفس .

(٣) المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشئ ويستر باطنه ، وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا الرضا بما هو فيه ، والتظاهر بخلاف ما يضمر ملاينة له . (ينظر : فتح الباري ٥٢٨/١٠) ، (لسان العرب ١٦٢/١٣) .

جبريل وميكائيل .. قلوبهم عن الخيرات لاهية ، وأجسادهم إليها ساعية ، والفاحشة في فجاجهم فاشية ، وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية ، وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم ، وكانت آذانهم واعية ، فهذه ـ والله ـ أمارات النفاق فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية ، إذا عاهدوا لم يفوا ، وإن وعدوا أخلفوا ، وإن قالوا لم ينصفوا ، وإن دُعوا إلى الطاعة وقفوا ، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صدفوا ، وإذا دعتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا ، فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان ، والخزي والخسران)[1] .

ـ ونختم البحث في موضوع النفاق باستخلاص مجمل لأبرز جوانب العلاج الذي بينه الإسلام لاستئصال النفاق ومنع انتشاره في المجتمع المسلم ، ويتمثل ذلك في النقاط التالية :

١ ـ تربية النفوس على الإيمان الراسخ والعقيدة الجازمة والتوجه إلى الله سبحانه بصدق واخلاص ، وتزكية تلك النفوس حتى تسمو وتتطهر من شرورها وتتذوق حلاوة الإيمان فلا يضرها من خالفها ولا تهزها رياح الشبهات والشهوات مهما عصفت بها .

٢ ـ سد الذرائع الموصلة إلى النفاق من الكذب والخيانة واخلاف الوعد والمداهنة ونحو ذلك، وقد بين المولى سبحانه أن الإصرار على هذه المعاصي يؤصل النفاق في القلب ، فقال تعالى: ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علاّم الغيوب** ﴾[2] .

٣ ـ التحذير من النفاق وعقوبته الشديدة في الآخرة ، وفضح خفايا المنافقين وكشف خداعهم والشبهة التي قامت في نفوسهم بظنهم أن هذا الخداع يفيدهم ويحقق مآربهم وقد حفلت سور القرآن الكريم بذلك وبخاصة أوائل سورة البقرة ، وسورة اللتوبة ، وهو ما سبق بيانه في ثنايا هذا الموضوع .

---

(١) مدارج السالكين ٣٥٨/١-٣٥٩ .

(٢) سورة التوبة / الآيتان (٧٥ -٧٨) .

ثالثاً : البدعة

شرع الله سبحانه لعباده الدين القويم والطريق المستقيم ، من تمسك به فقد نجا ، ولكن القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان كثيراً ما تغزوه سهام الشهوات والشبهات ووساوس الشياطين ، فيحيد عن الاعتصام بالكتاب والسنة ، ويقع في البدع المخالفة لدين الله ، فتصده عن طريق التزكية بشبهات باطلة تؤدي إلى مرض القلب وتدسية النفس .

ولقد أوضح الله سبحانه الطريق الحق وحذر من اتباع السبل المضلة .

فقال تعالى : ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون** ﴾(١) .

وقال سبحانه: ﴿ **وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون** ﴾(٢).

وقد أكد الرسول ﷺ ضرورة الاتباع الكامل وحذر من الابتداع في هذا الدين .

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) .

وفي رواية لمسلم : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)(٣) .

وإذا كان هذا الحديث النبوي يشمل كل ما يخالف الكتاب والسنة من البدع المحدثة ، فإن هذه البدع يمكن تقسيمها إلى قسمين :

---

(١) سورة الأنعام /آية ١٥٢ .

(٢) سورة الأنعام /الآية ١٢٦ .

(٣) صحيح البخاري -كتاب الصلح - باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، وصحيح مسلم -كتاب الأقضية -باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور - رقم / ١٧١٨ .

١ ـ بدع زيادة على ما شرعه الله ورسوله وغلو في الدين ، وهذه البدع وقع بها بعض السائرين في طريق التزكية فانحرفوا عن هذا الطريق قليلاً أو كثيراً ، وهم يظنون أنهم أهل التزكية وفرسانها ، ولأهمية هذا الموضوع سنخصص له باباً مستقلاً نناقش فيه الإنحرافات عن المنهج الاسلامي في التزكية .

٢ ـ بدع نقص عما أمر به الإسلام بشبهة تسربت إلى بعض النفوس فأعرضوا عن طريق التزكية وتقاعسوا عن الطاعات ، متذرعين بتلك الشبهة التي وافقت هوى النفس ، وبذلك أدت تلك البدعة إلى مرض من أمراض النفس يصدها عن التزكية بسبب ما دخلها من شبهات مضلة ، وأبرز ما يهمنا في هذا المجال ، بدعتا الإرجاء والجبر .

أولاً : بدعة الإرجاء

وهذه البدعة ظهرت بذرتها الأولى منذ فجر الإسلام وسمي القائلون بها باسم المرجئة ، لأنهم يؤخرون العمل عن الإيمان ، فيقولون : لا تضر المعصية مع الإيمان كما لا تنفع الطاعة مع الكفر ، وأن الإيمان تصديق القلب وقول اللسان ، والأعمال ليست منه حتى وصل بهم الأمر إلى الإستهانة بالعمل من حيث اتصاله بأصل الإيمان ، ومن حيث الجزاء في الآخرة ، وادعوا أن الإيمان الذي في القلب يكون تاماً بدون شيء من الأعمال ، وأن الإيمان في قلب شارب الخمر والزاني وتارك الصلاة مثل الإيمان في قلب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[١]!.

وقد تسربت هذه الانحرافات إلى المرجئة عن طريق شبهات استحكمت في نفوسهم بسبب تحكيم عقولهم في النصوص الشرعية ، وإعراضهم عن فهم دلالات الألفاظ القرآنية عن طريق الكتاب والسنة .

ولذلك حذر أئمة السلف رحمهم الله من بدعة المرجئة وبينوا خطرها وضررها وقد أورد الإمام أبو بكر الآجري رحمه الله في كتابه (الشريعة) عدداً من أقوالهم في ذلك ، ومنها : قول الزهري رحمه الله : (ما ابتدعت في الإسلام بدعة أضر على الملة من هذه) يعني الإرجاء[٢] .

(١) ينظر تفصيل ذلك في المرجع التالية : التبصير في الدين للإمام أبي المظفر الاسفراييني ص/٩٧ ، والفرق بين الفرق للإمام عبد القاهر البغدادي ص/١٩٠ -١٩٥ ، والملل والنحل للإمام الشهر ستاني ص /١٣٩ . وكتاب الإيمان للإمام ابن تيمية ص/١٨٣ ، وما بعدها ،وتاريخ المذاهب الاسلامية للشيخ محمد أبو زهرة ١/١٣٢-١٣٧ .

(٢) الشريعة ـ للإمام الآجري ـ ص/١٤٣ .

ثم أفاض في رد دعاوى المرجئة وإبطال حججهم[1] مبينا أن من قال بهـذه البدعـة فقـد أعظم الفرية على الله عز وجل وأتى بضد الحق ، لأن قائل هذه المقالة يزعـم أن مـن قـال لا إله إلا الله لم تضره الكبائرأن يعملها ولا الفواحش أن يرتكبها ، وأن البـار والفـاجر سـواء ، وهذا منكر مخالف لصريح قوله تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾[2] .

وقوله عز وجل : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملـوا الصالحات كالمفسـدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار** ﴾[3] .

وقد أفاض الإمام ابن تيمية رحمه الله في الرد على شبهات المرجئة التي أوصلتهم إلى هذا الإنحراف ، وذلك في كتابـه القيـم (الإيمـان) ، وأول شبهـة دعواهـم أن الإيمـان يقصـد بـه التصديق فقط ، فبين رحمه الله أن ألفاظ الإيمان والإسلام والنفاق والكفر قـد بـين النبي ﷺ المراد منها بياناً لا يحتاج معه إلى الاستدلال بالاشتقاق وشواهد استعمال العـرب فلهـذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله ، فإنه شـاف كـاف ، بـل إن معـاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة، وكل من تـأمل قـول المرجئـة في معنى الإيمان علم أنه مخالف للرسول ﷺ وأن طاعة الله ورسوله لابـد منهـا للمؤمـن[4] ، ثـم قـال رحمه الله :

(وأهل البدع إنما دخل عليهم هذا الداخل ، لأنهم أعرضوا عـن هـذه الطريـق ـ أي في الاستدلال ـ وصاروا يبنون دين الإسلام على مقدمات يظنون صحتها ، إما في دلالة الألفاظ، وإما في المعاني المعقولة ، ولا يتأملون بيـان الله ورسـوله ، وكـل مقدمـات تخالف بيـان الله ورسوله فإنها تكون ضلالاً)[5] .

وبعد أن فندّ شبهات المرجئة وأظهر بطلانها أردف قائلاً : (كان من مضى مـن سـلفنا

---

(١) ينظر : المرجع نفسه ص/١٤٥-١٤٨ .

(٢) سورة الجاثية /آية ٢١ .

(٣) سورة ص / آية ٢٨ .

(٤) الإيمان –للإمام ابن تيمية –ص /٢٧٢ .

(٥) المرجع نفسه –ص/٢٧٣ .

لا يفرقون بين الإيمان والعمل ، العمل من الإيمان والإيمان من العمل ....فمن آمن بلسانه وعرف بقلبه وصدق بعمله ، فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها ، ومن قال بلسانه ، ولم يعرف بقلبه ، ولم يصدق بعمله ، كان في الآخرة من الخاسرين)[1] .

فالقلب هو الأصل ، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة ، لايمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ، ولهذا قال النبي ﷺ : (.،. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[2] .

وقد بين الإمام ابن القيم رحمه الله كيف أن الشيطان يفسد على العبد دينه بأن يفتح له باب الإرجاء حتى يوقعه في الكبائر ويزين له فعلها ويحسنها في عينه بدعوى أن الإيمان هو التصديق فلا تقدح فيه الأعمال ، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق وهي قوله : " لا يضر مع التوحيد ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك حسنة " والظفر به في عقبه البدعة أحب إليه لمناقضتها الدين ، وصاحبها لا يتوب منها ولا يرجع عنها ، بل يدعو الخلق إليها ، ولتضمنها القول على الله بلا علم ومعاداة صريح السنة ومعاداة أهلها ومعارضة الحق بالباطل ، وتعمية الحق على القلوب ، وفتح باب تبديل الدين جملة ، فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها حتى ينسلخ صاحبها من الدين كما تنسل الشعرة من العجين[3] .

وفعلاً فقد انتشر هذا الفكر الإرجائي بين بعض المسلمين وكان عاملاً مشجعاً لإقدامهم على مقارفة المعاصي والمنكرات والتهوين من أمرها والتكاسل عن فعل الطاعات ، وتحوَّل الإرجاء من فكر نظري إلى واقع عملي تزايد مع امتداد الزمن ، حتى أدى بهؤلاء إلى التفلت من التكاليف الشرعية والانغماس في المنكرات دون أي رادع ما دام ذلك لا يؤثر في حقيقة الإيمان بحسب زعمهم .

ووصل الواقع بالأمة المسلمة إلى ما نراه اليوم بعد أن تزايد خط الانحراف وتغيرت نظرة الكثيرين منهم للقيم ، واستحكمت فيهم الشبهات والشهوات ، وانطلقت الدعاوى

---

(١) المرجع نفسه –ص/٢٨٠ .

(٢) رواه البخاري في الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه – ١ /١٩ .ومسلم في البيوع _رقم /١٥٩٩ .

(٣) ينظر : مدارج السالكين لابن القيم ٢٢٣/١-٢٢٤ .

التي تبرر هذا التفلت من الدين بأن العبرة بسلامة القلب وطهارة النفس وأن المؤمن يكفيه مجرد التصديق بالقلب والإقرار باللسان(1) ، وأثّرت هذه الشبهة في نفوس المسلمين اليوم أكثر مما كانت تؤثر من قبل حينما كانت جذوة العقيدة حيّة في نفوس السابقين .

ثانياً : بدعة الجبر

ومن البدع الضالة التي كان لها أثرها السيئ في صد الناس عن الطاعات وإبعادهم عن طريق التزكية ، بدعة الجبر التي نادت بها طائفة الجبرية ، حيث ادعوا أن الإنسان مجبر في أفعاله ، ولا اختيار له في شيء منها ، وأن كل ما ينسب إليه من الأفعال فهو على سبيل المجاز كما يقال سقط الجدار وجرى الماء ودارت الرحى وتحرك الحجر ، فقوام هذه البدعة نفي الفعل حقيقة عن العبد ونفي الإرادة والاختيار عنه(2) .

ولقد كان لهذه البدعة أثرها السيئ في تبرير العصاة لما يقعون فيه من معاصي والاحتجاج بالقدر عما يقترفونه من منكرات .

وقد كان المشركون يتذرعون بالقدر ليلقوا عن أنفسهم مسؤولية الشرك والضلال .

قال تعالى : ﴿ **سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون** ﴾(3) .

وقال سبحانه مخبراً عن دعواهم الباطلة : ﴿ **وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ماهم**

---

(1) ينظر كتاب (واقعنا المعاصر) للأستاذ محمد قطب ـ ص/165 ، وما بعدها ، فقد أجاد حفظه الله في تشخيص هذا الداء وبيان آثاره في واقع الأمة .

(2) ينظر تفصيل هذة البدعة والرد عليها في المراجع التالية : التبصير في الدين ص /107 ، والفرق بين الفرق ص /199 ، والعبودية للإمام ابن تيمية ص / 21-25 ، وشرح العقيدة الطحاوية ص / 433-442 ، وتاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة ص / 115 - 123 ، وعقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي ص /96-1120 ، وكتاب القضاء والقدر في الإسلام للدكتور فاروق الدسوقي ، وتعريف عام بدين الإسلام للشيخ علي الطنطاوي ص 152-162 .

(3) سورة الأنعام / آية 148 .

بذلك من علم إن هم إلا يخرصون أم آتيناهم كتابهم من قبله فهم به مستمسكون ﴾[1].

فقد بين عز وجل أن هذه الشبهة الباطلة أدت بهؤلاء إلى الضلال فاتبعوا ما أملت عليهم ظنونهم وأوهامهم الفاسدة .

ومنشأ هذا الضلال عدم التفريق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية ، فالإرادة الكونية القدرية لا تدخل في نطاق التكليف وهي التي كان بها القدر ونظامه ، وأما الإرادة الشرعية الدينية فهي التي أناط الله بها تكليف الإنسان وثوابه وعقابه لأنها تتعلق بأفعال العباد الإرادية الاختيارية[2] .

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله : (هؤلاء الذين يشهدون الحقيقة الكونية وهي ربوبيته تعالى لكل شيء ، ويجعلون ذلك مانعاً من اتباع أمره الديني الشرعي ، على مراتب الضلال ، فغلاتهم يجعلون ذلك مطلقاً عامّاً فيحتجون بالقدر في كل ما يخالفون به الشريعة ، وقول هؤلاء شر من قول اليهود والنصارى ، وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا : **﴿ لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾** ، وقالوا : **﴿ لو شاء الله ما عبدناهم ﴾** ، وهؤلاء من أعظم أهل الأرض تناقضاً ، بل كل من احتج بالقدر فإنه متناقض ، فإنه لا يمكن أن يقر كل آدمي على ما يفعل ، فلا بد إذا ظلمه ظالم .. أن يدفع هذا القدر ، وأن يعاقب الظالم بما يكفُّ عدوانه وعدوان أمثاله ، فيقال له : إن كان القدر حجة فدع كل أحد يفعل ما يشاء بك وبغيرك ، وإن لم يكن حجة بطل أصل قولك : إن القدر حجة .

وأصحاب هذا القول الذين يحتجون بالحقيقة الكونية لا يطّردون هذا القول ولا يلتزمونه ، وإنما هم يتبعون آراءهم وأهواءهم)[3] .

ولا شك أن كل عاقل يفرق في نفسه بين ما يرد عليه من أمر اضطراري لا اختيار له فيه ، وبين ما يختاره بنفسه ويفعله بمحض إرادته ، وقد أثبت الله سبحانه للعباد الكسب

---

(١) سورة الزخرف / الآيتان ٢٠-٢١ .

(٢) عقيدة المؤمن للشيخ أبو بكر الجزائري – ص / ٣٧٤ ، وينظر شرح العقيد الطحاوية ص / ٤٤٥ .

(٣) العبودية – للإمام ابن تيمية – ص / ٢١ .

والإرادة والاختيار ، وما أكثر الآيات القرآنية التي ورد فيها قوله : يعملون ، يعقلون ، يكسبون ، يصنعون ، ويكفي في ذلك قوله سبحانه : ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾[١] ، ولو لم يكن للعبد اختيار فتكليفه بالتكاليف الشرعية محال ، والثواب والعقاب عبث وظلم ، تعالى ا لله عن ذلك[٢] .

يقول سبحانه : ﴿ **إن ا لله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾[٣] .

والواقع أن الذي مهد الطريق لتسرب هذه الشبهة كونها موافقة لهوى النفس ، ولذلك نجد أهل المعاصي يتذرعون بها لتبرير فسقهم ، فإذا نصحت أحدهم أجابك على الفور : إن ا لله لم يكتب لي الهداية ، وإذا أرشدته إلى القيام بطاعته ربه قال لك : حتى يهديني ا لله ! ولقد انتشرت هذه الأغاليط ـ للأسف ـ بين العامة ، حتى وصل الحال بالمسلمين إلى ما نراه من بعد عن ربهم وانغماس في المعاصي وذل وهوان وتقاعس وخذلان ، نتيجة لتجاهل الإنسان لحريته التي وهبه ا لله إياها ، وما زوّده به من قوة وإرادة يملك أن يتجه بهما إلى الخير أو الشر[٤] .

ويقال لهؤلاء : الهداية بيد ا لله سبحانه ، لكن ا لله جعل لها أسباباً لابد من طلبها والسعي إليها بالعمل الصالح والتوبة النصوح وسلوك طريق المهتدين ، أما أن يُخلِد الإنسان إلى الهوى ويقعد عن الطاعة ويتذرع بالقدر ، فهذا شقاء وحمق وضلال .

والذي يفضح دعوى هؤلاء أنهم لا يقعدون عن طلب الرزق ويحرصون عليه ، فلماذا لا يسعون في طلب الهداية ؟ وكيف يصرون على عصيانهم وهم يترقبون الهداية بزعمهم ؟

تقول مع العصيان : ربي غافر   صدقت ولكن غافر بالمشيئة

وربك رزاق كما هو غافر   فلمْ لمْ تصدِّق فيهما بالسويّة ؟

---

(١) سورة المدثر / آية ٣٨ .

(٢) ينظر التبصير في الدين – للإمام الإسفراييني – ص / ١٠٧ .

(٣) سورة النساء / آية ٤٠ .

(٤) ينظر : عقيدة المسلم – للشيخ محمد الغزالي – ص / ١٠٥ .

تسيء ظناً وتحسن تارةً   على حسب ما يقضي الهوى بالقضية[1] .

وقد وعد الله سبحانه الذين يطلبون الهداية بصدق أن يوفقهم إليها ويثبتهم عليها ويزيدهم منها ، فقال تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم** ﴾[2] .

فمن سلك طريق الهداية وفقه الله تعالى ليكون من أهلها ، ومن سار في طريق الغواية والضلال زاده الله ضلاً وأعمى بصيرته ، حتى يرجع عن ضلاله ، فإن أراد الهدى فليلزم طاعة ربه ، فقد قال تعالى : ﴿ **قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولّوا فإنما عليه ما حُمّل وعليكم ما حُمّلتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾[3]

وفي الختام نجمل أبرز نقاط العلاج الذي بينه الإسلام لاستئصال أمراض الشبهات من النفس وبخاصة شبهتي الإرجاء والجبر ، **ويتمثل ذلك في جانبين :**

١ ـ الاعتصام بالكتاب والسنة[4] :

أنه لا ينجي من فتن الشبهات إلا الاتباع الكامل لما جاء به الرسول ﷺ وما مضى عليه الصحابة الكرام ومن تبعتهم بإحسان ، فمن طلب الهداية بهذا الاتباع هداه الله وبصّره بطريق الحق .

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله عن فتنة أهل البدع : (فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحث بالباطل ، والهدى بالضلال ، ولا ينجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول ﷺ ، وتحكيمه في دِقِّ الدين وجلّه ، ظاهره وباطنه ، عقائده وأعماله ، حقائقه وشرائعه ، فيتلقى عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام)[5] .

---

(١) الهدى والضلال – للشيخ أحمد عز الدين البيانوني – ص / ٣٧ .

(٢) سورة محمد / آية ١٧ .

(٣) سورة النور / آية ٥٤.

(٤) سبق الحديث بالتفصيل عن الاعتصام في الباب الثاني – ينظر ص / ٨٦ من هذا البحث .

(٥) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان – لابن القيم ٢/١٦٥ .

٢ ـ الحرص على العلم النافع من أهله :

فالعلم النافع سلاح فتاك لدحض جيوش الشبهات فيدحر شرورها ، ويضيئ الطريق للحائرين وقد سبق بيان أهمية العلم النافع في تزكية النفس[١] ، وتطهيرها من أمراضها وآفاتها ، وضرورة تلقيه عمن يوثق في دينه وتقواه وبعده عن الأهواء المضلة .

وقد بين الإمام ابن القيم رحمه الله أن من أبرز أسباب تسلط الشبهات قلة العلم، فقال: (فتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم ، ولا سيما إذا اقترن بذلك فسادُ القصد ، وحصول الهوى ، فهنالك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى)[٢] .

إلى أن قال : (وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد ، وتارة من نقل كاذب ، وتارة من حقٍ ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به ، وتارة من غرض فاسد وهوى مُتَّبع ، فهي من عمىً في البصيرة وفسادٍ في الإرادة)[٣] .

وهذا الفهم الفاسد ينشأ من قلة العلم ، فيرى بدعته هي الحق فهو بالتالي لا يبادر إلى التوبة منها والإقلاع عنها ، وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله : (ولهذا قال أئمة الإسلام كسفيان الثوري وغيره : إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن البدعة لا يتاب منها ، والمعصية يتاب منها .

ومعنى قولهم إن البدعة لا يتاب منها : أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله ، قد زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً ، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه . ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق)[٤] .

ولذلك اشترط في العالم المتحقق بالعلم أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم لأخذه عنهم وملازمته لهم والتأدب بآدابهم ، وقد أفاض الإمام الشاطبي رحمه الله في بيان هذه

---

(١) ينظر ص / ١١٧ من هذا البحث .

(٢) إغاثة اللهفان ١٦٥/٢ .

(٣) المرجع نفسه ١٦٦/٢ .

(٤) مجموع الفتاوى ٩//١٠ .

المسألة ثم قال : (وحسبك من صحة هذه القاعدة أنك لا تجد عالماً اشتهر في الناس الأخذ عنه إلا وله قدوة اشتهر في قرنه بمثل ذلك ، وقلما وجدت فرقة زائفة ولا أحداً مخالفاً للسنة إلا وهو مفارق لهذا الوصف .. فلما تُرك هذا الوصف رفعت البدع رؤوسها ، لأن ترك الاقتداء دليل على أمر حدث عند التارك أصله اتباع الهوى)(١) .

فالاعتصام الكامل والعلم النافع المأخوذ عن أهله الثقات هما الحصن من شرور البدع والشبهات المضلة ، ومن يعتصم با لله فقد هُدي إلى صراط مستقيم .

---

(١) الموافقات في أصول الأحكام – للإمام الشاطبي – ١/٥٥ .

المبحث الثالث

أمراض بسبب الشهوات

الشهوات غرائز فطرية ترغب فيها النفس وتميل إليها ، وقد وهب الله سبحانه هذه الغرائز للإنسان وجعلها جزءاً من تكوينه ليؤدي دوره في الحياة ويسعى في صلاحه وتحقيق ما يجلب له الخير ويدفع عنه الشر ويحفظ بقاء الجنس البشري .

وقد عبر الله سبحانه عن هذا الميل الفطري في الإنسان لكل ما يجلب له الخير ويدفع عنه السوء فقال تعالى على لسان النبي ﷺ : ﴿ **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء** ﴾[1] ، ولذلك يميل الإنسان بفطرته إلى حب المال الذي يحقق به ما يرجوه من خير لنفسه ، وقد وصفه الله سبحانه في هذا الحب فقال : ﴿ **وإنه لحب الخير لشديد** ﴾[2] .

ولكن هذه الدوافع الفطرية إذا لم تنضبط بميزان الشرع القويم ، ولم تلتزم بالمنهج الإسلامي الذي يحفظ للنفس البشرية كرامتها وصحتها وإستقامتها ، ويرقى بها لتنال سعادة الدارين ، فإنها ستفرق في شهوات الدنيا العاجلة ، وتنحرف ميولها الفطرية لتتحول إلى أمراض تشوّه طبيعة الإنسان ، وتشغله عن العمل لصلاح آخرته حتى يحل به الشقاء .

وقد أبانت الآيات القرآنية هذه الحقيقة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد** ﴾[3] .

---

(١) سورة الأعراف / من الآية ١٨٨ .

(٢) سورة العاديات / آية ٨ .

(٣) سورة آل عمران / الآيتان ١٤-١١٥ .

فالله سبحانه يخبر عما زَيّن للناس في هذه الحياة الدنيا من أنوع الملاذ من النساء والبنين والأموال ، وأنه جعل تلك اللذائذ والشهوات متاع الحياة الدنيا الفانية ، فهذه هي قيمتها التي ينبغي ألا تتعداها وألا تطغى على النعيم الحقيقي في الآخرة الذي لا ينقضي ولا يزول(١) .

ولا شك أن الذي يجعل الآخرة نصب عينيه فإنه يسعى دائماً لتسخير هذه الشهوات في مرضاة ربه عز وجل ، وأما من تعلقت نفسه بالدنيا وامتلأ قلبه بحبها فإنه سيجعل من شهواته هدفاً ومقصدا حتى يكون عبداً لها ، وعندها سيحرص عليها ، ويلهث وراءها بكل ما أوتي من قوة ، ويبيع دينه بعرض من أعراضها الزائلة .

ومصداق ذلك الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : (**ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**)(٢) .

وفي رواية : (**ما ذئبان ضاريان جائعان فيغنم افترقت أحدهما في أولها والآخر في آخرها بأسرع فساداً من امرئ في دينه يحب شرف الدنيا ومالها**)(٣) .

وهذا مثل عظيم ضربه النبي ﷺ لبيان مدى الفساد الذي يلحق المسلم في دينه وإيمانه عندما يحرص على المال والشرف في الدنيا ويجعل من هذا الحرص هدفاً قائماً بذاته يسعى لتحقيقه دون ضوابط ولا حدود ، وعندها سيلحق بدينه الهلاك المحقق وسيخسر آخرته لينال عرضاً دنيوياً زائلاً .

ولو تأملنا دقة هذا المثل النبوي لعرفنا عظم المصيبة ، فالذئبان الجائعان إذا أرسلا في قطيع من الغنم وأحاطا به من جانبيه وقد غاب الراعي الحارس لذلك القطيع ، فإنهما سيهلكانه ويفترسانه ، ولن ينجو من الغنم إلا القليل ، وكذلك يعد الحرص الفاجع من

---

(١) ينظر : تفسير ابن كثير ١/٣٥١-٣٥٢ .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده - ٣/٤٥٦،٤٦٠ ، والترمذي رقم / ٢٣٧٦ ، وقال : حديث حسن صحيح ، والبغوي في شرح السنة ١٤/٢٥٨ .

(٣) رواه أبو يعلى عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الملك وعبد الله ابن محمد بن عقيل وقد وثقا ، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٥٣ .

أصحاب الدنيا لبلوغ الشهة وجمع الأموال دون رقابة أو وازع إيماني أكثر إفساداً لدين المسلم من إفساد الذئبين الجائعين[1] .

وهكذا يظهر خطر إنحراف الشهوات عن طريقها ، وتحولها إلى مرض يفتك بالنفس ويحيل الإنسان إلى حيوان كاسر ، شغله الشاغل أن يرضي أهواءه ولو على حساب إيذاء الآخرين وظلمهم .

والأصل الذي يؤدي إلى هذا الإنحراف والطغيان إتباع الهوى وتقديم حب الدنيا على طاعة الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ **فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى** ﴾[2] .

فإيثار الحياة الدنيا سبب الأمراض التي تعتري النفوس وسبب الشقاء الذي يصيبها .

ولهذا لابد من التفصيل في تشخيص هذا الداء العضال وبيان نتائجه الخطيرة وطرق المعالجة منه والسلامة من آفاته ، وذلك من خلال الحديث عن الشهوات التالية :

١ ـ شهوتا حب النفس وحب الجاه .

٢ ـ شهوى حب المال .

٣ ـ شهوة البطن .

٤ ـ شهوة الفرج .

---

(١) ينظر شرح هذا الحديث في الرسالة القيمة التي ألفها الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله بعنوان : (شرح حديث ما ذئبان جائعان) .

(٢) سورة النازعات / الآيات ٣٧-٤١ .

أولاً : شهوتا حب النفس وحب الجاه

من أقوى الشهوات وأكثرها عمقاً في النفس حب الإنسان لذاته وحرصه على جلب الخير لها ودفع الضر عنها وتحقيق ما يمكن من الكمال لها ، ومن ذلك ينشأ الخوف والرجاء اللذان يوجهان إتجاه الحياة ويحددان للإنسان أهدافه وسلوكه ومشاعره وأفكاره ومنهج حياته[1] .

ومن هنا تبرز أهمية شهوة حب النفس وخطر انحرافها وتحولها عن منهج الإسلام في تزكية النفوس ، وتماديها حتى تبحث عن الكمال المزيف الموهوم وهي تظن أن هذا هو الذي يحقق سعادتها ، وما ينتج عن هذا الإنحراف من أمراض خطيرة منشؤها الحرص على تحقيق رغبات الذات بكل ما يمكن من طرق وأساليب .

ومن هنا تلتقي شهوة حب النفس مع شهوة حب الجاه والشهرة بين الناس وتحقيق المنزلة بينهم ، حتى تذعن له القلوب ويحظى بما يأمله من حظوظ النفس المادية والمعنوية .

وقد بين الإمام الغزالي رحمه الله خطر الانزلاق مع شهوة الجاه ، وضرورة مجاهدة النفس لتلزم تواضعها وتبتعد عن طلب الشهرة والسعي لبلوغها ، ومن أقواله في ذلك : (اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا ، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها ، وكما أن الغني هو الذي يملك الدراهم والدنانير ، أي يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس، فكذلك ذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس ، أي يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه)[2] .

ثم قال : (ومعنى قيام الجاه في القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص إما بعلم أوعبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال في صورة أو قوة في بدن أو شيء مما يعتقده الناس كمالاً "[3] .

---

(١) ينظر : دراسات في النفس الإنسانية لمحمد قطب – ص / ٧٦ .

(٢) إحياء علوم الدين – ٢٧٨/٣ .

(٣) المرجع نفسه ٢٧٩/٣ .

ولقد بلغت شهوة حب الجاه في قلوب الكثيرين مداها وأصبحوا يتنافسون على بلوغها ويبذلون من أجلها الأموال والطاقات ، ويتحايلون على الوصول إليها بالحيل والخداع ويقدمونها على شهوة حب المال ، **وذلك للأسباب التالية**[1] :

١ ـ لأن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه ، فالعالم أو العابد الذي تقرر له جاه في القلوب لو أراد اكتساب المال لبذل له الناس من أموالهم وأعمالهم ما يحقق له ذلك .

٢ ـ أن المال معرض للتلف أو الزوال ويتطرق إليه الخطر ، أما الجاه فإنه إذا دخل القلوب ملكها واستقر فيها فلا تمتد إليه الأخطار إلا إذا حصل ما يغير نظرة الناس لصاحب الجاه .

٣ ـ أن ملك القلوب يسري ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة ، فالناس إذا أعجبوا بشخص أكثروا مدحه والحديث عنه وانتشر صيته بينهم .

ولذلك قال الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله :

(وأما حرص المرء على الشرف فهو أشد هلاكاً من الحرص على المال ، فإن طلب شرف الدنيا والرفعة فيها والرياسة على الناس والعلو في الأرض أضر على العبد من طلب المال ، وضرره أعظم ، والزهد فيه أصعب ، فإن المال يبذل في طلب الرياسة والشرف)[2] .

ثم بين رحمه الله أن الحرص على الجاه والشرف قسمان[3] :

أحدهما : طلب الجاه والشرف بالولاية والسلطان والمال .

والثاني : طلب الشرف والعلو على الناس بالأمور الدينية كالعلم والعمل والزهد وهو أخطر من القسم الأول وأشد فساداً ، لأنه يؤدي إلى الرياء المحبط للأعمال والموجب لسخط الله سبحانه ، بالاضافة إلى أمراض كثيرة سببها تلك الشهوات والأهواء .

ولنستعرض أبرزها بشيء من التفصيل :

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين - ٣-٢٧٩-٢٨٠ .

(٢) شرح حديث ما ذئبان جائعان ، ص /٢٠ .

(٣) المرجع نفسه ص / ٢١ ، ٣٦ .

أمراض النفس التي تنتج عن شهوتي حب النفس وحب الجاه :

وهي التي سماها العلماء المحارم القلبية[1] ، وتزداد حدة هذه الأمراض كلما ازداد الإنحراف في شهوتي حب النفس وحب الجاه ، وتشمل الأمراض القلبية والنفسية التالية :

١ ـ الرياء :

وهو من الأمراض المهلكة التي تبطل الأعمال فلا ينتفع بها صاحبها يوم القيامة وإنما تكون وبالاً عليه ، وهو الشرك الخفي الذي إذا استفحل وتأصل في النفس فقد يؤدي إلى حقيقة الشرك ، لأنه تمزيق وتشتيت للقلب البشري فلا يتوجه إلى خالقه في العبادة وإنما يتوجه للمخلوقين طلباً لرضاهم[2] .

وقد سبق الحديث مراراً عن خطر الرياء وضرورة الإخلاص في الطاعات ، وما ورد في ذلك من آيات كريمة وأحاديث نبوية .

فمن الآيات الكريمة قوله تعالى : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا ا لله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾[3] .

ومن الأحاديث قصة الثلاثة الذين تسعر بهم النار يوم القيامة لأنهم يراؤون بأعمالهم : رجل استشهد ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، ورجل وسع ا لله عليه وأعطاه من أصناف المال فتصدق لايريد بعمله وجه ا لله سبحانه "[4] .

فما الذي يدفع العلماء والعباد للرياء مع علمهم بأنه آفة مهلكة ؟

يجيب عن ذلك الإمام الغزالي رحمه ا لله فيقول : " إن الرياء من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها ، وإنما يبتلى به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة ، فإنهم لما قهروا أنفسهم عن الشهوات وصانوها عن الشبهات عجزت نفوسهم عن

---

(١) ينظر كتاب : النصيحة الكافية للإمام شهاب الدين أحمد البرنسي الفاسي ص / ١٠٨ .

(٢) المستخلص في تزكية الأنفس للشيخ سعيد حوى – ص / ١٥٢ .

(٣) سورة البينة / من الآية ٥ .

(٤) الحديث : رواه مسلم – رقم / ١٩٠٥ .

الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح ، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل واعلم ، فوجت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم ، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى إطلاع الخلق و لم تقنع باطلاع الخالق ، وفرحت بحمد الناس و لم تقنع بحمد الله وحده ، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء ، وبالغوا في التقريظ والإطراء .. وحرصوا على اتباع رأيه وفاتحوه بالخدمة والسلام ، وأكرموه في المحافل غاية الإكرام ، وسامحوه في البيع والمعاملات ، وقدموه في المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس ، وتصاغروا له متواضعين وانقادوا له في أغراضه موقرين ، فأصابت النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات وشهوة هي أغلب الشهوات ، فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات، واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات ، فهو يرى أنه مخلص في طاعة الله ومجتنب لمحارم الله ، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزييناً للعباد وتصنعاً للخلق وفرحاً بما نالت من المنزلة والوقار ، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال)[1] .

ولا شك أن الرياء طرقاً كثيرة ، وأنه قد يكون الباعث الأساسي للعمل وقد يعرض أثناء العمل أو بعده ، وقد أشار الإمام ابن القيم رحمه الله إلى ذلك فقال في جوابه على تساؤل عمن يعمل العمل لله ولغيره فلا يكون محضاً ولا للناس محضاً هل يبطل العمل كله أم يبطل ما كان لغير الله ويصح ما كان لله ؟ **فأجاب رحمه الله**[2] :

(هذا القسم تحته أنواع ثلاثة :

أحدها : أن يكون الباعث الأول على العمل هو الإخلاص ، ثم يعرض له الرياء وإرادة غير الله في أثنائه فيكون ، فهذا المعوَّل فيه على الباعث الأول ما لم يفسخه بإرادة جازمة لغير الله فيكون حكمه حكم قطع النية في أثناء العبادة وفسخها .

الثاني : عكس هذا ، وهو أن يكون الباعث الأول لغير الله ، ثم يعرض له قلب النية لله فهذا لا يحتسب له بما مضى من العمل ، ويحتسب له من حين قَلَب نيته .

---

(١) إحياء علوم الدين ٢٧٥/٣ ، باختصار يسير .

(٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين ١٢٤/٢-١٢٥ .

ثم إن كانت العبادة لا يصح آخرها إلا بصحة أولها وجبت الإعادة ، كالصلاة وإلا لم تجب كمن أحرم لغير ا لله ثم قلب نيته لله ند الوقوف والطواف .

الثالث : أن يبتدئها مُريداً بها ا لله والناس ، فيريد أداء فرضه والجزاء والشكور من الناس ، وهذا كمن يصلي بالأجرة ، فهو لو لم يأخذ الأجرة صلى ، ولكنه يصلي لله وللأجرة .. فهذا لا يقبل منه العمل .. فإن حقيقة الإخلاص التي هي شرط في صحة العمل والثواب عليه لم توجد ، فالاخلاص هو تجريد القصد طاعة للمعبود .. وقددلت السنة الصريحة على ذلك كما في قوله ﷺ : (قال ا لله تبارك وتعالى : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[1] .

ولهذا كان السلف الصالح رحمهم ا لله تعالى يحرصون على محاسبة نفوسهم ومراقبة أحوالها ويكرهون الشهرة غاية الكراهة ويسترون أعمالهم ويذمون أنفسهم .

وقد أورد الإمام ابن رجب الحنبلي عدداً من أقوالهم وأفعالهم في هذا المجال ، ولكنه نبّه على آفة دقيقة قد لا يلاحظها المرء وهي أن ذم النفس أما الناس مدخل من مداخل الشيطان، وباب من أبواب الرياء ، يقول رحمه ا لله : (هذا باب واسع جداً ، وههنا نكتة دقيقة ، وهي أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس يريد بذلك أن يُري الناس أنه متواضع عند نفسه فيرتفع بذلك عندهم ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء ، وقد نبَّه عليه السلف الصالح)[2].

ولهذا يجب على المسلم أن يراقب خواطر نفسه ويحاسبها على نواياها ويكون لها الحارس الأمين الذي يبعد عنها غوائل شهوة حب النفس وحب الجاه ، وأخطار هذا المرض الخفي الذي لا تظهر بداياته في النفس إلا باليقظة الكاملة وسد منافذ وساوس الشيطان .

وهذا ما أشار إليه الإمام ابن الجوزي رحمه ا لله بقوله : (وقد لبّس إبليس على جماعة من قوّام الليل فتحدثوا بذلك بالنهار ، فربما قال أحدهم : فلان المؤذن أذن بوقت ، ليعلم الناس أنه كان منتبهاً ، فأقلُّ ما في هذا إن سَلم من الرياء أن يُنقل من ديوان السر إلى ديوان

---

(١) رواه مسلم – كتاب الزهد – باب تحريم الرياء – رقم / ٢٩٨٥ .

(٢) شرح حديث ما ذئبان جائعان – للإمام ابن رجب الحنبلي – ص / ٥٦ .

العلانية فيقل الثواب)[1] .

٢ ـ الكبر والتعالي على الناس[2] :

الكبر صفة من صفات النفس المذمومة ، ومعناه أن يرى الإنسان نفسه فوق الآخرين فيحصل في قلبه اعتزاز وزهو وتعالٍ على الناس وازدراء لهم وترفع عن مجالستهم واسباب هذا التكبر كثيرة منها :

١ ـ التكبر بالعلم فيرى نفسه أنه أكثر علماً وأن الآخرين جهلة لا قيمة لهم .

٢ ـ التكبر بالعمل والعبادة فيظن أن مقامه أعظم عند ربه وأن الناس هالكون وهو الناجي .

٣ ـ التكبر بالحسب والنسب واحتقار من ليس له ذلك النسب .

٤ ـ التفاخر بالجمال وأكثر ما يجري ذلك بين النساء .

٥ ـ التكبر بالمال فيتعالى على الفقراء والمساكين ويحتقرهم .

٦ ـ التكبر بالقوة وشدة البطش .

٧ ـ التكبر بالأتباع والأنصار والأقارب .

وقد ورد التحذير من التكبر في مواضع كثيرة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن ا لله لا يحب كل مختال فخور** ﴾[3] .

ومعنى ﴿ **لا تصعر خدك** ﴾ أي : لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم واستكباراً عليهم ، ولكن ألِن جانبك وابسط وجهك إليهم[4] .

ومن الأحاديث ما رواه مسلم عن عبد ا لله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

---

(١) تلبيس إبليس – للإمام ابن الجوزي – ص / ١٤١-١٤٢ .

(٢) ينظر : إحياء علوم الدين – ٣/٣٣٦-٣٥٨ .

(٣) سورة لقمان / آية ١٨ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣/٤٤٦ ، وأصل الصَّعَر داء يأتي للبعير فيلوي منه عنقه ويميله ، فشبه من يلوي عنقه تكبراً على الناس بذلك المرض الذي يصيب الإبل ، ينظر لسان العرب – ٤/٤٥٦ .

(لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ، قال : إن ا لله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس)[١] .

وفي هذا الحديث تخويف للنفس من الاستجابة لدواعي الكبر ، وبيان دقيق لحقيقة الكبر المذموم ، وأنه ليس في الشكل واللباس وإنما هو فيما يستقر في القلب من احتقار للآخرين وإعراض عن قبول الحق ، فقوله ﷺ : " الكبر بطر الحق " اي دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً ، وأما " غمط الناس " فهو احتقارهم[٢] .

وينشأ من هذا التكبر والاحتقار للناس تتبع عوراتهم والبحث عن أخطائهم وهفواتهم مع ستر محاسنهم مهما كانت كثيرة .

وقد أشار الإمام ابن القيم رحمه ا لله إلى هذه الآفة فقال : (وهذا كثير بين الناس ، يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوئ فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه ، فإذا رأى سَقْطة أو كلمة عوراء وجد بغيته فجعلها فاكهته ونُقْله)[٣] .

٣ ـ الإعجاب بالنفس وحب المدح من الناس :

وهذه آفة اشد خطراً من سابقتها وأكثر تأثيراً في تدسية النفس وإنحرافها ، لأن المصاب بهذه الآفة يغتر بنفسه ، ويستبد برأيه وينسى نعمة ا لله عليه ، ويعمى عن عيوبه وأخطائه ، ولا يستمع لنصح ناصح ولا لوعظ واعظ لأنه يدَّعي لنفسه الكمال .

وقد حذر ا لله سبحانه من هذه الآفة المهلكة التي وقع فيها اليهود والنصارى حينما ادعوا أنهم أبناء ا لله وأحباؤه فردَّ ا لله عليهم قولهم وبين حقيقة افترائهم ، فقال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل ا لله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا انظر كيف يفترون على ا لله الكذب وكفى به إثماً مبيناً** ﴾[٤] .

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب تحريم الكبر - رقم / ٩١ .
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٨٩/٢ .
(٣) مدارج السالكين ٤٠٣/١ .
(٤) سورة النساء / الآيتان ٤٩-٥٠ .

كما وجه الله عباده إلى معرفة قدر النفس والتزام حدودها وعدم الاغترار بأعمالها .

فقال سبحانه : ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ﴾[1] .

فالنفس إذا تغلغل فيها حب الدنيا والتعلق بشهواتها أدى ذلك إلى تشوقها للمدح والثناء وازداد إعجاب صاحبها بها ورضاه عنها وهذا غرور قاتل وآفة مهلكة .

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : (ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه)[2].

ولذلك كانت النفس الأمارة عدوة لصاحبها فهي ـ كما قال الإمام الآجري ـ جامعة لكل بلاء تظهر لك الزهد وهي راغبة ، وتفرح بحسن ثناء من جهلها بالباطل ، ويثقل عليها من ذمّها بالحق نصحاً منه[3] .

وسبب ذلك شهوة حب النفس وحب الجاه وما ينتج عنهما من تطلع للظهور وكسب رضاء الناس وانتظار المدح منهم .

وفي ذلك يقول الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله : (ومن هذا الباب ايضاً أن يحب ذو الشرف والولاية أن يُحمد على أفعاله ويثنى عليه بها ، ويطلب من الناس ذلك ، ويتسبب في أذى من لا يجيبه إليه .. وهذا يدخل في قوله تعالى : ﴿ **لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم** ﴾[4] ، فإن هذه الآية إنما أنزلت فيمن هذه صفاته)[5] .

ولقد اتسعت دائرة الإصابة بمرض الغرور والرضى عن النفس ، ولم يعد ذلك قاصراً على عوام الناس بل تسرب إلى قلوب بعض الدعاة وطلاب العلم ، فتجد أحدهم دائم الانتقاد للآخرين وازدراء لجهودهم في الدعوة ، ولا يقبل أيَّ نصح يوجَّه إليه ، لأنه معجب

---

(١) سورة النجم / من الآية ٣٢ .

(٢) رواه الترمذي ـ رقم/ ٢٠٦٠ وغيره ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ـ رقم/ ١٨٠٢

(٣) ينظر : أدب النفوس للإمام الآجري – ص / ٢٣ .

(٤) سورة آل عمران / آية ١٨٨ .

(٥) شرح حديث ما ذئبان جائعان ، ص / ٣١ .

بأقواله وأفعاله مغرور بها .

ولعل السبب في ذلك ـ كما يقول الدكتور السيد محمد نوح ـ الصدارة للعمل الدعوي قبل النضج فإن ظروف العمل الإسلامي قد تفرض أن يتصدر بعض الدعاة للعمل قبل أن يستوي عودهم وقبل أن تكتمل شخصيتهم ، وحينئذ يلقي الشيطان في قلوبهم أنهم ما تصدروا للعمل وما وضعوا في هذا الموضع إلا لما يحملون من مؤهلات وما لديهم من مواهب وإمكانات ، فتنطلي عليهم هذه المكيدة الشيطانية لقلة علمهم فيصابون بالغرور والعُجب ، يضاف إلى ذلك ما يرونه من مبالغة الآخرين في توقيرهم والافراط في مدحهم والثناء عليهم[1] .

ولا شك أن هذا العجب يحرم الدعاة من التوفيق الإلهي الذي يرجونه لدعوتهم ، ويضعف ثبات نفوسهم عند الشدائد ، ويؤدي إلى نفور الآخرين منهم وبغضهم لهم .

ولو أنهم بادروا إلى معالجة آفات نفوسهم والمبادرة إلى تزكيتها لتخلصوا من هذه الأخطار ، ولكن هؤلاء شغلوا بدعوة الآخرين وتهاونوا في دعوة أنفسهم .

فالحذر الحذر من أن يصاب الداعية بهذه الآفة المهلكة ، فيعجب بثناء الناس عليه وإطرائهم له حتى ينسى نفسه ، ويغفل عن ذكر ربه فيزداد غياً على غي ، ويقسو قلبه حتى يُطبع عليه ، وهو يظن أنه يحسن صنعاً .

ولذلك ورد النهي الشديد عن مدح الإنسان في وجهه وإطرائه بما قد يؤدي إلى الغرور والاعجاب بالنفس .

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : (سمع النبي ﷺ رجلاً يثني على رجل ويطريه في المدحة ، فقال : لقد أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل)[2] .

وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : مَدَح رجل رجلاً عند النبي ﷺ فقال :

---

(١) ينظر : آفات على الطريق – للدكتور : السيد محمد نوع – ١٢٣/١ .

(٢) رواه البخاري – كتاب الأدب – باب من يكره من التمادح – ٨٧/٧ .

ورواه مسلم – كتاب الزهد – باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح ، رقم / ٣٠٠١ .

(ويحك قطعت عنق صاحبك ، قطعت عنق صاحبك ، مراراً ، إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل : أحسب فلاناً ، والله حسيبه ، ولا أزكي على الله أحداً)[1] .

وفي هذا إشارة إلى هلاك الممدوح في دينه لما قد يناله من الغرور والعجب وأما ما ورد من أحاديث أخرى تدل على المدح في الوجه فقد ذكر العلماء أن طريقة الجمع بينها أن النهي محمول على المجازفة في المدح والزيادة في الأوصاف ، أو على من يخاف عليه فتنة من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح ، وأما من لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه ورسوخ علمه ومعرفته فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة ، بل إن كان يحصل بذلك مصلحة كنشاطه للخير والازدياد منه أو الدوام عليه أو الاقتداء به كان مستحباً[2] .

٤ ـ الأنانية والشح والحسد :

من أبرز نتائج الانحراف في شهوة حب النفس وحب الجاه أن يتملك الإنسان الأنانية والأثرة ويصاب بالشح والطمع فيما عند الآخرين وحسدهم على ما أنعم الله عليهم .

وقد عرف الإمام ابن رجب الحنبلي الشح فقال : (هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلّها ويمنعها حقوقها وحقيقة أن تتشوف النفس إلى ما حرَّم الله ومَنع منه ، وألا يقنع الإنسان بما أهله الله له)[3] .

فليس الشح البخل بالمال فحسب بل هو حرص النفس على جلب ما تستطيع من الخير لها دون حدود ولا وازع واهتمام المرء بنفسه على حساب مصالح الآخرين وحقوقهم .

وأما الحسد فهو تمني زوال النعمة عن صاحبها سواء كانت نعمة دين أو دنيا[4] .

قال تعالى : ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله** ﴾[5] .

---

(١) البخاري ٨٧/٧ ، ومسلم رقم / ٣٠٠٠ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢٦/١٨ ، وينظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٧٦/١٠-٤٧٩ .

(٣) شرح حديث ما ذئبان جائعان – ص / ١٨ .

(٤) رياض الصالحين ص / ٤٦٦ .

(٥) سورة النساء / من الآية ٥٤ .

وقد حذر النبي ﷺ من هذه الآفة التي تورث الشحناء والبغضاء والقطيعة .

روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : " لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً)[1] .

٥ ـ كثرة الغضب :

الغضب انفعال غريزي يؤدي وظيفة مهمة حيث يساعد الإنسان على مواجهة الصعاب والتغلب على العقبات ، ولكن أساليب التعبير عن الغضب تختلف من إنسان لآخر ، وكثيراً ما يؤدي الأمر إلى طغيان في هذا الإنفعال وتجاوزه للحد حتى تتعطل قدرة المرء على التفكير السليم وتصدر منه بعض الأفعال والأقوال التي قد يندم عليها بعد ذلك[2] .

وقد بين العلماء الصلة بين الغضب المذموم وشهوة حب النفس ، فقال الإمام شهاب الدين البرنسي : " أصل الغضب رؤية النفس ، ودواؤه النظر في مقبِّحاته فكراً ونقلاً)[3] .

ولذلك لابد من المبادرة لمعالجة ثورة الغضب وكظم الغيظ والبعد عن الانتقام للنفس حتى لا تزداد كبراً وعُجباً .

وقد أثنى الله سبحانه على عباده الذين يتحكمون بأنفسهم عند الغضب ، فقال تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾[4] .

كما بين الرسول ﷺ أن قوة النفس ليست بالبطش وإنما هي بالتحكم بها والأخذ بزمامها ، وذلك ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[5] .

---

(١) رواه البخاري – كتاب الأدب – باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر – ٧/٨٨ .
ومسلم – كتاب البر والصلة والأدب – باب تحريم التحاسد – رقم / ٢٥٥٩ .

(٢) ينظر : القرآن وعلم النفس – للدكتور محمد عثمان نجاتي – ص / ٧٢ .

(٣) النصحية الكافية – للإمام شهاب الدين أحمد زرّوق – ص / ١٠٨ .

(٤) سورة آل عمران / من الآية ١٣٤ .

(٥) البخاري – كتاب الأدب – باب الحذر من الغضب – ٧/٩٩ ، ومسلم – كتاب البر والصلة والأدب باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ، رقم / ٢٦٠٩ ، والصُّرَعَة هو الذي يصرع الناس ويغلبهم .

ومما يدل على عظم مفسدة الغضب للنفس وما ينشأ عنه من أخطار ، أن الرسول ﷺ جعل من التحذير منه الوصية التي أوصى بها أحد صحابته رضي الله عنهم وكررها عليه مراراً روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ : (أوصني قال : لا تغضب ، فردد مراراً ، قال : لا تغضب)[1] .

ومعنى قوله ﷺ : " لا تغضب " أي : اجتنب أسباب الغضب ولا تتعرض لما يجلبه ، وأما نفس الغضب فلا يتأتى النهي عنه لأنه أمر طبيعي في الجبلّة[2] .

كما أوضح الإمام ابن حجر العسقلاني خطورة الغضب وتحريكه لكوامن الأمراض النفسية فقال رحمه الله : (إن أعظم ما ينشأ عنه الغضب الكبر ، لكونه يقع عند مخالفة أمر يريده فيحمله الكبر على الغضب ، فالذي يتواضع حتى تذهب عنه عزة النفس يسلم من شر الغضب)[3] .

ثم قال : (وأما في الباطن فقبحه أشد من الظاهر ، لأنه يولد الحقد في القلب والحسد وإضمار السوء على اختلاف أنواعه .. وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش الذي يستحي منه العاقل ويندم قائله عند سكون الغضب .. ومن تأمل هذه المفاسد عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة من قوله ﷺ : " لا تغضب " من الحكمة واستجلاب المصلحة في درء المفسدة مما يتعذر احصاؤه والوقوف على نهايته)[4] .

ولا شك أن هذا كله في الغضب الدنيوي المذموم أما الغضب الديني إذا انتهكت حرمة من حرمات الله فهو محمود .

يقول الإمام ابن تيمية : (طالب الرئاسة ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمة وإن كانت باطلاً وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه وإن كانت حقاً ، والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه ، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه)[5] .

وقد أرشدت الأحاديث النبوية إلى علاج ثورة الغضب بأن يسارع العبد إلى دفعه

---

(١) البخاري - كتاب الأدب ٩٩/٧ .

(٢-٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٥٢٠/١٠ .

(٥) مجموع الفتاوى ٥٩٩/١٠-٦٠٠ .

بالاستعاذة والوضوء والأخذ بالحلم ولزوم السكينة ونحو ذلك[1] .

٦ ـ الذلّ والمداهنة :

لا شك أن من يحرص على بلوغ الجاه عند أهل الدنيا ، ويجعل من ذلك شغله الشاغل فإنه سيبذل لهم من دينه وكرامته لكي ينال ما يطمح إليه ، ويذل لهم ليكسب رضاهم .

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله : (وكذلك طالب الرياسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم ، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم .. فهو في الظاهر رئيس مطاع ، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم)[2] .

وهكذا تظهر بجلاء الأخطار العظيمة والآفات المهلكة التي تنتج من طغيان شهوتي حب النفس وحب الجاه حتى يصبح الإنسان عبداً لهواه ، فيجازى بذلّ الدنيا وهوانها ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

---

(١) ينظر مثلاً ما أورده الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب ٣/٤٤٥-٤٥٣ .
وما أورده الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح ٣/١٤١٣-١٤١٦ .

(٢) العبودية – للإمام ابن تيمية ص /٤٨-٤٩ .

ثانياً شهوة حب المال

حب المال والتملك غريزة فطرية عند الإنسان ، وهو مرتبط بشهوة حب النفس لأن المال يتوصل به إلى أغراض النفس والحصول على مشتهياتها ولذلك تعلقت به كثيراً ، وكلما ازادت شهوة حب النفس ازدادت شهوة حب المال .

قال تعالى : ﴿ **وتحبون المال حباً جماً** ﴾[1] . وقال عز وجل : ﴿ **وإنه لحب الخير لشديد** ﴾[2] .

ووصف المال هنا بأنه خير دليل على أن حب المال قد يكون فضيلة إذا جُمع من حلّه وأدى حق الله فيه وأنفق منه في وجوه الخير والطاعة وإعفاف النفس عن التذلل للآخرين والمسابقة إلى العمل الصالح .

ومصداق ذلك ما رواه الإمام أحمد والطبراني عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (نعم المال الصالح للرجل الصالح)[3] .

كما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)[4] .

ولكن شهوة حب المال فتنة قلَّ من يصبر عليها ويسلم من آفاتها ، لأنها كثيراً ما تجاوز حدها وتطغى حتى تسيطر على قلب صاحبها .

ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم**

---

(١) سورة الفجر /آية ٢٠ .

(٢) سورة العاديات / آية ٨ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٠٢/٤ ، والإمام البخاري في الأدب المفرد رقم / ٢٩٩ ، وصححه الحافظ العراقي في تخريجه على الإحياء ٢٣٤/٣ .

(٤) البخاري - كتاب فضائل القرآن - باب اغتباط صاحب القرآن ١٠٨/٦ ومسلم - كتاب صلاة المسافرين باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه - رقم ٨١٦ ، واللفظ له ، ومعنى فسلطه على هلكته في الحق أي أنفقه في الطاعات ،والحسد هنا بمعنى الغبطة .

فاتقوا ا لله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[١] .

فا لله سبحانه جعل ما يمنحه لعباده من أموال فتنة لهم واختباراً لقلوبهم وأمر بتسخيرها في طاعته وبذلها في وجوه الخير، فإن فعلوا ذلك فهو خير لأنفسهم ، وإن لم يفعلوا كان شراً عليهم في الدنيا والآخرة[٢] .

والواقع أن شهوة حب المال مزلق خطر،كثيراً ما تجرف صاحبها حتى يجاوز الحد ويبغي في الأرض ويستغرق في الطمع والجشع والتعدي على الآخرين .

قال تعالى : **﴿ ولو بسط ا لله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزِّل بقدرٍ ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾**[٣] .

وقد تحدث الإمام الغزالي عن شهوة حب المال فقال : (إنه خير من وجه وشرّ من وجه، وإنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر ، فإنه ليس بخير محض ولا شر محض ، بل هو سبب للأمرين جميعاً .. والبصير المميز يدرك أن المحمود منه غير المذموم)[٤] .

ولهذا لابد من الحذر ليسلم المسلم من تلسط شهوة حب المال عليه ، وتغلغلها إلى أعماق قلبه حتى تملك عليه فكرهُ ، وتصبح غاية وهدفاً يستغرق كل وقته وجهده للظفر بها فيتوسع في المباحات أولاً ثم يقتحم الشبهات ثم يقع في الحرام ، ويتمادى فيه دون تردد بسبب طغيان هذه الشهوة وسيطرتها عليه ، فيمرض قلبه وتُظلم نفسه ويحل به الهلاك ، ويقع في نتائج سوء عمله ، ومن أبرز هذه النتائج ما سأعرض له في الفقرة التالية إن شاء ا لله :

---

(١) سورة التغابن / الآيتان ١٥-١٦ .

(٢) ينظر : تفسير ابن كثير ٣٧٧/٤ .

(٣) سورة الشورى / آية ٢٧ .

(٤) إحياء علوم الدين ٢٣٤/٣ .

نتائج طغيان شهوة حب المال :

١ ـ الصدُّ عن طاعة الله والوقوع في المعاصي .

إذا تحول حب المال من وسيلة إلى غاية ودخل ذلك الحب إلى أعماق القلب فإنه سيضعف جذوة الإيمان ويخرج من قلب المؤمن ما كان يملؤه من حب الله ورسوله ليحل محله حب الدنيا والتعلق بها ، والحرص على شهواتها وأهوائها ، حتى تفتر همة المرء عن الطاعات ويتقاعس في أدائها ولا يجد في قلبه محبة لها ، ثم يتناقص الإيمان بمقدار ما يزيد من تسلط شهوة حب المال حتى يترك العبد الطاعات وينغمس في المعاصي .

ومن ذلك مثلاً أنه يتهاون في الصلاة انشغالاً بجمع المال والعمل لدنياه ، ويتقاعس عن أداء الزكاة ظناً منه أنها تنقص ماله ولا يبذل في أي وجه من وجوه الخير شحاً وبخلاً ، ويزداد جشعه يوماً بعد يوم فيقع في الكبائر الموبقة ومنها الربا الذي حذّر الله سبحانه منه أشد التحذير ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأْذَنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون** ﴾[1] .

وقد حفلت آيات القرآن الكريم بعدد من القصص والمشاهد التي تبين خطر طغيان شهوة حب المال وآثارها السيئة على حياة الفرد وما أنزله الله سبحانه من عقوبات رادعة لهذا الطغيان .

ومن ذلك **مثلاً قصة أصحاب الجنة** في سوة القلم[2] ، فقد أقسموا أن يحرموا الفقير حقه منها وتواعدوا أن يجنوا الثمر في الصباح الباكر حتى لا يعلم بهم الفقراء ، فكانت العقوبة كما قال تعالى : ﴿ **فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم** ﴾[3] ، سوداء يابسة ولقد أيقظت هذه العقوبة الدنيوية فطرتهم وعرّفتهم بضلالهم

---

(١) سورة البقرة / الآيتان ٢٧٨-٢٧٩ .

(٢) سورة القلم / الآيتان ١٧-٣٣ .

(٣) سورة القلم الآيتان ١٩-٢٠ .

وطغيانهم فما كان منهم إلا الحسرة والندامة : ﴿ **فلا رأوها قالوا إنا لضآلون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين** ﴾[1] .

وفي ختام القصة يذكرّ الله سبحانه الغافلين عن طاعته المتعلقين بشهواتهم بأن العذاب في الآخرة أشد وأبقى من هذا العذاب الدنيوي الذيب حل بهؤلاء : ﴿ **كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** ﴾[2] .

ولا يقف طغيان شهوة حب المال عند حد ارتكاب المعاصي ، بل قد يتجاوزه إلى كفر النعمة وجحودها وإنكار الدار الآخرة ، وذلك عندما تستحوذ هذه الشهوة على القلب كلية فلا يبقى فيه موضع اي موضع لذرّة من الإيمان .

ـ **ومثال ذلك قصة صاحب الجنتين** التي وردت في سورة الكهف ، فقد طغى ذلك الرجل وأعلن كفره مفتخراً بماله متباهياً بسلطانه .

قال تعالى مخبراً عنه : ﴿ **ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً** ﴾[3] .

فكان النتيجة : ﴿ **وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول ياليتني لم اشرك بربي أحداً** ﴾[4] .

ـ **ومقال آخر وهو قصة قارون** الذي آتاه الله من الكنوز ما تنوء بحمل مفاتحها أقوياء الرجال فلم يشكر المنعم وإنما جحد وتكبر وأفسد في الأرض حتى خسف الله به وبداره الأرض التي أفسد عليها : ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون وَيْكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا وَيْكأنه لا يفلح الكافرون** ﴾[5].

---

(١) سورة القلم / الآيتان ٢٦-٢٩ .

(٢) سورة القلم / آية ٣٣.

(٣) سورة الكهف / الآيتان ٣٥-٣٦ .

(٤) سورة الكهف / آية ٤٢ .

(٥) سورة القصص / الآيتان ٨١-٨٢ .

فقد ازداد بغي قارون وطغيانه ولم يبق في قلبه موضع تؤثّر فيه نصيحة الآخرين وتحذيرهم له وقال قوله المغرور الذي حكاه القرآن عنه : ﴿ **إنما أوتيته على علم عندي** ﴾ وخرج يتباهى بأمواله وزينته ليكسر قلوب الفقراء ويملأها حسرة وأسى ، ولكن هذا الطغيان تهاوى في لحظات حينما هوى في باطن الأرض ضعيفاً عاجزاً ، وكُشف القناع عن قلوب المتحسرين الغافلين[1] .

٢ ـ الشح والطمع :

وهو من الآفات المهلكة التي يصاب بها المتعلقون بشهوة حب المال الشح والبخل والحرص الشديد على ذلك المال والطمع فيما عند الآخرين ، وما يتبع ذلك من ظلم وعدوان وإيذاء للناس وحسد وغل وحقد وافتراء بالباطل ونحو ذلك من الآثام .

وقد عرّف العلماء الشح بأنه : (الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حِلها ويمنعها حقوقها ، وحقيقته أن تتشوّف النفس إلى ما حرم الله ومنع منه وأن لا يقنع الإنسان بما أحله الله له)[2] .

فالشح يأمر بالقطيعة والفجور والبخل والظلم والعدوان ولذلك عدّه بعض العلماء رأس المعاصي لأنه ينافي حقيقة الإيمان[3] .

وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : (لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً)[4] .

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن ٥/٢٧١٠-٢٧١١٣ .

(٢) شرح حديث : ماذئبان جائعان -للإمام ابن رجب الحنبلي -ص /١٨ .

(٣) المرجع السابق – ص / ١٨ .

(٤) رواه الإمام أحمد ٢/٢٥٦،٣٤٣،٤٤١، والنسائي ٦/١١٣ ، وغيرهما ، وإسناده حسن كما بينه محقق رسالة " شرح حديث ماذئبان " الاستاذ بدر البدر – ص/١٩ .

واستحلوا محارمهم)[1] .

فقد أدى الشح بالأقوام السابقة إلى أن قتل بعضهم بعضاً واستحلوا ما حرّم ا لله عليهم، فاستحقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة .

ولا شك أن شهوة حب المال إذا طغت فإنها لا تقف عند حد معين ، فكلما تحقق لصاحلها ما يطمع فيه طلبت المزيد وازداد طمعه وشحه وظلمه وعدوانه .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول ا لله ﷺ قال : (لو أن لابن آدم واديا من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان ، ولن يملأ فاهُ إلا التراب ويتوب ا لله على من تاب) .

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال سمعت رسول ا لله ﷺ يقول : (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً)[2] .

وفي هذا الحديث إشارة إلى أن المتعلق بشهوة المال لا يزال حريصاً على جمعه وكنزة حتى يموت ويمتلى جوفه من تراب قبره ، كما أن فيه تذكيراً بضرورة التوبة من هذا الحرص المذموم[3] .

والعلاج الحاسم الذي يقطع دابر هذا المرض الفتاك هو أن يستشعر المسلم ساعة الموت وأهوال يوم القيامة ويدرك قيمة هذا المال ومبلغ انتفاعه به والأجر العظيم في انفاقه .

وقد أرشدت آيات القرآن الكريم إلى هذه احقيقة في مناسبات عدة ، منها قوله تعالى : **﴿ فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسره للعسرى ، وما يغني عنه ماله إذا تردّى ﴾**[4] .

كما أن هذا العلاج هو الذي أشار إليه النبي ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عن عبد ا لله بن الشّخّير رضي الله عنه أنه قال : أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ : **﴿ ألهاكم التكاثر ﴾** قال :

---

(١) رواه مسلم- كتاب البر والصلة والآدب - باب تحريم الظلم -رقم /٢٥٧٨ .

(٢) رواه البخاري - كتاب الرقاق - باب ما يتقى من فتنة المال - ١٧٥/٧ . ومسلم - كتاب الزكاة - باب كراهة الحرص على الدنيا - رقم /١٠٤٨، ١٠٤٩ ، واللفظ للبخاري .

(٣) ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم ١٣٩/٧ .

(٤) سورة الليل / الآيات ٥-١١ .

(يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبستَ فأبليت ، أو تصدَّقت فأمضيت)[1] .

وفي رواية : (وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس)[2] .

وقد وصل الأمر ببعض الناس - كما يقول الإمام الغزالي - أنهم أسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم في جمع المال وكنزه ، ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شحاً وبخلاً ، ظناً منهم أن السعادة في كثرة المال ، فهم على هذه الحالة حتى يدركهم الموت فتبقى كنوزهم مخبوءة ، قد تعبوا في جمعها وحُرموا من التمتع بها وذهبت لغيرهم دون عناء ، فينال جامعها تعب الدنيا وحرمانها وحساب الآخرة وعذابها[3] .

ولا يمكن لعاقل أن يصل إلى هذا المستوى من الإضرار بنفسه لولا تغلب الشهوة والهوى وتسلط الشياطين ووساوسها .

وصدق الله سبحانه القائل : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم** ﴾[4] .

ولذلك كان علاج النفس من آفة الشح هو الذي يحقق لها السعادة والفلاح .

قال تعالى : ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[5] .

٣ - الخوف والهلع :

الدافع النفسي للحرص على جمع المال والتعلق به هو تحقيق السعادة والراحة والطمأنينة كما يتوهم أهل الدنيا ، ولذلك تجدهم لا يبالون بتعب الجسد لما يرجونه من راحة النفس وسعادتها ، والله سبحانه جعل الجزاء من جنس العمل ، ولذلك كانت عقوبة هؤلاء في

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الزهد - رقم /٢٩٥٨ .

(٢) مسلم - رقم /٢٩٥٩.

(٣) ينظر : إحياء علوم الدين ٣/٢٢٩.

(٤) سورة البقرة / آية ٢٦٨ .

(٥) سورة التغابن / من الآية ١٦- وسورة الحشر / من الآية ٩ .

الدنيا الشقاء والقلق والاضطراب والخوف والهلع ، لأنهم ضلوا طريق سعادة النفس وأصروا على هذا الضلال .

وأبلغ ما يوصف به هؤلاء الذين استحكمت فيهم شهوة حب المال هو قول ا لله عز وجل : **﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسَّه الشر جزوعاً وإذا مسَّه الخير منوعاً إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾**[1] .

فقد أخبر ا لله سبحانه في هذه الآيات الكريمة عن حالة الإنسان البعيد عن طريق الحق ، وما تتصف به نفسه من صفات الذم .

والهلع ـ كما قال الامام ابن عطية ـ (فزع واضطراب يعتري الإنسان عند المخاوف وعند المطامع)[2]، فإذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير ، وإن حصلت له نعمة بخل بها ومنع حق ا لله فيها[3] .

ولو جاهد ذلك الإنسان نفسه على طاعة ا لله سبحانه والتزام أوامره واجتناب نواهيه لتطهرت تلك النفس من الهلع ، وقنعت بما قسم ا لله لها من رزق وسارعت إلى شكره تعالى راضية مطمئنة موقنة بقضاء ا لله وقدره ، وهي تردد قوله عز وجل : **﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على ا لله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم وا لله لا يحب كل مختال فخور ﴾**[4] .

فا لله سبحانه يربي نفوس عباده على التسليم لقضائه وقدره ، ليعلموا أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم ، فلا يتحسروا على ما فاتهم ولا يفخروا على الناس بما أنعم ا لله به عليهم لأن ذلك رزق قدَّره ا لله لهم ومنحه إياهم ، فليجعلوا فرحهم بالنعمة شكراً وحزنهم على ذهابها صبراً[5] .

---

(١) سورة المعارج / الآيات ١٩-٢٥.
(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – للإمام ابن عطية الإندلسي ٩٧/١٥.
(٣) ينظر : تفسير ابن كثير ٤٢١/٤ ، وتفسير القرطبي ٢٨٩/١٨ .
(٤) سورة الحديد / الآيتان ٢٢/٢٣ .
(٥) ينظر : تفسير ابن كثير ٣١٤/٤ .

والواقع أن فرح المتعلقين بحب المال فرح وهمي ظاهري لأنه مشوب بالخوف والقلق من خسارة هذا المال أو هلاكه أو تعرضه للنقص ، فهم في اضطراب دائم مهما تدفقت عليهم الأموال فلا يقر لهم قرار .

وقد جاء بيان هذه الحقيقة في أحاديث نبوية كثيرة ، منها :

- ما رواه ابن ماجه في سننه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من كانت الدنيا همّه فرّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له ، ومن كانت الآخرة نيّتهُ جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة)[١] .

- وروى البخاري عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : (إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى)[٢] .

- وروى البخاري أيضاً عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ، إن أُعطي رضي وإن لم يُعطَ سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش)[٣] .

وفي هذه الأحاديث النبوية تصوير دقيق لحالة البؤس والتعاسة والقلق التي يحياها المتعلقون بحب الدنيا وأموالها ومن طغت عندهم شهوة حب المال حتى صاروا لا يعرفون إلا الحياة المادية فاستعبدتهم المطامع ولعبت بهم الأهواء ، فهم عبيد للدرهم والدينار والملابس التي يتفارون بها على الناس ، ولن ينتهي جشعهم عند حد لأن الله سبحانه عاقبهم في هذه الدنيا بأن جعل خوف الفقر بين أعينهم وحرمهم من بركة الرزق الحلال وقوله ﷺ : " تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش " دعاء على من كان مِن هؤلاء بالخيبة والشقاء ومعاودة

---

(١) سنن ابن ماجه . ورواته ثقات كما قال المنذري في الترغيب والترهيب ١٢١١/٤ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب الرقاق - باب هذا المال حلوة خضرة -١٧٦/٧ .

(٣) صحيح البخاري - كتاب الجهاد - باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ٢٢٣/٣ .وكتاب الرقاق - باب ما يتقي من فتنة المال -١٧٥/٧ .

التعاسة له حتى لا يبرأ من علتها ، وأبعد مدى لهذه التعاسة أنه إذا أصابته الشوكة لا يستطيع انتزاعها ولا يبرأ من ألمها الهين ، فمن باب أولى ألا يبرأ من الآلام الجِسام[١] ، فهو في شقاء لا ينقطع وخوف لا يهدأ .

ومن كانت هذه صفته استجمعت نفسه كل صفات الشر وأصبح متكالباً على الدنيا لا يشبع منها فاستحق البغض من الله سبحانه .

وهذا ما بينه الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله يبغض كل جعظري جواظ ، سخاب في الاسواق ، جيفة بالليل حمار بالنهار ، عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة)[٢] .

والجعظري هو الفظ الغليظ المتكبر ، والجواظ : الجموع المنوع ، فهو لحرصه الشديد على جمع المال يكثر الضجيج والخصام في الأسواق ويُهلك نفسه ويرهق جسده ليظفر بأكبر قدر ممكن من المال ، فإذا عاد إلى بيته ارتمى على فراشه كالجيفة لا حراك له من كثرة التعب وإذا أصبح النهار صار كالحمار في الكدح والتحمل ، كما أنه شديد الحرص على تعلم كل ما يزيد له الأرباح من أمور الدنيا وأما الآخرة فلا يفكر فيها ولا يعمل لها .

وفي تشبيه الرسول ﷺ لهذا المتكالب على الدنيا بأنه كالحمار لفتة مهمة وهي أنه مهما عمل وتعب فلن ينال من تعبه إلا ما يملأ بطنه من طعام كالعلف الذي يقدم للحمار بعد عمل طويل شاق ، وستذهب نتيجة هذا التعب إلى غيره بعد موته ليكون وبالاً عليه يوم القيامة .

وصدق الشاعر حين قال :

أبنيَّ إن من الرجال بهيمة ... في صورة الرجل السميع المبصر
فَطِنٌ بكل مصيبة في ماله ... فإذا أصيب بدينه لم يشعر

---

(١) ينظر : من روائع البيان النبوي - للدكتور مصطفى عبد الواحد - ص/١٢٥-١٣١ .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان رقم ١٩٥٧)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم /١٩٥-١/٣٣١ .

ولذلك كان من أوجب الواجبات على المسلم أن يداوي ما يجده في نفسه من مرض التعلق بالمال والركون إلى الدنيا والشغف بها ، وأن يعلم أن هذا المال عَرَض زائل وعارية مستردَّة ، وأن التنافس من أجله طريق الهلاك .

روى البخاري ومسلم عن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (فوا لله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تُبسط الدنيا عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم) .

وفي رواية للبخاري : (وتلهيكم كما ألهتهم)[1] .

وبعد هذه الإلماحة السريعة في ثنايا الموضوع لما ينبغي اتخاذه من علاج لمداواة طغيان شهوة حب المال سنعود للحديث عن العلاج بشيء من التفصيل بعد إكمال تشخيص أمراض الشهوات وبيان أخطارها ، ولذلك ننتقل إلى الحديث عن شهوة البطن وما ينتج عنها من أمراض وانحرافات .

---

(١) رواه البخاري - كتاب الرقاق - باب ما يُحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها - ١٧٢/٧ .ومسلم - كتاب الزهد _ رقم /٢٩٦١ .واللفظ له .

ثالثاً : شهوة البطن

شهوة البطن لا يستغني عنها بشر ، ولا ينفك منها صغير ولا كبير ، لأن حاجة الإنسان إلى الطعام والشراب أساسية لابد منها وبها قوام حياته ، ولو حُرم منها لم تدم له حياة وتلك صفة ملازمة لكل إنسان حتى الأنبياء والرسل .

قال تعالى مبيناً اتصاف الرسل بما يتصف به سائر البشر من تناول الطعام : ﴿ **وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين** ﴾[1] .

وقال عز وجل : ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم** ﴾[2] ، كما وجَّه ربنا الخطاب لعباده بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون** ﴾[3] .

فالله سبحانه قد أباح لعباده الطيبات ورغبهم فيها لتكون عوناً لهم على طاعة ربهم وتقويه أبدانهم على القيام بالعمل الصالح ، وهذا ما يظهر جلياً من سياق الآية السابقة .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله : " يأمر الله تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحرام والقيام بالصالح من الأعمال فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح "[4] .

ولذلك كان الطعام والشراب من النعم التي ينبغي للعبد أن يسارع إلى شكرها ويعرف قدرها لينال رضاء ربه سبحانه .

فقد روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها)[5] .

---

(١) سورة الأنبياء / آية ٥١ .

(٢) سورة المؤمنين / آية ٥١ .

(٣) سورة البقرة / آية ١٧٢.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/٢٤٦ .

(٥) صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب استحباب حمد الله بعد الأكل والشرب - رقم /٢٧٣٤ .

ولكن شهوة البطن كثيراً ما تسيطر على صاحبها فتتحول من وسيلة للتقوى على الطاعة إلى هدف قائم بذاته يسعى الإنسان لنيله بكل طاقة ، حتى يصبح أسيراً لهوى نفسه ووساوس شيطانه .

ولذلك حذر ربنا سبحانه من اتباع وساوس الشيطان ومطائده التي تؤدي إلى طغيان شهوة البطن وعدم الاكتفاء بالحلال ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾[1] .

كما أرشد سبحانه إلى الاعتدال في الطعام والشراب لئلا يؤدي ذلك إلى تسلط شهوة البطن وانحرافها .

قال تعالى : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾[2] .

فالأمارة الأولى التي تدل على تلسط شهوة البطن أن يكثر صاحبها من الطعام والشراب فوق الحاجه ، ويبالغ في الشبع ويفرط فيه .

وقد أشار النبي ﷺ إلى أخطار هذا الإسراف وضرره على الجسد والنفس ، وذلك فيما رواه الترمذي عن مقدام بن معدي كرب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يُقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه)[3] .

وفي هذا الحديث النبوي بيان للمنهج السوي الذي ينبغي التمسك به في الإقلال من الطعام والشراب وعدم الإسراف في شهوة البطن ، لأن هذا الإسراف يؤدي إلى الشر الكبير ، وليس المقصود بالشر هنا ما يتعلق بأمراض المعدة ، فحسب وإنما المقصود أيضاً الشر الذي يصيب النفس حينما تعتاد الشرهَ في الطعام والشراب وشدة التعلق بهما فيتحول الطعام من

---

(١) سورة البقرة / آية ١٦٨ .

(٢) سورة الأعراف / من الآية ٣١ .

(٣) رواه الترمذي – كتاب الزهد – باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل – رقم /٢٣٨٠ ، وقال حديث حسن صحيح ورواه الإملم أحمد في مسنده ١٣٢/٤ ، وصححه الحاكم في المستدرك ١٢١/٤ ، ووافقه الذهبي .

وسيلة للغذاء وتقوية البدن إلى غاية وهدف يسعى صاحبه من أجله ويصبح ذلك السعي شغله الشاغل حتى تصبح همته مصروفة إليه ، فمهما شبعت بطنه لا تشبع نفسه ، لأن شهوة البطن أضحت عنده مقياس السعادة .

وقد تحدث الإمام الغزالي عن هذا الصنف من الناس فقال : (طائفة غلبهم الجهل والغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم ، فقالوا : المقصود أن نعيش أياماً في الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت ، ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ثم نكسب حتى نأكل ، فيأكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا)(١) .

ثم قال : (إنما جرّهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن ، ونسوا ما تُراد له هذه الأمور الثلاثة والقدر الذي يكفي منها ، وانجرت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها ، وتداعى بهم ذلك إلى مهاوٍ لم يمكنهم الرقي منها)(٢) .

فطغيان شهوة البطن لا يعني كثرة الأكل فحسب لأن كثرة الأكل عرض ظاهري لهذا المرض ، وإنما حقيقة المرض في شرَه النفس وما ديتها وتحول الطعام من وسيلة إلى غاية حتى يصبح الإنسان كالبهائم التي تسيرها شهواتها .

وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوىً لهم** ﴾(٣) .

وقد روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (الكافر يأكل في سبعة أمعاء ، والمؤمن يأكل في معي واحد)(٤) .

ومعنى هذا الحديث أن من شأن المؤمن التقلل من الأكل لاشتغاله بأسباب العباده ، ولعلمه بأن مقصود الشرع من الأكل ما يسد الجوع ويعين على العبادة ، والكافر بخلاف

(١) إحياء علوم الدين ٢٢٨/٣ .
(٢) المرجع نفسه ٢٢٩/٣ .
(٣) سورة محمد /من الآية ١٢ .
(٤) رواه البخاري – كتاب الأطعمة – باب المؤمن يأكل في معي واحد –٢٠٠/٦ . ومسلم – كتاب الأشربة – باب المؤمن يأكل في معي واحد – رقم /٢٠٦٠ .

ذلك كله لأنه تابع لشهوة نفسه مسترسل فيها غير خائف من تبعات الحرام ، وإن أكل قليلاً فليس ذلك لزهده في الدنيا وإنما لمراعاة الصحة ورياضة الجسم ، فهو لشدة حرصه على الدنيا وتمسكه بها كأنه يأكل في سبعة أمعاء ، كما تقول : فلان يأكل الدنيا أكلاً ، وأما المؤمن فإنه يأكل في معي واحد ، فالرسول ﷺ يضرب المثل في هذا الحديث للمؤمن وزهده في الدنيا وللكافر وحرصه عليها[١] .

وقد ذكر الإمام النووي رحمه الله توجيهاً آخر لهذا الحديث فقال : (قيل : المراد بالسبعة سبع صفات ، الحرص والشره ، وطول الأمل ، والطمع ، وسوء الطبع ، والحسد ، والسمن)[٢] .

فالحياة ذات وجهين أو غايتين ، غاية خسيسة يعيش عليها الذين يرون سعادتهم في لذة المطعم والملبس وكفى ، وغاية شريفة يحيى لها الفضلاء الذين تستمتع نفوسهم بالتقوى فلا يشغلهم عن إدراكها شاغل ، ولا تلتفت همتهم لأي شيء يحرمهم من بلوغ هذه المنزلة .

وقد ورد في أخبار الشعر أن الحطيئة هجا الزبرقان بن بدر رضي الله عنه فقال :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فغضب الزبرقان من هذا الهجاء، وشكا الأمر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فسأل عمر حسان بن ثابت رضي الله عنه لبيان فحش هذا الهجاء ، فأخبره حسان أن الأمر أفحش من الهجاء ، وأن أقذع الهجاء لأهون من هذا ، وإنه لدنس صبَّه عليه لا تقوم به كرامة ، فقضى عمر بحبس الشاعر[٣] .

أجل ، إنه هجاء شديد أن يُتهم المرء بأنه لا يهتم إلا بطعامه وكسائه ، وأنه لا يصلح لمعالي الأمور ، وأن همته لا تسمو إلا لتحقيق مطالب الجسد ، ولا يليق به أن يتعب نفسه لتحصيل المكارم التي تَشرُف بها النفوس !! .

---

(١) ينظر : فتح البارى شرح البخاري ٥٣٨/٩-٥٣٩ .
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٢٣/١٤ .
(٣) ينظر : تذكرة الدعاة ، للبهي الخولي ص/٢٦-٢٧ .

وإذا كان الزبرقان بن بدر رضي الله عنه قد غضب لهذا الهجاء ورفع شكايته إلى عمر رضي الله عنه، فإن هناك الكثير اليوم ممن يعدُّ هذا الكلام مفخرة يفخر بها ويدعو لها في خضم المادية المعاصرة التي طمست الفطرة وقلبت موازين الأمور ، ولسان أحدهم يقول :

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام
فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

بل إن هذه الآفة النفسية الخطيرة قد تسربت إلى عبادات بعض المسلمين فتجدهم في شهر رمضان يصرفون هممهم وأوقاتهم في تذويق أنواع المأكولات وأصناف الحلويات على مائدة الأفطار لدرجة كبيرة ، ويضيع أحدهم من أجل ذلك الساعات الطويلة بين التزاحم في الأسواق وكدح النساء في البيوت،حتى إذا حانت لحظة الإفطارانقضّ على الطعام وأطلق لشهوة البطن العنان ، حتى لا يقوى بعدها على القيام ، فأين هؤلاء من حِكم مدرسة الصيام، وآثارها في تزكية النفس وتقوية الإيمان ؟! .

وترى بعض هؤلاء يبذلون الأموال الطائلة ليملؤوا موائدهم بأصناف الأطعمة وأشكالها، فيأكلوا منها ما يمكنهم أكله ثم يُرمى الباقي مع الفضلات ، ولو طُلب من أحدهم التصدق على المحتاجين أو البذل في وجه من وجوه الخير لرأيته يتردد ويشكو فقره ويتلمس لنفسه الأعذار .

كما أن هؤلاء لا همَّ لهم في مجالسهم إلا الحديث عما يرضي شهوة بطوهم من أنواع الأطعمة وأسمائها وأخبارها وأسعارها والتباهي بها .

وترجع كل هذه المظاهر المنحرفة في المجتمع إلى طغيان شهوة البطن حتى ملكت قلوب أصحابها فأفسدت عليهم دينهم .

ولذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : (من مفسدات القلب الطعام ، والمفسد له من ذلك نوعان : أحدهما ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات . . والثاني ما يفسده بقدره وتعدي حده كالاسراف في الحلال والشبع المفرط ، فإنه يثقله عن الطاعات ، ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها حتى يظفر بها ، فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها والتأذي بثقلها ، وقوي عليه مواد الشهوة ، وطُرق مجاري الشيطان ووسعها ، فإنه يجري من ابن آدم مجري الدم ، فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه والشبع يطرقها ويوسعها ، ومن

أكل كثيراً شرب كثيراً فنام كثيراً فخسر كثيراً)[1] .

فنتائج طغيان شهوة البطن كثيرة وأخطارها جسيمة ، وهي مقاربة لما سبق بيانه من نتائج طغيان الشهوات الأخرى ، حيث إنها تقسي القلب وتظلمه ، وتحرك دواعي الشر وتوقع صاحبها في المعاصي وتجعله مضطرباً جزعاً عند المصائب منوعاً عند الرخاء ، حتى يخسر الدنيا والآخرة ولا يجني إلا الشقاء .

---

(١) مدارج السالكين ١/٤٥٨-٤٥٩ .

رابعاً : شهوة الفرج

الشهوة الجنسية غريزة جُبلت عليها النفس البشرية ، فقد جعل ا لله سبحانه هذا الميل الغريزي في كل من الرجل والمرأة لتحقيق هدف سامٍ ، وهو بقاء النوع الإنساني ، فلولا هذا الدافع الجنسي لما كان التناسل والتكاثر الذي عمر وجه الأرض جيلاً بعد جيل .

وقد حمى الإسلام هذه الشهوة من الإنحراف بما شرعه من ضوابط وأحكام .

حيث شرع الزواج وحض عليه ويسر سبله وأسبابه ليكون الطريق الشرعي لتصريف هذه الشهوة بما يحقق السعادة والسكن النفسي والطمأنينة لكلا الزوجين ، وبما يطهر النفس من أدرانها ويحفظها من الآفات ، ويرقى بها في مقامات التزكية لتبلغ درجة الإحسان ، وهذا ما سبق بيانه عند الحديث عن الزواج وأثره في تزكية النفس[(١)] .

ولكن الهوى المستحكم في بعض النفوس يصرف الإنسان عن طريق الحلال ليوقعه في الحرام ويزين له الباطل ، فيصبح العقل أسيراً لذلك الهوى منقاداً وراءه حتى يؤدي ذلك إلى طغيان الشهوة وتدسية النفس ليكون صاحبها كالبهائم .

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه ا لله : " أما مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة فمشهد الجهال ، الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان إلا في اعتدال القامة ونطق اللسان ، ليس همهم إلا مجرد نيل الشهوة بأي طريق أفضت إليها ، فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانية لم ترتق عنها إلى درجة الإنسانية فضلاً عن درجة الملائكة .. وهم في أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم على أخلاقها وطباعها "[(٢)] .

وقد سمى ا لله سبحانه الإنحراف في هذه الشهوة مرضاً فقال تعالى محذراً نساء النبي ﷺ من هؤلاء المرضى : ﴿ **يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** ﴾[(٣)] .

---

(١) ينظر :ص / ٢٨٠ من هذا البحث.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/٤٠٠.

(٣) سورة الأحزاب / آية ٣٢، وجزء من آية ٣٣.

فنهى الله سبحانه نساء النبي - والنساء عموماً من باب أولى - من ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ، كما أمرهن بأن يلزمن بيوتهن فلا يخرجن إلا لحاجة شرعية ، فإن خرجن فليحذرن من التبرج وليلتزمن الستر والحجاب صيانة لهن من الأذى ، ودرءاً لما قد يقع لمرضى القلوب من طمع بهن أو فتنة تتسرب إلى نفوسهم فتزيدها مرضاً وانحرافاً .

وبناء على ذلك يتضح أن بداية الإنحراف في هذه الشهوة سببه الأساسي مرض القلب وعدم رسوخ الإيمان فيه ، فإذا ما عرض له شيء من الفتنة مال إليها وتأثر بها فازداد مرضاً على مرض .

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله : (قوله تعالى : ﴿ **فيطمع الذي في قلبه مرض** ﴾ هو مرض الشهوة ، فإن القلب الصحيح لو تعرَّضت له المرأة لم يلتفت إليها ، بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه ، فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض)(١) .

فالقلب الذي تذوق حلاوة الإيمان لا يمكنه أن ينصاع لوساوس الشيطان أو يفتن بما يعرض له من الشهوات والمغريات ، لأن نور الإيمان إذا استقر في القلب طرد عنه الظلمات .

ومصداق ذلك قصة يوسف عليه السلام الذي ابتلى بفتنة امرأة العزيز حتى إنها غلقت الأبواب وهيأت الأسباب ولكنه كان كالطود الراسخ في ثباته ، فقال : ﴿ **معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون** ﴾(٢) .

وما أكثر القصص الواردة في السنة النبوية وسيرة الصحابة والسلف الصالح والتي تُظهر بجلاء كيف يردع الإيمان صاحبه عن الفحشاء ويقوي إرادته حتى يتحكم في هواه ويتغلب على المغريات .

ومن ذلك مثلاً قصة فضالة بن عُمير الليثي الذي أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما أُعلم الرسول ﷺ بما يريده فضالة عن طريق الوحي التفت إليه قائلاً : (فضالة ؟ ماذا كنت تُحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، فضحك النبي

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٩٥.
(٢) سورة يوسف /من الآية ٢٣.

ﷺ ثم قال : استغفرِ ا لله ، ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه فكان فضالة يقول : وا لله ما رفع يده عن صدري حتى ما مِن خلقِ ا لله شيء أحبُّ إليَّ منه قال فضالة : فرجعت إلى أهلي ، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها - أي في الجاهلية - فقالت : هلم إلى الحديث - فقلت : لا ، وانبعث فضالة يقول :

قالت : هلمَّ إلى الحديث فقلت لا   يأبى عليكِ ا لله والإسلامُ
لو ما رأيتِ محمداً وقبيلهُ   بالفتح يوم تُكسَّر الأصنامُ
لرأيت دينَ ا لله أضحى بيناً   والشرك يغشى وجهَه الإظلام(1)

وهكذا تحول فضالة من النفاق إلى الإيمان بعدما رأى المعجزة الباهرة التي كشفت نواياه السيئة ، وبعدما تيقظت فطرته للأسلوب النبوي الحكيم في معالجة هذا الجرم الخطير الذي همَّ أن يفعله ، فزالت عنه ظلمة النفاق ، وهو يستشعر هذه اللمسة الأبوية الحانية على صدره من يد الرسول ﷺ ، ومع تيقظ الفطرة يستقر الإيمان في القلب بعمق وثبات ، ويتبدل حال صاحبه سريعاً ، إذ أن عودة الشيء إلى أصله وحالته الطبيعية أمر يسيرٌ إذا تيسرت له الأسباب .

وأول برهان قدمه فضالة على ثبات إيمانه إعراضه عن المرأة التي كانت صاحبةً له قبل إسلامه ، فكان رده عليها كردِّ يوسف عليه السلام : ﴿ **معاذ ا لله** ﴾ .. يأبى عليك ا لله والإسلام .

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤١٧ .

نتائج طغيان شهوة الفرج

١ - قسوة القلب وضعف الإيمان :

كلما تمادت شهوة الفرج في الطغيان إزداد القلب قسوة وظلمة ووحشة ، ابتداء من النظر إلى ما حرم الله ثم الاختلاط بين الجنسين ، وما يتبعه من ترجل النساء وتخنث الرجال، وما ينتج عنه من تهوين أمر الفاحشة والتمهيد لها حتى يقع فيها ، وعندها يتمكن المرض من القلب ، وتبتعد عنه حقيقة الإيمان .

ومصداق ذلك ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)(١) .

قال الإمام البخاري : أي لا يكون هذا مؤمناً تاماً ولا يكون له نور الإيمان .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا زنى العبد خرج منه الإيمان ، فكان فوق رأسه كالظُّلَّة ، فإذا خرج من ذلك العمل رجع إليه الإيمان)(٢) .

فأصحاب الكبائر ينزع منهم نور الإيمان ويضعف تعظيم الرب سبحانه من قلوبهم ، إذ لو استشعروا تعظيم ربهم لما تجرؤا على معصيته .

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله : (من أتى الكبائر مثل الزنى أو السرقة أو شرب الخمر وغير ذلك ، فلا بد أن يذهب ما في قلبه من تلك الخشية والخشوع والنور ، وإن بقي أصل التصديق في قلبه ، وهذا من الإيمان الذي يُنزع منه عند فعل الكبيرة)(٣) .

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله : (من عقوبات الذنوب أنها تضعف في القلب تعظيم

---

(١) رواه البخاري - كتاب الحدود - ١٣/٨ .ومسلم - كتاب الإيمان - باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي - رقم /٥٧ .

(٢) رواه الترمذي - كتاب الإيمان - باب ما جاء لايزني الزاني وهو مؤمن - رقم /٢٦٢٥ .
وأبو داود - كتاب السنة - باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه - رقمم /٤٦٩٠ وصححه الحاكم في المستدرك ٢٢/١ و وافقة الذهبي .

(٣) كتاب الإيمان - لابن تيمية - ص/٢٩.

الرب جل جلاله ، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد ، شاء أم أبى .. فإن عظمة الله تعالى ، وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته ، وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب .. وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقه)(١) .

ثم قال : (ومن عقوبات المعاصي أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة أو تعوّقه أوتوقفه وتقطعه عن السير ، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة ، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه ، فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب ، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته ، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تُسيِّره فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعاً يبعد تداركه ، والله المستعان)(٢) .

٢ - كثرة الوقوع في المعاصي :

المعصية ولو كانت صغيرة تمهد الطريق لأختها حتى تتابع المعاصي ويهون أمرها ولا يدرك صاحبها خطرها ، فالنظرة تؤدي إلى الفكرة ثم يتولد الخاطر في القلب وتتحرك الشهوة وقد يؤدي ذلك إلى العزم على اقتراف الفاحشة ، فإن تيسرت أسبابها وقع فيها ، ولهذا كانت النظرة مقدمة من مقدمات الزنى ، وباباً من الأبواب الموصلة إليه .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنى ، مُدركٌ ذلك لا محالة ، فالعينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخُطا ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه)(٣) .

وهكذا تتدرج المعاصي في تسربها إلى القلب العبد وتأثيرها عليه حتى لا يبالي بها ولا يقدر على مفارقتها ويطلب ماهو أكثر منها .

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله :

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي -ص/٧٤.

(٢) المرجع نفسه -ص/٧٨.

(٣) صحيح مسلم - كتاب القدر - باب قُدّر على ابن آدم حظه من الزنا - رقم /٢٦٥٧ .

(إن المعاصي تزرع أمثالها ، ويولد بعضها بعضاً حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها .. حتى تصير هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة .. ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاق صدره حتى يعاودها، حتى إن كثيراً من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها، ولا داعية إليها إلا لما يجده من الألم بمفارقتها)[1].

٣ ـ ذهاب الحياء :

إذا اعتاد العبد على مقارفة الآثام نتيجة لطغيان شهوته ، سيصل إلى حال لا يبالي فيه باطلاع الناس على أفعاله القبيحة ، بل إن كثيراً من هؤلاء يخبرون الناس بما يفعلون ويتباهون به ، لأنهم انسلخوا من الحياء .

والحياء ـ كما قال الإمام ابن القيم ـ هو مادة حياة القلب ، وهو أصل كل خير ، وذهابه ذهاب الخير أجمعه ، وهو مشتق من الحياة فمن لا حياء فيه فهو ميت في الدنيا شقي في الآخرة[2] .

وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة في بيان منزلة الحياء ومكانته ، منها ما رواه الشيخان عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (الحياء لا يأتي إلا بخير) وفي رواية لمسلم : (الحياء خير كله)[3] .

وهكذا نجد أن التهاون في وقاية شهوة الفرج من الإنحراف ولو كان يسيراً ، سيؤودي شيئاً فشيئاً إلى ما هو أخطر حتى يقع المرء فريسة طغيان الشهوة التي يصعب التخلص من شرورها وتؤدي في النهاية إلى طمس قلب صاحبها وانسلاخه من الأخلاق الفاضلة بالإضافة إلى ما يصيبه من الأمراض النفسية والجسدية حتى يصبح عضواً أشلَّ في المجتمع لا يُرجى منه خير .

---

(١) الجواب الكافي ص /٥٩-٦٠.

(٢) المرجع نفسه ص / ٧٣ - ٧٤ .

(٣) رواه البخاري - كتاب الأدب - باب الحياء - ٧ / ١٠٠ .
ومسلم - كتاب الإيمان - باب الحياء من الإيمان - رقم / ٣٧ .

التدابير الوقائية التي شرعها الإسلام للحماية من طغيان شهوة الفرج :

المنهج الإسلامي المحكم يغرس في النفوس الإيمان ثم يسقيه بما ينميه ويقويه كما يبعد عنه الآفات والأخطار ويقيه من كل ما يؤدي إلى طغيان الشهوة وانحرافها ، فإذا حدث شيء من هذا الطغيان فإن العلاج بأنواعه وأساليبه ودرجاته كفيل بمواجهته والحدِّ منه[1] .

ولئلا يقع الإنحراف تأتي التدابير الوقائية التي تحصن شهوة الفرج وتحدد لها طريقها الشرعي المأمون ، وتتلخص بالأمور التالية :

١ - غض البصر وستر العورة :

لأن الطريق الذي تنفذ منه سهام الشهوة إلى القلب هو البصر ولذلك أمر الله عباده بغضِّ البصر عما حرَّم عليهم وستر عوراتهم عمن لا يحل لهم ، فقال تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾[2] .

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد)[3] .

وعن جرير رضي الله عنه قال : (سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصري)[4] .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : (قد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته وإذا أطلق بصره أطلق شهوته)[5] .

---

(١) سنتحدث عن العلاج من طغيان الشهوات في نهاية هذا الفصل إن شاء الله .

(٢) سورة النور / آية ٣٠ وجزء من الآية ٣١.

(٣) صحيح مسلم – كتاب الحيض – باب تحريم النظر إلى العورات – رقم /٣٣٨

(٤) صحيح مسلم – كتاب الآدب – باب نظر الفجأة – رقم /٢١٥٩ .

(٥) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص/١٠٩ .

ويقول أيضاً : (النظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرميَّة ، فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار تُرمى في الحشيش اليابس ، فإن لم تُحرقه كلَّه أحرقت بعضه ، كما قيل :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مُستصغر الشرر
كم نظرةٍ فتكت في قلب صاحبها فتكَ السهام بلا قوسٍ ولا وَتَر
والمرءُ ما دام ذا عين يُقلِّبها في أعين الغيد موقوفٌ على الخطر
يَسُرُّ مقلته ما ضرَّ مهجته لا مرحباً بسرورٍ عاد بالضرر[1]

٢ - تحريم الإختلاط والأمر بحجاب النساء :

وقد ورد في بيان ذلك آيات قرآنية وأحاديث نبوية عديدة ، ومنها :

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذَيْن وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾[2] .

وقوله سبحانه : ﴿ **وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن** ﴾[3] .

وروى البخاري ومسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إياكم والدخول على النساء فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمو ؟ قال : الحمو الموت)[4] .

والحمو : أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج كابن الأخ والعم وابنه ونحوهم ممن ليس بمحرم وقوله ﷺ : " الحموَ الموت " معناه أن الخوف منه أكثر من غيره لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه بخلاف الأجنبي[5] .

---

(١) المراجع نفسه – ص/١١٤.

(٢) سورة الأحزاب / آية ٥٩ .

(٣) سورة الأحزاب / من الآية ٥٣ .

(٤) البخاري – كتاب النكاح – باب لايخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم -١٥٩/٦ . ومسلم – كتاب السلام – باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها – رقم /٢١٧٢ .

(٥) ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم ١٥٣/١٤.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (لا يخلونّ رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم)[1] .

كما ورد التشديد والوعيد في أحاديث عديدة من تشبه الرجال بالنساء وتشبه النساء بالرجال في اللبس والحركة لما في ذلك من إثارة الشهوات وانحرافها .

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال)[2] .

٣ - الترغيب في الصيام لتسكين الشهوة :

إذا لم يتيسر الزواج و لم يجد المرء المقدرة عليه لسبب من الأسباب فعليه أن يقي نفسه من تسلط الشهوة وذلك بالمبادرة إلى الصيام لما فيه من تسكين الشهوة وتخفيف وطأتها ، وقد ورد في الإرشاد غلى ذلك الحديث الذي رواه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله قال : قال رسول الله ﷺ : " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء "[3] ، أي أن الصوم يقطع الشهوة .

ويُلحق بذلك التقليل من الأغذية المحركة للشهوة لكي يكسر من حدتها ويضعف تأثيرها .

فإذا لم يحرص المرء على هذه التدابير الوقائية و لم يلتزم بها ، فإن سهام الشهوة وسمومها لابد أن تنفذ إلى القلب ما دام على أهبة الاستعداد لقبول هذا الانحراف ، وعندها سيتمادى في مرضه وتتمادى الشهوة في طغيانها يوماً بعد يوم حتى يقع صاحبه في حمأة الرذيلة .

ولهذا يجب على الدعاة والمربين أن يركزوا على حسم مادة هذا الطغيان والتخويف من

---

(١) رواه البخاري – كتاب النكاح – باب لايخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم -٦/١٥٩ . ومسلم – كتاب الحج – باب سفر الرأة مع محرم – رقم /١٣٤١ – واللفظ لمسلم .

(٢) رواه البخاري – كتاب اللباس – باب المتشبهون بالنساء والمتشبهات بالرجال -٧/٥٥ ،.

(٣) رواه البخاري – كتاب النكاح – باب من لم يستطع الباءة ٦/١١٧، ومسلم كتاب النكاح – باب استحباب النكاح – رقم /١٤٠٠.

عواقبه وتربية النفوس على العفة والفضيلة وتقوية الوازع الإيماني في قلوبهم ، والتحذير من كل ما يثير الشهوات ويحرك الغرائز ، وأن يسلكوا في سبيل ذلك الحكمة والمواعظة الحسنة ليزيدوا من استجابة الناس لهم وتأثيرهم بدعوتهم .

وخير شاهد على أهمية الرفق والحكمة في محاربة طغيان هذه الشهوة ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : (إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أئذن لي بالزنى ، فأقبل القوم عليه فزجروه ، وقالوا : مَهْ مه ! .

فقال له : " ادنه " فدنا منه قريباً .

قال : " أتحبه لأمك ؟ " قال : لا والله جعلني الله فداءك ، قال : " ولا الناس يحبونه لأمهاتهم " .

قال : " أفتحبه لابنتك ؟ " قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك ، قال : " ولا الناس يحبونه لبناتهم " .

قال : " أفتحبه لاختك ؟ " قال : لا والله جعلني الله فداءك ، قال : " ولا الناس يحبونه لأخواتهم ".

قال : " أفتحبه لعمتك ؟ " قال : لا والله جعلني الله فداءك ، قال : " ولا الناس يحبونه لعماتهم "

قال : " أفتحبه لخالتك ؟" قال : لا والله جعلني الله فداءك ، قال : " ولا الناس يحبونه لخالاتهم " .

قال : فوضع يده عليه ، وقال : " اللهم اغفر ذنبه وطهّر قلبه وحصّن فرجه " فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء)[1] .

فالحكمة والرفق وإيقاظ الفطرة بتلك التساؤلات هي التي خففت من تأجج الشهوة عند ذلك الشاب وأورثته سكينة النفس ، وهذا من بدائع التربية النبوية التي ينبغي للدعاة الاقتداء بها في معالجة انحرافات المدعوين وإرشادهم إلى طاعة ربهم .

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٥/٢٥٦،٢٥٧ ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٢٩ ، وعزاه إلى الطبرني وقال : رجاله رجال الصحيح .

علاج طغيان الشهوات

بعد أن عرفنا خطر الأمراض التي تصيب النفس بسبب طغيان الشهوات ، وما ينتج عن هذه الأمراض من نتائج سيئة تزيد النفس مرضاً على مرض ، وتدسي تلك النفس حتى يُظلم القلب ، نستعرض بإجمال أبرز جوانب العلاج الذي يُنجي من هذه الآفات وينقذ النفس من تلك الظلمات ، ويقمع بوادر الإنحراف منذ بدايته ، ويُعدُّ هذا العلاج بحق مفخرة من مفاخر المنهج الإسلامي في تزكية النفس وتطهيرها من أدرانها ، ويتمثل في الأمور التالية :

أولاً : مجاهدة النفس ومحاسبتها :

سبق الحديث عن مجاهدة النفس والتشديد عليها وإلزامها بطاعة ا لله والبعد عن معصيته، وعن محاسبة النفس ومعاتبتها ومراقبة أحوالها ، وذلك في الباب الثاني عند بيان الأساليب العملية في تزكية النفس .

ولذلك نكتفي هنا بالتذكير بهذا الجانب المهم كأساس لابد منه في اكتشاف مرض النفس وتشخيص عللها ومعرفة موضع الداء فيها .

فالانسان إذا لم يجاهد نفسه ويحاسبها وينظر في عيوبها بتجرد ويتهمها بالخداع لا يمكنه أن يدرك حقيقة مرضها ، وإذا لم يعرف المرض فكيف يتمكن من العلاج ؟

ولكي تقر النفس بعيوبها لابد من تذكيرها بضعفها وافتقارها إلى خالقها سبحانه وإيقاظها من غفلتها بتعريفها بنعم ا لله سبحانه ، وأن هذه النعم يجب شكر المنعم عليها لا جحودها ، وأن اتخاذ تلك الآلاء والنعم مطية لطغيان الشهوات ينذر بالحرمان منها في الدنيا والحساب الشديد عليها في الآخرة .

وقد حفلت آيات القرآن الكريم ببيان هذه الحقائق ، ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى ا لله وا لله هو الغني الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلقٍ جديد وما ذلك على ا لله بعزيز** ﴾[1] .

---

(١) سورة فاطر / الآيات ١٥-١٧ .

وقوله سبحانه : ﴿ **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد** ﴾[1] .

ومن رحمة الله بعباده أن أرشدهم إلى ما فيه صلاح أحوالهم وتحقيق سعادتهم ، وحذّرهم من أخطار طغيان شهواتهم صيانة لهم من شرورها ، ولا شك أن إدراك النفس لهذا الأمر يهون على صاحبها مجاهدتها ومحاسبتها والتفتيش عن آفاتها ، ويوقظ العقل ليفكر ويتدبر بعيداً عن تسلط الهوى حتى يُخضع ذلك الهوى لحكمه وسلطانه .

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : (إذا كانت الدولة للعقل سالمه الهوى ، وكان من خَدَمه وأتباعه ، كما أن الدولة إذا كانت للهوى صار العقل أسيراً في يديه محكوماً عليه)[2] .

والطريق إلى ذلك أن يصرف العبد هواه عن مراتع الهلكة إلى مواطن السلامة ، فالله سبحانه لم يحرم على عباده شيئاً إلا عوّضهم خيراً منه ، فإذا أدركت النفس أن ما حرّمه الله عليها خبائث مهلكة ، وأن ما أباحه لها طيبات نافعة ، هان عليها ترك الهوى المردي والمسارعة إلى النافع المجدي ، وبذلك تنصرف الشهوة في طريقها المأمون[3] .

وتأتي بعد ذلك المرحلة الثانية من العلاج وهو مراقبة النفس ومحاسبتها عن كل صغيرة وكبيرة لوقايتها من تحكم الهوى وتسلط الشهوة وبخاصة شهوة حب النفس لأن ذلك يعمي صاحبها عن عيوبها ويوقعه في العُجب والأنانية فلا يميز بين الضار والنافع إلا بما يملي عليه هواه .

وهذه المراقبة لا تقتصر على ساعة من نهار ، وإنما هي يقظة دائمة لئلا يعود المرض إلى موضعه فيكون الانتكاس ، ولذلك كان من دعاء الرسول ﷺ : (فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين)[4] .

---

(١) سورة إبراهيم / آية ٧.
(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين – ص/٢٤ .
(٣) ينظر : المرجع نفسه ص/٢٤-٢٥ .
(٤) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في مسنده / وصححه الألباني في سلسة الأحاديث الصحيحة ص/٣٣٨٨.

وأول داء يتسرب إلى نفوس الصالحين هو العُجب والغرور بالطاعة ، فإذا استحكم هذا الداء فهو علامة على تسلط شهوة حب النفس ، ونذير خطر بأن هـذه الشهوة الخفية تمهد الطريق لتسلط الشهوات الأخرى .

ولذلك كان السلف الصالح يخافون من العُجب ويحذّرون منه ، ويراقبون أحوال نفوسهم ليسدوا عليها منافذ هذه الآفة ، ولهم في هذا الشأن أقوال وأفعال كثيرة ومجاهدات عجيبة حفلت بها كتب التراجم ، ومنها مثلاً :

- قيل للربيع بن خُثيم[١] : يا أبا يزيد ألا تذم الناس ؟ فقال الربيع : (والله ما أنا عن نفسي براضٍ فأذم الناس ، إن الناس خافوا الله على ذنوب الناس وأمنوه على ذنوبهم)[٢] .

وفي هذا تنبيه إلى من يُشغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه .

- وعن الفضيل بن عياض[٣] : أنه قال : (لو قيل لك يا مرائي غضبت وشق عليك ، وعسى ما قيل لك حق ، تزينت للدنيا وتصنّعت ، وقصّرت ثيابك وحسّنت سمتك وكففت أذاك حتى يقال : أبو فلان عابد ، ما أحسن سمته ، فيكرمونك وينظرونك ويقصدونك ويُهدون إليك)[٤] .

- وقد اجتمع الفضيل والثوري[٥] يوماً فتذاكرا ، فرقّ سفيان وبكى ، ثم قال : أرجو أن يكون هذا المجلس علينا رحمة وبركة ، فقال له الفضيل : لكني يا أبا عبد الله أخاف أن لا يكون أضرّ علينا منه ، ألست تخلّصت إلى أحسن حديثك ، وتخلّصت أنا إلى أحسن حديثي،

---

(١) هو : الربيع بن خيثم ، أبو يزيد ، زاهد من التابعين ، أسند عن ابن مسعود وغيهة ، وتوفي بالكوفة في ولاية عبد الله بن زياد (صفة الصفوة ٥٩/٣) .

(٢) طبقات ابن سعد ١٨٦/٦.

(٣) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي ، شيخ الحرم المكي ، ومن أكابر العباد الصالحين ، كان ثقة في الحديث أخذ عنه خلق كثير منهم الإمام الشافعي ،ولد في سمر قند وانتقل للكوفة ثم سكن مكة وتوفي فيها سنة ١٨٧هـ (الأعلام ١٥٣/٥) .

(٤) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ٤٤٢-٣٢١/٨ .

(٥) هو سفيان بن سعيد الثوري ، أبو عبد الله ، أمير المؤمنين في الحديث ، كان آية في الحفظ والعلم والتقوى توفي سنة ١٦١ (تنظر ترجمته في : الأعلام ١٠٤/٣) .

فتزينت لي وتزينت لك ؟ فبكى سفيان وقال : أحييتني أحياك ا الله[1] .

- ومن دقائق ملاحظتهم لنفوسهم مراقبة ما يستقر فيها من خواطر قد تؤدي إلى العُجب وهذا ما أشار إليه الإمام السفاريني عندما أورد قول أحد الحكماء : إذا كان المرء يحدث في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت ، وإذا كان ساكتاً فأعجبه السكوت فليتحدث لكي يكون سكوته وحديثه بمخالفة هواه وإعجابه بنفسه ، ومن كان كذلك كان جديراً بتوفيق ا الله إياه وتسديده في نطقه وسكوته[2] .

ثانياً - الإكثار من الباقيات الصالحات :

ويعدُّ هذا العلاج الأساس في تطبيب النفس وتطهيرها من عللها ، وذلك بعد أن يشخص مرضها ويحدد نوعيته بالمحاسبة والمراقبة .

وقد أرشد ربنا سبحانه إلى ضرورة الأخذ بهذا الدواء ، فقال تعالى : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً** ﴾[3] .

فالمال والبنون وغيرهما من شهوات النفس لها حدها الشرعي الذي ينبغي عدم تجاوزه ، والذي يحمي القلب من خطر طغيان هذه الشهوات أن يسارع صاحبه إلى الباقيات الصالحات[4] ، وأن يكثر من العمل الصالح من فرائض ونوافل وبخاصة ذكر ا الله سبحانه ، حتى يتغذى القلب ويتغلب على ما قد يتسرب إليه من مرض الشهوة ، وكلما ازداد العبد من اغتنام الباقيات الصالحات إزداد الإيمان في قلبه وترسخ فيه حب ا الله ورسوله حتى يكون أحب إليه مما سواهما فيتغلب داعي الإيمان على دواعي الشهوات ، وتزداد هذه الغلبة يوماً بعد يوم حتى يمتلئ القلب بالإيمان ولا يبقى فيه أي موضع للتعلق بالشهوات ، وحينئذ تخرج تلك الشهوات إلى موضعها الطبيعي في دائرة سطح النفس فيكون الشفاء والوقاية والحصانة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٢٢٠ .

(٢) غذاء الألباب لشرح منظومة الآدب – للإمام محمد السفاريني الحنبلي – ١/٧٥.

(٣) سورة الكهف / آية ٤٦ .

(٤) ذكر المفسرون في معنى الباقيات الصالحات أقوالاً ، وقد أوردها الإمام ابن كثير في تفسيره ٣/٨٥-٨٧ . ومحصل هذه الأقوال أنها تشمل جميع أعمال الحسنات التي تبقى لأهلها في الجنة .

وقد سبق الحديث بالتفصيل عن آثار العمل الصالح في مجال تزكية النفس وتطهيرها من آفاتها ، فالصدقة مثلاً تخفف طغيان شهوة حب المال ، والصيام يمنع طغيان شهوة الفرج وتذكر الموت والبلى يعيد إلى النفس تواضعها ويحجزها عن تسلط العجب والغرور .

وإطعام المسكين وملاطفة اليتيم وخفض الجناح والتواضع والإحسان للآخرين يوقظ النفس من غفلتها ويطرد عنها الأنانية والحسد والشح ، ولذلك وصف النبي ﷺ هذا العلاج لمن جاءه يشكو قسوة قلبه .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال له : (أطعم المسكين وامسح رأس اليتيم)(١) .

وهكذا كل عمل صالح يقوم به العبد ابتغاء مرضاة ربه فإنه من الباقيات الصالحات التي تغذي القلب وتنوِّره .

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله : (إذا كان الله أحب إلى العبد من كل شيء وأخوف عنده من كل شيء لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة إلا عند غفلة أو عند ضعف هذا الحب والخوف بترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ، فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، فكلما فعل العبد الطاعة محبةً لله وخوفاً منه وتركَ المعصية حباً له وخوفاً منه قويَ حبه له وخوفه منه ، فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره)(٢) .

ثم يذكر لنا نماذج من الباقيات الصالحات التي تزيد الإيمان وتقمع تسلط الشهوات ، فيقول : (وليتخذ ورداً من الأذكار في النهار ووقت النوم ، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف ، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه ويكتب الإيمان في قلبه .

وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنةً وظاهرة ، فإنها عمود الدين .. ولا يسأم من الدعاء والطلب فإن العبد يُستجاب له ما لم يعجل)(٣) .

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٦٣/٢ ، وأورده الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب ٣٤٩/٣ ، وقال : رجاله الصحيح ، وصححه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ١٦٣/٨ .

(٢) مجموع الفتاوى ١٣٦/١٠ .

(٣) المرجع نفسه ١٣٦/١٠-١٣٧ .

فالتقرب إلى الله تعالى بأنواع الطاعات ، والتوجه إليه سبحانه بأخلص الدعوات يعين العبد على مقارعة جيوش الشهوات وطرد الغفلات .

ثالثاً : العقوبات التأديبية :

العلاجان السابقان يتعلقان بالشخص الذي عرف مرض نفسه وأدرك ما ألمَّ بها من تسلط الشهوات فبادر إلى تعاطي الدواء واتخاذ أسباب الشفاء .

ولكن بعض المرضى لا ينتبهون لمرضهم ، بل قد يظن أحدهم أنَّ ما هو متلبس فيه من انحراف هو الحق والصواب بسبب إظلام قلبه وإنغماسه في شهواته .

وهنا لابد من علاج تربوي مركز يعتمد على النصح والتذكير والترغيب والترهيب والوعظ والإرشاد بمختلف الوسائل والساليب النافعة ، وهذه هي مهمة الدعاة والمربين والعلماء والمسؤولين كلٌ بحسب مسؤوليته ابتداء من الأبوين في الأسرة وحتى ولاة الأمور والحكام .

ولا شك أن هذه المواعظ الصادقة لها تأثيرها الكبير في تقويم انحراف النفوس ، وبخاصة عندما تكوِّن موقفاً اجتماعياً ينظر إلىأهل الانحراف على أنهم مرضى لابد لهم من علاج .

فإذا وصل الأمر ببعض النفوس إلى أنها لم تؤثر فيهاالمواعظ ولم تردعها الزواجر ، لأنها مأسورة بقيود الشهوات ، فلا بد من تحطيم تلك القيود ولو أدى ذلك إلى آلام وجراح ، إذ سرعان ما تذهب تلك الآلام عندما تستشعر النفس حريتها وكرامتها ، ويتمثل ذلك في العقوبات التأديبية التي هي أدوية نافعة يُصلح الله بهامرض القلوب وتتفاوت درجات هذه العقوبات بحسب مستويات الناس والأمراض التي ألمت بهم ، فمن الناس من تكفيه الإشارة فيرتجف قلبه ويهتز وجدانه ، ويعدل عما هو مُقدم عليه من إنحراف ، ومنهم من لا يردعه إلا الغضب الشديد ، ومنهم من يكفيه التهديد بعذاب مؤجل التنفيذ ، ومنهم من لا بد من تقريب العصا منه حتى يكف عن انحرافه ، ومنهم من لا يستقيم إلا إذا أحسَّ لذع العقوبة على جسمه[1] .

---

(١) ينظر : منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب - ١٩٢/١ .

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله : (المذنب لا يزال يؤذى ويُنهى ويوعظ ويوبخ ويغلظ له في الكلام إلى أن يتوب ويطيع الله ، وأدنى ذلك هجره فلا يُكلم بالكلام الطيب .. وليس ذلك محدوداً بقدر ولا صفة إلا ما يكون زاجراً له داعياً إلى حصول المقصود وهو توبته وصلاحه)[١] .

والسبب في إصرار بعض النفوس على التعلق بالشهوات المضلة رغم النصح والزجر أنها أحبتها وشغفت بها حتى أعماها ذلك عن إدراك خطرها وضررها .

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية :

(لا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب ، فإن الشهوة توجب السُكر ، كماقال تعالى عن قوم لوط : ﴿ **إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾[٢] .. والمريض إذا اشتهى ما يضره أو جزع من تناول الدواء الكريه فأخذتنا رأفة عليه حتى نمنعه شربه فقد أعناه على ما يضره أو يهلكه وعلى ترك ما ينفعه ، فيزداد سقمه فيهلك)[٣] .

ثم يقول رحمه الله : (وبهذا يتبين لك أن العقوبات الشرعية كلها أدوية نافعة يصلح الله بها مرض القلوب وهي من رحمة الله بعباده ورأفته بهم .. فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمريض فهو الذي أعان على عذابه وهلاكه)[٤] .

فالعقوبات الشرعية بجميع أنواعها حياة للفرد والمجتمع ونجاة لهما من الشرور حتى لو كان ظاهرها القتل قصاصاً فإنها سبيل للحياة .

ومصداق ذلك قوله عز وجل : ﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون** ﴾[٥] ، والحياة في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء ، فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمناً لجريمته جدير به أن يفكر ويتردد ، كما أن فيه حياة للمجتمع بأسره

(١) مجموع الفتاوى ١١٥/٣٠٠-٣٠١ .
(٢) سورة الحجر / من الآية ٧٢ .
(٣) مجموع الفتاوى ١٥/٢٨٨-٢٨٩ .
(٤) المرجع نفسه ١٥/٢٩٠ .
(٥) سورة البقرة / آية ١٧٩ .

بسلامته من الجرائم ، وشفاء لصدور أولياء الدم من الرغبة في الثأر عند وقوع القتل بالفعل[1] .

والمنهج الإسلامي في تربية النفوس يستخدم مختلف وسائل التربية الممكنة حتى تستجيب النفس وترعوي عن غيها ، فإذا ما استدعى الأمر التخويف بالعقوبة أو تنفيذها لتكون علاجاً لانحراف النفس فإن ذلك هو الحكمة التي شرعها أحكم الحاكمين سبحانه وتعالى .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : (إن من شرع هذه العقوبات ورتبها على اسبابها جنساً وقدراً هو عالم الغيب والشهادة ، وأحكم الحاكمين وأعلم العالمين ، ومن أحاط بكل شيء علماً .. وأحاط علمه بوجوه المصالح دقيقها وجليلها وخفيها وظاهرها .. فشمل إتقانه وإحكامه لكل ما شمله خلقه)[2] .

وقد أرشد النبي ﷺ في أحاديث كثيرة ، إلى ضرورة ردع مرضى الشهوات والأخذ على أيدي المفسدين لتحقيق الحياة الكريمة للفرد والمجتمع ، ومن ذلك مثلاً :

ما رواه البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً)[3] .

وفي هذا المثال النبوي البديع تصوير دقيق لما سيحل بالمجتمع من هلاك ودمار إذا تُرك أصحاب الشهوات والأهواء يتصرفون كما يحلو لهم دون أن يُمنعوا ، وأن هذا المنع والأخذ على أيدي المفسدين هو الرحمة والشفقة ، ولو لم يدرك ذلك أهل الفساد الذين زاغت عقولهم بسبب تسلط شهواتهم فأصبحوا يسعون إلى ما فيه هلاكهم .

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن ١/١٦٥.

(٢) اعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/١٠١.

(٣) صحيح البخاري - كتاب الشركة - باب هل يقرع في القسمة ٣ / ١١١ ، وكتاب الشهادات - باب القرعة في المشكلات - ٣ / ١٦٤ .

فالعقوبة علاج حاسم قد لا يفلح غيره لزجر النفس الأمارة في بعض الأحيان ، وهي السبيل الأقوم لحماية الإنسان من شر نفسه التي انحازت إلى صف أعدائه ، والطبيب الحاذق هو الذي يسارع إلى بتر العضو عندما يستشري فيه الداء لئلا يعم إلى غيره من الأعضاء ، ولو نظرنا إلى ما خلفته بعض الإتجاهات الحديثة في التربية ، عندما استبعدت أسلوب العقوبة لوجدناها قد أخرجت جيلاً منحلاً متهالكاً وراء شهواته قد تأصلت فيه الجريمة والانحراف .

الفصل الثاني

معوقات تزكية النفس

الفرق بين الأمراض والمعوقات أن الأمراض تأتي من داخل النفس ، وأما المعوقات فهي أمور خارجية تؤثر في النفس وتعيق تزكيتها مستغلة نقاط الضعف فيها .

وتنقسم تلك المعوقات إلى قسمين بحسب مصدرها ، فهي إما ناتجة عن وساوس الشياطين ، وإما من البيئة السيئة التي يعيش فيها الإنسان وما تمليه عليه من انحرافات ، وبهذا ينقسم الموضوع إلى مبحثين :

المبحث الأول : تأثير الشيطان .

المبحث الثاني : تأثير الأسرة والمجتمع .

المبحث الأول

تأثير الشيطان

الشيطان لغة كل عاتٍ متمرد من الإنس والجن والدواب ، وهو مشتق من شطن ، أي: تباعد أو من شاط ، أي : احترق غضباً ، واشتاط الرجل إذا احتد غيظاً [(١)] .

وسمي الشيطان بذلك لبعده عن الصلاح والخير وتمرده ، والمقصود هنا شيطان الجن وهو ابليس اللعين وذريته وأعوانه ، وسمي بذلك لأنه أبلس من رحمة الله أي يئس منها [(٢)] .

وقصة عداوة ابليس لبني آدم تحدث عنها القرآن الكريم في أكثر من موضع ، وقد ابتدأت من عداوته لآدم عليه السلام حينما رفض ابليس تنفيذ أمر الله سبحانه بالسجود لهذا المخلوق الذي كرّمه الله تعالى وجعله خليفة في الأرض ، فانبجس الحقد والكبر من أغوار

---

(١) ينظر : مختار الصحاح ص/٣٣٨ ، بصائر ذوي التمييز ٣/٣١٩-٣٢٠ .

(٢) ينظر : مختار الصحاح ص/٦٣ .

نفسه واعترض على أمر ربه : ﴿ **قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾ [(١)] .

فاستحق الطرد واللعنة ، كما قال تعالى : ﴿ **قال فاخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين** ﴾ [(٢)] .

وازداد عدو الله حقداً وعتواً ، وأعلن عن خطته في إضلال بني آدم وإفسادهم إلا من عصمه الله تعالى : ﴿ **قال رب بما أغويتني لأزينَنَّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ [(٣)] .

وقد شاءت حكمة الله سبحانه أن يهبط آدم وزوجته إلى الأرض وتعيش ذريته فيها ، وأن يُمكِّن ابليس وجنوده من التأثير في بعض النفوس ليكون ذلك ابتلاء واختباراً للإنسان .

ولكي يثبت الإنسان في هذا الابتلاء ويكون على بصيرة من أمره فقد زوَّده الله سبحانه بالعقل والإرادة وأرشده إلى طريق صلاحه وحذَّره من مكر الشيطان وفتنته ووساوسه ، وقد ورد بيان ذلك في آيات قرآنية كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ **يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة** ﴾ [(٤)] .

وقوله سبحانه : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ [(٥)] .

وقوله عز وجل : ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ، ولقد أضلَّ منكم جِبَلاًّ كثيراً أفلم تكونوا تعقلون** ﴾ [(٦)] .

---

(١) سورة الأعراف / من الآية ١٢ .

(٢) سورة الحجر / الآيتان ٣٤-٣٥ .

(٣) سورة الحجر / الآيتان ٣٩/٤٠ .

(٤) سورة الأعراف من الآية ٢٧ .

(٥) سورة فاطر / آية ٦ .

(٦) سورة يس / الآيات ٦٠-٦٢ .

فسمّى الله سبحانه طاعة الشيطان عبادة له لأنها انقياد وخضوع لوساوسه واستجابة لإيحاءاته ونزغاته وتصديق لأمانيه الكاذبة ، مع أنه عدو ينبغي الحذر منه والتحرس من شروره ، وقد أضل خلقاً كثيراً ، أفلا يكون في ذلك عبرة لأصحاب العقول السليمة ؟

والأصل في العاقل أن يبتعد عن شرور أعدائه ، لا أن يُسلم زمام أمره لهم حتى يسخّروه في إهلاك نفسه بإرادته وهو يرى جيوش الهالكين من قبله !

إذن كيف تنطلي حيل الشيطان على الإنسان حتى يوقعه في طريق الغواية ؟

هذا ما سنجمل الحديث عنه في الفقرة التالية :

أسباب تمكن الشيطان من إفساد بعض النفوس :

خلق الله الإنسان على الفطرة السوية التي تتجه إلى توحيده سبحانه ولكن عداوة الشيطان ومكائده كثيراً ما تصرف هذه الفطرة عن توجهها ، وتحرفها إلى طريق الضلال .

ومصداق ذلك الحديث الذي رواه مسلم عن عياض المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علّمني يومي هذا .. إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلّتهم عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أحللتُ لهم ، وأمَرْتهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطاناً) [(١)] .

وفي هذا الحديث تصوير لطبيعة المعركة بين الشيطان والإنسان ،ولا بد لكل معركة من أسلحة وجنود وأعوان يتقوى بهم كل فريق ، ولذلك يستخدم فيها الشيطان أنواعاً كثيرة من الأسلحة وأصنافاً شتى من الجنود والأعوان .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : " ألقى الله سبحانه العداوة بين الشيطان وبين المَلَك، والعداوة بين العقل وبين الهوى ، والعداوة بين النفس الأمارة وبين القلب ، وابتلى العبدَ بذلك وجمع له بين هؤلاء ، وأمدَّ كل حزب بجنود وأعوان ، فلا تزال الحرب سجالاً ودُوَلاً

(١) رواه مسلم - كتاب الجنة وصفة نعيمها - باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار رقم / ٢٨٦٥ .

بين الفريقين إلى أن يستولي أحدهما على الآخر ، ويكون الآخر مقهوراً معه "[1] .

وقد كشف الله سبحانه لعباده عن أساليب الشيطان في الغواية وأسلحته وجنوده الذين يستعين بهم في إضلال الناس ، ومن أبرز هذه الأسلحة والوسائل :

١ ـ استغلاله لأهواء النفس وأمراض القلب :

وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ **ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم** ﴾[2] .

ويقول سبحانه : ﴿ **ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون** ﴾[3] .

فالقلوب المريضة التي تحكمت فيها الشهوات والأهواء سرعان ما تتأثر بوساوس الشيطان وتستجيب لفتنته فتزداد مرضاً على مرض ، وأما القلوب السليمة فإنها تتحصن ضد شروره

وعندما تستجيب النفس الأمارة لداعي الشيطان ، ويستغل الشيطان هوى النفس ليبثّ وساوسه ، وتخون النفس صاحبها لتصبح في صفِّ ألدِّ أعدائه ، فهذا هو الخطر المحدق المهدد بالهلاك ،

يقول الإمام ابن تيميه رحمه الله : " الهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل ، وإلا فصاحب الهوى إذا علم قطعاً إن ذلك يضره ضرراً راجحاً انصرفت نفسه عنه بالطبع .. ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان لا من مجرد النفس ، فإن الشيطان يزين لها السيئات ويأمرها بها ويذكر لها ما فيها من المحاسن "[4] .

أي أنه ينفُذ إلى النفوس من خلال ما تشتهي وما تراه حسناً ، فكلما اتسعت دائرة تلك المشتهيات ازدادت مداخل الشيطان إلى النفس ، فإذا طغت الشهوات فقد وثّق الشيطان

---

(١) الفوائد لابن القيم ـ ص/٦٠ .

(٢) سورة الحج / من الآية ٥٣ .

(٣) سورة الأنعام / من الآية ٤٣ .

(٤) مجموع الفتاوى ١٤/٢٨٩-٢٩٠ .

صلته بذلك الإنسان وجعله عبداً لوساوسه يحركه كيف يشاء ، ووقع الإنسان بين خطري العدو الداخلي والعدو الخارجي اللذين توثقت بينهما الروابط .

٢ ـ التزيين والخداع :

التزيين يحوِّل الشيء عن صورته الحقيقية السيئة إلى صورة براقة جذابة ، كمن يغطي حفرة مليئة بالقاذورات بشيء من الأزهار والورود حتى إذا وقف المخدوع فوقها ليستمتع بمنظرها هوى في أعماق سحيقة .

وقد أشار الله سبحانه إلى هذه الخدعة الشيطانية ليحذرها العباد ويتبصروا بعواقبها ، وذلك في قوله تعالى مخبراً عن خطة ابليس الماكرة :

﴿ **قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين** ﴾ (١) .

فالتزيين هو الذي يزيف به الشيطان حقائق الأشياء ، فيغطي وجهها القبيح ويضخم ما فيها من محاسن موهومة حتى يقع المرء في شباكه ويصغي لوساوسه .

وهذا ما فعله في وسوسته لآدم عليه السلام وزوجته ، كما قال تعالى : ﴿ **فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين** ﴾ (٢) .

فلقد زيّن لهما المعصية بمكره وخديعته ، وأقسم بالله كذباً ليؤكد خداعه وأنه ناصح أمين يدل على الخير ، وما كان آدم عليه السلام يظن أن أحداً يحلف بالله كذباً فاغتر به .

وهكذا يستهوي الشيطان بني آدم بالأماني الكاذبة والحيل الماكرة ، وفي ذلك يقول الله سبحانه مخبراً عن هذا الكيد الشيطاني : ﴿ **يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا**

---

(١) سورة الحجر / آية ٣٩ .

(٢) سورة الأعراف / الآيتان ٢٠-٢١ .

غروراً ﴾[1] .

ومن أعرض عن طاعة ربه وأصغى لوساوس الشيطان فإنه يعاقب في الدنيا بأن يزداد تسلط الشياطين عليه وتزيينهم لأعماله الماضية والمستقبلية ، حتى يرى الباطل حقاً لأن قلبه منكوس ومظلم ، قال تعالى : **﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾**[2] .

٣ ـ التدرج في الإغواء :

لو أن الشيطان القى بوساوسه دفعة واحدة ليضلَّ بني آدم لما استجاب له إلا القليل لأن خداعه ينكشف ، ولا يمكن للمسلم أن يتخلى عن دينه ويترك الفرائض ويقع في المنكرات بعد أن كان متمسكاً بطاعة ربه إلا إذا كان ذلك بالتدريج ، فينتقل من منكر إلى منكر أكبر منه حتى ينسلخ عن الدين كلياً .

والشيطان يتقن حيلة التدرج والالتفاف في إغواء العباد ، وهي الحيلة التي يصطاد بها كثيراً من الناس وهم لا يشعرون ولا يظهر منهم معارضة له ، لأنه إن رأى أحد مداخله إلى النفس مُوصداً تسرَّب من مدخل آخر ، حتى لا يدع جهة أو طريقاً يصد بها العبد عن طاعة ربه إلا سلكها .

وقد أخبر الله سبحانه عن هذا الكيد الشيطاني فقال تعالى :

﴿ قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾[3] .

وقد استخدم ابليس وسيلة التدرج في الخداع مع آدم عليه السلام ، وهذا ما ألمحت إليه الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى : **﴿ فدلاَّهما بغرور ﴾**[4] .

---

(١) سورة النساء / آية ١٢٠ .

(٢) سورة فصّلت / من الآية ٢٥ .

(٣) سورة الأعراف / الآيتان ١٦-١٧ .

(٤) سورة الأعراف / من الآية ٢٢ .

فكلمة ﴿ دلاّهما ﴾ تشير إلى التدرج كما يدلي الرجل الدلو في البئر ، يقال : أدلى دَلْوه ، أي أرسلها ، وهذا التدرج إما أن يبدأ من الصغائر حتى يوقع العبد في الكبائر ، وإما أن يبدأ من الكبائر ، فإن يئس منها تدرج إلى ما هو أدنى ، حتى يصل إلى منفذ تميل إليه النفس فيدخل منه ثم ينتقل إلى غيره حتى يصل إلى مراده (١) .

وقد فصَّل الإمام ابن القيم رحمه الله في الحديث عن هذا المكر الشيطاني الذي قلّما يسلم منه بشر ، فبين أن الشيطان يقف للإنسان في سبع عقبات ، أولها عقبة الكفر ، فإن نجا منه العبد وقف له في عقبة البدعة ، ثم في عقبة فعل الكبائر ، ثم في عقبة فعل الصغائر ، فإن سلم من هذه العقبات وقف له في عقبة الإكثار من المباحات حتى تشغله عن الطاعات ، فإن غلبه المؤمن بإيمانه شغله بالأعمال المفضولة عن الأعمال الفاضلة ، فإن سلم من ذلك وقف له في العقبة السابعة التي لا يسلم منها مؤمن ، إذ لو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه ، وهي تسليط حزبه وجنوده من الأعداء الفجرة على المؤمن بأنواع لأذى ، وهذه العقبة لا حيلة للعبد في التخلص منها ، وما عليه إلا أن يراغم أعداءه ، فمن تعبَّدَ الله بمراغمة عدوه فهو من أهل الاستقامة (٢) .

شبهات خطيرة يلقيها الشيطان في النفس :

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته) (٣)

وفي هذا الحديث كشف لخداع شيطاني يسلكه الشيطان مع المؤمنين ، وبخاصة أولئك الذين يئس من إغوائهم ، فينكد عليهم بالوسوسة الخفية التي توقعهم في الشكوك ، وعلاج ذلك أن يدفع المؤمن هذه الوساوس ويقطع دابرها بالالتجاء إلى الله تعالى والاعتصام به والاستعاذة من شر الشيطان ، وأن لا يسترسل معها ، لأن الشيطان لا يُدفع بالحجة والإقناع فكلما أُلزم حجة زاغ إلى غيرها حتى يفضي بالمرء إلى الحيرة ، بخلاف ما لو تعرض أحد من

(١) ينظر : تفسير الفخر الرازي ٥٢/١٣ ، وتفسير ابن عطيه ٤٦٠/٥ ، والقرطبي ١٨٠/٧ .

(٢) ينظر : مدارج السالكين للإمام ابن القيم ٢٢٢/١-٢٢٧ ، وكتاب : مصائب الإنسان من مكائد الشيطان للإمام تقي الدين إبراهيم بن مفلح المقدسي - ص/٨٢ .

(٣) رواه البخاري - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده-ج ٤/ ٩٠ ، ومسلم - كتاب الإيمان - باب الوسوسة في الإيمان - رقم/ ١٣٥ .

البشر لهذه الشبه فإنه يمكن رده بالحجة والبرهان [(١)] .

وإذا وردت هذه الخواطر الشيطانية إلى نفس المؤمن فاشتد خوفه منها واستعظم أمرها فهذا دلالة على يقظة الإيمان في قلبه وعدم مقدرة الشيطان أن يتسلط عليه .

ومصداق ذلك ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ، قال : وقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم ، قال : ذلك صريح الإيمان " [(٢)] .

أي أن استعظامكم لهذه الوسوسة وخوفكم من النطق بها هو صريح الإيمان ، لأن هذا دلالة على ثبات الإيمان في القلب وانتفاء الشك والريبة عنه [(٣)] .

وهكذا يظهر أن الخواطر مدخل كبير من مداخل الشيطان إلى القلب ، فمن وفقه الله للتمييز بين خواطر الخير المحمودة وخواطر الشر المذمومة التي توسوس بها الشياطين فهذه علامة استنارة القلب بنور الإيمان .

نماذج للحيل النفسية التي تزينها وساوس الشيطان :

ما أكثر الحيل النفسية التي تثبط المسلم عن المبادرة إلى العمل الصالح والعناية بتزكية نفسه ، وما كان لهذه الحيل أن تبلغ مداها لولا تزيين الشيطان ووساوسه التي يدخل منها إلى النفس ليحول بينها وبين طريق الخير .

وكلما ازداد تزيين الشيطان وخداعه ازدادت الحيلة النفسية عمقاً وخفاء ، وبخاصة إذا كان المدخل إليها باباً من أبواب الخير ، فكثيراً ما يفتح الشيطان على العبد باباً للخير ليصرفه عن خير أكبر منه ، أو ليوصله إلى طريق خفي من طريق الشر يتدرج بعده إلى ما هو أكبر

(١) ينظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦/٣٤١ .
(٢) رواه مسلم كتاب الإيمان ـ باب الوسوسة في الإيمان .. رقم /١٣٢ .
(٣) ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم ٢/١٥٤

منه [1] .

وقد فصّل الإمام ابن الجوزي رحمه الله في بيان هذه المداخل الخفية للشيطان ، وذلك في كتابه (تبليس إبليس) ، حيث كشف فيه خبايا المكائد الشيطانية التي يلبّس بها على مختلف أصناف الناس ، ومنها تلبيسه على العلماء والولاة والعباد والصوفية وغيرهم من عوامّ الناس ، ثم ختم بالحديث عن تلبيس إبليس على جميع الناس بطول الأمل قائلاً :

(كم من عازمٍ على الجد سوَّفه ، وكم من ساعٍ إلى فضيلة ثبَّطه ، فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه فقال استرح ساعة ، أو انتبه العابد في الليل ليصلي فقال عليك وقت ، ولا يزال يحبِّب الكسل ويسوف العمل ، ويُسند الأمر إلى طول الأمل ، فينبغي للحازم أن يتدارك الوقت ويترك التسويف ويعرض عن الأمل الذي هو سبب كل تقصير في خير أو ميلٍ إلى شر .. ومن انتبه لنفسه علم أنه في صف حرب ، وأن عدوَّه لا يفتر عنه ، فإن فتر في الظاهر بطن له مكية وأقام له كميناً) [2] .

ولنستعرض نماذج من الحيل النفسية التي تسهّل دخول الدسائس الشيطانية إلى النفس حتى تصدها عن طريق التزكية ، ومن أبرزها [3] .

١ ـ العائق الوحيد :

هذه حيلة نفسية شيطانية تقف في وجه العبد كلما عزم على سلوك طريق التزكية بجدٍ وهمة ، فيحول الشيطان بينه وبين هذه الهمة بوضع عائق يصوره له أنه العائق الوحيد ، فإن زال هذا العائق فافعل بعده ما تريد .

فمثلاً يصور للزارع أن العائق الوحيد حراثة الأرض أو قطف الثمر ، ويصور للطالب أن العائق الوحيد الاختبار المقبل أو الحصول على الشهادة ، ويصور للتاجر أن العائق الوحيد الصفقة التجارية ، أو الجرد السنوي .. وهكذا حتى يطمئن كلٌّ من هؤلاء إلى وضعه منتظراً زوال المانع المزعوم ، ويرضى بتقصيره وبُعده عن ربه بحجة هذا العائق الموهوم ، وكلما زال

---

(١) ينظر : تلبيس إبليس للإمام ابن الجوزي ـ ص/٣٨ .

(٢) المرجع نفسه ص/٤٠٤ـ٤٠٥ بتصرف .

(٣) مقتبس من رسالة (الحيل النفسية) تأليف : نهاد درويش ، ضمن سلسلة : دراسات في واقعنا المعاصر .

العائق جاء الشيطان بعائق آخر ، ليستمر التخدير بالأماني التي لا نهاية لها .

وقد أخبر الله سبحانه عن هذا المكر الشيطاني فقال تعالى : ﴿ **يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً** ﴾[1] .

٢ـ الكمال الزائف :

معظم المسلمين يدركون خطر الشيطان وعداوته لبني آدم وضرورة التحذير من شروره لكن الواقع أن البعض منهم يصابون بحيلة نفسية ومدخل شيطاني يجعلهم يشعرون بالطمأنينة لما هم عليه ، وأن ما يفعلونه هو الصواب دائماً ، وأن الشيطان بعيد عنهم مهما كان قريباً من غيرهم ، ومن خلال هذه الحيلة يعمى الإنسان عن عيوب نفسه ويُحرم من إصلاح أخطائه والاستفادة من نصح الآخرين .

وقد أشار الإمام الشوكاني لخطر هذا الكيد الشيطاني وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾[2] ، فذكر أنه لما نزلت هذه الآية صاح إبليس بجنوده وحثا على رأسه التراب ودعا بالويل والثبور حتى جاءته جنوده من كل بر وبحر ، فقال لهم : نزلت آية في كتاب الله لا يضر بعدها أحداً من بني آدم ذنب ، فقالوا : وما هي ؟ فأخبرهم ، قالوا : نفتح لهم باب الأهواء فلا يتوبون ولا يستغفرون ولا يرون إلا أنهم على الحق[3] !! .

ولذلك حذّر الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة من هذه الحيلة الشيطانية مبيناً ضرورة حذر العبد من دسائس الشيطان مهما بلغ صلاحه وتقواه ، ومن هذه الأحاديث :

ما رواه الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الشيطان يجري من

---

(١) سورة النساء / أية ١٢٠ .

(٢) سورة آل عمران / آية ١٣٥ .

(٣) فتح القدير للشوكاني ـ ٣٨٢/١ .

ابن آدم مجرى الدم "[(١)] .

وفي ذلك إشارة إلى كثرة وساوس الشيطان وسهولة دخولها إلى القلب وخفائها عن الأنظار .

وروى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ما منكم من أحد إلا وقد وُكّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ، قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير "[(٢)] .

٣ ـ تضخيم جانب على حساب جانب آخر :

وهذه أيضاً حيلة شيطانية ماكرة قلَّ من يتبصر لها ، وبهذه الحيلة يحاربنا الشيطان بالسلاح الذي ينبغي أن نحاربه به ، وذلك حينما يلمس من العبد ميلاً إلى جانب معين من جوانب الحياة فيضخم في تصوره أهمية هذا الجانب ويصرف جميع إمكاناته لتحقيقه على حساب جوانب أخرى لا يبقى لها أي أثر في حياته مهما كانت مهمة .

وأمثلة ذلك كثيرة في حياة المسلمين ، فهذا يبالغ في الزهد حتى ينقطع عن الحياة ويضيع حقوق أهله وتربية أولاده والسعي في طلب الرزق ، وذاك لا يرى الإسلام غلا من خلال نظام الحكم حتى يصل به الأمر إلى الغلو وترك الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وآخر يتمسك بما ورد من نصوص في فضل السعي على العيال وطلب الرزق الحلال فينغمس في أعمال الدنيا ويستغرق أوقاته في طلب الأموال حتى ينسى آخرته ويضيع نفسه وهو يظن أنه يحسن صنعاً .

وإذا سئل أحد من هؤلاء عما هو فيه سوَّغ حالته بدليل شرعي ، وجعل ما لديه من غلو هو الصواب وغيره سراب ، وهكذا ينجو من مزلق ليقع في مزلق آخر بهذه الحيلة الشيطانية التسويفية ، وهي حيلة تضخيم جانب لتسويغ غلوه الذي وقع فيه .

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الاعتكاف ـ باب هل يخرج المعتكف لحوائجه ـ ٤/٢٤٣ ، ورواه مسلم ـ كتاب السلام ـ باب دفع ظن السوء ـ رقم /٢١٧٤ ، واللفظ لمسلم .

(٢) رواه مسلم ـ كتاب صفات المنافقين ـ باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ـ رقم /٢٨١٤ =

وهذا ما حذر منه الرسول ﷺ أشد التحذير ، وذلك فيما رواه مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " هلك المتنطعون .. قالها ثلاثاً "[1] .

والمتنطعون هم المتشددون في غير موضع التشدد والغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم .

العلاج من مداخل الشيطان :

مهما اشتدت مكائد الشيطان فهو لا يعدو أنه مخلوق ضعيف باستطاعته أن يوسوس في صدور الناس بالشر ويزين لهم المنكرات ، ثم إن الإنسان هو الذي يرتكب الخطيئة بإرادته الحرة ويعتبر مسؤولاً عنها ، وليس للشيطان سلطان على إرادة الإنسان إلا من سلَّم قيادة نفسه له ، وصدق الله سبحانه إذ يقول : ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾[2] .

فالطريق الذي ينفذ منه الشيطان إلى القلب هو الوسوسة بخفاء ، فإذا حَسَم الإنسان مادتها فقد سلم من تسلطها .

ولذلك يقول المولى سبحانه مبيناً ضعف الشيطان أمام قوة المؤمن : ﴿ **إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾[3] .

وهذه الوساوس الشيطانية تدخل إلى النفس الغافلة **من طريق تجهله أو طريق تأمنه أو**

= وقد ذكر الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث أن كلمة (فأسلم) وردت بضم الميم ، وفتحها ، فهي بالضم بمعنى أسلمُ من شره وفتنته ، وبالفتح بمعنى أنه صار مسلماً أو أنه استسلم وانقاد ، (ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/١٥٧) .

(١) رواه مسلم ـ كتاب العلم ـ باب النهي عن إتباع متشابه القرآن ـ رقم / ٢٦٧٠ .

(٢) سورة النحل / الآيتان ٩٩ـ١٠٠ .

(٣) سورة النساء / من الآية ٧٦ .

طريق تحبه ، ولذلك لابد للإنسان من مجاهدة نفسه ومحاسبتها ليكون على دراية بمواطن الضعف والقوة فيها ، فيسد مداخل الشيطان في النفس ، ويبادر إلى تزكيتها بمختلف الأساليب العملية في التزكية حتى تترقى وتسمو وتسلم من آفاتها التي يستغلها الشيطان بمكره.

وقد سبق الحديث عن الأساليب العملية في تزكية النفس والتي هي بحق وقاية وعلاج من مداخل الشيطان ، وأبرزها العلم النافع والعمل الصالح بمجالاته المختلفة .

ومن فضل الله سبحانه ورحمته بعباده أنه لم يتركهم يواجهون الشيطان وجنوده وحدهم ، وإنما زوّدهم بأسلحة تدحر الشياطين وتصرف أذاها عنهم ، ومن هذه الأسلحة :

١ ـ الاستعاذة :

فهي سلاح نافع يطرد نزغات الشيطان ويُذهب وساوسه ، وقد ورد في ذلك آيات كثيرة، منها قوله تعالى : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ با لله إنه سميع عليم** ﴾[١] .
وقوله سبحانه : ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾[٢] .

والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله سبحانه لدفع شرور الشيطان ، وفي ذلك اعتراف من الإنسان بافتقاره إلى خالقه سبحانه وانكساره وتذلله بين يديه ، ورجاء من العبد الضعيف للمولى القادر أن يدفع عنه وساوس الشيطان ، فهو سبحانه السميع العليم الذي لا تخفى عليه خافية ، يعلم كل ما ينفذ إلى نفس العبد من وساوس الشيطان مهما كانت خفية ، كما أنه القادر سبحانه على دفع هذه الوساوس والنزغات وحماية العبد من المخلوقات إذا التجأ إليه بصدق .

وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة من وساوس الشيطان وشرور المخلوقات ، وأنزل في بيان ذلك سورتين من سور القرآن الكريم تسميان المعوذتين ، وهما سورة الفلق وسورة الناس .

---

(١) سورة الأعراف / آية ٢٠٠ .
(٢) سورة ا.

كما أن هذه الاستعاذة تتأكد في الحالات التي يجند الشيطان لها جنوده لكي يصد الإنسان عن طاعة ربه ويوقعه في المعاصي ، وقد نبه المولى سبحانه إلى ذلك فقال تعالى : ﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** ﴾ (١) .

فإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين بمختلف الوسائل الشيطانية ، والصد عن ذكر الله وطاعته واشغال القلب عن الخشوع في الصلاة ، تعد من أبرز الأمور التي ينصُبُ الشيطان من أجلها شباكه ، ولذلك ينبغي للعبد أن يكون التجاؤه للخالق سبحانه في هذه الحالات أكثر ليتغلب على مكائد الشيطان ، وهذا ما أرشدت إليه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية في الحث على الاستعاذة من الشيطان الرجيم عند حالات الغضب والانفعال ، وعند تلاوة القرآن الكريم والصلاة ونحو ذلك من العبادات .

٢ ـ ذكر الله تعالى :

الشيطان لا يتسلط على العبد إلا عند غفلته عن ربه ، ولذلك كان الذكر سلاحاً يطرد وساوس الشيطان ويبصّر العبد بمكائده حتى يحذر منها ، والذكر يؤدي إلى التذكر وطرد الغفلة وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾ (٢) .

فالغافل إذا تنبه من غفلته وتذكر عقاب الله ووعيده وجزيل ثوابه لابد أن يكون حذراً من أي طائف شيطاني يطوف بوساوسه حول القلب لينفذ إليه ، وبذلك يفوت على الشيطان فرصته التي يريد أن يستغلها .

وقد بين الله سبحانه ما يفعله الشياطين بأتباعهم الذين تسلطوا عليهم وجعلوهم من حزبهم ، فقال تعالى : ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب**

---

(١) سورة المائدة / آية ٩١ .

(٢) سورة الأعراف / آية ٢٠١ .

الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾[1] .

فالعلاج الحاسم الذي ينجو به العبد من استحواذ الشيطان وسيطرته عليه أن يذكر الله عز وجل بقلب خاشع ، فتحلُّ بالذكر أول عقدة من عقده التي يثقل بها الرأس عن طاعة الله تعالى .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : " يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب على كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلّت عقدُهُ ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان "[2] .

فالشيطان يؤثر في النفوس بوساوسه لكي تستطيب المنام وتتثاقل عن القيام ، والعلاج الذي يدحره هو المسارعة إلى ذكر الله تعالى والمبادرة إلى الوضوء والصلاة ، وعندها يسعد العبد بما وفقه الله إليه من الانتصار على شيطانه ، ويكون ذلك دافعاً له للإنتصار عليه في الجولات الأخرى طيلة نهاره ، فيصبح نشيطاً طيب النفس ، وإن لم يبادر إلى ذكر الله سبحانه تغلب عليه الشيطان وثبطه عن القيام وأعلن الغلبة عليه ، وعند ذلك لن يكتفي بهذه الغلبة وإنما سيكرُّ عليه مرات أخرى حتى يقضي العبد نهاره مغلوباً مدحوراً متكاسلاً عن الطاعة ، إن لم يبادر إلى الاستغفار والذكر الذي يدحر شرور الشيطان .

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله :

(بالذكر يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان)[3] .

وأفضل الذكر تلاوة القرآن الكريم ، فهو الذكر الحكيم والنور المبين ، وفيه الشفاء من أمراض النفوس والنجاة من وساوس الشياطين ، وبخاصة آية الكرسي وأواخر سورة البقرة فقد وردت عدة أحاديث نبوية في فضلهما وأنهما حرز من الشيطان ، كما أن تلاوة سورة

---

(١) سورة المجادلة / آية ١٩ .

(٢) صحيح البخاري - ٤٦/٣ ، ومسلم - كتاب صلاة المسافرين - باب الحث على صلاة الوقت - رقم /٧٧٦ .

(٣) مدارج السالكين ٤٢٤/٢ .

البقرة حصن من الشيطان .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)[(١)] .

يضاف إلى ذلك ما سبق بيانه في الموضوعات السابقة من الوسائل العملية في التزكية والتي ترقّي نفس المؤمن حتى يتغلب على وساوس الشيطان ويدحره وينجو من شروره ، وقد تكفل الله تعالى بحفظ عباده الصالحين من تسلط الشياطين ، فقال تعالى : ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾[(٢)] نسأل الله أن يجعلنا منهم .

---

(١) صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين - باب استحباب صلاة النافلة في بيته - رقم - ٧٨٠ .

(٢) سورة الحجر / من الآية ٤٢ .

المبحث الثاني

تأثير الأسرة والمجتمع

إذا كانت مكائد شياطين الجن ووساوسها من أبرز المعوقات في طريق التزكية ، فإن هناك معوقات أخرى لا تقل أهمية عنها ، وهي مفاسد شياطين الأنس وتأثيرها في تشويه الفطرة ، ويتمثل ذلك في الدور السيء للأسرة وبخاصة الأبوين ، وللمجتمع بما فيه من اتجاهات وعقائد وأفكار ومؤثرات .

ومما يزيد خطر هذه البيئة الفاسدة أن الإنسان اجتماعي بطبعه يحب مجالسة الناس ويكره العزلة ، ويتأثر تلقائياً بما يحيط به من أفكار وأخلاق وأعمال ، ويسارع إلى محاكاتها إذا نالت منه الاستحسان ، وهذا الاستحسان كثيراً ما يكون بسبب الموافقة لهوى النفس أو بسبب ما أَلِفه من عقائد وأعمال وتربّى عليها منذ الصغر[(١)] .

وقد حفلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ببيان هذا الأمر ، وتصوير دعاوى المشركين في احتجاجهم بما وجدوا عليه آباءهم من اعتقادات باطلة .

قال تعالى : ﴿ **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا مِن قبلك في قرية من نذير إلا قال مُترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون قال أَوَلو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أُرسلتم به كافرون** ﴾[(٢)] .

وقال سبحانه : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا أَوَلو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير** ﴾[(٣)] .

فليس لهؤلاء المعرضين حجة إلا إتباع ما وجدوا عليه آباءهم من قبلهم ، وما نشأوا

---

(١) ينظر كتاب : غزو في الصميم ـ للشيخ عبد الرحمن حبنكة ـ ص /١٥٤ـ١٥٦ .

(٢) سورة الزخرف / الآيات ٢٢ـ٢٤ .

(٣) سورة لقمان / آية ٢١ .

عليه من عقائد وتصورات فاسدة طمست نور الفطرة وحجزت القلوب عن الهداية .

والفطرة النقية تنحرف بتأثير الأسرة والمجتمع وبخاصة الأبوين ، وهذا ما أشار إليه الحديث النبوي الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تُنتج البهيمة بهيمةً جمعاء هل تُحسون فيها من جدعاء ؟)(١) .

وفي هذا الحديث بيان لما يعتري الفطرة من تشويه بسبب البيئة الفاسدة حتى تنحرف عن الحق وبخاصة إذا كان الفساد ناشئاً من الأبوين(٢) .

وعندما يكبر الطفل لا يقتصر تأثيره ومحاكاته على ما يراه في أسرته ، وإنما يصبح المجتمع المحيط به عاملاً من عوامل التأثر ، وبخاصة أصحابه وزملاؤه ، فإن كانوا فاسدين استقى منهم الفساد وانجرف معهم في مهاوي الردى .

وقد سبق الحديث عن تأثير الصحبة في تزكية النفس ، والتحذير من صحبة الأشرار الذين شبههم الرسول ﷺ بنافخ الكير لشدة أذاهم وعظيم ضررهم لمن يقترب منهم(٣) .

وهكذا يلتقي تأثير شياطين الإنس من أهل الشر والفساد في المجتمع مع تاثيرشياطين الجن ، ليكون كل منهم عائقاً من عوائق تزكية النفس ، وعدواً من الأعداء المتربصين بالعبد المسلم لإبعاده عن طريق الإيمان .

وكثيراً ما تملي شياطين الجن والإنس بعضها لبعض بوساوسها وحيلها الماكرة حتى تزداد إفساداً للناس وصداً لهم عن الطاعة .

وفي ذلك يقول الله سبحانه : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن**

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز - باب إذا أسلم الصبي فمات -٢/٩٧ ، ورواه مسلم في كتاب القدر - باب معنى كل مولود يولد على الفطرة - رقم /٢٦٥٨ .

(٢) سبق الحديث عن موضوع الفطرة في الباب الأول - ص/ ١٧ من هذا البحث .

(٣) ينظر ص /٢٦٨ من هذا البحث .

يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾[1] .

أي : يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف الذي يغتر به سامعه وينخدع حتى يقع في شباكه[2] .

ولذلك أمرنا ربنا سبحانه أن نستعيذ من شر شياطين الجن والإنس معاً لأن كلاً منهما يوسوس في صدور الناس ليضلهم عن دينهم ، قال تعالى : **﴿ قل أعوذ برب الناس ملك الناس إلهِ الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ﴾** .

وهذه الآيات الكريمة تؤكد خطر شياطين الإنس وأنهم يوسوسون بأساليب خفية ، ويتظاهرون بالنصح ويزينون القول ليخدعوا العباد ويصدوهم عن طريق التزكية .

وقد حذر المولى سبحانه من خطر شياطين الإنس ، فقال تعالى : **﴿ ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله ﴾**[3] .

أي أنهم يودون لكم أن تضلوا لتصبحوا مثلهم وتتساووا معهم في إتباع الباطل ، ولذلك لا يتركون طريقاً أو حيلة تحقق مآربهم في الإفساد إلا سلوكها .

وقد يصل الطغيان والشر بشياطين الإنس إلى درجة تتعدى شرور شياطين الجن لما يقومون به من مكائد وخطط ماكرة لإفساد الناس يعجز عنها عتاة شياطين الجن .

ويعبر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

وكنت امرءاً من جند إبليس فانتهى ... بيَ الفسق حتى صار إبليس من جندي
فلو مات قبلي كنتُ أُحسن بعده ... طرائقَ فسقٍ ليس يحسنها بعدي[4]

---

(١) سورة الأنعام من الآية ١١٢ .

(٢) ينظر : تفسير ابن كثير ١٦٧/٢ .

(٣) سورة النساء / من الآية ٨٩ .

(٤) الاعتصام للإمام الشاطبي - ٤٥/٢ .

والمتأمل لأحوال المجتمعات اليوم يجد من هؤلاء المضلين مالا يُعد ولا يُحصى ، ولكلٍ منهم أسلوبه في الإفساد ونشر الشر ، حتى أصبحت لهم المكانة والصدارة في المجتمعات التي تخلت عن الإسلام ، وجنّدوا لهذا الفساد كل ما لديهم من طاقات وأساليب ، وبخاصة وسائل الإعلام التي اخترقت في انتشارها كل الحواجز وتسربت إلى كثير من البيوت .

وكم من مشهد ماجن أو صورة خليعة وقعت عليها العين فأثرت في النفس تأثيراً سيئاً وحرّكت كوامن الشهوة المنحرفة، وانتزعت من القلب آثار عشرات المواعظ والتوجيهات!!.

ويزداد الأمر سوءاً عندما يعيش الشاب في أسرة أَلِفت هذا الانحراف وهيأتْ له الأسباب وتأتي أوقات الفراغ والغنى لتزيد النار اشتعالاً .

إن الشباب والفراغ والجِدَة   مفسدة للمرء أيُّ مفسدة

ومن عادة الناس حب التقليد والمحاكاة والتأثر بالواقع إلا من رحم الله سبحانه ، وهذا يقوي الدافع على الاستجابة لمفاسد شياطين الإنس وشرورهم .

وقد تحدث الإمام ابن تيميه رحمه الله عن ذلك فقال :

" كم ممن لم يُرد خيراً ولا شراً حتى رأى غيره ـ لاسيما إن كان نظيره ـ يفعله ففعله ، فإن الناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض "[(١)] .

العـلاج :

لابد بعد بيان أخطار شياطين الإنس من وصف العلاج الذي ينجي من شرورهم ويقي المسلم من مفاسدهم ، ويتمثل ذلك في أمور كثيرة ، من أبرزها :

١ ـ تقوية الإيمان :

فالإيمان إذا ترسخ في القلب وتذوق العبد حلاوته لا يمكن أن تغيّره الظروف والأحوال، أو يتحول صاحبه عنه مهما اشتدت المغريات والفتن ، لأنه يحجز العبد عن الانحراف ،

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/١٤٩ـ١٥٠ .

ويجعل بينه وبين البيئة الفاسدة جداراً صلباً واقياً .

وقد أشار هرقل إلى هذا المعنى لما سأل أبا سفيان مستفسراً عن دين الإسلام فكان من بين أسئلته : هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له ؟

فقال أبو سفيان : لا .

فأجاب هرقل : وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب (١)

فلا يعقل أن يتحول المؤمن عما وجد فيه الحلاوة إلى ما فيه المرارة والشقاء مهما كان المغريات ، وإنما تراه يؤثّر فيمن حوله بالخير ولا يتأثر بالشر ، وينتشل الغرقى بما آتاه الله من قوة بدل أن يغرق معهم .

وشواهد التاريخ الإسلامي حافلة بهذه النماذج المشرقة التي أضاءت للعالم طريق الحق ، وكم من بلاد لم تدخلها جيوش الفاتحين انتشر فيها الإسلام على أيدي هؤلاء الدعاة الصالحين ، الذين سافروا إلى بلاد الكفر للتجارة وكان الواحد منهم يحيا في بيئة مليئة بالفساد وإذا به كالطود الراسخ ، لا يكتفي بأن يحصن نفسه من شرور البيئة وإنما يبادر بالدعوة إلى الإسلام بأقواله وأفعاله حتى يتأثر به الآخرون ويسارعوا إلى الإسلام .

والمجتمعات الغربية اليوم مليئة بالفساد مُغرقة في الانحراف والضلال ، ومع ذلك تجد فئة من الشباب المسلم ممن تقتضي ظروفهم أن يعيشوا هناك يقومون بواجب الدعوة إلى الإسلام خير قيام ، ويضربون أروع الأمثلة للعفاف والثبات والاستقامة على الطاعة رغم شدة الفساد المحيط بهم .

وبمقابل هؤلاء ترى أعداداً ممن ينتسبون للإسلام قد انساقوا وراء الفساد بمجرد سفرهم إلى الغرب ، لأن الذي كان يحجزهم عن ذلك في بلادهم هو الخوف والخجل من الناس ، وأما الإيمان فقد خبتْ جذوته في قلوبهم وضعُف تأثيره على حياتهم .

ولذلك لابد للعبد من تحصين نفسه بتقوية الإيمان ، وذلك بالتزام المنهج الإسلامي لتزكية النفس الذي يحلّيها بالفضائل ويطهرها من الرذائل ، والذي أفضنا في الحديث عنه في ثنايا هذا البحث .

---

(١) روى هذه القصة الإمام البخاري ـ باب كيف كان بدء الوحي ـ ١/٥ .

٢ ـ بناء الأسرة على أساس التقوى :

إذا حرص الرجل على اختيار الزوجة الصالحة لتكون شريكة حياته ، وحرصت المرأة على الزوج الصالح ، وكانت حياتهما قائمة على أساس التقوى ، فإن هذه الإسرة هي البيئة الأولى التي يحيا فيها النشء الصالح ، ويتلقى من خلالها عقيدته وسلوكه قبل أن يخوض غمار المجتمع ويختلط بالناس ، وفي تلك الأسرة يتلقى الأبناء التحصينات الأساسية التي تمنع عنهم كثيراً من أمراض المجتمع المعُدية ومفاسده المخزية .

وكم من أناس تساهلوا في اختيار الشريك الصالح لبناء الأسرة ، فتسلل الفساد حتى نشأ الأبناء عليه ، وبخاصة إذا كان ذلك الفساد من الأم ، فإنها أكثر صلة بأبنائها من أبيهم ، وأكثر عاطفة في التعامل معهم .

ويزداد الأمر سوءاً عندما تكون الزوجة غير مسلمة فيوكل إليها الزوج المسلم مهمة تربية الأبناء ، أو يكون المشرف على هذه التربية إحدى الخادمات الكافرات !!

فلابد إذن من الحرص على بناء الاسرة المسلمة التي تربي الأبناء على الفضيلة والعفاف وتعلمهم أمور دينهم وتغذي أرواحهم بالإيمان .

٣ ـ صحبة الصالحين وتجنب صحبة الأشرار :

سبق الحديث بالتفصيل عن أهمية الصحبة الصالحة في تزكية النفس ، والتحذير من صحبة الأشرار ، وهذه الصحبة هي البيئة الثانية التي يحيا فيها الإنسان بعد بيئة الأسرة ، فالطفل عندما يكبر لابد له من الالتقاء بالآخرين ومجالستهم والحديث معهم والتأثر بهم ، فإن أحسن الأبوان اختيار تلك الصحبة لأبنائهم فقد خفّفا عن كاهليهما عبئاً كبيراً ، حيث يستكمل الأبناء شخصيتهم الإسلامية من تلك الصحبة ، ويتعلمون منهم الأخلاق الفاضلة والسلوك القويم ، وإن كانت تلك الصحبة فاسدة تقوّض البناء الذي بناه الآباء في نفوس أبنائهم .

٤ ـ إصلاح المجتمع :

المجتمع الذي انتشرت فيه مظاهر الفساد والانحراف وظهرت فيه المعاصي والمنكرات لابد له من علاج تتضافر فيه جهود الدعاة والمصلحين والقادة والمربين ، لكي تستقيم أحواله

وينجو من شرور شياطين الإنس والجن المتربصين به ، الذين لا يكتفون بإغراء الناس بالمعصية، وإنما يريدون منهم المجاهرة بها والإعلان عنها حتى تعمم المجتمع ويُقبل عليها غيرهم بلا تردد ولا خجل .

ولذلك بيَّن المولى سبحانه ضرورة إرشاد الناس وإصلاحهم وتحذيرهم من الفساد ، وأن ذلك يعد جهاداً لا يقل أهمية عن جهاد العدو الخارجي ، فقال تعالى : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ (١) .

فإذا قام الدعاة بواجبهم على أكمل وجه لابد أن تتحسن أحوال المجتمع حتى يصبح بإذن الله بيئة صالحة .

٥ ـ الهجرة والعزلة :

إذا عم الفساد المجتمع وانتشرت فيه الفتن ولم يتمكن المسلم من إقامة شعائر الإسلام فيه وخشي على نفسه وأبنائه من الانسياق وراء الفساد ، فليبادر إلى الهجرة من هذا المجتمع الآثم، ولينتقل إلى مجتمع آخر يتحقق فيه حرية الالتزام بالإسلام .

والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً** ﴾ (٢) .

يقول الإمام ابن كثير : (هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع)(٣) .

---

(١) سورة التوبة / آية ١٢٢ .

(٢) سورة النساء / الآيات ٩٧-٩٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ٥٤٢/١ .

ثم عذر الله سبحانه المستضعفين الذين لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ، ولو قدروا ما عرفوا كيف يسلكون الطريق أو لم تسعفهم الظروف المادية أو الصحية .

ومما يدل على ضرورة الهجرة لوقاية المسلم من شر البيئة المنحرفة المغرقة في الفساد والظلم ما ورد في قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ، ثم قتل الراهب فكمل به المائة، فلما أرشده العالم للتوبة بيّن له ما يعين عليها ويرسخها في نفسه ، فقال له : (انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء)[1] .

وهكذا تعتبر الهجرة علاجاً للوقاية من شر البيئة الفاسدة عند اشتداد الفتن ، فإذا مُنع المسلم منها لم يبق له من سبيل إلا أن يعتزل أهل الفساد ويتجنب مخالطتهم ليسلم من شرورهم .

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا العلاج في حديثه الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتّبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفرُّ بدينه من الفتن "[2] .

ولهذه العزلة ضوابط وشروط ينبغي الالتزام بها ، وإلا أدت إلى انحرافات لا تُحمد عقباها، وهذا ما سنعرض له في الباب القادم لبيان أخطار الانحرافات عن المنهج الإسلامي في تزكية النفس .

---

(١) رواه مسلم - رقم /٢٧٦٦ - وقد سبق بتمامه ص/٢٤٢ .

(٢) رواه البخاري - كتاب الإيمان - باب : من الدين الفرار من الفتن ١/١٠ وشعف الجبال : أعلاها ، ومواقع القطر: مواضع الكلأ الذي نزل عليه المطر فأنبت .

الباب الخامس

مفاهيم منحرفة في تزكية النفس

والرد عليها

ويتضمن تمهيداً وخمسة فصول .

تمهيد عن نشأة التصوف وموقف علماء السلف منه .

الفصل الأول : التزكية والشيخ المرشد .

الفصل الثاني : التزكية وإرهاق النفس .

الفصل الثالث : التزكية والزهد .

الفصل الرابع : التزكية والعزلة .

الفصل الخامس : التزكية والرهبانية .

تمهيد

عن نشأة التصوف وموقف علماء السلف منه

لاتكتمل صورة المنهج الإسلامي في تزكية النفس إلا بإلقاء نظرة على ما أُدخل عليه من تصورات ومفاهيم منشؤها الغلو في الدين والابتداع فيه ، حتى أصبحت جزءاً لايتجزأ من منهج التزكية عند كثير من الناس إلى يومنا هذا .

وإذا كان المعرضون عن طريق التزكية قد أغرقوا في المادية واعتنوا بالجانب الجسدي من الإنسان على حساب جانبه الورحي ، فإن المغالين في ذلك قد وقعوا بانحراف مقابل عندما أخذوا بالجانب الروحي فقط وأهملوا الجانب الجسدي الذي هو جزء لايمكن إنكاره من الكيان الإنساني .

وقد سبق الحديث في الباب الرابع عن أمراض النفس ومعوقات تزكيتها وهي بمجموعها تمثل الانحراف الأول الناشئ عن إهمال الجانب الروحي والنظر إلى الكائن الإنساني وكأنه جسد بلا روح ، وأما الانحراف الثاني المتمثل في تضخيم الجانب الروحي والغلو فيه فهو موضوع حديثنا في هذا الباب .

ولا يخفى على الباحث أن هذا الاتجاه نشأ كردٍّ فعل لما بدأ يتسلل إلى المجتمع المسلم من مظاهر الترف والمجون والانصراف عن طاعة الله سبحانه والإعراض عن تزكية النفس ، مما أدى إلى نشوء نظريات وأراء تدعو إلى الاقبال على الآخرة والانقطاع عن الدنيا والبعد عن أهلها ، وعرف ذلك باسم التصوف .

وقد اختلف العلماء في أصل اشتقاق كلمة (الصوفية) ، فمما قيل فيها إنها من صفاء النفس أو من الصف الأول ، أو الصُفّة المعروفة في المسجد النبوي ، أو نسبة إلى شخص يقال صوفه ، أو أنها مشتقة من الصوف لاشتهار المنتسبين للصوفية بلبس الصوف زهداً وتخشناً ، وهذا الذي اختاره كثير من العلماء لأنه الصواب في اشتقاق الكلمة لغوياً (١)

---

(١) انظر تفصيل هذه الأقوال في المراجع التالية :

مجموع الفتاوي لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٠ / ٣٦٩ ، ٦/١١ تلبيس إبليس للإمام ابن الجوزي ص١٦١-١٦٣ ، التصوف بين الحق والخلق لمحمد فهر شقفه ص/ ١٢ ، موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية للدكتور أحمد البناني ص/ ٦٧- ٧٠ .

وأما نشأة النصوف فقد ذكر الإمام ابن الجوزي أن هذا الاسم ظهر قبل سنة مائتين ، وكان المقصود به رياضة النفس ومجاهدة الطبع بإبعاده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة ، وعلى هذا كان أوائل القوم ، ثم لبّس إبليس فيما بعد على البعض منهم وكلما مضى قرن زاد تلبيسه عليهم (١)

كما بيّن الإمام ابن تيمية أن لفظ الصوفية لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك ، وقد نُقل التكلم به ونقده عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد بن حنبل ، وأبي سليمان الداراني وسفيان الثوري ، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري (٢)

وقد أفاض الإمام ابن تيمية في مناقشة الأراء الصوفية ونقدها والحديث عن نشأتها بأسلوب علمي دقيق ، فبيّن رحمه الله أنه أول ماظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد (٣) الذي هو من أصحاب الحسن البصري ، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة مالم يكن في سائر الأمصار ، ولهذا كان يقال : فقه كوفي وعبادة بصرية (٤)

ثم قال رحمه الله : (والتحقيق أنهم في هذه العبادات والأحوال مجتهدون كما كان جيرانهم من أهل الكوفة مجتهدين في مسائل الفقهاء والإمارة ونحو ذلك) (٥)

وبيّن أن المنهج الذي يُعرف به صواب المجتهد من خطئه هو كلام الله عز وجل وهدي النبي صلى الله عليه والطريقة التي سار عليها الصحابة رضي الله عنهم (٦)

---

(١) ينظر : تلبيس إبليس - ص/ ١٦٣ .

(٢) ينظر مجموع الفتاوي ١١/٥ .

(٣) عبد الواحد بن زيد البصري الزاهد الواعظ ، كان ممن غلبت عليه العبادة حتى غفل عن الإتقان في رواية الحديث ، مات بعد الخمسين ومائة (تنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٧/ ١٧٨ - ١٨٠) .

(٤) مجموع الفتاوى ١١/ ٦ .

(٥) مجموع الفتاوى ١١/ ٦.

(٦) المرجع نفسه ١١/١٤

ودعا رحمه الله إلى سلوك الإنصاف والعدل في النقد ، لأن كثيراً من الناس إذا علم من الرجل ما يحبه أحبه مطلقاً وأعرض عن سيئاته ، وإذا علم منه ما يبغضه أبغضه مطلقاً وأعرض عن حسناته (١)

ثم قال مبيناً الأراء في الحكم على أصل التصوف :

(تنازع الناس في طريقتهم ، فطائفة ذمت الصوفية والتصوف ، وقالوا إنهم مبتدعون خارجون عن السنة .. وطائفة غَلَتْ فيهم ، وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء ، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم . والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين ، وفي كل من الصنفين مَن قد يجتهد فيخطئ ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لايتوب ، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه ، عاص لربه ، وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم) (٢)

ثم أعقب ذلك قائلاً :(فهذا أصل التصوف ، ثم إنه بعْد ذلك تشعب وتنوع ، وصارت الصوفية ثلاثة أصناف : صوفية الحقائق وصوفية الأرزاق وصوفية الرسم ، فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم ، أما صوفية الأرزاق فهم الذين وُقفت عليهم الوقوف .. وأما صوفية الرسم فهم المقتصرون على النسبة ، فهمهّم في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك ، فهولاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل أنه منهم وليس منهم) (٣)

وقد أدرك الباحثون اهمية هذا المقياس العلمي الدقيق الذي اتبعه الإمام ابن تيمية رحمه الله في نقده لمختلف الآراء والاتجاهات وبخاصة التصوف ، وذلك بعرضه على الكتاب والسنة وماكان عليه سلف الأمة . وفي ذلك يقول الدكتور مصطفى حلمي :

(إن ابن تيمية لايُعنى باختلاف الأسماء بقدر مايهتم بمدى اتفاق أصحابها مع الشرع مهما

(١) المرجع نفسه ١١/ ١٥.

(٢) المرجع نفسه ١١/ ١٧-١٨ .

(٣) المرجع نفسه ١١/ ١٨ ـ ٢٠ باختصار .

اختلف أسماؤهم : قراءً أو زهاداً أو نساكاً أو صوفية ، ما داموا يسيرون في طريق السالكين ويتبعون مناهج القاصدين) (١)

ويقول الدكتور أحمد البناني :

(وقد ظهر لي أن الإمام ابن تيمية لم يكن يعادي التصوف على إطلاقه ، بل أنكر منه ما لايوافق الكتاب والسنة ، وما لم يكن مأثوراً عن أحد من الصحابة والتابعين ... بطريقته العلمية النزيهة التي لاتعصب فيها ولامحاباه ، بل لقد بيّن في كثير من الأحيان أسباب الاشتباه في بعض الموضوعات التي دفعت بعض الصوفية إلى التصورات الخاطئة فيها ... ثم بيّن الإمام أن علم السلوك موجود في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أوضح مما هو في كتب الصوفية وغيرهم) (٢)

كما سار على هذا المسلك العلمي الدقيق في نقد التصوف الإمام ابن القيم تلميذ الإمام ابن تيمية رحمهما الله ، حيث ألفّ كتابه القيم (مدارج السالكين) على كتاب الإمام الهروي (٣) (منازل السائرين) فكان يناقش أقواله بالحجة والبرهان وينكر منها مالا يوافق الكتاب والسنة مع الأدب الجم التي تميّز به العلماء الصالحون .

ومن ذلك قوله رحمه الله : (شيخ الإسلام - يعني الهروي - حبيب إلينا ، والحق أحبّ إلينا منه ، وكل من عدا المعصوم صلى الله عليه وسلم ، فمأخوذ من قوله ومتروك ، ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله ، ثم نبين ما فيه) (٤)

ثم بين رحمه الله أن أهل العدل والإنصاف لايهدرون جميع المحاسن وإنما يعطون كل ذي حق حقه ، ويُنزلون كل ذي منزلة منزلته ، فلا يحكمون للصحيح بحكم السقيم المعلول ولا العكس بل يقبلون مايُقبل ويردّون مايُردّ (٥)

---

(١) ابن تيمية والتصوف - للدكتور مصطفى حلمي ص/٣٧ .

(٢) موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية - للدكتور أحمد البناني - ص/١٥ .

(٣) هو الإمام أبو اسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي ، ولد بقندهار سنة ٣٩٦ هـ وتوفي ٤٨١ هـ (ينظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٠٣ - ٥١٨)

(٤) مدارج السالكين ٢/ ٣٧ .

(٥) ينظر المدارج ٢/ ٤٠ .

والواقع أن التصوف كان في بدايته دعوة إلى الزهد ومجاهدة النفس والإقبال على الآخرة ، ثم تشعبت مسالكه وبدأ يتخذ عند كثير من شيوخه وأتباعه طابع البعد عن هدي النبوة شيئاً فشيئاً ، بما أحدثوه من الكلام في العلوم الباطنة والمعارف الأذواق والأحوال بمجرد الرأي أو مايسمونه الكشف ، حتى تحول التصوف إلى علم مستحدث له قواعده وتصوراته وطرقه وتقاليده .

يقول الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله :

(مما أحدث من العلوم الكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب وتوابع ذلك بمجرد الرأي والذوق أو الكشف ، وفيه خطر عظيم ، وقد أنكره أعيان الأئمة كالإمام أحمد وغيره ، وكان أبو سليمان (١) يقول : (إنه لتمر بي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة)

وقال الجنيد (٢) : (علمُنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لايُقتدى به في علمنا هذا) (٣)

ثم بين الإمام ابن رجب ما انتشر في التصوف من انحرافات وأباطيل بدعوى ترقيق النفوس وتهذيبها ، حتى اتسع الخرق ودخل فيه أنواع الزندقة ودعاوى الحلول والاتحاد والقول بوحدة الوجود وغير ذلك من أصول الكفر والفسوق والعصيان ، واختلط فيه الحق بالباطل والهدى بالضلال ، وأكد رحمه الله أن العلم النافع هو العلم المقيد بالكتاب والسنة والمأثور عن سلف

---

(١) هو أبو سليمان الداراني البصري ، عبد الرحمن بن أحمد بن عطيه العنسي ، زاهد مشهور ، من أهل داريا (بغوطة دمشق) رحل إلى بغداد وأقام بها مدة ثم عاد إلى الشام ، وتوفي في بلدته عام ٢١٥ هـ ينظر الأعلام للزركلي (٢٩٣/٣)

(٢) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي ، ولد سنة نيّف وعشرين ومائتين في بغداد وتفقه على أبي ثور ولم يُر في زمانه مثله في عفته وعزوفه عن الدنيا كما قال الإمام الذهبي رحمه الله ، وقد وصفه الإمام ابن تيمية رحمه الله بأنه (سيد الطائفة أمام هدى) كما في مجموع الفتاوي ١٤١/٢ . وينظر سير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٦-٧٠ الأعلام ٢/ ١٤١

(٣) فضل علم السلف على الخلف ـ للإمام ابن رجب الحنبلي ص/ ١٠٧ ـ ١٠٨

الأمة ، وفي ذلك كفاية لمن عقل وشغل لمن عُني بهواشتغل (١)

ولذلك كان لزاماً على الباحث الذي يقوم بتجلية حقيقة المنهج الإسلامى في تزكية النفس أن يكشف عما علق بهذا المنهج من بدع وتصورات مخطئة ومسالك بعيدة عن الصواب .

وقد آثرت الإختصار قدر الإمكان ، واقتصرت على ما يتصل بالموضوع بشكل مباشر ، وذلك من خلال الفصول التالية :

الفصل الأول : التزكية والشيخ المرشد .

الفصل الثاني : التزكية وإرهاق النفس .

الفصل الثالث : التزكية والزهد .

الفصل الرابع : التزكية والعزلة .

الفصل الخامس : التزكية والرهبانية .

وإذا كنت قد ركزت الحديث حول هذه الموضوعات فقط ، فإن هناك جوانب أخرى لا تقف عند حد ، مما هو منتشر عند غلاة الصوفية من شطحات وفلسفات يزعمون التقرب بها إلى الله سبحانه ، ولذلك لابد من إلقاء نظرة موجزة على بعض جوانبها ، وهي :

- الحلول والاتحاد .
- إسقاط التكاليف .
- مصدر التلقي في العبادات .
- التواجد والرقص .

---

(١) ينظر فضل علم السلف على الخلف ص ١٠٩ - ١١١ .

(٢) ينظر في مناقشة هذه الموضوعات : مجموع الفتاوى لابن تيمية (١١/٥٦٧ ــ ٥٨٥) (١١/٥٥٣ ــ ٦٦٠) والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ص/ ٧٤ والاعتصام للشاطبي (١/٢٦٤ ــ ٢٧٣)

التزكية والحلول والاتحاد

عندما يترقي العبد في مدارج التزكية يزداد حباً لله سبحانه وتوحيداً له وإخلاصاً في عبادته واتباعاً لدينه.

وقد عبّر الصوفية عن ذلك بما أسموه (الفناء) وازداد غلّوهم حول هذا المعنى حتى أدى إلى القول بالحلول والاتحاد ، والزعم أنه لا موجود إلا الله ، وأنَّ وجود الخالق هو وجود المخلوق ، فلا فرق بين الرب والعبد(١) .

فنظرية الفناء دار حولها أصحاب الحلول والاتحاد وأقاموا عليها مذهبهم ، فإذا كان بعضهم يقصد بها أن يفنى الشخص عن حظوظه فلا يكون له في شيء حظ شُغلاً بمن في به وهو الله سبحانه(٢) فإن غلاتهم يقصدون بها الفناء عن وجود ما سوى الله زاعمين أن السالك قد يصل إلى مرحلة ينكشف له فيها أن الحق هو الخلق ، ولا فرق بينهما مطلقاً ، فالكثرة متوهمة والحقيقة واحدة ، وأن الذات الإلهية تحل أو تتحد ببدن الإنسان أو روحه حيناً وتفارقه حيناً آخر(٣) .

ومن القائلين بهذه الضلالات (ابن الفارض) وذلك في قصائده المشهورة التي يصوّر فيها تلهفه للقاء المحبوبة ـ ويقصد بذلك الذات الإلهية ـ ثم يتصور أنه اقترب منها في مرحلة قبل الاتحاد إلى أن أصبح هو نفس محبوبته حتى أن صلاته لم تكن إلا له ، فيقول :

لها صلواتي بالمقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لي صلَّتِ
كلانا مصلٍ واحد ساجد إلى ... حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلّى سوايَ ، ولم تكن ... صلاتي لغيري في أداء كل ركعة(٤)

وممن اشتهر عنه القول بالحلول والاتحاد أيضاً الحسين بن منصور الحلاج (المتوفى سنة ٣٠٩ هـ) ومحي الدين بن عربي (المتوفي سنة ٦٣٨ هـ) وكلاهما غاية في الضلال والانحراف .

ولذلك شنّع أئمة الإسلام على هذا الكفر البواح ، وأفاض الإمام ابن تيمية رحمه الله في إبطاله لدعاوى أصحاب الحلول والاتحاد ، مبيّناً أنهم أسوأ حالاً وأفسد مقالاً ممن يقول بالحلول الخاص أو المقيد ، مثل النصارى الذين يقولون بحلول الذات الإلهية في عيسى عليه السلام

---

(١) مجموع الفتاوي ٢٢٢/١٠ .

(٢) ينظر : موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية ـ د . أحمد بناني ـ ص /١٥٥ .

(٣) المرجع نفسه ـ ص/١٧١ .

(٤) مجموع الفتاوي ٣٦٥/٢ ـ ٣٦٦ .

ونحوهم ، أما هؤلاء فيرون أنه حالٌ في كل شيء حلولاً مطلقاً[1] .

والمتأمل لموضوعات فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يجد أنه أكثر من ردوده ومناقشاته لدعاوى أهل الحلول والاتحاد ، وبخاصة (ابن عربي) وكشف أباطيلهم[2] ، ومما قاله في هذا المجال :

(أن قول الاتحادية يصرح بأن عين المخلوقات حتى الكلاب والخنازير والنجاسات والشياطين والكفار هي ذات الله ، أو هي وذات الله متحدتان ، أو ذات الله حالّة فيها ، وهذا الكفر أعظم من كفر الذين قالوا (إن الله هو المسيح بن مريم) و(إن الله ثالث ثلاثة) وأن الله يلد ويولد وأن له بنين وبنات)[3] .

فالغلو إذا بدأ لا يقف عند حد حتى يودي بصاحبه في مهاوي الردى ، والخير كل الخير في التمسك بالشرع القويم ، وأن يلتزم العبد بشهادة التوحيد علماً ومعرفة وعملاً وقصداً .

التزكية وإسقاط التكاليف

من أخطر الأمور التي استطاع الشيطان أن يلبسّ بها على غلاة الصوفية أنه سوّل لبعضهم التحلّل من التكاليف الشرعية بدعوى أن الأوامر والنواهي رسوم العوام ، وأن هذه التكاليف هدفها حصول المعرفة في القلب فإذا حصلت المعرفة فلا حاجة لها ويدّعون أن النفس إذا أصبحت صافية طاهرة لا تنازع إلى الشهوات والأهواء المردية ، فقد تجوهرت وعرفت الحكمة ، ووصلت إلى شهود الحقيقة ، ولم يجب عليها القيام بالأوامر ، ومن هؤلاء من يحتج بقوله تعالى : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾[4] ويقول معناها : اعبد ربك حتى يحصل لك العلم والمعرفة ، فإذا حصل ذلك سقطت العبادة[5] .

ولا شك أن هذا الانحراف كفر صريح ، وأنه من المعلوم في الدين بالضرورة ، وأن الأوامر والنواهي لا تسقط عن العبد مادام في دار التكليف إلا إذا زال عقله وصار مجنوناً[6] .

---

(١) المرجع نفسه ٢/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨ .

(٢) ينظر المجلد ٣٦ من مجموع الفتاوى وهو خاص بالفهارس ص/٣٢ ـ ٣٩ .

(٣) مجموع الفتاوى ١٧٨/٢ .

(٤) سورة الحجرات / آية ٩٩ .

(٥) ينظر : مجموع الفتاوى ٤٠١/١١ ـ ٤٢٠ ، مدارج السالكين ٢٤٧/١ ـ ٢٥٠ .

(٦) مدارج السالكين ٢٤٨/١ .

وقد شنّع الصوفية أنفسهم على هذا الغلو وحذروا منه ، كما ذكر الغزالي في حديثه عن مذاهب الناس وآرائهم في العلم للآخرة ، فقال :
(ظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى ، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل ، وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة ، فتركوا السعي والعبادة ، وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يُمتهنوا بالتكاليف ، وإنما التكليف على عوام الخلق .. ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها)[(١)] .

ولذلك حكم الأئمة على هؤلاء المنسلخين عن التكاليف الشرعية بالكفر ، وأنهم شر من اليهود والنصارى الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض[(٢)] .

فالشرائع والأحكام والأوامر والنواهي ليس المراد منها ضبط العوام ، بل المراد منها الصلاح باطناً وظاهراً للخاصة والعامة في المعاش والمعاد ، وهي جامعة لكل خير يُطلب ويراد ، وفي الخروج عنها كل شر وفساد[(٣)] .

وأما استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ فهي عليهم لا لهم ، وذلك أن اليقين هنا : الموت باتفاق علماء المسلمين ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ **ما سلككم في سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين** ﴾[(٤)] فهذا قالوه وهم في جهنم وأخبروا أنهم كانوا على ماهم عليه من ترك الصلاة والزكاة والتكذيب بالآخرة والخوض مع الخائضين حتى آتاهم اليقين [(٥)] .

وقد بيّن الإمام ابن تيمية رحمه الله براءة المستقيمين من السالكين من هذا الغلو الخطير فقال : (فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف:مثل الفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، والسري السقطي ، والجنيد بن محمد ، وغيرهم من المتقدمين ، ومثل الشيخ عبد القادر ، والشيخ حماد ، والشيخ أبي البيان ، وغيرهم من المتأخرين ، فهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشي على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين ، بل عليه أن يفعل المأمور ، ويدع المحظور إلى أن يموت،وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف)[(٦)] .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٣٠ .
(٢) ينظر : مجموع الفتاوى ١١/٤٠١ .
(٣) المرجع نفسه ١١/٤١٥ - ٤١٦ .
(٤) سورة المدثر ، الآيات /٤٢ - ٤٧ .
(٥) ينظر : مجموع الفتاوي ١١/٤١٧ - ٤١٩ .
(٦) المرجع نفسه ١٠/٥١٦ - ٥١٧ .

التزكية ومصدر التلقي في العبادات

يركّز الصوفية كثيراً على ما يسمونه بالكشف والعلم اللدني ، ويجعلونه هدفاً يسعى إليه السالك ويحرص على بلوغه ، ويقوم بالرياضات النفسية والمجاهدات الطويلة حتى يصل إليه فيكون مصدراً يتلقى عنه ويتحاكم إليه .

والفرق بين العلم اللدني والتعلم ـ كما يقول الغزالي ـ أن العلم اللدني يأتي عن طريق الإلهام والنفث في الروع .

ويضيف قائلاً : (إن هذا العلم اللدني يختص به الأولياء والأصفياء ، حيث تنكشف الحجب عن أعين قلوبهم ، فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ ، ويكون ذلك في المنام تارة ، وفي اليقظة تارة أخرى)(١) .

ثم يقول : (فإذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية ، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة ، بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكُنْهِ الهمَّة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده ، والمتكفل بتنويره بأنوار العلم ، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب .. وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية ، فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش الدائم ، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة)(٢) .

وقد أنكر علماء السلف رحمهم الله تعالى على هذه الدعاوي بشدة ، وبيّنوا انحرافها وأخطارها وأن تحكيم الأحوال والخواطر في العبادات يؤدي إلى فساد كبير ، وأن العلم الشرعي هو الطريق الذي لا يجوز للمسلم أن يحيد عنه ، فالولي المقرَّب إلى الله تعالى هو المعتصم بالكتاب والسنة .

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله :

(إن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة ، وليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة)(٣) .

ويورد كلام الشيخ أبي سليمان الداراني : (إنه ليقع في قلبي النكتة من نُكت القوم

---

(١) (٢) إحياء علوم الدين ٣/١٨ ـ ١٩ .

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ـ ص/٣٢ .

فلا أقبلها إلا بشاهدين : الكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا)(١) .

ولا شك أن الرجوع إلى الإلهام والخواطر التي تقع في النفس والاستناد إليها وجعلها مصدراً للأحكام والتلقي لا يصدر ممن تزكت نفسه وتجردت عن حظوظها وأهوائها ، لأن تقديم هذه الخواطر على العلم الشرعي المستند إلى الكتاب والسنة دليل على تحكم هوى النفس .

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله في رده على من يجعل الذوق والحال والوجد حاكماً ودليلاً :

(ومن العجب أنهم دخلوا في أنواع الرياضات والمجاهدات والزهد ليتجردوا عن شهوات نفوسهم وحظوظها ، فانتقلوا من شهوات إلى شهوات أكبر منها ، ومن حظوظ إلى حظوظ أحط منها ، وكان حالهم في شهوات نفوسهم التي انتقلوا عنها أكمل .. لأنهم لم يعارضوا بها العلم ، ولا قدموها على النصوص ، ولا جعلوها ديناً وقربه ، ولا ازدروا من أجلها العلم وأهله)(٢) .

ثم يقول : (إنه وقع من تحكيم الذوق من الفساد ما لا يعلمه إلا الله ، فإن الأذواق مختلفة في أنفسها ، كثيرة الألوان ، متباينة أعظم التباين ، فكل طائفة لهم أذواق وأحوال ومواجيد ، بحسب معتقداتهم وسلوكهم)(٣) .

ويضيف قائلاً :

(إنه إذا وقع النزاع في حكم فعل من الأفعال ، أو حالٍ من الأحوال ، أو ذوق من الأذواق هل هو صحيح أو فاسد ؟ وحق أو باطل ؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين ، وهي وحيه الذي تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه ، وتُعرض عليه وتُوزن به .. ومن لم يَبْنِ على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله فليس على شيء من الدين)(٤) .

ويقسّم رحمه الله الخواطر والهواجس إلى ثلاثة أنواع : رحمانية وشيطانية ونفسانية ، مبّيناً أن العبد مهما بلغ من الزهد والعبادة فإن معه شيطانه ونفسه لا يفارقانه إلى الموت ، والشيطان يجري منه مجرى الدم ، والعصمة إنما هي للرسل صلوات الله وسلامه عليهم

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ـ ص/٣٢ .

(٢) (٣) مدارج السالكين ١/٤٩٥ .

(٤) المرجع نفسه ١/٤٩٦ .

الذين هم وسائط بين الله عز وجل وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده ، ومن عداهم يصيب ويخطئ ، وليس بحجة على الخلق[1] .

وقد لبّس أبليس على الصوفية الذين حكموا هواجسهم وخواطرهم على الكتاب والسنة فيقول أحدهم : حدثني قلبي عن ربي ، نحن أخذنا عن الحي الذي لا يموت وأنتم أخذتم عن الوسائط ، حتى قيل لأحدهم ألا تذهب فتسمع الحديث من عبد الرزاق ؟ فقال : ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق مَنْ يسمع من الملك الخلاق ؟ .

ومن ظن أنه يستغني عما جاء به الرسول بما يُلقى في قلبه من الخواطر والهواجس فهو من أظم الناس كفراً ـ كما يقول الإمام ابن القيم رحمه الله ـ[2] ولذلك أنكر أهل الاستقامة هذا الانحراف وتبرؤوا منه ، وحذروا من تحكيم هذه الهواجس وما يسمى الكشف والعلم اللدني .

يقول الجنيد : (مذهبنا هذا مقيد بالأصول الكتاب والسنة ، فمن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ويتفقه ، لا يقتدى به)[3] .

---

(١) (٢) ينظر : إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ـ لابن القيم ١/١٢٢ ـ ١٢٤ .

(٣) المرجع نفسه ـ ١/١٢٥ .

التزكية والتواجد والرقص

وصف الله سبحانه عباده المؤمنين أنهم إذا ذكروا ربهم وتلوا آياته أو استمعوا إليها ، وجلت قلوبهم ودمعت عيونهم واقشعرت جلودهم ، خشية من الله ومحبة له وشوقاً إلى لقائه .

قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** ﴾(1) .

وقال عز وجل : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾(2) .

وقال سبحانه : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾(3) .

وقال تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترىٰ أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** ﴾(4) .

ولكن الصوفية ابتدعوا مجالس للسماع والذكر يدَّعون أنها طريق للتزكية وترقيق القلوب ، ويتواجدون فيها من التمايل والرقص والصياح ونحو ذلك .

وقد أنكرالأئمة الأعلام ذلك وحذّروا منه أشد تحذير ، فهذا هو الإمام القرطبي رحمه الله ينبّه على هذه الأفعال في تفسيره لسورة الأنفال عند قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ فيقول :

(فهذا حال العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ، ومن النهاق الذي يشبه نُهاق الحمير ، فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أنه وَجْدٌ وخشوع : لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله والخوف من الله ، ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال : ﴿ **وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** ﴾(4) ، فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم ، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم)(5) .

---

(1) سورة الأنفال / آية 2 .
(2) سورة الزمر / من الآية 23 .
(3) سورة الرعد / آية 28 .
(4) سورة المائدة / من الآية 83 .
(5) تفسير القرطبي 7/365 .

ثم أورد ما رواه الترمذي وصححه عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون)[1] ولم يقل : زعقنا ولا رقصنا ولا زفنّا[2] ولا قمنا)[3] .

وقد سئل الإمام الشاطبي رحمه الله عن قوم يتسمون بالفقراء يزعمون أنهم سلكوا طريق الصوفية ، فيجتمعون في بعض الليالي ، ويأخذون في الذكر الجهوري على صوت واحد ثم في الغناء والرقص إلى آخر الليل ، ويحضر معهم بعض المتسمين بالفقهاء ، هل هذا العمل صحيح في الشرع أم لا ؟

فأجاب رحمه الله أن ذلك كله من البدع المحدثات ، المخالفة طريقة رسول الله ﷺ ، وطريقة أصحابه والتابعين لهم بإحسان[4] .

كما أن الإمام ابن تيمية رحمه الله قد أفاض وفصّل في مناقشة هذا الموضوع والرد على هذه البدع المحدثة والأفعال المحرمة وما يطلقونه عليه (سماع الصالحين) ، وأجاب عن أسئلة عديدة وردت إليه في هذا المجال ، فكان مما قاله :

(السماع الذي شرعه الله تعالى لعباده ، وكان سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم وزكاة نفوسهم ، فهو سماع آيات الله تعالى ، وهو سماع المؤمنين وأهل العلم وأهل المعرفة)[5] .

ثم رد على أهل التصوف احتجاجهم ببعض الأحاديث الموضوعة في هذا المجال ومنها أن أعرابياً أنشد الرسول ﷺ بعض الأشعار وأنه تواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه ، ومنها أن الرسول لما بشرَّ الفقراء بسبقهم الأغنياء إلى الجنة تواجدوا وخرقوا ثيابهم إلى غير ذلك من الأحاديث المكذوبة[6] .

ثم تكلم رحمه الله :

(تكلم كثير من المتأخرين في السماع : هل هو محظور أو مكروه أو مباح ؟ وليس المقصود بذلك مجرد رفع الحرج ، بل مقصودهم بذلك أن يُتخذ طريقاً إلى الله يجتمع عليه

---

(١) رواه الترمذي ـ رقم /٤٦٠٧ . وقد سبق تخريجه ص/٣١٢ من هذا البحث .

(٢) زفَنَ : أي رقص . (المعجم الوسيط ١/٣٩٥) .

(٣) تفسير القرطبي ٧/٣٦٥ .

(٤) الاعتصام ١/٢٦٤ .

(٥) مجموع الفتاوى ١١/٥٥٧ .

(٦) المرجع نفسه ١١/٥٦٣ .

أهل الديانات لصلاح القلوب والتشويق إلى المحبوب والتخويف من المرهوب ، والتحزين على فوات المطلوب ، فتُنزل به الرحمة وتُستجلب به النقمة .. حتى يقول بعضهم : إنه أفضل لبعض الناس أو للخاصة من سماع القرآن من عدة وجوه ، حتى يجعلونه قوتاً للقلوب ، وغذاء للأرواح وحادياً للنفوس ، يحدوها إلى السير إلى الله ويحثها على الإقبال عليه ، ولهذا يوجد من اعتاده واغتذى به لا يحنُّ إلى القرآن ولا يفرح به ، ولا يجد في سماع الآيات كما يجد في سماع الأبيات)[1] .

وقد ردَّ الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله في شرحه على صحيح البخاري دعاوى الصوفية واستدلالهم على ما يقومون به بما ورد من روايات في البخاري وغيره أن جاريتين من جواري الأنصار كانتا تغنيان عند عائشة رضي الله عنها في يوم العيد[2] مبيناً أن هذا ليس بالغناء المعروف ، لأن الرواية نفسها صرحت بذلك بقول عائشة رضي الله عنها : (وليستا بمغنيتين) أي : ليستا ممن يَعرف الغناء كما يعرفه المغنيات المعروفات بذلك ، ثم أورد عن الإمام القرطبي قوله :

(وأما ما ابتدعه الصوفية في ذلك فمن قبيل ما لا يُختلف في تحريمه ، لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن ينتسب إلى الخير ، حتى لقد ظهرت من كثير منهم فعلات المجانين والصبيان ، حتى رقصوا بحركات متطابقة وتقطيعات متلاحقة ، وانتهى التواقح بقوم منهم إلى أن جعلوها من باب القُرب وصالح الأعمال ، وأن ذلك يثمر سنيَّ الأحوال ، وهذا على التحقيق من آثار الزندقة وقول أهل المخرّقة ، والله المستعان)[3] .

وعقب الإمام ابن حجر بقوله :(ينبغي أن يُعكس مرادهم ، ويقرأ : سيء الأحوال)[4] أي بدل : سَنِيَّ الأحوال ، لأنها ليست من أفعال أهل الاستقامة ولا تمتُّ إلى الدين بصله .

وبعد هذا الاستعراض الموجز نعود للحديث عما يتصل بالتزكية من انحرافات الصوفية ، فيما يتعلق بالشيخ المرشد وإرهاق النفس والزهد والعزلة والرهبانية .

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/٥٦٧ ـ ٥٦٨ .

(٢) الرواية في صحيح البخاري ـ كتاب العيدين ـ باب سنة العيدين لأهل الإسلام .

(٣) (٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ـ ٢/٤٤٢ .

الفصل الأول

التزكية والشيخ المرشد

لاشك أن صحبة الصالحين والعلماء الصادقين لها أثر كبير في تزكية النفس والسموّ بها،فمن جالس جانس ، ومن أحب قوماً فهو منهم ، وقد سبق الحديث عن أهمية الصحبة الصالحة في التزكية ، ودورها في تقوية الإيمان والثبات على طاعة الرحمن (١)

ولكن الصوفية بالغوا في ذلك لدرجة أنهم جعلوا التزكية لاتتم إلا عن طريق التزام شيخ وبيعة ، وأن ذلك الشيخ هو وحده الذي يعالج أمراض النفس ، ولايمكن للسالك أن يصل إلى ربه إلا عن طريق هذا المرشد الذي هو واسطة بين العبد وربه ، كما لايمكن له أن يقوم بعلاج نفسه ، لأنه لابد لكل مريض من طبيب ، وعلى المريض أن لايخفي عن طبيبه شيئاً من علله ، وأن يستجيب لما يأمره به من العلاج ويستسلم له ولا يخالف أمره في شئ ، حتى أصبح التدين عندهم مرتبطاً بالشيخ وكراماته واستمداد المدد منه والتزام طريقته والتسليم له في جميع الأمور وخدمته والتذلل بين يديه ونحو ذلك .

ويتضمن هذا الغلو جوانب كثيرة ، من أبرزها :

١ ـ ادعاؤهم بأنه لايجوز للمريد أن يتخذ أكثر من شيخ .

٢ ـ ادعاؤهم أن الشيخ هو الواسطة بين العبد وربه .

٣ ـ الطاعة المطلقة للشيخ والغلو في محبته وأوصافه .

ولنبدأ بالحديث عن الجانب الأول :

١ ـ ادعاؤهم بأنه لايجوز للمريد أن يتخذ أكثر من شيخ .

وفي ذلك يقول الشعراني :

(من شأن المريد أن لايكون له إلا شيخ واحد ، فلا يجعل له قط شيخين لأن مبنى القوم على التوحيد الخالص) (٢) وكأنه يحصر التوحيد في الربوبية يعني الرب الواحد

وينقل عن ابن عربي قوله : (أعلم انه لايجوز لمريد أن يتخذ له إلا شيخاً واحداً لأن ذلك أعون

---

(١) ينظر ص / ٢٦٤ من هذا البحث

(٢) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية للشعراني ٦٤/١ .

له في الطريق ، وما رأينا مريداً قط أفلح على يد شيخين ، فكما أنـه لم يكـن وجـود العـالم بـين إلهين ولا المكلف بين رسولين ولا إمرأة بين زوجين ، فكذلك المريد لايكون بين شيخين) (١)

ويحاول أن يبرر ماكان عليه سلف الأمة من عدم اقتصار أحدهم على شيخ واحـد ، فيقـول (لا يخفى أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين إنما لم يكونوا يتقيدون بشـيخ واحد ، بل كان أحدهم يأخذ عـن مائـة شيخ ، لأنهـم رضـي ا لله عنهـم كـانوا مطهريـن مـن الأدناس والرعونات ، فكان كـل واحـد منهـم كـاملاً لايحتـاج إلى مـن يسـلكه ، فلمـا كـثرت الأمراض واحتاجوا إلى علاجها أمرهم الشيوخ بالتقيد على شيخ واحد ، لئلا يتبدد حـال المريـد وتطول عليه الطريق) (٢)

ولاشك أن هذا الادعاء غير صحيح ، لأنه لايمكن القطع بأن كل واحد مـن السـلف كـان كاملاً لايحتاج إلى من يسلكه ، فهـذا الحكـم لا ينطبـق علـى جيـل الصحابـة فضـلاً علـى جيـل التـابعين وتـابعي التـابعين ، فقـد كـانوا متفـاوتين في التقـوى والصـلاح ، ووجـد فيهـم الطـائع والعاصي وظهرت عند بعضهم شئ مـن أمـراض النفـس وآفاتهـا لأنهـم بشـر غـير معصومـين ، ولكن أحوالهم صلحت بالتزامهم بمجالس العلماء والإكثـار مـن الأخـذ عـن شـيوخهم في العلـم والأدب على السواء ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، والنبي صلى ا لله عليه وسلم كان معلماً لأصحابـه ومزكياً لهم .

ثم انظر كيف وصل بهم الغلو إلى الادعاء بأن وجود المريد بين شيخين لابـد أن يـؤدي إلى الفساد والتناقض ، كما لو وجد العالم بين إلهين ، وإنه لم يفلح مريـد قـط بـين يـدي شـيخين ، وكيف يصح ذلك مع اعترافهم أن السلف الصالح كان الواحد منهم يأخذ عن مائة شيخ !!

والتأمل لسير الصالحين وأخبارهم يجد أنهم كانوا يكثرون من صحبة العلماء والأخذ عنهم دون أن يقتصر أحدهم على شيخ واحد ، بل كانوا يحرصون على الانتقال من بلد لآخر للتلقـي عـن العلمـاء والمربـين والاقتبـاس منهـم ، ولذلـك كـثرت رحلاتهم وحفلـت كتـب الـتراجم بأخبارهم .

(١) (٢) المرجع نفسه ٦٥/١ .

وقد حصل بين الطرق الصوفية بسبب هذه الدعوى خصومات كثيرة ، لما كانوا يقومون به من تجاذب المريدين والأتباع ، وكل شيخ يحذر أتباعه من الذهاب إلى غيره حتى نفر بعضهم من التدين والعياذ با لله تعالى .

٢ ـ ادعاؤهم بأن الشيخ هو الواسطة بين العبد وربه .

ولهم في هذا المجال أقوال كثيرة تبين أن التزكية عندهم لا تصح إلا عن طريق الشيخ المرشد واستمداد الروحانية منه وبيعته ، وأخذ الورد عنه ، ودوام ربط القلب معه ، وأن من توجّه إلى ا لله بلا واسطة فإنه يتمزق !!

وفي ذلك يقول الشعراني في حديثه عن شروط المريد (ومن شرطه أن يرى روحانية شيخه متصلة به ، لا ينحجب عنه شيخه لاتصال روحه بمريد آخر ، بل روحانية الشيخ تمد مريديه كلهم ولو كانوا مائة ألف ألف مثلاً ، وليحذر أن يرفض واسطة شيخه له ويتوجه إلى ا لله بلا واسطة ، فإنه يتمزق ولا يحصل على طائل لجهله با لله عز وجل) (١)

ويقول أيضاً : (الشيخ هو كعبة المريد التي يتوجه إليها في سائر مهماته) (٢)

كما يقول : (ومن شأنه دوام ربط قلبه مع الشيخ والانقياد له ورؤية اعتقاده أن ا لله تعالى جعل جميع إمداده لايخرج إلا من باب شيخه ، وأن شيخه هو المظهر الذي عيّنه ا لله تعالى للإفاضة عليه منه ، ولايحصل له مدد وفيض إلا بواسطته) (٣)

ويشترط في الشيخ المرشد أن يكون مأذوناً له بالإرشاد من شيخه ليكون متصل المدد ، وهذا الشيخ الواصل هو وسيلة المريد إلى ربه ، والباب الذي يُدخل منه على ا لله ، ومن لاشيخ

---

(١) الأنوار القدسية ـ ٢/ ١٠٣

(٢) المرجع نفسه ٢/ ٨٢

(٣) نفسه ٢/ ٨٤

له يرشده فشيخه الشيطان ـ كما يقولون ـ (٤)

وفي هذه الدعاوى غلو كبير وخطر عظيم ، لأنها تتضمن إلغاء وتعطيلاً لدور القرآن الكريم والسنة النبوية في تزكية النفس وإرشاد الناس ، فالقرآن والسنة في ذاتهما هاديان إلى الله تعالى ومزكيان للروح والنفس أيّما تزكية ، والتمسك بهما عصمة ونجاة ولايزيغ عنهما إلا هالك .

وقد ردّ الإمام ابن تيمية على دعوى الصوفية بأن السلوك لا يتلقى إلا عن طريق المرشد فقال : (إن السلوك هو بالطريق التي أمر الله بها ورسوله من الاعتقادات والعبادات والأخلاق ، وهذا كله مبيَّن في الكتاب والسنة . . ولكن كثيراً من أهل العبادة والزهادة أعرض عن طلب العلم النبوي الذي يُعرف به طريق الله ورسوله ، فاحتاج لذلك إلى تقليد شيخ) (٢)

٣ ـ الطاعة المطلقة للشيخ والغلو في محبته وأوصافه .

ولهم في التأكيد على ذلك أقوال كثيرة وشطحات كبيرة ، واليك بعض النماذج :

يقول الشعراني :(وأجمعوا على أن من شرط المحب لشيخه أن يصمّ أذنه عن سماع كلام أحد في الطريق غير شيخه ، فلا يقبل عذل عاذل) (٣)

ويقول أيضاً : (فيا سعادة من حصر أنفاسه مع الشيخ ، وانسلخ من إرادات نفسه وأفنى مراده في مراد شيخه ، ومُزجت روحه بروحه على حكم الملاصقة ليرتقي من حكم عدم الاختيار مع الشيخ إلى عدم الاختيار مع الله تعالى ، ويصير يفهم عن الله تعالى كما يفهم من الشيخ) (٤)

ويقول السهروردي : (وهكذا أدب المريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار لا يتصرف

---

(١) ينظر تفصيل ذلك في كتاب / عوارف المعارف للسهروردي ص / ٩٥ وما بعدها ، وكتاب / تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب ـ لمحمد أمين الكردي ص/ ٥٥٥ .

(٢) مجموع الفتاوى ٢٧٣/١٩ .

(٣) الأنوار القدسية ١٦٧/١ ـ ١٦٨ .

(٤) المرجع نفسه ٨٦/٢ .

في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره) (١)

وهذا الغلو في تعظيم الشيخ والتسليم له في جميع الأمور وأن يكون المريد مسلوب الاختيار أمام الشيخ مما لا يقره شرع ولا عقل ، ولايمكن بحال من الأحوال أن يؤدي إلى تزكية نفوس المريدين لأنه يهدم أساساً من أبرز الأسس العقدية للتزكية وهو الاعتصام بالكتاب والسنة ، فالطاعة المطلقة لاتكون إلا لله ورسوله ، وكل إنسان مهما علت مرتبته يؤخذ من قوله ويُردّ عليه إلا الأنبياء والرسل الذين عصمهم ا لله سبحانه وتعالى ، ولا يخفى أن هذا الغلو يؤدي إلى شرك في الطاعة والعبادة

وقد نبه القشيري - وهو من كبار شيوخ الصوفية - على أنه ينبغي للمريد أن لا يعتقد في المشايخ العصمة (٢) .

فلماذا إذا الطاعة المطلقة وسلب الاختيار أمام الشيخ !!

ثم إن المتأمل لما امتلأت به كتب التصوف من الغلو في أوصاف شيوخهم وتقديسهم يصاب بالدهشة .

يقول الشعراني : (مرشدك إلى الحق تعالى هو العين التي ينظر الحق بها إليك باللطف والرحمة ، وهو وجه الحق الذي يُقبل بواسطة عليك ، ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه ، فاعرف والزم) (٣)

ويقول أيضاً :(إن الشيخ ولو قلّت أعماله الظاهرة فهو بباطنه ، وكل يوم من أيام الاستاذ عند ربه كألف سنة مما يعدّ المريدون عند ربهم) (٤)

ويقول التيجاني : (أما ماهي حقيقة الشيخ الواصل فهو الذي رفعت له جميع الحجب عن كمال النظر إلى الحضرة الإلهية ، نظراً عينياً وتحقيقاً يقينياً .. فهذا هو الشيخ الذي يستحق أن يطلب ، ومتى عثر المريد على من هذه صفته فاللازم في حقه أن يلقي بنفسه بين يديه كالميت بين يدي غاسله لا اختيار له ولا إرادة ، ولا إعطاء له ولا إفادة ... ومتى أشار عليه بعمل أو

---

(١)عوارف المعارف ص٤٠٣ .

(٢) الرسالة القشيرية ص/١٨٤ .

(٣) الأنوار القدسية ٢/١٠ .

(٤) المرجع نفسه ٢/ ١٣ .

أمر فليحذر من سؤال لِمَ ؟وكيف ؟ وعلام ؟ ولأي شيء ؟ فإنه باب المقت والطرد) (١)

ثم يقول :(وأما الشيخ الذي هذه صفته وكيف يُتصل به وبماذا يعرف ؟ فالجواب : أن الشيوخ المتصفين بهذا الأمر كثيرون .. وأما معرفتهم والاتصال بهم فإنه عسير أغرب وجوداً من الكبريت الأحمر) (٢)

ويعلل صعوبة الوصول إلى هؤلاء الشيوخ بأنهم اختلطوا بصور العامة وأحوالهم ، واختفوا عن غيرهم بإظهار بعض المنكرات والفواحش التي هي تصورات خيالية يراها غيرهم حقيقة ، وما فعلوا ذلك إلا استتاراً لهم عن العامة حفظاً لمقاماتهم وتحريراً لآدابهم (٣)

فانظر كيف يتمادى الغلو بصاحبه حتى يخرجه عن هدي النبوة ومقتضى العقل السليم !!

إذ كيف تكون التزكية محصورة بطريق الشيخ ثم يختفي الشيخ عن أعين الناس ليكون البحث عنه عسيراً ووجوده أندر من الكبريت الأحمر ؟!

وماذا يفعل طالبوا التزكية وهم عامة المسلمين بعد أن كادت تسد عليهم الأبواب ؟ وكيف يسلّمون أمورهم ويقدمون الطاعة المطلقة لمن يتظاهر بشيء من المنكرات ليستتر عن أعين الناس ولا يُعرف أنه من الشيوخ ؟! وكيف يكون شيخهم هذا قدوة لهم في سلوكهم ؟

لاشك أن هذا كله من تلبيس الشيطان ، ولايمكن لقاصد طريق التزكية أن يجد بُغيته مع هذا الغلو والانحراف إلا إذا أراد تزكية بعيدة عن المنهج الإسلامي القويم .

ومهما علت رتبة الشيخ ومنزلته عند ربه فلا تجوز الطاعة المطلقة له ، وإنما يطاع فيما يوافق الكتاب والسنة ، فهي طاعة مبصرة وليست طاعة عمياء .

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله :

(١ -٣) جواهر المعاني - لأحمد بن محمد التيجاني - ٢/١٨٥ .

والتيجاني شيخ الطريقة التيجانية في المغرب ، توفى سنة ١٢٣٠ . (انظر ترجمته في الاعلام ١/ ٢٤٥)

(إن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل ، وتجب طاعتهم فيما يأمرون به ، بخلاف الأولياء فإنهم لاتجب طاعتهم في كل ما يأمرون به ، ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به ، بل يُعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة ، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله ، وما خالف الكتاب والسنة كان مردوداً ، وإن كان صاحبه من أولياء الله) (١)

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٣١ .

الفصل الثاني

التزكية وإرهاق النفس

المتأمل لكتب التصوف يلاحظ أنها تركز على ضرورة إرهاق النفس والتشديد عليها وتعذيبها بالجوع وطول السهر ، وإبعادها عن أي حظ من حظوظها ولو كان مباحاً ، لأنها عندهم أصل كل بلية فلابد من محوها وكبت غرائزها وتحطيم جميع رغباتها ، وقد أفصح ابن عجيبة في شرحه للحكم العطائية عن ذلك :

(إن طريق مجاهدة النفس أن تعلمها الصمت ثم العزلة ثم تقدمها للخراب شيئاً فشيئاً) (١)

وقال أيضاً (لايدخل على الله حتى يموت أربع موتات : الموت الأحمر وهو مخالفة النفس ، والموت الأسود وهو تحمل الأذى من الخلق ، والموت الأبيض وهو الجوع ، والموت الأخضر وهو لبس المرقعات) (٢)

ولذلك يؤكدون على احتقار النفس وتعريضها للهوان وكسر غرائزها ، وأن من فعل ذلك فقد تحقق بشروط الطريق .

وفي ذلك يقول الشعراني :

(من شرط المريد الصادق أن يرى نفسه كأنه محل للأرجاس ، ومقامه دائماً تحت أقدام الناس) (٣) .

ويقول أيضاً في حديثه عن بعض شيوخ الصوفية وماكان يلزم به نفسه من مجاهدات :

(قاسيت الأهوال في بدايتي ، وما تركت هولاً إلا ركبته ، وكان لباسي جُبه صوف وعلى رأسي خريقة ، وكنت أمشي حافياً في الشوك وغيره ، وكان قوتي قمامات البقل وورق الخس من شاطئ النهر ، ولم أزل آخذ نفسي بالمجاهدة حتى طرقني من الله تعالى الحال الذي يطرق القوم

(١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم ـ لابن عجيبة الحسنى ص٤١٠ ـ ٤١١ .

(٢) المرجع نفسه ص/ ٤١٦ .

(٣) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ـ عبد الوهاب الشعراني ـ ١٤٢/١ .

وكان يقول :لقد تظاهرات بالخرس والجنون مراراً لتنفر الناس عني ولايشغلوني عن ربي عز وجل وحُملت مراراً إلى المارستانا (١) وأقمت في صحراء بغداد والعراق وخرائبها نحو خمس وعشرين سنة على التجريد والسياحة حتى كنت لا أعرف الخلق ولا يعرفوني) (٢)

فانظر كيف تُعرض هذه الأحوال في كتب التصوف على أنها أحوال كمال ورُقي مع أنها لا تليق بمنزلة العبد المسلم الذي كرّمه ا لله سبحانه وجعله خليفة في الأرض وشـرّفه بحمل أمانة هذا الدين ونشر نوره بين الناس .

وإذا كان الدافع لهذا الغلو علاج أمراض النفس وآفاتها من تكبر وغرور وتسلط للشهوات ، فإن ذلك العلاج بلغ في جَوْره وغلّوه أنه لم يكتف بإزالة المرض وإنما أراد أن يزيل النفس ويمحو أثرها ويحطم طاقاتها وكيانها ، حتى يصبح الإنسان عضواً أشلّ في المجتمع لا يُرجى منه أن يصلح فساد الناس أو يرشدهم إلى طريق الخير (٣)

وقلما يسلم كتاب من كتب التصوف من هذا الغلو والتأكيد على ضرورة كسر الشهوات والمبالغة في تحقير النفس وتعذيبها .

وقد أورد الإمام الغزالي في الإحياء صوراً كثيراً من معاقبة النفس وتعذيبها وأثنى على من فعل ذلك ، ومن هذه الصور أن رجلاً كلّم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست ، وأن آخر ترك يده معلقة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت ، فشكر ا لله له ذلك وأنزل ذكره في بعض كتبه !!

وأن ثالثاً نظر إلى محاسن امرأة فرفع يده فلطم عينه حتى بُقرت !!

وأمثال ذلك (٥) فانظر كيف يصل الغلو بهؤلاء إلى اقتراف المحرمات على أنها قربات إلى

---

(١) أي : مستشفي المجانين

(٢) الأنوار القدسية ١/١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٣) ينظر تفصيل ذلك في كتاب / الإسلام والطاقات المعطلة للشيخ محمد الغزالي ص ٤٠ ـ ٥٧ .

(٤) ينظر : إحياء علوم الدين ٤٠ ـ ٤٠٦ .

ا لله سبحانه ، فالعقوبة المشروعة التي يجوز للعبد أن يأخذ بها فى مجاهدة نفسه أن يمنعها من بعض الحلال في المأكل أو الملبس أو المسكن فترة معينة أو يلزمها ببعض الطاعات والنوافل بقدرٍ لايُخلُّ بالواجبات الأخرى ، كما سبق بيانه عند الحديث عن مجاهدة النفس .

وقد نبه الإمام ابن الجوزي رحمه ا لله إلى ذلك في كتابه (منهاج القاصدين) الذي هو مختصر لإحياء علوم الدين ، وأورد بعض ما كان السلف يعاقبون به أنفسهم من عقوبات مباحة ، ثم قال : (فأما العقوبات بغير ذلك مما لايحل ، فيحرم عليه فعله)

وأشار إلى بعض ماورد في الإحياء من أمثلة ومواقف ثم قال عنها : (وهذا من الجهل بالعلم ، فإنه ليس للإنسان أن يتصرف في نفسه بمثل هذا) (١)

كما حمل بشدة على هذا الغلو في كتابيه : (تلبيس إبليس) و (صيد الخاطر) فحذّر من مبالغات الصوفية في تقليل المطعم ومعاقبة النفس بالجوع والعطش والتبذل في اللباس وإرهاق النفس وتعذيبها بحجة الزهد في الدنيا وقطع العلائق التي تعوق عن طريق الآخرة (٢)

فكان مما قاله : (كيف يجوز لنا نعذبها ـ أى النفس ـ وقد قال ا لله عز وجل ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم** ﴾ (٣) ورضي منا بالإفطار في السفر رفقاً بها ، وقال ﴿ **يريد ا لله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ (٤) أوليست مطيتنا التي عليها وصولنا) (٥) ثم قال : (إن للنفس حقاً ومنع الحق مستحقة ظلم ، ولايحل للإنسان أن يؤذي نفسه ... وقوام النفس بالأغذية فإذا منعها أغذية الأدميين ومنعها الماء فقد أعان عليها ، وهذا من أفحش الخطأ ، وكذلك منعه إياها من

---

(١) ينظر مختصر منهاج القاصدين ـ للإمام ابن قدامة المقدسي ـ ص ٣٧٥ .

(٢) ينظر : تلبيس إبليس ص / ١٧٥ ـ ٢٢٠ ، وصيد الخاطر ص / ٣٤ ـ ٤٠ .

(٣) سورة النساء / من الأية ٢٩ .

(٤) سورة البقرة / من الآية ١٨٥ .

(٥) تلبيس إبليس ص / ٢١٧ .

النوم .. وهذه النفوس ودائع الله عز وجل) (١)

كما بين رحمه الله أن البدن مطية ، لابد من الرفق بها لتصل براكبها إلى المنزل ، وأن حرمانها الدائم يؤدي إلى السقم ويمنع صفاء الذهن ، وأن إعطاءها بعض حظوظها المباحة يعين على سيرها (٢)

وهذا ما نبه عليه الإمام الشاطبي أيضاً ، فقد بين رحمه الله أن الحرج منفي عن هذا الدين جملة وتفصيلاً ، وأن الذين يشددون على أنفسهم بالاقتصار على الخشن في المأكل والملبس من غير ضرورة إلا لمجرد التشديد لابد أن يفضي بهم الأمر إلى الابتداع ، لأن الشرع لم يقصد إلى تعذيب النفس في التكاليف ، وهو أيضاً مخالف لقول الرسول صلى الله عليه وسلم (إن لنفسك عليك حقاً) (٣) فمن أراد التشديد على النفس وحرمانها من جميع حظوظها المباحة فقد ابتدع خلاف ما قصده الشارع الحكيم من الرفق والتيسير (٤)

ومن العجب أن بعض الصوفية يقف من موضوع حظ النفس موقف الغلو والتشدد من جميع الوجوه حتى لو كان حظ النفس متعلقاً بالأجر والثواب الأخروي / بدعوى أن الراجي يتعلق قلبه بالثواب وهذا ينافي استسلامه وانقياده وانطراحه بين يدي ربه مستسلماً لما يحكم به فيه ، فرجاؤه معارض لحكمه وإرداته (٥) !!

وقد حمل الإمام ابن القيم رحمه الله على هذه الدعوى بشدة ، وأنكر على الإمام الهروي القول بها ، وناقشه في صفحات كثيرة من كتاب (المدارج) مبيناً أن هذا ونحوه من الشطحات التي ينبغي التحذير منها ، وأنها أوجبت فتنة طائفتين من الناس : طائفة

---

(١) تلبيس إبليس ص / ٢١٧ .

(٣) ينظر : صيد الخاطر ص / ٨٤ - ١٢٧ .

(٣) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم في قصة عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ـ وسيأتي بتمامه عند الحديث عن الرهبانية (ينظر ص /٤٩٢ من هذا البحث)

(٤) ينظر : الاعتصام للشاطبي ١/ ٣٤٠ - ٣٤٤ .

(٥) ينظر : مدارج السالكين ٣٧/٢ .

طائفة أهدرت كل المحاسن وأساءت الظن مطلقاً ، وهذا إسراف ، وطائفة حُجبت بما رأوه من حسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم ، فسحبوا عليها ذيل المحاسن وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها .

وقد ظن القائلون بهذا القول أن الرجاء يتعلق بحظ النفس ، وأن المحب الصادق من فني بمراد محبوبه ولو كان فيه تعذيبه ، حتى ادعى بعضهم أن التعذيب بالهجران أحب إليه من طيب الوصال ، لكون الوصال فيه ما تشتهيه النفس ، وأما التعذيب فليس للنفس فيه مقصود !

وقد بيّن الإمام ابن القيم رحمه الله أن استسلام العبد لربه لاينافي الرجاء ، فقوة الرجاء أوجبت له هذا الاستسلام والانقياد ، فالخوف مستلزم للرجاء ، والرجاء مستلزم للخوف ، فكل راجٍ خائف من فوات مرجوّه ، والخوف بلا رجاء يأس وقنوط (١) .

وقد اثنى الله على عباده الصالحين ، فقال تعالى :

﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ (٢) وقال سبحانه : **﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾** (٣)

فالرجاء ضروري للعبد ، ولو فارقه لحظة لتلف ، ولو كان فيه معارضة لتصرف المالك في ملكه ، لكانت هذه المعارضة وإرادة أيضاً في دعاء العبد ربه وسؤاله أن يوفقه ويسدده وينجيه من النار !! والرب سبحانه ليس له ثأر عند عبده فيدركه بعقوبته ، فهو سبحانه غني عن العالمين ، ورحمته اوسع من عقوبته (٤)

وهكذا نجد أن الغلو عند كثير من المتصوفة بلغ حداً خالفوا به مقتضى الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، لأنهم توجهوا إلى عداء النفس كلية وتدمير جميع رغباتها المحمودة والمذمومة على السواء .

---

(١) المرجع نفسه ٢/٥١ .

(٢) سورة الإسراء / آية ٥٧ .

(٣) سورة البقرة / آية ٢١٨ .

(٤) انظر تفصيل هذه المناقشة في المدارج ٢/ ٣٧ - ٥٩ .

الفصل الثالث

تزكية النفس والزهد

الزهد في الدنيا وعدم الركون إليها سمة من سمات الصالحين ودرجة عليا يحظى بها السائرون في طريق التزكية المشمرون للدار الآخرة .

وقد تظاهرت نصوص الكتاب والسنة في بيان أهمية الزهد وفضله ، والتحذير من الانشغال بالدنيا عن الآخرة ، وتصوير حقيقة الحياة الدنيا وهوانها على الله سبحانه ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾[1].

وقوله سبحانه : ﴿ **يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾[2] .

وقوله عزوجل : ﴿ **وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان[3] لو كانوا يعلمون** ﴾[4] .

إلى غير ذلك من عشرات الآيات القرآنية التي تزهد في الدنيا وتخبر بهوانها وزوالها وسرعة فنائها وترغب في الآخرة وتحث على العمل لها .

وأما الأحاديث النبوية فأكثر من أن تحصر ، ومن أبرزها :

ـ ما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا

(١) سورة الحديد / آية ٢٠ .

(٢) سورة فاطر / آية ٥ .

(٣) أي : الحياة الدائمة التي لا زوال لها ولا انقضاء .

(٤) سورة العنكبوت / آية ٦٤ .

النساء)[1] .

- وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : " كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل "[2] .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : " إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك "[3] .

ولكن ما معنى الزهد الذي حث عليه الإسلام ورغّب فيه ؟

هل المقصود ترك الدنيا كليه والقعود عن العمل والكسب والفرح بالفقر ولبس الرث من الثياب ولزوم زاوية من زوايا المسجد هرباً من الدنيا وأهلها ؟! .

وهل التنعم بالحلال والسعي على العيال والعمل في مجالات الحياة ينافي حقيقة الزهد؟

هذا ما فهمه بعض المتصوفة اعتقاداً بأن الدنيا والآخرة عدوتان على الدوام وأن السعي لإحداهما تعطيل للثانية ، فمن أراد الآخرة لابد له من إهمال الدنيا ، وأن أساس تزكية النفس الفقر والجوع وشظف العيش .

فقد ذكر (الشعراني) أن أول أساس يضعه المريد الصادق في الطريق الزهد في الدنيا فمن لم يزهد في الدنيا لا يصح له بناء شيء بعده ، وأن عليه أن يفرح بالفقر إذا أقبل ، ويترك حظوظ نفسه في الدنيا والآخرة ، وأنه تكره للمريد دخول الحمام ترفهاً ولبس الثياب النقية البيض ويُحب له الجوع والعري والفقر والذل[4] !! .

كما أكد (ابن عجيبه) أن المعارف والكشوف لا ترد على القلب حتى تذهب النفس، وذهابها يكون بترك حظوظها ، ولا يتحقق ذلك في الغالب إلا في حال الفاقة والفقر، ولذلك كانوا يفرحون بالفقر ويحزنون من الغنى[5] .

ونقل قول السهروردي : " الفقر أساس التصوف وبه قوامه ، ويلزم من وجود التصوف

---

(١) رواه مسلم - كتاب الرقاق - رقم / ٢٧٤٢ .

(٢-٣) رواه البخاري في الرقاق باب قول النبي ﷺ كن في الدنيا كأنك غريب - ١٧٠/٧ .

(٤) الأنوار القدسية للشعراني ١٣٢/١ .

وجود الفقر ، لأن التصوف اسم جامع لمعاني الفقر والزهد "[1] .

ثم بين أن التحقق بالفقر يعني الاستئناس به والاغتباط بحصوله حتى يكون عنده أحلى من العسل ويكون المال عنده أمرّ من الحنظل ، فحينئذ تترادف عليه المواهب وتتسع له المعارف ، وأن العارفين إذا نزلت بهم فاقة أو شدة لم يسألوا ربهم رفعها بل فرحوا بها وجعلوها مواسم وأعياداً لما يجدون فيها من المزيد وما يهب على قلوبهم من المواهب الربانية والعلوم اللدنية[2] .

ولا شك أن الترغيب في الفقر مطلقاً والفرح به واعتباره طريقاً إلى تزكية النفس لا يمتُّ إلى المنهج الاسلامي في التزكية بصلة ، ولا يمثل الزهد المشروع الذي حث عليه الاسلام بل هو انحراف في مفهوم الزهد وتشويه له ، ومعاكسة للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فقد أودع الله في النفس غريزة حب المال والتملك لتكون دافعاً للسعي في أداء المهمة التي كُلّف بها الإنسان وهي الخلافة في الأرض وعمارتها بالعمل الصالح ، والسعي في طلب الرزق إعفافاً للنفس والعيال عن الحاجة ، فإذا كبت الانسان هذه الغريزة تعطل كل دافع للسعي والعمل وأصبح عالة على الناس يستجدي صدقاتهم ، كما أن هذا المفهوم المنحرف يؤدي إلى عزلة بعض الناس عن الحياة ويشجع على تكالب أهل الدنيا الآخرين وطغيان المادية في قلوبهم ، لأنهم فقدوا الناصحين الصادقين الذين يرشدونهم إلى أن الدنيا مزرعة الآخرة وأنه لا تعارض ولا افتراق بين العمل والكسب في الدنيا والسعي للآخرة ، فهما طريق واحد إذا أخلصت النيات ، فليس الدين عزلة عن الحياة وإنما هو صميم الحياة[3] .

وفي ذلك يقول الله عزوجل : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾[4] .

ويقول سبحانه : ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من**

(١،٢) إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبه ص/٣١٢-٣١٣ .

(٢) المرجع نفسه - ٣١٣/٣١٦ .

(٣) ينظر : قبسات من الرسول / لمحمد قطب - ص٢٣ .

(٤) سورة القصص / من الآية ٧٧ .

رزقه وإليه النشور ﴾[1] .

فالإسلام لا يحارب الغنى وإنما يأمر بتسخيره في مرضاة الله سبحانه ويبيح التمتع بالحلال ما دام لا يشغل عن طاعة الله .

قال تعالى: ﴿ **قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾[2].

وليس الزهد بتحريم الحلال والترغيب بالفقر وإنما هو تفريغ القلب من الدنيا ليكون مقبلاً على الطاعة متذوقاً حلاوتها .

وقد أشار إلى هذا المعنى القول المأثور عن أبي ذر الغفاري والحسن رضي الله عنهما أنهما قالا : " ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن الزهد أن تكون بما في يد الله تعالى أوثق منك بما في يدك "[3] .

ولذلك عرّف الامام ابن تيمية الزهد المشروع فقال : " هو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة وثقه القلب بما عند الله . . فهذا صفة القلب ، وأما في الظاهر فترك الفضول التي لا يستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ومال وغير ذلك "[4] .

فمن سعى لكسب المال من حلّه ليستعين به على طاعة ربه وينفق منه في وجوه الخير ، فذلك أفضل ممن قعد عن الكسب بدعوى الزهد والرضى بالفقر لأنه سيكون بذلك عالة على الناس كما سيفوت على نفسه باباً من الطاعات واغتنام الدرجات التي يحظى بها المتصدقون وقد بين الامام ابن تيمية هذا المعنى بقوله : " الزهد النافع المشروع الذي يحبه الله

---

(١) سورة الملك / آية ١٥ .

(٢) سورة الأعراف / من الآية ٣٢ .

(٣) أورده الامام ابن القيم في مدارج السالكين موقوفاً عن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ ٢/٣ ، وفي عدة الصابرين عن أبي ذر مرفوعاً ص/٣٠٦ ، وكذلك أورده الامام ابن تيمية مرفوعاً في مجموع الفتاوي ٦٤١/١٠ .
ورواه الامام أحمد في كتابه الزهد ص/٣٦ ، موقوفاً على أبي مسلم الخولاني .
وقد رواه الترمذي في الزهد مرفوعاً ـ باب ما جاء في الزهادة في الدنيا ـ رقم /٢٣٤ ، وابن ماجه في الزهد في الدنيا ـ رقم /٤١٠٠ لكنه لا يصح مرفوعاً فقد ضعفه الترمذي ٤٩٤/٤ ، وضعفه محقق جامع الأصول ٦٧٠/٤ .

(٤) مجموع الفتاوى ٦٤١/١٠-٦٤٢ .

ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع في الآخرة ، فأما ما ينفع في الآخرة وما يستعان به على ذلك فالزهد فيه زهد في نوع من عبادة الله وطاعته ، والزهد إنما يراد لأنه زهد فيما يضر أوزهد فيما لا ينفع ، وأما الزهد في النافع فجهل وضلال "[1] .

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم يدركون قيمة الغني الشاكر الذي ينفق أمواله في طاعة ربه ، وهذا ما دعا بعض فقرائهم إلى تمني أن ينالوا ما يناله الأغنياء المنفقون من الأجر .

روى البخاي ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه " أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : ذهب أهل الدثور بالدرجات العُلى والنعيم المقيم ، فقال : وما ذاك ؟ قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق " .

فعلّمهم رسول الله ﷺ التسبيح والتحميد والتكبير الذي يدركون به ما يفوتهم من أجر الصدقات ، ولكنهم رجعوا ثانية إلى رسول الله ﷺ فقالوا : " سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء "[2].

فالزهد إذن لا يعني الفقر والقعود عن الكسب ، وإنما هو سمة من سمات الصالحين يعزف بها عن الدنيا ويخرج حبها من قلبه فلا تشغله عن طاعة ربه ولو كان من أصحاب الغنى والجاه .

ولقد أفاض الإمام ابن تيمية وتلميذه الامام ابن القيم رحمهما الله في مناقشة مسألة مهمة وهي : هل الغني الشاكر أفضل أم الفقير الصابر ، فكان مما قاله الامام ابن تيمية : " وقد تنازع الناس أيهما أفضل : الفقير الصابر ، أو الغني الشاكر ؟ والصحيح أن أفضلهما أتقاهما"[3] .

وأما الامام ابن القيم فقد بسط المسألة بتفصيل أكبر فتحدث في كتابه (عدة الصابرين) عن ذلك في أكثر من مائة صفحة[4] عرض فيها حجج الفريقين وأدلتهم ، ومن أبرز الأدلة

---

(١) المرجع نفسه ١٠/٥١١ .

(٢) رواه البخاري في صفة الصلاة - باب الذكر بعد الصلاة - ١/٢٠٤ ، ومسلم في المساجد باب استحباب الذكر بعد الصلاة - رقم /٥٩٥ .

(٣) مجموع الفتاوى ١١/٢١ .

(٤) ينظر عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص/٢٠٩ ، حتى ص/٣١٣ .

التي يتمسك بها القائلون بتفضيل الفقير الصابر الحديث النبوي الذي يذكر أن فقراء المسلمين يوم القيامة يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بمقدار أربعين خريفاً[1] ، وذلك لا يدل على علو درجتهم إذا دخلوا الجنة قبل الأغنياء ، إنما يدل على السبق لعدم وجود ما يحاسبون عليه ونصوص الكتاب والسنة لا تفضل امرءاً بالغنى أو الفقر وإنما تفضل بالإيمان والتقوى ، وقد يكون الفقر لبعض الناس أنفع والغنى لآخرين أنفع[2] .

وحسم الإمام ابن القيم رحمه الله تلك المناقشة بقوله مبيناً حقيقة الزهد المشروع : (سئل الإمام أحمد عن الرجل يكون معه ألف دينار وهل يكون زاهداً ؟ قال : نعم بشرط أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت) .

ثم قال : " فالزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليدين منها "[3] .

وبهذا تبين أن الزهد أمر قلبي ، وأن الزاهد هو الذي فرّغ قلبه من حب الدنيا وشهواتها وملأه بحب الله ورسوله ، ولم يبق موضع عنده لحب الدنيا إلا في دائرة سطح النفس خارج القلب وهو موضع الغرائز والشهوات كما سبق تفصيله عند الحديث عن صحة القلب ومرضه "[4] .

كما تحدث رحمه الله عن الزهد وضوابطه في كتابه (مدارج السالكين) فنقل أقوال عدد من العلماء في تحديد معنى الزهد المشروع ومنها :

قول سفيان الثوري رحمه الله : " الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء "[5] .

وقول الجنيد رحمه الله : " الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد "[6] .

وقول الامام أحمد رحمه الله : " الزهد على ثلاثة أوجه : الأول ترك الحرام ، وهو زهد

(١) الحديث رواه الترمذي ـ رقم /٢٣٥١ ، وقال حديث حسن ،وفي رواية له : " يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام " ورواه الإمام أحمد ٢٩٦/٢ ، وابن حبان ـ رقم ٢٥٦٧ وصححه .

(٢) عدة الصابرين ص/٢١١-٢١٢ .

(٣) المرجع نفسه ص/٣٠٧ .

(٤) ينظر ص / ٣٤٢ من هذا البحث .

(٥-٦) مدارج السالكين ١٠/٢-١١ .

العوام ، والثاني : ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص ، والثالث : ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين "[1] .

ثم علّق قائلاً : " والذي أجمع عليه العارفون أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه في منازل الآخرة .. ومتعلقة ستة أشياء ، لا يستحق العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها، وهي : المال والصور والرياسة والناس والنفس وكل ما دون الله .

وليس المراد رفضها من الملك ، فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما ولهما من المال والملك والنساء مالهما ، وكان نبينا ﷺ من أزهد البشر على الاطلاق وله تسع نسوة ، وكان عبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان - رضي الله عنهم - من الزهاد مع ما كان لهم من الأموال "[2] .

ومن تأمل كتب التراجم أدرك ما كان عليه العلماء الصادقون من زهادة صحيحة استوطنت قلوبهم ولم تكن مجرد تخشن في اللباس ورثاثة في المظهر .

فهذا مثلاً الإمام أبو الحسن القزويني[3] ، العالم الزاهد الذي لم يزل يُقرئ القرآن ويحدّث الحديث إلى أن مات ، والذي كانت له كرامات معروفة .. يبين لجلسائه حقيقة الزهد المشروع بما كان يلبسه من الثياب الحسن والملابس الأنيقة .

وقد ذكر الإمام الماوردي أنه صلى خلف الامام القزويني فرأى عليه قميصاً نقياً مطرَّزاً فقال في نفسه : أين الطرز من الزهد ؟ فلما سلم قال : سبحان الله " الطرز لا ينقض حكم الزهد[4] .

وبقيت مسألة لها صلة بموضوع الزهد ، وهي : **هل يُعد ترك المباح طاعة وتقرباً في**

---

(١) مدارج السالكين ٢/١٢ .

(٢) المرجع نفسه ٢/١٣ باختصار يسير .

(٣) هو الامام أبو الحسن علي بن عمر بن محمد بن القزويني البغدادي - ولد سنة ٣٦٠ هـ ، وتوفي في بغداد سنة ٤٤٢ هـ ، وكان علماً في الزهادة والصلاح والعلم ، تنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ١٧/٦٠٩-٦١٣ .

(٤) سيرة أعلام النبلاء - ١٧/٦١٠ .

جميع الأحوال لمن أراد أن يفعل ذلك بقصد الزهد في الدنيا ؟

وهذه المسألة تعرض لها الامام الشاطبي في (الموافقات) وبسط القول فيها فأبدع وأجاد، وبيّن أن ما ورد من نصوص في ذم الدنيا ليست على إطلاقها وإنما هو لأجل أنها تصير ذريعة إلى تعطيل التكاليف(١) .

ثم قسّم المباح إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ قسم يكون ذريعة إلى منهي عنه فيكون من تلك الجهة مطلوب الترك .

٢ ـ وقسم يكون ذريعة إلى مأمور به كالمستعان به على أمر أخروي ففي الحديث (نعم المال الصالح للرجل الصالح)(٢).

وهذا القسم وسيلة إلى الطاعة فله حكمه ـ أي حكم الطاعة من حيث الوجوب والندب ـ .

٣ ـ وقسم لا يكون ذريعة إلى شيء فهو المباح المطلق .

فترك المباح ليس طاعة على الاطلاق ، وإنما هو كغيره من الأفعال له أركان وشروط وموانع ولواحق تراعى ، والترك في هذا كله كالفعل(٣) .

وأما ما ورد من أحوال بعض السلف الصالح رحمهم الله وما أُثر عنهم من التورع عن كثير من المباحات وترك الترفه في المطعم والمشرب والمركب والمسكن ، فقد أجاب عنه الإمام الشاطبي بإجابات عديدة تتلخص في النقاط التالية(٤) :

١ ـ أن هذه حكايات أحوال فالاحتجاج بمجردها من غير نظر فيها لا يجدي .

٢ ـ أنها معارضة بمثلها في النقيض ، فقد كان ﷺ يحب الحلواء والعسل ويأكل اللحم ويختص بالذراع وكانت تعجبه ، وكان يُستعذب له الماء ، وورد مثل ذلك عن كثير من الصحابة والتابعين ، ولو كان الترك مطلوباً شرعاً لبادروا إليه بل قد أراد بعضهم أن

(١) ينظر : الموافقات في أصول الأحكام ـ للشاطبي ـ ٦٦/١ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتابه / الأدب المفرد ـ رقم /٢٩٩ ، والامام أحمد في المسند٢٠٢/٤ .

(٣) الموافقات ٦٦/١-٦٧ .

(٤) ينظر : الموافقات ٦٩/١-٧٢ .

يترك شيئاً من المباحات فنهوا عن ذلك[1] .

٣ ـ إذا ثبت أنهم تركوا من المباح شيئاً طلباً للثواب ، فذلك لا من جهة أنه مباح بل لأمور خارجة منها :

ـ أنهم تركوه لأنه مانع من عبادات وحائل دون خيرات .

ـ أن المباح قد يكون وسيلة إلى ممنوع فيترك من حيث هو وسيلة .

ـ أو يتركه إذا تخيل فيه اشكالاً وشبهة .

ـ أو يتركه إذا لم تحضره نيّة في تناوله ، لأنه يجب أن يكون عمله خالصاً لربه سبحانه .

ـ أو يتركه لانشغاله عنه بما يجد لذته من عبادة وعلم .

وعلى هذا فإن ترك المباح جملة والانقطاع عن الدنيا وما فيها والنظر إليها بعين المقت والكراهية على الدوام لا يصح أن يكون منهجاً في تزكية النفس وإصلاح المجتمع ، وإنما هو طريق للعزلة والانطوائية والتخلي عن المسؤولية ، ولا يخفى ما يمكن أن يصاب به المجتمع المسلم من ضعف وهوان وذل وانهيار عندما تنتشر فيه هذه المظاهر المنحرفة من الزهد وبذلك يصبح المسلمون لقمة سائغة في أيدي الأعداء .

---

(١) مثال ذلك قصة الثلاثة الذين تقالّوا عبادة الرسول ﷺ ، وسيأتي إن شاء الله عند الحديث عن الرهبانية ص/ ٤٩١ من هذا البحث .

الفصل الرابع

تزكية النفس والعزلة

هل تزكية النفس تقتضي العزلة عن الناس والانقطاع عن مجالستهم لئلا ينشغل المرء بهم أو يتأثر بسلوكهم ؟

وهل دعا الإسلام إلى هذه العزلة في جميع الأحوال وحض عليها ابتغاء السلامة والنجاة من الدنيا وأهلها ؟

هذا ما سنعرض له في هذا الفصل إن شاء الله لبيان العزلة المحمودة وفوائدها والعزلة المذمومة وأخطارها ، وتصحيح الانحرافات التي ظنها بعض الناس جزءاً أساسياً من المنهج الإسلامي في التزكية ، مستندا إلى فهمه المخطئ لما ورد من نصوص وأدلة في هذا المجال .

وتجدر الاشارة هنا إلى ما سبق الحديث عنه في الموضوعات السابقة والتي عرضنا فيها لأهمية الصحبة الصالحة ومجالسة الصالحين وأثرها في تزكية النفس(١) ، وخطر البيئة السيئة وضرورة البعد عنها والحذر منها لأنها من أكبر المعوقات في طريق التزكية(٢) .

فهناك إذن نوعان من العزلة : عزلة محمودة للبعد عن الأشرار ، وعزلة مذمومة يفوّت الإنسان بسببها صحبة الأخيار .

وقد سئل الإمام ابن تيمية رحمه الله : هل الأفضل للسائل العزلة أو الخلطة ؟ فأجاب : " حقيقة الأمر أن الخلطة تارة تكون واجبة أو مستحبة ، والشخص الواحد قد يكون مأموراً بالمخالطة تارة ، وبالانفراد تارة ، وجماع ذلك أن المخالطة إن كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها ، وإن كان فيها تعاون على الأثم والعدوان فهي منهي عنها "(٣) .

ثم قال رحمه الله : " ولابد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه ، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره ،

---

(١) ينظر ص / ٢٦٤ من هذا البحث .

(٢) ينظر ص / ٤٣٨ من هذا البحث .

(٣) مجموع الفتاوى ٤٢٥/١٠ .

فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه .. فاختيار المخالطة مطلقاً خطأ ، واختيار الانفراد مطلقاً خطأ ، وأما مقدار ما يحتاج إليه كل إنسان من هذا وهذا وما هو الأصلح له في كل حال فهذا يحتاج إلى نظر خاص "(١) .

ثم بيّن أن الأفضل والصلح يتنوع تارة بحسب أجناس العبادات ، وتارة يختلف باختلاف الأوقات والأمكنة ، أو باختلاف حال قدرة العبد وعجزه ، وهذا باب واسع يغلو فيه كثير من الناس ويتبعون أهواءهم(٢) .

فالاعتزال المحمود أن يعتزل المرء الأمور المحرمة ومجالسة الأشرار ، ويعتزل كل ما يشغله عن طاعة ربه ، ولكن هذه العزلة تحولت عند بعض الناس إلى عزلة مطلقة وخلوات بدعية والانقطاع في زوايا المساجد أو الكهوف بدعوى أن الخلق كلهم أشرار وأن الفتن قد طغت في هذا الزمان وأن الانقطاع عن الخلق يفتح باب الأنس بالخالق سبحانه .

وهذه بعض النصوص المؤكدة لهذا الغلو :

يقول ابن عطاء الله السكندري : " لو انقطعت عن الخلق لفتح لك باب الأنس به تعالى ، لأن الأولياء قهروا أنفسهم بالخلوة والعزلة ، فسمعوا من الله وأنسوا به "(٣) .

ويقول أيضاً : " قلّ ما تجلس مجلساً إلا وتعصي الله فيه ، فكثير من السلف آثروا الجلوس في بيوتهم وتركوا صلاة الجماعة ، فإن طالبتك نفسك بالخروج فاشغلها بالقعود في الدار بشيء من الطاعة "(٤) .

ويؤكد على ضرورة العزلة والخلوة وأنها الطريق للكشف ، فيقول : " عليك بالخلوة والعزلة ، فمن كانت العزلة دأبة كان العزُّ له فمن صدقت عزلته ظفر بمواهب الحق له بالمنن، وعلامتها كشف الغطاء وإحياء القلب وتحقيق المحبة "(٥) .

(١) مجموع الفتاوى ٤٢٦/١٠ .

(٢) المرجع نفسه ٤٢٧/١٠-٤٢٨ .

(٣) تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس / لابن عطاء الله السكندري ص٢٩ .

(٤) المرجع نفسه ـ ص/٣٣ .

(٥) نفس المرجع ـ ص/ ٣٩ .

وأما الشعراني فقد أورد أقوالاً كثيرة نسبها إلى عدد من الصحابة والتابعين وبعض علماء السلف في الحث على العزلة المطلقة والدعوة إليها ، ومن هذه الأقوال[1] :

ما نسبه إلى حذيفه بن اليمان رضي الله عنه أنه قال : " وددت أن أغلق باب داري فلا أخرج لأحد حتى أموت " .

وما نسبه لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : " خير جلوس الرجل في قعر بيته لا يَرى ولا يُرى " .

وقول سفيان الثوري : " هذا زمان السكوت ولزوم البيوت والقنع بالقوت إلى أن تموت " .

ولا شك أن هذه الأقوال تخالف ما كان عليه هؤلاء من القيام بالعلم والتعليم والدعوة ، وأنها حتى لو صحت عنهم لا يمكن أن تكون دعوة للعزلة المطلقة عن جميع الناس وإنما هي دعوة لاعتزال أهل الشر والفساد وعدم الخوض فيما حصل من الفتن في ذلك العهد .

ولكن الشعراني علّق على هذه الأقوال قائلاً: " فاعلم ذلك يا أخي واعتزل جهدك، فقد سمعت مقالاتهم في المائة الثانية ، فكيف بك وانت في المائة العاشرة ، وإياك أن يلعب بك ابليس ويقول لك أنت بحمد الله قد وصلت إلى حدٍّ لا يشغلك شيء عن ربك ، فإن ذلك من دسائس ابليس ، فإنك يا أخي بيقين دون هؤلاء السلف في المقام "[2] .

وهذه العزلة التي ينادون بها ليست عزلة معنوية بأن يُبعد الانسان قلبه عن الانشغال بالناس والالتفات إليهم ، وإنما هي عزلة جسدية أيضاً بالقلب والقالب[3] ، بحيث يتجنب المرء مجالسة الناس واللقاء بهم ويلزم قعر بيته حتى يموت ، وقد يصل الأمر به إلى ترك صلاة الجماعة في المسجد لما قد يعرض له في طريقه .

وقد صرح ابن عطاء الله السكندري بذلك فقال :

---

(١) ينظر : تنبيه المغترين للشعراني ص/٢٧٣-٢٧٨ .

(٢) المرجع نفسه ص/٢٧٨ .

(٣) ينظر : شرح الحكم العطائية / للشيخ عبد المجيد الشرنوبي - ص/٢٦ .

" كان بعضهم لا يخرج لصلاة الجماعة لما يعرض له في طريقه "[1] .

* وقبل أن نناقش هذه الأقوال نعرّج على انحراف آخر انتشرت دعواه في أوساط كثير من الناس ، ومن الصوفية وغيرهم ، وهو أنه لابد لمن يسير في طريق التزكية أن ينشغل بنفسه ويعتزل الآخرين بقدر الإمكان ، فلا يلتفت إلى الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد الناس وتعليمهم أمور دينهم ولا يُشغل نفسه بجهاد الأعداء لأن منزلة جهاد النفس أعظم وفرضيتها آكد .

وقد احتج دعاة العزلة بأدلة ونصوص عديدة لابد من مناقشتها وإبطال شبهتها .

مناقشة دعوى العزلة المطلقة :

١ ـ المستند الأساسي لدعاة العزلة المطلقة ما ورد من آيات كريمة وأحاديث نبوية تحث على الانشغال بالنفس والعزلة عن الأشرار ، وهي أدلة لا تعد حجة لهم بل حجة عليهم ، ومن هذه الأدلة :

أولاً ـ استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾[2] .

ويفهم البعض من هذه الآية الكريمة أن على المسلم أن يصلح نفسه فقط وليس مسؤولاً عن إصلاح غيره أو دعوة الآخرين إلى دين الله تعالى .

ولا شك أن هذا الفهم خطأ كبير ويناقض ما تظاهرت عليه الأدلة من الكتاب والسنة لبيان أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحذير من التقاعس عنه أو التفريط فيه .

وقد نبّه الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى معنى هذه الآية فقال في خطبته: (أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم** ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم

---

(١) تاج العروس ص/٣٨ .
(٢) سورة المائدة / من الآية ١٠٥ .

يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)[1] .

فالآية الكريمة لا تدعو إلى العزلة والتخلي عن واجب الدعوة ـ كما يتوهم البعض ـ وإنما تدعو إلى سلوك طريق الهداية ، وأن العبد إذا عمل بطاعة الله والتزم بأمره لم يضره من ضلّ بعده ، فلا يضره كفر الكافرين ولا إعراض الغافلين .

وقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله أقوالاً في معنى هذه الآية فقال : " قال بعضهم معناه : يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر فلم يُقبل منكم ذلك .. وقال بعضهم : إن العبد إذا عمل بطاعة الله لم يضرّه من ضل بعده وهلك .. وقال آخرون : لا يضركم من حاد عن قصد السبيل وكفر بالله من أهل الكتاب " .

ثم بين رحمه الله أن قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه هو العمدة في تفسير هذه الآية ، أي: إذا التزمتم بطاعة الله فإنه لا يضركم ضلال من ضل ما دمتم قد أديتم ما ألزمكم الله به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2] .

كما حذر الإمام أبو السعود من الفهم الخاطئ في تفسير هذه الآية فقال : " ولا يتوهمن أن فيه رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع استطاعتهما ، كيف لا ومن جملة الاهتداء أن ينكر حسبما تفي به الطاقة "[3] .

فالآية تدعو إلى الإقبال على تزكية النفس وإصلاحها لتستقيم على الطاعة ، كما تدعو إلى الإقبال على الآخرين ونصحهم وتذكيرهم بالله تعالى لأن المجتمع المسلم جسد واحد فهو كالنفس الواحدة ولذلك قال عبد الله بن المبارك[4] رحمه الله : (هذه أوكد آية في وجوب

---

(١) رواه أبو داود ـ كتاب الملاحم ـ باب الأمر والنهي ١٢٢/٤ ، رقم /٤٣٣٨ ، والترمذي ـ كتاب الفتن باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر ـ رقم /٢١٦٩ ، وفي كتاب التفسير من تفسير سورة المائدة ـ رقم /٣٠٥٨ وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه ابن ماجه ـ كتاب الفتن ـ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ رقم /٤٠٠٥ ، والإمام أحمد في المسند ٥،٢/٢ ، ٧ .

(٢) ينظر جامع البيان / للإمام ابن جرير الطبري ٩٤/٧-١٠٠ .

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، المشهور بتفسير أبي السعود ، للإمام أبي السعود العمادي ـ ٨٨/٣ .

(٤) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي ، كان مولى لبني حنظلة ، وهو من تابعي التابعين ، افنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً ،وكان من سكان خراسان ، وكان شديد التقوى والورع ، جمع =

الآمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنه قال : عليكم أنفسكم " . يعني أهل دينكم ، فقوله ﴿ عليكم أنفسكم ﴾[1] يعني بأن يعظ بعضكم بعضاً ويرغب بعضكم بعضاً في الخيرات وينفره عن القبائح والسيئات)[2] .

ثانياً ـ ومما استدل به دعاة العزلة المطلقة على دعواهم ما ورد من أحاديث نبوية في الدعوة إلى اعتزال الفتن أو الاعتزال للراحة من خلطاء السوء .

ومن هذه الأحاديث ما رواه البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : " يأتي على الناس زمان خيرُ مالِ الرجل المسلم الغنمُ يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن "[3] .

وعنه رضي الله عنه قال : " جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أيُّ الناس خير ؟ قال : رجل جاهد بنفسه وماله ، ورجل في شعب من الشعاب يعبد الله ويدع الناس من شره "[4] .

فالحديث الأول يحث على العزلة كعلاج أخير للنجاة من الفتن عندما تدلهم والبعد عن البيئة السيئة عندما تستحكم شرورها كما سبق بيانه في الحديث عن معوقات التزكية[5] وأما الحديث الثاني فهو خاص فيمن لا يقدر على الجهاد ـ كا قال الحافظ ابن حجر[6] ـ وهذا معذور لأن الله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وكذلك غير القادر على جهاد الدعوة لجهله وضعفه ، فما دام لا يملك أن يقدم دوراً إيجابياً لمجتمعه فأقل ما يطلب منه أن يكف

الحديث والفقه والعربية ، وله كتاب في الجهاد وهو أول من صنف فيه ، وكتاب في الزهد والرقائق توفي في بهيت (على الفرات) منصرفاً من غزو الروم سنة ١٨١هـ .

تنظر ترجمته في : العبر فقي أخبار من غبر للذهبي ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٢٩٥/١ ، والأعلام للزركلي ١١٥/١ ، وكتاب عبد الله بن المبارك للأستاذ محمد عثمان جمال .

(١) سورة البقرة / من الآية ٥٤ .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ١١٩/١٢ .

(٣-٤) رواهما البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب العزلة راحة من خلاط السوء ـ ١٨٨/٧ . وروى الحديث الثاني في كتاب الجهاد ٢٠١/٣ .

(٥) ينظر ص / ٤٤٥ من هذا البحث .

(٦) ينظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣٣٢/١١ .

شروره عن الناس ويُقبل على طاعة ربه سبحانه ، وهذا ما أشارت إليه الجملة الأخيرة من الحديث النبوي : " ويدع الناس من شره " .

ولقد أورد الإمام أبو سليمان الخطابي البستي (ت ٣٨٨هـ) في كتابة (العزلة) جملة من الأحاديث النبوية والآثار الواردة في هذا المجال ، ولكنه قال مبيناً معنى العزلة المشروعة : " لسنا نريد بهذه العزلة مفارقة الناس في الجمع والجمعات ،وترك حقوقهم في العبادات وإفشاء السلام وردّ التحيات وما جرى مجراها من وظائف الحقوق الواجبة لهم ، وصنائع السنن والعادات المستحسنة فيما بينهم .. إنما نريد بالعزلة ترك فضول الصحبة ونبذ الزيادة منها .. فإن من جرى في صحبة الناس والاستكثار من معرفتهم على ما يدعو إليه شغف النفوس .. كان سبيله في ذلك سبيل من يتناول الطعام في غير أوان جوعه ويأخذ منه فوق قدر حاجته ، فإن ذلك لا يلبث أن يقع في أمراض مدنفة وأسقام متلفة "(١)

وبهذا نستخلص أن الأحاديث الواردة في العزلة ينبغي ألا تؤخذ منفردة وإنما تُفهم في ضوء النصوص الشرعية الأخرى الداعية إلى اجتماع الكلمة ولزوم الجماعة والحرص على الصحبة الصالحة فتكون للعزلة مواضعها وللخلطة مواضعها وأحوالها .

٢ ـ وقد وردت أدلة كثيرة تفند دعاوي العزلة والانقطاع عن الناس تفرغاً لعبادة الله سبحانه ومن ذلك :

ما رواه الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال :

" مرّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عُيينةٌ من ماء عذبة ، فأعجبته ، فقال : لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب ، ولن أفعل حتى استأذن رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : " لا تفعل ، فإن مُقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فُواق(٢) ناقةٍ وجبت له الجنة "(٣) .

---

(١) كتاب العزلة ـ للإمام البستي ص / ١١-١٢ .

(٢) الفواق (بضم الفاء وفتحها) ما بين الحلبتين من الوقت .

(٣) رواه الترمذي ـ كتاب فضائل الجهاد ـ باب / ١٧ ، حديث رقم /١٦٥٠ ، وقال : حديث حسن .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله ؟ قال : " لا تستطيعونه " ، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً ، كل ذلك يقول : " لا تستطيعونه " ثم قال : " مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله "(١) .

وفي رواية البخاري أن رجلاً قال : يا رسول الله دُلَّني على عمل يعدل الجهاد ؟

قال : لا أجده ، ثم قال : " هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر ؟ قال : ومن يستطيع ذلك ؟ "(٢) .

فإذا كان القائلون بأن طريق تزكية النفس يقتضي الانقطاع للعبادة والعزلة عن الناس فإن ذلك مردود عليهم بصريح الأحاديث السابقة ، وهل يستطيع العبد أن ينقطع للصلاة أياماً وأشهراً متتالية لا يفتر لحظة من اللحظات ولا يعتريه نوم أو حاجة ؟!

٣ ـ ولا شك أن دعاة العزلة المطلقة لم يعرفوا حقيقة المنهج الاسلامي في تزكية النفس، وأن أبرز ميدان من ميادينه جهاد الأعداء وجهاد الدعوة والعلم والتعلم كما سبق تفصيله عند الحديث عن الأساليب العملية في التزكية ، والتي لا تقتصر على الشعائر التعبدية كما يظن بعض الناس ، فلو أن السالك في طريق التزكية اعتزال المجتمع وانقطع للذكر والدعاء واشتغل بتلاوة القرآن وأداء النوافل ليل نهار ، ولكنه ضيّع واجباته الأخرى تجاه دعوته وأهله وذويه ، فإن هذه التزكية التي يبغي الوصول إليها مختلّة وثمراتها ناقصة ، كيف لا ، وقد تظاهرت الأدلة على أن ساعة واحدة يقضيها المسلم وهو يصول ويجول في سبيل الله ويبذل نفسه ابتغاء مرضاة الله أو يجلس ليعلم الناس أمور دينهم ويدعوهم إليه ويأمرهم وينهاهم .. أفضل بكثير من صلاة الليل والنوافل الأخرى ، لأن الجهاد والدعوة والتعليم آثارها متعددة ونفعها لا يقف عند حد ، وقد سبق بيان ذلك في الباب الثاني(٣) .

وقد أفصح لنا الإمام ابن الجوزي رحمه الله عما كان يختلج في نفسه أحياناً من التفكير

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب الإمارة ـ باب فضل الشهادة في سبيل الله ـ رقم /١٨٧٨ .

(٢) رواه البخاري في أول كتاب الجهاد والسير ـ٣/٢٠٠ .

(٣) ينظر / العلم النافع وأثره في التزكية ص/ ١١٧ من هذا البحث ، والجهاد وأثره في التزكية ص / ١٨٢ من هذا البحث .

في العزلة والانقطاع عن الخلق وتركِ مجلسه الذي كان يعظ فيه الناس وتجتمع فيه أعداد كبيرة من التائبين والباكين خشوعاً وتأثراً ، ولكنه رحمه الله أدرك أن هذه الخواطر التي تحدّثه بالعزلة خشية الرياء خواطر شيطانية فقال : " فكأن الشيطان لبعد غَوْره في الشر رآني أجتذب إليَّ من أجتذب منه فأراد أن يشغلني عن ذلك بما يزخرفه ، ليخلو هو بمن اجتذبتهم من يده "[1] .

ومما يجدر ذكره في هذا المقام قصة عبد الله بن المبارك رحمه الله - وهو من أبرز السلف الصالح وزهادهم ، والذي كان يحج سنة ويغزو سنة مرابطاً في سبيل الله في الثغور[2] - : فقد ارسل رسالة من طرطوس أحد الثغور مع الروم إلى صديقه العالم الزاهد الفضيل بن عياض رحمه الله في سنة سبع وسبعين ومائة يقول فيها :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك بالعبادة تلعب
من كان يخضب جيده[3] بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يُتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا ... رَهَج السنابك[4] والغبار الأطيب

فلما وصلت الرسالة إلى الفضيل في الحرم وقرأها ذرفت عيناه ، ثم قال : صدق أبو عبد الرحمن ونصح[5] .

فالجهاد بمفهومه العام يتضمن جهاد العدو الداخلي بمجاهدة النفس ، وجهاد العدو الخارجي بالدعوة والقتال ، وكل منهما يكمل الآخر ويعضده ، فمن ادعى الانشغال بأحدهما عن الآخر فقد أخطأ وفرّط .

ومن أراد معرفة المدى الذي وصل إليه في مجاهدة نفسه ، فالمقياس والميزان ميدان بذل

---

(١) صيد الخاطر - ص/ ٤٧ .
(٢) العبر في أخبار من غبر - للإمام الذهبي ٢٨١/١ .
(٣) الجيد : العنق ، وجمع أجياد .
(٤) الرَهَج : الغبار ، والسنابك : جمع سُنبك وهو طرف مقدم الحافر ، والمراد الغبار الذي يتصاعد بسبب سير الخيول .
(٥) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - للإمام ابن تغري بردي ١٠٣/٢ .

النفس والمال والصبر على دعوة الناس وتعليمهم وإرشادهم .

والحديث النبوي الذي يردده القائلون بالعزلة عن الناس تفرغاً لتزكية النفس ، وهو: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) لا يصح الاحتجاج به لأنه حديث ضعيف كما قال العلماء[1] : ومع ذلك فليس فيه أي دليل على العزلة المطلقة وترك الجهاد ، وإنما هو بيان لأهمية جهاد النفس ، وأن المسلم ينتقل في الجهاد من ميدان إلى ميدان ، ولا يكتفى بجهاد عدوه الخارجي ثم يهمل جهاد نفسه .

وقد بين الإمام ابن القيم رحمه الله أن جهاد النفس أربع مراتب :

إحداها : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق .

والثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه .

والثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه ، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله ، ولا ينفعه علمه .

والرابعة : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ، ويتحمل ذلك كله لله ، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين ، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلّمه ، فمن علم وعمل وعلّم فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السموات "[2] .

كما نبه ـ رحمه الله ـ على أمر يغفل عنه الناس وهو أن الله سبحانه أوجب على كل مسلم عبودية بحسب مرتبته ، سوى العبودية العامة التي سوّى بين عباده فيها ، فعلى العالم

---

(١) قال الحافظ العراقي في تخريجه على الإحياء ٧/٣ ، : " هذا الحديث أخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر وقال هذا إسناد فيه ضعف) كما نقل العجلوني في كشف الخفاء ٥١١/١ عن الحافظ ابن حجر أن هذا الحديث مشهور على الألسنة وهو من كلام ابراهيم بن علية ، وحكم السيوطي بضعفه في الجامع الصغير (فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥١١/٤ ، وذكره بلفظ : " قدمتم خير مقدم ، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " وفي سنده يحيى بن العلاء وهو كذاب وقد رمى بالوضع كما قال الحافظ ابن حجر (وينظر : سبيل الدعوة الاسلامية د . محمد أمين المصري ص/ ٧١-٧٢) .

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ١٠/٣ .

من عبوديته نشر السنة والعلم ما ليس على الجاهل ،وعليه من عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره ، وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما ، ولكن ابليس غرّ كثيراً من الخلق بأن حسّن لهم الانقطاع للذكر والقراءة والزهد في الدنيا فعطلوا هذه العبوديات ، ولم يحدّثوا قلوبهم بالقيام بها ، فقصّروا في القيام بأمر الله[1] .

ثم قال رحمه الله : " وأيُّ دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تُنتهك وحدوده تُضاع ودينه يُترك وسنة رسول الله ﷺ يُرغب عنها وهو بارد القلب ساكت اللسان شيطان أخرس؟ كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق "[2] .

فالعزلة المطلقة عن المجتمع بدعوى التفريغ لتزكية النفس لا تجوز أبداً ، لأن المجتمع سيزداد فساداً إذا اعتزله الصالحون ، وسيكون ذلك مشجعاً للمفسدين يسرحون فيه ويمرحون ، ومن الذي سيرشد الناس إلى أمور دينهم ويدلهم على طريق الخير بعد ذلك ؟

يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله :

" كم فوتت العزلة علماً يصلح به أصل الدين ، وكم أوقعت في بلية هلك بها الدين ، وإنما عزلة العالم عن الشر فحسب "[3] .

فمن كان قلبه عامراً بمحبة الله ورسوله كانت غيرته على الدين أكبر وانتصاره له أكمل وتضحياته من أجله أعظم ، وهذا هو ميدان مجاهدة النفس وأما العزلة وإيثار السلامة ففيه حظ للنفس وإراحة لها .

وقد شنع الإمام ابن القيم رحمه الله على أهل العزلة فقال :

" ومن العجب دعواهم خروجهم عن نفوسهم ، وهم أعظم الناس عبادة لنفوسهم، وليس الخارج عن نفسه إلا من جعلها حبساً على مراد الله ، وبذلها لله في إقامة دينه ، وتنفيذه بين أهل العناد والمعارضة والبغي ، فانغمس فيهم يمزقون أديمه ويرمونه بالعظائم

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/١٠ .

(٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ٢/١٥٧ ـ١٥٨ .

(٣) صيد الخاطر لابن الجوزي ص/١٢٨ .

ويخيفونه بأنواع المخاوف .. مُقامه ساعة في جهاد أعداء الله ورباطه ليلة على ثغر الإيمان ، آثر عنده وأحب من فناء ومشاهدات وأحوال هي أعظم عيش النفس وأعلى قوتها وأوفر حظها "[1] .

أضف إلى ذلك أن العزلة تؤدي إلى آفة خفية من آفات النفس وهي التكبر والعجب فالمعتزل يظن نفسه من الصالحين ويتهم المجتمع من حوله بالفساد ، ويخشى الاختلاط بهم لئلا يتأثر بشرورهم ، ولا شك أن ذلك من خداع الشيطان ومكائده .

وقد بين الإمام ابن القيم رحمه الله ذلك فقال : " ومن كيد الشيطان وخداعه أنه يأمر الرجل بانقطاعه في مسجد أو رباط أو زاوية أو تربة ، ويحبسه هناك وينهاه عن الخروج ، ويقول له : متى خرجت تبذّلت للناس وسقطت من أعينهم وذهبت هيبتك من قلوبهم ،وربما ترى في طريقك منكراً ، وللعدو في ذلك مقاصد خفية يريدها منه ، منها الكبر واحتقار الناس .. فيترك من الواجبات والمستحبات والقربات ما يقربه إلى الله"[2].

فليحذر دعاة العزلة المطلقة من نزول البلاء الذي يعم الصالح والطالح إذا سكت الصالحون ولم ينهوا عن السوء ، قال تعالى : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب** ﴾[3] .

وقال سبحانه : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون** ﴾[4] .

ولو أخذ المجتمع الاسلامي بهذه الدعوة للعزلة المطلقة لأضحى مجتمعاً ضعيفاً فقيراً تتسلط عليه مجتمعات الكفر وتتداعى عليه ، وهذا ما يريده أعداء الاسلام .

---

(١) مدارج السالكين ٤٧/٢ بتصرف يسير .

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١٢١/١ .

(٣) سورة الأنفال / آية ٢٥ .

(٤) سورة الأعراف / آية ١٦٥ .

الفصل الخامس

تزكية النفس والرهبانية

الرهبانية هي المبالغة في العبادة بالانقطاع عن الناس وترك الدنيا ولذاتها من النساء وغير ذلك ، وأصل معناها الفعلة المنسوبة إلى الرّهبان وهو الخائف ، مِن رهب ، كخشيان من خشي[1] ، فالدافع إلى الرهبانية الخوف والخشية من الله سبحانه .

وقد ابتدع النصارى هذه الرهبانية بقصد التقرب إلى الله عزوجل فرفضوا الزواج بالنساء واتخذوا الصوامع ، ولكنهم لم يحافظوا على مقتضياتها من ذكر وعبادة وعفة ، وإنما أصبحت طقوساً وشعائر خالية من الروح كما سبق بيانه في الباب الأول[2]

وقد قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ **ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون** ﴾[3] .

ولا شك أن كل دعوة لا تستقيم مع فطرة الانسان لا يمكن أن تستمر ولابد لها من انحراف ، والاسلام دين الفطرة ، ومنهجه في تزكية النفس يعتمد على تقويم الغرائز وتوجيهها وليس على الغائها وكبتها ، ولذلك شرع الزواج وحض عليه ، وجعله وسيلة لها دورها الكبير في تزكية النفس وإصلاح المجتمع[4] .

ولقد كان بعض الصحابة رضي الله عنهم لشدة حرصهم على التزود للآخرة والمسارعة إلى الطاعات يُعرضون عن الزواج ويشددون على أنفسهم في العبادة ظناً منهم أن ذلك أقرب للتقوى ، ولكن الرسول ﷺ كان يردّهم إلى التوازن والوسطية، ويرشدهم إلى

---

(١) ينظر : لسان العرب لابن منظور ٤٣٧/١ ، وروح المعاني للألوسي ١٩٠/٢٧ والاعتصام للشاطبي ٢٨٨/١ .

(٢) ينظر ص / ٦٨ من هذا البحث .

(٣) سورة الحديد / من الآية ٢٧ .

(٤) ينظر ص / ٢٨٠ من هذا البحث (الزواج ودوره في تزكية النفس) .

البعد عن هذه الرهبانية التي تخالف هدى الاسلام .

وتلك بعض النماذج للمنهج النبوي في التحذير من الرهبانية :

١ - روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : " جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أُخبروا كأنهم تقالّوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبداً ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً .

فجاء إليهم رسول الله ﷺ فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني "(١) .

والمراد : من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني ، ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى ، وطريقة النبي ﷺ الحنيفية السمحة ، فيفطر ليتقوى على الصيام ، وينام ليتقوى على القيام ،ويتزوج لإعفاف النفس وتكثير النسل(٢) .

٢ - وروى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال :

" أنكحني أبي امرأة ذاتَ حسب ، فكان يتعاهد كنّته فيسأله عن بعلها ، فتقول : نِعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشاً ، ولم يفتش لنا كنفاً مُذ أتيناه(٣) .

فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي ﷺ فقال : ألقني به ، ~~لقيته به~~ ، فلقيه بعدُ فقال : كيف تصوم ؟ قال : كل يوم ، قال وكيف تختم ؟ قال : كل ليلة .

---

(١) رواه البخاري - كتاب النكاح - باب الترغيب في النكاح ١١٦/٦ ، ورواه مسلم مختصراً في النكاح رقم /١٤٠١ .

(٢) ينظر فتح الباري شرح صحيح البخاري - ٩/ ١٠٥ .

(٣) لم يطأ لنا فراشاً كناية عن عدم جماعه لزوجته منذ أن تزوجها ، ولم يفتش لنا كنفاً كناية أخرى عن عدم الجماع ، لأن الكنف هو الستر (فتح الباري ٩٦/٩ .

قال : صم في كل شهر ثلاثة ، واقرأ القرآن في كل شهر .

قال : قلت أطيق أكثر من ذلك .

قال : صم ثلاثة أيام في الجمعة . قلت أطيق أكثر من ذلك .

قال : أفطر يومين وصم يوماً . قلت : أطيق أكثر من ذلك .

قال : صم أفضل الصوم صومَ داود صيام يوم وإفطار يوم ، واقرا في كل سبع ليال مرة.

فليتني قبلتُ رخصة رسول الله ﷺ وذاك أني كبرت وضعفت "[١] .

وفي رواية أخرى للبخاري أن الرسول ﷺ قال لعبد الله بن عمرو : " يا عبد الله ألم أُخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ فقلت : بلى يا رسول الله قال : فلا تفعل ، صم وأفطر وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينيك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً وإن لزورك عليك حقاً "[٢] - والزور هو الزائر .

وفي رواية للبخاري أيضاً أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن عمرو :

" إنك لتصوم الدهر وتقوم الليل ؟ فقلت : نعم ، قال : إنك إذا فعلت ذلك هجمت له العين ونَفِهت له النفس ، لا صام من صام الدهر ، صوم ثلاثة أيام صوم الدهر كله ، قلت : فإني أطيق أكثر من ذلك ، قال : فصم صوم داود عيه السلام ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى "[٣] : ومعنى هجمت له العين : أي غارت وضعف بصرها، ومعنى نفهت النفس : أي تعبت وكلّت .

وفي هذا الحديث بيان للمنهج الاسلامي القويم في تزكية النفس وأن الانشغال بالصيام وتلاوة القرآن وغيرهما من العبادات لا يجوز أن يطغى على واجبات الرجل تجاه أسرته ومجتمعه وأن من قضى أيامه في الصيام ولياليه في تلاوة القرآن وأعرض عن الزوجة والأهل فقد استوجب التنبيه والإرشاد ليعود إلى التوازن بين الإفراط والتفريط ، وهذا التوازن

---

(١) رواه البخاري - كتاب فضائل القرآن - باب في كم يُقرأ القرآن ١١٣/٦ .

(٢) رواه البخاري - كتاب الصوم - باب حق الجسم في الصوم - ٢٤٥/٢ .

(٣) رواه البخاري في الصوم - باب صوم داود عليه السلام - ٢٤٦/٢ .

أدعى لاستمرار العمل وعدم انقطاعه لأنه سهل ميسور ، ولذلك أحسّ عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عندما كبر بثقل ما ألزم به نفسه ، فقال : " فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ " .

٣ - وروى البخاري عن عون بن أبي جُحيفة عن أبيه قال : " آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذّلة[١] فقال لها ما شأنك ؟

قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا .

فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً ، فقال كُل ، قال : فإني صائم .

قال : ما أنا بآكلٍ حتى تأكل ، قال : فأكل .

فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم فقال : نم ، فنام ، ثم ذهب يقوم ، قال : نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصليا ، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه .

فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ : صدق سلمان "[٢] .

فالواجب على المسلم ألا يشغله حق عن حق آخر ، وألا يشق على نفسه ويعتزل أهله وينشغل عنها بكثرة النوافل لأن القيام بحقها أعظم وألزم .

٤ - وروى البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : " لولا أن رسول الله ﷺ ردّ على عثمان بن مظعون التبتل لاختصينا "[٣] .

وروى الترمذي والنسائي عن سمرة بن جندب رضي الله عنه (أن النبي ﷺ نهى عن التبتل) زاد بعض رواته : " وقرأ قتادة : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية** ﴾[٤])[٥].

---

(١) متبذلة أي لابسة ثياب البذلة وهي المهنة والمراد أنها رثة الثياب تاركة للزينة (فتح الباري ٤/٢١٠).

(٢) رواه البخاري - كتاب الصوم - باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ٢/٢٤٣ .

(٣) رواه البخاري في النكاح - باب ما جاء في النهي عن التبتل - / ومسلم في النكاح - رقم /١٤٠٢ .

(٤) سورة الرعد / من الآية ٣٨ .

(٥) رواه الترمذي في النكاح - باب ما جاء في النهي عن التبتل - رقم /١٠٨٢ وقال حديث صحيح ، والنسائي في النكاح - باب النهي عن التبتل ٦/٥٩ .

والمقصود بالتبتل : التفرد والانقطاع عن النساء وترك النكاح انقطاعاً إلى عبادة الله وهو أمر لم يرضه الرسول ﷺ لأحد من أصحابه ولم يأذن لهم فيه ، وإنما كان يحثهم على الزواج وتكثير النسل .

وقد يقصد بالتبتل ترك الانشغال بالدنيا وعدم تعلق القلب بها والإخلاص في التوجه إلى الله سبحانه وكمال محبته ، وهو ما ورد ذكره في قوله تعالى : ﴿ **واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً** ﴾(١) .

فالتبتل هنا لا يعني رفض الدنيا وترك الاستمتاع بها ، وإنما يعني عدم الانشغال بها عن ذكر الله وطاعته(٢) .

وقد تميز المنهج الإسلامي في تزكية النفس بأنه جعل الزواج بشروطه وآدابه الشرعية(٣) رافداً من روافد التزكية وعاملاً أساسياً من عوامل تطهير النفس وتحصينها ، ولم يعده عائقاً في طريق التزكية ، ولا مشغلاً عنها ، وذلك إن كانت الزوجة صالحة تعين زوجها على طاعة ربه .

ولكن بعض الصوفية نظروا إلى الزواج على أنه أمر دنيوي بحت ، ومن أقدم عليه فقد ركن إلى الدنيا وشغل عن ربه عزوجل .

وقد صرح بذلك الإمام الغزالي فقال : " اعلم أن المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يُشغل نفسه بالتزويج ، فإن ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجره إلى الأنس بالزوجة، ومن أَنِس بغير الله شغل عن الله ، ولا يغرنه كثرة نكاح رسول الله ﷺ فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا عن الله تعالى .

ثم نقل عن أبي سليمان الداراني قوله : (من تزوج فقد ركن إلى الدنيا) .

وقوله : (ما رأيت مريداً تزوج فثبت على حاله الأول) .

وقيل له مرة : ما أحوجك إلى امرأة تأنس بها ، فقال : (لا آنسني الله بها) .

---

(١) سورة المزمل / آية ٨ .

(٢) الاعتصام للشاطبي ١/٣٣٨ ، وتفسير الفخر الرازي ٣٠/١٧٨ .

(٣) تنظر هذه الشروط والآداب ص/ ٢٨٢ من هذا البحث .

أي ان الأنس بها يمنع الأنس با لله تعالى[١] .

ولكن الإمام الغزالي لم يجعل تلك الدعوة إلى تأخير الزواج عامة للجميع ، وإنما بين أن الذي لا يقدر على حفظ شهوته وغض بصره فالنكاح له أولى لتسكن الشهوة ، لأنه إذا لم يحفظ عينه لم يحفظ فكره وربما وقع في بلية لا يطيقها[٢] .

ثم حدد مقياساً لموقف المريد من الزواج فقال : " إن كل ما يشغل عن ا لله تعالى فهو نقصان ، فلينظر المريد إلى حاله وقلبه ، فإن وجده في العزوبة فهو الأقرب ، وإن عجز عن ذلك فالنكاح أولى به ، ودواء هذه العلة ثلاثة أمور : الجوع وغض البصر والاشتغال بشغل يستولي على القلب ، فإن لم تنفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الذي يستأصل مادتها فقط "[٣] .

ونلمح من هذا القول أن الأصل في المريد ألا يبادر إلى الزواج ، وأن يجاهد نفسه لتسكين الشهوة دون أن يشغلها بالزواج ، فإن لم يقدر على ذلك بادر إليه كعلاج لما هو فيه من تأجج الشهوة .

والواقع أن الزواج ليس علاجاً وتخلية للنفس عن الرذائل فحسب ، وإنما هو عامل من عوامل تحلية النفس بالفضائل ووسيلة من وسائل المنهج الاسلامي في تزكية النفس وإصلاح المجتمع وتقوية الروابط فيه بإقامة الأُسر المسلمة وتنشئة الأجيال الصالحة والفرق كبير بين أن يكون الزواج علاجاً لا يأخذ به إلا من اشتدت حاجته إليه ، وبين أن يكون سنة نبوية وهدياً إسلامياً ، ويستحب المسارعة إليه ، وهذا ما صرحت به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، كما أسلفنا عند الحديث عن أهمية الزواج في تزكية النفس ، وكما رأينا قبل صفحات من إنكار الرسول ﷺ على من ترك الزواج بدعوى الانقطاع للعبادة ، وقوله ﷺ: " فمن رغب عن سنتي فليس مني " ..

وعلى الرغم من هذا الموقف من الامام الغزالي إلا انه شنع على من يظن أن تزكية

(١) إحياء علوم الدين ١٠١/٣ .

(٢) إحياء علوم الدين ١٠١/٣ .

(٣) إحياء علوم الدين ١٠٤/٣ .

النفس لا تكون إلا بإماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية ، وحذر من فعل الذين أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم حتى هلك بعضهم وفسد عقل بعضهم الآخر ، ومرض بعضهم وانسد عليه الطريق في العبادة ، وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية فظن أن ما كلفه الشرع محال وأن الشرع تلبيس لا أصل له فوقع في الإلحاد ، وعاد بعضهم إلى الشهوات وسلكوا مسلك الإباحة ، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد فلا حاجة لعبادتهم !!

ثم عقب على ذلك ببيان موقف الاسلام وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية وإنما يقمع منها ما يخرج عن الشرع ، ويبقى ملازماً لمراقبة الشهوات حتى لا يجاوز حدود التقوى[1] .

وصدق الرسول ﷺ فقد كان يحذر من التشدد في الدين وتكليف النفس المشاق والإرهاق ، فيقول عليه الصلاة والسلام (هلك المتنطعون)[2] أي المتشددون على أنفسهم في غير موضع التشدد .

ويقول أيضاً : (إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وابشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة)[3] .

ومن أراد التشدد في الدين عجز عن ذلك ولم يبلغ مقصده كما أن المسافر إذا لم يسترح في الطريق الطويل قد ينقطع عن المسير .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٢٣٠ .

(٢) رواه مسلم ـ كتاب العلم ـ باب رفع العلم وظهور الفتن في آخر الزمان ـ رقم /٢٦٧٠ .

(٣) رواه البخاري وقد سبق مع شرحه ص/ ٢٥٨ من هذا البحث .

الباب السادس

ثمرات تزكية النفس بالمنهج الاسلامي

وفيه تمهيد وفصلان :

الفصل الأول : سعادة الدنيا

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : سعادة الفرد

ويتضمن الفقرات التالية :

١ ـ حلاوة الإيمان .

٢ ـ بذل النفس والمال في سبيل الله .

٣ـ عزة النفس .

٤ ـ غنى النفس .

٥ ـ سكينة النفس .

٦ ـ سمو النفس وعلو الهمة .

٧ ـ حسن الخلق .

٨ ـ الحياة الطيبة .

٩ـ الفراسة والحكمة .

١٠ـ صحة الجسد .

المبحث الثاني : سعادة المجتمع .

١ ـ الأخوة والمحبة .

٢ ـ التكافل والتراحم .

٣ ـ الأمن والوقاية من الجرائم .

٤ – العز والتمكين .

الفصل الثاني : سعادة الآخرة .

ويتضمن تمهيداً وأربعة مباحث :

المبحث الأول : السعادة عند سكرات الموت .

المبحث الثاني : السعادة في القبر .

المبحث الثالث : السعادة عند الحشر والحساب والصراط .

المبحث الرابع : السعادة العظمى ببلوغ الجنة ورؤية وجه الله سبحانه .

تمهيد :

حين تمضي مسيرة التزكية في طريقها الصحيح الذي حدده الاسلام ، وتجتاز المعوقات وتتغلب عليها ، فلا بد لها أن تثمر ثمراتها اليانعة في الدنيا والآخرة ، وهي ثمرات دائمة في كل حين ، يجد العبد لذتها ويستشعر حلاوتها ويتقلب في نعيمها ، وكلما ترقى في مدارج التزكية زادت تلك الثمرات إشراقاً وتألقاً .

وطريق تزكية النفس هو طريق الايمان والتقوى ، وقد ضرب الله سبحانه لكلمة الايمان مثلاً كالشجرة الطيبة التي رسخت جذورها وعلت أغصانها وتنوعت ثمراتها وتوالت بلا انقطاع .

قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾[1] .

وقد بين المولى سبحانه أن أهل التقوى يكرمهم الله بالبشرى وينالون سعادة الدنيا والآخرة ، فقال تعالى :

﴿ **قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنةٌ وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾[2] .

فمن اتقى ربه وجاهد في الله حق جهاده وزكى نفسه بطاعة ربه حظي بحسن الدنيا والآخرة ، ووفِّيَ أجره بغير حساب .

وما أبدع قول الامام ابن القيم رحمه الله :

" إن القلوب لا تعطى مناها حتى تصل إلى مولاها ، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة .. ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها ، فهواها مرضها ، وشفاؤها مخالفته،

---

(١) سورة ابراهيم / الآيتان ٢٤-٢٥ .

(٢) سورة الزمر / آية ١٠ .

فإن استحكم المرض قتل أوكاد ، وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه ، فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة ، لايشبه نعيم أهلها نعيماً ألبتة ، بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة .. ولا تحسب أن قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ﴾[1] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط ، بل في دورهم الثلاثة هي كذلك ، أعني دار الدنيا ودار البرزخ ، ودار القرار ، فهؤلاء في نعيم ، وهؤلاء في جحيم ، وهل النعيم إلا نعيم القلب ، وهل العذاب إلا عذاب القلب ؟ وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر ؟ "[2] .

فمن اجتهد في تزكية نفسه وترقيتها حتى يبلغ مرتبة الإحسان فقد فاز بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، وتلك هي السعادة الحقيقة التي تختلف اختلافاً كبيراً عن السعادة المتوهمة التي يسعى إليها أهل الدنيا ويشقون ليحظوا به فلا ينالون إلا مزيداً من الشقاء والتعاسة .

وأما سعادة أهل الإيمان فهي سعادة تنبع من القلب ، وتتوطد أركانها نتيجة لإحساس المؤمن بخيرية الذات وخيرية الحياة وخيرية المصير ، وبهذا تزداد النفس شعوراً بالسكينة والأمن والأمل والرضا والحب[3] .

وهذه السعادة النفسية تصحب العبد في جميع أسفاره من دار الدنيا إلى البرزخ إلى دار القرار ، وبها يترقى في درجات الكمال ، وإن كانت في ابتدائها لا تنفك عن ضرب من المشقة ومجاهدة النفس حتى تتذوق حلاوتها وتدرك قيمتها[4] .

ولقد سبقت الاشارة في مواضع عدة من هذا البحث إلى شيء من ثمرات التزكية وآثارها وبخاصة عند الحديث عن العمل الصالح ودوره في التزكية[5] ، لكن هذا لا يغني عن إفرادها بمزيد من التفصيل لتظهر الصورة المتكاملة للمنهج الإسلامي في تزكية النفس، والتي تحقق للعبد سعادة الدنيا والآخرة وهما غاية ما يطمح إليه كل مؤمن .

---

(١) سورة الانفطار / الآيتان ١٣-١٤ .

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي - ص/٨٢ .

(٣) ينظر : الايمان و الحياة - للدكتور يوسف القرضاوي - ص/٩ ، وطريق السعادة للدكتور مقداد يالجن ص/٢٣ .

(٤) ينظر : مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/١٠٨-١٠٩ .

(٥) ينظر ص / ١٣٠ من هذا البحث .

الفصل الأول

سعادة الدنيا

ويتضمن مبحثان ، أحدهما لبيان سعادة الفرد بما يكرمه الله سبحانه من ثمرات التزكية، والثاني لإلقاء بعض الضوء على المجتمع الذي سعد أفراده بتلك التزكية وإبراز الصورة المشرقة لذلك المجتمع الاسلامي الأمثل .

ولنبدأ بالمبحث الأول :

المبحث الأول

سعادة الفرد

المؤمن الذي زكّى نفسه بطاعة الله عزوجل والمسارعة إلى اغتنام الحسنات والحذر من السيئات يكرمه الله بالفلاح في الدارين ، قال تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها** ﴾ .

وهذا الفلاح لا يقف عند حد ، وإنما هو نور تشع آثاره على حياة المؤمن بجميع مجالاتها ، وتقر به عينه ، فيحظى بسعادة لا يعرف حقيقتها إلا من تذوقها ، ويشرق قلبه بنور الإيمان فتشرق معه جميع الأعضاء والجوارح .

وفي ذلك يقول ابن عباس رضي الله عنهما : " إن للحسنة لنوراً في القلب ، وضياء في الوجه، وقوة في البدن ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق ، وإن للسيئة لظلمة في القلب ، وسواراً في الوجه ، ووهناً في البدن ، وضيقاً في الرزق ، وبغضة في قلوب الخلق "(١) .

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/٦٣٠ .

وتتجلى سعادة المؤمن في الدنيا بما يحظى به من حلاوة الإيمان ، وبما تتحقق به نفسه من بذل في مرضاة الله سبحانه ، واستغناء عن الناس وعزة وسكينة وسمو ، وبما يظهر على سلوكه من أخلاق حسنة وأفعال مرضية ، وما يستشعره من حياة طيبة ونحو ذلك من الثمرات والآثار العظيمة التي سنعرض لها في هذا المبحث ، ومن أبرزها :

أولاً ـ حلاوة الإيمان :

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**)(١).

وروى مسلم عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولاً**)(٢) .

وفي هذين الحديثين بيان للصفات التي من اتصف بها فقد اطمأنت نفسه بالإيمان وخالطت بشاشته قلبه حتى تذوق حلاوته ، وهؤلاء أصحاب النفوس المطمئنة التي ترقت بالتزكية إلى أعلى مراتب الإيمان .

وقد بين الحديث الأول أن حلاوة الايمان لا تتأتى إلا بثلاث خصال :

الأولى : محبة الله ورسوله أكثر من كل مخلوق ، فمن جاهد نفسه ليظفر بهذه المحبة ، وأخرج من قلبه توغّل حب الدنيا والتعلق بها ، فإن الله سيكرمه بتذوق حلاوة الإيمان ، حتى تطمئن به نفسه وتصبح تلك المحبة ملكة وثمرة تملأ قلبه .

والثانية : أن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وهذه الخصلة تنبثق عن الخصلة الأولى ، فمن كان قلبه عامراً بحب الله ورسوله فإنه سيحبُّ الصالحين ويتشوق لمجالستهم ، لأن القلب يميل إلى ما يحب ويتعلق بما يهوى .

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الايمان ـ باب حلاوة الايمان ـ ١/٩ .
ومسلم في الإيمان ـ باب بيان خصال الايمان ـ رقم /٤٣ .

(٢) رواه مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب الدليل على أن من رضي بالله رباً فهو مؤمن رقم /٣٤ .

والثالثة : كراهية الكفر وأهله ، فما دام القلب مشغولاً بحب الله ورسوله فلا يمكن أن يدخله حب أعداء الله أو الميل إليهم أو محبة شيء من المعاصي ، وكراهته لذلك أشد من كراهته للقتل أو الحرق في النار كما بين الحديث الثاني أن من صح إيمانه وإطمأنت به نفسه فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه وتذوق لذته ، وتحقق بالعبودية الصادقة لربه سبحانه ، وإذا كان أهل المعاصي يجدون أُنسهم بانشغالهم بالدنيا وتعلقهم بشهواتها ، فإن أصحاب النفوس المطمئنة لا يشغلهم شاغل عن محبة الله ورسوله والإقبال على الله سبحانه بصدق فالإيمان حينما يستقر في القلب يشعر المؤمن بقيمته ويتذوق حلاوته فلا يبقى مجرد كلمات يرددها اللسان وإنما يتحول إلى سلوك مثمر ومناجاة خاشعة لله سبحانه ، ومحبة صادقة تخالط شغاف القلب ، ولقد عبّر الرسول ﷺ عن ذلك فقال : " وجُعلت قرة عيني في الصلاة "(١) أي أنه عليه الصلاة والسلام تقر عينه وتغمره الفرحة والبهجة والسكينة والطمأنينة عندما يناجي ربه في صلاته ، لأن الصلاة صلة بالله سبحانه وحضور بين يديه ، فكيف لا تقر بها عين المحب ؟(٢).

وقد تحدث الإمام ابن تيمية رحمه الله عن حال هؤلاء المحبين الصادقين فقال :

" هؤلاء هم الذين يطلبون لذة النظر إلى وجهه الكريم سبحانه ، ويتلذذون بذكره ومناجاته، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك ، حتى لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم مالا يطيقون "(٣) .

وأبدع الامام ابن القيم رحمه الله في وصف ما يناله المؤمن من لذة حلاوة الايمان فقال : (إنه لا نعيم للقلب ولا لذة ولا ابتهاج ولا كمال إلا بمعرفة الله ومحبته ، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه ، والشوق إلى لقائه ، فهذه جنته العاجلة ، كما أنه لا نعيم له في الآخرة ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة ، فله جنتان، لا يدخل الثانية منهما ، إن لم يدخل الأولى .

---

(١) الحديث النسائي ٦٢/٧ ، والإمام أحمد ١٢٨/٨ ، والحاكم ١٦٠/٢ وصححه وأقره الذهبي .

(٢) ينظر : طريق الهجرتين لابن القيم ص٣٩ .

(٣) مجموع الفتاوى ٨٥/١٠ .

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

وقال بعض العارفين[1] : إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب .

وقال بعض المحبين[2] : مساكين أهل الدنيا ، خرجوا من الدنيا ، وماذاقوا أطيب ما فيها، قالوا : وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله ، والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، والإقبال عليه والإعراض عمن سواه)[3] .

وعقد ـ رحمه الله ـ مقارنة بين ما يجده أهل الكفر والعصيان من شقاء وحرمان وآلام وحسرات وما يجده المؤمن من حلاوة الإيمان فقال : " إن هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه ، واشتياقاً إليه وارتياحاً بحبه ، وطمأنينة بذكره ، حتى يقول بعضهم في حال نزعه : واطرباه .. ويقول الآخر : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف "[4] .

وقد ركز الإمام ابن القيم رحمه الله على هذه الثمرة العظيمة من ثمرات التزكية ، وتحدث عنها في مواضع كثيرة من كتبه القيمة[5] مشيراً إلى ما كان شيخه الإمام ابن تيمية رحمه الله يوليها من اهتمام ويربي عليها نفوس تلاميذه حتى يتذوقوها ويسعدوا بالوصول إليها ، فكان مما قاله : " سمعت شيخ الاسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً ، فاتهمه ، فإن الرب شكور ، يعني أنه لابد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه ، وقوة انشراح وقرة عين ، فحيث لم يجد ذلك

---

(١) وأورده الامام ابن تيمية هذا القول أيضاً دون أن ينسبه لقائله (مجموع الفتاوى ١٠/٦٤٧) .

(٢) ذكره ابن عطاء الله السكندري في كتابه تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس ص/٢٥ .

(٣) مدارج السالكين ١/٤٥٤ .

(٤) الجواب الكافي – ص/ ٨٣ .

(٥) ينظر مثلاً : مدارج السالكين ٢/٦٧-٦٨ ، ٣/٢٦٦-٢٧٤ ، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص/٨٣،٢٥٥ ، طريق الهجرتين ص/٥٦، مفتاح دار السعادة ١/٤٦ .

فعمله مدخول "[1] .

وتأمل ما يصف به الإمام ابن القيم رحمه الله عيش المحبين الصادقين الذين تذوقوا حلاوة الايمان حيث يقول :

" فلا عيش إلا عيش المحبين الذين قرَّت أعينهم بحبيبهم ، وسكنت نفوسهم إليه ، واطمأنت قلوبهم به ، واستأنسوا بقربه ، وتنعموا بحبه ، ففي القلب فاقة لا يسدّها إلا محبة الله والإقبال عليه والإنابة إليه ، ولا يَلُمُّ شَعَثَه بغير ذلك ألبته ، ومن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات "[2] .

وهكذا يصل العبد المؤمن إلى هذه الثمرة العظيمة من ثمرات تزكية النفس والتي ينتج عنها ثمرات أخرى من أبرزها :

١ ـ **الاخلاص** الكامل لله سبحانه في جميع الأعمال والأقوال : حيث يصبح ذلك الأخلاص ملكة وطبيعة عند المؤمن لا يبذل من أجل تحصيله أي عناء ولا مجاهدة للنفس ، لأن النفس لم تعد أمارة بالسوء بعد أن تزكت وتطهرت .

٢ ـ **الخشوع في العبادات** : لأن القلب لا يشغله شيء عن عبادة الله سبحانه ولا يصرفه صارف عن التوجه إلى خالقه ، فهو مشغول بمن يحب ، وكل إناء بالذي فيه ينضح .

وهذا ما أشار إليه الإمام ابن تيمية رحمه الله بقوله : " معلوم أن الحب يحرك إرادة القلب ، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات "[3] .

٣ـ **كراهية المعاصي والنفور منها** : لأن النفس وجدت أُنسها في طاعة مولاها وتذوقت حلاوة تلك الطاعة فلا تتحول عنها .

وفي ذلك يقول الإمام ابن حزم رحمه الله :

" ليس بين الفضائل والرذائل ولا بين الطاعات والمعاصي إلا نفار النفس وأنسها فقط ،

---

(١) مدارج السالكين ٦٨/٢ .

(٢) المرجع نفسه ٢٧٤/٣ .

(٣) العبودية ـ للامام ابن تيمية ص/٥٢ .

فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات ونفرت من الرذائل ، والمعاصي ، والشقي من أنست نفسه بالرذائل ، والمعاصي ونفرت من الفضائل والطاعات "[1] .

ثانياً : بذل النفس والمال في سبيل الله :

عندما تسمو النفس بالتزكية ويتطهر القلب من التعلق بالدنيا ويتذوق حلاوة الإيمان ، وتصبح المحبة الصادقة لله ورسوله هي الشغل الشاغل للعبد ، فإن ذلك يبعث في القلب حب البذل والفداء والاستهانة بالحياة الدنيا وزينتها رجاء ما عند الله سبحانه من الأجر العظيم والفضل الكبير وتشوقاً لما أعده لعباده الصادقين في دار النعيم .

قال تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد** ﴾[3] .

وهذه الآية ـ كما ذكر المفسرون ـ نزلت في صهيب الرومي رضي الله عنه ، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه المشركون أن يهاجر بماله فأعطاهم ما يملك ، فلما قدم على النبي ﷺ قال له : " ربح البيع أبا يحيى ربح البيع " ونزلت هذه الآية[4] .

فالمؤمن يبذل النفس والنفيس وهي عزيزة عنده لينال ما هو أعز منها وهو رضاء الله سبحانه وجنته ، ولا يفعل ذلك إلا من تطهرت نفسه من أمراضها وعللها وترقت في مقامات التزكية .

ولقد ضرب الصحابة الكرام والسلف الصالح أروع الأمثلة للبذل والفداء فكانوا نماذج

---

(١) مداواة النفوس لابن حزم ـ ص/٥٦ .

(٢) سورة التوبة / آية ١١ .

(٣) سورة البقرة / آية ٢٠٧ .

(٤) ينظر : تفسير الطبري – ٣٢١/٢ ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٢٤٩/١ ، تفسير ابن كثير ٢٤٧/١ .

مشرقة لمدرسة النبوة في التزكية .

روى مسلم من حديث غزوة بدر عن أنس رضي الله عنه قال : " .. فَدَنا المشركون ، فقال ﷺ : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، قال : فجعل يقول عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله جنةٌ عرضها السموات والأرض ؟ قال ﷺ : نعم ، فقال : بخ بخٍ[1] .

فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ ؟

قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها .

قال : فإنك من أهلها ، فأخرج تمرات من قَرَنه[2] فجعل يأكل منها ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة قال : فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل "[3] .

وروى البخاري ومسلم من حديث أنس بن النضر أنه لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدراً فشقّ عليه ذلك فلما كان يوم أُحد قال أنس : " واهاً لريح الجنة[4] أجده دون أحد، قال : فقاتلهم حتى قُتل ، قال : فوجد في جسده بضع وثمانون ، من بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته : فما عرفت أخي إلا ببنانه ، ونزلت هذه الآية : ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً** ﴾[5] قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه "[6] .

وروى مسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال : سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول : قال رسول الله ﷺ : " إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف " فقام رجل رثُّ

---

(١) كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير .

(٢) أي : جعبة النشاب .

(٣) رواه مسلم ـ كتاب الامارة ـ باب ثبوت الجنة للشهيد رقم /١٩٠١ .

(٤) واهاً : كلمة تحنن وتلهف .

(٥) سورة الأحزاب / من الآية ٢٣ .

(٦) رواه البخاري في المغازي ـ باب غزوة أحد ـ ٣١/٥ ، ومسلم في الأمارة ـ رقم /١٩٠٣ .

الهيئة فقال : يا أبا موسى آنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا ؟ قال : نعم، قال : فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جفن سيفه[1] فألقاه ، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قُتل "[2] .

وعن عكرمة مولى ابن عباس قال : كان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج فلما خرج النبي ﷺ إلى بدر قال لبنيه : أخرجوني فذكر للنبي عرجه وحاله ، فأذن له في المقام، فلما كان يوم أحد خرج الناس ، فقال لبنيه ، أخرجوني ، فقالوا قد رخص لك رسول الله ﷺ وأذن ، قال : هيهات ، منعتموني الجنة ببدر وتمنعونيها بأحد! فخرج ، فلما التقى الناس قال لرسول الله ﷺ : أرأيت إن قتلت اليوم أطأ بعرجتي هذه الجنة ؟ قال : نعم قال : فوالذي بعثك بالحق لأطأن بها الجنة اليوم إن شاء الله ، فقال لغلام له كان معه يقال له سليم : إرجع إلى أهلك قال : وما عليك أن أصيب اليوم خيراً معك ؟ قال : فتقدم إذاً قال : فتقدم العبد فقاتل حتى قُتل ، ثم تقدم وقاتل هو حتىقُتل "[3] .

وفي رواية : " فقال يا رسول الله : أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة ؟ وكانت رجله عرجاء ، فقال رسول الله ﷺ : نعم ، فقتلوه يوم أحد هو وابن أخيه ومولى لهم ، فمرَّ عليه رسول الله ﷺ فقال : كأني أنظر إليه يمشي برجله هذه صحيحة في الجنة "[4] .

ـ وعن سليمان بن أبان (أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى بدر أراد سعد بن خيثمة وأبوه أن يخرجا جميعاً فذكروا ذلك للنبي ﷺ ، فأمرهما أن يخرج أحدهما فاستهما فخرج سهم سعد ، فقال أبوه ، آثرني بها يا بني .

فقال : يا أبت ، إنها الجنة ، لو كان غيرها آثرتك به .

---

(١) جفن سيفه : أي غمده .

(٢) رواه مسلم في الأمارة ـ رقم /١٩٠٢ .

(٣) رواه البيهقي (٢٤/٩) والامام عبد الله بن المبارك في كتابه الجهاد ص/٩٩ ـ والامام ابن قدامة في كتابه الرقة والبكاء ص/٢١٦ ، وابن هشام في السيرة ٩٠/٢ .

(٤) رواه الامام أحمد في مسنده ورجاله رجال الصحيح غير يحيى بن نصر الأنصاري وهو ثقة كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣١٥/٩ .

فخرج سعد مع النبي ﷺ فقتل يوم بدر ، ثم قتل خيثمة من العام المقبل يوم أحد "(١) .

ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال :

" لما طعن حرام بن ملحان ـ وكان خال أنس ـ يوم بئر معونة ، قال بالدم هكذا ، فنضحه على وجهه ورأسه ثم قال : فزت ورب الكعبة "(٢) .

فتأمل هذه المشاهد لترى مقدار ما حظي به هؤلاء الصحابة الكرام من حب البذل والفداء والتنافس فيه ابتغاء رضوان الله ، حتى وكأن أحدهم ينظر إلى الجنة أمامه فلا يسعه إلا أن يسارع لبلوغها ، فها هو أنس بن النضر رضي الله عنه يفصح عن ذلك قائلاً : " واهاً لريح الجنة ، أجده دون أُحد " وها هو عمرو بن الجموح رضي الله عنه لا يبالي بعرج رجله ويدخل أتون المعركة قائلاً لأولاده : " هيهات ، منعتموني الجنة ببدر وتمنعونيها بأحد " ، وها هو سعد بن خيثمة رضي الله عنه ينافس والده ليكون أسبق منه إلى الجنة قائلاً : " يا أبت إنها الجنة لو كان غيرها آثرتك به " .

وتأمل قول حرام بن ملحان رضي الله عنه لما طُعن : " فزت ورب الكعبة " !! ، والتاريخ الاسلامي حافل بمئات من المشاهد والنماذج الناطقة بعظمة أولئك الرجال الصادقين ، وما ارتقت إليه نفوسهم من الترفع عن الدنيا الفانية والتطلع إلى الآخرة الباقية وكأنها رأي عين .

ولا شك أن المرء مهما تظاهر بالشجاعة وحب البذل والفداء فإن ذلك التظاهر لا يلبث أن ينكشف ساعة الجد فيُعرف مَن تزكت نفسه ممن يدعي تزكيتها وهو أسير لشهواتها.

---

(١) رواه الامام عبد الله بن المبارك في كتاب الجهاد ص/١٠٠ ، والحاكم في المستدرك ١٨٩/٣ .

(٢) رواه البخاري في المغازي ـ باب غزوة الرجيع ـ ٤٠/٣ ، وفي الجهاد ـ باب فضل من ينكب في سبيل الله ٢٠٤/٣ ، ومسلم في الإمارة – باب ثبوت الجنة للشهيد – رقم /٦٧٧ .

ثالثاً : عزة النفس :

العزة الحقيقة التي لا تشوبها مهانة لمخلوق هي عزة المؤمن المترفع عن الدنايا والمتطهر من الرزايا ، وهذه العزةثمرة من ثمرات تزكية النفس وصفاء القلب من التعلق بالدنيا وأهلها ، فلا يذل نفسه لأحد منهم ولا يهينها لينال عَرضاً من أعراض الدنيا .

وهذه العزة تنبع من القلب وتستوطن فيه ، فإن كان القلب مستعبداً للشهوات فهو أسير ذليل لماتعلق به ، لا يستطيع الخلاص منه ، وإن كان حراً من تلك القيود فهو العزيز الذي لا تفارقه العزة ولو قُيد جسده بالأغلال .

وأما العزة المتوهمة التي يسعى لبلوغها أهل الدنيا بالمال والجاه فهي تكبُّر وترفُّع بالباطل، يتظاهر أصحابها بها وقلوبهم ذليلة أسيرة ، ونفوسهم تتحكم فيهم كما يتحكم القاهر في عبده المقهور[1] ، أضف إلى ذلك أن حال الدنيا يقتضي من كل ذي جاه أن يذل إلى من هو أعلى منه جاهاً ، وأن يسخر نفسه لخدمته ليحظى برضاه .

ولذلك أرشد المولى سبحانه عباده إلى طريق العزة الحقيقية وحثهم على المسارعة لتحصيلها بتزكية النفس والترقي بها إلى مقامات التقوى والإحسان .

فقال تعالى : ﴿ **من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾[2] .

فالسبيل الموصلة إلى العزة هو التقرب إليه سبحانه بما شرع من الكلم الطيب والعمل الصالح ومن أعرض عن طاعة ربه ،ولم يطلب العزة من العزيز سبحانه وتعالى ، وإنما طلبها من المخلوقين فقد خاب وخسر ، ومصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ **الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً** ﴾[3] .

---

(١) ينظر : العبودية لامام ابن تيمية ـ ص/٤٥ .

(٢) سورة فاطر / من الآية ١٠ .

(٣) سورة النساء / آية ١٣٩ .

وقوله عز وجل : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً** ﴾[1] .

فالمؤمن الصالح الذي زكت نفسه بطاعة ربه سبحانه يمنحه الله العزة في الدنيا والآخرة وأما أهل الكفر ومن والاهم فعاقبة أمرهم الذل والهوان ، وليست العزة التي يتظاهرون بها في الدنيا إلا تعزز بالأثم والعدوان وتكبر عن قبول الحق وتسلط على الضعفاء وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ **وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد** ﴾[2] .

ويقول سبحانه مخبراً عن دعوى المنافقين : ﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾[3] .

ولقد وضح الاسلام المقياس الصحيح لعزة النفس ، وأبطل ما كان أهل الجاهلية يدّعونه من مقاييس الافتخار بالحسب والنسب ، والذي كانوا يفاضلون به بين الناس ، حتى إن أحدهم يبقى ذليلاً مهيناً مهما قام به من أعمال كبيرة وذلك بسبب انتمائه إلى قبيلة لا قيمة لها عندهم ، في ذلك يقول شاعرهم :

فغُضَّ الطرف إنك من نمير   فلا كعباً بلغت ولا كِلابا

فلما جاء الاسلام ألغى هذه الموازين الجائرة ، وجعل التقوى وصلاح النفس مقياساً للتفاضل عند الله سبحانه وطريقاً للعزة والكرامة ، فمن تحقق بتزكية نفسه لبس ثوب العزة ولو كان عبداً مملوكاً أو أجيراً فقيراً .

وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالاسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله "[4] .

---

(١) سورة مريم / الآيتان ٨١-٨٢ .

(٢) سورة البقرة / آية ٢٠٦ .

(٣) سورة المنافقون / آية ٨ .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/٦٢ - كتاب الايمان - وقال صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/٢٦٣- رقم /١٦٢٩١ ، وأبو نعيم في الحلية ١/٤٧ ، وابن قدامة =

وهذه قصة ربعي بن عامر مع رستم شاهدة على هذه العزة الإيمانية ، فقد طلب رستم من سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن يبعث إليه رسولاً يفاوضه قبل أن يبدأ القتال في معركة القادسية فأرسل إليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، فكان مما قاله لرستم : " إنا ليس طلبنا الدنيا وإنما همنا وطلبنا الآخرة " ثم بعث إليه سعد رسولاً آخر وهو ربعي بن عامر فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والحرير ، وأظهروا اليواقيت واللآلئ الثمينة ،وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل وعليه سلاحه ودرعه ، فقالوا له : ضع سلاحك فقال : إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت ، فقال رستم : ائذنوا له ، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارث فخرق عامتها .

فقالوا له : ما جاء بكم ؟ قال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عباة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله .

قالوا : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي .

فطلب رستم مهلة أيام ، فلما غادر ربعي اجتمع رستم برؤساء قومه فقال : هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل .

فقالوا : معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب ، أما ترى إلى ثيابه ؟

فقال : ويلكم لا تنظروا إلى الثياب ، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة[1] .

وهكذا أظهر ربعي بن عامر أمام أعداء الله العزة التي تبوأها المسلمون باتباعهم للدين

المقدسي في كتابه / الرقة والبكاء - ص/١٧٧ .

(١) البداية والنهاية - للإمام ابن كثير ٧/٣٩-٤٠ .

الحق ، وكأنه رضي الله عنه بثيابه الخشنة وفرسه القصيرة[1] يريد أن يبين لرستم أن هذه الانتصارات التي أوصلت المسلمين إلى عقر دار أعدائهم ليست بسبب المال أو فخامة اللباس أو ما فتح لهم من خيرات الدنيا ، وإنما هي بسبب رفعهم لراية الاسلام وصدقهم في الايمان به حتى منحهم الله سبحانه العزة والتمكين .

وهذه العزة التي ترفع رأس المسلم عالياً في وجه أعدائه وتجعله حراً طليقاً من تحكم الشهوات به ، يقابلها التواضع وخفض الجناح ولين الجانب لإخوانه المؤمنين ، وهذا ما وصف الله به عباده الصالحين بقوله سبحانه : ﴿ **أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين** ﴾[2] .

وما أوصى به رسوله الكريم ﷺ فقال تعالى : ﴿ **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** ﴾[3] .

رابعاً : غنى النفس :

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " ليس الغنى عن كثرة العَرَض ، ولكن الغنى غنى النفس "[4] .

فليس حقيقة الغنى كثرة المال لأن كثيراً ممن وسع الله عليه في المال لا يقنع بما أوتي ولا يبالي من أين يأتيه فهو فقير لشدة حرصه وطمعه وجشعه ، وإنما حقيقة الغنى غنى النفس ،

---

(١) لابد من التنبيه هنا إلى أن ما فعله (ربعي) نابع من إدراكه أن هذا هوالحكمة المناسبة لذلك الموطن، والحكمة وضع الشيء في محله ، وقد أثمرت حكمته ثمرتها في إظهار عزة المؤمن وثباته واستهانته بأعراض الدنيا ,لذلك قال رستم لأصحابه : " هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل " ولكن هذا لا يعني أبداً أن يُظهر المسلم عزته بهذه الطريقة في كل المواطن إذ قد يكون ذلك مغايراً للحكمة في موضع آخر ، فيكون ضرره أكبر من نفعه ، والداعية طبيب حاذق يشخص الداء ويصف الدواء المناسب لكل حالة بعد الموازنة بين المفاسد والمنافع .

(٢) سورة المائدة / من الآية ٥٤ .

(٣) سورة الشعراء / آية ٢١٥ .

(٤) رواه البخاري في الرقاق ـ باب الغنى غنى النفس ـ ١٧٨/٧ ، ومسلم في الزكاة ـ باب ليس الغنى عن كثرة العرض ـ رقم /١٠٥١ .

وهو من استغنى ورضي بما قسم الله له ، ولم يحرص على الازدياد ، وكفت نفسه عن المطامع فعزت وعظمت ، ويحصل هذا الغنى للنفس عندما تتزكى وترضى بقضاء الله سبحانه وتسلم لأمره وهي موقنة بأن ما عند الله خير وأبقى .

وأما اللاهث وراء حطام الدنيا فإنه فقير النفس مهما كثرت أمواله ، لأنه لا يقنع بما أعطي ، وإذا فاته شيء حزن وجزع ، " ولو أعطي وادياً من ذهب لتمنى أن يكون له واديان "(١) . فهو دائم الحسرات والزفرات لما يفوت عليه من مطامح وأماني لا تقف عند حد .

روى الترمذي وابن ماجه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من كانت الدنيا همه فرّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة)(٢) .

ولقد تحقق السلف الصالح من الصحابة والتابعين وعلماء هذه الأمة رحمهم الله بهذه الثمرة من ثمرات التزكية فلم تشغلهم الدنيا عن عبادة ربهم والتقرب إليه ، وإنما جعلوها طريقاً للآخرة ومزرعة لها ولنكتف هنا بمثال من سجل تاريخهم الناصع ، وذلكم هو عمر بن عبد العزيز رحمه الله الخليفة الزاهد الراشد الذي أتته الدنيا بأموالها وجاهها وسلطانها فأعرض عن الانشغال بها وفي ذلك يقول مالك بن دينار رحمه الله : الناس يقولون عني زاهد، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها "(٣) .

ولما توفي رحمه الله حزن عليه الناس كثيراً ، حتى إن ملك الروم لما علم بوفاته جلس مكتئباً حزيناً ثم قال : " إني لست أعجب من الراهب إن أغلق عليه بابه ورفض الدنيا وترهّب وتعبّد ، ولكن العجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه ثم رفضها وتعبّد "(٤) .

---

(١) هذا جزء من حديث نبوي ورد بنصه ص / ٣٩٥ من هذا البحث عند بيان أمراض النفس والتي من أبرزها الأمراض المتعلقة بشهوة حب المال .

(٢) رواه ابن ماجه ـ كتاب الزهد ـ باب الهم بالدنيا ـ رقم /٤١٠٥ ، وصححه الألباني في صحيحه الجامع /٦٥١٠،٦٥١٦ ، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم /٩٤٩ .

(٣) سير أعلام النبلاء للامام الذهبي ١٣٤/٥ .

(٤) حلية الأولياء ٢٩١/٥ ، الرقة والبكاء لابن قدامة المقدسي ص/٣٠٢ـ٣٠٣ سير أعلام النبلاء =

فما أعظم هذه الثمرة من ثمرات تزكية النفس ، والتي بها تصبح حرة طليقة مطمئنة غنية بما أغناها به مالكها وفاطرها من النور الذي وقع في القلب ، وهو نور الإيمان[1] !!.

وأما المعرض عن ربه سبحانه الأسير لشهواته فإنه لا يصاب بفقر النفس فحسب ، وإنما يخسر نفسه كلياً ، وتلك أعظم من خسارة المال والفقر المدقع .

قال تعالى : ﴿ **ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾[2] .

وقد حدد الامام ابن القيم رحمه الله المقياس الذي يستطيع الانسان به أن يعرف فقر نفسه من غناها ، وذلك أن غني النفس كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته ، وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره ، وكلما زيد في عمره نقص من حرصه ، وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله ، وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم ، وهذا هو طريق السعادة والفلاح .

وأما فقير النفس فإنه كلما زيد في علمه زيد في تكبره وتيهه ، وكلما زيد في عمله زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه ، وكلما زيد في عمره زيد في حرصه ، وكلما زيد في ماله زيد في بخله وإمساكه ، وهذا من علامات الشقاوة[3] .

خامساً : سكينة النفس :

إذا ترسخت في النفس الأسس العقدية للتزكية ومنها الإيمان بالقضاء والقدر والرضا به، والقيام بالأعمال الصالحة التي تطهر النفس وتزكيها وهي من الأساليب العملية لتزكية النفس، ومن أبرزها الصلاة والذكر والدعاء ، فإن نفس المؤمن تطمئن وتحظى بالسكينة ، فلا تجزع عند البلاء ولا تبطر عند الرخاء .

٥/١٤٢-١٤٣ .

(١) ينظر : طريق الهجرتين لابن القيم ص/٤٠ .

(٢) سورة الأعراف / آية ٩ .

(٣) الفوائد لابن القيم ص/١٥٥ .

وفي ذلك يقول الله سبحانه : ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسَّه الشر جزوعاً وإذا مسَّه الخير منوعاً إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون** ﴾[1] .

ويقول تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾[2] .

وأصل السكينة الطمأنينة والوقار والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف ، ويوجب له زيادة الايمان وقوة اليقين والثبات[3] .

وقد أنزل الله سبحانه السكينة على رسوله ﷺ ومن معه من الصحابة في لحظات الشدة قال تعالى :

﴿ **ثم أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين** ﴾[4] .

وقال عز وجل : ﴿ **هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً** ﴾[5] .

وهذه السكينة حياة للقلب ، ونور يستنير به ، ويقظة له ، وقوة تشد من عزمه وتثبته عند الشدائد ، وتضبط النفس عند جزعها وهلعها ، ولذلك يزداد المؤمن بالسكينة إيماناً مع إيمانه[6] ، وهكذا تتوالى الثمرات العظيمة لتزكية النفس وينتج بعضها عن بعض وبهذا يتبين ان السكينة ليست للأمان من المخاوف فحسب ، وإنما هي لطمأنينة القلب بالإيمان وشد عزيمة النفس وحثها على النهوض بأمر الله وشكره في جميع الأحوال .

وهذه الثمرة العظيمة هي التي أثنى عليها رسول الله ﷺ بقوله :

" عجباً لأمر المؤمن ، إنَّ أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته

---

(١) سورة المعارج / الآيات ١٩-٢٣ .

(٢) سورة الرعد / آية ٢٨ .

(٣) ينظر : مدارج السالكين ٢/٥٠٣ .

(٤) سورة التوبة / من الآية ٢٦ .

(٥) سورة الفتح / آية ٤ .

(٦) ينظر مدارج السالكين ٢/٥٠٧ .

سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له "[١] .

فهذه السكينة لا يحظى بها إلا المؤمن الذي زكت نفسه ، وهذا ما أكده الرسول ﷺ بقوله : " وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن " أي المتحقق بالإيمان ، الذي اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله سبحانه ، فاستحق البشارة التي ورد ذكرها في قوله تعالى : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** ﴾[٢].

وهذه السكينة هي التي عمرت قلب الرسول ﷺ وأصحابه الكرام والتابعين لهم بإحسان فانطلقوا دعاة فاتحين بنفوس مطمئنة واثقة بنصر ربها ، وقلوب ثابتة لا تضطرب ولا تجزع ، لأنها متوجهة بصدق إلى خالقها سبحانه لا موضع فيها للتعلق بسواه من عوالق الدنيا وجواذ بها .

وقد ضرب الله مثلاً لهذا القلب الموحد الذي يستمد العون من الله سبحانه ويستنير بهداه ولا يتعلق بسواه ، فقال تعالى :

﴿ **ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾[٣] .

فإذا كان العبد المملوك لأسياد كثيرين وشركاء متشاكسين يبقى مضطرباً بينهم ، حائراً في إرضائهم وتلبية رغباتهم المتنازعة ، فإن العبد الذي سلمت عبوديته لشخص لا ينازعه فيه أحد يبقى مطمئناً هادئ البال ، وهو مثال القلب المخلص لربه والمطمئن إلى عبوديته ومحبته لله سبحانه فإنه ساكن مطمئن مستريح ، وأما القلب الذي مزقته الأهواء والشهوات فما أعظم قلقه وما أشد اضطرابه .

ولنقتطف مثالاً واحداً من تاريخ سلفنا الصالح الحافل بروائع الأمثلة على صدق العبودية لله سبحانه وسكون النفس عند المحن ، وذلكم هو ما حلَّ بشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله عندما حُبس في قلعة دمشق وحبس معه تلميذه الامام ابن القيم رحمه الله الذي يصف لنا

---

(١) رواه مسلم عن صهيب بن سنان رضي الله عنه ـ كتاب الزهد والرقائق ـ باب المؤمن كله خير رقم /٢٩٩٩ .

(٢) سورة الفجر / الآيات ٢٧-٣٠ .

(٣) سورة الزمر /آية ٢٩ .

حال الشيخ آنذاك فيقول :

(قال لي مرة : ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحت فهي معي لا تفارقني ، إنَّ حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة .. وكان يقول في سجوده وهو محبوس : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.. وقال لي مرة : المحبوس من حُبس قلبه عن ربه تعالى ، والمأسور من أسره هواه ..

وعَلم ا لله : ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط ، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدهما ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف ، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً ، وأشرحهم صدراً ، وأقواهم قلباً ، وأسرّهم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه .

وكنا إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضاقت بنا الأرض ، أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه ، فيذهب عنا ذلك كله ، وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة"[(١)] .

وهكذا تثمر التزكية ثمرة السكينة والرضا والتي ينال بها العبد رضا ا لله سبحانه كما قال تعالى : ﴿ **رضي ا لله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه** ﴾[(٢)] .

سادساً ـ سمو النفس وعلو الهمة :

كلما كانت النفس أعظم تزكية والقلب أتم حياة كانت همته أعلى وإرادته أقوى ، لأن الإرادة والمحبة تتبع الشعور بالمراد المحبوب ، فمن امتلأ قلبه حباً لربه سبحانه قويت إرادته في السعي لرضاه وسمت نفسه عن الدنايا ، وأخسُّ الناس حياة أخسهم همة وأضعفهم محبة وطلباً[(٣)] .

وأصحاب النفوس المطمئنة هممهم عالية ونفوسهم سامية ، لا تبيع حظها من ا لله وقربه

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ـ للإمام ابن القيم ص/٦٦ـ٦٧ .

(٢) سورة البينة / من الآية ٨ .

(٣) ينظر : مدارج السالكين ٣/٢٦٣ .

والأنس به بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية ، فالهمة العالية كالطائر العالي كلما علا بعد عن وصول الآفات إليه فإذا نزل قصدته الآفات من كل مكان ، فعلو همة المرء عنوان فلاحه، وسفل همته عنوان حرمانه[1] .

ولا شك أن الهمة تؤدي إلى تطلع المرء إلى أعالي الأمور وتبعث النشاط في النفس وتبعدها عن الدناءة والمهانة ومواطن الذلة ، وهذا هو شرف النفس ونبلها النابع من طهارتها وتزكيتها ، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾[2] أي : أفلح من أكبرها ونماها بطاعة الله ، وخاب من صغّرها وحقرها بالمعاصي، فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها ، وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات ، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **قل كلٌّ يعمل على شاكلته** ﴾[3] أي : على ما يشاكله ويناسبه ، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته[4] .

فالأعمال الفاضلة والآمال السامية والمطامح العالية دليل على سمو النفس وعلو الهمة وارتقاء العبد في أعلى درجات الإيمان والقرب من الله سبحانه .

ومصداق ذلك ما رواه الطبراني عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : " إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها "[5] .

والمتأمل لسيرة الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يجدها حافلة بالمشاهد التي تدل على علو همتهم وتشوقهم إلى أعظم أمنية يطمح إليه المؤمن وهي رضاء الله سبحانه وجنته ومرافقة رسوله ﷺ في أعلى درجات الجنة والشوق إلى لقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم

---

(١) ينظر : المرجع نفسه ٣/١٧١ - ١٧٢ .

(٢) سورة الشمس / الآيتان ٩-١٠ .

(٣) سورة الإسراء / من الآية ٨٤ .

(٤) ينظر : الفوائد لابن القيم ص/١٧٧-١٧٨ .

(٥) رواه الطبراني وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (ينظر : فيض القدير ٢/٢٩٥) وروى البيهقي قريباً منه من حديث سهل بن سعد متصلاً ومرسلاً ورجالهما ثقات كما قال الحافظ العراقي في تخريجه للإحياء ٢/٣٥٨ .

سبحانه ، وهم ابتغاء ذلك يجدون السير بلا كلل ويبذلون كل غال ونفيس ليحظوا بالمراد .

ومن ذلك مثلاً ما رواه مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال : " كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيه بوضوئه وحاجته ، فقال لي : سَلْ فقلتُ : أسألك مرافقتك في الجنة، قال : أوَ غير ذلك ؟ قلت : هو ذاك ، قال : فأعني على نفسك بكثرة السجود "(١) .

فانظر إلى سمو نفس ربيعة رضي الله عنه وعلو همته وتشوقه إلى أعلى درجات الجنة ، وهذه هي أمنيته التي لا يتطلع لغيرها مع ما هو عليه من الفقر والحاجة .

وبهذه الهمة العالية كان علماؤنا رحمهم الله يسارعون إلى طلب العلم ويتسابقون إليه ويصبرون على الشدائد في تحصيله وتعلمه وتعليمه ، ولا يضيعون شيئاً من الوقت سدىً في اللهو والغفلات وبذلك شيدوا حضارة شامخة سعدت بها الأرض قروناً أيما سعادة .

وأما ما يعيش فيه الغرب من مدنية وتحضّر فهي التي أدت إلى هوان النفس الإنسانية وضياعها وطغيان المادة عليها ، حتى صارت ذليلة أسيرة مكبلة بقيود الشهوات والمطامع، معذبة تبحث عن مأوى تفرُّ إليه ولوأن تعيش مع البهائم .

وقد صرح بذلك عدد من مفكريهم ، ظناً منهم أن هذا الفرار من الحياة يؤدي بهم إلى السعادة:

يقول " براتراند راسل " في كتابه " الفوز بالسعادة " :

" أتمنى لو أستطيع أن أعيش مع الحيوانات ، فهي رابطة الجأش وقانعة بذاتها "(٢) .

ويقول : " تكون الحيوانات سعيدة ما دامت تتمتع بالصحة ، وتجد ما يكفيها لتأكل، وشعور البشر ينبغي أن يكون هكذا أيضاً "(٣) .

فما أخس الإنسان إذا صارت أمانيه وآماله لا تتجاوز امتلاء البطن والعيش مع البهائم؟ وصدق الشاعر حين قال :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب الصلاة ـ باب فضل السجود والحث عليه ـ رقم /٤٨٩ .
(٢) الفوز بالسعادة ـ ص / ١٩ .
(٣) المرجع نفسه ـ ص/٢٣ .

سابعاً ـ حسن الخلق :

إذا جاهد العبد نفسه حتى تُقلع عن المعاصي وتُقبل على الطاعات وتتعود الأخلاق الفاضلة وتحذر من سوء الأخلاق ، فإن من ثمرات هذه المجاهدة أن تترسخ معالم تلك الأخلاق في النفس حتى تصبح ملكة يستشعر الانسان لذتها وينشرح الصدر لها .

وهذا الخلق الأصيل المنبعث من النفس ينال به العبد أعلى المراتب وأعظم الأجر وقد ورد في فضله ومنزلته أحاديث نبوية كثيرة ، منها :

ـ ما رواه الشيخان عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يقول : " إن من خياركم أحاسنكم أخلاقاً "[(١)] .

ـ وما رواه الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : " ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق "[(٢)] .

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم خُلُقاً "[(٣)] .

فمن اتصف بحسن الخلق فقد حظي بمرتبة عالية من مراتب الايمان ، وكلما كانت هذه الأخلاق في صاحبها أكمل كانت حياته في الدارين أهنأ وأتم .

وقد تحدث الإمام ابن القيم عن الحياة السعيدة التي يحظى بها صاحب الأخلاق الفاضلة فقال : " من مراتب الحياة : حياة الأخلاق والصفات المحمودة ، التي هي حياة راسخة للموصوف بها ، فهو لا يتكلف الترقي في درجات الكمال ولا يشق عليها ، لا قتضاء أخلاقه وصفاته لذلك ، بحيث لو فارقه ذلك لفارق ما هو من طبيعته وسجيته ، فحياة من قد

---

(١) رواه البخاري – كتاب الأدب – باب حسن الخلق – ٨٢/٧ .
ومسلم ـ كتاب الفضائل ـ رقم /٢٣٢١ .

(٢) رواه الترمذي ـ كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء في حسن الخلق ـ رقم /٢٠٠٢ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) رواه الترمذي ـ كتاب الرضاع ـ باب ما جاء في حق المرأة على زوجها ـ رقم /١١٦٢ ، وقال هذا حديث حسن صحيح .

طُبع على الحياء والعفة والجود والسخاء والمروءة والصدق والوفاء ونحوها أتم من حياة من يقهر نفسه ويغالب طبعه حتى يكون كذلك "[1] .

فالأخلاق النافعة التي ينبغي الحرص عليها هي الأخلاق المستقرة في النفس ، وأما مظاهر الأخلاق التي تبدو على كثير من الناس اليوم فهي على أحد نوعين :

ـ إما أن صاحبها يغالب نفسه حتى يتخلق بها أحياناً ، وتغلبه نفسه في بعض الأحيان الآخر ، فهو بين غالب ومغلوب ، فإذا لم يأخذ نفسه بالحزم والمجاهدة وصحبة الأخيار والبعد عن الأشرار فما أسرع الانزلاق والارتكاس .

ـ وإما أنه يتصنع بتلك الأخلاق ليحقق مآربه بين الناس ويخدعهم ويكسب ثقتهم وهذه أخلاق المنافقين الذين يصدرون في أفعالهم وأقوالهم عن أنانيات نفوسهم ومصالحهم الشخصية ، فإذا انتهت المصلحة قلب ظهر المجنّ وأسفر عن طبعه اللئيم .

ولذلك بين الرسول ﷺ أن تربية النفس على الأخلاق الفاضلة مهمة أساسية من مهمات بعثته ورسالته ، فقال عليه الصلاة والسلام: (**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**)[2].

فما كان أهل الجاهلية قد تعارفوا عليه من أخلاق ناتجة عن العادات والتقاليد لابد من تقويمها وربطها بالأساس المتين الذي يوطد أركانها ويشيد بنيانها وذلك هو الايمان حتى تنبعث الأخلاق الفاضلة ، من النفس المزكاة وتستقر فيها .

ولا شك أن صلاح الباطن يثمر صلاح الظاهر ، فإذا صح القلب صلح الجسد كله واستقامت الأفعال والأخلاق ،وهذا ما أشار إليه الرسول ﷺ بقوله : " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب "[3] .

---

(١) مدارج السالكين ٢٦٥/٣ .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٩٢/١٠ ، وأحمد في مسنده ٣٨١/٢ ، والحاكم ٦١٣/٢ ، وصححه ووافقه الذهبي ـ وأورده الألباني في صحيح الجامع الصغير ـ رقم /٢٨٣٠ وسلسلة الأحاديث الصحيحة رقم /٤٥ .

(٣) جزء من حديث رواه البخاري – كتاب الإيمان – باب من استبرأ لدينه وعرضه – ١٩/١ . ومسلم في المساقاة والمزارعة رقم /١٥٩٩ .

ويكفي الأخلاق شرفاً يزداد به قدر صاحبها ، أن الله سبحانه امتدح بها رسوله الكريم ﷺ ، فقال تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[1] .

ثامناً - الحياة الطيبة :

المؤمن الصالح يسير على هدى من ربه سبحانه فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة وحياته في الدراين طيبة لا ضنك فيها ، وذلك لأنه في الحياة الدنيا مطمئن البال لا يضطرب ولا يقلق وقد استنار قلبه بنور الإيمان ومحبة الرحمن ، ولذلك يبشر في الآخرة بالرضوان وأما الفاجر والكافر ففي شقاء دائم .

وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾[2] .

وتأمل قول الامام ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآيات :

" فإن له معيشة ضنكاً : في الدنيا ، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره بل صدره ضيق حرج لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك ، فلا يزال في ريبة يتردد ، فهذا من ضنك المعيشة "[3] .

فمن دسّى نفسه وأهانها استحق الهوان والشقاء ، ومن أقفل قلبه عن نور الهداية جوزي بظلمة القلب واضطرابه وعذابه ، وأما أهل الإيمان الذين عمرت قلوبهم بالمحبة الصادقة لربهم وزكت نفوسهم فهم أهل الفلاح والحياة الطيبة ، وتأمل وعد الله سبحانه وبشارته في ذلك:

يقول عز وجل : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[4] .

---

(١) سورة القلم / آية ٤ .
(٢) سورة طه / الآيات ١٢٣-١٢٦ .
(٣) تفسير ابن كثير ١٦٨/٣ .
(٤) سورة النحل / آية ٩٧ .

وقد ذكر المفسرون أقوالاً عديدة في معنى (الحياة الطيبة) الواردة في الآية الكريمة فقالوا هي الرزق الحلال الطيب في الدنيا ، أو القناعة والرضا ونحو ذلك(١) .

ولكن الامام ابن القيم رحمه الله وجّه الأنظار إلى معنى أعمق فقال : " الصواب أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان ، ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها ، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة، كما كان بعض العارفين يقول : إنه لتمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب .

وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح ، فإنه ملكها ، ولهذا جعل الله المعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكره ، وهي عكس الحياة الطيبة "(٢) .

والواقع أن الحياة الطيبة لا تقتصر على حياة القلب وإن كان ذلك أعظم مجالاتها ، لأنها تشتمل أيضاً جوانب الحياة المختلفة ، كما صرحت به الأدلة من الكتاب والسنة.

وبذلك يمكن استعراض أبرز مجالات الحياة الطيبة التي ينالها المتقون على النحو التالي :

١ ـ حياة القلب وسروره ونعيمه :

وهو الذي أبرزه الامام ابن القيم في قوله السابق وتؤكده الآية التي حث فيها الله سبحانه عباده الأبرار على الفرح والسرور بما أكرمهم به من هذا الدين وهذا الكتاب المبين الذي يهدي إلى سعادة الدارين .

قال تعالى : ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾(٣).

فالإيمان والقرآن أجلُّ ما ينبغي أن يفرح به الإنسان ، وأما أعراض الدنيا وأموالها فليست بموضع للفرح لأنها عُرضة للآفات والزوال ، كما أن التزام الدين الحق يشرح الصدر ويبسط النفس ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على**

(١) ينظر تفسير الطبري ١٤/١٧٠ -١٧١ - وتفسير ابن كثير ٢/٥٨٥ .

(٢) مدارج السالكين ٣/٢٥٩ .

(٣) سورة يونس / آية ٥٨ .

نور من ربه ﴾[1] .

٢ ـ التوفيق والتسديد في الأعمال :

من المنح الربانية لأهل الإيمان في الدنيا أنه يوفقهم لما فيه الخير ويسدد خطاهم ويجعل لهم من أمرهم يسراً ، ويبارك لهم في جهودهم وأعمالهم حتى تثمر أعظم الثمرات وفي ذلك يقول ا لله عز وجل : ﴿ **ومن يتق ا لله يجعل له من أمره يسراً** ﴾[2] .

ويقول سبحانه : ﴿ **ومن يتق ا لله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على ا لله فهو حسبه** ﴾[3] .

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول ا لله ﷺ : " إن ا لله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه "[4] .

فأولياء ا لله الصالحون الذين اتقوا واعتصموا بحبله المتين ، يتولاهم ا لله سبحانه في جميع أمورهم بالحماية والتأييد ، ويسدد خطاهم ، وأعمالهم التي يقومون بها بكل عضو من أعضائهم وجوارحهم ، ولا يرد لهم دعوة ولا سؤالاً .

وأما أهل الضلال الذين دسوا نفوسهم ودنسوها بالمعاصي فهم أهل الخيبة والخذلان كما وصفهم ا لله سبحانه بقوله : ﴿ **وقد خاب من دساها** ﴾[5] .

٣ـ كسب محبة العباد ونيل ثقتهم :

من أبرز مجالات الحياة الطيبة لأهل الإيمان أنهم يكسبون ثقة العباد ومحبتهم وتقديرهم

---

(١) سورة الزمر / من الآية ٢٢ .

(٢) سورة الطلاق / من الآية ٤ .

(٣) سورة الطلاق / من الآية ٢والآية ٣ .

(٤) رواه البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب التواضع ـ ٧/١٩٠ .

(٥) سورة الشمس / آية ١٠ .

ودَّهم ، ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدّاً** ﴾(١) أي : حباً في قلوب عباده(٢) .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحبه ، قال فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، قال ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه ، قال فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض "(٣) .

وقد بيّن الإمام المناوي المراد من قوله ﷺ : " **ثم يوضع له القبول في الأرض** " فيقول: (أي يحدث له في القلوب مودة ، ويزرع له فيها مهابة ، فتحبه القلوب وترضى عنه النفوس، من غير تودد منه ، ولا تعرض للأسباب التي تكتسب لها مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع .. كما يقذف في قلوب أعدائه الرعب والهيبة إعظاماً له وإجلالاً لمكانته)(٤) .

وفي ذلك يقول التابعي الزاهد محمد بن الواسع رحمه الله تعالى : " إذا اقبل العبد بقلبه على الله أقبل الله بقلوب العباد عليه "(٥) .

فالله سبحانه يكرم عباده الصالحين بأن يجعل لهم قلوب العباد محبة ومهابة ، وقد تحدث الامام ابن القيم عن هذه المهابة فقال : " المهابة أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله ، فإذا امتلأ القلب بذلك حلَّ فيه النور ونزلت عليه السكينة وألبس رداء الهيبة ، فاكتسى وجهه الحلاوة والمهابة ، فأخذ بمجامع القلوب محبةً ومهابة ، فحنت إليه الأفئدة ، وقرت به العيون ، وأنست به القلوب ، فكلامه نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، وعمله

---

(١) سورة مريم / آية ٩٦ .

(٢) ينظر : تفسير القرطبي ١١/١٦٠ .

(٣) رواه مسلم ـ كتاب البر والصلة والآداب ـ باب إذا أحب الله عبداً حببته إلى عباده ـ رقم /٢٦٣ .

(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير للإمام المناوي ٢/٢٠٤ .

(٥) سير أعلام النبلاء ـ للإمام الذهبي ٦/١٢١ .

نور ، وإن سكت علاه الوقار ، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع "[1] .

هذه هي المحبة الحقيقية التي لا تتقلب بتقلب أحوال الدنيا ومصالحها ، وأما ما يتظاهر به بعض الناس عادة من محبة لأهل الفجور والمعاصي فهي محبة منافع وأهواء ، توشك أن تتقلب إلى خصومات وبغضاء ، ولا يمكن لها أن ترقى إلى كسب الثقة والمهابة والتوقير .

تاسعاً : الحكمة والفراسة :

الحكمة : وضع الشي في موضعه ، والنظر في الأمور بفكر ثاقب وعقل راجح نتيجة صفاء النفس وراحتها وطمأنينتها ، وهي نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به بين الحق والباطل ، والهدى والضلال والضار والنافع ، والكامل والناقص ، ويبصر به مراتب الأعمال راجحها ومرجوحها[2] ، وكلما كان العبد أكثر صلاحاً ، وتزكية لنفسه كان حظه من نور الحكمة أقوى ، وتفرسه في نفسه وغيره أدق .

وقد تفضل المولى سبحانه على عباده الصالحين فمنحهم الحكمة وأكرمهم بنورها فقال تعالى : ﴿ **يؤتِ الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾[3] .

والمراد بالحكمة هنا ـ كما قال المفسرون ـ الإصابة في القول والعمل والفقه في دين الله والتفكر في أمره والعمل بطاعته والخشية منه سبحانه ، فالحكمة لا تختص بالنبوة ، وإنما هي أعم منها ، ولأتباع الأنبياء حظ منها بحسب صلاحهم وزكاة نفوسهم[4] .

وقد نور الله بالحكمة قلوب كثير من عباده ففاضت ينابيع تلك الحكمة على ألسنتهم حكماً عظيمة ووصايا نافعة ، ومنها وصايا لقمان لابنه التي أخبر بها الله سبحانه في محكم تنزيله ، فقال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد * وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك**

(١) الروح ـ للإمام ابن القيم ص/٢٣٥ .

(٢) ينظر : مدارج السالكين ١/١٧١ .

(٣) سورة البقرة / آية ٢٦٩ .

(٤) ينظر تفصيل هذه الأقوال في تفسير ابن كثير ١/٣٢٠ ، وتفسير القرطبي ٣/٣٣٠ .

با لله إن الشرك لظلم عظيم ﴾[1] .

والراجح كما قال العلماء أن لقمان لم يكن نبياً وإنما هو عبد صالح أعطاه الله الحكمة فأصبح ينطق بها ويوصي ولده بتلك الوصايا النافعة ليتمثلها الناس ويقتدوا بها[2].

فالله سبحانه يمنح قلب المؤمن المنوَّر بنور القرآن ما يزيده نوراً ، ويجعل له واعظاً ودليلاً يوجهه إلى الخير ، ويلهمه الرشد والصواب .

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله :

" إذا كان القلب معموراً بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت ، بخلاف القلب الخراب المظلم ، قال حذيفة بن اليمان : " إن في قلب المؤمن سراجاً يزهر " .. وكلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له ، وعرف حقائقها من بواطنها ، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف ، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم ، ولهذا قال بعض السلف في قوله تعالى : ﴿ نور على نور ﴾[3] قال : هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق وإن لم يسمع بها في الأثر ، فإذا سمع بها في الأثر كان نوراً على نور ، فالإيمان في قلب المؤمن يطابق نور القرآن ..

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال : قد كان في الأمم قبلكم محدَّثون ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر"[4] والمحدَّث: هو الملهم المخاطب في سره ، وما قال عمر لشيء إني أظنه كذا وكذا إلا كان كما ظن، وكانوا يرون أن السكينة تنطق على قلبه ولسانه "[5].

ثم قال رحمه الله : " وكثير من أهل الإيمان والكشف يلقى الله في قلبه أن هذا الطعام حرام ، وإن هذا الرجل كافر أو فاسق .. من غير دليل ظاهر ، بل بما يلقي الله في قلبه ،

---

(١) سورة لقمان / الآيتان ١٢-١٣ .

(٢) ينظر تفسير ابن كثير ٣/٤٤٣-٤٤٤ .

(٣) سورة النور / من الآية ٣٥ .

(٤) رواه البخاري في فضائل الصحابة – باب مناقب عمر رضي الله عنه – ٤/٢٠٠ ، ومسلم في فضائل الصحابة – رقم / ٢٣٩٨ ، ونصه كما في رواية البخاري : (لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون ، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر) .

(٥) مجموع الفتاوى ٢٠/٤٥-٤٦ .

وكذلك بالعكس يلقي في قلبه محبة لشخص ، وأنه من أولياء ا لله ، وأن هذا الرجل صالح ، وهذا الطعام حلال ، وهذا القول صدق ، فهذا وأمثاله لا يجوز أن يُستبعد في حق أولياء ا لله المؤمنين المتقين "[١] .

وقد أفاض الإمام ابن تيمية رحمه ا لله في حديثه عن هذه الثمرة من ثمرات التزكية وهي الحكمة والفراسة ، وذلك في كتابه الفرقان بين ألياء الرحمن وأولياء الشيطان " فبين أن المؤمن الخبير بحقائق الايمان يفرق بين الأحوال الرحمانية ، والأحوال الشيطانية ، بما آتاه ا لله من نور الإيمان[٢] ، واستشهد على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا ا لله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم وا لله غفور رحيم** ﴾[٣] .

وبقوله ﷺ : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور ا لله "[٤] .

وهذه الفراسة الإيمانية مهمة للداعية كثيراً لكي يتعرف على أمراض نفوس المدعوين ويحسن نقطه البدء بعلاجهم ، ويتلطف بهم بحسب حال كل واحد منهم .

عاشراً ـ صحة الجسد :

المرض ابتلاء من ا لله سبحانه يصاب به المؤمن والكافر والصالح والطالح وأسبابه كثيرة ومتنوعة ولكن ثبت طبياً أن كثيراً من الأمراض الجسمية ناجمة عن اضطرابات نفسية ، وأن نسبة كبيرة من المرضى الذين يترددون على عيادات الأطباء إنما يشكون أساساً من أمراض ناشئة عن مشكلاتهم النفسية ، وأن هؤلاء ليسوا بحاجة إلى علاج طبي بالعقاقير وإنما هم في الحقيقة في حاجة إلى علاج نفسي يتخلصون به من القلق والمخاوف والاكتئاب[٥] .

---

(١) المرجع نفسه ٢٠/٤٧ .

(٢) الفرقان ـ ص/٦ .

(٣) سورة الحديد / آية ٢٨ .

(٤) رواه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ كتاب التفسير ـ باب سورة الحجر رقم/٣١٢٥ وقال حديث حسن .

(٥) ينظر : النفس انفعالاتها وأمراضها وعلاجها ـ د . علي كمال ـ ص/٣٣١ ـ٣٤١ ، القرآن وعلم النفس =

وهذه المجموعة الواسعة من الأعراض والحالات المرضية الجسمية التي لا يرتبط وجودها بأي مرض عضوي في الجسم وإنما يعتمد وجودها على العوامل النفسية ، اصطلح على تسميتها (الأمراض النفسجسمانية) إشارة إلى أن الحياة النفسية للمريض لها تأثير كبير على صحته الجسمية (١) .

وأبرز هذه الأمراض التي تلعب العوامل النفسية دوراً في وجودها : ارتفاع ضغط الدم والقرحة والربو وتقرحات الكولون والصداع النصفي واضطرابات الجهاز العضلي والعصبي وآلام الظهر وبعض الأمراض الجلدية والخدَر في الأطراف، والدوار والدوخة(٢).

ولذلك حدد الأطباء ثلاثة أسس ومناهج للصحة الجسمية وهي : المنهج الوقائي ، والمنهج الإنشائي والمنهج العلاجي ، وعرّفوا المنهج الانشائي بأنه ما يحتذيه المرء ليزيد شعوره بالسعادة وليزيد كفاءته إلى أقصى حد مستطاع ، وهذه المناهج الثلاثة متداخلة متكاملة (٣) .

فما هو المنهج الذي يحتذيه المرء ليزيد شعوره بالسعادة ؟ إنه منهج الاسلام في تزكية النفس الذي يثمر أعظم السعادة ، ويورث النفس الطمأنينة والراحة والسمو ، وينزع منها المخاوف والاضطرابات والتشتت والاكتئاب .

ولا شك أن الباعث على هذه المخاوف والاضطرابت النفسية ما يعانيه المرء من هموم الدنيا ومتاعبها وكثرة التعلق بها ، ومنافسة أهلها فيها ، وشغف القلب بأموالها وزينتها ، والقلق من أجل الرزق ، والخوف من فوات مشتهياتها وفقدان من يحب فيها ، وهذه المخاوف لا حدَّ لها ولا نهاية .

وأما أهل الإيمان فقد امتلأت قلوبهم بحب الله ورسوله ، وتذوقوا حلاوة الإيمان فطابت لهم طاعة الرحمن ، وتوجهوا إليه سبحانه بصدق ومحبة فلم يشغلهم عن ذلك أي شاغل

ـ د . محمد عثمان نجاتي ـ ص / ١٠٣ ـ ١٠٥ ، أسس الصحة النفسية ، د . عبد العزيز القوصي ـ ص / ٤ ـ ٦ .

(١) النفس انفعالاتها وأمراضها ـ ص/٣١٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص / ٣٣٠ -٣٤١ .

(٣) ينظر : أسس الصحة النفسية ـ ص / ٤ ـ ٦ .

وحفظوا نعم الله عليهم فحفظ الله دينهم وقوتهم وأجسامهم وعقولهم .

ويؤكد ذلك الحديث الذي رواه الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: " كنت خلف النبي ﷺ يوماً ، فقال لي : يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك احفظه الله تجده تجاهك .. " [1] فمن حفظ حدود الله وحقوقه وأوامره ونواهيه حفظ الله تعالى في دنياه وآخرته فإن الجزاء من جنس العمل .

وقد أبدع الإمام ابن رجب الحنبلي في شرحه لهذا الحديث النبوي وما يتضمن من وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين ، وأكد على أن حفظ الله للعبد الصالح في دنياه يشمل حفظ الجسد وقوته فقال رحمه الله : " من حفظ الله في صباه وقوّته حفظه الله في حال كبره وضعف قوته ، ومتعه بسمعه وبصره وحوله وقوته وعقله ، وكان بعض العلماء وقد جاوز المائة سنة وهو ممتّع بقوته وعقله ، فوثب يوماً وثبة شديدة فعوتب في ذلك فقال : هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر " [2] .

ولاشك أن غذاء القلب بالتقرب لله سبحانه والشوق إليه أعظم غذاء وأنفعه ، وقد يقوى هذا الغذاء حتى يُغني عن غذاء الأجسام مدة من الزمان ـ كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله ـ وإذا كان المشاهد بين الناس أن المسرور الفرحان الظافر بمطلوبه يُذهل بفرحه عن طعامه وشرابه ، أفليس أعظم ما يملأ القلب من حب وبهجة وسرور ما تقر به العين من حلاوة الإيمان [3] ؟ .

وأما أهل المعاصي فإن قلوبهم مريضة قد شحَّ عنها الغذاء وخبا فيها نور الإيمان ، وأجسامهم لا تكتفي بالحلال وإنما تتعداه إلى الحرام المؤذي الذي يجرّ إلى أخطر الأمراض الفتاكة ، والأوبئة المستعصية كالايدز والسرطان ، وكلما تمادى العاصي في بعده عن ربه ازدادت عليه الأمراض النفسية والجسمية ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

---

(١) رواه الترمذي ـ كتاب القيامة ـ باب / ٥٨ ـ رقم / ٢٥١٨ وقال حديث حسن صحيح ورواه أحمد في مسنده (١/٢٩٣ ـ ٣٠٣ ـ ٣٠٧) .

(٢) جامع العلوم والحكم ـ للإمام ابن رجب الحنبلي ـ ص/١٦٣ .

(٣) ينظر : زاد المعاد ٢/٣٢ ـ ٣٣ .

المبحث الثاني

سعادة المجتمع

المجتمع الإسلامي بناء متماسك كالجسد الواحد ، كل فرد فيه يشكّل لبنة لها موضعها ودورها في تقوية ذلك المجتمع وترابطه .

وسعادة هذا المجتمع تنبع من سعادة أفراده الذين زكت نفوسهم بطاعة ربهم ، وأشرق نور الإيمان في قلوبهم ، فعمّ ذلك النور أرجاء المجتمع وانقشعت عنه الظلمات وبهذه النفوس المزكاة يسود الخلق الحميد في المجتمع ، وينتشر التراحم والتعاطف ، وتتكون أصلب أرض تنهض عليها أقضية الإسلام وأحكامه العامة ، وسرعان ما يخضع الأفراد لسلطان تلك التزكية التي أشرقت في أفئدة أكثرية الناس وصقلت نفوسهم(١).

وقد بيّن المولى سبحانه أن صلاح النفوس يؤدي إلى صلاح الأمة ، وتغييرها وفسادها يورث فساد المجتمع، فقال تعالى: ﴿ **إن ا لله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ (٢).

وقال سبحانه : ﴿ **ذلك بأن ا لله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾(٣) فأساس الصلاح والفساد يبدأ من الأفراد وينعكس على المجتمع بأسره ، لأن الفرد هو الخلية الأولى في بناء المجتمع .

وتتجلى سعادة المجتمع في أمور كثيرة ، ومن أبرزها :

١ ـ الأخوة والمحبة .

٢ ـ التكافل والتراحم .

٣ـ الأمن والوقاية من الجرائم .

٤ ـ العز والتمكين .

ولنبدأ بالفقرة الأولى :

---

(١) ينظر كتاب : على طريق العودة إلى الإسلام ، للدكتور ـ محمد سعيد رمضان البوطي ـ ص/٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

(٢) سورة الرعد / من الآية ١٣ .

(٣) سورة الأنفال / من الآية ٥٣ .

أولاً - الأخوة والمحبة :

امتن الله سبحانه على عباده المؤمنين بأنه أنقذهم بالإسلام من ظلمات الكفر والبغضاء والعداوات التي كانت متأصلة في المجتمع الجاهلي بقبائله المتناحرة وعاداته الجائرة ، فقال تعالى: ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً** ﴾(1) كما بيّن المولى سبحانه القاعدة الأساسية للمجتمع المسلم ، فقال عز وجل : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾(2) فإذا تمسك أفراد المجتمع بدينهم ، وحرصوا على تزكية نفوسهم وتطهيرها من أدران الأنانية والأحقاد ، فإن الأخوة والمحبة بينهم ستنمو روابطها ، وتسمو مقاصدها ، وتتحول من محبةٍ غايتها المصالح الدنيوية إلى محبةٍ خالصة لله عزوجل ، ينال بها المتحابون سعادة الدنيا والآخرة .

فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي "(3).

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم " (4) .

فلا يتم إيمان المرء حتى يحب إخوانه في الله عزوجل ، وهذا الحب والتآخي والتآلف بين القلوب هو الأساس في بناء المجتمع الفاضل وتقوية روابطه .

والحديث عن الأخوة الإيمانية وما ورد في منزلتها وفضلها من أدلة شرعية وشواهد تاريخية وحكم وأمثال ، حديث متسع الجوانب ، وقد سبق التعرض له عند الحديث عن الصحبة الصالحة وآثارها في تزكية النفس (5) ، والذي ينبغي بيانه هنا الآثار العظيمة لتلك

---

(1) سورة آل عمران / من الآية ١٠٣ .

(2) سورة الحجرات / آية ١٠ .

(3) رواه مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب فضل الحب في الله تعالى - رقم / ٢٥٦٦ .

(4) رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون - رقم / ٥٤ .

(5) ينظر ص / ٢٦٤ من هذا البحث .

الأخوة في سعادة المجتمع المسلم ، والتي ظهرت عملياً منذ الأيام الأولى لإقامة المجتمع الإسلامي الأول في المدينة المنورة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها ، وذلك عندما آخى بين المهاجرين والأنصار مؤاخاة لم نشهد لها نظيراً ، حتى إن الأنصاري كان يعرض على المهاجري أن يقاسمه أمواله ، وأن يختار أياً من زوجتيه - إن كانت عنده ثانية - ليطلقها فيتزوجها بعد عدتها ، ولم يكن ذلك العرض مجاملة وتظاهراً ، وإنما كان عرضاً صادقاً نابعاً من أعماق القلب وصادراً عن طيب نفس [(١)] .

فقد روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قدم المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري رضي الله عنه ، فقال له سعد: أي أخي ، أنا أكثر أهل المدينة مالاً ، فانظر شطر مالي فخذه ، وتحتي امرأتان ، فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها .

فقال عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلوني على السوق ، فدلوه عليه فذهب فاشترى وباع وربح " [(٢)] .

وما أعظم ما وصف الله به هؤلاء المؤمنين الصادقين الذي توثقت رابطة المحبة والأخوة بينهم حتى أثمرت الإيثار ، بحيث يقدم الواحد منهم أخاه على نفسه في ضروريات الحياة ولو كان بأشد الحاجة إليها .

وفي ذلك يقول الله سبحانه : ﴿ **والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليه ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ [(٣)] .

فالمجتمع الإسلامي الأول سَمَا وأشرق بنور الإيمان ، وأقيم بهذا الحب والبذل السخي والمشاركة الرضية والتسابق إلى احتمال الأعباء والإيثار على النفس مع شدة الحاجة ، وكل ذلك البذل والعطاء نتيجة وثمرة للنفوس المؤمنة الزكية التي تطهرت من الشح فظفرت

---

(١) معاني الأخوة في الإسلام - د . محمود بابللي - ص / ١٩ .

(٢) رواه البخاري ، كتاب النكاح ، باب قول الرجل لأخيه انظر أي زوجتي شئت ٦ / ١١٨ .

(٣) سورة الحشر / أية ٩ .

بالفلاح .

ولقد تطورت أركان المجتمع الإسلامي قروناً عديدة بهذا الإخاء الرفيع وهذه المحبة السامية في ظل العقيدة ، فانطفأت نار العداوة بين القبائل المتناحرة ، وتطهرت النفوس من النظرة الجاهلية البغيضة ، وغرس فيها الحب والإخاء ، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، وهذا هو المبدأ القرآني الذي ورد في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[1] .

ثانياً ـ التكافل والتراحم :

عندما تستقر المحبة في القلوب لابد أن ينتج عنها التكافل والتراحم والتعاطف والمؤازرة على الخير ونحو ذلك من الأمور التي هي ثمرة للنفوس المزكاة بالإيمان العامرة بالحب .

وقد تظاهرت نصوص الكتاب والسنة في بيان فضائل هذه الخصال الحميدة والحث عليها .

ـ منها قوله تعال : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان** ﴾[2] .

ـ وقوله عز وجل : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾[3].

ـ **وأما الأحاديث النبوية** فهي كثيرة ، منها حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**)[4] .

ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلمه[5] ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة

---

(١) سورة الحجرات / آية ١٣ .

(٢) سورة المائدة / من الآية ٣ .

(٣) سورة الفتح / من الآية ٢٩ .

(٤) رواه البخاري ـ كتاب الإيمان ـ باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ـ ١/ ٩ . ومسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ـ رقم / ٤٥ .

(٥) أي : لا يُسلمه إلى عدوه .

فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة " (١).

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه " (٢) .

ـ وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى " (٣) .

والوقوف عند معاني هذه النصوص ومراميها وما يستنبط منها أمر يحتاج إلى تفصيل وتوسع ، ويضيق عنه مجال البحث ، والمهم هنا التأكيد على ما أوجبه الإسلام من تواصل وتراحم وتعاطف وتكاتف ، حتى يتحقق المثلان اللذان شبّه بهما الرسول ﷺ المجتمع المسلم في أبدع صوره ، وهما الجسد الواحد والبنيان المتماسك ، ولا يتم ذلك إلا باستجابة أفراد المجتمع للمنهج الإسلامي في تزكية النفس ، وكلما ازداد عدد الصفوة من أصحاب النفوس المزكاة كان المجتمع أكثر تحققاً بالتكافل والتراحم وأكثر بعداً عن الشحناء والخصومات .

وهؤلاء الصفوة من العباد المخلصين هم أحرص الناس على الاستجابة لأمر ربهم والمسارعة لنيل رضاه سبحانه والظفر برحمته وإحسانه ، فكيف يتصور منهم التخلي عن التراحم والتعاطف وهم يعلمون أن ذلك يوصلهم إلى رضوان الله ورحمته ، وأن تركه يوجب غضب الرب سبحانه فقد جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : " الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء " (٤) .

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب المظالم ـ باب لا يظلم المسلم المسلم ـ ٣/٩٨ ، ومسلم ـ كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم ـ رقم / ٢٥٨٠ .

(٢) رواه البخاري في المظالم ـ باب نصر المظلوم ـ ٣/٩٨ ، ومسلم في البر ـ باب تراحم المؤمنين ـ رقم /٢٥٨٥ .

(٣) رواه البخاري في الأدب ـ باب رحمة الناس والبهائم ـ ٧/٧٧ ، ومسلم في البر ـ رقم /٢٥٨٦ .

(٤) رواه الترمذي في البر والصلة ، باب في رحمة المسلمين ـ رقم /١٩٢٤ ، وقال حديث حسن صحيح، ورواه أبو داود في الآداب ـ باب في الرحمة ـ رقم /٤٩٤١ ، وأورد الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/١٩٠ ، =

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : " من لا يرحم الناس لا يرحمه الله " (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : " لا تنزع الرحمة إلا من شقي " (٢) .

فالتراحم والتعاطف والتكافل سمة أساسية من سمات الصالحين ، ومن نزعت منه هذه الرحمة فهو الشقي الذي دسّى نفسه ودنسها بالأنانية والبغضاء ، فاستحق البعد عن رحمة الله سبحانه .

وقد وصف الله سبحانه عباده المؤمنين أنهم يتواصون بالمرحمة ، فقال تعالى : ﴿ **ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة** ﴾(٣) .

وهذا تأكيد على تخلق المؤمنين بهذه الخصلة التي تنبت من قلوبهم الطيبة العامرة بالإيمان، ولذلك تراهم يدعون الآخرين إليها ويوصونهم بها ، لما يلمسون من آثارها وثمراتها.

وبهذا التراحم يتم التعاون المثمر بين أبناء المجتمع المسلم ، ويسود التفاهم بينهم ، ويسارع كل واحد منهم لتفقد أحوال إخوانه ومساعدتهم مادياً ومعنوياً ، ويحرص كلٌّ منهم على أخيه كما يحرص على نفسه ، فينصحه إذا أخطأ شفقة عليه ، ويرشده إذا ضل أو تعثّر، ويأخذ بيده إذا احتاج للعون ، ويؤدي ذلك كله إلى أن المؤمن لا ينشغل بنفسه فقط وإنما ينشغل بإخوانه أيضاً ، ويشعر بشعورهم ، ويسهر على راحتهم ، لأنه يلتمس بذلك رضاء ربه سبحانه روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق ، فأخّره ، فشكر الله له فغفر له " (٤) .

رواية مشابهة وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

(١) رواه البخاري في التوحيد - ٨/١٦٥ ، وفي الأدب - باب رحمة الناس والبهائم ٧/٧٧ ، ومسلم في الفضائل - باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال - رقم /٢٣١٩ .

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة - باب في رحمة المسلمين - رقم /١٩٢٣ ، وقال هذا حديث حسن . ورواه البخاري في كتاب / الأدب المفرد ، رقم / ٣٧٤ وغيرهما .

(٣) سورة البلد / الآيتان ١٧-١٨ .

(٤) رواه البخاري - كتاب الأذان ، باب فضل التهجير إلى الظهر - ١/١٥٩ . ومسلم - كتاب البر والصلة =

وفي رواية لمسلم : " مرَّ رجل بغصن شجرة على ظهر طريق ، فقال : وا لله لأنحِّين هـذا عن المسلمين لا يؤذيهم ، فأدخل الجنة " .

وفي رواية للبخاري في كتابه (الأدب المفرد) : " مرَّ رجل بشوك في الطريق ، فقـال : لأميطن هذا الشوك ، لا يضرُّ مسلماً فغفر له " [1] .

فإذا كان هذا الرجل لا يرضى أن يُشاك مسلم بشوكة فكيف يتركه في الشدائد أو يخذله عند الملمَّات أو يتقاعس عن مساعدته عند الحاجة والفقر؟

وهذه الرحمة المتدفقة من قلب المؤمن تتجاوز الإنسان الناطق إلى الحيوان الأعجم ، فالمؤمن يرحمه ويتقي ا لله فيه ويعلم أنه مسؤول أمام ربه عن هذه العجماوات .

وقد برزت آثار التكافل والتراحم في صور كثيرة ، منها ما عرف بنظام الوقف الخيري ، فلقد كان أصحاب القلوب الرحيمة المؤمنة يرغبون ألا ينقطع عملهم الصالح بعد موتهم فيوقفون بعض ما يملكون لإطعام الجائع وسقاية الظمآن وكسوة العريان وإيواء الغريب وعلاج المريض وتعليم الجاهل ودفن الميت وكفالة اليتيم ، وإعانة المحروم ، ونحو ذلك من أعمال الخير التي هي ثمرة لنفوسهم السامية وقلوبهم الحية اليقظة ، حتى إن بعض هذه الأوقاف خصصت لأمور تثير الدهشة ، مثال ذلك (وقف الزبادي) الذي هو وقف لآنية الخزف ، فكل خادم كسرت آنيته وتعرض لغضب مخدومه يمكنه أن يذهب إلى إدارة الوقف ليأخذ إناءً جديداً عوضاً عنه ، وبهذا ينجو من غضب صاحب الإناء !! .

ووقف الأعراس المخصصة لإعارة الحلي والزينة في الأعراس والأفراح ، لكي يأخذ الفقير ما يلزمه تلك الليلة ويكتمل شعوره بالفرح ويُجبر خاطره !! وأمثلة أخرى يضيق المجال عن سردها [2] .

فأين هذا مما تتلاطم به أمواج المجتمعات الجاهلية قديماً وحديثاً من نزاعات وأحقاد وعداوات وعصبيات ، فلا يمد الإنسان يده لغيره إلا لمصلحة شخصية ومنفعة مادية ، فإذا

ـ باب فضل إزالة الأذى عن الطريق ـ رقم /١٩١٤ .

(١) الأدب المفرد للإمام البخاري – رقم / ٢٢٩ .

(٢) ينظر الإيمان والحياة ـ د : يوسف القرضاوي ص / ٢٩٠ -٢٩٢ .

زالت المنفعة انقطعت الصلة وعادت الشحناء .

بل إن أواصر الأسرة في المجتمعات الغربية اليوم لم يعد لها وجود إلا في النادر ، فالأب يترك أولاده والأبناء متفرقون كل منهم يبحث عن عمل يواجه به قسوة المجتمع وتفككه ، ولا تجد في قلوب الأبناء ما يربطهم بأهليهم .. تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى .

ثالثاً ـ الأمن والوقاية من الجرائم :

عندما تستقيم النفوس على طاعة الله سبحانه ، ويعرف كل إنسان حقوقه وواجباته، وتعمر قلوب المؤمنين المحبة لله ورسوله والرحمة والشفقة على العباد ، ويسود التكافل والتراحم بين أبناء المجتمع ، فما أسعد هذا المجتمع وأهنأه !

والنفوس المزكاة لا تحتاج إلى رقابة القانون وسلطة الدولة لكي ترتدع عن الجرائم ، لأن رقابة الإيمان أقوى ، والوازع الإيماني في قلب المؤمن حارس يقظ لايفارق العبد المؤمن ولا يتخلى عنه .

فالإيمان هو الذي يحقق الأمن للمجتمع ويقيه من الأخطار ، فإذا تخلى أبناء ذلك المجتمع عن دينهم وكفروا نعم ربهم ، أحدقت بهم المخاوف من كل جانب ، وانتشرت بينهم الجرائم ، وهذه هي السنة الربانية فيمن يُعرض عن طاعة ربه سبحانه .

قال تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كان يصنعون** ﴾ (١) .

وانتشار المعاصي في المجتمع سبب أساسي لظهور الفساد والجرائم فيه .

قال تعالى : ﴿ **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون** ﴾ (٢) .

وها هي الفتن والشرور والعصابات المتخصصة في الجرائم وبث الذعر والرعب في النفوس قدانتشرت في معظم أنحاء العالم وبخاصة الدول الغربية ، وعجزت أكبر الدول عن

---

(١) سورة النحل / آية ١١٢ .

(٢) سورة الروم / آية ٤١ .

قمعها وإيقافها عند حدها ، وهي في ازدياد مستمر ، لأن القلوب قد خلت من الرحمة وأصبحت أقسى من الصخر فلا إيمان يردعها ولا شفقة توقظها ، فلا يتردد المجرم أن يرتكب أبشع الجرائم التي تقشعر لهولها الأبدان ، لكي يحقق مطامعه المالية ومصالحه الشخصية ويرضي نزواته وأهواءه الطائشة .

يضاف إلى ذلك أن الإسلام عُني بالترابط الأسري عناية فائقة لكي ينشأ الأبناء في رعاية الأسرة نشأة صالحة تغرس في نفوسهم الأخلاق الفاضلة وتربيهم على السلوك القويم وأما المجتمعات التي ابتعدت عن الإسلام فقد انحلت فيها رابطة الأسرة وأصبحت مظاهر شكلية ، وظهرت الآثار السيئة لهذا التفكك في عدد لا يستهان به من الشباب الذي تربىّ في الشوارع والطرقات والحانات وأماكن الفجور وأصبح عالة على المجتمع ، كل همّه أن يحصل على المال ليصرفه على الخمور والمخدرات والقمار والعاهرات ، فهو لا يتورع عن القتل والسرقة والاغتصاب وهتك أستار البيوت وإثارة الفزع في القلوب ليحقق مآربه ومطامعه .

فلم تستطع قوانين البشر أن توقف هذا السيل المدمر ، ولم يتمكن علماء النفس والاجتماع عندهم أن يضعوا حداً لتفاقم هذا الخطر .

كل ذلك بسبب غياب الإيمان من واقع حياتهم وطغيان المادة على جميع شؤونهم .

ولننظر مثلاً إلى ما فعلته الحكومة الأمريكية في عام ١٩١٩م ، عندما شعرت بخطر انتشار الخمور على الفرد والمجتمع فأصدرت قانوناً يمنع الخمر ويعاقب عليه ، ثم تبين لها بعد مدة يسيرة أنها عاجزة عن تنفيذ قانونها وأن أفراداً وجماعات أخذوا يتاجرون في الخمور ويقومون بتهريبها ويتفننون في صناعتها من أخبث المواد ، فصدرت قوانين أخرى للتشديد على من يفعل ذلك ، ووضعت كافة وسائل الدولة وإمكاناتها الضخمة لمراقبة الشواطئ والمطارات واستخدمت كل وسائل الدعاية والإعلام لمحاربة الخمر وبيان مضاره، وأنفق على ذلك ما يزيد على ستين مليوناً من الدولارات ، وصدرت من أجل ذلك عشرة بلايين صفحة من الكتب والنشرات في أعوام عديدة ، وأُعدم في هذه المدة المئات وسجن الآلاف وصودرت الأملاك وبلغت الغرامات ملايين الدولارات ، ومع كل هذا زاد عدد مصانع الخمور إلى عشرة أضعاف ولكن بشكل سري وأصرّت الحكومة على المنع أربعة عشر عاماً فلم يجد ذلك شيئاً حتى اضطرت سنة ١٩٣٣م ، إلى إلغاء هذا القانون وإباحة الخمر إباحة

مطلقة [1] .

فانظر كيف عجز هؤلاء عن إلزام الناس بالامتناع عن الخمر رغم ما بذلوا من إمكانات هائلة وسلطة حازمة ، وقارن ذلك بموقف المسلمين الأوائل عندما حرّم الإسلام الخمر .

فلقد كان العرب قبل الاسلام مولعين بشرب الخمر والاهتمام بها والتغني بها في أشعارهم حتى قال شاعرهم :

إذا متُّ فادفني إلى جنب كرمةٍ ... تروّي عظامي بعد موتي عروقها [2]

فلما جاء الإسلام وربّى النفوس على الإيمان وزكاها بطاعة الرحمن ، وعرّف الإنسان بمهمته في الحياة ومكانته بين الأحياء ، وغرس في القلوب الخشية من الله سبحانه والتشوق إلى نعيم الآخرة ، كان نتيجة ذلك المسارعة عن طواعية ورضا لتنفيذ أمر الله سبحانه دون تردد .

روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : " كنت ساقي القوم يوم حُرِّمت الخمر في بيت أبي طلحة .. فإذا منادٍ ينادي ، فقال - أي أبو طلحة : اخرجْ فانظر ، فخرجت فإذا منادٍ ينادي: ألا إن الخمر قد حرّمت ، قال : فَجَرت في سكك المدينة ، فقال لي أبو طلحة : اخرج فأهرقها ، فهرقتها " [3] .

وفي رواية : " فقال : يا أنس أرقْ هذه القلال ، قال : فما راجعوها ولا سألوا عنها " [4] .

وفي رواية أخرى : " فقال أبو طلحة : يا أنس قم إلى هذه الجرة فاكسرها ، فقمت إلى مهراس [5] لنا فضربتها بأسفله حتى تكسرت " [6] .

وروى ابن جرير عن أبي بريدة عن أبيه قال : " بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن

---

(1) ينظر تفصيل ذلك في كتاب : الإيمان والحياة - د . يوسف القرضاوي - ص/٢٢٤ - ٢٢٦ .

(2) المرجع نفسه - ص / ٢٢٦ .

(٣-٤) رواه مسلم - كتاب الأشربة - باب تحريم الخمر - رقم /١٩٨٠ .

(5) المهراس بكسر الميم هو حجر منقور .

(6) رواه مسلم - رقم /١٩٨٠ .

نشرب الخمر حلاً - أي حلالاً - إذ قمت حتى آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، وقد نزل تحريم الخمر : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ...** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ (١) فجئت إلى أصحابي ، فقرأتها عليهم .. قال : وبعض القوم شربته في يده شرب بعضاً ، وبقي بعض في الإناء ، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ، ثم صبوا ما في باطيتهم (٢) فقالوا : انتهينا ربنا ، انتهينا ربنا " (٣) .

ولا شك أن التدرج في تحريم الخمر وتربية النفوس على حب الله ورسوله والانخلاع عن العادات الجاهلية له أكبر الأثر في سرعة استجابة الصحابة رضي الله عنهم.

وقد بيّنت السيدة عائشة رضي الله عنها ذلك فقالت : " أول ما نزل من القرآن سور من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول ما نزل لا تشربوا الخمر ، لقالوا ، لا ندع الخمر أبداً " (٤) .

فتزكية النفوس وتربيتها على الإيمان بالله واليوم الآخر أكبر دافع لها على التخلق بالفضائل والإقلاع عن الرذائل ، وأكبر عامل لسلامة المجتمع من الجرائم والموبقات .

رابعاً - العز والتمكين :

وعد الله سبحانه عباده الصادقين الذين استقامت نفوسهم على طاعة ربهم أن يمكن لهم في الأرض ويستخلفهم فيها وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمناً .

قال تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ (٥) .

---

(١) سورة المائدة / الآيتان ٩٠ - ٩١ .
(٢) الباطية : إناء خاص كان يتخذ للشراب .
(٣) جامع البيان للإمام ابن جرير الطبري - ٣٤/٧ .
(٤) رواه البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب تأليف القرآن ٦ / ١٠١ .
(٥) سورة النور / اية ٥٥ .

وهذه هي سنة الله سبحانه مع هذه الأمة ، أنهم لا يمكّنون إلا على الإيمان ، فإذا انحرفوا زال عنهم التمكين ، أما أهل الكفر فإن الله يملي لهم ليستدرجهم [1] ، كما قال تعالى : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون** ﴾ [2] .

فتمكين أهل الكفر له أمد معين لحكمة يريدها الله سبحانه وهو إنذار لأهل الإيمان لكي يثوبوا إلى دينهم ويزدادوا تمسكاً به ، وتطبيقاً لأحكامه في واقعهم ، وعند ذلك ينصرهم الله سبحانه على عدوهم ويحقق لهم العز والتمكين إن اتخذوا لذلك الأسباب التي أُمروا بها .

وهذا هو الوعد الرباني لهذه الأمة إن صدقت مع ربها ، فقد قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾[3] .

وكما أن الاستقامة على دين الله تحقق النصر على الأعداء ، فهي أيضاً تؤدي إلى ازدهار المجتمع وكثرة الخيرات فيه والبركة في أرزاقه ، وهذا فضل من عند الله سبحانه لأهل الإيمان .

قال تعالى : ﴿ **وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً** ﴾[4] .

فتزكية النفوس لها ثمرات عظيمة في الاصلاح المجتمع وتقوية الأمة وقيام الحضارة الإسلامية المتميزة التي يشع نورها على العالم أجمع ، لأن الحضارة ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة [5] ، والعنصر الأساسي فيها هو الإنسان بما منحه الله سبحانه من نعمة الفكر والبصيرة التي يسخر بها المخلوقات لتحقيق السعادة الإنسانية الصافية من الآفات والعداوات والمستنيرة بهدي الإسلام ومنهجه في إصلاح الفرد والمجتمع .

---

(١) ينظر : واقعنا المعاصر ـ للأستاذ محمد قطب ـ ص /١٨٢ .

(٢) سورة الأنعام / آية ٤٤ .

(٣) سورة محمد / آية ٧ .

(٤) سورة الجن / آية ١٦ .

(٥) ينظر : منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ـ للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص/١٩-٢١ .

الفصل الثاني

سعادة الآخرة

إذا كانت حياة أهل الإيمان في الدنيا حياة طيبة مع ما فيها من منغصات وأكدار وهموم ومحن فما الظن بحياتهم في البرزخ وعوالم الآخرة بعد أن تخلصوا من ضيق الدنيا وشدائدها ؟ وما الظن بحياتهم في دار النعيم المقيم الذي لا يزول ، وهم يرون وجه ربهم سبحانه وتعالى ويسمعون خطابه [1] ؟ .

إنها الحياة الدائمة الباقية التي شمّر لها المشمرون ، وسابق إليها المتسابقون ، واشتدت ندامة المقصرين في طلبها المعرضين عن سعادتها .

قال تعالى : ﴿ **وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾[2] أي : لهي الحياة الدائمة التي لازوال لها ولا انقضاء .

ولا ينال العبد سعادة الآخرة إلا بتزكية نفسه وتطهيرها من أدرانها والاستقامة على طاعة الله سبحانه .

قال تعالى : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين** ﴾[3] .

والإيمان باليوم الآخر ركن مهم من أركان الإيمان وأساس ضروري من الأسس العقدية في تزكية النفس ، كما أن تذكر الموت وأهوال القيامة من أبرز الأساليب العملية لهذه التزكية التي ينبغي للعبد المؤمن أن يترقى في مقاماتها حتى يظفر بثمراتها ، وأعظم هذه الثمرات سعادة الآخرة ونعيمها .

وقد حفلت آيات القرآن الكريم والسنة المطهرة بالحديث عن مشاهد القيامة وأحوالها وأهوالها ، وعوالمها ومواقفها ، وما أعد الله لعباده المتقين فيها من النعيم المقيم ، وما أعد

---

(١) ينظر : مدارج السالكين ٣/٢٨٣ .

(٢) سورة العنكبوت : آية ٦٤ .

(٣) سورة القصص / آية ٨٣ .

للفجار والكفار من عذاب مهين وبلغت عناية النبي ﷺ بتذكير أمته ، وأصحابه بهذه المشاهد والعوالم مبلغاً كبيراً تأثّر به الجيل الأول واهتزت له مشاعرهم وخفقت له قلوبهم ، حتى كأنها مشاهد حية يرونها أمامهم ، وهذا ما أفصح عنه حنظلة بن الربيع رضي الله عنه في حديثه المشهور : " نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين " (١) .

وهكذا كان حال الصحابة الكرام والسلف الصالح رحمهم الله في تشوقهم للدار الآخرة ونعيمها وخوفهم وحذرهم من كرباتها وأهوالها ، حتى أكرمهم الله سبحانه بالسعادة فيها .

قال تعالى : ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً** ﴾ (٢) .

ولا شك أن مجال البحث هنا لا يتسع للتفصيل في عوالم الآخرة وأحوالها ، ولذلك سأكتفي بلمحات موجزة أستكمل بها الحديث عن التزكية في المنهج الاسلامي ، وما يحظى به العبد من ثمرات مباركة في رحابها ، تُتوَّج بسعادة الآخرة ونعيها . ويتضمن هذا الفصل المباحث التالية :

١ ـ السعادة عند سكرات الموت .

٢ ـ السعادة في القبر .

٣ـ السعادة عند الحشر والحساب والصراط .

٤ ـ السعادة العظمى ببلوغ الجنة ورؤية وجه الله سبحانه .

ولنبدأ بالمبحث الأول :

---

(١) الحديث رواه مسلم ـ كتاب التوبة ـ باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة ـ رقم/ ٢٧٥٠ . وسيرد بنصه ص / ٥٦٨ من هذا البحث .

(٢) سورة الإسراء / آية ١٩ .

المبحث الأول

السعادة عند سكرات الموت

الموت انتقال من دار الفناء إلى دار البقاء ، وهو أجل محتوم لا يغفل عنه الصالحون ولا يشغلون عن تذكره بشيء ، لأنهم أعدوا العدة وتزودوا بالتقوى ، فهم في شوق للقاء ربهم واشفاق وخوف من سوء الخاتمة وسوء المصير .

وقد سبق الحديث عن تذكر الموت والاستعداد لملاقاته وآثار ذلك في مجال تزكية النفس[1] ، ونودّ هنا أن نلقي الضوء على ما يحظى به المؤمن من سعادة غامرة في تلك الساعة الحاسمة ، التي يودع بها أهله وأصحابه ، وما يبشر به من بشارات ، ولنتأمل النصوص التالية:

١ ـ قال تعالى : **﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ماتدعون نزلاً من غفور رحيم ﴾**[2].

فأهل الاستقامة الذين زكت نفوسهم بطاعة ربهم تأتيهم البشائر عند الموت وتتنزل عليهم الملائكة قائلين لهم : لا تخافوا مما أنتم قادمون عليه من الآخرة ، ولا تحزنوا على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال وأبشروا بالجنة ونعيمها .

وقد أورد الإمام ابن كثير رواية ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أن هذه البشارة ليست عند الموت فحسب وإنما هي في القبر وعند البعث أيضاً ، ثم قال : " وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً ، وهو الواقع "[3] .

٢ ـ وقال سبحانه مبشراً عباده المؤمنين وأولياءه الصالحين :

﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون هم

---

(١) ينظر ص / ٢٩٨ من هذا البحث .

(٢) سورة فصلت / الآيات ٣٠ -٣٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٩٨ -٩٩ .

البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (1) .

وقد ذكر المفسرون أقوالاً عدة في المقصود بهذه البشرى في الحياة الدنيا ، من أبرزها: الرؤيا الصالحة ، وبشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة (2) .

وأورد الإمام ابن القيم قول ابن عباس رضي الله عنهما : " بشرى الحياة الدنيا : هي عند الموت تأتيهم ملائكة الرحمة بالبشرى من الله ، وفي الآخرة : عند خروج نفس المؤمن إذا خرجت يعرجون بها إلى الله ، تُزف كما تزف العروس ، تبشر برضوان الله " (3) .

3 ـ وأما الأحاديث النبوية الدالة على ما يحظى به المؤمن من بشارة عند موته ، فهي كثيرة منها ما رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : " من أحب لقاء الله أحبَّ الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فقلت : يا نبي الله ، أكراهية الموت ؟ فكلنا يكره الموت ، فقال : ليس كذلك ، ولكن المؤمن إذا بُشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحبَّ لقاء الله فأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا بُشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه " (4) .

فالمعتبر في محبة الموت وكراهيته هو ما يكون عند النزع ، فأهل السعادة يحبون الموت ولقاء الله لينتقلوا إلى ما أُعد لهم وبشروا به وهم على فراش الموت ، فيحب الله لقاءهم ويجزل لهم العطاء والكرامة ، وأهل الشقاوة يكرهون لقاء الله لما علموا من سوء ماينتقلون إليه والعذاب الشديد الذي ينتظرهم (5) .

4 ـ وقد ورد في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وصف تفصيلي لسعادة المؤمن الصالح

---

(1) سورة يونس / الآيات 62-64 .

(2) تفسير ابن كثير 2/424 .

(3) مدارج السالكين 3/159 .

(4) رواه البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب من أحب لقاء الله 7/191 ، ومسلم ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة ـ باب من أحب لقاء الله ـ رقم / 2684 واللفظ لمسلم . وقد سبق هذا الحديث ص /299 مع بيان المقصود من قول السيدة عائشة رضي الله عنها : " فكلنا نكره الموت " .

(5) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم – 17/9 .

وشقاء الفاجر والكافر عند سكرات الموت : وإليك طرفاً منه :

عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال : " خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ، فلما انتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا معه ، وكأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكث في الأرض ، فرفع رأسه فقال : استعيذوا بالله من عذاب القبر ، مرتين أو ثلاثاً .

ثم قال : " إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان .

قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء [1] ، فيأخذها فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ...

قال : وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، فتفرّق في جسده ، فينتزعها كما يُنتزع السَّفُود [2] من الصوف المبلول ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفه عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، وتخرج منها كأنتن جيفة وجدت على وجه الأرض .. " [3] .

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله : " النفس البخيلة الفاجرة قد دسّاها صاحبها

---

(١) أي : من فم الإناء المعّد للسقاية .

(٢) اسلفود : الحديدة التي يشوى بها اللحم (انظر : مختار الصحاح ص / ٣٠٠) .

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٨٧/٤، ٢٨٨، ٢٩٥ ، وأبو داود ٣٢١٢ / ٤٧٥٤ ، والحاكم ٣٧/١-٤٠ و ٢٩٧/٤ ، وقال صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي ، وصححه المنذري في الترغيب والترهيب ٣٦٦/٤ ، وأورده الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٢٩٠/٤ ثم قال : وهو حديث حسن ثابت .

في بدنه بعضها في بعض ، ولهذا وقت الموت تنزع من بدنه كما ينزع السفود من الصوف المبتل ، والنفس البرة التقية النقية التي زكاها صاحبها فارتفعت واتسعت ومجدت ونبلت ، فوقت الموت تخرج من البدن تسيل كالقطرة من في السقاء وكالشعرة من العجين " (١) .

فتأمل الفارق الكبير بين هاتين الصورتين : صورةالسعادة المشرقة والحفاوة والبشرى التي يحظى بها المؤمن وهو يودع هذه الدنيا وينتقل إلى دار القرار ، وصورة العذاب والهوان والشقاء التي يتجرع الكفار والفجار غصصها وهم يلاقون المصير المحتوم .

ولو تصفحنا **سير الصالحين** وهم على فراش الموت لرأينا العجب مما أكرمهم الله به من حسن الخاتمة والاستبشار في ساعة الاحتضار .

- فها هو **معاذ بن جبل** رضي الله عنه لما حضره الموت يقول : " مرحباً بالموت مرحباً ، زائر مُغِبٌّ (٢) ، حبيب جاء على فاقة ، اللهم إني كنت أخافك فأنا اليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء ، بالرُكَب عند حِلَق الذكر " (٣) .

وهذا هو **الربيع بن خيثم** (٤) رحمه الله لما حضرته الوفاة بكت بنته فقال لها : يا بنية لا تبكي ، ولكن قولي : يا بشرى ، اليوم لقي أبي الخير (٥) .

وهذا **عمر بن عبد العزيز** رحمه الله لما احتضر قال لمن حوله : اخرجوا عني فلا يبقى أحد ، فخرجوا فقعدوا على الباب فسمعوه يقول : مرحباً بهذه الوجوه ليست بوجوه أنس ولا جان ، ثم قال : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين** ﴾ ثم هدي الصوت ... فوجدوه قد قُبض (٦) .

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٦٣٠ .

(٢) أي قليل الزيادة .

(٣) رواه الامام أحمد في كتابه / الزهد - ص/٢٦٥ ، والإمام ابن قدامه المقدسي في كتابه / الرقة والبكاء - صم ٢٥٣ ، والإمام ابن الجوزي في كتابه / الثبات عند الممات - ص/١١٨-١١٩ .

(٤) سبقت ترجمته ص/٤٢٠ من هذا البحث .

(٥) رواه ابن الجوزي في كتابه / الثبات عند الممات - ص/١٣٧ .

(٦) رواه ابن الجوزي في الثبات عند الممات - ص / ١٥٠ .

المبحث الثاني

السعادة في القبر

تواترت الأخبار عن النبي ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه (١) ، وأن القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النيران .

كما وردت عدة آيات من القرآن الكريم تشير إلى عذاب القبر ، منها قوله تعالى : **﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾** (٢) .

قال الإمام ابن كثير : " هذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور " (٣) .

وذلك لأن الآية الكريمة تحدثت عن ثلاثة أنواع من العذاب ، الأول عذاب الغرق الذي حاق بآل فرعون ، والثاني النار التي يعرضون عليها قبل قيام الساعة وهذا إشارة إلى عذابهم في عالم البرزخ ، والثالث عذاب جهنم يوم القيامة .

ومن الآيات القرآنية التي استدل بها العلماء على إثبات عذاب القبر قوله تعالى : **﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾**(٤) .

فالله سبحانه يخبر عن حال المحتضر عند الموت من الكفار أو الفجار ، حيث يسألون الرجعة إلى الدنيا فلا يجابون ، وإنما يهددون بما ينتظرهم من عذاب البرزخ في قبورهم ، والبرزخ هو الحاجز بين الدنيا والآخرة والمراد به القبر (٥) .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ـ ص /٣٩٠

(٢) سورة غافر / الآيتان ٤٥-٤٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٨١ .

(٤) سورة المؤمنون / الآية ٩٩-١٠٠ .

(٥) ينظر : تفسير ابن كثير ٣/٢٥٥ -٢٥٦ .

وأما الأحاديث النبوية التي فيها إثبات عذاب القبر ونعيمه فهي كثيرة ، ومنها :

* ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ لمحمد ﷺ . فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار ، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، فيراهما جميعاً .

قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره .

وفي رواية لمسلم : " قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ، ويُملأ عليه خَضِراً إلى يوم يبعثون " .

ثم رجع إلى حديث أنس قال : " وأما المنافق والكافر ، فيقال له : " ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول لا أدري كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين " (١) .

* وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت : قدموني ، وإن كانت غير صالحة قالت : لأهلها : يا ويلها أين تذهبون بها ؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمع الإنسان لصعق " (٢) .

* وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : " إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة " (٣) .

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الجنائز ـ باب ما جاء في عذاب القبر ١٠٢/٢ ، ومسلم ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها ـ باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر رقم / ٢٨٧٠ .

(٢) رواه البخاري في الجنائز ـ باب كلام الميت على الجنازة ـ ١٠٣/٢ .

(٣) رواه البخاري في الجنائز ـ باب الميت يعرض عليه بالغداة والعشي ١٠٣/٢ ، وفي الرقائق ـ باب =

فما أعظم سعادة المؤمن في قبره وهو يبشر بمقعده في الجنة صباح مساء ؟

وما أعظم سروره وهو في روضة من رياض الجنة وقد وُسِّع له في قبره مدَّ البصر ؟ .

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله :

" إن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أومعذبة ، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ، فيحصل له معها النعيم والعذاب " (١) .

ثم يقول : " وقد انكشف لكثير من الناس ذلك حتى سمعوا صوت المعذبين في قبورهم، ورأوهم بعيونهم يعذبون في قبورهم في آثار كثيرة معروفة ، ولكن لا يجب ذلك أن يكون دائماً على البدن في كل وقت ، بل يجوز أن يكون في حال دون حال " (٢) .

فأهل الشقاوة ينتقلون من ضنك الدنيا وحسراتها إلى عذاب القبر وكرباته ، وأما الأتقياء الصالحون فإنهم بعد موتهم يحيون حياة طيبة .

وقد وصف الإمام ابن القيم رحمه الله سعادة المؤمن بعد موته فقال : " من مراتب الحياة: حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان وخلاصها من هذا السجن وضيقه ، فإن من ورائه فضاء وروحاً وريحاناً وراحة .. ويكفي في طيب هذه الحياة مرافقة الرفيق الأعلى ، ومفارقة الرفيق المؤذي المنكر الذي تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة ، فضلاً عن مخالطته وعشرته .. ولو لم يكن في الموت من الخير إلا أنه باب الدخول إلى هذه الحياة وجسر يُعبَر منه إليها لكفى به تحفة للمؤمن " (٣)

سكرات الموت - ١٩٣/٧. ومسلم ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها ـ باب عرض مقعد الميت ـ رقم /٢٨٦٦ .

(١) مجموع الفتاوى ٢٨٤/٤ .

(٢) المرجع نفسه ٢٩٦/٤ .

(٣) مدارج السالكين ٢٧٤/٣ ـ٢٧٥ .

المبحث الثالث

السعادة عند الحشر والحساب والصراط

المشاهد المفزعة والاضطرابات المخيفة التي تحدث عند قيام الساعة والنفخ في الصور تذهل لها العقول ويشيب لهولها الولدان .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هو بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾ [1] .

هذا اليوم الشديد العسير وصفه الله سبحانه بقوله : ﴿ **فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير** ﴾ [2] .

وبقوله عزوجل : ﴿ **يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة** ﴾ [3] .

وبقوله تعالى : ﴿ **يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ، يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً ، نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً ، ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً . يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا** ﴾ [4] .

لكن هذا الخوف والفزع لا يتعرض له المؤمن ، فهو في سرور واستبشار ونجاة من الأخطار .

قال تعالى : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون**

---

(١) سورة الحج / الآيتان ١-٢ .

(٢) سورة المدثر / الآيات ٨-١٠ .

(٣) سورة النازعات / الآيات ٦/ ٩ .

(٤) سورة طه / الآيات ١٠٢-١٠٨ .

حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ [1] .

وقال سبحانه: ﴿ **وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون**﴾[2].

فأهل الإيمان لا يحزنهم الفزع الأكبر ولا يمسهم السوء عند البعث والحشر وسائر عوالم الآخرة لأنهم يتلقون البشارة من الملائكة إذا خرجوا من قبورهم [3] ، كما تلقوها عندما كانوا في قبورهم ، وعندما ودّعوا الدنيا وهم في سكرات الموت .

وقد وردت آيات قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة في وصف شدائد يوم الحشر وكرباته، منها قوله تعالى : ﴿ **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً** ﴾ [4] .

وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " يحشر الناس حفاة عراة غرلاً ، قالت عائشة فقلت الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك " [5].

وروى مسلم عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق ، حتى تكون منهم كمقدار ميل ، قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل ، أمسافة الأرض ؟ أم الميل الذي تُكتحل به العين ؟

قال : فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يُلجمه العرق إلجاماً قال : وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه " [6] .

---

(١) سورة الأنبياء / الآيات ١٠١-١٠٣ .

(٢) سورة الزمر / آية ٦١ .

(٣) ينظر : تفسير ابن كثير ١٩٩/٣ .

(٤) سورة الإسراء / من الآية ٩٧ .

(٥) رواه البخاري - كتاب الرقاق - باب الحشر - ١٩٥/٧ ، ومسلم - كتاب الجنة - باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة - رقم /٢٨٥٩ .

(٦) رواه مسلم - كتاب الجنة - باب في صفة يوم القيامة رقم /٢٨٦٤ .

وفي رواية للترمذي قال : " فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق بقدر أعمالهم "[1] .

وهناك أحاديث نبوية أخرى تصف أحوال أهل الحشر وما هم فيه من كربات وشدائد عظيمة وأن بعضهم يحشر على وجهه ، وبعضهم تجره الملائكة ، ويحشر المتكبرون كأمثال الذر ، ونحو ذلك مما ورد ذكره في الأحاديث النبوية [2] .

وفي أوج هذه الشدائد يصطفي ا لله سبحانه عباده المتقين فيجعلهم في مأمن من أهوال المحشر ويكرمهم بالسعادة .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً** ﴾ [3] .

فا لله سبحانه يكرم وفادة عباده المتقين يوم الحشر ، ويجعلهم في أحسن صورة ، وتستقبلهم الملائكة أحسن استقبال وتقدم لهم المراكب البيضاء وعليها رحال الذهب [4].

وأما حرارة الشمس التي تصهر الرؤوس في أرض المحشر ، فإن أهل التقوى لا ينالهم من أذاها شيء وإنما هم في ظل ظليل وأمان عظيم .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " سبعة يظلهم ا لله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل وشاب نشأ في عبادة ربه عز وجل ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في ا لله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف ا لله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر ا لله خالياً ففاضت عيناه " [5] .

---

(١) رواه الترمذي ـ كتاب صفة القيامة ـ باب / ٢ ـ رقم /٢٤٢١ وقال حديث حسن صحيح .

(٢) انظر : جامع الأصول ١٠/٤٢٣ـ٤٣٠ ، مجمع الزوائد ١٠/٣٣٥ ، وما بعدها ، فتح الباري ١١/٣٧٧ـ٣٨٨ .

(٣) سورة مريم / الآيتان ٨٥ـ٨٦ .

(٤) ينظر / تفسير ابن كثير ٣/١٣٧ .

(٥) رواه البخاري ـ كتاب الأذان ـ باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ـ ١/١٦١ ، ومسلم ـ كتاب الزكاة ـ باب فضل إخفاء الصدقة ـ رقم /١٠٣١ .

فأصحاب هذه الأصناف السبعة نالوا الكرامة يوم المحشر لأنهم جميعاً تحققوا بوصف واحد نتجت عنه هذه الخصال ، وهذا الوصف هو تزكية نفوسهم وطهارتها من الآفات، والإمام الذي يتوخى العدل والشاب الذي يقوى على نفسه حتى يلزمها بطاعة ربه مع أن الشباب مظنة غلبة الشهوة ، والمتحابان اللذان لم يجتمعا على مصلحة دنيوية أو منفعة مالية وإنما أخلصا حبهما لله سبحانه ، والرجل المتعفف عن الحرام مهما تيسرت أسبابه ، والمتصدق الذي طهر صدقته من الرياء ، والذاكر الذي امتلأ قلبه خشية من ربه حتى فاضت عيناه بالدمع .. وجميع هذه الأوصاف ثمرات للتزكية ، ولا يمكن أن يتحقق بها إلا من زكت نفسه وترقت في مقام الإحسان والخشية من الرحمن .

وقد نبّه الحافظ ابن حجر رحمه الله إلى أن الخصال الموصلة إلى ظل عرش الله يوم القيامة ليست محصورة في هذه السبعة ، لأن هناك أحاديث أخرى ذكرت أوصافاً غيرها منها التاجر الصدوق والغازي في سبيل الله ونحوها (١) مما يتصف به أهل الإيمان .

يضاف إلى ذلك أن ما يجده الكفار والفجار من طول يوم الحشر وشدته ، لا يحس به أهل الإيمان إلا وكأنه ساعة من نهار لما يتمتعون به من سرور وسعادة .

روى الحاكم أن رسول الله ﷺ قال : (يوم القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر والعصر)(٢) .

وفي حديث آخر : (حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة)(٣) .

وفي حديث آخر : (كتدلى الشمس للغروب إلى أن تغرب)(٤) .

وفي رواية : " يوضع لهم منابر من نور يظلل عليهم الغمام ، يكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعة من نهار " (٥) .

فما أعظم سعادة المؤمن في ذلك اليوم العظيم ! .

---

(١) ينظر / فتح الباري ١٤٣/٢ -١٤٤ .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ٨٤/١ ، وصححه الألباني في الجامع الصغير ٣٦٦/١ ، رقم /٨٠٤٥ .

(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٤٠/١٠ ، وعزاه للإمام أحمد وأبي يعلى ، وقال : إسناده حسن .

(٤) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٤٠/١٠ ، وقال : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير إسماعيل بن عبد الله بن خالد وهو ثقة .

(٥) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير أبي كثير الزبيده وهو ثقة ، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٤٠/١٠) .

الحساب والميزان :

ومن المواقف العصيبة التي تشتد بها الكربات يوم القيامة وتكثر فيها الأهوال والحسرات: الحساب والميزان وتطاير الصحف والوقوف بين يدي الجبار سبحانه ليسأل العباد عما عملوه في الدنيا . قال تعالى : ﴿ **وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾ (1) .

وقال أيضاً : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾ (2) .

وقال عزوجل : ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً** ﴾ (3) .

وقال سبحانه : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ماهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً** ﴾ (4) .

وقال عزوجل : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئاً وإنْ كان مثقال حبةٍ من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ (5) .

ولكن هذا الحساب وشدته ، وهذه الأهوال وكرباتها لا يتعرض لها المؤمن الصالح ، وإنما هو في سعادة تعقبها سعادة ، واستبشار وسرور يتباهى به أمام الخلائق .

قال تعالى : ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول ها أوم اقرؤوا كتابيه إني ظننت أني ملاقٍ حسابيه فهو في عيشة راضية في جنة عالية** ﴾ (6) .

وقال سبحانه : ﴿ **فأما من ثقلت موازينة فهو في عيشة راضية** ﴾ (7)

---

(1) سورة الصافات / آية ٢٤ .

(2) سورة الحجر / الآيتان ٩٢ - ٩٣ .

(3) سورة الإسراء / الآيتان ٧١-٧٢ .

(4) سورة الكهف / آية ٤٩ .

(5) سورة الأنبياء / آية ٤٧ .

(6) سورة الحاقة / الآيات ١٩-٢٢ .

(7) سورة القارعة / الآيتان ٦-٧ .

فلقد كان ذلك المؤمن وجلاً يخشى موقف الحساب ، وأما الآن فقد ذهب الخوف وجاء الأمان والإطمئنان بدخول الجنان ، ليحيا فيها حياة الرضوان .

ولقد بيّنت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية أن الناس يوم الحساب ثلاثة أقسام (١):

- **قسم يدخلون الجنة بغير حساب** ، لأنهم من الأبرار المتقين الذي بلغوا أعلى مقامات التزكية والتوكل على الله سبحانه والاستقامة على الطاعات وتعلق القلب بمحبة الله ورسوله، وقد ورد ذكرهم في أحاديث عدة ، منها ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (يدخل من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب ، فقال رجل : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : اللهم اجعله منهم ، ثم قام آخر فقال : يا رسول الله : ادع الله أن يجعلني منهم قال : سبقك بها عكّاشه) .

وفي رواية : " يدخل من أمتي زمرة هم سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر " (٢)

- **وقسم يحاسبون حساباً يسيراً بلا مناقشة ولا تشديد** ، وإنما تعرض عليهم أعمالهم عرضاً ، ثم إن الله سبحانه يتجاوز عن سيئاتهم ويغفرها لهم ، وهؤلاء هم الذين أوتوا كتبهم بأيمانهم .

قال تعالى : ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً** ﴾ (٣) .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : " من نوقش الحساب عُذّب " وفي رواية : " من حوسب يوم القيامة عُذّب " فقالت : " أليس قد قال الله عزوجل : ﴿ **فسوف يحاسب حساباً يسيراً** ﴾ فقال : " ليس ذاك الحساب ، إنما ذاك العرض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عُذّب " (٤)

---

(١) ينظر : الإيمان بعوالم لآخرة ومواقفها للشيخ عبد الله سراج الدين ص/٢٧٢ ـ ٢٧٩ .

(٢) رواه مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ـ رقم /٢١٦ .

(٣) سورة الانشقاق / الآيات ٧-٩ .

(٤) رواه البخاري – كتاب الرقائق – باب من نوقش الحساب عذب – ١٩٧/٧ .
ـ ومسلم ـ كتاب الجنة ـ باب إثبات الحساب ـ رقم /٢٨٧٦ . =

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنَفَه ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول العبد : أعرف ربِّ ، أعرف ربِّ ، حتى إذا قررَّه بذنوبه ، ورأى نفسه أنه قد هلك قال الله تعالى : سترتُها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته)[1] .

- **وقسم يحاسبون حساباً عسيراً مناقشة وتدقيقاً** ، وهم الذين ورد ذكرهم في الحديث السابق : " من نوقش الحساب عُذِّب " فيسألون عما عملوه ، وتحصى عليهم أعمالهم وبخاصة الأعمال المتعلقة بحقوق العباد ، كمايُسألون عن أعمارهم فيما أفنوها وعن أموالهم من أين اكتسبوها وفيم أنفقوها ، وعن النعم التي أنعم الله بها عليهم ، وما إلى ذلك. ولذلك كان من شأن المؤمنين أنهم يخافون من سوء الحساب وشدته ويدعون ربهم أن يبعد عنهم كرباته ، وقد وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ **ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب** ﴾[2] .

فإذا جاء يوم القيامة أمّنهم الله مما يخافون وأكرمهم بالغفران والفوز بالجنان .

الصراط :

الصراط لغة الطريق ، والمقصود به هنا الجسر الذي يضرب على ظهر جهنم تنزلق عليه الأقدام فيه خطاطيف وكلاليب ، وهو أدق من الشعر وأحدّ من السيف[3] ، وقد وردت أحاديث كثيرة في وصفه ، وبيان الأهوال التي تصيب الناس عند المرور عليه ، ومن ذلك :

ما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل وكلام الرسل يومئذ سلِّم سلِّم ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان[4] ، هل رأيتم

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير باب : ويقول الأشهاد ٥/ ٢١٤ وكتاب التوحيد ، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة ٨ / ٢٠٠ ، ورواه مسلم كتاب التوبة رقم / ٢٧٦٨ بألفاظ متقاربة

(٢) سورة الرعد / من الآية ٢١ .

(٣) ينظر : التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة - للإمام القرطبي - ص/٣٦

(٤) شوك السعدان : شوك ترعاه الإبل .

شوك السعدان ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لايعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تخطف بأعمالهم ، فمنهم من يوبق بعمله ، ومنهم من يخردل [١] ثم ينجو) [٢] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تخطف الناس يميناً وشمالاً وعلى جنبتيه ملائكة يقولون : اللهم سلّم سلّم ، فمن الناس من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالفرس المجري ، ومنهم من يسعى سعياً ، ومن من يمشي مشياً ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم من يزحف زحفاً)[٣] .

وهذه الأهوال العصيبة التي يتعرض لها الناس على الصراط هي التي أشارت إليها الآية الكريمة واصفة المرور فوق جهنم بوصف يثير الهلع والخوف ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً** ﴾ [٤] .

فالورود على جهنم هو المرور على الصراط المنصوب على متنها ، وهذا أرجح الأقوال في تفسير الآية [٥] وهذا المرور يختلف فيه الناس بحسب أعمالهم ، وأما المؤمنون الصادقون فإنهم علىتفاوتٍ بينهم في سرعة المرور لكنهم جميعاً ينجون من الوقوع في النار ويحظون ببلوغ الجنة دار القرار .

والله سبحانه يكرم المؤمن بنور يضيء له طريقة حتى يجوز على الصراط ، وعلى قدر ذلك النور تكون سرعة المؤمن ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى : ﴿ **يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ [٦] .

---

(١) يخردل : يخدش .

(٢) رواه البخاري - كتاب الرقائق - باب الصراط جسر جهنم - ٧/٢٠٥ .

(٣) رواه الإمام أحمد ٢ / ٥٣٤ وروى رواية أخرى مشابهة في مسنده ٣ / ٢٥ .

(٤) سورة مريم / الآيتان ٧١-٧٢ .

(٥) ينظر : تفسير ابن كثير ٣/١٣٢ .

(٦) سورة الحديد / آية ١٢ .

فمن استقام على صراط الله المستقيم في الدنيا وجاهد نفسه للبعد عن المعاصي فقد فـاز وأكرم بالنجاة بعد الورود على جهنم ، ومن أثقل ظهره بالذنوب ودسّى نفسـه بالآثـام تعثر على الصراط وسقط ، ولم يكن معه من النور ما يبصر به طريق الخلاص حتى يهوى في النـار والعياذ بالله تعالى .

المبحث الرابع

السعادة العظمى ببلوغ الجنة

وروية وجه الله سبحانه

وهكذا يصل الغريب إلى مسكنه الآمن وموطنه الذي اشتد شوقه إليه .

إنها الجنة دار الأبرار ، دار النعيم المقيم ، ودار الرضوان ، دار الجزاء الأوفى من السعادة، حظي بدخولها وظفر بنعيمها .

ولكنها لا تُنال بالتمني وإنما بالجد والسعي الصادق والحرص الدؤوب .

إنما الثمرة العظمى لأصحاب النفوس المطمئنة الذين زكوا نفوسهم وبذلوا جهدهم في مجاهدتها وتحصينها من الآثام ، فنالوا البشرى وتحقق لهم المنى .

قال تعالى : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى** ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضيه فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** ﴾ (٢) .

ولقد حفلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بذكر أوصاف الجنة ونعيمها ودرجاتها ومنازلها والتشويق فيها والحث على العمل لها .

فمن الآيات: قوله تعالى : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذين صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين** ﴾ (٣) .

---

(١) سورة النازعات / الآيتان ٤٠-٤١ .

(٢) سورة الفجر / الآيات ٢٧-٣٠ .

(٣) سورة الزمر / الآيتان ٧٣-٧٤ .

وقوله سبحانه : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً** ﴾ (١) .

فالجنة دار النعيم لمن آمن وعمل صالحاً ، وهؤلاء هم العباد الصالحون الصادقون المخلصون الذين يكرمهم الله بالنعيم المقيم والفوز العظيم .

وقد بشرهم المولى سبحانه فقال تعالى :

﴿ **وما تجزون إلا ما كنتم تعملون إلا عباد الله المخلصين ، أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم على سرر متقابلين يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون** ﴾ (٢) .

فمن صدق مع الله في الدنيا انتفع بصدقه يوم القيامة ، وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ **قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم** ﴾ (٣) .

وأما الأحاديث النبوية التي وردت في وصف الجنة وما فيها من نعيم مقيم ، فهي أكثر من أن تحصر ، ومن أبرزها :

ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، مصداق ذلك في كتاب الله تعالى : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ (٤))(٥) .

---

(١) سورة الكهف / الآيتان ٣٠ ـ ٣١ .

(٢) سورة الصافات / الآيات ٣٩-٤٩ .

(٣) سورة المائدة / آية ١١٩ .

(٤) سورة السجدة / آية ١٧ .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤتي بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيصبح في النار صبغة ، ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يا رب .

ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم ، هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مرَّ بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ، ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط " (1) .

فأهل الدنيا الذين امتلأت قلوبهم بحبها والتعلق بها والتقلب في ملذاتها لم يبق لهم شيء من نعيمها بمجرد غمسة واحدة في نار جهنم ، وأما أهل التقوى الذين صبروا على أكدار الدنيا وشدتها فإنهم نسوا تلك الشدائد بلحظة واحدة من لحظات نعيم الجنة .

وشتان بين زخارف الدنيا الفانية والنعيم الباقي في دار القرار في صحبة الأخيار ! - .

ولا يقتصر نعيم الجنة على أنواع النعيم الحسي من الثمرات والخيرات والحور العين والقصور والخيام والأنهار والأرائك ولباس الحرير والحلي وكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ به الأعين وإنما هناك ما يزيد على ذلك من النعيم الذين هو أكبر وأعظم وأهنأ وأسعد ألا وهما رضوان الله سبحانه ولذة النظر إلى وجهه الكريم .

فأما الرضوان : فقد ورد ذكره في قوله تعالى :

﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (2) .

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ يقول : (إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم؟

فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك .

(٥) رواه مسلم ـ كتاب الجنة ـ رقم /٢٨٢٤ .

(١) رواه مسلم ـ كتاب صفات المنافقين ـ باب طلب الكافر الفداء ـ رقم /٢٨٠٧ .

(٢) سورة التوبة / آية ٢٧ .

فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟

فيقولون : يا رب وأيُّ شيء أفضل من ذلك ؟

فيقول : أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً " (١) .

وأما رؤية وجه الله سبحانه في الجنة : فما أعظم لذتها وبهجتها وسعادة أهل الجنة بها، وتأمل قوله سبحانه : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ (٢) .

وقوله عزوجل : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ (٣) .

فالحسنى هي الجنة ، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم سبحانه (٤) .

روى مسلم عن صهيب الرومي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم " فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟

قال : فيكشف الحجاب ، فما أُعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى زاد في رواية : " ثم تلا هذه الآية : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾) (٥) .

ولذلك كان الرسول ﷺ يدعو بهذا الدعاء :

" وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة " (٦) .

---

(١) رواه البخاري - كتاب الرقائق - باب صفة الجنة والنار - ٢٠٠/٧ .
ورواه مسلم - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب أحلال الرضوان على أهل الجنة - رقم /٢٨٢٩ .

(٢) سورة القيامة / الآيتان ٢٢-٢٣ .

(٣) سورة يونس / آية ٢٦ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤١٤/٢ .

(٥) رواه مسلم - كتاب الإيمان - رقم / ١٨١ .

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٦٤/٤ ، وابن حبان في صحيحه رقم /٩٥٥ والحاكم في المستدرك ٥٢٤/١ ، من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه .

فالشوق إلى لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم في الجنة غاية ما يطمح إليه المؤمنون .

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيميه رحمه الله :

(بيّن الرسول ﷺ أن الله لم يعط أهل الجنة شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهذا غاية مراد العارفين)[1] .

نسأل الله أن يجعلنا منهم ويحشرنا في زمرتهم تحت لواء سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٦/٦٤ .

الخاتمة

وبعدَ أن جُلت ـــ بعون الله وتوفيقه ـ في رحاب المنهج الإسلامي لتزكية النفس وتعريف أسسه العقدية ووسائله العملية ، والأمراض والمعوقات التي تشغل الناس عن الالتزام به والسير في طريقه ، وما يكرم به الله عبادة المتقين الذين زكت نفوسهم من ثمرات عظمى ومنح كبرى تحقق للعبد سعادة الدنيا والآخرة ، وتنهض بالمجتمع المسلم إلى أعلى الذرى ، وما وقع فيه البعض من غلو في تطبيق هذا المنهج الرباني .. ونحو ذلك مما يتصل بالحديث عن النفس الإنسانية .. أود في هذه الخاتمة أن استخلص أبرز نتائج البحث وما يتعلق به من توصيات ، وذلك من خلال النقاط التالية :

أولاً- السمة التي يتميز بها الإسلام - وهو الدين الحق من عند الله سبحانه ـ أنه يدعو للوسطية والتوازن ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، ويراعي واقع الإنسان وتكوينه من قبضة الطين ونفخة الروح ، فهو دين الفطرة ، ومنهجه في تزكية النفس يرمي إلى توجيه هذه الفطرة وحمايتها لا إلى قهرها ومعاكستها .

ولقد ظهرت هذه الحقيقة جلية في صفحات هذا البحث ابتداء من الباب الأول فيه والذي عرضت من خلاله المواقف المختلفة من النفس الإنسانية قديماً وحديثاً بين الإفراط والتفريط ، وما ركزت عليه في الباب الخامس من مناقشة بعض المفاهيم التي تتسم بالغلو ولاتتفق مع منهج الدين القويم في التزكية والدعوة .

وأؤكد هنا أن أي خلل في تطبيق هذا المنهج والأخذ به لابد أن ينتج خللاً في بلوغ الثمرات أوفقداناً لبعض منها ، يدرك ذلك كل من راجع نفسه وتبصّر فيها وعرف حقيقتها ، فقد يجد غنى النفس ولايجد معها سمو النفس وعلو الهمة ، ولابذل النفس في سبيل الله .. وقد يجد بذل النفس ولكنه لايجد معها حسن الخلق في التعامل مع الناس .

أضف إلى ذلك أن أي غلو يقع به الأفراد في السير على منهج التزكية سواء كان بالعزلة أو الرهبانية أو الانقطاع عن أمور الدنيا لابد أن يؤثر سلبياً على المجتمع المسلم ويضعف من قوته ومكانته .

ومهما تذوق العبد من حلاوة الإيمان والتعلق بالدار الآخرة والتشوق إلى نعيم الجنة فلا بد أن يكون له أوقات يلتفت فيها إلى حقوق أهله وأسباب معاشه ونحو ذلك ، وهذا من رحمة الله سبحانه بعباده أنه **لم يكلفهم الانقطاع للعبادة والتخلي عن أمور الدنيا كلية** ، ويظهر هذا المعنى جلياً في الحديث الذي رواه مسلم عن حنظلة الأُسيدي رضي الله عنه قال (لقيني أبو بكر فقال : كيف أنت ياحنظلة ؟ قال : قلت :نافق حنظلة . قال : سبحان الله ما تقول ؟ قال : قلت نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكّرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين ، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزوج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً . قال أبوبكر : فوالله إنا لنلقى مثل هذا . فانطلقتُ أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : نافق حنظلة يارسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وماذاك ؟ قلت يارسول نكون عندك تذكّرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده لو تدومون على ماتكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ، ولكن ياحنظلة ساعة وساعة ، ثلاث مرات) (١)

قال الإمام القرطبي : (في هذا رد على من زعم دوام مثل ذلك الحال ، ولايعرجون بسببها على أهل ولامال ، ووجه الرد أن أبا بكر أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي يوم القيامة ، ومع ذلك فلم يدَّع خروجه عن جبلّه البشر ، ولاماهو من خاصة المَلَك من دوام الذكر وعدم الفترة ... وسر ذلك أن هذا العالَم متوسط بين عالمي الملائكة والشياطين ... وإليه أشار الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : " ساعة وساعة " ..) (٢)

أي:ساعة لمناجاة الله سبحانه وذكره ، وساعة للقيام بما يحتاجه الإنسان من أمور الدنيا المباحة ، وهذه الأمور الدنيوية داخلة في عبادة الله سبحانه إذا أُخلصت فيها النيات

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب التوبة ـ باب فضل دوام الذكر والفكر ... رقم / ٢٧٥٠ .

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ـ ٤٠٢/١ .

ثانياً - وبهذا المنهج القويم في تزكية النفس تتحقق سعادة الفرد وسعادة المجتمع ، وحياة الفرد وحياة المجتمع ، تلك الحياة الكريمة التي تعيد للمسلمين مكانتهم التي بوأهم الله إياها بقوله سبحانه : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ (١)

فما وصل المسلمون إلى ماهم فيه اليوم من ذل وهوان وضعف إلا ببعدهم عن الإسلام ، وإعراضهم عن منهجه في تزكية النفوس ، ولو بدأ كل فرد بنفسه وأسرته ومن يلوذ به فأخذوا بذلك المنهج الحكيم ، ورسخوا في نفوسهم أسسه وأركانه ، وسارعوا لتطبيق شعائره وأحكامه ، وطهروا أنفسهم من أمراضها وأدراتها ، وحصّنوها من تسلط شياطين الإنس والجن ... لوجدت تلك النفوس قد ارتقت بأصحابها إلى أعلى القمم ، وتحولت أحوالها إلى أحسن حال ، وذهب عنا الوهن ، **فإذا صلح حال الأفراد صلح المجتمع بأسره** ، ووقف كالطود الشامخ في وجه أعدائه المتربصين

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه السنّة الربانية في بلوغ الأمة الإسلامية طريق العزة ، وبيّن أن **أساس هذا الطريق إقتلاع حب الدنيا من قلوب أبنائها وغرس الإيمان فيها** .

عن ثوبان رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن . فقال قائل : يارسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت) (٢)

---

(١) سورة آل عمران / من الآية

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٥/٢٧٨) ، وأبو داود كتاب الملاحم - باب في تداعي الأمم على الإسلام رقم / ٤٢٩٧ ، وأبو نعيم في الحلية ١/١٨٢ وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة - رقم / ٩٥٨ .

فالوهن إذا دخل إلى القلوب أصبحت الأمة كغثاء السيل ، وقد فسر الرسول صلىا لله عليه وسلم هذا الوهن القاتل بأنه حب الدنيا وكراهية الموت ، فإذا خرج تغلغل حب الدنيا من القلب باتباع منهج الإسلام في تزكية النفوس زال الوهن وزال معه ضعف الأمة وهوانها .

ولقد تبين في هذا البحث أن الإسلام حث على إخراج حب الدنيا من القلب ليبقى في دائرة سطح النفس فلا يطغى بعد ذلك على حب ا لله ورسوله وهذه منزلة عالية ومقام رفيع تحظى به النفوس المزكاة فتسمو وتظفر بأعظم الثمرات ، وهؤلاء هم السابقون وأصحاب النفوس المطمئنة الذين يحرصون على البذل والعطاء والفداء ، وعلى أكتافهم تنهض الأمة وتنفض عنها غبار الذل والهوان .

فالتزكية إذا ليست مسألة فردية وإنما هي ضرورة إجتماعية ، ولابد من تضافر جهود العلماء والدعاة والمربين وكل من حمّله ا لله مسؤولية عامة بحسب اختصاصه ، لكي يطبق ذلك المنهج في عالم الواقع تطبيقاً متكاملاً ، ويُدعى إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويُرشد إليه بالترغيب والترهيب .

ثالثاً - الدعوة إلى تزكية النفس ينبغي أن تكون دعوة صافية مستقاة من الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة ، وأن لايقف في وجهها عائق المصطلحات والتسميات التي أحدثت بعد ذلك ، فلقد سماها القرآن الكريم تزكية ولم يسمها تصوفاً وكثير من الناس ارتبط لديهم اسم التزكية باسم التصوف فأعرضوا عن التزكية بدعوى البعد عن التصوف ، حتى إن بعض الدعاة يتجنبون الحديث عن المجاهدة والمحاسبة وأمراض القلوب ونحو ذلك ظناً منهم أنها موضوعات صوفية ، وهذا بلاشك تفريط كبير يقابل ما وقع فيه الصوفية من إفراط .

فلابد من تجلية حقائق المنهج الإسلامي الصحيح في تزكية النفس ، وإظهاره للناس بصورته النقية المشرقة ، واستخلاص ماحفل به التراث الإسلامي الأصيل من كنوز في هذا المجال .

رابعاً - ويجدر بي في ختام هذا البحث أن أذكّر بأن **السلبية والنظرة التشاؤمية التي أصيب بها كثرة من المسلمين اليوم لاموضع لها عند من عرف المرض الحقيقي للأمة** وسبيل النهوض بها ، فإذا كان أعداء المسلمين قد أحكموا الخطط والمؤامرات للكيد بأمة الإسلام والتربص بها ومنعها من شق طريقها للعزة والكرامة ، فإن هذا لايجوز أن يكون مبرراً للتخاذل والهوان ، **لأن نقطة البدء الحقيقية التي تنهض بها الأمة هي تزكية النفوس وترسيخ أسس هذه التزكية بالعقيدة الصحيحة .**

فهل يستطيع أعداء الإسلام مهما بذلوا أن يقفوا عائقاً بين المسلم ونفسه التي بين جنبيه إذا عقد العزم على تقويم اعوجاجها ؟!

إن البلاد التي حُكمت بالشيوعية سنين طويلة ، ومُنع فيها المسلمون من إظهار شعائرهم واعتبر وجود المصحف لدى الواحد منهم خيانة عظمى . . لم يتمكن فيها الأعداء من إنهاء الوجود الإسلامي واقتلاع جذوره الراسخة في النفوس ، فما إن زالت سطوة الشيوعية حتى عاد انتشار الإسلام من جديد ، لأن كثيراً من أبناء المسلمين كانوا يتعلمون القرآن في الخفاء ويتربون على حب الإسلام ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

وأما المجتمعات الغربية فهي مع شدة كراهيتها للإسلام لازالت تبحث عن منهج صحيح للحياة .. المنهج الذي يأخذ الإنسان كله - في شموله وتكامله - لاجانباً واحداً من جوانبه ، ولن يجدوا هذا المنهج إلا في الإسلام (١) .. إنه المنهج القويم في تزكية النفس وتحقيق سعادتها .

فإذا استقام المسلمون على هذا المنهج وطبقوه في واقع حياتهم وأرشدوا الحيارى إلى معينه الذي لاينضب وكنوزه التي لاتنفد ، فإن ذلك أعظم مايُقدم للبشرية من عطاء ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا با لله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ (٢)

---

(١) ينظر: واقعنا المعاصر - لمحمد قطب - ص/ ٥٤٧ .

(٢) سورة النساء / الآيتان ١٧٤ - ١٧٥ .

أبرز المصادر والمراجع

١ ـ التفسير وعلوم القرآن
٢ ـ الحديث النبوي وشروحه
٣ ـ العقيدة والإيمان
٤ ـ العبادة وأصول الأحكام
٥ ـ التزكية والرقائق والدعوة الإسلامية
٦ ـ السيرة والتراجم والتاريخ
٧ ـ مراجع خاصة بموضوع التصوف
٨ ـ الفرق والأديان
٩ ـ الفلسفة وعلم النفس
١٠ ـ مراجع لغوية
١١ ـ مراجع عامة أخرى

* اكتفيت هنا بذكر أبرز المصادر والمراجع ، وهناك مراجع أخرى جانبية مثبتة في الحواشي .

المصادر والمراجع

أولاً- كتب التفسير وعلوم القرآن :

١- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم** ، المشهور بتفسير أبي السعود للإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادي (ت٩٥١هـ) - دار إحياء التراث العربي - بيروت .

٢- **أضواء البيان** - الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي - ط ٢ - ١٤٠٠هـ .

٣- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز** - للإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي - المكتبة العلمية - بيروت .

٤- **تفسير القرآن العظيم** - للإمام عماد الدين إسماعيل بن كثير - (ت٧٧٤) - دار المعرفة - بيروت - ١٣٨٨هـ .

٥- **التفسير الكبير** - للإمام الفخر الرازي (ت٦٠٤هـ) دار الفكر - بيروت - ١٤٠١ هـ .

٦- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** - للإمام أبي جعفر بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) دار الفكر - بيروت - ١٤٠٥هـ

٧- **الجامع لأحكام القرآن** - للإمام أبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١) تصحيح : أحمد عبد العليم البردوني - بدون تاريخ .

٨- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** - للإمام شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي (ت١٢٧٠) - دار الفكر - بيروت - ١٤٠٣هـ .

٩- **فضائل القرآن** - للإمام عماد الدين اسماعيل بن كثير (ت٧٧٤هـ) تحقيق : سعيد عبد المجيد محمود - دار الحديث - ١٩٨٩م .

١٠- **في ظلال القرآن** - لسيد قطب - دار الشروق - بيروت - ط٧ - ١٣٩٨هـ .

١١- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** - للإمام عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت

(٥٤١هـ) ـ تحقيق : عبد العال السيد ابراهيم ـ طباعة رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بقطر ـ ط ١ ـ ١٤١٢ هـ .

١٢- **المفردات في غريب القرآن** ـ للإمام أبي القاسم الحسين بن محمد ، المعروف بالراغب الأصفهاني ـ تحقيق : محمد سيد كيلاني ـ مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ـ ١٣٨١هـ .

ثانياً الحديث النبوي وشروحه :

١٣- **الأدب المفرد** ـ للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ) خرج أحاديثه الشيخ : محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٤٠٩هـ .

١٤- **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف** ـ للإمام عبد العظيم المنذري (ت٦٥٦هـ) تعليق : مصطفى محمد عمارة ـ دار إحياء التراث العربي ـ ط٢ ـ ١٣٨٨هـ .

١٥- **جامع الأصول في أحاديث الرسول** ـ الإمام ابن الأثير الجزري ـ (ت٦٠٦هـ) حققه وخرج أحاديثه : عبد القادر الأرناؤوط ـ دار الفكر ـ لبنان ـ ط٢ ـ ١٤٠٣هـ .

١٦- **جامع العلوم والحكم** ـ للإمام ابن رجب الحنبلي دار الفكر ـ بيروت ـ

١٧- **دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين** ـ العلامة محمد بن علان الصديقي الشافعي (ت١٠٥٧هـ) دار الفكر ـ بيروت ـ ط٣ .

١٨- **سلسلة الأحاديث الصحيحة** ـ للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الاسلامي ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٣٩٩هـ .

١٩- **سنن أبي داود** ـ للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت٢٧٥هـ) تعليق ـ عزت عبيد الدعاس وعادل السيد ـ دار الحديث ـ حمص ـ سوريا ط١ ـ ١٣٩٤هـ .

٢٠- **سنن ابن ماجه** ـ للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه (ت٢٧٥هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الفكر ـ بيروت .

٢١- **سنن الترمذي** ـ للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (٢٩٧هـ)

تحقيق الشيخ / أحمد محمد شاكر - وكمال يوسف الحوت - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤٠٨هـ .

٢٢- **سنن النسائي** ، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي - دار الكتب العلمية - بيروت .

٢٣- **شرح السنة** - للإمام الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت٥١٦هـ) تحقيق الشيخ : شعيب الأرناؤوط - المكتب الإسلامي - ط١ - ١٣٩٠هـ .

٢٤- **شرح حديث (ما ذئبان جائعان)** - للإمام ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥ هـ) - تحقيق : بدر البدر - الدار السلفية - الكويت - ط٢ - ١٤٠٤هـ .

٢٥- **شرح صحيح مسلم** - للإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ) دار إحياء التراث العربي - لبنان - ط٢ - ١٣٩٢هـ .

٢٦- **صحيح البخاري** - للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري - (ت٢٥٦هـ) دار العربية - بيروت .

٢٧- **صحيح الجامع الصغير وزياداته** - للشيخ محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الاسلامي - ط٣ - ١٤٠٢هـ .

٢٨- **صحيح مسلم** - للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ) - رقمه وحققه : محمد فؤاد عبد الباقي - دار الفكر - ١٤٠٣ هـ .

٢٩- **فتح الباري شرح صحيح البخاري** - للإمام أحمد بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) رقّم أحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي ، صححه : محمد الدين الخطيب - المكتبة السلفية .

٣٠- **فيض القدير شرح الجامع الصغير** - للإمام عبد الرؤوف المناوي - دار الفكر - لبنان - ط٢ - ١٣٩١هـ .

٣١- **قبسات من الرسول** - للأستاذ محمد قطب - دار الشروق - القاهرة - ط٨ - ١٤٠٢هـ .

٣٢- **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس** - للإمام إسماعيل العجلوني - تعليق الشيخ أحمد قلاش - مؤسسة الرسالة - ط٤ - ١٤٠٥هـ .

٣٣- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ـ للإمام نور الدين الهيثمي ـ (ت٨٠٧هـ) مؤسسة المعارف ـ بيروت ـ ١٤٠٦هـ .
٣٤- **المستدرك على الصحيحين** ـ للإمام عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري الحاكم (ت٤٠٥هـ) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
٣٥- **المسند** ـ للإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) . وبهامشه منتخب كنزل العمال ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت .
٣٦- **مشكاة المصابيح** ـ للإمام محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي (ت٧٣٧هـ) تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٤٠٥هـ .
٣٧- **المصنف في الأحاديث والآثار** ـ للإمام أبي بكر بن أبي شيبة (ت٢٣٥هـ) تحقيق : عبد الخالق الأفغاني ـ الدار السلفية بالهند ـ ط٢ ـ ١٣٩٩هـ .

ثالثاً ـ العقيدة والإيمان :

٣٨-**الاستقامة** ـ للإمام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) ـ تحقيق : د. محمد رشاد سالم ـ إصدار جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ ط١ ـ ١٤٠٤هـ .
٣٩- **الاعتصام** ـ للإمام أبي اسحاق ابراهيم بن موسى اللخمي ـ المعروف بالشاطبي (ت٧٩٠هـ) المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر .
٤٠- **الإيمان** ـ للإمام تقي الدين ابن تيميه ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٣٩٩هـ .
٤١- **الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها** ـ للشيخ عبد الله سراج الدين ـ مطبعة الأصيل ـ حلب ـ ط٢ ـ ١٤٠٤هـ .
٤٢- **الإيمان والحياة** ـ د. يوسف القرضاوي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط٨ ـ ١٤٠٢هـ .
٤٣- **درء تعارض العقل والنقل** ـ للإمام تقي الدين ابن تيمية ـ تحقيق : د. محمد رشاد سالم ـ طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ ط١ . ١٣٩٩هـ .

٤٤- **شرح العقيدة الطحاوية** - لابن أبي العز الحنفي - خرج أحاديثها : محمد ناصر الدين الألباني - دار الفكر العربي .

٤٥- **الشريعة** - للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري (ت٣٦٠هـ) تحقيق : محمد حامد الفقي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤٠٣ هـ .

٤٦- **العبودية** - للإمام تقي الدين ابن تيمية - المؤسسة السعودية بالقاهرة - ط٢ - ١٣٩٨ هـ .

٤٧- **عقيدة المسلم** - للشيخ محمد الغزالي - دار القلم - دمشق - ط٣ - ١٤٠٣هـ .

٤٨- **العقيدة الواسطية** - للإمام تقي الدين ابن تيمية - مراجعة الشيخ عبد الله بن ابراهيم الأنصاري - طبع إدارة إحياء التراث الاسلامي - قطر .

٤٩- **النفاق آثاره ومفاهيمه** - للشيخ عبد الرحمن الدوسري - مكتبة دار الأرقم - الكويت - ط٢ - ١٤٠٢هـ .

رابعاً - العبادة وأصول الأحكام :

٥٠- **الأركان الأربعة** - للشيخ أبي الحسن الندوي .

٥١- **أعلام الموقعين عن رب العالمين** - للإمام أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي ، المشهور بابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد - دار الفكر - بيروت - ط٢ - ١٣٩٧هـ -

٥٢- **الجهاد** - للإمام عبد الله بن المبارك (ت١٨١هـ) تحقيق : د. نزيه حماد - دار المطبوعات الحديثة - جده

٥٣- **الخصائص العامة للإسلام** - د. يوسف القرضاوي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٣ - ١٤٠٥هـ -

٥٤- **الصلاة** - للإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) ضمن كتاب / مجموعة رسائل في الصلاة - طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء بالرياض - ط١ - ١٤٠٥هـ .

٥٥- **العبادة** - د. محمد أبو الفتح البيانوني - دار السلام - القاهرة - ط١ - ١٤٠٤هـ .

٥٦- **العبادة في الإسلام** - د. يوسف القرضاي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١٨ - ١٤٠٦ هـ.

٥٧- **الموافقات في أصول الأحكام** - للإمام أبي اسحاق الشاطبي (ت٧٩٠هـ) تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد - مكتبة محمد علي صبيح بالقاهرة.

خامساً - كتب التزكية والرقائق والدعوة الاسلامية :

٥٨- **الأخلاق الإسلامية وأسسها** - للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني - دار القلم - بيروت -

٥٩- **أخلاق العلماء** - للإمام أبي بكر الآجري (ت٣٦٠هـ) - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥هـ.

٦٠- **أدب الدنيا والدين** - للإمام أبي الحسين علي بن محمد البصري الماوردي (ت٤٥٠هـ) - تحقيق : مصطفى السقا - دار الفكر - بيروت -

٦١- **الآداب الشرعية والمنح المرعية** - للإمام شمس الدين محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي - مكتبة الرياض الحديثة - ١٣٩١هـ -

٦٢- **آداب النفوس** - للإمام أبي بكر الآجري (ت٣٦٠هـ) - تحقيق : مجدي السيد إبراهيم - مكتبة لينة - دمنهور - ط١ - ١٤١٢هـ.

٦٣- **آداب النفوس** - للإمام الحارث المحاسبي (ت٢٤٣هـ) تحقيق : محمد عبد العزيز أحمد - مكتبة القرآن - القاهرة -

٦٤- **آفات على الطريق** - د. السيد محمد نوح - دار الوفاء - القاهرة - ط٢ - ١٤٠٨هـ -

٦٥- **الأذكار** - للإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ) تحقيق : محمد رياض خورشيد - مكتبة الغزالي - دمشق - ١٤٠١هـ -

٦٦- **أسرار مجاهدة النفس** - للإمام أبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي (٢٨٦هـ) تحقيق : ابراهيم محمد الجمل - مكتبة السلام العالمية - القاهرة -

٦٧- **الأمد الأقصى** - للقاضي أبي زيد عبد الله بن عمر الدبوسي (ت٤٣٠هـ) تحقيق : محمد عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤٠٥هـ -

٦٨- **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان** - للإمام ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) - دار الفكر - بيروت -

٦٩- **إقتضاء العلم العمل** - للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) - المكتب الاسلامي - بيروت - ط٥ - ١٤٠٤هـ -

٧٠- **استخلاف الإنسان في الأرض** - للدكتور فاروق الدسوقي - المكتب الاسلامي - بيروت - ط٢ - ١٤٠٦هـ.

٧١- **البيان في مداخل الشيطان** - عبد الحميد البلابلي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١٣ - ١٤١١هـ -

٧٢- **التبصرة** - للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي - تحقيق : د. مصطفى عبد الواحد - مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر - ط١ - ١٣٩٠هـ -

٧٣- **التبيان في آداب حملة القرآن** - للإمام محي الدين يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ) تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط - نشر جمعية القرآن الكريم بجدة - ط٢ - ١٤٠٨هـ.

٧٤- **تحفة الذاكرين** - للإمام محمد بن علي الشوكاني (-١٢٥٠هـ) - دار الكتب العلمية - بيروت -

٧٥- **تذكرة الدعاة** - للبهي الخولي - الإتحاد الاسلامي العالمي للمنظمات الطلابية - ١٤٠٠هـ -

٧٦- **تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم** - للإمام أبي عبد الله بن جماعة ضمن مجموعة (آداب المتعلمين) جمع وتحقيق : أحمد عبد الغفور عطار -

٧٧- **تلبيس إبليس** - للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت٥٩٧هـ) - دار الفكر - بيروت -

٧٨- **الثبات عند الممات** - للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت٥٩٧هـ) تحقيق : خالد علي محمد - دار الأندلس - جدة -

٧٩- **جامع بيان العلم وفضله** - للإمام أبي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي (ت٤٦٣هـ) المكتبة العلمية - المدينة المنورة -

٨٠- **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع** - للإمام الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)

تحقيق : د. محمود طحان - مكتبة المعارف - الرياض - ١٤٠٣هـ.
٨١- **الجانب العاطفي من الإسلام** - للشيخ محمد الغزالي - دار الكتب الحديثة - القاهرة -
٨٢- **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي** - للإمام ابن قيم الجوزية - دار الندوة الجديدة - بيروت - ١٤٠٥هـ .
٨٣- **الحيل النفسية** - نهاد درويش - ضمن سلسلة (دراسات في واقعنا) - طبع بيروت .
٨٤- **دراسات في النفس الإنسانية** - للأستاذ محمد قطب - دار الشروق - القاهرة - ط٤ - ١٤٠٠هـ .
٨٥- **الدعوة الإسلامية دعوة عالمية** - محمد الراوي - دار العربية - بيروت -
٨٦- **الذريعة إلى مكارم الشريعة** - للإمام الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) - دار الوفاء - مصر - ط٢ - ١٤٠٨هـ -
٨٧- **الرقة والبكاء** - للإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (ت٦٢٠هـ) - تحقيق : محمد خير رمضان يوسف - دار القلم - دمشق - ط١ - ١٤١٥هـ -
٨٨- **الروح** - للإمام ابن قيم الجوزية - دار العلوم الحديثة - بيروت -
٨٩- **الزهد** - للإمام وكيع بن الجراح (ت١٩٧هـ) تحقيق : عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي - مكتبة الدار - المدينة المنورة - ط١ - ١٤٠٤هـ -
٩٠- **الزهد** - للإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل (ت٢٤١ هـ) - تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول - دار الكتاب العربي - بيروت - ط٢ - ١٤١٤هـ -
٩١- **الزهد والرقائق** - للإمام عبد الله بن المبارك (ت١٨١ هـ) - تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي - دار الكتب العلمية - بيروت -
٩٢- **سبيل الدعوة الإسلامية** - د. محمد أمين المصري - دار الأرقم - الكويت - ط١ - ١٤٠٠هـ -
٩٣- **صيد الخاطر** - للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت٥٩٧هـ) - تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري - دار الكتاب العربي - بيروت -

١٤٠٥هـ -

٩٤- **طريق الهجرتين وباب السعادتين** - للإمام ابن قيم الجوزية - تحقيق : سيد إبراهيم - دار الحديث بالقاهرة - ١٩٩١م -

٩٥- **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين** - للإمام ابن قيم الجوزية - طبع بيروت .

٩٦- **على طريق العودة إلى الإسلام** - د. محمد سعيد رمضان البوطي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٢ - ١٤٠٢هـ -

٩٧- **غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب** - للإمام محمد السفاريني الحنبلي - طبع مكة المكرمة - ١٣٩٣ هـ -

٩٨- **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان** - للإمام تقي الدين ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) مكتبة المعارف - الرياض - ١٤٠٢هـ .

٩٩- **فضل علم السلف على الخلف** - للإمام ابن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ) - تحقيق : مروان العطية - دار الهجرة - بيروت - ط١ - ١٤٠٩هـ .

١٠٠- **الفوائد** - للإمام ابن قيم الجوزية - مكتبة الرياض الحديثة -

١٠١- **كتاب إحياء علوم الدين** - للإمام أبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) دار المعرفة - بيروت - ١٤٠٣هـ .

١٠٢- **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف** - للإمام ابن رجب الحنبلي - دار الجيل - بيروت -

١٠٣- **لمحات نفسية في القرآن الكريم** - للدكتور : عبد الحميد الهاشمي - سلسلة دعوة الحق - إصدار رابطة العالم الإسلامي - صفر - ١٤٠٢هـ .

١٠٤- **مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية** - جمع وترتيب : عبد الرحمن العاصمي النجدي - إصدار الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين - سنة ١٤٠٤هـ . وبخاصة المجلدان العاشر والحادي عشر .

١٠٥- **محاسبة النفس** - للإمام ابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ) - تحقيق : مجدي السيد ابراهيم - مكتبة القرآن - القاهرة -

١٠٦- **مختصر منهاج القاصدين** - للإمام أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي - تحقيق : شعيب وعبد القادر الأرناؤوط - مؤسسة علوم القرآن - دمشق -

-١٣٩٨هـ -
١٠٧-**مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** - للإمام ابن قيم الجوزية - تحقيق : محمد حامد الفقي - دار الكتاب العربي - بيروت -
١٠٨-**مداواة النفوس** - للإمام ابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ) تحقيق : عادل أبو المعاطي - دار المشرق العربي - القاهرة - ط١ - ١٤٠٨هـ -
١٠٩-**المدخل إلى علم الدعوة** - د. محمد أبو الفتح البيانوني - مؤسسة الرسالة - ط١ - ١٤١٢هـ -
١١٠-**مصائب الإنسان من مكائد الشيطان** - للإمام تقي الدين بن محمد بن مفلح المقدسي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤٠٤ هـ .
١١١-**مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة** - للإمام ابن قيم الجوزية - دار الفكر - بيروت -
١١٢-**مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة** - للدكتور محمد علي الجوزو - دار العلم للملايين - بيروت - ط٢ - ١٩٨٣م -
١١٣-**منهج التربية الاسلامية** - للأستاذ محمد قطب - دار الشروق - القاهرة - ط٤ - ١٤٠٠هـ .
١١٤-**الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة والقرآن** - للإمام ابن قيم الجوزية - تحقيق : مجدي فتحي السيد -
١١٥-**النصيحة الكافية** - للإمام شهاب الدين أحمد البرنسي الفاسي ، المعروف بـ (زرّوق) (ت٨٩٩هـ) - تعليق : قيس آل الشيخ مبارك - مكتبة الإمام الشافعي - الرياض - ط١ - ١٤١٤هـ -
١١٦-**النفس أمراضها وعلاجها في الشريعة الاسلامية** - للاستاذ محمد الفقي - مكتبة محمد علي صبيح - القاهرة - ط١ - ١٣٩٠هـ .
١١٧-**الهدى والضلال** - للشيخ أحمد عز الدين البيانوني - دار السلام بالقاهرة - ط٢ - ١٤٠٥هـ -
١١٨-**الوابل الصيب من الكلم الطيب** - للإمام ابن قيم الجوزية -
١١٩-**واقعنا المعاصر** - للاستاذ محمد قطب - مؤسسة المدينة للصحافة - جدة - ط٢ - ١٤٠٨هـ -

سادساً - السيرة والتراجم والتاريخ :

١٢٠-**الأعلام** - خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - بيروت - ط - ١٩٨٤م -

١٢١-**الإصابة في تمييز الصحابة** - للإمام ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) - دار الكتاب العربي - بيروت -

١٢٢-**البداية والنهاية** - للإمام اسماعيل بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ) - دار الفكر - بيروت - ١٩٧٨م -

١٢٣-**حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** - للإمام أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت٤٣٠هـ) - دار الباز - مكة المكرمة -

١٢٤-**الرسول العربي المربي** - د. عبد الحميد الهاشمي - دار الهدى - الرياض - ط٢ - ١٤٠٥هـ -

١٢٥-**زاد المعاد في هدي خير العباد** - للإمام ابن قيم الجوزية - تحقيق : شعيب وعبد القادر الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - ط١٥ - ١٤٠٧ هـ -

١٢٦-**سير أعلام النبلاء** - للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ) - تحقيق : شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١٠ - ١٤١٤هـ -

١٢٧-**السيرة النبوية** - للإمام أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت٢١١٨هـ) ط٢ - تحقيق مصطفى السقا * إبراهيم الأبياري * عبد الحفيظ الشلبي - مؤسسة علوم القرآن - ط٢ -

١٢٨-**سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز** - للإمام ابن رجب الحنبلي - تحقيق : عفت وصال حمزة - دار ابن حزم - بيروت - ط١ - ١٤١٣هـ -

١٢٩-**شذرات الذهب في أخبار من ذهب** - للإمام ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ) - دار الآفاق الجديدة - بيروت -

١٣٠-**صفة الصفوة** - للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي - دار الفكر - بيروت .

١٣١-**طبقات الشافعية** - للإمام تاج الدين السبكي (ت٧٧١هـ) - تحقيق : عبد الفتاح الحلو ، ومحمود الطناحي - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة -

١٣٢-**العبر في أخبار من غبر** - للإمام شمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ) - دار الفكر .

١٣٣-**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** - للإمام أبي المحاسن ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ) طبع وزارة الثقافة والإرشاد بمصر -

سابعاً - مراجع خاصة بموضوع التصوف :

١٣٤-**الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية** - عبد الوهاب الشعراني - تحقيق : وتقديم : طه عبد الباقي سرور - مكتبة المعارف - بيروت -

١٣٥-**إيقاظ الهمم في شرح الحكم** - أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني - المكتبة الثقافية - بيروت - ١٤٠٣ هـ -

١٣٦-**ابن تيمية والتصوف** - د. مصطفى حلمي - دار الدعوة - الاسكندرية - الطبعة الثانية -

١٣٧-**تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس** - لابن عطاء الله السكندري - مكتبة محمد علي صبيح - القاهرة -

١٣٨-**التصوف بين الحق والخلق** - محمد فهر شقفة - الدار السلفية - بالكويت - ط٣ - ١٤٠٣ هـ -

١٣٩-**التصوف في الإسلام** - د. عمر فروخ - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠١هـ -

١٤٠-**تنبيه المغترين** - عبد الوهاب الشعراني - تعليق : عبد الجليل عطا - دار البشائر - ط١ -

١٤١-**تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب** - محمد أمين الكردي - تعليق : محمد علي إدلبي - دار التراث الإسلامي - حلب - ط١ - ١٤٠٤هـ -

١٤٢-**الرسالة القشيرية** - للإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري (ت٤٦٥هـ) - دار الكتاب العربي - بيروت -

١٤٣-**شرح الحكم العطائية** - عبد المجيد الشرنوبي -

١٤٤-**عوارف المعارف** - عبد القاهر بن عبد الله السهروردي - دار الكتاب العربي - بيروت - ط٢ - ١٤٠٣هـ -

١٤٥-**موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية** - د. أحمد محمد بناني - طبع جامعة أم القرى - ط١ - ١٤٠٦ -

ثامناً - الفرق والأديان :

١٤٦-**أديان الهند الكبرى** - د. أحمد شلبي - مكتبة النهضة المصرية - ط٥ - ١٩٧٩م -

١٤٧-**الأسفار المقدسة** - د. علي عبد الواحد وافي - دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة - ط٢ - ١٣٩٢هـ -

١٤٨-**الإسلام بين الأديان** - د. محمد كمال جعفر - مكتبة دار العلوم - القاهرة -

١٤٩-**البوذية** - هنري أرفون - ترجمة ك هنريزغيب - ضمن سلسلة (ماذا أعرف) - المنشورات العربية -

١٥٠-**تاريخ المذاهب الإسلامية** - للشيخ محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي -

١٥١-**التبصير في الدين** - للإمام أبي المظفر الاسفراييني (ت٤٧١هـ) تحقيق : كمال يوسف الحوت - عالم الكتب - بيروت - ط١ - ١٤٠٣هـ -

١٥٢-**الديانات القديمة** - للشيخ محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي -

١٥٣-**الفرق بين الفرق** - للإمام عبد القاهر البغدادي - (ت٤٢٩هـ) دار الأفاق الجديدة - بيروت - ط٤ - ١٤٠٠هـ -

١٥٤-**قصة الأديان** - دراسة تاريخية مقارنة - د. رفقي زاهر - ط١ - ١٤٠٠هـ -

١٥٥-**الكنز المرصود في قواعد التلمود** - د. روهلنج - ترجمة : د. يوسف حنا نصر الله - تحقيق : مصطفى أحمد الزرقاء - بيروت - ط٢ - ١٣٨٨هـ -

١٥٦-**محاضرات في النصرانية** - للشيخ محمد أبو زهرة - طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية - ط٤ - ١٤٠٤هـ - الرياض -

١٥٧-**المسيحية** - د. أحمد شلبي - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ط٦ - ١٩٧٨م -

١٥٨-**اليهودية** - د . أحمد شلبي - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ط٥ -

١٩٧٨ م -

١٥٩-**اليوغا في ميزان النقد العلمي** - د. فارس علوان مكتبة الضياء - جدة - ط١ ١٤٠٩هـ -

تاسعاً - الفلسفة وعلم النفس :

١٦٠-**أحوال النفس** - لابن سينا - تحقيق الدكتور أحمد فؤاد الأهواني - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - ط١ - ١٣٧١هـ -

١٦١-**الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام** - للدكتور مصطفى حلمي - دار الثقافة العربية - القاهرة - ١٤٠٧ هـ -

١٦٢-**أصول علم النفس العام في ضوء الإسلام** - د. أحمد محمد عامر - دار الشروق - جدة - الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ -

١٦٣-**الإنسان ذلك المجهول** - ألكسيس كاريل - ترجمة : أسعد فريد - مكتبة المعارف - بيروت - ط٣ - ١٩٨٠م -

١٦٤-**الإنسان وصحته النفسية** - للدكتور مصطفى فهمي - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة -

١٦٥-**الدراسات النفسية عند المسلمين** - عبد الكريم العثمان - مكتبة وهبة بالقاهرة - ط١ - ١٣٨٢هـ -

١٦٦-**الدين والفلسفة والعلم** - السيد محمد أبو الفيض المنوفي - دار الكتب الحديثة - القاهرة -

١٦٧-**الصحة النفسية والعلاج النفسي** - للدكتور : حامد عبد السلام زهران -

١٦٨-**علم النفس أسسه وتطبيقات التربوية** - د. عبد العزيز القوصي - مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة - ط٧ - ١٩٧٠م -

١٦٩-**علم النفس الإسلامي العام والتربوي (دراسة مقارنة)** - د. محمد رشاد خليل دار القلم - الكويت - ط١ - ١٤٠٧هـ -

١٧٠-**الفوز بالسعادة** - برتراند راسل - ترجمة : سمير عبده - دار الحياة - بيروت - ١٩٨٠م -

١٧١-**القرآن وعلم النفس** - د. محمد عثمان نجاتي - دار الشروق - ط١

١٤٠٢ هـ -

١٧٢-**النفس** - لأرسطو طاليس - ترجمة وتقديم الدكتور أحمد فؤاد الأهواني - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - ط٢ - ١٩٦٢م -

١٧٣-**النفس انفعالاتها وأمراضها وعلاجها** - للدكتور علي كمال - الطبعة الأولى - ١٩٦٧م - بغداد -

عاشراً - مراجع لغوية :

١٧٤-**لسان العرب** - للإمام محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري - دار صادر - بيروت -

١٧٥-**مختار الصحاح** - محمد بن أبي بكر بن القادر الرازي - مؤسسة علوم القرآن - دمشق - سوريا - ١٤٠٦هـ -

١٧٦-**المعجم الوسيط** - قام باخراجه مجمع اللغةالعربية في القاهرة - بإشراف : إبراهيم أنيس * عبد الحليم منتصر * عطية الصوالحي * محمد خلف الله أحمد - طبعة إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر -

حادي عشر - مراجع عامة أخرى :

١٧٧-**الإسلام والطاقات المعطلة** - للشيخ محمد الغزلي - دار الكتب الحديثة - القاهرة - ط٣ - ١٩٦٤م -

١٧٨-**التعريفات** - الشريف علي بن محمد الجرجاني - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤٠٣هـ -

١٧٩-مناهج البحث في العلوم الاسلامية - د. مصطفى حلمي - مكتبة الزهراء - القاهرة - ط١ - ١٤٠٤هـ -

١٨٠-منهج الحضارة الإنسانية في القرآن - د. محمد سعيد رمضان البوطي - دار الفكر - دمشق - ١٤٠٥هـ -

فهرس الموضوعات

* المقدمة .... أ

* **التمهيد** ١

تعريف المنهج ١

تعريف التزكية ٢

تعريف النفس ٥

تعريف الدعوة وصلتها بالتزكية ٨

ـ الباب الأول :

النفس الانسانية وصفاتها مع بيان المناهج المختلفة فيها ١١

الفصل الأول : خلق الإنسان ومهمته في الحياة ١٢

الفصل الثاني : النفس والفطرة ١٧

الفصل الثالث : النفس وصلتها بالقلب والعقل والروح ٢١

القلب ٢١

العقل ٢٥

الروح ٢٦

الفصل الرابع : صفات النفس وأحوالها ٢٨

صفات النفس الإنسانية ٢٨

١ ـ قابلية النفس للخير والشر ٢٨

٢ ـ الصفات المتقابلة في النفس ٣٠

٣ـ الإدراك على اختلاف مستوياته ٣٢

٤ ـ القدرة على إخفاء المطالب والمشاعر ٣٢

المبحث الثاني : أحوال النفس ٣٣

١ ـ النفس الأمارة بالسوء ٣٣

٢ ـ النفس اللوامة ٣٥

٣ـ النفس المطمئنة ٣٦
الفصل الخامس : موقف الفلاسفة وعلماء النفس من النفس الإنسانية ٣٩
المبحث الأول : موقف الفلاسفة من النفس الإنسانية ٣٩
طبيعة النفس ٤٠
وحدة النفس ٤٠
أصل النفس ٤١
المبحث الثاني : موقف علماء النفس الحديث من النفس الإنسانية ٤٣
سبب انحراف علم النفس الحديث في دراسة النفس ٤٦
علاج الأمراض النفسية ٤٧
الفصل السادس : موقف الأديان من النفس وتهذيبها ٥١
المبحث الأول : الديانات الوضعية ٥٢
١ ـ الديانة المصرية القديمة ٥٢
٢ ـ البرهمية ٥٤
٣ـ البوذية ٥٥
٤ ـ الهندوسية ٥٨
٥ ـ المزدكية ٥٩
المبحث الثاني : اليهودية ٦١
المبحث الثالث : النصرانية ٦٧
١ ـ الرهبانية ٦٨
٢ ـ صكوك الغفران ٧١
٣ـ الاعتراف أمام القسيس ٧٣
٤ ـ سلطة الكنيسة ٧٤
الباب الثاني : الأسس العقدية لتزكية النفس ٧٦
* تمهيد ٧٧
الفصل الأول : التوحيد ٧٨
نماذج قرآنية لبيان آثار التوحيد في النفس الإنسانية وآثار الشرك فيها ٨١

الفصل الثاني : الاعتصام بالكتاب والسنة ٨٦
نماذج من الحديث النبوي لبيان أثر الإعتصام بالكتاب والسنة في تزكية النفس ٩٠
الفصل الثالث : الإيمان بالقضاء والقدر ٩٤
تعريف القضاء والقدر ٩٤
نصوص من الكتاب والسنة ٩٥
ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر ٩٨
وصايا نبوية لتدريب النفس على الرضا بالقضاء والقدر ١٠٠
الفصل الرابع : الإيمان باليوم الآخر ١٠٥
أهميته ١٠٥
آثاره على النفس الإنسانية ١٠٨
الباب الثالث : الأساليب العملية في تزكية النفس ١١٣
* تمهيد ١١٤
الفصل الأول : العلم النافع ١١٧
* فضله ١١٧
* شرطان لابد منهما لكي يؤدي العلم دوره في التزكية ١٢١
١ ـ العلم والعمل ١٢١
٢ ـ تجنب المراء والخصام في مسائل العلم ١٢٤
* آثار العلم النافع في مجال التزكية ١٢٦
الفصل الثاني : العمل الصالح ١٣٠
* تمهيد ١٣١
المبحث الأول : الصلاة ١٣٣
* فضلها ومنزلتها ١٣٣
* شرطان لابد منهما لكي تؤدي الصلاة دورها في التزكية ١٣٤
١ ـ إتمام الصلاة وإتقانها والمحافظة عليها ١٣٤
٢ ـ الخشوع في الصلاة ١٣٦
* أهمية الصلاة وآثارها في تزكية النفس ١٤١

١ ـ الاستجابة لأمر الله وإظهار العبودية له سبحانه ١٤١
٢ ـ مناجاة العبد لربه ١٤٣
٣ـ طمأنينة النفس وراحتها ١٤٤
٤ ـ الصلاة حاجز عن المعاصي ١٤٥
٥ ـ الصلاة تكفير للسيئات ورفع للدرجات ١٤٦
٦ ـ الصلاة تدريب عملي على مجاهدة النفس ١٤٧
٧ ـ الصلاة تطهر النفس من الأنانية والأحقاد ١٤٨
المبحث الثاني : الزكاة والصدقات ١٥٠
* فضلها ومنزلتها ١٥٠
* شرطان لابد منهما لكي تؤدي الزكاة والصدقات دورها في التزكية ١٥١
١ ـ البعد عن الرياء والتباهي والمنّ على الفقير ١٥١
٢ ـ أن ينفق مما يجب وليس مما يكره وأن تكون نفسه راضيه ١٥٣
* آثار الزكاة والصدقات في مجال تزكية النفس ١٥٤
١ ـ الزكاة اختبار عملي لاستجابة المؤمن لأمر ربه ١٥٥
٢ ـ تطهير النفس من آفة الشح ١٥٥
٣ـ تطهير نفس الفقير وتزكيتها ١٥٧
٤ ـ شكر النعمة ومعرفة قدرها ١٥٩
المبحث الثالث : الصيام ١٦٢
* فضله ومنزلته ١٦٢
* شرطان لابد منهما لكي يؤدي الصيام دوره في التزكية ١٦٤
١ ـ أن يكون الصيام إيماناً واحتساباً ١٦٤
٢ ـ الابتعاد عن المعاصي ١٦٦
* آثار الصيام في مجال تزكية النفس ١٦٧
١ ـ تدريب النفس على كمال العبودية لله سبحانه ١٦٧
٢ ـ تقوية الإرادة والتدريب على الصبر ١٦٩
٣ـ التدريب على مجاهدة النفس ١٧٠

٤ ـ التعريف بقدر النعم ١٧٢

المبحث الرابع : الحج ١٧٤

* فضلة ومنزلته ١٧٤

* شرطان لابد منهما لكي يؤدي الحج دوره ف التزكية ١٧٤

١ـ الإخلاص لله وحده وتجنب الرياء والسمعة ١٧٥

٢ـ تجنب الرفث والفسوق والجدال ١٧٥

* آثار الحج وثمراته في مجال تزكية النفس ١٧٦

١ ـ الحج تدريب عملي على امتثال أمر ا لله سبحانه ١٧٧

٢ ـ الحج غذاء للروح ١٧٨

٣ ـ الحج جهاد للنفس وتدريب لها على تحمل المشاق ١٧٩

٤ ـ الحج علاج لأمراض النفس وآفاتها ١٨٠

المبحث الخامس : الجهاد بأنواعه ١٨٢

* أهمية الجهاد ومجالاته ١٨٢

* شرطان لابد منهما لكي يؤدي الجهاد دوره في التزكية ١٨٦

١ ـ الإخلاص لله سبحانه ١٨٦

٢ ـ العمل بما يدعو إليه ويأمر الناس به في جهاد الدعوة ١٨٧

* آثار الجهاد البياني والقتالي في مجال تزكية النفس ١٨٩

١ ـ الجهاد تحرير للنفس من حب الحياة والتعلق بها ١٨٩

٢ ـ الجهاد تمحيص للنفس وتدريب لها على الصبر والفداء ١٩٠

٣ ـ الجهاد عزة للنفس وقوة لها ١٩٢

المبحث السادس :

النوافل (تلاوة القرآن الكريم ـ الذكر والدعاء ـ قيام الليل) ١٩٤

* فضلها ومنزلتها ١٩٤

* شرطان لابد منهما لكي تؤدي النوافل دورها في التزكية ١٩٦

١ ـ ترك الإصرار على المعاصي ١٩٦

٢ ـ حضور القلب ١٩٩

أمور تساعد على حضور القلب واستجلاب الخشوع ٢٠١
١ ـ التدبر ٢٠١
٢ ـ البكاء ٢٠٢
٣ ـ اغتنام فترات النشاط والراحة ٢٠٣
٤ ـ اغتنام الأوقات والأماكن الفاضلة ٢٠٦
* آثار النوافل في مجال تزكية النفس ٢٠٧
١ ـ المناجاة بين العبد وربه ، والتحقق بمقام العبودية ٢٠٨
٢ ـ غذاء القلب وزيادة الإيمان ٢١٠
٣ ـ شفاء النفس وغرس الطمأنينة فيها ٢١٣
الفصل الثالث : المحاسبة والتوبة ٢١٨
المبحث الأول : المحاسبة ٢١٨
* الأدلة على ضرورة المحاسبة لكل مسلم ٢١٨
* أمور تعين على المحاسبة وتقوي بواعثها في النفس ٢٢١
١ ـ استشعار رقابة الله على العبد وإطلاعه على خفاياه ٢٢١
٢ ـ تذكر الحساب الأكبر والسؤال يوم القيامة ٢٢٢
٣ ـ مطالعة سيرة الرسول ﷺ وأصحابه والسلف الصالح ٢٢٤
* طريقة محاسبة النفس ومجالاتها ٢٢٤
١ ـ المحاسبة على المعاصي الظاهرة والباطنة ٢٢٥
٢ ـ المحاسبة على النية والقصد ٢٢٧
٣ ـ المحاسبة على تفويت الطاعات وتضييع الأوقات ٢٢٨
٤ ـ المحاسبة على النعم ٢٣٠
* أفضل الأوقات للمحاسبة ٢٣١
المبحث الثاني : التوبة ٢٣٤
* أهميتها وضرورتها ٢٣٥
* التعجيل بالتوبة ٢٣٧
* حاجة الأبرار إلى التوبة والاستغفار ٢٣٩

* آثار التوبة في مجال تزكية النفس ٢٤٠
١ ـ تذلل العبد لربه وتحققه بصدق العبودية له سبحانه ٢٤٠
٢ ـ تطهير النفس وانشراح الصدر ٢٤١
٢ ـ الرجاء والمسارعة إلى العمل الصالح ٢٤٢
* قصة مؤثرة ٢٤٣
الفصل الرابع : مجاهدة النفس ٢٤٦
* معنى المجاهدة ٢٤٦
* الأدلة على وجوب وفضل مجاهدة النفس ٢٤٧
* خطر النفس وضرورة مجاهدتها ٢٥٠
* طريقة المجاهدة والعوامل الميسرة لها ٢٥٣
١ ـ المداومة على العمل الصالح ٢٥٣
٢ ـ البعد عن مواطن المعاصي ٢٥٤
٣ ـ التدرج في مجاهدة النفس ٢٥٥
٤ ـ معاقبة النفس والتشديد عليها ٢٥٦
٥ ـ ترويح النفس ٢٥٨
* مجاهدة النفس على الخواطر ٢٦٠
* صلة المجاهدة بالدعوة ٢٦٢
الفصل الخامس : صحبة الصالحين والتأمل في أخبارهم ٢٦٤
* الأدلة على ضرورة الصحبة الصالحة ٢٦٤
* آثار الصحبة الصالحة في مجال تزكية النفس ٢٦٨
١ ـ الحب في الله ٢٦٨
٢ ـ التناصح والتواصي ٢٦٩
٣ ـ القدوة الحسنة ٢٧١
* البحث عن الصحبة الصالحة ٢٧٤
* التأمل في سير الصالحين ومطالعة أخبارهم ٢٧٦
الفصل السادس : الزواج ٢٨٠

* أهمية الزواج ٢٨٠
* الشروط الواجب توفرها في الزواج ليحقق ثمراته في التزكية ٢٨٢
١ ـ تصحيح النية والقصد ٢٨٢
٢ ـ اختيار الزوجة الصالحة والزوج الصالح ٢٨٢
٣ ـ وقاية الأسرة من الأخطار ٢٨٤
* آثار الزواج وثمراته في مجال تزكية النفس ٢٨٥
١ ـ تحقيق السكن النفسي ٢٨٥
٢ ـ تحصين النفس ٢٨٦
٣ ـ التعاون بين الزوجين على طاعة الله ٢٨٧
الفصل السابع : التفكر في المخلوقات ٢٩٠
* دعوة القرآن الكريم إلى التفكر ٢٩٠
* مجالات التفكر وآثاره في تزكية النفس ٢٩٣
١ ـ إيقاظ الفطرة وتحرير العقل من تسلط الهوى ٢٩٣
٢ ـ ترسيخ الإيمان ٢٩٤
٣ ـ اعتراف الإنسان بضعفه وافتقاره إلى ربه ٢٩٥
٤ ـ اقتباس الدروس والعبر ٢٩٦
الفصل الثامن : تذكر الموت وأهوال القيامة ٢٩٨
* الأدلة على وجوب تذكر الموت والاستعداد له ٢٩٨
* آثار تذكر الموت وأهوال القيامة في مجال تزكية النفس ٣٠٣
١ ـ التحرر من أسر الدنيا والشغف بها ٣٠٣
٢ ـ التحرر من مخاوف الدنيا ٣٠٤
٣ ـ التزام التقوى والمسارعة إلى العمل الصالح ٣٠٥
٤ ـ أخذ الدروس والعبر ٣٠٥
الفصل التاسع : الترغيب والترهيب ٣٠٨
* أهمية الترغيب والترهيب وآثارهما في التزكية ٣٠٨
* نماذج من الأحاديث النبوية في الترغيب والترهيب ٣١٠

الفصل العاشر : الأساليب المساعدة في تزكية النفس ٣١٤
المبحث الأول : القصة ٣١٤
المبحث الثاني : ضرب الأمثال ٣٢٠
المبحث الثالث : الشعر ٣٢٥
ـ الباب الرابع : أمراض النفس ومعوقات تزكيتها وعلاج ذلك ٣٣١
ـ تمهيد ٣٣٢
الفصل الأول : أمراض النفس وعلاجها ٣٣٤
المبحث الأول : صحة القلب ومرضه ٣٣٥
* الحد الفاصل بين القلب السليم والقلب المريض ٣٤٢
المبحث الثاني : أمراض بسبب الشبهات ٣٥٠
أولاً ـ الشرك ٣٥١
ثانياً ـ النفاق ٣٥٦
نفاق الأعمال ٣٥٦
ثالثاً ـ البدعة ٣٦٥
١ ـ بدعة الإرجاء ٣٦٦
٢ ـ بدعة الجبر ٣٦٩
* العلاج من أمراض الشبهات ٣٧٢
١ ـ الاعتصام بالكتاب والسنة ٣٧٢
٢ ـ الحرص على العلم النافع من أهله ٣٧٣
المبحث الثالث : أمراض بسبب الشهوات ٣٧٥
أولاً ـ شهوتا حب النفس وحب الجاه ٣٧٨
* أمراض النفس التي تنتج عن هاتين الشهوتين ٣٨٠
١ ـ الرياء ٣٨٠
٢ ـ الكبر والتعالي على الناس ٣٨٣
٣ ـ الإعجاب بالنفس وحب المدح من الناس ٣٨٤
٤ ـ الأنانية والشح والحسد ٣٨٧

٥ ـ كثرة الغضب ٣٨٨
٦ ـ الذل والمداهنة ٣٩٠
ثانياً ـ شهوة حب المال ٣٩٩١
* نتائج طغيان شهوة حب المال ٣٩٣
١ ـ الصد عن طاعة ا لله والوقوع في المعاصي ٣٩٣
٢ ـ الشح والطمع ٣٩٥
٣ ـ الخوف والهلع ٣٩٧
ثالثاً ـ شهوة البطن ٤٠٢
رابعاً ـ شهوة الفرج ٤٠٨
* نتائج طغيان شهوة الفرج ٤١١
١ ـ قسوة القلب وضعف الإيمان ٤١١
٢ ـ كثرة الوقوع في المعاصي ٤١٢
٣ ـ ذهاب الحياء ٤١٣
* التدابير الوقائية التي شرعها الإسلام للحماية من طغيان شهوة الفرج ٤١٤
١ ـ غض البصر وستر العورة ٤١٤
٢ ـ تحريم الاختلاط والأمر بحجاب النساء ٤١٥
٣ ـ الترغيب في الصيام لتسكين الشهوة ٤١٦
علاج طغيان الشهوات ٤١٨
أولاً ـ مجاهدة النفس ومحاسبتها ٤١٨
ثانياً ـ الإكثار من الباقيات الصالحات ٤٢١
ثالثاً ـ العقوبات التأديبية ٤٢٣
الفصل الثاني : معوقات تزكية النفس ٤٢٧
المبحث الأول : تأثير الشيطان ٤٢٧
* أسباب تمكن الشيطان من إفساد بعض النفوس ٤٢٩
١ ـ استغلاله لأهواء النفس وأمراض القلب ٤٣٠
٢ ـ التزيين والخداع ٤٣١

٣ ـ التدرج في الإغواء ٤٣٢
* شبهات خطيرة يلقيها الشيطان في النفس ٤٣٣
* نماذج للحيل النفسية التي تزينها وساوس الشيطان ٤٣٤
١ ـ العائق الوحيد ٤٣٥
٢ ـ الكمال الزائف ٤٣٦
٣ ـ تضخيم جانب على حساب جانب آخر ٤٣٧
* العلاج من مداخل الشيطان ٤٣٨
١ ـ الاستعاذة ٤٣٩
٢ ـ ذكر الله تعالى ٤٤٠
المبحث الثاني : تأثير الأسرة والمجتمع ٤٤٣
* العلاج ٤٤٦
١ ـ تقوية الإيمان ٤٤٦
٢ ـ بناء الأسرة على أساس التقوى ٤٤٨
٣ ـ صحبة الصالحين وتجنب صحبة الأشرار ٤٤٨
٤ ـ إصلاح المجتمع ٤٤٨
٥ ـ الهجرة والعزلة ٤٤٩
الباب الخامس : مفاهيم منحرفة في تزكية النفس والرد عليها ٤٥٠
ـ تمهيد عن نشأة التصوف وموقف علماء السلف منه ٤٥١
* أبرز انحرافات الصوفية في مجال تزكية النفس ٤٥٦
الفصل الأول : التزكية والشيخ المرشد ٤٥٧
١ ـ ادعاؤهم بأنه لا يجوز للمريد أن يتخذ أكثر من شيخ ٤٥٧
٢ ـ ادعاؤهم بأن الشيخ هو الواسطة بين العبد وربه ٤٥٩
٣ ـ الطاعة المطلقة للشيخ والغلو في محبته وأوصافه ٤٦٠
الفصل الثاني : التزكية وإرهاق النفس ٤٦٤
الفصل الثالث : تزكية النفس والزهد ٤٧٠
الفصل الرابع : تزكية النفس والعزلة ٤٧٩

- نصوص تؤكد الغلو في العزلة ٤٨٠
- مناقشة دعوى العزلة المطلقة ٤٨٢
الفصل الخامس : تزكية النفس والرهبانية ٤٩١
- نماذج للمنهج النبوي في التحذير من الرهبانية ٤٩٢
الباب السادس : ثمرات تزكية النفس بالمنهج الإسلامي ٤٩٨
- تمهيد ٤٩٩
الفصل الأول : سعادة الدنيا ٥٠١
المبحث الأول : سعادة الفرد ٥٠١
١ - حلاوة الإيمان ٥٠٢
٢ - بذل النفس والمال في سبيل الله ٥٠٦
٣ - عزة النفس ٥١٠
٤ - غنى النفس ٥١٣
٥ - سكنية النفس ٥١٥
٦ - سمو النفس وعلو الهمة ٥١٨
٧ - حسن الخلق ٥٢١
٨ - الحياة الطيبة ٥٢٣
٩ - الفراسة والحكمة ٥٢٧
١٠ - صحة الجسد ٥٢٩
المبحث الثاني : سعادة المجتمع ٥٣٢
١ - الأخوة والمحبة ٥٣٣
٢ - التكافل والتراحم ٥٣٣
٣ - الأمن والوقاية من الجرائم ٥٣٩
٤ - العز والتمكين ٥٤٢
الفصل الثاني : سعادة الآخرة ٥٤٤
المبحث الأول : السعادة عند سكرات الموت ٥٤٦
المبحث الثاني : السعادة في القبر ٥٥٠

المبحث الثالث : السعادة عند الحشر والحساب والصراط ٥٥٣
المبحث الرابع : السعادة العظمى ببلوغ الجنة ورؤية وجه الله سبحانه ٥٦٢
الخاتمة ٥٦٧
المصادر والمراجع ٥٧٢
فهرس الموضوعات ٥٨٨